

لِقْدِيرُ الْقَرْآنُ الْعَظِيمُ

لِإِمامِ الْحَافِظِ يَحَادِ الدِّينِ أَبِي الْفَدَاءِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عُمَرَ
ابْنِ كَثِيرِ الدِّهْشَقِيِّ
الْمُسَوْقِ سَنَةَ ٧٧٤ هـ

وَضَعَ حَكَاشِيهَ وَعَلَوَ عَلَيْهِ
مُحَمَّدُ شَعْرَانُ الدِّينِ

الْجُزْءُ الرَّابِعُ

المحتوى:

مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْأَنْفَالِ - إِلَى آخِرِ سُورَةِ النَّحْلِ

مَسْنُوَاتٌ
مُحَمَّدُ لَيْلَى بِهِنْتِن
دَارُ الْكِتَبِ الْعُلُومِيةِ
بِرْدُونَ - تِنْدَنَ

جميع الحقوق محفوظة

جميع حقوق الملكية الادبية والفنية محفوظة لدار الكتب
العلمية بيروت - لبنان ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة
أو إعادة تضليل الكتاب كاملاً أو جزءاً أو تسجيله على أشرطة
كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على أسطوانات
مدمجة إلا موافقة الناشر خطياً.

Copyright ©
All rights reserved

Exclusive rights by DAR al-KOTOB al-ILMIYAH Beirut - Lebanon. No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

العنوان : رمل الظريف، شارع البحيري، بناية ملకارت
تلفون وفاكس : ٣٦٦٢٥ - ٣٦٦٢٨ - ٠٠٩٦١١ (١٢١٢٢)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ - بيروت - لبنان

DAR al-KOTOB al-ILMIYAH
Beirut - Lebanon

Address : Ramel al-Zarif, Bohtory st., Melkart bldg., 1st Floore.
Tel. & Fax : 00 (961 1) 60.21.33 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

ISBN 2-7451-2221-5

9 0 0 0 0 >



9 7 8 2 7 4 5 1 2 2 2 1 6

<http://www.al-ilmiyah.com.lb/>
e-mail : baydoun@dm.net.lb

سورة الأنفال

وهي مدنية. آياتها سبعون وست آيات. كلماتها ألف كلمة وستمائة كلمة وإحدى وثلاثون كلمة. حروفها خمسة آلاف ومائتان وأربعة وتسعون حرفاً والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَشْكُلُونَكُمْ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلْ أَنْفَالُ اللَّهِ وَالرَّسُولِ فَانْقُلُوا إِلَهُكُمْ وَأَطْبِعُوا إِلَهُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ
إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

قال البخاري^(١): قال ابن عباس: الأنفال المعانم، حدثنا محمد بن عبد الرحيم حدثنا سعيد بن سليمان، أخبرنا هشيم أخينا أبو بشر، عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس رضي الله عنهما سورة الأنفال قال: نزلت في بدر. أما ما علقه عن ابن عباس فكذلك رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال: الأنفال الغنائم^(٢)، كانت لرسول الله ﷺ خالصة ليس لأحد منها شيء، وكذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء والضحاك وقتادة وعطاء الخراساني ومقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد أنها المعانم، وقال الكلبي، عن أبي صالح عن ابن عباس أنه قال: الأنفال الغنائم، قال فيها ليدي: [الرمل]

إِنْ تَقْوَى رِبُّا خَيْرٌ نَفْلٌ وَبِإِذْنِ اللَّهِ رِيشٌ وَعَجَلٌ^(٣)

وقال ابن جرير^(٤): حدثني يونس أخبرنا ابن وهب أخبرني مالك بن أنس عن ابن شهاب عن القاسم بن محمد قال: سمعت رجلاً يسأل ابن عباس عن الأنفال، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: الفرس من النفل والسلب من النفل. ثم عاد لمسألته فقال ابن عباس ذلك أيضاً ثم قال الرجل: الأنفال التي قال الله في كتابه ما هي؟ قال القاسم فلم يزل يسأله حتى كاد يحرجه، فقال ابن عباس: أتدركون ما مثل هذا مثل صبيح الذي ضربه عمر بن الخطاب.

وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهرى عن القاسم بن محمد قال: قال ابن عباس: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إذا سئل عن شيء قال لا أمرك ولا أنهاك. ثم قال

(١) كتاب التفسير، تفسير سورة الأنفال، باب ١.

(٢) انظر تفسير الطبرى ١٦٨/٦.

(٣) البيت في ديوان ليدي ص ١٧٤ ، ولسان العرب (نفل) ومقاييس اللغة ٤٦٤ / ٢ ، وتاح العروس (نفل)، وبروى «ريشي والعجل» بدل «ريشي وعجل».

(٤) تفسير الطبرى ١٧٠/٦.

ابن عباس: والله ما بعث الله نبيه ﷺ إلا زاجراً أمراً محلاً محراً. قال القاسم فسلط على ابن عباس رجل فسألة عن الأنفال فقال ابن عباس: كان الرجل ينفل فرس الرجل وسلامه، فأعاد عليه الرجل فقال له مثل ذلك، ثم عاد عليه حتى أغضبه، فقال ابن عباس: أتدرون ما مثل هذا؟ مثل صبيغ الذي ضربه عمر بن الخطاب حتى سالت الدماء على عقيبه أو على رجليه، فقال الرجل أما أنت فقد انتقم الله لعمر منك^(١).

وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس، أنه فسر النفل بما ينفله الإمام لبعض الأشخاص من سلب أو نحوه بعد قسم أصل المغنم وهو المتبادر إلى فهم كثير من الفقهاء من لفظ النفل، والله أعلم.

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: إنهم سألوا رسول الله ﷺ عن الخمس بعد الأربعة من الأخمس، فنزلت ﴿يُسْأَلُونَكُمْ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾^(٢) وقال ابن مسعود ومسروق: لا نفل يوم الزحف، إنما النفل قبل التقاء الصوفوف، رواه ابن أبي حاتم عنهما، وقال ابن المبارك وغير واحد عن عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء بن أبي رباح في الآية ﴿يُسْأَلُونَكُمْ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ قال يسألونك فيما شذ من المشركين إلى المسلمين في غير قتال، من دابة أو عبد أو أمة أو متعاف فهو نفل للنبي ﷺ يصنع به ما يشاء^(٣)، وهذا يقتضي أنه فسر الأنفال بالفيء وهو ما أخذ من الكفار من غير قتال.

قال ابن جرير^(٤): وقال آخرون: هي أنفال السرايا حدثني الحارث حدثنا عبد العزيز حدثنا علي بن صالح بن حبيبي، قال بلغعني في قوله تعالى: ﴿يُسْأَلُونَكُمْ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ قال السرايا^(٥)، ومعنى هذا ما ينفله الإمام لبعض السرايا زيادة على قسمهم مع بقية الجيش. وقد صرخ بذلك الشعبي، واحتار ابن جرير أنها زيادة على القسم.

ويشهد لذلك ما ورد في سبب نزول الآية وهو ما رواه الإمام أحمد^(٦)، حيث قال: حدثنا أبو معاوية حدثنا أبو إسحاق الشيباني عن محمد بن عبيد الله الثقفي عن سعد بن أبي وقاص قال: لما كان يوم بدر وقتل أخي عمير قتلت سعيد بن العاص وأخذت سيفه، وكان يسمى ذا الكتيبة، فأتيت به النبي ﷺ فقال: «اذهب فاطرحة في القبر» قال فرجعت وبي ما لا يعلمه إلا الله، من قتل أخي وأخذ سيفي، قال فما جاوزت إلا يسيراً

(١) انظر تفسير الطبرى ١٧٠/٦.

(٢) تفسير الطبرى ١٧٠/٦.

(٣) تفسير الطبرى ١٦٩/٦.

(٤) تفسير الطبرى ١٦٩/٦.

(٥) تفسير الطبرى ١٦٩/٦.

(٦) المستند ١/١٨٠.

حتى نزلت سورة الأنفال، فقال لي رسول الله ﷺ «اذهب فخذ سلبك».

وقال الإمام أحمد^(١) أيضاً: حدثنا أسود بن عامر، أخبرنا أبو بكر عن عاصم بن أبي الجحود عن مصعب بن سعد عن سعد بن مالك، قال: قلت يا رسول الله قد شفاني الله اليوم من المشركين، فهبه لي هذا السيف، فقال: «إن هذا السيف لا لك ولا لي، ضعه» قال: فوضعته، ثم رجعت فقلت: عسى أن يعطي هذا السيف من لا يبلي بلائي، قال: فإذا رجل يدعوني من ورائي قال: قلت قد أنزل الله في شيئاً؟ قال: كنت سألكني السيف وليس هو لي، وإنه قد وهب لي، فهو لك. قال: وأنزل الله هذه الآية «يُسَأَّلُونَكُمْ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ»^(٢).

ورواه أبو داود والترمذى والنسائى من طرق عن أبي بكر بن عياش به، وقال الترمذى: حسن صحيح، وهكذا رواه أبو داود الطیالسی، أخبرنا شعبة أخبرنا سماعاً بن حرب قال سمعت مصعب بن سعد يحدث عن سعد، قال: نزلت في أربع آيات، أصبحت سيفاً يوم بدر فأتيت النبي ﷺ فقلت نفلئي، فقال «ضعه من حيث أخذته» مرتين، ثم عاودته فقال النبي ﷺ «ضعه من حيث أخذته» فنزلت هذه الآية «يُسَأَّلُونَكُمْ عَنِ الْأَنْفَالِ» الآية وتمام الحديث، في نزول «ووصينا الإنسان بوالديه حسناً» [العنكبوت: ٨] وقوله تعالى: «إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ» [المائدة: ٩٠] وأيَّة الوصيَّة وقد رواه مسلم^(٣) في صحيحه من حديث شعبة به.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر عن بعض بنى ساعدة قال: سمعت أبا أسيد مالك بن ربيعة يقول: أصبحت سيف ابن عائذ يوم بدر، وكان السيف يدعى بالمرزبان، فلما أمر رسول الله ﷺ الناس أن يردوا ما في أيديهم من النفل، أقبلت به فألقيته في النفل، وكان رسول الله ﷺ لا يمنع شيئاً يسأله، فرأه الأرقمن بن أبي الأرقمن المخزوبي، فسأله رسول الله ﷺ فأعطاه إياه^(٤)، ورواه ابن جرير^(٥) من وجه آخر.

(سبب آخر في نزول الآية)

وقال الإمام أحمد^(٦): حدثنا محمد بن سلمة عن ابن إسحاق عن عبد الرحمن عن

(١) المستند ١٧٨/١.

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد باب ١٤٥، والترمذى في تفسير سورة ٨، باب ١، والدارمى في الوصايا باب ٤.

(٣) كتاب فضائل الصحابة حديث ٤٣.

(٤) تفسير الطبرى ١٧٣/٦.

(٥) تفسير الطبرى ١٧٣/٦.

(٦) المستند ٣٢٢/٥.

سليمان بن موسى عن مكحول عن أبي أمامة قال: سألت عبادة عن الأنفال فقال: فيما أصحاب بدر، نزلت حين اختلفنا في النفل وساعات فيه أخلاقنا فانتزعه الله من أيدينا وجعله إلى رسول الله ﷺ فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين، عن بواء يقول عن سوء.

وقال الإمام أحمد^(١) أيضاً: حدثنا أبو معاوية بن عمر أخبرنا أبو إسحاق عن عبد الرحمن بن الحارث بن عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة، عن سليمان بن موسى عن أبي سلامة عن أبي أمامة عن عبادة بن الصامت، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه بدرأً، فالتقى الناس، فهزم الله تعالى العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون، وأقبلت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة، حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويتها فليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجنوا في طلب العدو: لست بأحق به منا، نحن منعنا عنه العدو وهزمناه، وقال الذين أحذقوا برسول الله ﷺ: خفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به، فنزلت **﴿يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بيتك﴾** فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين وكان رسول الله ﷺ إذا أغار في أرض العدو نفل الرابع، فإذا أقبل راجعاً نفل الثالث، وكان يكره الأنفال^(٢)، ورواه الترمذى وابن ماجه من حديث سفيان الثورى عن عبد الرحمن بن الحارث به نحوه، قال الترمذى: هذا حديث حسن.

ورواه ابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه، من حديث عبد الرحمن بن الحارث، وقال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه، وروى أبو داود والنسيائي وابن جرير وابن مردويه واللفظ له، وابن حبان والحاكم من طرق عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس، قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ «من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا» فتسارع في ذلك شبان القوم وبقي الشيوخ تحت الرياحات، فلما كانت المغانم جاؤوا يطلبون الذي جعل لهم، فقال الشيوخ: لا تستأثروا علينا فإننا كنا رداء لكم لو انكشفتم لفتنتم إلينا. فانتزعوا فأنزل الله تعالى: **﴿يسألونك عن الأنفال﴾** - إلى قوله - **﴿وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾**^(٣).

وقال الثورى عن الكلبى عن أبي صالح عن ابن عباس، قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ «من قتل قيلاً فله كذا وكذا، ومن أتى أسيراً فله كذا وكذا». فجاء أبو اليسر بأسيرين فقال: يا رسول الله صلى الله عليك، أنت وعدتنا، فقام سعد بن عبادة فقال:

(١) المسند / ٣٢٤ / ٥.

(٢) أخرجه الترمذى في السير باب ١٢ ، وابن ماجه في الجهاد باب ٣٥.

(٣) أخرجه أبو داود في الجهاد باب ١٤٤ .

يا رسول الله، إنك لو أعطيت هؤلاء لم يبق لأصحابك شيء، وإنه لم يمنعنا من هذا زهادة في الأجر، ولا جبن عن العدو، وإنما قمنا هذا المقام محافظة عليك مخافة أن يأتوك من ورائك، فتشاجروا ونزل القرآن **﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ﴾**، قال ونزل القرآن **﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَأَنَّ اللّهَ خَمْسُهُ﴾** [الأنفال: ٤١] إلى آخر الآية.

وقال الإمام أبو عبيد الله القاسم بن سلام، رحمة الله، في كتاب الأموال الشرعية وبيان جهاتها ومصارفها، أما الأنفال فهي المغانم وكل نيل ناله المسلمون من أموال أهل الحرب، فكانت الأنفال الأولى لرسول الله ﷺ، يقول الله تعالى: **﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ﴾**، فقسمها يوم بدر على ما أراه الله من غير أن يخسمها على ما ذكرناه في حديث سعد، ثم نزلت بعد ذلك آية الخمس فنسخت الأولى.

قلت هكذا روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس سواء، وبه قال مجاهد وعكرمة والسدي. وقال ابن زيد: ليست منسوخة بل هي محكمة.

قال أبو عبيد وفي ذلك آثار، والأنفال أصلها جماع الغنائم، إلا أن الخمس منها مخصوص لأهله على ما نزل به الكتاب وجرت به السنة، ومعنى الأنفال في كلام العرب كل إحسان فعله فاعل تفضلاً، من غير أن يجب ذلك عليه، فذلك التفل الذي أحله الله للمؤمنين من أموال عدوهم، وإنما هو شيء خصهم الله به تطولاً منه عليهم بعد أن كانت الغنائم محرمة على الأمم قبلهم، فنفلها الله تعالى هذه الأمة، فهذا أصل التفل.

قلت: شاهد هذا ما في الصحيحين عن جابر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلـي - فذكر الحديث إلى أن قال - وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلـي»^(١). وذكر تمام الحديث، ثم قال أبو عبيد: ولهذا سمي ما جعل الإمام للمقاتلة نفلاً، وهو تفضيله بعض الجيش على بعض بشيء سوى سهامهم يفعل ذلك بهم على قدر الغناء عن الإسلام والنكاية في العدو.

وفي التفل الذي ينفله الإمام سنن أربع لكل واحدة منهن موضع غير موضع الأخرى [فإِحْدَاهُنَّ] في التفل لا خمس فيه وذلك السلب، [والتَّانِيَةُ] التفل الذي يكون من الغنيمة بعد إخراج الخمس وهو أن يوجه الإمام السرايا في أرض الحرب، فتأتي بالغنائم، فيكون للسرية مما جاءت به الربيع أو الثالث بعد الخمس، [والتَّالِيَةُ] في التفل من الخمس نفسه، وهو أن تحاز الغنيمة كلها، ثم تخمس فإذا صار الخمس في يدي الإمام، نفل منه على قدر ما يرى. [والتَّارِيَةُ] في التفل في جملة الغنيمة قبل أن يخمس منها شيء، وهو أن

(١) أخرجه البخاري في التيمم باب ١، والخمس باب ٨، ومسلم في المساجد حديث ٣، ٥، والترمذى في السير باب ٢٩.

يعطي الأدلة ورعة الماشية والسوق لها. وفي كل ذلك اختلاف.

قال الريبع: قال الشافعى: الأنفال أن لا يخرج من رأس الغيمة قبل الخمس شيء غير السلب. قال أبو عبيد: والوجه الثاني من النفل هو شيء زيدوه غير الذي كان لهم وذلك من خمس النبي ﷺ، فإن له خمس الخمس من كل غنية، فينبغي للإمام أن يجتهد، فإذا كثر العدو واشتدت شوكتهم وقل من بازاته من المسلمين، نفل منه اتباعاً لسنة رسول الله ﷺ وإذا لم يكن ذلك لم ينفل.

[والوجه الثالث] من النفل إذا بعث الإمام سرية أو جيشاً فقال لهم قبل اللقاء من غنم شيئاً، فهو له، بعد الخمس فهو لهم على ما شرط الإمام، لأنهم على ذلك غزوا وبه رضوا، انتهى كلامه. وفيما تقدم من كلامه وهو قوله: إن غنائم بدر لم تخمس نظر. ويرد عليه حديث علي بن أبي طالب، في شارفه اللذين حصلوا له من الخمس يوم بدر، وقد بين ذلك في كتاب السيرة بياناً شافياً، والله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنَكُمْ» أي اتقوا الله في أموركم وأصلحوا فيما بينكم ولا ظالموا ولا تخاصموا ولا تشارجوها فما أتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تختصمون بسيبه «وَأطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ» أي في قسمه بينكم على ما أراده الله، فإنه إنما يقسمه كما أمره الله من العدل والإنصاف، وقال ابن عباس: هذا تحرير من الله ورسوله أن يتقو ويصلحوا ذات بينهم وكذا قال مجاهد، وقال السدي «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنَكُمْ» أي لا تستروا.

ولنذكر هنا حديثاً أورده الحافظ أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى الموصلي رحمه الله، في مسنده فإنه قال: حدثنا مجاهد بن موسى، حدثنا عبد الله بن بكر، حدثنا عباد بن شيبة الحبطي عن سعيد بن أنس عن أنس رضي الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ جالس إذ رأينا ضاحكاً حتى بدت ثنياه، فقال عمر: ما أضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي؟ فقال: «رجلان من أمتي جشاً بين يدي رب العزة تبارك وتعالى، فقال أحدهما: يا رب خذ لي مظلومي من أخي.

فقال الله تعالى، أعط أخيك مظلومته، قال: يا رب لم يبق من حسانتي شيء قال: رب فليحملعني من أوزاري». قال: ففاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء ثم قال «إن ذلك ليوم عظيم يوم يحتاج الناس إلى من يتحمل عنهم من أوزارهم، فقال الله تعالى للطالب: ارفع بصرك وانظر في الجنان فرفع رأسه فقال: يا رب أرى مداين من فضة وقصوراً من ذهب مكللة باللؤلؤ، لأي نبي هذا؟ لأي صديق هذا؟ لأي شهيد هذا؟ قال: هذا لمن أعطى ثمنه، قال رب ومن يملك ثمنه؟ قال أنت تملكه، قال: ماذا يا رب؟ قال: تعفو عن

أخيك ، قال : يا رب ، فإني قد عفوت عنه ، قال الله تعالى : خذ بيد أخيك ، فادخلا الجنة ». ثم قال رسول الله ﷺ « فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، فإن الله تعالى يصالح بين المؤمنين يوم القيمة » .

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلَيَّتْ عَلَيْهِمْ أَيْمَانُهُمْ رَأَدَهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ الَّذِينَ يُقْيِمُونَ الصَّلَاةَ وَمَمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۝ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ». قال : المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه . ولا يؤمّنون بشيء من آيات الله ولا يتوكّلون ولا يصلون إذا غابوا ولا يؤدون زكاة أموالهم ، فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين ، ثم وصف الله المؤمنين فقال « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم » فأدوا فرائضه « وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً » يقول زادتهم تصديقاً « وعلى ربهم يتوكّلون » يقول لا يرجون غيره^(١) .

وقال مجاهد « وجلت قلوبهم » فرقـت أي فزعـت وخافت ، وكـذا قال السـدي وغـير واحد^(٢) ، وهذه صـفة المؤـمن حقـ المؤـمن الذي إذا ذـكر الله وجـل قـلبـه أي خـاف منهـ ، فـفعلـ أوـامرـه وـتركـ زـواجرـه ، كـقولـه تعالى : « وـالذـين إـذـا فـعلـوا فـاحـشـةـ أوـ ظـلمـوا أـنـفسـهـمـ ذـكـرـوا اللهـ فـاستـغـفـرـوا لـذـنـوبـهـمـ وـمـنـ يـغـفـرـ الذـنـوبـ إـلاـ اللهـ وـلـمـ يـصـرـوا عـلـىـ ماـ فـعـلـواـ وـهـمـ يـعـلـمـونـ » ، [آل عمران: ١٣٥] وكـقولـه تعالى : « وـأـمـاـ مـنـ خـافـ مـقـامـ رـبـهـ وـنـهـيـ النـفـسـ عـنـ الـهـوـيـ فـإـنـ الـجـنـةـ هيـ المـأـوىـ » [الـنـازـعـاتـ: ٤ - ٥] ولـهـذـاـ قـالـ سـفيـانـ الثـورـيـ : سـمعـتـ السـدـيـ يـقـولـ فيـ قولـه تعالى : « إنـمـاـ الـمـؤـمـنـونـ الـذـينـ إـذـاـ ذـكـرـ اللهـ وـجـلـ قـلـوبـهـمـ » . قالـ : هوـ الرـجـلـ يـرـيدـ أـنـ يـظـلـمـ أـوـ قـالـ يـهـمـ بـمـعـصـيـةـ فـيـقـالـ لـهـ : اـتـقـ اللهـ فـيـجـلـ قـلـبـهـ .

وقال الثوري أيضاً عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء في قوله « إنـمـاـ الـمـؤـمـنـونـ الـذـينـ إـذـاـ ذـكـرـ اللهـ وـجـلـ قـلـوبـهـمـ » قالـ : الـوـجـلـ فـيـ القـلـبـ كـاحـتـرـاقـ السـعـفـةـ ، أـمـاـ تـجـدـ لـهـ قـشـعـرـيـةـ ؟ـ قـالـ : بـلـيـ .ـ قـالـ : إـذـاـ وـجـدـ ذـلـكـ فـادـعـ اللهـ عـنـ ذـلـكـ ، فـإـنـ الدـعـاءـ يـذـهـبـ ذـلـكـ^(٣) .

وقـولـهـ « وـإـذـاـ تـلـيـتـ عـلـىـهـمـ آـيـاتـهـ زـادـتـهـ إـيمـانـاـ » ، كـقولـهـ « وـإـذـاـ مـاـ أـنـزلـتـ سـوـرـةـ فـمـنـهـمـ يـقـولـ أـيـكـمـ زـادـتـهـ هـذـهـ إـيمـانـاـ فـأـمـاـ الـذـينـ آـمـنـواـ فـرـادـتـهـمـ إـيمـانـاـ وـهـمـ يـسـبـشـرونـ » [التـوـبـةـ: ٩] .

(١) انظر تفسير الطبرى ١٧٨/٦ .

(٢) تفسير الطبرى ١٧٨/٦ .

(٣) انظر تفسير الطبرى ١٧٨/٦ .

وقد استدل البخاري وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهها على زيادة الإيمان وتفاصله في القلوب، كما هو مذهب جمهور الأمة، بل قد حكى الإجماع عليه غير واحد من الأئمة كالشافعي وأحمد بن حنبل وأبي عبيد، كما بينا ذلك مستقى في أول شرح البخاري، والله الحمد والمنة.

﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي لا يرجون سواه ولا يقصدون إلا إياه ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحاجات إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان، وما لم يشاً لم يكن، وأنه المتصرف في الملك، وحده لا شريك له ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب، ولهذا قال سعيد بن جبير: التوكيل على الله جماع الإيمان. قوله ﴿الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾ يتبه تعالى بذلك على أعمالهم بعدما ذكر اعتقادهم وهذه الأعمال تشمل أنواع الخير كلها، وهو إقامة الصلاة وهو حق الله تعالى.

وقال قتادة: إقامة الصلاة المحافظة على مواقفها ووضوئها وركوعها وسجودها، وقال مقاتل بن حيان: إقامتها المحافظة على مواقفها وإسباغ الطهور فيها وتمام رکوعها وسجودها وتلاوة القرآن فيها والتشهد والصلاحة على النبي ﷺ هذا إقامتها، والإنفاق مما رزقهم الله يشمل إخراج الزكاة وسائر الحقوق للعباد من واجب ومستحب. والخلق كلهم عباد الله فأحبابهم إلى الله أنفعهم لخلقه. قال قتادة في قوله ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾، فأنفقوا مما أعطاكم الله فإنما هذه الأموال عواري وودائع عندك يا ابن آدم أوشكك أن تفارقها.

وقوله ﴿أولئك هم المؤمنون حقاً﴾، أي المتصفون بهذه الصفات هم المؤمنون حق الإيمان. وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي، حدثنا أبو كريب حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا ابن لهيعة عن خالد بن يزيد السكري عن سعيد بن أبي هلال عن محمد بن أبي الجهم، عن الحارث بن مالك الأنصاري، أنه مر برسول الله ﷺ فقال له: «كيف أصبحت يا حارث؟» قال: أصبحت مؤمناً حقاً، قال: «انظر ما تقول، فإن لكل شيء حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟» فقال: عزفت نفسي عن الدنيا فأسررت ليلي وأظلمت نهاري، وكأنني أنظر إلى عرش ربى بارزاً، وكأنني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأنني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها. فقال: «يا حارث عرفت فالرزم» ثلاثة.

وقال عمرو بن مرة في قوله تعالى: ﴿أولئك هم المؤمنون حقاً﴾ إنما أنزل القرآن بلسان العرب كقولك فلان سيد حقاً، وفي القوم سادة. وفلان تاجر حقاً، وفي القوم تجار. وفلان شاعر حقاً، وفي القوم شعراء. قوله ﴿لهم درجات عند ربهم﴾ أي منازل ومقامات ودرجات في الجنات كما قال تعالى: ﴿هم درجات عند الله والله بصير بما

يعملون》 [آل عمران: ١٦٣] **﴿وَمَغْفِرَةً﴾** أي يغفر لهم السيئات ويشكر لهم نات. وقال الضحاك في قوله **﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾** أهل الجنة بعضهم فوق بعض، فيرى الذي هو فوق فضله على الذي هو أسفل منه، ولا يرى الذي هو أسفل منه أنه فضل عليه أحد.

ولهذا جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال «إن أهل عليين ليراهם من أسفل منهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق من آفاق السماء». قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا ينالها غيرهم فقال: «بلى والذى نفسي بيده، لرجال امنوا بالله وصدقوا المرسلين»^(١). وفي الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن من حديث أبي عطية عن ابن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ «إن أهل الجنة ليتراؤون أهل الدرجات العلى كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعموا»^(٢).

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبِّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فِرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكُرْهُونَ ۝ يُجَدِّلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا نَبَّئْنَ كَانَمَا يَسْأَوْنَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَظْرُونَ ۝ وَإِذَا يَعْدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الظَّلَامِيَّاتِ أَهْنَاهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَكَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُوْنُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَقِّلَ الْحَقَّ بِكَلْمَتِهِ وَيَقْطَعَ دَارِيَ الْكَفَرِيَّنَ ۝ لِيُعَقِّلَ الْحَقَّ وَبَيْطِلَ الْبَطْلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرُومُونَ ۝

قال الإمام أبو جعفر الطبرى^(٣): اختلف المفسرون في السبب الجالب لهذه الكاف في قوله **﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبِّكَ﴾**، فقال بعضهم شبه به في الصلاح للمؤمنين اتقاؤهم ربهم وإصلاحهم ذات بينهم وطاعتهم لله ورسوله، ثم روى عن عكرمة نحو هذا.

ومعنى هذا أن الله تعالى يقول كما أنكم لما اختلفتم في المغانم وتشاحنتم فيها فانتزعها الله منكم وجعلها إلى قسمه، وقسم رسوله ﷺ فقسمها على العدل والتسوية، فكان هذا هو المصلحة التامة لكم، وكذلك لما كرهتم الخروج إلى الأعداء من قتال ذات الشوكة، وهم النغير الذين خرجوا لنصر دينهم وإحراب عيرهم، فكان عاقبة كراهتكم للقتال بأن قدره لكم وجمع به بينكم وبين عدوكم على غير ميعاد رشداً وهدى، ونصرأً وفتحاً، كما قال تعالى: **﴿كَتَبْ عَلَيْكُمُ الْقَتْلَ وَهُوَ كَرِهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُون﴾** [البقرة: ٢١٦].

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ٨، والرقاق باب ٥١، ومسلم في الجنة حديث ١١، وأحمد في المسند ٣/٥٠.

(٢) أخرجه أبو داود في الحروف باب ١٩، وابن ماجه في المقدمة باب ١١، وأحمد في المسند ٣/٢٦.

قال ابن جرير^(١) وقال آخرون: معنى ذلك «كما أخرجك ربك من بيتك بالحق»، على كره من فريق من المؤمنين كذلك هم كارهون للقتال فهم يجادلونك فيه بعدما تبين لهم. ثم روي عن مجاهد نحوه أنه قال «كما أخرجك ربك» قال كذلك يجادلونك في الحق.

وقال السدي: أنزل الله في خروجه إلى بدر ومجادلتهم إيه، فقال «كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون» لطلب المشركين «يجادلونك في الحق بعد ما تبين»^(٢) وقال بعضهم يسألونك عن الأنفال مجادلة كما جادلوك يوم بدر فقالوا أخرجتنا للغير ولم تعلمنا قتالاً فستعد له.

قلت: رسول الله ﷺ إنما خرج من المدينة طالباً لغير أبي سفيان التي بلغه خبرها أنها صادرة من الشام فيها أموال جزيلة لقريش فاستنهض رسول الله ﷺ المسلمين من خف منهم فخرج في ثلاثة عشر رجلاً، وطلب نحو الساحل من على طريق بدر، وعلم أبو سفيان بخروج رسول الله ﷺ في طلبه، فبعث ضمضم بن عمرو نذيراً إلى أهل مكة، فنهضوا في قريب من ألف مقنع ما بين التسعمائة إلى الألف و蒂امن أبو سفيان بالغير إلى سيف البحر فنجا وجاء النفيث فوردوا ماء بدر، وجمع الله بين المسلمين والكافرين على غير ميعاد لما يريد الله تعالى من إلاء كلمة المسلمين ونصرهم على عدوهم والتفرقة بين الحق والباطل كما سيأتي بيانه، والغرض أن رسول الله ﷺ لما بلغه خروج النفيث أوحى الله إليه يده إحدى الطائفتين إما العير وإما النفيث، ورغب كثير من المسلمين إلى العير لأنه كسب بلا قتال، كما قال تعالى: «وتهدون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين».

قال الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره حدثنا سليمان بن أحمد الطبراني حدثنا يكر بن سهل، حدثنا عبد الله بن يوسف حدثنا ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب عن أسلم أبي عمران، حدثه أنه سمع أبا أيوب الأنباري يقول: قال رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة «إنني أخبرت عن غير أبي سفيان أنها مقبلة فهل لكم أن تخرج قبل هذه العير لعل الله أن يغنمها؟» فقلنا نعم فخرج وخرجنا فلما سرنا يوماً أو يومين، قال لنا «ما ترون في قتال القوم فإنهم قد أخبروا بمخرجكم؟» فقلنا لا والله ما لنا طاقة بقتال العدو ولكن أردنا العير، ثم قال «ما ترون في قتال القوم؟» فقلنا مثل ذلك فقال المقداد بن عمرو: إذاً لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى لموسى «فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ه هنا

(١) تفسير الطبرى ١٨١/٦.

(٢) تفسير الطبرى ١٨١/٦.

قاعدون» [المائدة: ٢٤] قال فتمنينا عشر الأنصار أن لو قلنا كما قال المقداد أحب إلينا من أن يكون لنا مال عظيم، قال فأنزل الله على رسوله ﷺ «كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون» وذكر تمام الحديث^(١).

ورواه ابن أبي حاتم من حديث ابن لهيعة بنحوه.

وروى ابن مردويه أيضاً من حديث محمد بن عمرو بن علقمة بن أبي وقاص الليثي، عن أبيه عن جده قال خرج رسول الله ﷺ إلى بدر حتى إذا كان بالروحاء خطب الناس فقال «كيف ترون؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله بلغنا أنهم بمكان كذا وكذا، قال: ثم خطب الناس فقال «كيف ترون؟» فقال عمر مثل قول أبي بكر، ثم خطب الناس فقال: «كيف ترون؟» فقال سعد بن معاذ يا رسول الله إيانا ت يريد؟» فو الذي أكرمك وأنزل عليك الكتاب ما سلكتها قط ولا لي بها علم، ولئن سرت حتى تأتي برؤكم فقاتلنا إنا ه هنا نسيرين معك، ولا نكون كالذين قالوا لموسى «فاذهب أنت وربك فقاتلنا إنا ه هنا قاعدون» [المائدة: ٢٤] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلنا إنا معكما مقاتلون، ولعلك أن تكون خرجت لأمر وأحدث الله إليك غيره فانظر الذي أحدث الله إليك فامض له، فصل حبال من شئت، وقطع حبال من شئت، وعاد من شئت، وسالم من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، فنزل القرآن على قول سعد «كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون»^(٢) الآيات.

وقال العوفي عن ابن عباس لما شاور النبي ﷺ في لقاء العدو، وقال له سعد بن عبادة ما قال وذلك يوم بدر أمر الناس أن يتهيئوا للقتال وأمرهم بالشوكة، فكره ذلك أهل الإيمان فأنزل الله «كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون يجادلونك في الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون»^(٣) وقال مجاهد يجادلونك في الحق: «في القتال»^(٤)، وقال محمد بن إسحاق «يجادلونك في الحق» أي كراهية لقاء المشركين، وإنكاراً لمسير قريش حين ذكروا لهم^(٥)، وقال السدي: «يجادلونك في الحق بعدما تبين» أي بعد ما تبين لهم أنك لا تفعل إلا ما أمرك الله به^(٦). قال ابن جرير^(٧):

(١) انظر الدر المثور ٢٩٩/٣.

(٢) انظر الدر المثور ٢٩٩/٣.

(٣) انظر تفسير الطبرى ١٨٢/٦.

(٤) تفسير الطبرى ١٨١/٦.

(٥) تفسير الطبرى ١٨٢/٦.

(٦) تفسير الطبرى ١٨٢/٦.

(٧) تفسير الطبرى ١٨٢/٦.

وقال آخرون عنى بذلك المشركين، حدثنا يونس أبناً ابن وهب قال ابن زيد في قوله تعالى: «يجادلونك في الحق بعدهما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهو ينظرون» قال هؤلاء المشركون جادلوا في الحق كأنما يساقون إلى الموت حين يدعون إلى الإسلام وهو ينظرون. قال وليس هذا من صفة الآخرين، هذه صفة مبتداة لأهل الكفر.

ثم قال ابن جرير: ولا معنى لما قاله، لأن الذي قبل قوله «يجادلونك في الحق» خبر عن أهل الإيمان والذي يتلوه خبر عنهم. والصواب قول ابن عباس وابن إسحاق: أنه خبر عن المؤمنين، وهذا الذي نصره ابن جرير هو الحق وهو الذي يدل عليه سياق الكلام، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد^(١) رحمه الله: حدثنا يحيى بن بکير وعبد الرزاق قالا: حدثنا إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال: قيل لرسول الله ﷺ حين فرغ من بدر: عليك بالغير ليس دونها شيء، فناداه العباس بن عبد المطلب، قال عبد الرزاق وهو أسير في وثاقه إنه لا يصلح لك، قال ولم؟ قال لأن الله عز وجل إنما وعدك إحدى الطائفتين، وقد أعطاك الله ما وعدك إسناد جيد ولم يخرجه.

ومعنى قوله تعالى: «وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم» أي يحبون أن الطائفة التي لا حد لها ولا منعة ولا قتال تكون لهم وهي العير، «وي يريد الله أن يحق الحق بكلماته» أي هو يريد أي يجمع بينكم وبين الطائفة التي لها الشوكة والقتال ليظفركم بهم وينصركم عليهم، ويظهر دينه ويرفع كلمة الإسلام ويجعله غالباً على الأديان، وهو أعلم بعواقب الأمور، وهو الذي يدبركم بحسن تدبيره، وإن كان العباد يحبون خلاف ذلك فيما يظهر لهم كقوله تعالى: «كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم» [البقرة: ٢١٦].

وقال محمد بن إسحاق رحمه الله: حدثني محمد بن مسلم الزهري، وعااصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبي بكر ويزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير وغيرهم من علمائنا عن عبد الله بن عباس، كل قد حدثني بعض هذا الحديث فاجتمع حديثهم فيما سقط من الحديث بدر قالوا لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقللاً من الشام ندب المسلمين إليهم، وقال هذه غير قريش فيها أموالهم، فاخروا إليها لعل الله أي ينفكموها فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنو أن رسول الله ﷺ يلقى حرباً.

وكان أبو سفيان قد استنفر حين دنا من الحجاجز يتتجسس الأخبار، ويسأل من لقي من

الركبان تخوفاً على أمر الناس، حتى أصاب خبراً من بعض الركبان أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولغيرك، فحضر عند ذلك فاستأجر ضمسم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى مكة وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في مكة وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه، فخرج ضمسم بن عمرو سريعاً إلى مكة، وخرج رسول الله ﷺ في أصحابه، حتى بلغ وادياً يقال له ذفران، فخرج منه حتى إذا كان ببعضه نزل وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيدهم، فاستشار رسول الله ﷺ الناس وأخبرهم عن قريش، فقام أبو بكر رضي الله عنه فقال، فأحسن. ثم قام عمر رضي الله عنه فقال، فأحسن.

ثم قام المقداد بن عمرو فقال يا رسول الله امض لما أمرك الله به، فتحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : «فاذهب أنت وربك فقاتلنا إننا هنا قاعدون» [المائدة: ٢٤]، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلنا إننا معكما مقاتلون، فو الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغمام، يعني مدينة الحبشة لجالتنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له بخير.

ثم قال رسول الله ﷺ «أشروا على أيها الناس» وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم كانوا عدد الناس، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة، قالوا: يا رسول الله إننا براء من زمامك حتى تصل إلى دارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في زمامنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا، وكان رسول الله ﷺ يتلوك أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا من دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم، فلما قال رسول الله ﷺ ذلك قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدين يا رسول الله ؟ قال: «أجل» فقال آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيتك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أمرك الله فو الذي بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما يختلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إننا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله .

فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك ثم قال «سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأنني الآن أنظر إلى مصارع القوم»^(١) وروى العوفي عن ابن عباس نحو هذا، وكذلك قال السدي وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد من علماء السلف والخلف، اختصرنا أقوالهم اكتفاء بسياق محمد بن إسحاق .

إِذْ سَتَّعِيشُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنَّ مُؤْمِنَكُمْ يَأْتِيَ مِنَ الْمَلَائِكَةَ مُرْدِفِينَ ۝ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ

(١) انظر الآخر في تفسير الطبرى ١٨٤ / ٦ ، ١٨٥ ، وسيرة ابن هشام ٦٠٦ / ١ ، ٦٠٧ .

إِلَّا بُشَرَىٰ وَلَطْمَمَيْنَ بِهِ، قُلُوبُكُمْ وَمَا أَنْتُمْ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

قال الإمام أحمد^(١): حدثنا أبو نوح فراد، حدثنا عكرمة بن عمارة حدثنا سماك الحنفي أبو زميل، حدثني ابن عباس حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر، نظر النبي ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاثة ونيف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبي ﷺ القبلة وعليه رداءه وإزاره، ثم قال «اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبداً» قال فما زال يستغاث به ويدعوه حتى سقط رداءه عن منكبيه فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فرداه ثم التزمه من ورائه ثم قال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله عز وجل «إذ تستغاثون ربكم فاستجحاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين».

فلما كان يومئذ التقوا، فهزم الله المشركين فقتل منهم سبعون رجلاً وأسر منهم سبعون رجلاً، واستشار رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر وعلياً فقال أبو بكر: يا رسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والأخوان وإنني أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار وعسى أن يهدى لهم الله فيكونوا لنا عضداً فقال رسول الله ﷺ «ما ترى يا ابن الخطاب؟» قال: قلت والله ما أرى ما رأى أبو بكر ولكنني أرى أن تتمكنى من فلان قريب لعمر فأضرب عنقه وتمكن علىاً من عقيل فيضرب عنقه وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هواة للمشركين، هؤلاء صناديدهم وأئتهم وقادتهم.

فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهؤ ما قلت وأخذ منهم الفداء فلما كان من الغد قال عمر فغدروت إلى النبي ﷺ وأبي بكر وما يبكيان فقلت: ما يبكيك أنت وصاحبك فإن وجدت بكاء بكاء بكى وإن لم أجد بكاء تبكيت لكائكم. قال النبي ﷺ للذى عرض على أصحابك من أخذهم الفداء لقد عرض علي عذابكم أدنى من هذه الشجرة لشجرة قريبة من النبي ﷺ وأنزل الله عز وجل «ما كان النبي أن يكون له أسرى حتى يشنخ في الأرض» - إلى قوله - «فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً» [الأنفال: ٦٩] فأهل لهم الغنائم.

فلما كان يوم أحد من العام الم قبل عocabوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء فقتل منهم سبعون وفر أصحاب النبي ﷺ عن النبي ﷺ وكسرت رباعيته وهشمت البيضة على رأسه وسال الدم على وجهه فأنزل الله عز وجل «أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتكم مثلها قلتم أى هذا قل هو من عند نفسكم إن الله على كل شيء قادر» [آل عمران: ١٦٥] بأخذكم الفداء^(٢).

ورواه مسلم وأبو داود والترمذى وابن جرير وابن مردويه من طرق عن عكرمة بن عمارة به

(١) المسند ١، ٣٠، ٣١.

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد حديث ٥٨.

وصححه علي بن المديني والترمذى وقاًلا لا يعرف إلا من حديث عكرمة بن عامر اليماني وهكذا روى علي بن أبي طلحة والعوفى عن ابن عباس أن هذه الآية الكريمة قوله ﴿إِذْ تُسْتَغْيِثُونَ بِرَبِّكُم﴾ في دعاء النبي ﷺ، وكذا قال يزيد بن يثىع والسدى وابن جريح.

وقال أبو بكر بن عياش عن أبي حصين عن أبي صالح قال: لما كان يوم بدر جعل النبي ﷺ يناشد ربه أشد المناشدة يدعوه فاتأه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا رسول الله بعض مناشدتك فواهله ليغبن الله لك بما وعدك.

قال البخاري في كتاب المغازي باب قول الله تعالى: ﴿إِذْ تُسْتَغْيِثُونَ بِرَبِّكُمْ فَاسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ - إلى قوله - ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ حدثنا أبو نعيم حدثنا إسرائيل عن طارق بن شهاب قال سمعت ابن مسعود يقول شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إلى مما عدل به، أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال: لا نقول كما قال قوم موسى ﴿فَادْهَبْ أَنْتَ وَرِبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ [المائدة: ٢٤] ولكننا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره يعني^(١) قوله. حدثني محمد بن عبد الله بن حوشب حدثنا عبد الوهاب حدثنا خالد الحذاء عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ يوم بدر «اللهم أنشدك عهلك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد» فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك فخرج وهو يقول سيمهز الجميع ويولون الدبر»^(٢) وروراه النسائي عن بندار عن عبد الوهاب عن عبد المجيد الثقفي.

وقوله تعالى ﴿بِأَلْفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مَرْدَفِين﴾ أي يردف بعضهم بعضاً كما قال هارون بن عترة عن ابن عباس ﴿مَرْدَفِين﴾ متبعين ويتحمل أن المراد ﴿مردفين﴾ لكم أي نجدة لكم كما قال العوفى عن ابن عباس ﴿مَرْدَفِين﴾ يقول المدد كما تقول أثاث للرجل زده كذا وهكذا قال مجاهد وابن كثير القراء وابن زيد ﴿مردفين﴾ ممددين، وقال أبو كدينة عن قابوس عن أبيه عن ابن عباس يمدكم ربكم بألف من الملائكة مردفين قال وراء كل ملك ملك. وفي رواية بهذا الإسناد ﴿مردفين﴾ قال بعضهم على أثر بعض وكذا قال أبو ظبيان والضحاك وقتادة.

وقال ابن جرير^(٣): حدثني المثنى حدثنا إسحاق حدثنا يعقوب بن محمد الزهرى حدثني عبد العزيز بن عمران عن الزمعى عن أبي الحويرث عن محمد جبير عن علي رضي الله عنه قال: نزل جبريل في ألف من الملائكة عن ميمنة النبي ﷺ وفيها أبو بكر، ونزل ميكائيل في ألف من الملائكة عن ميسرة النبي ﷺ وأنا في الميسرة. وهذا يقتضى إن صح إسناده أن الألف

(١) أخرجه البخاري في المغازي باب ٤.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي باب ٤.

(٣) تفسير الطبرى ١٩١/٦.

مردفة بمثلها ولهذا قرأ بعضهم «مردفين» بفتح الدال، والله أعلم. والمشهور ما رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: وأمد الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة فكان جبريل في خسمائة من الملائكة مجنبة، وemicaiil في خسمائة مجنبة.

وروى الإمام أبو جعفر بن جرير ومسلم من حديث عكرمة بن عمارة عن أبي زميل سماك بن وليد الحنفي عن ابن عباس، عن عمر الحديث المتقدم، ثم قال أبو زميل: حدثني ابن عباس قال: بينما رجل من المسلمين يشتند في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول أقدم حيزوم إذ نظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً قال فنظر إليه فإذا هو قد حطم وشق وجهه كضربة السوط فاخضر ذلك أجمع فجاء الأنصاري فحدث ذلك رسول الله ﷺ قال: صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة فقتلوا يومئذ سبعين وأسرروا سبعين.

وقال البخاري^(١): باب شهود الملائكة بدرأً. حدثنا إسحاق بن إبراهيم حدثنا جرير عن يحيى بن سعيد عن معاذ بن رفاعة بن رافع الزرقى عن أبيه وكان أبوه من أهل بدر قال جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال «من أفضل المسلمين» أو كلمة نحوها قال: وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة. انفرد بإخراجه البخاري وقد رواه الطبراني في المعجم الكبير من حديث رافع بن خديج وهو خطأ، والصواب رواية البخاري والله أعلم.

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لعمر لما شاوره في قتل حاطب بن أبي بلتعة «إنه قد
شهد بدرًا وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال أعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»^(٢).

وقوله تعالى: «وَمَا جعله الله إِلَّا بشرى» الآية، أي وما جعل الله بعث الملائكة وإعلامكم إياكم بهم إِلَّا بشرى «وَلَتطمئنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ» وإنما فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إِلَّا من عند الله أي بدون ذلك ولهذا قال «وَمَا النصر إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ» كما قال تعالى «فَإِذَا لقيتمُ الظَّالِمِينَ كفُرُوا فَضُربُ الرِّقَابُ حَتَّىٰ إِذَا أَخْتَمْتُمُوهُمْ فَشَدُوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًا بَعْدَ إِمَّا فَدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْ زَارَهَا ذَلِكُّ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَا نَصْرٌ مِّنْهُمْ وَلَكِنْ لَيَبْلُو بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يَضُلَّ أَعْمَالُهُمْ سَيِّدُهُمْ وَيُصْلَحُ بَالَّهُمْ وَيُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ عَرْفًا لَهُمْ» [محمد: ٤ - ٦] وقال تعالى «وَتِلْكَ الأَيَّامُ نَذَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَخَذَّ مِنْكُمْ شَهَادَةَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلِيَمْحَصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيُمْحِقَ الْكَافِرِينَ» [آل عمران: ١٤٠ - ١٤١] فهذه حكم شرع الله جهاد الكفار بأيدي المؤمنين لأجلها.

وقد كان تعالى إنما يعاقب الأمم السالفة المكذبة للأنبياء بالقوارع التي تعم تلك الأمم

(١) كتاب المغازى باب ١١.

(٢) أخرجه البخاري في المغازي باب ٩، ومسلم في فضائل الصحابة حديث ١٦١.

المكذبة كما أهلك قوم نوح بالطوفان، وعاداً الأولى بالدبور، وثمود بالصيحة، وقوم لوط بالخسف والقلب وحجارة السجيل، وقوم شعيب يوم الظلة، فلما بعث الله تعالى موسى وأهلك عدوه فرعون وقومه بالغرق في اليم ثم أنزل على موسى التوراة شرع فيها قتال الكفار واستمر الحكم في بقية الشرائع بعده على ذلك كما قال تعالى: «ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر» [القصص: ٤٣] وقتل المؤمنين للكافرين، أشد إهانة للكافرين، وأشفي لصدر المؤمنين، كما قال تعالى للمؤمنين من هذه الأمة «قاتلواهم يعذبهم الله بأيديكم ويخرزهم وينصركم عليهم ويفشل صدور قوم مؤمنين» [التوبه: ١٤].

ولهذا كان قتل صناديد قريش بأيدي أعدائهم الذين ينظرون إليهم بأعين ازدرائهم أنكى لهم وأشفي لصدر حزب الإيمان، فقتل أبي جهل في معركة القتال وحومة الوعي أشد إهانة له من موته على فراشه بقارعة أو صاعقة أو نحو ذلك كما مات أبو لهب لعنه الله بالعدسة^(١) بحيث لم يقربه أحد من أقاربه، وإنما غسلوه بالماء قذفاً من بعيد، ورجموه حتى دفنه، ولهذا قال تعالى: «إن الله عزيز» أي له العزة ولرسوله وللمؤمنين بهما في الدنيا والآخرة كقوله تعالى: «إانا لننصر رسالنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد» [غافر: ٥١] «حكيم» فيما شرعه من قتال الكفار مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم بحوله وقوته سبحانه وتعالى.

إِذْ يُفَيْشِيكُمُ الْتَّعَاسَ أَمْنَةً مَّنْهُ وَيَنْزِلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَا يَأْتِي هُنَّ كُوْرَبٌ
الشَّيْطَانُ وَلَرَبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُشَيِّتُ بِهِ الْأَقْدَامَ إِذْ يُؤْحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَئِ مَعَكُمْ فَنَبِتُوا
الَّذِينَ آمَنُوا سَاقِيَ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّغْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ
بَنَانٍ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَكَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ذَلِكُمْ فَذُوْقُهُ وَأَنَّ لِلْكَفِرِينَ عَذَابَ النَّارِ

يذكرهم الله تعالى بما أنعم به عليهم من إلقاء النعاس عليهم أماناً أمنهم به من خوفهم الذي حصل لهم من كثرة عدوهم وقلة عددهم، وكذلك فعل تعالى بهم يوم أحد كما قال تعالى: «ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفه منكم وطائفه قد أهتمهم أنفسهم» [آل عمران: ١٥٤] الآية، قال أبو طلحة: كنت من أصحابه النعاس يوم أحد، ولقد سقط السيف من يدي مراراً يسقط وأخذه، ويسقط وأخذه، ولقد نظرت إليهم يمدون وهم تحت الحجف.

وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا ابن مهدي عن شعبة عن أبي إسحاق عن حارثة بن مضرب عن علي رضي الله عنه قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم، إلا رسول الله ﷺ يصلي تحت شجرة ويبيكي حتى أصبح. وقال سفيان الثوري عن عاصم عن أبي رزين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: النعاس في القتال أمنة

(١) العدسة: بثرة تشبه العدسة، تخرج في الجسد، تقتل صاحبها غالباً.

من الله، وفي الصلاة من الشيطان^(١)، وقال قتادة: النعاس في الرأس، والنوم في القلب.

قلت: أما النعاس فقد أصحابهم يوم أحد وأمر ذلك مشهور جداً، وأما الآية الشريفة إنما هي في سياق قصة بدر، وهي دالة على وقوع ذلك أيضاً وكان ذلك كائن للمؤمنين عند شدة البأس لتكون قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر الله، وهذا من فضل الله ورحمته بهم ونعمته عليهم وكما قال تعالى: «فَإِنْ مَعَ الْعُسْرِ يَسِّرًا إِنْ مَعَ الْعُسْرِ يَسِّرًا» [الانشراح: ٥ - ٦] ولهذا جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ لما كان يوم بدر في العريش مع الصديق رضي الله عنه وهما يدعوان أخذت رسول الله ﷺ سنة من النوم ثم استيقظ مبتسماً فقال: «أبشر يا أبا بكر هذا جبريل على ثنياه النقع» ثم خرج من باب العريش وهو يتلو قوله تعالى: «سَيْهَمُ الْجَمْعَ وَيُولُونَ الدَّبَرَ» [القرآن: ٤٥].

وقوله «وينزل عليكم من السماء ماء» قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: نزل النبي ﷺ حين سار إلى بدر والمشركون بينهم وبين الماء رملة دعصة وأصاب المسلمين ضعف شديد وألقى الشيطان في قلوبهم الغيط يosoس بينهم تزعمون أنكم أولياء الله تعالى وفيكم رسوله وقد غلبوك المشركون على الماء وأنتم تصلون مجنين فأنطر الله عليهم مطراً شديداً فشرب المسلمون وتطهروا وأذهب الله عنهم رجس الشيطان وثبت الرمل حين أصابه المطر ومبش الناس عليه والدواب فساروا إلى القوم، وأمد الله نبيه ﷺ والمؤمنين بآلف من الملائكة فكان جبريل في خمسمائة مجنبة، وميكائيل في خمسمائة مجنبة^(٢).

وكذا قال العوفي عن ابن عباس: إن المشركين من قربهم لما خرجوا لينصرعوا العير ولقياتلوا عنها نزلوا على الماء يوم بدر فغلبوا المؤمنين عليه فأصاب المؤمنين الظماء فجعلوا يصلون مجنين محدثين حتى تعاطوا ذلك في صدورهم فأنزل الله من السماء ماء حتى سال الوادي فشرب المؤمنون وملؤوا الأسقية وسقو الركاب واغسلوا من الجناية فجعل الله في ذلك طهوراً وثبت به الأقدام وذلك أنه كانت بينهم وبين القوم رملة فبعث الله المطر عليها فضربها حتى اشتدت وثبتت عليها الأقدام^(٣).

ونحو ذلك روي عن قتادة والضحاك والسدي، وقد روي عن سعيد بن المسيب والشعبي والزهري وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنه طش^(٤) أصحابهم يوم بدر^(٥).

والمعروف أن رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر نزل على أدنى ماء هناك أي أول ماء وجده

(١) انظر تفسير الطبرى / ٦ ١٩٢.

(٢) انظر تفسير الطبرى / ٦ ١٩٤.

(٣) تفسير الطبرى / ٦ ١٩٤.

(٤) الطش: المطر القليل، وهو فوق الرذاذ.

(٥) تفسير الطبرى / ٦ ١٩٣، ١٩٤.

فقدم إليه الحباب بن المنذر فقال يا رسول الله هذا المنزل الذي نزلته منزل أنزل لك الله إياه فليس لنا أن نجاوزه أو منزل نزلته للحرب والمكيدة؟ فقال «بل منزل نزلته للحرب والمكيدة» فقال يا رسول الله إن هذا ليس بمنزل ولكن سر بنا حتى ننزل على أدنى ماء يلي القوم ونغور ما وراءه من القلب، ونستقي الحياض فيكون لنا ماء وليس لهم ماء فسار رسول الله ﷺ ففعل كذلك^(١).

وفي مغازي الأموي أن الحباب لما قال ذلك نزل ملك من السماء وجبريل جالس عند رسول الله ﷺ فقال ذلك الملك، يا محمد إن ربك يقرئك السلام ويقول لك إن الرأي ما أشار به الحباب بن المنذر فالتفت رسول الله ﷺ إلى جبريل عليه السلام فقال «هل تعرف هذا؟»؟ فنظر إليه فقال: ما كل الملائكة أعرفهم وإنه ملك وليس بشيطان.

وأحسن ما في هذا ما رواه الإمام محمد بن إسحاق بن يسار صاحب المغازي رحمه الله حدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير قال: بعث الله السماء وكان الوادي دهساً فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه ما لبد لهم الأرض، ولم يمنعهم من المسير وأصاب قريشاً ما لم يقدروا على أن يرحلوا معه وقال مجاهد: أنزل الله عليهم المطر قبل النعاس فأطfa بالمطر الغبار وتلبدت به الأرض وطابت نفوسهم وثبتت به أقدامهم.

وقال ابن حجر^(٢): حدثنا هارون بن إسحاق حدثنا مصعب بن المقدام حدثنا إسرائيل حدثنا أبو إسحاق عن حارثة عن علي رضي الله عنه قال: أصابنا من الليل طش من المطر يعني الليلة التي كانت في صبيحتها وقعة بدر فانطلقتنا تحت الشجر والحجف نستظل تحتها من المطر وبيات رسول الله ﷺ وحرض على القتال.

وقوله **﴿لِيَظْهِرُوكُمْ بِهِ﴾** أي من حدث أصغر أو أكبر وهو تطهير الظاهر **﴿وَيَذْهَبُ عَنْكُمْ رِجْزُ الشَّيْطَانِ﴾** أي من وسوسه أو خاطر سيء وهو تطهير الباطن كما قال تعالى في حق أهل الجنة **﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سَنَدَسٌ خَضْرٌ وَاسْتَبْرٌ وَحَلَوْا أَسَاوِرٌ مِنْ فَضْلَةٍ﴾** فهذا زينة الظاهر **﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾** أي مطهراً لما كان من غل أو حسد أو تباغض وهو زينة الباطن وطهارته **﴿وَلِيُرِيبَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾** أي بالصبر والإقدام على مجالدة الأعداء وهو شجاعة الباطن **﴿وَيُثْبِتُ بِهِ الأَقْدَام﴾** وهو شجاعة الظاهر، والله أعلم.

وقوله **﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَيْكُمْ أَنِّي مَعْكُمْ فَتَبَرُّو الَّذِينَ آمَنُوا﴾** وهذه نعمة خفية أظهرها الله تعالى لهم ليشكروه عليها وهو أنه تعالى وتقديس وتبarak وتمجد أوحى إلى الملائكة الذين أنزلتهم لنصر نبيه ودينه وحزبه المؤمنين يوحى إليهم فيما بينه وبينهم أن يثبتوا الذين آمنوا قال ابن إسحاق: وأزروهم. وقال غيره: قاتلوا معهم وقيل كثروا سوادهم وقيل كان ذلك بأن

(١) انظر سيرة ابن هشام ١/٦٢٠.

(٢) تفسير الطبرى ٦/١٩٣.

الملك كان يأتي الرجل من أصحاب النبي ﷺ فيقول سمعت هؤلاء القوم يعني المشركين يقولون والله لئن حملوا علينا لننكشفن فيحدث المسلمين بعضهم بعضاً بذلك فنقوى أنفسهم حكاها ابن جرير وهذا لفظه بحروفه .

وقوله **﴿سألهي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾** أي ثبتو أنت المؤمنين وقووا أنفسهم على أعدائهم عن أمري لكم بذلك سألهي الرعب والذلة والصغار على من خالف أمري وكذب رسولي **﴿فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾** أي اضربوا الهام ففلقوها ، واحتزوا الرقاب فقطعواها ، وقطعوا الأطراف منهم وهي أيديهم وأرجلهم وقد اختلف المفسرون في معنى **﴿فوق الأعناق﴾** فقيل معناه اضربوا الرؤوس ، قاله عكرمة وقيل معناه أي على الأعناق وهي الرقاب قاله الضحاك وعطيه العوفي ويشهد لهذا المعنى أن الله تعالى أرشد المؤمنين إلى هذا في قوله تعالى : **﴿إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضْرِبُوهُمْ حَتَّى إِذَا أَنْتُمْ مُهْتَمُوْهُمْ فَشَدُّوْهُمْ الْوَثَاق﴾** [محمد: ٤] وقال وكيع عن المسعودي عن القاسم قال : قال النبي ﷺ **«إِنِّي لَمْ أَبْعِثْ لِأَعْذَبْ بَعْذَابَ اللَّهِ، إِنَّمَا بَعَثْتُ لِضْرِبِ الرَّقَابِ وَشَدِ الْوَثَاقِ»** واحتراب ابن جرير أنها قد تدل على ضرب الرقاب وفلق الهام ، قلت وفي مغازي الأموي أن رسول الله ﷺ جعل يمر بين القتلى يوم بدر يقول **«نَفَّلَ هَامًا»** فيقول أبو بكر : [الطویل]

من رجال أعزنا علينا وهم كانوا أعنق وأظلمـاـ

في بدءه رسول الله ﷺ بأول البيت ويستطيع أبا بكر رضي الله عنه إنشاد آخره لأنه كان لا يحسن إنشاد الشعر كما قال تعالى : **﴿وَمَا عَلِمْنَاهُ الشِّعْرُ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾** [يس: ٦٩] وقال الريبع بن أنس : كان الناس يوم بدر يعرفون قتل الملائكة ممن قتلواهم بضرب فوق الأعناق وعلى البنان مثل سمة النار قد أحرق به ، قوله **﴿وَاضْرِبُوهُمْ كُلَّ بَنَان﴾** وقال ابن جرير ^(٢) : معناه واضربوا من عدوكم أيها المؤمنون كل طرف ومفصل من أطراف أيديهم وأرجلهم ، والبنان جمع بنانة كما قال الشاعر : [الطویل]

ألا ليتني قطعت مني بنانة ولاقيته في الـبيـتـ يـقـظـانـ حـاذـراـ

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس **﴿وَاضْرِبُوهُمْ كُلَّ بَنَان﴾** يعني بالبنان الأطراف وكذا قال الضحاك وابن جرير : قال السدي البنان الأطراف ويقال كل مفصل وقال عكرمة وعطيه العوفي والضحاك في رواية أخرى كل مفصل ، وقال الأوزاعي في قوله تعالى : **﴿وَاضْرِبُوهُمْ كُلَّ بَنَان﴾** قال اضرب منه الوجه والعين وارمه بشهاب من نار فإذا أخذته حر

(١) البيت للحسين بن الحمام المري في الشعر والشعراء ٦٤٨/٢

(٢) تفسير الطبرى ٦/١٩٧

(٣) البيت لعباس بن مرداس في ديوانه ص ١٢٥ ، وتأج العروس (بن)، وتفسير الطبرى ٦/١٩٧ .

ذلك كله عليك وقال العوفي عن ابن عباس : فذكر قصة بدر إلى أن قال : فقال أبو جهل لا تقتلوهم قتلاً ولكن خذوهم أخذًا حتى تعرفونم الذي صنعوا من طعنهم في دينكم ورغبتهم عن اللات والعزى فأوحى الله إلى الملائكة ﴿أَنِّي مَعْكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأْلُقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوهُمْ فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوهُمْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ الآية ، فقتل أبو جهل لعنه الله في تسعه وستين رجلاً ، وأسر عقبة بن أبي معيط فقتل صبراً فوفى ذلك سبعين يعني قتيلاً .

ولهذا قال تعالى : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي خالفوهما فساروا في شق ، وتركوا الشرع والإيمان به وابتعاه في شق ، ومحوذ أيضًا من شق العصا وهو جعلها فرقتين ﴿وَمَنْ يَشَاقِقَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي هو الطالب الغالب لمن خالفه وناوأه لا يفوته شيء ولا يقوم لغضبه شيء تبارك وتعالى لا إله ولا رب سواه ﴿ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ هذا خطاب للكفار أي ذوقوا هذا العذاب والنکال في الدنيا واعلموا أيضًا أن للكافرين عذاب النار في الآخرة .

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا نَحْنُ أَنَّهُمْ لَا تُلُوْهُمْ أَذْبَارٌ ۝ وَمَنْ يُولَّهُمْ يُوْمَئِذٍ دُبُرُهُمْ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقَنَالٍ أَوْ مُتَحِيزًا إِلَى فَتَّةٍ فَقَدْ بَاءَ بِعَصَبٍ مِنْ رَبِّ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِقُسْ أَلْصَمِيرُ ۝

يقول تعالى متوجداً على الفرار من الزحف بالنار لمن فعل ذلك ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا﴾ أي تقاربتم منهم ودنوتهم إليهم ﴿فَلَا تُلُوْهُمْ أَذْبَارٌ﴾ أي تفروا وتركتوا أصحابكم ﴿وَمَنْ يُولَّهُمْ يُوْمَئِذٍ دُبُرُهُمْ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقَنَالٍ﴾ أي يفر بين يدي قرنه مكيدة ليريه أنه قد خاف منه فيتبعه ثم يكر عليه فيقتله فلا بأس عليه في ذلك نص عليه سعيد بن جحير والسدي ، وقال الضحاك أن يتقدم عن أصحابه ليرى غرة من العدو فيصيّبها ﴿أَوْ مُتَحِيزًا إِلَى فَتَّةٍ﴾ أي فر من هنا إلى فتة أخرى من المسلمين يعاونهم ويتعاونونه فيجوز له ذلك حتى لو كان في سرية ففر إلى أميره أو الإمام الأعظم دخل في هذه الرخصة .

قال الإمام أحمد^(١) : حدثنا حسن حدثنا زهير حدثنا يزيد بن أبي زياد عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : كنت في سرية من سرايا رسول الله ﷺ فخاص الناس حيصة فكنت فيمن حاص فقلنا كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب ؟ ثم قلنا لو دخلنا المدينة ، فبتنا ، ثم قلنا لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ فإن كانت لنا توبة وإلا ذهبنا ، فأتيناه قبل صلاة الغداة فخرج فقال «من القوم ؟» فقلنا نحن الفرارون فقال «لا بل أنتم العكارون أنا فتكم وأنا فتة المسلمين» قال فأتيناه حتى قبلنا يده^(٢) .

(١) المستند / ٢ ، ٧٠ ، ٨٦ ، ١٠٠ ، ١١١ .

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد باب ٩٦ ، والترمذى في الجهاد باب ٣٦ .

وهكذا رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه من طرق عن يزيد بن أبي زياد وقال الترمذى: حسن لا نعرفه إلا من حدث ابن أبي زياد ورواه ابن أبي حاتم من حدث يزيد بن أبي زياد به، وزاد في آخره وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية «أو متحيزاً إلى فتة».

قال أهل العلم معنى قوله «العكارون» أي العطاقون، وكذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أبي عبيد لما قتل على الجسر بأرض فارس لكثره الجيش من ناحية المجروس فقال عمر لو تحيز إلى لكنك له فتة هكذا رواه محمد بن سيرين عن عمر وفي رواية أبي عثمان النهدي عن عمر قال لما قتل أبو عبيد قال عمر: أيها الناس أنا فتكم وقال مجاهد قال عمر أنا فتة كل مسلم، وقال عبد الملك بن عمير عن عمر أيها الناس لا تغرنكم هذه الآية فإنما كانت يوم بدر وأنا فتة لكل مسلم.

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حاتم حدثنا حسان بن عبد الله المصري حدثنا خلاد بن سليمان الحضرمي حدثنا نافع أنه سأله ابن عمر قلت إنا قوم لا ثبت عند قتال عدونا، ولا ندرى من الفتة إمامنا أو عسكرنا؟ فقال إن الفتة رسول الله ﷺ فقلت إن الله يقول: «إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً» الآية، فقال إنما أنزلت هذه الآية في يوم بدر لا قبلها ولا بعدها، وقال الصحاك في قوله «أو متحيزاً إلى فتة» المتحيز الفار إلى النبي ﷺ وأصحابه، وكذلك من فر اليوم إلى أميره أو أصحابه فأما إن كان الفرار لا عن سبب من هذه الأسباب فإنه حرام وكبيرة من الكبائر لما رواه البخاري ومسلم في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «اجتبوا السبع الموبقات» قيل يا رسول الله وما هن؟ قال «الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقدف المحسنات الغافلات المؤمنات»^(١) وله شواهد من وجوه آخر، ولهذا قال تعالى: «فقد باء» أي رجع «بغضب من الله وملائكة» أي مصيره ومتقلبه يوم ميعاده «جهنم وبئس المصير».

وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا زكريا بن عدي حدثنا عبد الله بن عمرو الرقبي عن زيد بن أبي أنيسة حدثنا جبلة بن سحيم عن أبي المثنى العبدلي سمعت السدوسي يعني ابن الخصاصية وهو بشير بن معبد قال أتيت النبي ﷺ لأبيه فاشترط علي شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن أقيم الصلاة، وأن أؤدي الزكاة، وأن أحجج حجة الإسلام، وأن أصوم شهر رمضان، وأن أجاهد في سبيل الله، فقلت يا رسول الله أما اثنان فو الله لا أطيقهما: الجهاد، فإنهم زعموا أنه من ولى الدبر فقد باء بغضب من الله فأخاف إن حضرت ذلك خشعت نفسي

(١) أخرجه البخاري في الوصايا باب ٢٣، والطب باب ٤٨، والحدود باب ٤٤، ومسلم في الإيمان حديث ١٤٤، وأبو داود في الوصايا باب ١٠، والنمسائي في الوصايا باب ١٢.

(٢) المسند ٥/٢٢٤.

وكرهت الموت، والصدقة فو الله ما لي إلا غنيمة وعشر ذؤود هنَّ رسل أهلي ومحولتهم، فقبض رسول الله ﷺ يده ثم قال: «فلا جهاد ولا صدقة فبم تدخل الجنة إذاً؟» قلت يا رسول الله أنا أبايعك فبأيعته عليهن كلهن، هذا حديث غريب من هذا الوجه ولم يخرجوه في الكتب الستة.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن حمزة حدثنا إسحاق بن إبراهيم أبو النصر حدثنا يزيد بن ربيعة حدثنا أبو الأشعث عن ثوبان مرفوعاً عن النبي ﷺ قال «ثلاثة لا ينفع معهن عمل: الشرك بالله وعقوق الوالدين والفرار من الزحف» وهذا أيضاً حديث غريب جداً، وقال الطبراني أيضاً حدثنا العباس بن الفضل الأسفاطي حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حفص بن عمر الشنوي حدثني عمرو بن مرة قال سمعت بلال بن يسار بن زيد مولى رسول الله ﷺ قال سمعت أبي يحدث عن جدي قال: قال رسول الله ﷺ «من قال: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو وأتوب إليه غفر له وإن كان قد فر من الزحف»^(١) وهكذا رواه أبو داود عن موسى بن إسماعيل به وأخرجه الترمذى عن البخارى عن موسى بن إسماعيل به وقال غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

قلت ولا يعرف لزيد مولى النبي ﷺ عنه سواه، وقد ذهب ذاهبون إلى أن الفرار إنما كان حراماً على الصحابة لأنه كان فرض عين عليهم، وقيل على الأنصار خاصة لأنهم يابعوا على السمع والطاعة في المنشط والمكره. وقيل المراد بهذه الآية أهل بدر خاصة يروى هذا عن عمر وابن عمر وابن عباس وأبي هريرة وأبي سعيد وأبي نصرة ونافع مولى ابن عمر وسعيد بن جبير والحسن البصري وعكرمة وقادة والضحاك وغيرهم، وحجتهم في هذا أنه لم تكن عصابة لها شوكة يفيتون إليها إلا عصابتهم تلك كما قال النبي ﷺ «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض»^(٢).

ولهذا قال عبد الله بن المبارك عن مبارك بن فضالة عن الحسن في قوله ﴿وَمَنْ يُولِّهُمْ يُوْمَئِذٍ دِبْرَه﴾ قال ذلك يوم بدر فأماماً اليوم فإن انحاز إلى فئة أو مصر أحسبه قال فلا بأس عليه، وقال ابن المبارك عن المبارك أيضاً عن ابن لهيعة حدثني يزيد بن أبي حبيب قال: أرجب الله تعالى لمن فر يوم بدر النار قال ﴿وَمَنْ يُولِّهُمْ يُوْمَئِذٍ دِبْرَه إِلَّا مُتَحْرِفًا لِقتالٍ أَوْ مُتَحِيزًا إِلَى فَئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغُضْبِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ فلما كان يوم أحد بعد ذلك قال ﴿إِنَّ الَّذِينَ تُولُوا يَوْمَ التَّقْيَا الْجَمِيعَ﴾ - إلى قوله - ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُم﴾ ثم كان يوم حنين بعد ذلك بسبعين سنين قال ﴿ثُمَّ وَلَيْتَمْ مَدْبِرِينَ﴾ ﴿ثُمَّ يَتُوبَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ [التوبة: ٢٧].

(١) أخرجه أبو داود في الورت باب ٢٦، والترمذى في الدعوات باب ١١٧.

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد حديث ٥٨؛ وأحمد في المسند ١/ ٣٠، ٣٢.

وفي سنن أبي داود والنسائي ومستدرك الحاكم وتفسير ابن جرير وابن مردويه من حديث داود بن أبي هند عن أبي سعيد أنه قال في هذه الآية «وَمِنْ يُولَهُمْ يُوْمَذْ دِبْرَهُ» إنما أنزلت في أهل بدر^(١)، وهذا كله لا ينفي أن يكون الفرار من الزحف حراماً على غير أهل بدر، وإن كان سبب نزول الآية فيهم كما دل عليه حديث أبي هريرة المتقدم من أن الفرار من الزحف من الموبقات كما هو مذهب الجماهير، والله أعلم.

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكُنَّ اللَّهَ قَتَّلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكُنَّ اللَّهَ رَمَى وَلَيُثْبِلَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ
بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلَيْهِمْ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوْهُنْ كَيْدُ الْكُفَّارِينَ^(٢)

يبين تعالى أنه خالق أفعال العباد وأنه المحمود على جميع ما صدر منهم من خير لأنه هو الذي وفهم لذلك وأعانهم عليه ولهذا قال: «فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكُنَّ اللَّهَ قَتَّلَهُمْ» أي ليس بحولكم وقوتكم قتلتم أعداءكم مع كثرة عددهم وقلة عدكم. أي بل هو الذي أظفركم عليهم كما قال: «وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذْلَلُهُ» [آل عمران: ١٢٣] الآية، وقال تعالى: «لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حَنِينٍ إِذْ أَعْجَبْتُكُمْ كُثْرَتُكُمْ فَلَمْ تَغُنِّ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحِبَتْ ثُمَّ وَلَيْتَمْ مَدْبِرِينَ» [التوبه: ٢٥] يعلم تبارك وتعالى أن النصر ليس على كثرة العدد ولا بلبس الأمة^(٣) والعدد، وإنما النصر من عنده تعالى كما قال تعالى: «كُمْ مَنْ فَتَّاهُ غَلَبْتُ فَتَّاهُ كَثِيرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ» [البقرة: ٢٤٩].

ثم قال تعالى لنبيه ﷺ أيضاً في شأن القبضة من التراب التي حصب بها وجوه الكافرين يوم بدر حين خرج من العريش بعد دعائه وتضرعه واستكانته فرماهم بها وقال: «شافت الوجه» ثم أمر أصحابه أن يصدقاً الحملة إثرها ففعلوا فأوصل الله تلك الحصباء إلى أعين المشركين فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله ولهذا قال تعالى: «وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكُنَّ اللَّهُ رَمَى» أي هو الذي بلغ ذلك إليهم وكتبهم بها لا أنت.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: رفع رسول الله ﷺ يديه يعني يوم بدر فقال: «يا رب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبداً» فقال له جبريل خذ قبضة من التراب فارم بها في وجوههم فأخذ قبضة من التراب فرمى بها في وجوههم فما من المشركين أحد إلا أصحاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين^(٤).

وقال السدي: قال رسول الله ﷺ علي رضي الله عنه يوم بدر «أعطني حصباً من الأرض» فناوله حصباً عليه تراب فرمى به في وجوه القوم فلم يبق مشركاً إلا دخل عينيه من ذلك التراب

(١) آخر جهه أبو داود في الجهاد باب ٩٦.

(٢) الأمة: هي الدرع، والسلاح.

(٣) انظر تفسير الطبرى ٢٠٤ / ٦.

شيء، ثم ردهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم، وأنزل الله ﴿فَلَمْ تُقْتَلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَاتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾^(١). وقال أبو معاشر المدني عن محمد بن قيس ومحمد بن كعب القرظي قالا: لما دنا القوم بعضهم من بعض أخذ رسول الله ﷺ قبضة من تراب فرمى بها في وجوه القوم وقال: «شاهدت الوجه» فدخلت في أعينهم كلهم وأقبل أصحاب رسول الله ﷺ يقتلونهم ويأسرونهم وكانت هزيمتهم في رمية رسول الله ﷺ فأنزل الله: «وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾^(٢).

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم «وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى» قال هذا يوم بدر أخذ رسول الله ﷺ ثلاث حصيات فرمى بحصاة ميمنة القوم، وحصاة في ميسرة القوم وحصاة بين أظهرهم وقال «شاهدت الوجه» فانهزموا، وقد روي في هذه القصة عن عروة عن مجاهد وعكرمة وقتادة وغير واحد من الأئمة أنه أنزلت في رمية النبي ﷺ يوم بدر وإن كان قد فعل ذلك يوم حنين أيضاً.

وقال أبو جعفر بن جرير^(٣): حدثنا أحمد بن منصور حدثنا يعقوب بن محمد حدثنا عبد العزيز بن عمران حدثنا موسى بن يعقوب بن عبد الله بن زمعة عن يزيد بن عبد الله عن أبي بكر بن سليمان بن أبي خيثمة عن حكيم بن حزام قال: لما كان يوم بدر سمعنا صوتاً وقع من السماء كأنه صوت حصاة وقعت في طست ورمى رسول الله ﷺ تلك الرمية فانهزمنا، غريب من هذا الوجه، ونهانا قولان آخران غريبان جداً.

[أحدهما] قال ابن جرير^(٤): حدثني محمد بن عوف الطائي حدثنا أبو المغيرة حدثنا صفوان بن عمرو حدثنا عبد الرحمن بن جبير أن رسول الله ﷺ يوم ابن أبي الحقيق بخبير دعا بقوس فأتى بقوس طويلة وقال «جيئوني بقوس غيرها» فجاءوه بقوس كباء فرمى النبي ﷺ بالحصن فأقبل السهم يهوي حتى قتل ابن أبي الحقيق وهو في فراشه فأنزل الله عز وجل «وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى» وهذا غريب وإسناده جيد إلى عبد الرحمن بن جبير بن نفير ولعله اشتبه عليه أو أنه أراد أن الآية تعم هذا كله وإلا فسياق الآية في سورة الأنفال في قصة بدر لا محالة وهذا مما لا يخفى على أئمة العلم والله أعلم.

[والثاني] روى ابن جرير أيضاً والحاكم في مستدركه بإسناد صحيح إلى سعيد بن المسيب والزهري أنهما قالا: أنزلت في رمية النبي ﷺ يوم أحد أبي بن خلف بالحربة وهو في لأمته فخدشه في ترقوته فجعل يتداً عن فرسه مراراً حتى كانت وفاته بعد أيام قاسى فيها العذاب

(١) انظر تفسير الطبرى ٢٠٣/٦.

(٢) تفسير الطبرى ٢٠٣/٦.

(٣) تفسير الطبرى ٢٠٣/٦.

(٤) لم أجده هذا الأثر والذى يليه فى تفسير الطبرى.

الأليم موصولاً بعذاب البرزخ المتصل بعذاب الآخرة، وهذا القول عن هذين الإمامين غريب أيضاً جداً ولعلهما أرادا أن الآية تتناوله بعمومها لا أنها نزلت فيه خاصة كما تقدم والله أعلم.

وقال محمد بن إسحاق حدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير في قوله **﴿ولِيَلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بِلَاءَ حَسَنًا﴾** أي ليعرف المؤمنين نعمته عليهم من إظهارهم على عدوهم مع كثرة عدوهم وقلة عددهم ليعرفوا بذلك حقه ويشكروا بذلك نعمته^(١) وهكذا فسره ابن جرير أيضاً، وفي الحديث **﴿وَكُلُّ بَلَاءٍ حَسَنٌ أَبْلَانَا﴾** قوله **﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾** أي سميع الدعاء عليم بمن يستحق النصر والغلب، قوله **﴿أَذْلَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوْهِنُ كِيدِ الْكَافِرِينَ﴾** هذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر أنه أعلمهم تعالى بأنه مضعف كيد الكافرين فيما يستقبل مصغر أمرهم وأنهم وكل ما لهم في تبار ودمار، والله الحمد والمنة.

إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعْدٌ وَلَنْ تُغْنِ عَنْكُمْ فِتْحَكُمْ شَيْئًا وَلَا كُثْرَةً وَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ

يقول تعالى للكافر: **﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا﴾** أي تستنصروا وتستقضوا الله و تستحكموه أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين فقد جاءكم ما سألتم كما قال محمد بن إسحاق وغيره عن الزهري عن عبد الله بن ثعلبة بن صعير أن أبا جهل قال يوم بدر: اللهم أينا كان أقطع للرحم وأتنا بما لا يعرف فأحنه الغداة. وكان ذلك استفتاحاً منه فنزلت **﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾** إلى آخر الآية.

وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا يزيد يعني ابن هارون أخبرنا محمد بن إسحاق حدثني الزهري عن عبد الله بن ثعلبة أن أبا جهل قال حين التقى القوم اللهم أقطعنا للرحم وأتنا بما لا نعرف فأحنه الغداة. فكان المستفتح، وأخرجه النسائي في التفسير من حديث صالح بن كيسان عن الزهري به، وكذا رواه الحاكم في مستدركه من طريق الزهري به وقال صحيح على شرط الشيفيين ولم يخرجاه، وروي نحو هذا عن ابن عباس ومجاهد والضحاك وقادمة ويزيد بن رومان وغير واحد، وقال السدي كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا اللهم انصر أعلى الجندين وأكرم الفتترين وخير القبيليتين فقال الله: **﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾** يقول قد نصرت ما قلت وهو محمد ﷺ.

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو قوله تعالى إخباراً عنهم **﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ﴾** الآية، قوله **﴿وَإِنْ تَنْتَهُوا﴾** أي عمما أنتم فيه من الكفر بالله والتكذيب لرسوله **﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾** أي في الدنيا والآخرة، قوله تعالى: **﴿وَإِنْ تَعُودُوا نَعْدٌ﴾** كقوله **﴿وَإِنَّ**

(١) انظر سيرة ابن هشام ٦٦٨ / ١، وتفسير الطبرى ٦ / ٢٠٤.

(٢) المستند ٤٣١ / ٥.

عدتم عدنا﴿ [الإسراء: ٨] معناه وإن عدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والضلاله نعد لكم بمثل هذه الواقعة . وقال السدي ﴿ وإن تعودوا﴾ أي إلى الاستفتاح ﴿ نعد﴾ أي إلى الفتح لمحمد ﷺ والنصر له وتنظيره على أعدائه والأول أقوى ﴿ ولو نغنى عنكم فتكم شيئاً ولو كثرت﴾ أي ولو جمعتم من الجموع ما عسى أن تجمعوا ، فإن من كان الله معه فلا غالب له ﴿ وأن الله مع المؤمنين﴾ وهم الحزب النبوى والجناح المصطفوى .

**يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلُّوْا عَنْهُ وَأَتَمْ سَمَعُونَ لِلَّهِ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَاتَلُوا
سَمِعُونَ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ ﴿ إِنَّ شَرَ الدَّوَابِ عِنْدَ اللَّهِ الْأَصْمَمُ الْبَكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقُلُونَ لَوْلَا عَلِمَ
اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَا سَمَعُوهُمْ وَلَوْلَا سَمَعُوهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾**

يأمر تعالى عباده المؤمنين بطاعة رسوله وطاعة ربه ويزجرهم عن مخالفته والتشبه بالكافرين به المعاندين له ولهذا قال ﴿ ولا تولوا عنه﴾ أي تترکوا طاعته وامتثال أوامره وترك زواجه ﴿ وأنتم سمعون﴾ أي بعد ما علمتم ما دعاكم إليه ﴿ ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون﴾ قيل : المراد المشركون واختاره ابن جرير ، وقال ابن إسحاق هم المنافقون فإنهم يظهرون أنهم قد سمعوا واستجابوا وليسوا كذلك ^(١) .

ثم أخبر تعالى أن هذا الضرب من بني آدم شر الخلق والخليقة فقال ﴿ إن شر الدواب عند الله الصم﴾ أي عن سماع الحق ﴿ البكم﴾ عن فهمه ولهذا قال ﴿ الذين لا يعقلون﴾ فهو لاء شر البرية لأن كل ذيبة مما سواهم مطيعة لله فيما خلقها له وهو لاء خلقوا للعبادة فكفروا ، ولهذا شبههم بالأنعام في قوله ﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء﴾ [البقرة: ١٧١] الآية ، وقال في الآية الأخرى ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾ [الأعراف: ١٧٩] .

وقيل المراد بهؤلاء المذكورين نفر من بني عبد الدار من قريش روی عن ابن عباس ومجاهد واختاره ابن جرير . وقال محمد بن إسحاق هم المنافقون ، قلت : ولا منافاة بين المشركين والمنافقين في هذا لأن كلاً منهم مسلوب الفهم الصحيح والقصد إلى العمل الصالح ، ثم أخبر تعالى بأنهم لا فهم لهم صحيح ولا قصد لهم صحيح لو فرض أن لهم فهماً فقال ﴿ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم﴾ أي لأفهمهم وتقدير الكلام ولكن لا خير فيهم فلم يفهمهم لأنه يعلم أنه ﴿ ولو أسمعهم﴾ أي أفهمهم ﴿ لتولوا﴾ عن ذلك قصداً وعناداً بعد فهمهم ذلك ﴿ وهم معرضون﴾ عنه .

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحِبِّي كُمْ وَأَعْلَمُوْا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ

المرء وقلبه، وأنه إلينه يحشرون

قال البخاري^(١): «استجيبوا» أجيروا «لما يحييكم» لما يصلحكم. حدثني إسحاق حدثنا روح حدثنا شعبة عن حبيب بن عبد الرحمن قال: سمعت حفص بن عاصم يحدث عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه قال كنت أصلى فمر بي النبي ﷺ فدعاني فلم آته حتى صليت ثم أتيته فقال «ما منعك أن تأتيني؟ ألم يقل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يَحِيِّكُمْ﴾ - ثم قال - لأعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج» فذهب رسول الله ﷺ ليخرج ذكرت له. وقال معاذ: حدثنا شعبة عن حبيب بن عبد الرحمن سمع حفص بن عاصم سمع أبا سعيد رجلاً من أصحاب النبي ﷺ بهذا وقال ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هي السبع المثانية.

هذا لفظه بحروفه وقد تقدم الكلام على هذا الحديث بذكر طرقه في أول تفسير الفاتحة.

وقال مجاهد في قوله ﴿لَمَا يَحِيِّكُمْ﴾ قال للحق^(٢)، وقال قتادة ﴿لَمَا يَحِيِّكُمْ﴾ قال هو هذا القرآن فيه النجاة والبقاء والحياة وقال السدي ﴿لَمَا يَحِيِّكُمْ﴾ في الإسلام إحياءهم بعد موتهم بالكفر^(٣)، وقال محمد بن إسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يَحِيِّكُمْ﴾ أي للحرب التي أعزكم الله تعالى بها بعد الذل، وقواكم بها بعد الضعف، ومنعكم من عدوكم بعد القهر منهم لكم^(٤).

وقوله تعالى: «واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه»، قال ابن عباس يحول بين المؤمن وبين الكافر وبين الإيمان^(٥)، رواه الحاكم في مستدركه موقفاً، وقال صحيح ولم يخرجه، ورواه ابن مردويه من وجه آخر مرفوعاً، ولا يصح لضعف إسناده والموقف أصح، وكذا قال مجاهد وسعيد وعكرمة والضحاك وأبو صالح وعطاء ومقاتل بن حيان والسدي، وفي روایة عن مجاهد في قوله ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرءِ وَقَلْبِهِ﴾ أي حتى يتركه لا يعقل^(٦)، وقال السدي يحول بين الإنسان وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه^(٧). وقال قتادة هو كقوله ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]^(٨) وقد وردت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بما

(١) كتاب التفسير، تفسير سورة ٨، باب ١.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٢١١/٦، ٢١٢.

(٣) تفسير الطبرى ٢١٢/٦.

(٤) تفسير الطبرى ٢١٢/٦.

(٥) تفسير الطبرى ٢١٣/٦.

(٦) تفسير الطبرى ٢١٥/٦.

(٧) تفسير الطبرى ٢١٥/٦.

(٨) تفسير الطبرى ٢١٥/٦.

يناسب هذه الآية.

وقال الإمام أحمد^(١): حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي سفيان عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك». قال: فقلنا يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «نعم، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله تعالى يقلبهما». وهكذا رواه الترمذى^(٢) في كتاب القدر من جامعه عن هناد بن السري عن أبي معاوية محمد بن حازم الضرير عن الأعمش، واسمه سليمان بن مهران عن أبي سفيان واسمه طلحة بن نافع عن أنس، ثم قال: حسن. وهكذا روی عن النبي ﷺ وحديث أبي سفيان عن أنس أصح.

الحديث آخر: وقال الإمام أسمد^(٣) في مسنده: حدثنا عبد بن حميد حدثنا عبد الملك بن عمرو حدثنا شعبة عن الحكم عن ابن أبي ليلى عن بلال، رضي الله عنه، أن النبي ﷺ كان يدعو «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك». هذا حديث جيد الإسناد إلا أن فيه انقطاعاً. وهو مع ذلك على شرط أهل السنن ولم يخرجوه.

الحديث آخر: قال الإمام أحمد^(٤): حدثنا الوليد بن مسلم قال: سمعت ابن جابر يقول: حدثني بسر بن عبد الله الحضرمي أنه سمع أبا إدريس الخوارزمي يقول سمعت النواس بن سمعان الكلابي رضي الله عنه يقول سمعت النبي ﷺ يقول «ما من قلب إلا وهو بين أصابع الرحمن رب العالمين إذا شاء أن يقيمه أقامه وإذا شاء أن يزيغه أزاغه» وكان يقول «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» قال «والميزان بيد الرحمن يخضسه ويرفعه»^(٥) وهكذا رواه النسائي وابن ماجه من حديث عبد الرحمن بن يزيد بن جابر فذكر مثله.

الحديث آخر قال الإمام أحمد^(٦): حدثنا يونس حدثنا حماد بن زيد عن المعلى بن زياد عن الحسن أن عائشة قالت: دعوات كان رسول الله ﷺ يدعو بها «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» قالت: فقلت يا رسول الله إنك تكثر أن تدعو بهذا الدعاء فقال «إن قلب الآدمي بين أصابعين من أصابع الله فإذا شاء أزاغه وإذا شاء أقامه».

(١) المستند ١١٢/٣.

(٢) كتاب القدر باب ٧.

(٣) المستند ١٨٢/٤.

(٤) المستند ٤١٨ ، ١٨٢/٤.

(٥) أخرجه ابن ماجه في المقدمة باب ١٣ ، وأحمد في المستند ٤١٨/٤.

(٦) المستند ٩١/٦.

حديث آخر قال الإمام أحمد^(١): حدثنا هاشم حدثنا عبد الحميد حدثني شهر سمعت أم سلمة تحدث أن رسول الله ﷺ كان يكثر في دعائه يقول «اللهم مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» قالت فقلت يا رسول الله أو إِنَّ الْقُلُوبَ لِتُقْلَبْ؟ قال «نعم ما خلق الله من بشر منبني آدم إلا أن قلبه بين أصبعين من أصابع الله عز وجل فإن شاء أقامه وإن شاء أزاغه فسأل الله ربنا أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ونسأله أن يهب لنا من لدن رحمة إنه هو الوهاب» قالت فقلت: يا رسول الله ألا تعلموني دعوة أدعوه بها لنفسي؟ قال «بلى قولي اللهم رب النبي محمد اغفر لي ذنبي وأذهب غيط قلبي وأجرني من مضلات الفتنة ما أحسيتني».

حديث آخر قال الإمام أحمد^(٢): حدثنا أبو عبد الرحمن حدثنا حيوة أخبرني أبو هانئ أنه سمع أبا عبد الرحمن الجبلي أنه سمع عبد الله بن عمرو أنه سمع رسول الله ﷺ يقول «إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفها كيف شاء» ثم قال رسول الله ﷺ «اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا إلى طاعتك»^(٣) انفرد بإخراجه مسلم عن البخاري فرواه مع النسائي من حديث حيوة بن شريح المصري به.

وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ حَاصِّةً وَاعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ^(٤)

يحذر تعالى عباده المؤمنين فتنته أي اختباراً ومحنة يعم بها المسيء وغيره لا يخص بها أهل المعاصي ولا من باشر الذنب بل يعيمهما حيث لم تدفع وترفع، كما قال الإمام أحمد^(٤): حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم حدثنا شداد بن سعيد حدثنا غilan بن جرير عن مطرف قال: قلنا للزبير: يا أبا عبد الله ما جاء بكم؟ ضيعتم الخليفة الذي قتل ثم جئتم تطلبون بدمه؟ فقال الزبير رضي الله عنه: إنما قرأتنا على عهد رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم «واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة» لم نكن نحسب أنها أهلها حتى وقعت منا حيث وقعت، وقد رواه البزار من حديث مطرف عن الزبير وقال: لا نعرف مطراً روى عن الزبير غير هذا الحديث، وقد روى النسائي من حديث جرير بن حازم عن الحسن عن الزبير نحو هذا.

وقد روى ابن جرير^(٥): حدثني الحارث حدثنا عبد العزيز حدثنا مبارك بن فضالة عن الحسن قال، قال الزبير لقد خوفنا بها يعني قوله تعالى: «واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا

(١) المسند ٦/٣٠١، ٣٠٢.

(٢) المسند ٢/١٦٨، ١٧٣.

(٣) أخرجه مسلم في القدر حديث ١٧.

(٤) المسند ١/١٦٥.

(٥) تفسير الطبرى ٦/٢١٧.

منكم خاصة» ونحن مع رسول الله ﷺ وما ظننا أنا خصصنا بها خاصة وكذا رواه حميد عن الحسن عن الزبير رضي الله عنه وقال داود بن أبي هند عن الحسن في هذه الآية قال نزلت في علي وعثمان وطلحة والزبير رضي الله عنهم، وقال سفيان الثوري عن الصلت بن دينار عن عقبة بن صهبان سمعت الزبير يقول: لقد قرأت هذه الآية زماناً وما أرانا من أهلها فإذا نحن المعنيون بها «واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العتاب».

وقد روي من غير وجه عن الزبير بن العوام، وقال السدي: نزلت في أهل بدر خاصة فأصابتهم يوم الجمل فاقتتلوا، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: «واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة» يعني أصحاب النبي ﷺ خاصة. وقال في رواية له عن ابن عباس في تفسير هذه الآية أمر الله المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين ظهرانيهم فيعمهم الله بالعذاب، وهذا تفسير حسن جداً، ولهذا قال مجاهد في قوله تعالى: «واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة» هي أيضاً لكم، وكذا قال الضحاك ويزيد بن أبي حبيب، وغير واحد.

وقال ابن مسعود ما منكم من أحد إلا وهو مشتمل على فتنة إن الله تعالى يقول «إنما أموالكم وأولادكم فتنة» [الغافر: ١٥] فأياكم استعاد فليستعد بالله من مضلات الفتنة رواه ابن جرير^(١)، والقول بأن هذا التحذير يعم الصحابة وغيرهم وإن كان الخطاب معهم هو الصحيح، ويدل عليه الأحاديث الواردة في التحذير من الفتنة ولذلك كتاب مستقل يوضح فيه إن شاء الله تعالى كما فعله الأنئمة وأفردوه بالتصنيف ومن أخص ما يذكر هنا ما رواه الإمام أحمد^(٢) حيث قال: حدثنا أحمد بن الحاج أحربنا عبد الله يعني ابن المبارك، أئبنا سيف بن أبي سليمان سمعت عدي بن عدي الكندي يقول، حدثني مولى لـنا أنه سمع جدي يعني عدي بن عميرة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن الله عز وجل لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرـون على أن ينكروه فلا ينكروه، فإذا فعلوا ذلك عذـب الله الخاصة والعامة» فيه رجل متهم ولم يخرجـوه في الكتب الستة ولا واحد منهم والله أعلم.

حديث آخر قال الإمام أحمد^(٣): حدثنا سليمان الهاشمي حدثنا إسماعيل يعني ابن جعفر أخبرني عمرو بن أبي عمر عن عبد الله بن عبد الرحمن الأشهل عن حذيفة بن اليماني أن رسول الله ﷺ قال «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهـن عن المنكر أو ليوشـكـنـ اللهـ أـنـ يـعـثـ عـلـيـكـمـ عـقـابـاـ منـ عـنـدـهـ ثـمـ لـتـدـعـنـهـ فـلاـ يـسـتـجـيبـ لـكـمـ» ورواه عن أبي سعيد عن إسماعيل بن جعفر وقال «أو ليـعـثـنـ اللهـ عـلـيـكـمـ قـوـماـ ثـمـ تـدـعـنـهـ فـلاـ يـسـتـجـيبـ لـكـمـ».

(١) تفسير الطبرى ٦/٢١٧.

(٢) المسند ٤/١٩٢.

(٣) المسند ٥/٣٨٨، ٣٨٩.

وقال الإمام أحمد^(١): حدثنا عبد الله بن نمير قال حدثنا رزين حبيب الجهنمي حدثني أبو الرقاد قال: خرجت مع مولاي فدفعت إلى حذيفة وهو يقول: إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله ﷺ فيصير منافقاً، وإنني لأسمعها من أحدكم في المقدد الواحد أربع مرات، لتأمرن بالمعروف ولتهن عن المنكر ولتحاضن على الخير أو ليسخننكم الله جميعاً بعذاب أو ليؤمرن عليكم شراركم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم.

حديث آخر قال الإمام أحمد^(٢) أيضاً. حدثني يحيى بن سعيد عن زكريا حدثنا عامر رضي الله عنه قال: سمعت النعمان بن بشير رضي الله عنه يخطب يقول: وأواماً بأصبعيه إلى أذنيه يقول: مثل القائم على حدود الله الواقع فيها والمداهنة فيها كمثل قوم ركبوا سفينه فأصاب بعضهم أسفلها وأوغرها وشرها وأصاب بعضهم أعلىها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء مروا على من فوقهم فإذا ذهبتهم فقالوا لو خرقنا في نصبينا خرقاً فاستيقينا منه ولم نؤذ من فوقنا: فإن تركوه وأمرهم هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعاً^(٣)، انفرد بإخراجه البخاري دون مسلم فرواه في الشريعة والشهادات، والترمذني في الفتنة من غير وجه عن سليمان بن مهران الأعمش عن عامر بن شراحيل الشعبي به.

حديث آخر قال الإمام أحمد^(٤): حدثنا حسين حدثنا خلف بن خليفة عن ليث عن علقة بن مرثد عن المعاور بن سويد عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول «إذا ظهرت المعاصي في أمتي عمهم الله بعذاب من عنده» فقلت يا رسول الله: أما فيهم أناس صالحون قال «بلى» قالت كيف يصنع أولئك؟ قال «يصيبهم ما أصاب الناس ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان».

حديث آخر قال الإمام أحمد^(٥): حدثنا حجاج بن محمد حدثنا شريك عن أبي إسحاق عن المنذر بن جرير عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ «ما من قوم يعملون بالمعاصي وفيهم رجال أعز منهم وأمنع لا يغيره إلا عذابهم أو أصحابهم العقاب» ورواه أبو داود^(٦) عن مسدد عن أبي الأحوص عن أبي أبي إسحاق به.

وقال الإمام أحمد^(٧) أيضاً: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، سمعت أبا إسحاق

(١) المسند ٣٩٠ / ٥.

(٢) المسند ٢٦٩ / ٤، ٢٧٠، ٢٧٤.

(٣) خرجه البخاري في الشريعة باب ٦، والشهادات باب ٣٠، والترمذني في الفتنة باب ١٢.

(٤) المسند ٣٠٤ / ٦.

(٥) المسند ٣٦١ / ٤.

(٦) كتاب الملاحم باب ١٧.

(٧) المسند ٣٦٤ / ٤، ٣٦٦.

يحدث عن عبيد الله بن جرير، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي هم أعز وأكثر من يعلمون ثم لم يغورو إلا عمهم الله بعذاب»، ثم رواه أيضاً عن وكيع عن إسرائيل، وعن عبد الرزاق عن عمر وعن أسود عن شريك ويونس كلهم عن أبي إسحاق السبئي به وأخرجه ابن ماجه^(١) عن علي بن محمد عن وكيع به، وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا سفيان حدثنا جامع بن أبي راشد عن منذر عن الحسن بن محمد عن امرأته عن عائشة تبلغ به النبي ﷺ «إذا ظهر السوء في الأرض أنزل الله بأهل الأرض بأسه» فقلت وفيهم أهل طاعة الله؟ قال: «نعم ثم يصيرون إلى رحمة الله».

وَأَذْكُرُوا إِذَا أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعِفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفُوكُمُ النَّاسُ فَعَوَّذُكُمْ وَأَيَّدُكُمْ بِنَصْرِهِ
وَرَرَقُكُمْ مِّنَ الطَّيْبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشَكَّرُونَ

ينبه تعالى عباده المؤمنين على نعمه عليهم، وإحسانه إليهم، حيث كانوا قليلين فكثراً هم ومستضعفون خائفين فقواهم ونصرهم، وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات واستشكرهم، فأطاعوه وامتثلوا جميع ما أمرهم. وهذا كان حال المؤمنين حال مقامهم بمكة قليلين مستخفين مضطهددين يخافون أن يتخطفهم الناس من سائر بلاد الله من شرك ومجوسى ورومى، كلهم أعداء لهم لقلتهم وعدم قوتهم، فلم يزل ذلك دأبهم حتى أذن الله لهم في الهجرة إلى المدينة فآواهم إليها وقيض لهم أهلها أروا ونصروا يوم بدر وغيره، وواسوا بأموالهم وبذلوا مهجهم في طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ.

قال قتادة بن دعامة السدوسي رحمه الله في قوله تعالى: «وَذَكُرُوا إِذَا أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعِفُونَ فِي الْأَرْضِ»، قال: كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلاً، وأشقاء عيشاً، وأجوعه بطوناً، وأعراه جلوداً وأبينه ضلالاً، من عاش منهم عاش شقياً، ومن مات منهم ردي في النار يؤكلون ولا يأكلون، والله ما نعلم قبيلاً من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر منزلة منهم حتى جاء الله بالإسلام فمكثوا في البلاد وسعوا به في الرزق وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس وبالإسلام أعطى الله مارأيت فاشكروا الله على نعمه فإن ربكم منعم يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله.

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَلَا تَخُونُوا أَمْنَتُكُمْ وَإِنْتُمْ تَعْلَمُونَ
أَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ

قال عبد الرزاق بن أبي قتادة والزهري: أنزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر حين بعثه

(١) كتاب الفتنة باب ٢٠.

(٢) المسند ٤١/٦.

رسول الله ﷺ إلىبني قريطة لينزلوا على حكم رسول الله ﷺ فاستشاروه في ذلك فأشار عليهم بذلك وأشار بيده إلى حلقة، أي إنه الذبح، ثم فطن أبو لبابة ورأى أنه قد خان الله ورسوله، فحلف لا يذوق ذوقاً حتى يموت أو يتوب الله عليه، وانطلق إلى مسجد المدينة فربط نفسه في سارية منه، فمكث كذلك تسعة أيام حتى كان يخر مغشياً عليه من الجهد حتى أنزل الله توبته على رسوله، فجاء الناس يبشرونه بتوبة الله عليه، وأرادوا أن يحلوه من السارية، فحلف لا يحله منها إلا رسول الله ﷺ بيده، فحمله، فقال: يا رسول الله: إني كنت نذرت أن أنخلع من مالي صدقة، فقال «يجزيك الثالث أن تصدق به».

وقال ابن جرير^(١): حدثني الحارث حدثنا عبد العزيز حدثنا يونس بن الحارث الطائي حدثنا محمد بن عبيد الله بن عون الثقفي عن المغيرة بن شعبة قال: نزلت هذه الآية في قتل عثمان، رضي الله عنه «يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول» الآية.

وقال ابن جرير^(٢) أيضاً: حدثنا القاسم بن بشر بن معروف حدثنا شبابة بن سوار حدثنا محمد بن المحرم قال لقيت عطاء بن أبي رباح فحدثني قال: حدثني جابر بن عبد الله أن أبا سفيان خرج من مكة فأتى جبريل رسول الله ﷺ فقال: إن أبا سفيان بمكان كذا وكذا، فقال رسول الله ﷺ «إن أبا سفيان في موضع كذا وكذا فاخرجوه إليه واكتموه» فكتب رجل من المنافقين إليه إن محمداً يريدكم فخذلوا حذركم فأنزل الله عز وجل «لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم» الآية، هذا حديث غريب جداً، وفي سنته وسيقه نظر.

وفي الصحيحين قصة حاطب بن أبي بلتعة أنه كتب إلى قريش يعلمهم بقصد رسول الله ﷺ إياهم عام الفتح، فأطلع الله رسوله على ذلك، فبعث في إثر الكتاب فاسترجعه واستحضر حاطباً فأقر بما صنع، وفيها قام عمر بن الخطاب فقال يا رسول الله: ألا أضرب عنقه، فإنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين؟ فقال: «دعا فإنه قد شهد بدرأً، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»^(٣).

قلت: والصحيح أن الآية عامة، وإن صح أنها وردت على سبب خاص، فالأخذ بعموم النطق لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء. والخيانة تعم الذنوب الصغار والكبار الالزمة والمتعلقة. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس «وتخونوا أماناتكم» الأمانة، الأعمال التي اثمن الله عليها العباد، يعني الفريضة. يقول: «لا تخونوا» لا تنقضوها^(٤). وقال في رواية: «لا تخونوا الله والرسول»، يقول بترك ستته وارتكاب معصيته.

(١) تفسير الطبرى ٦ / ٢٢٠.

(٢) تفسير الطبرى ٦ / ٢٢٠.

(٣) تقدم الحديث مع تخريرجه في الآية ٩، من هذه السورة.

(٤) انظر تفسير الطبرى ٦ / ٢٢١.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير في هذه الآية، أي لا تظهروا له من الحق ما يرضي به منكم، ثم تختلفون في السر إلى غيره، فإن ذلك هلاك لأماناتكم، وخيانة لأنفسكم^(١). وقال السدي: إذا خانوا الله والرسول فقد خانوا أماناتهم، وقال أيضاً: كانوا يسمعون من النبي ﷺ الحديث فيفسونه حتى يبلغ المشركين، وقال عبد الرحمن بن زيد: نهاكم أن تخونوا الله والرسول كما صنع المنافقون^(٢).

وقوله ﴿واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾، أي اختبار وامتحان منه لكم إذ أعطاكموها ليعلم أشكرونه عليها وتطيعونه فيها أو تشتللون بها عنه وتعتابون بها منه كما قال تعالى: ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم﴾ [التغابن: ١٥] وقال ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾ [الأنباء: ٣٥]. وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهموا أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون﴾ [المافقون: ٩]. وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهם﴾ [التغابن: ١٤] الآية.

وقوله ﴿وأن الله عنده أجر عظيم﴾ أي ثوابه وعطاؤه وحناهه خير لكم من الأموال والأولاد، فإنه قد يوجد منهم عدو، وأكثرهم لا يعني عنك شيئاً، والله سبحانه هو المتصرف المالك للدنيا والآخرة ولديه الثواب الجزييل يوم القيمة. وفي الآخر يقول الله تعالى: يا ابن آدم، اطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء، وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال «ثلاث من كن فيه، وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا الله، ومن كان أن يلقى في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه»^(٣)، بل حب رسول الله ﷺ مقدم على الأولاد والأموال والنفوس، كما ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وأهله وماله والناس أجمعين»^(٤).

يَأَيُّهَا الَّذِينَ أَمَّنُوا إِنْ تَنَقُّلُوا اللَّهَ يَعْلَمُ لَكُمْ فِرْقَانًا وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَعْفُرُ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو
الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

قال ابن عباس والسدي ومجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة ومقاتل بن حيان وغير واحد **﴿فرقانا﴾** مخرجاً، زاد مجاهد في الدنيا والآخرة، وفي رواية عن ابن عباس **﴿فرقانا﴾** نجاة، وفي رواية عنه نصراً، وقال محمد بن إسحاق **﴿فرقانا﴾** أي فصلاً بين الحق والباطل وهذا

(١) تفسير الطبرى ٢٢١ / ٦.

(٢) تفسير الطبرى ٢٢٠ / ٦.

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان باب ٩، والأدب باب ٤٢، ومسلم في الإيمان حديث ٦٦.

(٤) أخرجه البخاري في الإيمان باب ٨، ومسلم في الإيمان حديث ٦٩، ٧٠.

التفسير من ابن إسحاق أعم مما تقدم وهو يستلزم ذلك كله، فإن من اتقى الله بفعل أوامرها وترك زواجره وفق لمعرفة الحق من الباطل، فكان ذلك سبب نصره ونجاته ومخرجه من أمور الدنيا وسعادته يوم القيمة وتکفير ذنبه وهو محظاه، وغفرها سترها عن الناس وسبباً لنيل ثواب الله الجزييل ک قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا انقوا الله وأمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويفر لكم والله غفور رحيم» [الحديد: ٢٨].

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبُوكُمْ أَوْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يُخْرِجُوكُمْ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ
المُمْكِرِينَ

قال ابن عباس ومجاہد وقناة «ليثبوك» ليقيدوك، وقال عطاء وابن زيد: ليحبسوك، وقال السدي: الإثبات هو الحبس والوثاق، وهذا يشمل ما قاله هؤلاء وهؤلاء وهو مجمع الأقوال، وهو الغالب من صنيع من أراد غيره بسوء، وقال سنید عن حجاج عن ابن جريج: قال عطاء: سمعت عبيد بن عمیر يقول: لما ائتمروا بالنبي ﷺ ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه. قال له عمہ أبو طالب: هل تدری ما ائتمروا بك؟ قال «يريدون أن يسحروني أو يقتلوني أو يخرجوني». فقال: من أخبرك بهذا؟ قال «ربی». قال: نعم الرب ربک استوضص به خيراً. قال: أنا استوصصي به، بل هو يستوصصي بي»^(١).

وقال أبو جعفر بن جریر^(٢): حدثني محمد بن إسماعيل المصري المعروف بالوساوي، أخبرنا عبد الحميد بن أبي داود عن ابن جريج عن عطاء عن عبيد بن عمیر عن المطلب بن أبي وداعة أن أبي طالب قال لرسول الله ﷺ: ما يأتمركم بمثل قومكم؟ قال «يريدون أن يسحروني أو يقتلوني أو يخرجوني». فقال: من أخبرك بهذا؟ قال «ربی». قال: نعم الرب ربک فاستوضص به خيراً. قال: أنا استوصصي به، بل هو يستوصصي بي». قال: فنزلت «وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبُوكُمْ أَوْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يُخْرِجُوكُمْ» الآية.

وذكر أبي طالب في هذا غريب جداً، بل منكر، لأن هذه الآية مدنية، ثم إن هذه القصة واجتماع قريش على هذا الاتّمام والمشاورة على الإثبات أو النفي أو القتل إنما كان ليلة الهجرة سواء، وكان ذلك بعد موت أبي طالب ب نحو من ثلاثة سنين لما تمكنا منه واجترؤوا عليه بسبب موت عمہ أبي طالب الذي كان يحوطه وينصره ويقوم بأعبائه.

والدليل على صحة ما قلنا ما روى الإمام محمد بن إسحاق بن يسار صاحب المغازى عن عبد الله بن أبي نجیح عن مجاهد عن ابن عباس قال: وحدثني الكلبي عن باذان مولى أم هانئ عن ابن عباس أن نفراً من قريش من أشراف كل قبيلة اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة فاعتراضهم

(١) انظر تفسير الطبرى ٦/٢٢٦.

(٢) تفسير الطبرى ٦/٢٢٥، ٢٢٦.

إبليس في صورة شيخ جليل فلما رأوه قالوا له من أنت؟ قال شيخ من أهل نجد، سمعت أنكم اجتمعتم فأردت أن أحضركم ولن يعدمكم رأيي ونصحي. قالوا: أجل، ادخل، فدخل معهم، فقال: انظروا في شأن هذا الرجل، والله ليوش肯 أن يواثبكم في أمركم بأمره.

قال قائل منهم: احبسوه في وثاق ثم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء زهير والنابغة إنما هو كأحدهم. قال: فصرخ عدو الله الشيخ النجدي فقال: والله ما هذا لكم برأي والله ليخرجنه ربه من محبسه إلى أصحابه فليوش肯 أن يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم فيمنعوه منكم، فما آمن عليكم أن يخرجوك من بلادكم، قالوا: صدق الشيخ فانظروا في غير هذا.

قال قائل منهم: أخرجوه من بين أظهركم فتستريحوا منه فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع وأين وقع إذا غاب عنكم أذاه واسترحتم وكان أمره في غيركم. فقال الشيخ النجدي: والله ما هذا لكم برأي ألم تروا حلاوة قوله وطلقة لسانه. وأخذ القلوب ما تسمع من حديثه؟ والله لئن فعلتم ثم استعرض العرب ليجتمعن عليه ثم ليأتين إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم. قالوا: صدق والله، فانظروا رأياً غير هذا.

قال: فقال أبو جهل لعنه الله، والله لا شيرن عليكم برأي ما أركم أبصرتموه بعد، لا أرى غيره. قالوا: وما هو؟ قال: تأخذون من كل قبيلة غلاماً شاباً وسيطاً نهاداً، ثم يعطي كل غلام منهم سيفاً صارماً، ثم يضربونه ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها، فما أظن هذا الحي منبني هاشم يقوون على حرب قريش كلها. فإنهم إذا رأوا ذلك، قبلوا العقل واسترحننا وقطعننا أذاه.

قال: فقال الشيخ النجدي: هذا والله الرأي، القول ما قال الفتى، لا أرى غيره. قال: فتفرقوا على ذلك وهم مجتمعون له. فأتى جبريل النبي ﷺ فأمره أن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه وأخبره بمكر القوم فلم يبيت رسول الله ﷺ في بيته تلك الليلة وأذن الله له عند ذلك بالخروج وأنزل الله عليه بعد قدومه المدينة الأنفال يذكر نعمه عليه وبلاءه عنده «وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين» وأنزل في قولهم تربصوا به ريب المنون» [الطور: ٣٠] فكان ذلك اليوم يسمى يوم الزحمة للذى اجتمعوا عليه من الرأى^(١).

وعن السدي نحو هذا السياق وأنزل الله في إرادتهم إخراجه قوله تعالى: «وإن كادوا ليستفزواك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلاً» [الإسراء: ٧٦] وكذا

(١) انظر الآخر في تفسير الطبرى ٢٢٦/٦، وسيرة ابن هشام ٤٨٠/١، ٤٨٣.

روى العوفي عن ابن عباس، وروي عن مجاهد وعروة بن الزبير وموسى بن عقبة وقتادة ومقسم وغير واحد نحو ذلك، وقال يونس بن بكير عن ابن إسحاق فأقام رسول الله ﷺ ينتظر أمر الله حتى إذا اجتمعت قريش فمكررت به وأرادوا به ما أرادوا أتاه جبريل عليه السلام فأمره أن لا يبيت في مكانه الذي كان يبيت فيه فدعى رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب فأمره أن يبيت على فراشه ويتسجى ببرد له أخضر ففعل ثم خرج رسول الله ﷺ على القوم وهم على بابه، وخرج معه بحفنة من تراب فجعل يذرها على رؤوسهم وأخذ الله بأصبارهم عن نبيه محمد ﷺ وهو يقرأ **﴿يَسْ وَالْقُرْآنُ الْحَكِيمُ﴾** - إلى قوله - **﴿فَأَغْشَيْنَا هُمْ فَهُمْ لَا يَبْصِرُونَ﴾** [يس: ٩]، وقال الحافظ أبو بكر البهقي: روى عن عكرمة ما يؤكّد هذا.

وقد روى ابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه من حديث عبد الله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس، قال: دخلت فاطمة على رسول الله ﷺ وهي تبكي فقال: «ما يبكيك يا بنتي؟» قالت يا أبت وما لي لا أبكي وهؤلاء الملا من قريش في الحجر يتعاهدون باللات والعزى، ومنة الثالثة الأخرى لو قد رأوك لقاموا إليك فيقتلونك وليس منهم إلا من قد عرف نصيبه من دمك، فقال: «يا بنتي أتنى بوضوء» فتوضاً رسول الله ﷺ ثم خرج إلى المسجد فلما رأوه قالوا: ها هو ذا فطاطاوا رؤوسهم وسقطت رقابهم بين أيديهم فلم يرفعوا بأصبارهم فتناول رسول الله ﷺ قبضة من تراب فحسبهم بها وقال: «شاهدت الوجوه» فما أصاب رجلاً منهم حصة من حصياته إلا قتل يوم بدر كافراً، ثم قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجا، ولا أعرف له علة.

وقال الإمام أحمد^(١): حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر أخبارني عثمان الجزري، عن مقسم مولى ابن عباس أخبره ابن عباس في قوله: **﴿وَإِذْ يَمْكِرُ بِكَ﴾** الآية قال: تشاورت قريش ليلة بمكة فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبوه بالوثاق يريدون النبي ﷺ، وقال بعضهم بل اقتلوه، وقال بعضهم: بل أخرجوه فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك فبات علي رضي الله عنه على فراش رسول الله ﷺ، وخرج النبي ﷺ حتى لحق بالغار وبات المشركون يحرسون علياً يحسبونه النبي ﷺ، فلما أصبحوا ثاروا إليه فلما رأوا علياً رد الله تعالى مكرهم فقالوا: أين صاحبك هذا؟ قال لا أدري، فاقتصرت أثره فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم فصعدوا في الجبل فمروا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا لو دخل ه هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه فمكث فيه ثلاثة ليال، وقال محمد بن إسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير في قوله **﴿وَيَمْكِرُونَ وَيَمْكِرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾** أي فمكرت بهم بكيدي المتيين حتى خلصتك منهم.

وَإِذَا تُلَأِ عَلَيْهِمْ أَيَّتُنَا قَالُوا فَسَمِعْنَا لَوْ شَاءَ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢﴾
وَإِذَا قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّكَنَاءِ أَوْ أَتْبِنَا
بِعَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٤﴾

ي الخبر تعالى عن كفر قريش وعنتهم وتمردهم وعنادهم ودعواهم الباطل عند سماع آياته إذا تلت عليهم أنهم يقولون «قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا» وهذا منهم قول بلا فعل وإن فقد تحدوا غير ما مرة أن يأتوا بسورة من مثله فلا يجدون إلى ذلك سبيلا وإنما هذا القول منهم يغرون به أنفسهم ومنتبعهم على باطلهم.

وقد قيل إن القائل لذلك هو النضر بن الحارث لعنه الله كما قد نص على ذلك سعيد بن جبير والستي وابن جريج وغيرهم فإنه لعنه الله كان قد ذهب إلى بلاد فارس وتعلم من أخبار ملوكيهم رسم واسفنديار، ولما قدم وجد رسول الله ﷺ قد بعثه الله وهو يتلو على الناس القرآن فكان عليه الصلاة والسلام إذا قام من مجلس جلس فيه النضر فحدثهم من أخبار أولئك ثم يقول بالله أينا أحسن قصصاً أنا أو محمد؟ ولهذا لما أمكن الله تعالى منه يوم بدر وقع في الأسرى أمر رسول الله ﷺ أن تضرب رقبته صبراً بين يديه ففعل ذلك، والله الحمد.

وكان الذي أسره المقداد بن الأسود رضي الله عنه كما قال ابن جرير^(١): حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير قال قتل النبي ﷺ يوم بدر صبراً عقبة بن أبي معيط وطعيمة بن عدي والنضر بن الحارث وكان المقداد أسر النضر فلما أمر بقتله قال المقداد يا رسول الله أسيري فقال رسول الله ﷺ إن كأن يقول في كتاب الله عز وجل ما يقول فأمر رسول الله ﷺ بقتله فقال المقداد يا رسول الله أسيري فقال رسول الله ﷺ «اللهم أغنِ المقداد من فضلك» فقال المقداد هذا الذي أردت، قال وفيه أنزلت هذه الآية «وَإِذَا تُلَأِ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا فَسَمِعْنَا لَوْ شَاءَ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٥﴾».

وكذا رواه هشيم عن أبي بشر جعفر بن أبي دحية عن سعيد بن جبير أنه قال المطعم بن عدي بدل طعيمة وهو غلط لأن المطعم بن عدي لم يكن حياً يوم بدر، ولهذا قال رسول الله ﷺ يومئذ: لو كان المطعم بن عدي حياً ثم سألي في هؤلاء التتنى لوهبتم له^(٢) يعني الأسرى لأنه كان قد أجار رسول الله ﷺ يوم رجع من الطائف.

ومعنى «أساطير الأولين» وهو جمع أسطورة أي كتبهم اقتبسها فهو يتعلم منها ويتلوها على الناس وهذا هو الكذب البحث كما أخبر الله عنهم في الآية الأخرى «وقالوا أسطير

(١) تفسير الطبرى / ٦ . ٢٣٠

(٢) أخرجه البخاري في الخمس باب ١٦ ، والمغازي باب ١٢ ، وأبو داود في الجهاد باب ١٢٠ ، وأحمد في المسند / ٤ . ٨٠

الأولين اكتتبها فهي تملئ عليه بكرة وأصيلاً قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيمًا» [الفرقان: ٥ - ٦] أي لمن تاب إليه وأناب فإنه يتقبل منه ويصفح عنه، وقوله «إذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم» هذا من كثرة جهلهم وشدة تكذيبهم وعنادهم وعتوهم، وهذا مما عيبوا به وكان الأولى لهم أن يقولوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ووقفنا لاتباعه ولكن استفتحوا على أنفسهم واستعجلوا العذاب، وتقديم العقوبة كقوله تعالى: «ويستعجلونك بالعذاب ولو لا أجل مسمى لجاءهم العذاب ول يأتيهم بعنة وهم لا يشعرون» [العنكبوت: ٥٣] «وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب» [ص: ١٦] قوله «سأل سائل بعذاب واقع للكافرين ليس له دافع من الله ذي المعارض» [المعارج: ١ - ٣].

وكذلك قال الجهلة من الأمم السالفة كما قال قوم شعيب له «فأسقط علينا كسفًا من السماء إن كنت من الصادقين» [الشعراء: ١٨٧] وقال هؤلاء «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم» قال شعبة عن عبد الحميد صاحب الزيادي عن أنس بن مالك قال هو أبو جهل بن هشام قال «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم» فنزلت «وما كان الله ليذنبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون» رواه البخاري^(١) عن أحمد ومحمد بن النضر كلّاهما عن عبيد الله بن معاذ عن أبيه عن شعبة به وأحمد هذا هو أحمد بن النضر بن عبد الوهاب قاله الحاكم أبو أحمد والحاكم أبو عبد الله النيسابوري، والله أعلم.

وقال الأعمش عن رجل عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله «إذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم» قال هو النضر بن الحارث بن كلدة قال: فأنزل الله «سأل سائل بعذاب واقع للكافرين ليس له دافع» [المعارج: ١ - ٢] وكذا قال مجاهد وعطاء وسعيد بن جبير والسدسي: إنه النضر بن الحارث زاد عطاء فقال الله تعالى: «وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب» [ص: ١٦] وقال «ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة» [الأنعام: ٩٤] وقال «سأل سائل بعذاب واقع للكافرين» [المعارج: ١ - ٢] قال عطاء ولقد أنزل الله فيه بضع عشرة آية من كتاب الله عز وجل^(٢)، وقال ابن مردويه حدثنا محمد بن إبراهيم حدثنا الحسن بن أحمد بن الليث حدثنا أبو غسان حدثنا أبو نميلا حدثنا الحسين عن ابن بريدة عن أبيه قال:رأيت عمرو بن العاص واقفاً يوم أحد على فرس وهو يقول: اللهم إن كان ما يقول محمد حقاً فاخسفي بي وبفرسي. وقال قتادة في قوله «إذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك» الآية قال: قال ذلك سفة هذه الأمة وجهلتها

(١) كتاب التفسير، تفسير سورة ٨، باب ٢.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٦/٢٣١.

فعاد الله بعائذته ورحمته على سفة هذه الأمة وجهلتها^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَعْذِبْهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مَعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو حذيفة موسى بن مسعود حدثنا عكرمة بن عمارة عن أبي زميل سماك الحنفي عن ابن عباس قال كان المشركون يطوفون بالبيت ويقولون لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، فيقول النبي ﷺ: قد، قد، ويقولون: اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. ويقولون غفرانك غفرانك فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَعْذِبْهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ الآية قال ابن عباس كان فيهم أمانة النبي ﷺ والاستغفار فذهب النبي ﷺ وبقي الاستغفار^(٢).

وقال ابن جرير^(٣): حدثني الحارث حدثني عبد العزيز حدثنا أبو معشر عن يزيد بن رومان ومحمد بن قيس قالا: قالت قريش بعضها لبعض محمد أكرم الله من بيته ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ الآية فلما أنسوا ندموا على ما قالوا فقالوا غفرانك اللهم. فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مَعَذِّبَهُمْ﴾ - إلى قوله - ﴿وَلَكُنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَعْذِبْهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ يقول: ما كان الله ليذنب قوماً وأنباءهم بين أظهرهم حتى يخرجهم ثم قال ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مَعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ يقول وفيهم من قد سبق له من الله الدخول في الإيمان وهو الاستغفار يستغفرون يعني يصلون يعني بهذا أهل مكة^(٤).

وروي عن مجاهد وعكرمة وعطاء والعوفي وسعيد بن جبير والستي نحو ذلك. وقال الصحاح وأبو مالك ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مَعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ يعني المؤمنين الذين كانوا بمكة، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا عبد الغفار بن داود حدثنا النضر بن عربي قال: قال ابن عباس: إن الله جعل في هذه الأمة أمانين لا يزالون معصومين مجاريين من قوارع العذاب ما داما بين أظهرهم، فأمان قبضه الله إليه وأمان بقي فيكم، قوله ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَعْذِبْهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مَعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾. وقال أبو صالح عبد الغفار: حدثني بعض أصحابنا أن النضر بن عدي حدثه هذا الحديث عن مجاهد عن ابن عباس. وروى ابن مردويه وابن جرير عن أبي موسى الأشعري نحواً من هذا. وكذا روي عن قتادة وأبي العلاء النحوي المقرئ.

وقال الترمذى^(٥): حدثنا سفيان بن وكيع حدثنا ابن نمير عن إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر عن عباد بن يوسف عن أبي بردة بن أبي موسى عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ

(١) تفسير الطبرى / ٦ ٢٣١.

(٢) تفسير الطبرى / ٦ ٢٣٣.

(٣) تفسير الطبرى / ٦ ، ٢٣٣.

(٤) تفسير الطبرى / ٦ ٢٣٣.

(٥) كتاب التفسير، تفسير سورة ٨، باب ٤.

﴿أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمَانِينَ لِأَمْتِي﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَعْذِبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ إِنَّمَا مُضِيَتْ تِرْكَتِهِمُ الْاسْتِغْفَارَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.

ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد^(١) في مسنده والحاكم في مستدركه من حديث عبد الله بن وهب: أخبرني عمرو بن الحارث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال «إن الشيطان قال وعزتك يا رب لا أربح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم». فقال رب: وعزتي وجلالي لا أزال أغرر لهم ما استغفرونني». ثم قال الحكم: صحيح الإسناد ولم يخرجا، وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا رشدين هو ابن سعد حدثني معاوية بن سعد التجيبي عن حديثه عن فضالة بن عبيد عن النبي ﷺ أنه قال «العبد آمن من عذاب الله ما استغفر له الله عز وجل».

وَمَا لَهُمْ أَلَا يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَفْلَاكَاهُمْ إِنْ أَوْلَاهُمْ إِلَّا
الْمُنْفَوْنَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ وَمَا كَانَ صَلَانِهِمْ عِنْدَ الْيَتَمَّ إِلَّا مُكَاهَةً وَتَصْدِيَةً
فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ

يخبر تعالى أنهم أهل لأن يعذبهم، ولكن لم يقع ذلك بهم لبركة مقام الرسول ﷺ بين أظهرهم، ولهذا لما خرج من بين أظهرهم أوقع الله بهم بأسه يوم بدر، فقتل صناديدهم وأسر سراتهم وأرشدهم تعالى إلى الاستغفار من الذنوب التي هم متلبسون بها من الشرك والفساد. وقال قتادة والسدي وغيرهما: لم يكن القوم يستغفرون، ولو كانوا يستغفرون لما عذبوا^(٣).

واختاره ابن جرير، فلو لا ما كان بين أظهرهم من المستضعفين من المؤمنين المستغفرين لوقع بهم البأس الذي لا يرد، ولكن دفع عنهم بسبب أولئك، كما قال تعالى في يوم الحديبية «هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّقُوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدِي مَعْكُوفًا أَنْ يَلْعُجَ مَحْلُهِ وَلَوْلَا رَجُالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٍ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ فَتَصْبِيَكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةٌ بَغْيَرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مِنْ يَشَاءُ لَوْ تَزِيلُوا لِعْذَبَنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا» [الفتح: ٢٥].

قال ابن جرير^(٤): حدثنا ابن حميد حدثنا يعقوب عن أبي المغيرة عن ابن أبي زريق قال: كان النبي ﷺ بمكة فأنزل الله ﷺ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَعْذِبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ، قال: فخرج النبي ﷺ إلى المدينة فأنزل الله ﷺ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ، قال: وكان أولئك البقية من المسلمين الذين بقوا فيها مستضعفين، يعني بمكة «يَسْتَغْفِرُونَ» فلما خرجوا أنزل الله

(١) المسند ٢٩/٣، ٤١، ٧٦.

(٢) المسند ٦/٢٠.

(٣) تفسير الطبرى ٦/٢٣٥.

(٤) تفسير الطبرى ٦/٢٣٢.

﴿وَمَا لَهُمْ أَنْ لَا يَعذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصْدُونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أُولَئِكَ﴾، قال: فَأَذْنَ اللَّهُ فِي فَتْحِ مَكَّةَ فَهُوَ الْعَذَابُ الَّذِي وَعَدُوهُمْ. وَرُوِيَ عَنْ أَبْنِ عَبَّاسٍ وَأَبْنِي مَالِكٍ وَالضَّحَّاكِ وَغَيْرِ وَاحِدٍ نَحْوَ هَذَا، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَاسِخَةٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مَعذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، عَلَى أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ صِدْرُ الْإِسْتَغْفَارِ مِنْهُمْ أَنفُسَهُمْ.

قال ابن جرير^(١): حَدَثَنَا أَبْنُ حَمِيدٍ حَدَثَنَا يَحْيَى بْنُ وَاضْعَفَ عَنْ الْحَسَنِ بْنِ يَزِيدٍ النَّحْوِيِّ عَنْ عَكْرَمَةَ وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ قَالَا: قَالَ فِي الْأَنْفَالِ ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مَعذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مَعذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، فَنَسَخَتْهَا الْآيَةُ الَّتِي تَلِيهَا ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَا يَعذِّبُهُمُ اللَّهُ﴾ - إِلَى قَوْلِهِ - ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كَتَمْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، فَقُوْتُلُوا بِمَكَّةَ فَأَصَابُوهُمْ فِيهَا الْجُوعُ وَالضُّرُّ، وَكَذَّا رَوَاهُ أَبْنُ أَبِي حَاتَّمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي نَمِيلَةَ يَحْيَى بْنِ وَاضْعَفَ.

وقال ابن أبي حاتم: حَدَثَنَا الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ الصَّبَّاحِ حَدَثَنَا حَاجَاجُ بْنُ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبْنِ جَرِيرٍ وَعُثْمَانَ بْنَ عَطَاءٍ عَنْ أَبْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مَعذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ثُمَّ أَسْتَشَنَى أَهْلَ الشَّرْكِ فَقَالَ ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَا يَعذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصْدُونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾^(٢).

وقَوْلُهُ - ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَا يَعذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصْدُونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أُولَئِكَ﴾ إِنَّ أُولَئِكَهُمْ إِلَّا الْمُتَّقِنُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَيْ وَكِيفَ لَا يَعذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصْدُونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَيُّ الَّذِي بِمَكَّةَ يَصْدُونَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهُ عَنِ الصَّلَاةِ فِيهِ وَالظَّوَافِ فِيهِ، وَلَهُذَا قَالَ: ﴿وَمَا كَانُوا أُولَئِكَ إِلَّا الْمُتَّقِنُونَ﴾ أَيْ هُمْ لَيْسُوا أَهْلَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّمَا أَهْلُهُ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمِرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أَوْ لِئَلَّا حَبَطَتْ أَعْمَالَهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ إِنَّمَا يَعْمِرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ أَمْنٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشُ إِلَّا اللَّهُ فَعُسْنَى أَوْلَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهَتَّدِينَ﴾ [التوبه: ١٦ - ١٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَوَصَدَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفَرَ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجِ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، الآيَةُ.

وقال الحافظ أبو بكر بن مردوح في تفسير هذه الآية: حَدَثَنَا سَلِيمَانُ بْنُ أَحْمَدَ هُوَ الطَّبرَانِيُّ، حَدَثَنَا جَعْفَرُ بْنُ إِلَيَّاسَ بْنُ صَدْقَةِ الْمَصْرِيِّ، حَدَثَنَا نَعِيمُ بْنُ حَمَادٍ، حَدَثَنَا نُوحُ بْنُ أَبِي مَرِيمٍ عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدِ الْأَنْصَارِيِّ عَنْ أَنْسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ أُولَئِكَ؟ قَالَ: «كُلُّ تَقِيٍّ وَتَلَاقُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنَّ أُولَئِكَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. وَقَالَ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرِكِهِ: حَدَثَنَا أَبُو بَكْرِ الشَّافِعِيُّ، حَدَثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ الْحَسَنِ، حَدَثَنَا أَبُو حَذِيفَةَ، حَدَثَنَا سَفِيَّانَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَثِيمٍ عَنْ إِسْمَاعِيلِ بْنِ عَبِيدٍ بْنِ رَفَعَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِهِ قَالَ: جَمِيعُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

(١) تفسير الطبراني ٢٣٦/٦.

(٢) آخرجه السيوطي في الدر المثمر ٣٢٨/٣.

قرishaً فقال: «هل فيكم من غيركم؟» ف قالوا فينا ابن أختنا وفينا حليفنا وفينا مولانا فقال: «حليفنا منا وابن أختنا منا ومولانا منا إن أوليائي منكم المتقوون» ثم قال هذا صحيح ولم يخر جاه.

وقال عروة والسدى ومحمد بن إسحاق في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَقْوُونَ﴾ قال هم محمد ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم. وقال مجاهد: هم المجاهدون من كانوا وحيث كانوا، ثم ذكر تعالى ما كانوا يعتمدونه عند المسجد الحرام، وما كانوا يعاملونه به، فقال: ﴿وَمَا كَانُوا
صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مَكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾، قال عبد الله بن عمرو وابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو رجاء العطاردي ومحمد بن كعب القرظي وحجر بن عتبة ونبيط بن شريط وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو الصفير، وزاد مجاهد وكانتوا يدخلون أصابعهم في أفواههم، وقال السدى: المكاء الصفير على نحو طير أبيض يقال له المكاء ويكون بأرض الحجاز ﴿وَتَصْدِيَةً﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو خلاد سليمان بن خلاد، حدثنا يونس بن محمد المؤدب، حدثنا يعقوب يعني ابن عبد الله الأشعري، حدثنا جعفر بن المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا كَانُوا صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مَكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾، قال كانت قريش تطرف بالبيت عراة تصرف وتصدق والمكاء الصفير والتصدية التصديق. وهكذا روى علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس، وكذا روى عن ابن عمر ومجاهد ومحمد بن كعب وأبي سلمة بن عبد الرحمن والضحاك وقتادة وعطيه العوفي وحجر بن عتبة وابن أبي نوح هذا. وقال ابن جرير^(١): حدثنا ابن بشار حدثنا أبو عامر حدثنا فرة عن عطيه عن ابن عمر في قوله ﴿وَمَا كَانُوا صَلَاتُهُمْ . . .﴾ قال المكاء التصدير والتصدية التصدق، قال فرة: وحكى لنا عطيه فعل ابن عمر فصر ابن عمر وأمال خده وصفق بيديه، وعن ابن عمر أيضاً أنه قال: إنهم كانوا يضعون خدودهم على الأرض ويصفرون ويصررون رواه ابن أبي حاتم في تفسيره بستنه عنه.

وقال عكرمة: كانوا يطوفون بالبيت على الشمال، قال مجاهد: وإنما كانوا يصنعون ذلك ليخلطوا بذلك على النبي ﷺ صلاته، وقال الزهري يستهزئون بالمؤمنين، وعن سعيد بن جبير وعبد الرحمن بن زيد ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ قال صدتهم الناس عن سبيل الله عز وجل.

قوله ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، قال الضحاك وابن جريج ومحمد بن إسحاق: هو ما أصابهم يوم بدر من القتل والسب، واختاره ابن جرير^(٢) ولم يحك غيره، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا ابن أبي عمر حدثنا سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال عذاب أهل

(١) تفسير الطبرى ٢٣٩/٦.

(٢) تفسير الطبرى ٢٤١/٦.

الإقرار بالسيف وعذاب أهل التكذيب بالصيحة والزلزلة .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُعَلَّبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ۝ لِيمِيزَ اللَّهُ الْخَيْثَ مِنَ الْطَّيْبِ وَيَجْعَلَ الْخَيْثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكِمُهُمْ جَيْعًا فَيَجْعَلُهُمْ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَنَّاسُوْنَ ۝

قال محمد بن إسحاق: حدثني الزهري ومحمد بن يحيى بن حبان وعااصم بن عمر بن قتادة والحسين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعيد بن معاذ قالوا لما أصييت قريش يوم بدر ورجع فلهم إلى مكة ورجع أبو سفيان بيته مشيا عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجال من قريش أصيب آباءهم وأبناءهم وإخوانهم بدر فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة، فقالوا يا معاشر قريش إن محمدا قد وتركم وقتل خياركم، فأعيننا بهذا المال على حربه لعلنا أن ندرك منه ثاراً بمن أصيب منها ففعلوا، قال فيهم كما ذكر عن ابن عباس أنزل الله عز وجل ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ إلى قوله - **﴿هُمْ يُحْشَرُونَ﴾**^(١) ، وكذا روي عن مجاهد وسعيد بن جبير والحكم بن عيينة وقتادة والسدي وابن أبزى أنها نزلت في أبي سفيان ونفقة الأموال في أحد لقتال رسول الله ﷺ ، وقال الضحاك: نزلت في أهل بدر وعلى كل تقدير فهي عامّة، وإن كان سبب نزولها خاصاً فقد أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع طريق الحق فسيفعلون ذلك ثم تذهب أموالهم **﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾** أي ندامة حيث لم تجد شيئاً لأنهم أرادوا إطفاء نور الله وظهور كلمتهم على كلمة الحق والله تتم نوره ولو كره الكافرون وناصر دينه ومعلن كلمته ومظاهر دينه على كل دين فهذا الخزي لهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار فمن عاش منهم رأى بيته وسمع بأذنه ما يسوءه، ومن قتل منهم أو مات فإلى الخزي البدني والعذاب السرمدي، ولهذا قال: **﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلِبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾**.

وقوله تعالى: **﴿لِيمِيزَ اللَّهُ الْخَيْثَ مِنَ الطَّيْبِ﴾** قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله **﴿لِيمِيزَ اللَّهُ الْخَيْثَ مِنَ الطَّيْبِ﴾** فيميز أهل السعادة من أهل الشقاء، وقال السدي: يميز المؤمن من الكافر، وهذا يتحمل أن يكون هذا التمييز في الآخرة قوله: **﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانِكُمْ أَنْتُمْ وَشَرِكَاؤُكُمْ فَزِيلَنَا بَيْنَهُمْ﴾** [يونس: ٢٨] الآية، قوله: **﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾** [الروم: ١٤] ، وقال في الآية الأخرى: **﴿يُوْمَئِذٍ يَصْدُعُونَ﴾** [الروم: ٤٣] وقال تعالى: **﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيْهَا الْمُجْرِمُونَ﴾** [يس: ٥٩] ويتحمل أن يكون هذا التمييز في الدنيا بما يظهر من أعمالهم للمؤمنين.

(١) تفسير الطبرى ٦/٢٤٣.

وتكون اللام معللة لما جعل الله للكافرين من مال ينفقونه في الصد عن سبيل الله أي إنما أقدرناهم على ذلك ﴿لَيُمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثُ مِنَ الطَّيْبِ﴾ أي من يطيه بقتال أعدائه الكافرين، أو يعصيه بالنكول عن ذلك كقوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقْرِيبَةِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم﴿﴾ [آل عمران: ١٦٦ - ١٦٧] الآية وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيذِرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يُمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيْبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِي طَلَعَكُمْ عَلَىٰ الْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩] الآية.

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَا يَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمُ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢] ونظيرها في براءة أيضاً فمعنى الآية على هذا إنما ابتليناكم بالكافار يقاتلونكم وأقدرناهم على إنفاق الأموال وبذلها في ذلك ﴿لَيُمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثُ مِنَ الطَّيْبِ وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيُرَكِّمُهُ﴾ أي يجمعه كله وهو جمع الشيء بعضه على بعض كما قال تعالى في السحاب ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رَكَاماً﴾ أي متراكماً متراكباً ﴿فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي هؤلاء هم الخاسرون في الدنيا والآخرة.

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُعَذَّرُ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنُّتُ الْأَوَّلِينَ وَقَاتَلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونُ الَّذِينَ كُلُّهُمُ اللَّهُ أَعْلَمُ إِنْ يَنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ وَإِنْ تَوَلُّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانِكُمْ أَنْمَى الْمَوْىَنَ وَنَعَمَ النَّصِيرُ

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا﴾ أي عما هم فيه من الكفر والمشاقة والعناد ويدخلوا في الإسلام والطاعة والإنابة يغفر لهم ما قد سلف أي من كفرهم، وذنبهم وخطاياهم كما جاء في الصحيح من حديث أبي وائل عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «من أحسن في الإسلام لم يؤخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر»^(١) وفي الصحيح أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: الإسلام يجب ما قبله والتوبة تجب ما كان قبلها»^(٢).

وقوله ﴿وَإِنْ يَعُودُوا﴾ أي يستمرروا على ما هم فيه ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنُّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي فقد مضت سنتنا في الأولين أنهم إذا كذبوا واستمرروا على عنادهم أنا نعاجلهم بالعذاب والعقوبة. قال مجاهد في قوله ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنُّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي في قريش يوم بدر وغيرها من الأمم، وقال السدي ومحمد بن إسحاق أي يوم بدر.

وقوله تعالى: ﴿وَقَاتَلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ﴾ قال البخاري^(٣): حدثنا

(١) أخرجه البخاري في المرتدين باب ١ ، وابن ماجه في الزهد باب ٢٩ .

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٤/١٩٩، ٢٠٤، ٢٠٥ .

(٣) كتاب التفسير، تفسير سورة ٨، باب ٥ .

الحسن بن عبد العزيز حدثنا عبد الله بن يحيى حدثنا حمزة بن شريح عن بكر بن عمر عن بكيه عن نافع عن ابن عمر أن رجلاً جاء فقال: يا أبا عبد الرحمن لا تصنع ما ذكر الله في كتابه **﴿وَإِن طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتُلُوا﴾** الآية فما يمنعك أن لا تقاتل كما ذكر الله في كتابه؟ فقال: يا ابن أخي أغير بهذه الآية، ولا أقاتل أحد إلي من أن أغير بالآية التي يقول الله عز وجل **﴿وَمَن يَقْتُل مَؤْمِنًا مَّتَعْمِدًا﴾** [النساء: ٩٣] إلى آخر الآية قال: فإن الله تعالى يقول **﴿وَقَاتَلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُون فَتْنَةٌ﴾** قال ابن عمر قد فعلنا على عهد رسول الله ﷺ إذ كان الإسلام قليلاً وكان الرجل يفتتن في دينه إما أن يقتلوه وإما أن يوثقوه حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة، فلما رأى أنه لا يوافقه فيما يريد قال مما قولكم في علي وعثمان؟ قال ابن عمر أما قولي في علي وعثمان، أما عثمان فكان الله قد عفا عنه وكرهتم أن يغفو الله عنه، وأما علي فابن عم رسول الله ﷺ وختنه وأشار بيده وهذه ابنته أو بنته حيث ترون.

وحدثنا أحمد بن يونس حدثنا زهير حدثنا بيان أن ابن وبرة حدثه قال حدثني سعيد بن جبير قال: خرج علينا أو إلينا ابن عمر رضي الله عنهما فقال كيف ترى في قتال الفتنة؟ فقال: وهل تدرى ما الفتنة؟ كان محمد ﷺ يقاتل المشركين وكان الدخول عليهم فتنة، وليس بقتالكم على الملك^(١). هذا كله سياق البخاري رحمه الله تعالى وقال عبيد الله عن نافع عن ابن عمر أنه أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا: إن الناس قد صنعوا ما ترى وأنت ابن عمر بن الخطاب وأنت صاحب رسول الله ﷺ فما يمنعك أن تخرج؟ قال يمنعني أن الله حرم علي دم أخي المسلم. قالوا أو لم يقل الله **﴿وَقَاتَلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُون فَتْنَةٌ وَيَكُونُ الدِّينُ كَلِهُ لَهُ﴾**? قال قد قاتلنا حتى لم تكون فتنة وكان الدين كله له، وأنت تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله.

وكذا روى حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أيوب بن عبد الله اللخمي، قال كنت عند عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، فأتاه رجل فقال: إن الله يقول **﴿وَقَاتَلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُون فَتْنَةٌ وَيَكُونُ الدِّينُ كَلِهُ لَهُ﴾**، قال: قد قاتلنا حتى لم تكون فتنة، وأنت تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله. وكذا رواه حماد بن سلمة، فقال ابن عمر: قاتلت أنا وأصحابي حتى كان الدين كله له، وذهب الشرك ولهم تكون فتنة، ولكنك وأصحابك تقاتلون حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله، رواهما ابن مردويه.

وقال أبو عوانة: عن الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه، قال: قال ذو البطين، يعني أسامة بن زيد: لا أقاتل رجلاً يقول لا إله إلا الله أبداً. فقال سعد بن مالك: وأنا والله لا أقاتل رجلاً يقول لا إله إلا الله أبداً، فقال رجل ألم يقل الله **﴿وَقَاتَلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُون فَتْنَةٌ وَيَكُونُ الدِّينُ كَلِهُ لَهُ﴾**? فقال: قد قاتلنا حتى لم تكون فتنة وكان الدين كله له. رواه ابن مردويه، وقال

(١) راجع الحاشية السابقة.

الضحاك عن ابن عباس **﴿وَقَاتَلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾**، يعني لا يكون شرك، وكذا قال أبو العالية ومجاحد والحسن وقتادة والربيع بن أنس والسدسي ومقاتل بن حيان وزيد بن أسلم، وقال محمد بن إسحاق: بلغني عن الزهري عن عروة بن الزبير، وغيره من علمائنا، **﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾**، حتى لا يفتن مسلم عن دينه.

وقوله **﴿وَيَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾** قال الضحاك: عن ابن عباس في هذه الآية، قال يخلص التوحيد لله، وقال الحسن وقتادة وابن جرير **﴿وَيَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾** أن يقال لا إله إلا الله، وقال محمد بن إسحاق: ويكون التوحيد خالصاً لله، ليس فيه شرك، ويخلع ما دونه من الأنداد.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: **﴿وَيَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾**، لا يكون مع دينكم كفر، ويشهد لهذا ما ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال «أمرت أن أقاتل الناس، حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم، إلا بحقها، وحسابهم على الله عز وجل»^(١) وفيهما عن أبي موسى الأشعري قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية، ويقاتل رباء، أي ذلك في سبيل الله عز وجل؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله عز وجل»^(٢).

وقوله **﴿فَإِنْ انتَهُوا﴾** أي بقتالكم عمما هم فيه من الكفر فكفوا عنه، وإن لم تعلموا بواسطتهم **﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾**، قوله **﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَخَلُوا سَبِيلُهُمْ﴾** [التوبه: ٥]، الآية، وفي الآية الأخرى **﴿فَإِخْرَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾** [التوبه: ١١]، وقال **﴿وَقَاتَلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾** [البقرة: ١٩٣] وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال لأسماء، لما علا ذلك الرجل بالسيف، فقال لا إله إلا الله فضربه فقتلته، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال لأسماء: «أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟ وكيف تصفع بلا إله إلا الله يوم القيمة؟ فقال يا رسول الله، إنما قالها تعوذًا، قال «هلا شفقت عن قلبه؟» وجعل يقول ويكرر عليه، «من لك بلا إله إلا الله يوم القيمة؟» قال أسماء حتى تمنيت أنني لم أكن أسلمت إلا يومئذ»^(٣).

وقوله **﴿وَإِنْ تُولُوا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مُوْلَاكُمْ نَعْمَ الْمُوْلَىٰ وَنَعْمَ النَّصِيرٍ﴾**، أي وإن استمرروا على خلافكم ومحاربتكم فاعلموا أن الله مولاكم، وسيدكم وناصركم على أعدائكم فنعم المولى

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ١٧، ومسلم في الإيمان حديث ٣٤، ٣٦.

(٢) أخرجه البخاري في العلم باب ٤٥، ومسلم في الإمارة حديث ١٥٠، ١٥١.

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ١٥٨، وأبو داود في الجهاد باب ٩٥، وابن ماجه في الفتن باب ١، وأحمد في المستند ٤٤٩، ٤٣٩. ٢٠٧/٥.

ونعم النصير. وقال محمد بن جرير^(١): حدثني عبد الوارث بن عبد الصمد حدثنا أبي حدثنا أبان العطار حدثنا هشام بن عروة عن عروة أن عبد الملك بن مروان كتب إليه يسأله عن أشياء فكتب إليه عروة: سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد فإنك كتبت إلي تسألني، عن مخرج رسول الله ﷺ من مكة، وسأحبرك به، ولا حول ولا قوة إلا بالله، كان من شأن خروج رسول الله ﷺ من مكة، أن الله أعطاه النبوة، فنعم النبي ونعم السيد ونعم العشيرة، فجزاه الله خيراً، وعرفنا وجهه في الجنة، وأحياناً على ملته وأماتنا وبعثنا عليها، وأنه لما دعا قومه لما بعثه الله به من الهدى والنور الذي أنزل عليه لم يبعدوا منه أول ما دعاهم إليه، وكانوا يسمعون له، حتى إذا ذكر طواغيتهم.

وقدم ناس من الطائف من قريش لهم أموال، أنكر ذلك عليه ناس واشتدوا عليه، وكرهوا ما قال وأغروا به من أطاعهم، فانعطف عنه عامة الناس، فتركوه إلا من حفظه الله منهم، وهم قليل فمكث بذلك ما قدر الله أن يمكن، ثم اتّمرت رؤوسهم بأن يفتنتوا من اتبعه عن دين الله من أبنائهم وإخوانهم وقبائلهم، فكانت فتنة شديدة الزلزال، فافتتن من افتتن وعصم الله من شاء منهم، فلما فعل ذلك بال المسلمين، أمرهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا إلى أرض الحبشة، وكان بالحبشة ملك صالح، يقال له التجاشي، لا يظلم أحد بأرضه، وكان يشن عليه مع ذلك، وكانت أرض الحبشة متجرأً لقريش يتجررون فيها، وكانت مساكن التجارهم يجدون فيها رفاغاً من الرزق، وأمناً ومتجرأً حسناً، فأمرهم بها النبي ﷺ، فذهب إليها عامتهم لما قهروا بمكة، وخافوا عليهم الفتنة، ومكث هو فلم يربح.

فمكث بذلك سنوات يشتدون على من أسلم منهم، ثم إنه فشا الإسلام فيها، ودخل فيه رجال من أشرافهم ومنعتهم، فلما رأوا ذلك استرخوا استرخاء عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه، وكانت الفتنة الأولى: هي التي أخرجت من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ قبل أرض الحبشة مخالفتها، وفراراً مما كانوا فيه من الفتنة والزلزال فلما استرخى عنهم ودخل في الإسلام من دخل منهم تحدث باسترخائهم عنهم، فبلغ من كان بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ أنه قد استرخى عنهم كان منهم بمكة، وأنهم لا يفتون، فرجعوا إلى مكة وكانتوا يؤمنون بها، وجعلوا يزدادون ويكترون، وأنه أسلم من الأنصار بالمدينة ناس كثير.

وفشا الإسلام بالمدينة وطبق أهل المدينة يأتون رسول الله ﷺ بمكة، فلما رأت قريش ذلك، توأمروا على أن يفتونهم ويشتدوا، فأخذوهم فحرضوا على أن يفتونهم، فأصابهم جهد شديد، وكانت الفتنة الآخرة، وكانت فتتان: فتنة أخرجت من خرج منهم إلى أرض الحبشة حين أمرهم النبي ﷺ بها، وأذن لهم في الخروج إليها، وفتنة: لما رجعوا ورأوا من يأتיהם من

أهل المدينة، ثم إنه جاء رسول الله ﷺ من المدينة سبعون نقيباً، رؤوس الذين أسلموا، فوافوه بالحج فباعوه بالعقبة، وأعطوه عهودهم ومواثيقهم، على أنا منك وأنت منا، وعلى أن من جاء من أصحابك أو جتنا فإنا نمنعك مما نمنع منه أنفسنا، فاشتدت عليهم قريش، عند ذلك، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه، أن يخرجوا إلى المدينة، وهي الفتنة الآخرة التي أخرج فيها رسول الله ﷺ أصحابه، وخرج هو، وهي التي أنزل الله عز وجل فيها ﴿وقاتلوكم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله﴾، ثم رواه عن يonus بن عبد الأعلى عن ابن وهب، عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه، عن عروة بن الزبير، أنه كتب إلى الوليد يعني ابن عبد الملك بن مروان بهذا، فذكر مثله، وهذا صحيح إلى عروة رحمة الله.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ حُسْنَمُهُ وَلِرَسُولِهِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّكِيلِ إِنْ كُنْتُمْ أَمْنَثُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ النَّقْيَ الْجَمِيعُانُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

يبين تعالى تفصيل ما شرعه مخصوصاً لهذه الأمة الشريفة، من بين سائر الأمم المتقدمة بإحلال الغنائم. والغنية هي المال المأخوذ من الكفار، بإيجاف^(١) الخيل والركاب، والفيء ما أخذ منهم بغير ذلك، كالأموال التي يصلحون عليها أو يتوفون عنها، ولا وارث لهم، والجزية والخارج ونحو ذلك، هذا مذهب الإمام الشافعي في طائفة من علماء السلف والخلف.

ومن العلماء من يطلق الفيء على ما تطلق عليه الغنية، وبالعكس أيضاً، ولهذا ذهب قتادة إلى أن هذه الآية ناسخة لآية الحشر «ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فللله ولرسول ولذى القرى» [الحشر: ٨] الآية، قال فنسخت آية الأنفال تلك، وجعلت الغنائم أربعة أخماس للمجاهدين، وخمساً منها لهؤلاء المذكورين، وهذا الذي قاله بعيد، لأن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر، وتلك نزلت في بني النضير، ولا خلاف بين علماء السير والمعازى قاطبة، أن بني النضير بعد بدر، وهذا أمر لا يشك فيه ولا يرتاب، فمن يفرق بين معنى الفيء والغنية، يقول تلك نزلت في أموال الفيء، وهذه في الغنائم، ومن يجعل أمر الغنائم والنبيء راجعاً إلى رأي الإمام، يقول: لا مناقاة بين آية الحشر وبين التخمين، إذا رأه الإمام والله أعلم.

فقوله تعالى: «واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن الله خمسه» توكيده لتخمين كل قليل وكثير حتى الخيط والمحيط، قال الله تعالى: «ومن يغلل يأت بما غل يوم القيمة ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون» [آل عمران: ١٦١]، قوله «فإن الله خمسه ولرسول» اختلف المفسرون هنا، فقال بعضهم: لله نصيب من الخمس يجعل في الكعبة. قال أبو جعفر

(١) الإيجاف: سرعة السير، وأوجف دابته: حثها على السير.

الرازي، عن الربيع عن أبي العالية الرياحي، قال: كان رسول الله ﷺ، يؤتى بالغنية فيخسمها على خمسة، تكون أربعة أخماس لمن شهدوا، ثم يأخذ الخمس فيضرب بيده فيه، فإذا حذ منه الذي قبض كفه فيجعله للكعبة وهو سهم الله، ثم يقسم ما بقي على خمسة أسمهم فيكون سهم للرسول، وسهم لذوي القربي، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل^(١).

وقال آخرون: ذكر الله هنا استفتاح كلام للتبرك، وسهم لرسوله عليه السلام، قال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما، كان رسول الله ﷺ إذا بعث سرية فغمروا خمسة الغنية، فضرب ذلك الخمس في خمسة، ثم قرأ «واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن الله خمسة وللرسول» فإن الله خمسة، مفتاح كلام «الله ما في السموات وما في الأرض» فجعل سهم الله وسهم الرسول ﷺ واحداً، وهكذا قال إبراهيم التخعي والحسن بن محمد ابن الحنفية، والحسن البصري والشعبي وعطاء بن أبي رباح، وعبد الله بن بريدة وقتادة ومغيرة وغير واحد، أن سهم الله ورسوله واحد. ويؤيد هذا ما رواه الإمام الحافظ أبو بكر البهقي، بإسناد صحيح، عن عبد الله بن شقيق، عن رجل، قال: أتيت النبي ﷺ وهو بوادي القرى، وهو يعرض فرساً، فقلت يا رسول الله، ما تقول في الغنية؟ فقال: «الله خمسها وأربعة أخماسها للجيش» قلت مما أحد أولى به من أحد؟ قال: «لا ولا السهم تستخرجه من جيبك ليس أنت أحق به من أخيك المسلم».

وقال ابن جرير^(٢): حدثنا عمران بن موسى، حدثنا عبد الوارث، حدثنا أبان عن الحسن، قال: أوصى الحسن بالخمس من ماله، وقال ألا أرضى من مالي بما رضي الله لنفسه، ثم اختلف قائلوا هذا القول، فروى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: كانت الغنية تخمس على خمسة أخماس، فأربعة منها بين من قاتل عليها، وخمس واحد يقسم على أربعة أخماس، فربع لله وللرسول ﷺ، مما كان لله وللرسول فهو لقرابة النبي ﷺ، ولم يأخذ النبي ﷺ من الخمس شيئاً.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا أبو معمر المتقري، حدثنا عبد الوارث بن سعيد، عن حسين المعلم عن عبد الله بن بريدة في قوله «واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن الله خمسة وللرسول»، قال: الذي لله فلنبيه، والذي للرسول لأزواجه. وقال عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء بن أبي رباح، قال: خمس الله والرسول واحد، يحمل منه ويصنع فيه ما شاء، يعني النبي ﷺ، وهذا أعم وأشمل، وهو أنه ﷺ يتصرف في الخمس الذي جعله الله بما شاء، ويرده في أمته كيف شاء، ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد^(٣) حيث قال: حدثنا

(١) انظر تفسير الطبراني / ٢٥٠ / ٦.

(٢) تفسير الطبراني / ٦ / ٢٥٠ .

(٣) المسند / ٥ ، ٣٢٦ / ٦ .

إسحاق بن عيسى، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم، عن أبي سلام الأعرج، عن المقدام بن معد يكرب الكندي، أنه جلس مع عبادة بن الصامت، وأبي الدرداء والحارث بن معاوية الكندي رضي الله عنهم، فتذكروا حديث رسول الله ﷺ، فقال أبو الدرداء لعبادة: يا عبادة كلمات رسول الله ﷺ في غزوة كلها وكذا في شأن الأخناس، فقال عبادة: إن رسول الله ﷺ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهم في غزوة إلى بعير من المغنم، فلما سلم قام رسول الله ﷺ فتناول وبرة بين أنمليته، فقال: «إن هذه من غنائمكم وإنه ليس لي فيها إلا نصيبي معكم الخمس، والخمس مردود عليكم، فأدوا الخيط والمحيط، وأكبر من ذلك وأصغر، ولا تغلوا فإن الغلول عار ونار على أصحابه في الدنيا والآخرة، وواجهوا الناس في الله القريب والبعيد، ولا تبالوا في الله لومة لائم، وأقيموا حدود الله في السفر والحضر، وواجهوا في الله، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة عظيم، ينجي الله به من الهم والغم»، هذا حديث حسن عظيم، ولم أره في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه.

ولكن روى الإمام أحمد أيضاً وأبو داود والنسائي، من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده عبد الله بن عمرو، عن رسول الله ﷺ نحوه في قصة الخمس والنهي عن الغلول. وعن عمرو بن عنبسة، أن رسول الله ﷺ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهم إلى بعير من المغنم، فلما سلم أخذ وبرة من هذا البعير، ثم قال: «ولا يحل لي من غنائمكم مثل هذه إلا الخمس، والخمس مردود عليكم»^(١) رواه أبو داود والنسائي، وقد كان للنبي ﷺ من الغنائم شيء يصف فيه لنفسه، عبد أو أمة أو فرس أو سيف أو نحو ذلك كما نص عليه محمد بن سيرين وعامر الشعبي، وتبعهما على ذلك أكثر العلماء.

وروى الإمام أحمد والترمذى وحسنه عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ تنفل سيفه ذا الفقار يوم بدر، وهو الذي رأى فيه الرؤيا يوم أحد^(٢)، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كانت صفية من الصفي، رواه أبو داود^(٣) في سنته، وروى أيضاً بإسناده والنسائي أيضاً عن يزيد بن عبد الله قال: كنا بالمربيد إذ دخل رجل معه قطعة أديم، فقرأناها فإذا فيها «من محمد رسول الله إلىبني زهير بن قيس إنكم إن شهدتم أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأقمتم الصلاة، وآتنيتم الزكاة، وأديتم الخمس من المغنم، وسهم النبي ﷺ، وسهم الصفي، أتمتم آمنون بأمان الله ورسوله» فقلنا من كتب هذا؟ فقال رسول الله ﷺ^(٤)، فهذه أحاديث جيدة تدل على تقرير هذا وثبوته.

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد باب ١٤٩، والنسائي في الفيء.

(٢) أخرجه الترمذى في السير باب ١٢، وأحمد في المسند ٢٧١/١.

(٣) كتاب الإمارة باب ٢١.

(٤) أخرجه أبو داود في الإمارة باب ٢١، والنسائي في الفيء.

ولهذا جعل ذلك كثيرون من الخصائص له صلوات الله وسلامه عليه، وقال آخرون: إن الخمس يتصرف فيه الإمام بالمصلحة للمسلمين، كما يتصرف في مال الفيء، وقال شيخنا الإمام العلامة ابن تيمية رحمه الله: وهذا قول مالك وأكثر السلف، وهو أصح الأقوال. فإذا ثبت هذا وعلم، فقد اختلف أيضاً في الذي كان يناله عليه السلام من الخمس، ماذا يصنع به من بعده، فقال قائلون يكون لمن يلي الأمر من بعده، روي هذا عن أبي بكر وعليه وقتادة وجماعة. وجاء فيه حديث مرفوع، وقال آخرون: يصرف في مصالح المسلمين، وقال آخرون: بل هو مردود على بقية الأصناف، ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، اختاره ابن جرير، وقال آخرون: بل سهم النبي ﷺ وسهم ذوي القربى، مردودان على اليتامى والمساكين وابن السبيل.

قال ابن جرير: وذلك قول جماعة من أهل العراق، وقيل إن الخمس جميعه لذوي القربى، كما رواه ابن جرير^(١): حدثنا الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا عبد الغفار، حدثنا المنهاج بن عمرو، سألت عبد الله بن محمد بن علي، وعلي بن الحسين عن الخمس، فقلالا: هو لنا، فقلت لعلي: فإن الله يقول «واليتامى والمساكين وابن السبيل» فقلالا: يتامانا ومساكيننا، وقال سفيان الثوري وأبو نعيم وأبوأسامة، عن قيس بن مسلم، سألت الحسن بن محمد ابن الحنفية رحمه الله تعالى، عن قول الله تعالى: «واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن الله خمسه ولرسول» ف قال: هذا مفتاح كلام، لله الدنيا والآخرة، ثم اختلف الناس في هذين السهمين، بعد وفاة رسول الله ﷺ، فقال قائلون: سهم النبي ﷺ تسلیماً لل الخليفة من بعده، وقال آخرون لقرابة النبي ﷺ وقال آخرون: سهم القرابة لقرابة الخليفة، واجتمع رأيهم أن يجعلوا هذين السهمين في الخيل والعدة في سبيل الله، فكانا على ذلك في خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهم^(٢).

قال الأعمش عن إبراهيم: كان أبو بكر وعمر يجعلان سهم النبي ﷺ في الكراع والسلاح، فقللت لإبراهيم ما كان علي يقول فيه؟ قال: كان أشدهم فيه^(٣)، وهذا قول طائفة كثيرة من العلماء رحمهم الله، وأما سهم ذوي القربى، فإنه يصرف إلىبني هاشم وبني المطلب، لأن بني المطلب وازروا بني هاشم في الجاهلية وفي أول الإسلام، ودخلوا معهم في الشعب غضباً لرسول الله ﷺ وحماية له، مسلمهم طاعة الله ولرسوله، وكافرهم حمية للعشيرة وأنفة وطاعة لأبي طالب عم رسول الله ﷺ، وأما بنو عبد شمس وبنو نوفل، وإن كانوا بني عمهم، فلم يوافقوهم على ذلك، بل حاربوهم ونابدوهم ومالؤوا بطنون قريش على حرب الرسول، ولهذا

(١) تفسير الطبرى ٦/٢٥٤.

(٢) تفسير الطبرى ٦/٢٥٣.

(٣) تفسير الطبرى ٦/٢٥٣.

كان ذم أبي طالب لهم في قصيده اللامية أشد من غيرهم، لشدة قربهم، ولهذا يقول في أثناء قصيده: [الطويل]

عقوبة شرّ عاجلٍ غير آجلٍ^(١)
له شاهدٌ من نفسه غير عائلٍ
بني خلفٍ قيضاً بنا والعياطٍ
وآلٍ قصيٍ في الخطوب الأوائلٍ

جزى الله عنّا عبد شمس ونوفلاً
بميزان قسط لا يخيس شيرة
لقد سفهت أحلام قومٍ تبدلوا
ونحن الصميم من ذئابة هاشمٍ

وقال جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل: مشيت أنا وعثمان بن عفان، يعني ابن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، إلى رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله أعطيت بنى المطلب من خمس خير وتركتنا، ونحن وهم منك بمنزلة واحدة، فقال: «إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد» رواه مسلم. وفي بعض روایات هذا الحديث، «إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام»^(٢)، وهذا قول جمهور العلماء، إنهم بنو هاشم وبنو المطلب.

قال ابن جرير^(٣): وقال آخرون: هم بنو هاشم، ثم روی عن خصيف عن مجاهد، قال: علم الله أن في بنى هاشم فقراء، فجعل لهم الخمس مكان الصدقة، وفي رواية عنه قال: هم قرابة رسول الله ﷺ الذين لا تحل لهم الصدقة، ثم روی عن علي بن الحسين نحو ذلك.

قال ابن جرير^(٤) وقال آخرون: بل هم قريش كلها، حديثي يونس بن عبد الأعلى، حديثي عبد الله بن نافع، عن أبي معاشر، عن سعيد المقبري، قال: كتب نجدة إلى عبد الله بن عباس يسأله عن ذوي القربي، فكتب إليه ابن عباس، كنا نقول: إنما هم، فأبى علينا ذلك قومنا، وقالوا قريش كلها ذوي قربى^(٥) وهذا الحديث صحيح، رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسانى من حديث سعيد المقبرى، عن يزيد بن هرمز أن نجدة كتب إلى ابن عباس يسأله عن ذوي القربي، فذكره إلى قوله: فأبى ذلك علينا قومنا، والزيادة من أفراد أبي معاشر نجح بن عبد الرحمن المدنى، وفيه ضعف.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا إبراهيم بن مهدي المصيصي، حدثنا المعتمر بن

(١) الآيات في ديوان أبي طالب بن عبد المطلب ص ١٢٨ ، والبيت الأول في لسان العرب (عيل)، والبيت الثاني في لسان العرب (عيل)، وتهذيب اللغة ١٩٦/٣ ، ٤٠٢ ، ونتاج العروس (حصص)، ومقاييس اللغة ١٢٤/٢ ، وبلا نسبة في لسان العرب (حصص)، والمخصص ١٢/٢٦٣ ، وكتاب العين ٣/١٤ .

(٢) أخرجه النسائي في الفيء باب ٥.

(٣) تفسير الطبرى ٦/٢٥١ .

(٤) تفسير الطبرى ٦/٢٥٢ .

(٥) انظر تفسير الطبرى ٦/٢٥٢ . وأخرجه أيضاً مسلم في الجهاد حديث ١٤٠ ، وأبو داود في الإمارة باب ٢٠ ، والنسائي في الفيء باب ١ ، ٢ .

سليمان عن أبيه عن حنشن عن عكرمة عن ابن عباس ، قال: قال رسول الله ﷺ: «رغبت لكم عن غسالة الأيدي ، لأن لكم من خمس المخالب ما يغنىكم أو يكفيكم»^(١) ، هذا حديث حسن الإسناد ، وإبراهيم بن مهدي هذا وثقه أبو حاتم ، وقال يحيى بن معين: يأتي بمناير ، والله أعلم .

وقوله **﴿واليتامى﴾** أي أيتام المسلمين ، واختلف العلماء هل يختص بالأيتام الفقراء ، أو يعم الأغنياء والفقرا ؟ على قولين ، والمساكين هم المحاوبيع الذين لا يجدون ما يسد خلتهم ومسكتهم ، **﴿وابن السبيل﴾** هو المسافر أو المريد للسفر إلى مسافة تقصّر فيها الصلاة ، وليس له ما ينفقه في سفره ذلك ، وسيأتي تفسير ذلك في آية الصدقات من سورة براءة إن شاء الله تعالى ، وبه النقة عليه التكلان .

وقوله **﴿إن كنتم آمنتם بالله وما أنزلنا على عبدنا﴾** أي امثالوا ما شرعنا لكم من الخمس في الغنائم ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وما أنزل على رسوله ، ولهذا جاء في الصحيحين من حديث عبد الله بن عباس في حديث وفاة عبد القيس ، أن رسول الله ﷺ قال لهم: «وأمركم بأربع ، وأنهاكم عن أربع . أمركم بالإيمان بالله - ثم قال - هل تدرؤون ما الإيمان بالله ؟ شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وأن تؤدوا الخمس من المعنم»^(٢) ، الحديث بطوله ، فجعل أداء الخمس من جملة الإيمان ، وقد بوب البخاري على ذلك في كتاب الإيمان من صحيحه ، فقال: [باب أداء الخمس من الإيمان] ثم أورد حديث ابن عباس هذا ، وقد بسطنا الكلام عليه في شرح البخاري ، والله الحمد والمنة .

وقال مقاتل بن حيان: **﴿وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان﴾** أي في القسمة ، وقوله **﴿يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير﴾** ، يتبه تعالى على نعمته وإحسانه إلى خلقه ، بما فرق به بين الحق والباطل بدر ، ويسمى الفرقان ، لأن الله أعلى فيه كلمة الإيمان على كلمة الباطل وأظهر دينه ونصر نبيه وحزبه ، قال علي بن أبي طلحة والعوفى عن ابن عباس: يوم الفرقان يوم بدر ، فرق الله فيه بين الحق والباطل ، رواه الحاكم ، وكذا قال مجاهد ومقسم وعبيد الله بن عبد الله والضحاك وقتادة ومقاتل بن حيان وغير واحد أنه يوم بدر .

وقال عبد الرزاق عن معاذ عن الزهرى عن عروة بن الزبير في قوله **﴿يوم الفرقان﴾** يوم فرق الله بين الحق والباطل ، وهو يوم بدر ، وهو أول مشهد شهده رسول الله ﷺ ، وكان رئيس المشركين عتبة بن ربيعة ، فالتقوا يوم الجمعة لتسع عشرة أو سبع عشرة مضت من رمضان ، وأصحاب رسول الله ﷺ يومئذ ثلاثة عشر رجلاً ، والمشركون ما بين الألف

(١) آخرجه السيوطي في الدر المثمر ٣٣٧/٣ .

(٢) آخرجه البخاري في الإيمان باب ٤٠ ، ومسلم في الإيمان حديث ٢٤ .

والتسعمائة، فهزم الله المشركين، وقتل منهم زيادة على السبعين، وأسر منهم مثل ذلك.

وقد روى الحاكم في مستدركه من حديث الأعمش عن إبراهيم عن الأسود عن ابن مسعود، قال في ليلة القدر: تحرروا لإحدى عشرة يقين، فإن في صبيحتها يوم بدر، وقال على شرطهما، وروي مثله، عن عبد الله بن الزبير أيضاً، من حديث جعفر بن بركان، عن رجل عنه، وقال ابن جرير^(١): حدثنا ابن حميد، حدثنا يحيى بن واضح، حدثنا يحيى بن يعقوب أبو طالب، عن ابن عون عن محمد بن عبد الله الثقفي، عن أبي عبد الرحمن السلمي، قال: قال الحسن بن علي: كانت ليلة الفرقان يوم التقى الجمuan لسبعين عشرة من رمضان، إسناد جيد قوي، ورواه ابن مردويه، عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب عن علي قال: كانت ليلة الفرقان، ليلة التقى الجمuan، في صبيحتها ليلة الجمعة لسبعين عشرة مضت من شهر رمضان، وهو الصحيح عند أهل المغازي والسير، وقال يزيد بن أبي حبيب إمام أهل الديار المصرية في زمانه: كان يوم بدر يوم الاثنين، ولم يتابع على هذا، وقول الجمهور مقدم عليه، والله أعلم.

إذ أَنْتُمْ بِالْعُدُوَّةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوَّةِ الْفُصُوْلِ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَفَتْمُهُ فِي الْمِيعَدِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهُمْ كَمْ مِنْ هَلَكَ عَنْ بَيْنَهُ وَيَحْيَى مَنْ حَيَ عَنْ بَيْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلَيْهِمْ^(٢)

يقول تعالى مخبراً عن يوم الفرقان «إذ أنتم بالعدوة الدنيا» أي إذ أنتم نزول بعده الوادي الدنيا القريبة إلى المدينة، «وهم» أي المشركون نزول «بالعدوة القصوى» أي البعيدة من المدينة إلى ناحية مكة، «والركب» أي العير الذي فيه أبو سفيان بما معه من التجارة، «أسفل منكم» أي مما يلي سيف البحر، «ولو تواعدتم» أي أنتم والمشركون إلى مكان لاختلافكم في الميعاد، قال محمد بن إسحاق: وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، في هذه الآية، قال: ولو كان ذلك عن ميعاد منكم ومنهم، ثم بلغكم كثرة عددهم وقلة عدكم، ما لقيتموه.

«ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً» أي ليقضي الله ما أراد بقدرته من إعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله، من غير ملا منكم^(٣)، ففعل ما أراد من ذلك بلطفه، وفي حديث كعب بن مالك قال: إنما خرج رسول الله ﷺ وال المسلمين، يريدون غير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، وقال ابن جرير^(٤): حدثني يعقوب حدثني ابن علي، عن ابن عون عن عمير بن إسحاق، قال: أقبل أبو سفيان في الركب من الشام، وخرج أبو جهل

(١) تفسير الطبرى / ٦ / ٢٥٥.

(٢) على غير ملا: أي على غير اجتماع وتشاور.

(٣) تفسير الطبرى / ٦ / ٢٥٧.

ليمنעה من رسول الله ﷺ وأصحابه، فالتقوا بدر، ولا يشعر هؤلاء بهؤلاء، ولا هؤلاء بهؤلاء، حتى التقى السقاة، ونهد الناس بعضهم بعض.

وقال محمد بن إسحاق في السيرة^(١): ومضى رسول الله ﷺ على وجهه ذلك، حتى إذا كان قريباً من الصفراء، بعث بسبس بن عمرو وعدي بن أبي الرغاء الجهنين، يلتمسان الخبر عن أبي سفيان، فانطلقا حتى إذا وردا بدرأ، فأناخا بعيريهما إلى تل من البطحاء، فاستقيا في شن لهما من الماء، فسمعا جاريتين تختصمان، تقول إحداهما لصاحبتها أقضني حقي، وتقول الأخرى إنما تأتي العبر غداً أو بعد غد فأقضيك حلقك، فخلص بينهما مجدي بن عمرو، وقال صدقت، فسمع بذلك بسبس وعدي، فجلسا على بعيريهما حتى أتيا رسول الله ﷺ، فأخبراه الخبر، وأقبل أبو سفيان حين ولها وقد حذر، فتقدم أمام عيره، وقال لمجدي بن عمرو هل أحسست على هذا الماء من أحد تنكره؟ فقال: لا والله، إلا أنني قد رأيت راكبين أناخا إلى هذا التل فاستقيا من شن لهما ثم انطلقا، فجاء أبو سفيان إلى مناخ بعيريهما، فأخذ من أبعارهما ففتحه فإذا فيه النوى، فقال هذه والله علانف يشرب، ثم رجع سريعاً فضرب وجه عيره فانطلق بها فساحل، حتى إذا رأى أنه قد أحرز عيره إلى قريش فقال: إن الله قد نجى عيركم وأموالكم ورجالكم فارجعوا، فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نأتي بدرأً - وكانت بدر سوقاً من أسواق العرب - فتقيم بها ثلاثة فطموم بها الطعام، ونحر بها الجزر، ونسقى بها الخمر، وتعزف علينا القیان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا، فلا يزالون يهابوننا بعدها أبداً. فقال الأخنس بن شریق: يا عشربني زهرة، إن الله قد أنجى أموالكم ونجى صاحبکم فارجعوا فرجعت بنو زهرة، فلم يشهدوها، ولا بنو عدي.

قال محمد بن إسحاق^(٢): وحدثني يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير قال: وبعث رسول الله ﷺ حين دنا من بدر، علي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام في نفر من أصحابه يتاجسسوه له الخبر، فأصابوا سقاة لقريش غلاماً لبني سعيد بن العاص، وغلاماً لبني الحجاج، فأتوا بهما رسول الله ﷺ، فوجدوه يصلي فجعل أصحاب رسول الله ﷺ يسألونهما لمن أنتما؟ فيقولان: نحن سقاة لقريش، بعشونا نسيئهم من الماء، فكره القوم خبرهما، ورجوا أن يكونا لأبي سفيان فضريوهما، فلما أزلقوهما قالا: نحن لأبي سفيان فتركتوهما، وركع رسول الله ﷺ وسجد سجدين ثم سلم، وقال «إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذبتم تركتموهما، صدقوا والله إنهم لقريش، أخبراني عن قريش» قالا هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى، والكثيب: العنقنق.

فقال لهم رسول الله ﷺ «كم القوم؟» قالا: كثير. قال: «ما عدتهم؟» قالا: ما ندرى. قال

(١) سيرة ابن هشام ١/٦١٧ - ٦١٩.

(٢) سيرة ابن هشام ١/٦١٦، ٦١٧.

«كم ينحرون كل يوم؟» قالا: يوماً تسعاء ويوماً عشراء، قال رسول الله ﷺ: «القوم ما بين التسعمائة إلى الألف» ثم قال لهما: «فمن فيهم من أشراف قريش؟» قالا: عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو البختري بن هشام وحكيم بن حزام ونوفل بن خويلد والحارث بن عامر بن نوفل، وطعيمة بن عدي بن نوفل والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو وعمرو بن عبد ود، فأقبل رسول الله ﷺ على الناس فقال: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاد كبدها».

قال محمد بن إسحاق^(١) رحمه الله تعالى: وحدثني عبد الله بن أبي بكر بن حزم، أن سعد بن معاذ قال لرسول الله ﷺ: لما التقى الناس يوم بدر يا رسول الله، ألا نبني لك عريشًا تكون فيه، وتنسخ إليك ركائبك، وننقى عدونا، فإن أظفرنا الله عليهم وأعزنا فذاك ما نحب، وإن تكن الأخرى، فتجلس على ركائك وتلحق بمن وراءنا من قومنا، فقد والله تختلف عنك أقوام ما نحن بأشد لك حباً منهم، لو علموا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك، ويوازرونك وينصرونك. فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له به فبني له عريش، فكان فيه رسول الله ﷺ وأبو بكر ما معهما غيرهما. قال ابن إسحاق: وارتحلت قريش حين أصبحت، فلما أقبلت ورآها رسول الله ﷺ تصوب من العقنة، وهو الكثيب، الذي جاؤوا منه إلى الوادي، فقال: «اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيالها وفخرها تحادك وتكتذب رسولك اللهم أحنهم الغداة».

وقوله: «ليهلك من هلك عن بيته ويهبّي من حيّ عن بيته»، قال محمد بن إسحاق: أي ليكفر من كفر بعد الحجّة لما رأى من الآية والعبرة، ويؤمّن من آمن على مثل ذلك، وهذا تفسير جيد. وبسط ذلك أنه تعالى يقول: إنما جمعكم مع عدوكم في مكان واحد، على غير ميعاد، لينصركم عليهم ويرفع كلمة الحق على الباطل، ليصير الأمر ظاهراً والحجّة قاطعة والبراهين ساطعة، ولا يبقى لأحد حجّة، ولا شبهة، فحيثئذ يهلك من هلك أي يستمر في الكفر من استمر فيه، على بصيرة من أمره، إنه مبطل لقيام الحجّة عليه، «ويهبّي من حيّ» أي يؤمّن من آمن «عن بيته» أي حجّة وبصيرة، والإيمان هو حياة القلوب، قال الله تعالى: «أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس» [الأنعام: ١٢٢] وقالت عائشة في قصة الإفك فهلك في من هلك^(٢)، أي قال فيها ما قال من البهتان والإفك. قوله: «وإن الله لسميع» أي لدعائكم وتضرعكم واستغاثتكم به، «عليم» أي بكم، وأنتم تستحقون النصر

(١) سيرة ابن هشام ١/٦٢٠، ٦٢١.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٢٤، باب ٦، والمغازي باب ٣٤، ومسلم في التوبة حديث ٥٦، وأحمد في المسند ٦/١٩٥، ولفظ أحمد في المسند: «فهلك فيمن هلك في شأنه»، ولفظ البخاري ومسلم: «فهلك من هلك في شأنه».

على أعدائهم الكفرا المعاندين.

إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكُ قَلِيلًا وَتَأْرِنَكُمْ كَثِيرًا لَفَشِلَتْهُ وَلَتَنْزَعُتْهُ فِي الْأَمْرِ
وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّمَا عَلِيهِ بِدَاتُ الصُّدُورِ ﴿١﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذْ الْتَّقِيَّةُ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا
وَيُقْلِلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَقْعُولاً وَإِنَّ اللَّهَ تَرَجَعُ أَمْرُهُ ﴿٢﴾

قال مجاهد: أراهم الله إياته في منامه قليلاً، وأخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك، فكان تشبيهاً لهم، وكذلك قال ابن إسحاق وغير واحد، وحكي ابن جرير عن بعضهم، أنه رأهم بعينه التي ينام بها، وقد روى ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا أبو قتيبة، عن سهل السراج عن الحسن في قوله: «إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكُ قَلِيلًا» قال بعينك، وهذا القول غريب، وقد صرخ بالمنام هنها، فلا حاجة إلى التأويل الذي لا دليل عليه.

وقوله: «ولو أراكم كثيراً لفشلتم» أي لجبرتم عنهم، واحتلتم فيما بينكم، «ولكن الله سلم» أي من ذلك، بأن أراكم قليلاً «إنه عليم بذات الصدور» أي بما تكتننه الصمائـر وتنطوي عليه الأحسـاء، «يعلم خائنة الأعـين وما تخفي الصدور» [غافر: ١٩] وقوله: «وإذ يُرِيكُمُوهُمْ إِذْ الْتَّقِيَّةُ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا» وهذا أيضاً من لطفه تعالى بهم، إذ أراهم إياته قليلاً فيرأـي العـين، فيجرؤـهم عليهم ويطمعـهم فيـهم، قال أبو إسحـاق السـبـيعـي: عن أبي عـبيـدة، عن عبد الله بن مسعود رضـي الله عنهـ، قالـ: لقد قـللـوا فـي أـعـيـنـا يـومـ بـدرـ، حتـى قـلتـ لـرـجـلـ إـلـى جـنبـيـ تـراـهـ سـبعـينـ؟ـ قالـ: لاـ بلـ هـمـ مـائـةـ، حتـى أـخـذـنـا رـجـلـاـ مـنـهـمـ فـسـأـلـنـاهـ، فـقـالـ: كـنـاـ أـلـفـاـ، رـواـهـ ابنـ أبيـ حـاتـمـ وـابـنـ جـرـيرـ.

وقوله: «ويقللكم في أعيـنـهمـ» قالـ ابنـ أبيـ حـاتـمـ: حدـثـناـ أبيـ حدـثـناـ سـليمـانـ بنـ حـربـ، حدـثـناـ حـمـادـ بنـ زـيدـ، عنـ الزـبـيرـ بنـ الـحـارـثـ عنـ عـكـرـمـةـ «وإذ يُرِيكُمُوهُمْ إِذْ الْتَّقِيَّةُ» الآيةـ، قالـ: حـضـضـ بـعـضـهـمـ عـلـىـ بـعـضـ، إـسـنـادـ صـحـيـحـ، وـقـالـ مـحـمـدـ بنـ إـسـحـاقـ: حدـثـنيـ يـحيـيـ بنـ عـبـادـ بنـ عـبـدـ اللهـ بنـ الزـبـيرـ، عنـ أـيـهـ فـيـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ: «لـيـقـضـيـ اللـهـ أـمـرـاـ كـانـ مـفـعـولاـ» أيـ لـيـلـقـيـ بـيـنـهـمـ الـحـربـ لـلـنـقـمـةـ مـنـ أـرـادـ الـانتـقامـ مـنـهـ، وـالـإنـعـامـ عـلـىـ مـنـ أـرـادـ تـنـامـ النـعـمةـ عـلـيـهـ مـنـ أـهـلـ وـلـايـتهـ، وـمـعـنـىـ هـذـاـ أـنـهـ تـعـالـىـ أـغـرـىـ كـلـاـ مـنـ الـفـرـيقـيـنـ بـالـآخـرـ، وـقـلـلـهـ فـيـ عـيـنـهـ لـيـطـمـعـ فـيـهـ، وـذـلـكـ عـنـ الـمـوـاجـهـةـ، فـلـمـ التـحـمـ الـقـتـالـ وـأـيـدـ اللـهـ الـمـؤـمـنـيـنـ بـالـفـلـقـنـ، بـقـيـ حـزـبـ الـكـفـارـ يـرـىـ حـزـبـ الـإـيمـانـ ضـعـفـيـهـ، كـمـ قـالـ تـعـالـىـ: «قـدـ كـانـ لـكـمـ آيـةـ فـيـ فـتـنـتـنـ التـقـنـتـاـ نـقـاتـلـ فـيـ سـبـيلـ اللـهـ وـأـخـرـىـ كـافـرـةـ يـرـونـهـ مـثـلـهـمـ رـأـيـ الـعـيـنـ وـالـلـهـ يـؤـيدـ بـنـصـرـهـ مـنـ شـاءـ إـنـ فـيـ ذـلـكـ لـعـبـرـةـ لـأـولـيـ الـأـبـصـارـ» [آلـ عمرـانـ: ١٣] وـهـذـاـ هـوـ الـجـمـعـ بـيـنـ هـاتـيـنـ الـآيـتـيـنـ، فـإـنـ كـلـاـ مـنـهـمـ حـقـ وـصـدـقـ، وـلـهـ الـحـمـدـ وـالـمـنـةـ.

يَتَأْمِنُهَا الَّذِينَ أَمْنُوا إِذَا الْقِسْمُ فُكِّهَ فَأَقْبَلُوا وَأَذْكُرُوا اللَّهُ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣﴾ وَأَطْبِعُوا

اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا تَنْزَعُوا فَيُقْسِلُوْا وَتَدْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ

هذا تعليم من الله تعالى لعباده المؤمنين آداب اللقاء وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء، فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فَتَهَا فَاثْبِتُو﴾ ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن أبي أوفى، أن رسول الله ﷺ انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدو، حتى إذا مالت الشمس قام فيهم، فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَتَمَنُوا لِقَاءَ الْعُدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ إِذَا لَقِيْتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوْا وَاعْلَمُوْا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السَّيْفِ» ثم قام النبي ﷺ، وقال: «اللَّهُمَّ مَنْزَلُ الْكِتَابِ، وَمَجْرِي السَّحَابِ، وَهَازِمُ الْأَحْزَابِ، اهْزِمْهُمْ وَانصُرْنَا عَلَيْهِمْ»^(١).

وقال عبد الرزاق: عن سفيان الثوري عن عبد الرحمن بن زياد، عن عبد الله بن يزيد عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَتَمَنُوا لِقَاءَ الْعُدُوِّ وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيْتُمُوهُمْ فَاثْبِتُو وَادْكُرُو اللَّهَ، فَإِنْ صَخَبُوا وَصَاحُوا فَعَلِيهِمْ بِالصَّمْتِ»^(٢)، وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا إبراهيم بن هاشم البغوي، حدثنا أمية بن بسطام، حدثنا معتمر بن سليمان، حدثنا ثابت بن زيد عن رجل عن زيد بن أرقم عن النبي ﷺ مرفوعاً، قال: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الصَّمْتَ عِنْدَ ثَلَاثَةِ عِنْدَ تَلَوَّهِ الْقُرْآنِ، وَعِنْدَ الزَّحْفِ، وَعِنْدَ الْجَنَّازَةِ» وفي الحديث الآخر المروي، يقول الله تعالى: «إِنَّ عَبْدِي كُلُّ عَبْدٍ ذَيْدَرْكُنِي وَهُوَ مَنْاجِزُ قَرْنَهِ»^(٣) أي لا يشغل ذلك الحال، عن ذكري ودعائي واستعانتي.

وقال سعيد بن أبي عروبة: عن قتادة في هذه الآية، قال: افترض الله ذكره عند أشغل ما يكون عند الضرب بالسيوف، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا عبدة بن سليمان، حدثنا ابن المبارك عن ابن جريج عن عطاء، قال: وجوب الإنصات وذكر الله عند الزحف، ثم تلا هذه الآية، قلت: يجهرون بالذكر؟ قال: نعم، وقال أيضاً: قرأ علي يونس بن عبد الأعلى، أنينا ابن وهب، أخبرني عبد الله بن عياش عن يزيد بن فوذر عن كعب الأحبار، قال ما من شيء أحب إلى الله تعالى من قراءة القرآن والذكر، ولو لا ذلك ما أمر الناس بالصلوة والقتال، إلا ترون أنه أمر الناس بالذكر عند القتال، فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فَتَهَا فَاثْبِتُو وَادْكُرُو اللَّهَ مَعَ الظُّلُمَاتِ﴾ قال الشاعر: [الطوبل]

ذَكْرُكَ وَالْخَطْبُ يَحْطُرُ بَيْنَنَا وَقَدْ نَهَلَتْ فِينَا الْمَثَقَةُ السُّمْرُ^(٤)

(١) أخرجه البخاري في الجهاد باب ١١٢، ومسلم في الجهاد حديث ٢، وأبو داود في الجهاد باب ٨٩، وأحمد في المسند ٣٥٤ / ٤.

(٢) أخرجه الدارمي في السير باب ٦.

(٣) أخرجه الترمذى في الدعوات باب ١١٨ ، بلفظ: «إِنَّ عَبْدِي كُلُّ عَنْدِي الَّذِي يَذْكُرُنِي وَهُوَ مَلِّا قِرْنَهِ».

(٤) البيت لأبي العطاء السندي في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ٥٦ ، وشرح شواهد المغني ٢ / ٨٤٠ ، وبالنسبة في شرح المفصل ٢ / ٦٧ ، ومغني الليب ٢ / ٤٢٦ .

وقال عترة: [الكامل]

ولقد ذكرتُك والرماح نواهلٌ مني وبعض الهنْد تقطُّرُ من دمي

فأمر تعالى بالثبات عند قتال الأعداء والصبر على مبارزتهم، فلا يفروا ولا ينكروا ولا يجبنوا، وأن يذكروا الله في تلك الحال ولا ينسوه، بل يستعينوا به ويتوكلا عليه ويسأله النصر على أعدائهم، وأن يطيعوا الله ورسوله في حالهم ذلك، فما أمرهم الله تعالى به ائتمروا، وما نهاهم عنه انزجووا، ولا يتنازعوا فيما بينهم أيضاً فيختلفوا فيكون سبباً لتخاذلهم وفشلهم، **﴿وتذهب ريحكم﴾ أي قوتكم وحدتكم، وما كتم فيه من الإقبال.**

﴿واصبروا إن الله مع الصابرين﴾ وقد كان للصحابة رضي الله عنهم في باب الشجاعة والاتمام بما أمرهم الله ورسوله به، وامثال ما أرشدهم إليه ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم، ولا يكون لأحد ممن بعدهم، فإنهم ببركة الرسول ﷺ وطاعته فيما أمرهم، فتحوا القلوب والأقاليم شرقاً وغرباً في المدة اليسيرة، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم، من الروم والفرس والترك والصقالية والبربر والجبوش، وأصناف السودان والقبط وطوائفبني آدم. قهروا الجميع حتى علت كلمة الله، وظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، في أقل من ثلاثين سنة، فرضي الله عنهم وأراضهم أجمعين، وحضرنا في زمرتهم إنه كريم وهاب.

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَرِهِمْ بَطَرًا وَرَثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
يَعْمَلُونَ **مُحِيطٌ** ٤٧ وَإِذْ رَأَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَنَ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لِأَغَالِبَ لَكُمْ أَيْمَنَ مِنَ النَّاسِ وَإِنَّ
جَارَ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاهُنْ تَكَسَّ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي
أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ٤٨ إِذْ يَكُوْنُ الْمُنْتَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرْضٌ غَرَّ هُنُّ لَا
دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٤٩

يقول تعالى بعد أمره المؤمنين بالإخلاص في القتال في سبيله، وكثرة ذكره، ناهياً لهم عن التشبه بالمرتدين في خروجهم من ديارهم، بطرأ أي دفعاً للحق، **﴿ورثاء الناس﴾** وهو المفاحرة والتكبر عليهم، كما قال أبو جهل: لما قيل له: إن العير قد نجا فارجعوا، فقال: لا والله لا نرجع، حتى نرد ماء بدر، وننحر الجزر، ونشرب الخمر، وتعزف علينا القيان، وتتحدث العرب بمكانتنا فيها يومنا أبداً، فانعكس ذلك عليه أجمع، لأنهم لما وردوا ماء بدر وردوا به الحمام، وركموا في أطواء بدر مهانين أذلاء، صغرة أشقياء في عذاب سرمدي أبيدي، ولهذا قال: **﴿وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾** أي عالم بما جاؤوا به وله، ولهذا جازهم عليه شر الجزاء لهم.

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك والسدي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالذِّينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرَثَاءَ النَّاسِ﴾ قالوا: هم المشركون الذين قاتلوا رسول الله ﷺ يوم بدرا. وقال محمد بن كعب: لما خرجت قريش من مكة إلى بدرا، خرجوا بالقيان والدفوف، فأنزل الله ﷺ ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالذِّينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرَثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَعْمَلُونَ مَحِيط﴾^(١).

وقوله تعالى: ﴿إِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبٌ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ إِنِّي جَارٌ لَكُم﴾ الآية، حسن لهم - لعنه الله - ما جاؤوا له وما هموا به، وأطعمهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس، ونفى عنهم الخشية من أن يؤتوا في ديارهم من عدوهمبني بكر، فقال: إني جار لكم، وذلك أنه تبدي لهم في صورة سراقة بن مالك بن جعشن، سيدبني مدلج كبير تلك الناحية، وكل ذلك منه كما قال تعالى عنه: ﴿يَعْدُهُمْ وَيَمْنِيهِمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غَرْرُورًا﴾ النساء: ١٢٠] قال ابن جريج: قال ابن عباس في هذه الآية: لما كان يوم بدرا، سار إبليس برايته وجنوده مع المشركين، وألقى في قلوب المشركين أن أحداً لن يغلبكم، وإنني جار لكم، فلما التقوا ونظر الشيطان إلى إمداد الملائكة، ﴿نَكَصَ عَلَى عَقِبِهِ﴾ قال: رجع مدبراً، وقال: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ الآية^(٢).

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: جاء إبليس يوم بدرا في جند من الشياطين معه رايته، في صورة رجل منبني مدلج، في صورة سراقة بن مالك بن جعشن، فقال الشيطان للمشركين: لا غالب لكم اليوم من الناس وإنني جار لكم فلما اصطف الناس، أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب فرمى بها في وجوه المشركين فولوا مدبرين، وأقبل جبريل عليه السلام إلى إبليس، فلما رأه وكانت يده في يد رجل من المشركين، انتزع يده ثم ولـي مدبراً وشييعته، فقال الرجل: يا سراقة أتزعم أنك لنا جار؟ فقال: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعَقَاب﴾، وذلك حين رأى الملائكة^(٣).

وقال محمد بن إسحاق: حدثني الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، أن إبليس خرج مع قريش في صورة سراقة بن مالك بن جعشن، فلما حضر القتال ورأى الملائكة، نكس على عقبيه وقال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ﴾، فتشبث به الحارث بن هشام، فنخر في وجهه فخر صعقاً، فقيل له: ويلك يا سراقة على هذه الحال، تخذلنا وتبرأ منا، فقال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعَقَاب﴾.

(١) انظر تفسير الطبرى ٢٦٣/٦.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٢٦٥/٦.

(٣) انظر تفسير الطبرى ٢٦٤/٦.

وقال محمد بن عمر الواقدي : أخبرني عمر بن عقبة عن شعبة مولى ابن عباس ، عن ابن عباس ، قال : لما تواقف الناس أغمي على رسول الله ﷺ ساعة ، ثم كشف عنه فبشر الناس بجبريل في جند من الملائكة ميمونة الناس ، وMicahiel في جند آخر ميسرة الناس ، وإسرافيل في جند آخر ألف ، وإبليس قد تصور في صورة سراقة بن مالك بن جعشن المدلجي يدبر المشركين ويخبرهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس ، فلما أصر عدو الله الملائكة ، نكس على عقيبه ، وقال : «إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون»^(١) ، فتشبت به الحارث بن هشام ، وهو يرى أنه سراقة لما سمع من كلامه ، فضرب في صدر الحارث فسقط الحارث ، وانطلق إبليس لا يرى حتى سقط في البحر ورفع ثوبه ، وقال يا رب موعدك الذي وعدتني . وفي الطبراني عن رفاعة بن رافع ، قريب من هذا السياق وأبسط منه ، ذكرناه في السيرة .

وقال محمد بن إسحاق : حديثي يزيد بن رومان ، عن عروة بن الزبير ، قال : لما أجمعتم قريش المسير ذكرت الذي بينها وبينبني بكر من الحرب ، فكاد ذلك أن يثنיהם ، فبدى لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشن المدلجي ، وكان من أشرف بنى كنانة ، فقال أنا جار لكم أن تأتكم كنانة بشيء تكرهونه ، فخرجوا سرعاً^(٢) .

قال محمد بن إسحاق : فذكر لي أنهم كانوا يرونـه في كل منزل في صورة سراقة بن مالك لا ينكرـونـه ، حتى إذا كان يوم بدر والتـقـيـةـ الجـمـعـانـ ، كانـ الـذـي رأـهـ حينـ نـكـصـ ، الحـارـثـ بنـ هـشـامـ أوـ عـمـيرـ بنـ وـهـبـ ، فقالـ أـيـنـ سـراـقةـ ؟ـ أـيـنـ وـمـيلـ عـدـوـ اللهـ فـذـهـبـ ، قالـ فـأـورـدـهـمـ ثـمـ أـسـلـمـهـمـ ، قالـ وـنـظـرـ عـدـوـ اللهـ إـلـىـ جـنـودـ اللهـ قـدـ أـيـدـ اللهـ بـهـمـ رـسـوـلـهـ وـالـمـؤـمـنـينـ ، فـنـكـصـ عـلـىـ عـقـيـبـهـ ، وـقـالـ «إـنـيـ بـرـيـءـ مـنـكـمـ إـنـيـ أـرـىـ مـاـ لـاـ تـرـوـنـ»^(٣) ، وـصـدـقـ عـدـوـ اللهـ ، وـقـالـ «إـنـيـ أـخـافـ اللهـ وـالـلهـ شـدـيدـ العـقـابـ»^(٤) ، وهـكـذاـ روـيـ عنـ السـدـيـ وـالـضـحـاكـ وـالـحـسـنـ الـبـصـرـيـ وـمـحـمـدـ بنـ كـعبـ الـقـرـظـيـ وـغـيـرـهـ رـحـمـهـمـ اللهـ .

وقال قتادة : وذكر لنا أنه رأى جبريل عليه السلام تنـزـلـ معـهـ الـمـلـائـكـةـ ، فـعـلـمـ عـدـوـ اللهـ أـنـهـ لاـ يـدـانـ لـهـ بـالـمـلـائـكـةـ ، فـقـالـ إـنـيـ أـرـىـ مـاـ لـاـ تـرـوـنـ ، إـنـيـ أـخـافـ اللهـ وـكـذـبـ عـدـوـ اللهـ . وـالـلهـ مـاـ بـهـ مـخـافـةـ اللهـ ، وـلـكـنـ عـلـمـ أـنـهـ لـاـ قـوـةـ لـهـ وـلـاـ مـنـعـةـ ، وـتـلـكـ عـادـةـ عـدـوـ اللهـ لـمـنـ أـطـاعـهـ وـاسـتـقـادـ لـهـ ، حـتـىـ إـذـ التـقـيـ الحقـ وـالـبـاطـلـ أـسـلـمـهـمـ شـرـ مـسـلـمـ ، وـتـبـرـأـ مـنـهـ عـنـ ذـلـكـ^(٥) .

قلـتـ :ـ يـعـنـيـ بـعـادـتـهـ لـمـنـ أـطـاعـهـ ،ـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ :ـ «ـكـمـلـ الشـيـطـانـ إـذـ قـالـ لـلـإـنـسـانـ اـكـفـرـ فـلـمـاـ كـفـرـ قـالـ إـنـيـ بـرـيـءـ مـنـكـ إـنـيـ أـخـافـ اللهـ رـبـ الـعـالـمـينـ»ـ [ـالـحـشـرـ :ـ ١٦ـ]ـ وـقـوـلـهـ تـعـالـىـ :ـ «ـوـقـالـ الشـيـطـانـ

(١) تفسير الطبرى ٢٦٤ / ٦.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٢٦٤ / ٦ ، وسيرة ابن هشام ٦٦٣ / ١ .

(٣) تفسير الطبرى ٢٦٥ / ٦ .

لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولو مروا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم» [إبراهيم: ٢٢].

وقال يونس بن بكر عن محمد بن إسحاق، حدثني عبد الله بن أبي يكر بن عمرو بن حزم، عن بعض بنى ساعدة، قال: سمعت أبا أسيد مالك بن ربيعة بعدما كف بصره، يقول: لو كنت معكم الآن بدر ومعي بصري لأخبرتكم بالشعب الذي خرجت منه الملائكة، لا أشك ولا أتماري، فلما نزلت الملائكة ورأها إبليس، وأوحى الله إليهم أنني معكم فثبتوا الذين آمنوا، وثبتتهم، أن الملائكة كانت تأتي الرجل في صورة الرجل، يعرفه فيقول له أبشر فإنهم ليسوا بشيء والله معكم فكرروا عليهم، فلما رأى إبليس الملائكة نكس على عقبيه، وقال «أني بريء منكم إني أرى ما لا ترون»، وهو في صورة سراقة، وأقبل أبو جهل يحضرن أصحابه، ويقول لا يهولنكم خذلان سراقة إياكم، فإنه كان على موعد من محمد وأصحابه. ثم قال: واللات والعزى، لا نرجع حتى نقرن محمداً وأصحابه في الجبال، فلا تقتلوهم وخذلهم أخذنا، وهذا من أبي جهل لعنة الله، كقول فرعون للسحر لما أسلموا: «إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها» [الأعراف: ١٢٣] وكقوله: «إنه لكبيركم الذي علمكم السحر» [طه: ٧١] وهو من باب البهت والافتراء، ولهذا كان أبو جهل فرعون هذه الأمة.

وقال مالك بن أنس: عن إبراهيم بن أبي عليه، عن طلحة بن عبيد الله بن كريز، أن رسول الله ﷺ قال: «ما رأى إبليس يوماً هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أغrieve من يوم عرفة، وذلك مما يرى من نزول الرحمة والعفو عن الذنب إلا ما رأى يوم بدر» قالوا: يا رسول الله وما رأى يوم بدر؟ قال: «أما إنه رأى جبريل عليه السلام يزع الملائكة»^(١) وهذا مرسل من هذا الوجه.

وقوله: «إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غَرْ هُؤلاء دينهم» قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في هذه الآية: لما دنا القوم بعضهم من بعض قلل الله المسلمين في أعين المشركين، وقلل المشركين في أعين المسلمين، فقال المشركون: غر هؤلاء دينهم، وإنما قالوا ذلك من قلتهم في أعينهم، فظنوا أنهم سيهزموهم لا يشكون في ذلك، فقال الله: «ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم» وقال قتادة: رأوا عصابة من المؤمنين تشددت لأمر الله، وذكر لنا، أن أبا جهل عدو الله لما أشرف على محمد ﷺ وأصحابه، قال: والله لا يعبد الله بعد اليوم قسوة وعتوا^(٢).

(١) أخرجه مالك في الحج حديث ٢٤٥.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٢٦٦/٦.

وقال ابن جريج في قوله ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرْضٌ﴾ هم قوم كانوا من المنافقين بمكة، قالوه يوم بدر^(١)، وقال عامر الشعبي: كان ناس من أهل مكة قد تكلموا بالإسلام، فخرجوا مع المشركين يوم بدر، فلما رأوا قلة المسلمين، قالوا: ﴿غَرْ هُؤُلَاءِ دِينَهُم﴾^(٢). وقال مجاهد في قوله عز وجل: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرْضٌ غَرْ هُؤُلَاءِ دِينَهُم﴾ قال فئة من قريش، قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، والحارث بن زمعة بن الأسود بن المطلب، وعلي بن أمية بن خلف، والعاص بن منه بن الحجاج، خرجوا مع قريش من مكة، وهم على الارتياب فحبسهم ارتياهم، فلما رأوا قلة أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: غر هؤلاء دينهم حتى قدموا على ما قدموا عليه مع قلة عددهم وكثرة عدوهم، وهكذا قال محمد بن إسحاق بن يسار سواء.

وقال ابن جرير^(٣): حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور، عن معمر عن الحسن في هذه الآية قال: هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر، فسموا منافقين، قال معمر: وقال بعضهم: هم قوم كانوا أقربوا بالإسلام وهم بمكة، فخرجوا مع المشركين يوم بدر، فلما رأوا قلة المسلمين، قالوا غر هؤلاء دينهم، وقوله ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي يعتمد على جنابه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي لا يضام من التجأ إليه، فإن الله عزيز منيع الجناب عظيم السلطان ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله لا يضعفها إلا في مواضعها، فینصر من يستحق النصر، ويخذل من هو أهل ذلك.

وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا كَفَدُوكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبْدِ

يقول تعالى: ولو عاينت يا محمد حال توفي الملائكة أرواح الكفار، لرأيت أمراً عظيماً هائلاً فظيعاً منكراً، إذ ﴿يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ ويقولون لهم ﴿وذوقوا عذاب الحريق﴾، قال ابن جريج: عن مجاهد ﴿أدبارهم﴾ أستاهم، قال يوم بدر^(٤). قال ابن جريج: قال ابن عباس: إذا أقبل المشركون بوجوههم إلى المسلمين، ضربوا وجوههم بالسيوف، وإذا ولوا أدركهم الملائكة يضربون أدبارهم.

وقال ابن أبي نجيح: عن مجاهد، في قوله ﴿إِذْ يَتَوَفَّ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ يوم بدر، وقال وكيع: عن سفيان الثوري عن أبي هاشم إسماعيل بن كثير

(١) تفسير الطبرى / ٦٢٦٧.

(٢) تفسير الطبرى / ٦٢٦٦.

(٣) تفسير الطبرى / ٦٢٦٦.

(٤) انظر تفسير الطبرى / ٦٢٦٨.

عن مجاهد، وعن شعبة عن يعلى بن مسلم، عن سعيد بن جبير، يضربون وجوهم وأدبارهم قال وأستاهم، ولكن الله يكُنّي، وكذا قال عمر مولى عفرا. وعن الحسن البصري قال: قال رجل يا رسول الله: إني رأيت بظهر أبي جهل مثل الشوك، قال «ذاك ضرب الملائكة» رواه ابن حيرir^(١) وهو مرسل، وهذا السياق وإن كان سببه وقعة بدر، ولكنه عام في حق كل كافر، ولهذا لم يخصصه تعالى بأهل بدر، بل قال تعالى: ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم^(٢) وفي سورة القتال^(٣) مثلها.

وتقديم في سورة الأنعام قوله تعالى: «ولو ترى إذ المجرمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم» [الأنعام: ٩٣] أي باسطوا أيديهم بالضرب فيهم بأمر ربهم، إذ استصعبت أنفسهم، وامتنعت من الخروج من الأجساد أن تخرج قهراً، وذلك إذ بشروهم بالعذاب والغضب من الله، كما في حديث البراء أن ملك الموت إذا جاء الكافر عند احتضاره في تلك الصورة المترکة، يقول: اخرجني أيتها النفس الخبيثة إلى سموم وحميم وظل من يحموه، فتفترق في بدنها فيستخرجونها من جسده، كما يخرج السفود^(٣) من الصوف المبلول^(٤)، فتخرج معها العروق والعصب، ولهذا أخبر تعالى: أن الملائكة تقول لهم «ذوقوا عذاب الحريق»^(٥).

وقوله تعالى: «ذلك بما قدمت أيديكم» أي هذا الجزاء بسبب ما عملتم من الأعمال السيئة في حياتكم الدنيا، جازاكم الله بها هذا الجزاء «وأن الله أيس بظلم للعبد» أي لا يظلم أحداً من خلقه، بل هو الحكم العدل الذي لا يجور تبارك وتعالى، وتقدس وتنزه الغني الحميد، ولهذا جاء في الحديث الصحيح، عند مسلم^(٥) رحمة الله، من رواية أبي ذر رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، إن الله تعالى يقول «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» ولهذا قال تعالى:

كَدَأْبٌ مَّا لِفُرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِعِيَاتِ اللَّهِ فَأَخْذَهُمُ اللَّهُ يَدُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدٌ

يقول تعالى: فعل هؤلاء من المشركين المكذبين بما أرسلت به يا محمد، كما فعل الأمم

(١) تفسير الطبرى ٦/٢٦٨.

(٢) أي سورة محمد الآية ٢٧.

(٣) السفود: حديدة ذات شعب معقوفة. يشوى بها اللحم.

(٥) كتاب البر حديث . ٥٥

المكذبة قبلهم، ففعلنا بهم ما هو دأبنا أي عادتنا وستتنا في أمثالهم من المكذبين من آل فرعون ومن قبلهم من الأمم المكذبة بالرسل، الكافرين بآيات الله ﴿فَأَخْذُهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي بسبب ذنوبهم أهلتهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر، ﴿إِنَّ اللَّهَ قُوَى شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي لا يغله غالب ولا يفوته هارب.

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُنْ مُّغَيِّرًا نَعْمَةً أَعْمَاهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يَعْدِرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلَيْهِمْ
كَدَأْبٍ إِلَّا فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِأَيْمَانِ رَهْبَمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا إِلَّا
فِرْعَوْنَ كُلُّ كَانُوا ظَلَمِيْمِ
﴿

يخبر تعالى عن تمام عدله وقسطه في حكمه بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد، إلا بسبب ذنب ارتكبه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغِيرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يَغِيرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ
بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرْدُ له وَمَالُهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَال﴾ [الرعد: ١١] قوله ﴿كَدَأْبٍ إِلَّا فِرْعَوْنَ﴾ أي
চসنه بآل فرعون وأمثالهم، حين كذبوا بآياته، أهلتهم بسبب ذنوبهم وسلبهم تلك النعم التي
أسداها إليهم، من جنات وعيون وزروع وكنوز ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين،
وما ظلمهم الله في ذلك بل كانوا هم الظالمين.

إِنَّ شَرَّ الدَّوَائِبِ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ
الَّذِينَ عَاهَدُوا مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي
كُلِّ مَرَأَةٍ وَهُمْ لَا يَنْتَهُونَ
﴿فَإِمَّا تَنْقُضُهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِدُهُمْ مَنْ خَفَهُمْ لِعَلَيْهِمْ يَدْكُرُونَ
﴾

أخبر تعالى: أن شر ما دب على وجه الأرض هم الذين كفروا فهم لا يؤمنون، الذين كلما
عاهدوا عهداً نقضوه، وكلما أكدوه بالأيمان نكثوه، ﴿وَهُمْ لَا يَنْتَهُونَ﴾ أي لا يخافون من الله في
شيء ارتكبوه من الآثام، ﴿فَإِمَّا تَنْقُضُهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ أي تغلبهم وتظفر بهم في حرب، ﴿فَشَرِدُهُمْ
بِهِمْ مَنْ خَفَهُمْ﴾ أي نكل بهم، قاله ابن عباس والحسن البصري والضحاك والسدي وعطاء
الخراساني وابن عبيدة، ومعناه غلط عقوبتهما وأثخنهم قتلاً، ليخاف من سواهم من الأعداء من
العرب وغيرهم، ويصيروا لهم عبرة، ﴿لِعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ﴾ وقال السدي: يقول: لعلهم يحذرُون
أن ينكثوا فيصنع بهم مثل ذلك.

وَإِمَّا تَخَافَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَئْذِنْ لِإِتَاهُمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ
﴿

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَإِمَّا تَخَافَ مِنْ قَوْمٍ قَدْ عَاهَدْتَهُمْ﴾ أي نقضاً لما بينك
وبيهـ من المواريثـ والعهـود، ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ أي عهـدهـم ﴿عَلـى سـوـاء﴾، أي أعلمـهمـ بأنـكـ قد
نقضـتـ عهـدهـمـ، حتى يبقىـ علمـكـ وعلمـهمـ بأنـكـ حـربـ لـهـمـ، وـهـمـ حـربـ لـكـ، وـأـنـهـ لاـ عـهـدـ
بيـكـ وـبـيـهـ عـلـى سـوـاءـ، أي تستـويـ أـنـتـ وـهـمـ فيـ ذـلـكـ، قالـ الـراـجـزـ: [رجـزـ]

فاضرب وجوه العُدُوِّ لِلأَعْدَاءِ حَتَّىٰ يُجِيبُوكُ إِلَى السَّوَاءِ^(١)

وعن الوليد بن مسلم أنه قال في قوله تعالى: «فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ» أي على مهل، «إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ» أي حتى ولو في حق الكفار لا يحبها أيضاً. قال الإمام أحمد^(٢): حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة، عن أبي الفيض عن سليم بن عامر، قال: كان معاوية يسير في أرض الروم، وكان بينه وبينهم أمد، فأراد أن يدنو منهم، فإذا انقضى الأمد غزاهم، فإذا شيخ على دابة يقول: الله أكبر، الله أكبر، وفاء لا غدرأ، إن رسول الله ﷺ قال: «وَمَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمًا عَاهَدَ فَلَا يَحْلِنَ عَقْدَهُ وَلَا يَشْدِهَا حَتَّىٰ يَنْقُضِي أَمْدَهَا، أَوْ يَنْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ» قال: فبلغ ذلك معاوية، فرجع، فإذا بالشيخ عمرو بن عنبة رضي الله عنه^(٣)، وهذا الحديث رواه أبو داود الطيالسي عن شعبة، وأخرجه أبو داود والترمذى والنمسائى وابن حبان فى صحيحه، من طرق عن شعبة به، وقال الترمذى: حسن صحيح.

وقال الإمام أحمد^(٤) أيضاً: حدثنا محمد بن عبد الله الزبيري، حدثنا إسرائيل، عن عطاء بن السائب، عن أبي البختري عن سلمان، يعني الفارسي رضي الله عنه، أنه انتهى إلى حصن أو مدينة، فقال لأصحابه: دعوني أدعوهם كما رأيت رسول الله ﷺ يدعوهـمـ، فقال: إنما كنت رجلاً منكم، فهداني الله عز وجل للإسلام، فإن أسلتمـ فلـكمـ ما لـناـ وعلـيكـ ما عـلـيـناـ، وإن أبـيـتـ فأـدـواـ الجـزـيـةـ وـأـنـتـمـ صـاغـرـوـنـ، وإن أبـيـتـ نـابـذـنـاـكـمـ عـلـىـ سـوـاءـ، «إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ» يفعل ذلك بهم ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع غدا الناس إليها ففتحوها بعون الله.

وَلَا يَحْسَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوكُمْ لَا يُعْجِزُونَ^٥ وَأَعْدُوكُمْ مَا أَسْتَطَعْتُمْ بَنْ فُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ
الْحَيَّلِ تُرْهِبُونَ^٦ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوُّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ مِنْ
شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ^٧

يقول تعالى لنبيه ﷺ: «وَلَا تَحْسِنْ» يا محمد «الذين كفروا سبقوـاـ» أي فاتـونـاـ، فلا نـقدـرـ عليهمـ بلـ هـمـ تحتـ قـهـرـ قـدـرتـناـ، وفي قـبـضـةـ مـشـيـتـنـاـ، فلا يـعـجزـونـناـ، كـقولـهـ تـعـالـىـ: «أَمْ حـسـبـ
الـذـيـنـ يـعـمـلـونـ السـيـئـاتـ أـنـ يـسـبـقـونـ سـاءـ مـاـ يـحـكـمـونـ» [العنكبوت: ٤] أي يـظـنـونـ، وـقولـهـ تـعـالـىـ:
«وَلَا تَحْسِنْ الـذـيـنـ كـفـرـواـ مـعـجـزـيـنـ فـيـ الـأـرـضـ وـمـأـوـاهـ النـارـ وـلـبـئـسـ المـصـيرـ» [النـورـ: ٥٧]
وـقولـهـ تـعـالـىـ: «لـاـ يـغـرـنـكـ تـقـلـبـ الـذـيـنـ كـفـرـواـ فـيـ الـبـلـادـ مـتـاعـ قـلـيلـ ثـمـ مـأـوـاهـ جـهـنـمـ وـبـئـسـ

(١) الرجز بلا نسبة في تفسير الطبرى ٢٧٢ / ٦.

(٢) المسند ٤ / ١١١.

(٣) أخرجه أبو داود في الجهاد باب ١٥٢ ، والترمذى في السير باب ٢٧.

(٤) المسند ٥ / ٤٤٠.

المهاد ﴿آل عمران: ١٩٦ - ١٩٧﴾ ثم أمر تعالى، بإعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة والإمكان والاستطاعة، فقال: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم﴾ أي مهما أمكنكم ﴿من قوة ومن رباط الخيل﴾.

قال الإمام أحمد^(١): حدثنا هارون بن معروف، حدثنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث، عن أبي علي ثمامة بن شفي، أخي عقبة بن عامر، أنه سمع عقبة بن عامر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي^(٢) رواه مسلم، عن هارون بن معروف، وأبو داود عن سعيد بن منصور، وابن ماجه عن يونس بن عبد الأعلى، ثلاثتهم عن عبد الله بن وهب به. ولهذا الحديث طرق آخر، عن عقبة بن عامر، منها ما رواه الترمذى من حديث صالح بن كيسان، عن رجل عنه، وروى الإمام أحمد وأهل السنن عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ارموا واركعوا وأن ترموا خير من أن ترکعوا»^(٣).

وقال الإمام مالك عن زيد بن أسلم، عن أبي صالح السمان، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الخيل ثلاثة، لرجل أجر، ولرجل ستراً، وعلى رجل وزر، فأما الذي له أجر، فرجل ربطة في سبيل الله فأطال لها في مرج أو روضة، مما أصابت في طيلها^(٤) ذلك من المرج أو الروضة، كانت له حسنتان ولو أنها قطعت طيلها، فاستنّت^(٥) شرفًا أو شرفين^(٦) كانت آثارها وأرواثها حسنتان له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقي به، كان ذلك حسنتان له، فهي لذلك الرجل أجر، ورجل ربطة في مرج أو روضة، فاستنّت^(٧)، ولم ينس حق الله في رقبها ولا ظهورها فهي له ستراً، ورجل ربطة في مرج أو روضة، وهي على ذلك وزر»^(٨).

(١) المسند ٤/١٥٦، ١٥٧.

(٢) آخر جه مسلم في الإمارة حديث ١٦٧ ، وأبو داود في الجهاد باب ٢٣ ، وابن ماجه في الجهاد باب ١٩ ، والدارمي في الجهاد باب ١٤ ، والترمذى في تفسير سورة ٨ ، باب ٥ .

(٣) آخر جه أبو داود في الجهاد باب ٢٣ ، والترمذى في فضائل الجهاد باب ١١ ، والنسائى في الخيل باب ٨ ، وابن ماجه في الجهاد باب ١٩ ، وأحمد في المسند ٤/١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٤٨ .

(٤) الطيل، بكسر الطاء وفتح الياء: الحبل الذي تربط فيه.

(٥) استنّت: جرت.

(٦) الشرف: المكان العالى من الأرض.

(٧) تغنىً وتعفناً: أي استغناء عن الناس وتعفناً عن السؤال.

(٨) النواء: المناولة والمعاداة.

(٩) آخر جه البخاري في الشرب باب ١٢ ، والجهاد باب ٤٨ ، والمناقب باب ٢٨ ، وتفسير سورة ٩٩ ، باب ١ ، والاعتصام بباب ٢٤ ، ومسلم في الزكاة حديث ٢٤ ، ٢٦ ، والترمذى في فضائل الجهاد باب ١٠ ، والنسائى في الخيل باب ١ ، وابن ماجه في الجهاد باب ١٤ ، ومالك في الجهاد حديث ٣ ، وأحمد في =

وسائل رسول الله ﷺ عن الحمر، فقال «ما أنزل الله عليّ فيها شيئاً إلا هذه الآية الجامدة الفادحة» (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شرّاً يره) ^(١) [الزلزلة: ٧ - ٨] رواه البخاري وهذا لفظه، ومسلم كلاهما من حديث مالك.

وقال الإمام أحمد ^(٢): حدثنا حجاج، أخبرنا شريك، عن الركين بن الريبع، عن القاسم بن حسان، عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ، قال: «الخيل ثلاثة: ففرس للرحمٰن، وفرس للشيطان، وفرس للإنسان، فأما فرس الرحمن فالذى يربط في سبيل الله، فعلفه وروشه ويوله - وذكر ما شاء الله - وأما فرس الشيطان، فالذى يقامر أو يراهن عليها، وأما فرس الإنسان، فالفرس يربطها الإنسان يلتمس بطنها، فهي له ستر من الفقر» وقد ذهب أكثر العلماء، إلى أن الرمي أفضل من ركوب الخيل، وذهب الإمام مالك، إلى أن الركوب أفضل من الرمي، وقول الجمهور أقوى للحديث، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد ^(٣): حدثنا حجاج وهشام، قالا: حدثنا ليث، حدثني يزيد بن أبي حبيب، عن ابن شمسة، أن معاوية بن خديج، مر على أبي ذر وهو قائم عند فرس له، فسألته ما تعاني من فرسك هذا؟ فقال: إني أظن أن هذا الفرس قد استجيب له دعوته، قال: وما دعاء بهيمة من البهائم؟ قال: والذى نفسي بيده، ما من فرس إلا وهو يدعوك كل سحر، فيقول: اللهم أنت خولتني عبداً من عبادك، وجعلت رزقي بيده، فاجعلني أحب إليه من أهله وماله وولده.

قال: وحدثنا يحيى بن سعيد، عن عبد الحميد بن أبي جعفر، حدثني يزيد بن أبي حبيب عن سويد بن قيس، عن معاوية بن خديج عن أبي ذر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه ليس من فرس عربي إلا يؤذن له مع كل فجر، يدعو بدعوتين: يقول: اللهم إنك خولتني من خولتني منبني آدم، فاجعلني من أحب أهله وماله إليه - أو - أحب أهله وماله إليه» ^(٤)، رواه النسائي، عن عمرو بن علي الفلاس، عن يحيى القطان به.

وقال أبو القاسم الطبراني: حدثنا الحسين بن إسحاق التستري، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا يحيى بن حمزة، حدثنا المطعم بن المقدام الصناعي، عن الحسن بن أبي الحسن، أنه قال لابن الحنظلية يعني سهلاً: حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيمة، وأهلها معانون عليها،

المستند ٢٦٢ / ٢، ٢٨٣ =

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٩٩، باب ١.

(٢) المستند ٣٩٥ / ١.

(٣) المستند ١٦٢ / ٥.

(٤) أخرجه أحمد في المستند ١٧٠ / ٥، والنسيائي في الخيل باب ٩.

ومن ربط فرساً في سبيل الله، كانت النفقة عليه كالماد يده بالصدقة لا يقتصها»، والأحاديث الواردة في فضل ارتباط الخيل كثيرة. وفي صحيح البخاري، عن عروة بن أبي الجعد البارقي، أن رسول الله ﷺ قال: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيمة، الأجر والمغنم»^(١).

وقوله: «ترهبون» أي تخوفون «بـه عدو الله وعدوكم» أي من الكفار «وآخرين من دونهم» قال مجاهد يعنيبني قريطة، وقال السدي: فارس، وقال سفيان الثوري: قال ابن يمان: هم الشياطين التي في الدور، وقد ورد حديث بمثل ذلك.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عتبة أحمد بن الفرج الحمصي، حدثنا أبو حية يعني شريح بن يزيد المقربي، حدثنا سعيد بن سنان، عن ابن غريب، يعني يزيد بن عبد الله بن غريب، عن أبيه عن جده، أن رسول الله ﷺ كان يقول في قول الله تعالى: «وآخرين من دونهم لا تعلموهم» قال هم الجن، ورواه الطبراني عن إبراهيم بن دحيم، عن أبيه عن محمد بن شعيب عن سنان بن سعيد بن سنان، عن يزيد بن عبد الله بن غريب به، وزاد، قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل بيته عتيق من الخيل»، وهذا الحديث منكر لا يصح إسناده ولا متنه، وقال مقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المنافقون، وهذا أشبه الأقوال، ويشهد له قوله تعالى: «ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن من أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم» [التوبة: ١٠١].

وقوله «وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوسف إليكم وأنتم لا تظلمون» أي مهما أنفقتم في الجهاد، فإنه يوفى إليكم على التمام والكمال، ولهذا جاء في الحديث الذي رواه أبو داود^(٢): أن الدرهم يضعف ثوابه في سبيل الله إلى سبعمائة ضعف، كما تقدم في قوله تعالى: «مثلك الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبت سبع سبابل في كل سبعة مائة حبة والله يضعف لمن يشاء والله واسع عليم» [البقرة: ٢٦١] وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن القاسم بن عطيه، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدشتكي، حدثنا أبي عن أبيه، حدثنا الأشعث بن إسحاق، عن جعفر عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس عن النبي ﷺ، أنه كان يأمر أن لا يتصدق إلا على أهل الإسلام، حتى نزلت «وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوسف إليكم» فأمر بالصدقة بعدها، على كل من سألك من كل دين، وهذا أيضاً غريب.

﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنِحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ أَلَّا يَكُنْ يَنْصُرُوهُ ۝ وَالَّذِي يَنْهَا ۝ قُلُوبُهُمْ لَوْ أَنفَقُتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَمَّا أَنْفَقَتِ الَّذِي قُلُوبُهُمْ وَلَا كَيْنَ أَلَّا أَلَّا فَبِنَهْمَ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝

(١) أخرجه البخاري في الجهاد باب ٤٤، والخمس باب ٨، ومسلم في الإمارة حديث ٩٨، ٩٩.

(٢) كتاب الجهاد باب ١٣.

يقول تعالى: إذا خفت من قوم خيانة، فابذ إليهم عهدهم على سواء، فإن استمرروا على حربك ومنابذتك، فقاتلهم **﴿وَإِنْ جَنِحُوا﴾** أي مالوا **﴿لِلْسَّلْمِ﴾** أي المسالمة والمصالحة والمهادنة، **﴿فَاجْنِحْ لَهُمْ﴾** أي فمل إليها واقبل منهم ذلك، ولهذا لما طلب المشركون، عام الحديبية الصلح، ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله ﷺ، تسع سنين، أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الآخر. وقال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي، حدثني فضيل بن سليمان يعني النميري، حدثنا محمد بن أبي يحيى، عن إيس بن عمرو الأسلمي، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه سيكون اختلاف أو أمر فإن استطعت أن يكون السلم فافعل»^(١).

وقال مجاهد: نزلت في بني قريطة^(٢)، وهذا فيه نظر، لأن السياق كله في وقعة بدر، وذكرها مكتتف لهذا كله، وقال ابن عباس ومجاهد وزيد بن أسلم وعطاء الخراساني وعكرمة والحسن وقتادة: إن هذه الآية منسوبة بآية السيف في براءة **﴿فَاتَّلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِر﴾** [التوبه: ٢٩] الآية، وفيه نظر أيضاً، لأن آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك، فأما إن كان العدو كثيراً فإنه يجوز مهادنتهم، كما دلت عليه هذه الآية الكريمة، وكما فعل النبي ﷺ يوم الحديبية، فلا منافاة ولا نسخ ولا تخصيص، والله أعلم.

وقوله **﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾** أي صالحهم وتوكل على الله، فإن الله كافيكم وناصركم ولو كانوا يريدون بالصلح خديعة، ليتقوروا ويستعدوا **﴿فَإِنْ حَسِبَكُمُ اللَّهُ﴾** أي كافيكم وحده، ثم ذكر نعمته عليه مما أيده به من المؤمنين المهاجرين والأنصار، فقال: **﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكُ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾** أي جمعها على الإيمان بك، وعلى طاعتك ومناصرتك وموازرتك، **﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾** أي لما كان بينهم من العداوة والبغضاء فإن الأنصار كانت بينهم حروب كثيرة في الجاهلية، بين الأوس والخزرج، وأمور يلزم منها التسلسل في الشر، حتى قطع الله ذلك بتور الإيمان، كما قال تعالى: **﴿وَإِذْكُرُوا نَعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُتْمَ أَعْدَاءَ فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبِحُتُمْ بِنَعْمَتِهِ إِخْرَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حَفْرَةِ النَّارِ فَأَنْقَذْتُكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يَبْيَنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهَتِّدُونَ﴾** [آل عمران: ١٠٣].

وفي الصحيحين: أن رسول الله ﷺ لما خطب الأنصار، في شأن غنائم حنين، قال لهم: «يا معاشر الأنصار ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي، وعاللة فاغنككم الله بي، وكتتم متفرقين فالفككم الله بي» كلما قال شيئاً قالوا الله ورسوله أمن^(٣)، ولهذا قال تعالى: **﴿وَلَكُمُ الْأَلْفَ**

(١) أخرجه أحمد في المسند ١/٩٠.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٦/٢٧٩.

(٣) أخرجه البخاري في المغازي باب ٥٦، ومسلم في الزكاة حديث ١٣٩، وأحمد في المسند ٣/٥٧، ١٠٤، ٢٥٣، ٤٢/٤.

بينهم إنه عزيز حكيم» أي عزيز الجناب، فلا يخيب رجاء من توكل عليه، حكيم في أفعاله وأحكامه، وقال الحافظ أبو بكر البهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أنبأنا علي بن بشر الصيرفي القزويني في منزلنا، أنبأنا أبو عبد الله محمد بن الحسين القنديلي الاسترابادي، حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن النعمان الصفار، حدثنا ميمون بن الحكم، حدثنا بكر بن الشرود، عن محمد بن مسلم الطائفي، عن إبراهيم بن ميسرة عن طاوس، عن ابن عباس، قال: قربة الرحمن تقطع، ومنة النعمة تکفر، ولم ير مثل تقارب القلوب، يقول الله تعالى: «لو أنفقت ما في الأرض جميماً ما ألغت بين قلوبهم» وذلك موجود في الشعر:

إذا بت ذو قربى إليك بزلة
فغضنك واستغنى فليس بذى رحم^(١)
ولكن ذا القربى الذي إن دعوه
أجاب وأن يرمي العدو الذي ترمى
قال: ومن ذلك قول القائل:

ولقد صحبت الناس ثم سبّرْتُهم
وبلوت ما وصلوا من الأسباب^(٢)
إذا القرابة لا تقرب قاطعاً
إذا المودة أقرب الأسباب

قال البهقي: لا أدرى هذا موصول بكلام ابن عباس أو هو من قول من دونه من الرواة، وقال أبو إسحاق السبيبي عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، سمعه يقول: «لو أنفقت ما في الأرض جميماً ما ألغت بين قلوبهم» الآية، قال هم المتحابون في الله. وفي رواية نزلت في المتحابين في الله. رواه النسائي والحاكم في مستدركه وقال: صحيح، وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه، عن ابن عباس، قال: إن الرحمن تقطع، وإن النعمة تکفر، وإن الله إذا قارب بين القلوب لم يزحرحها شيء، ثم قرأ «لو أنفقت ما في الأرض جميماً ما ألغت بين قلوبهم» رواه الحاكم أيضاً.

وقال أبو عمرو الأوزاعي: حدثني عبدة بن أبي لبابة عن مجاهد، ولقيته فأخذ بيدي فقال: إذا التقى المتحابان في الله فأخذ أحدهما بيده صاحبه وضحك إليه، تحات خطاياهما كما تحتات ورق الشجر. قال عبدة: فقلت له: إن هذا ليسير، فقال: لا تقل ذلك فإن الله يقول «لو أنفقت ما في الأرض جميماً ما ألغت بين قلوبهم» قال عبدة: فعرفت أنه أفقه مني^(٣).

وقال ابن جرير^(٤): حدثنا أبو كريب، حدثنا ابن يمان، عن إبراهيم الجزمي عن الوليد بن أبي مغيث، عن مجاهد، قال: إذا التقى المسلمان فتصافحا غفر لهما، قال قلت لمجاهد

(١) البيتان بلا نسبة في الدر المنشور ٣٦١/٣.

(٢) البيتان بلا نسبة في الدر المنشور ٣٦١/٣.

(٣) انظر تفسير الطبرى ٦/٢٨٠، ٢٨٠/٦.

(٤) تفسير الطبرى ٦/٢٨٠، وفيه: إبراهيم الخوزي بدل إبراهيم الجزمي.

بمصادفة يغفر لهم؟ قال مجاهد: أما سمعته يقول: «لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما أفت بين قلوبهم ولكن الله أله بينهم» فقال الوليد لمجاهد: أنت أعلم مني، وكذا روى طلحة بن مصرف عن مجاهد، وقال ابن عون عن عمير بن إسحاق، قال: كنا نتحدث أن أول ما يرفع من الناس الإلفة، وقال الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني رحمه الله: حدثنا الحسين بن إسحاق التستري، حدثنا عبيد الله بن عمر القواريري، حدثنا سالم بن غيلان، سمعت جعداً أبي عثمان، حدثني أبو عثمان النهدي، عن سلمان الفارسي، أن رسول الله ﷺ قال: «إن المسلم إذا لقي أخيه المسلم فأخذ بيده، تحات عنهما ذنبهما، كما تتحات الورق عن الشجرة اليابسة في يوم ريح عاصف، وإلا غفر لهم ذنبهما ولو كانت مثل زبد البحار».

يَأَيُّهَا النِّيَّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ **يَأَيُّهَا النِّيَّ حَرِصُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَدِيرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةً يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا أَيُّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ** ﴿٢﴾ **أَلْئَنَ حَفَّ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَارِبٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّادِرِينَ** ﴿٣﴾

يحرض تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين على القتال ومناجزة الأعداء وبارزة الأقران، ويخبرهم أنه حسبهم أي كاففهم وناصرهم ومؤيدتهم على عدوهم، وإن كثرت أعدادهم وترادفت أمدادهم، ولو قل عدد المؤمنين. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عثمان بن حكيم، حدثنا عبيد الله بن موسى، أربأنا سفيان عن ابن شوذب عن الشعبي في قوله: «يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين» قال حسبك الله، وحسب من شهد معك، قال: وروي عن عطاء الخراساني وعبد الرحمن بن زيد مثله.

ولهذا قال: «يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال» أي حثهم أو مرهم عليه، ولهذا كان رسول الله ﷺ يحرض على القتال، عند صفهم ومواجهة العدو، كما قال لأصحابه يوم بدر حين أقبل المشركون في عددهم وعددهم: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» فقال عمير بن الحمام: عرضها السموات والأرض؟ فقال رسول الله ﷺ «نعم»، فقال: بخ بخ فقام الرجل، فكسر جفن سيفه، وأخرج تمرات فجعل يأكل منها، ثم ألقى بقيتها من يده وقال: لشن أنا حيت حتى أكلهن إنها لحياة طويلة، ثم تقدم فقاتل حتى قتل رضي الله عنه^(١)، وقد روي عن سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير، أن هذه الآية نزلت حين أسلم عمر بن الخطاب وكمل به الأربعون، وفي هذا نظر، لأن هذه الآية مدنية، وإسلام عمر كان بمكة بعد الهجرة إلى أرض الحبشة، وقبل الهجرة إلى المدينة، والله أعلم.

(١) أخرجه مسلم في الإمارة حديث ١٤٦ ، وأحمد في المسند ٣/١٣٦ .

ثم قال تعالى مبشرًا للمؤمنين وأمرًا: «إِنْ يَكُنْ مِّنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مَائِتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِّنْكُمْ مائةً يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الظِّنِّينَ كُفَّارًا» كل واحد عشرة، ثم نسخ هذا الأمر وبقيت البشارة. قال عبد الله بن المبارك: حدثنا جرير بن حازم، حدثني الزبير بن الحريث، عن عكرمة عن ابن عباس، قال: لما نزلت «إِنْ يَكُنْ مِّنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مَائِتَيْنِ» شق ذلك على المسلمين، حتى فرض الله عليهم أن لا يفر واحد من عشرة، ثم جاء التخفيف، فقال: «الآن خفف الله عنكم» إلى قوله «يَغْلِبُوا مَائِتَيْنِ» قال خفف الله عنهم من العدة، ونقص من الصبر، بقدر ما خفف عنهم.

وروى البخاري^(١) من حديث ابن المبارك نحوه. وقال سعيد بن منصور: حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار، عن ابن عباس في هذه الآية، قال: كتب عليهم أن لا يفر عشرون من مائتين، ثم خفف الله عنهم، فقال «الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً» فلا ينبغي لمائة أن يفروا من مائتين، وروى البخاري عن علي بن عبد الله عن سفيان به نحوه، وقال محمد بن إسحاق: حدثني ابن أبي نجيح، عن عطاء عن ابن عباس، قال: لما نزلت هذه الآية ثقلت على المسلمين، وأعظموا أن يقاتل عشرون مائتين، ومائة ألفاً، فخفف الله عنهم فتسخها الآية الأخرى، فقال «الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً» الآية، فكانوا إذا كانوا على الشطر من عدوهم، لم يسع لهم أن يفروا من عدوهم، وإذا كانوا دون ذلك، لم يجب عليهم قتالهم، وجاز لهم أن يتحوزوا عنهم^(٢).

وروى علي بن أبي طلحة والعقوي عن ابن عباس نحو ذلك، قال ابن أبي حاتم: وروي عن مجاهد وعطاء وعكرمة والحسن، وزيد بن أسلم وعطاء الخراساني والضحاك، وغيرهم نحو ذلك، وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه: من حديث المسيب بن شريك، عن ابن عون عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما، في قوله «إِنْ يَكُنْ مِّنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مَائِتَيْنِ» قال نزلت علينا أصحاب محمد ﷺ وروى الحاكم في مستدركه من حديث أبي عمرو بن العلاء، عن نافع عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قرأ «الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعناً» رفع ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخر جاه.

مَا كَانَ لِنِي أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُشْغِلَ فِي الْأَرْضِ تُرْبِدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ
وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ لَوْلَا كَتَبَ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمْسَكُمْ فِيمَا أَخْذَمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ فَلَكُمُوا مِمَّا عِنْمَتْ
حَلَالًا طَيْبًا وَأَنْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝

(١) كتاب التفسير تفسير سورة ٨، باب ٦، ٧.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٢٨٣ / ٦.

قال الإمام أحمد^(١): حدثنا علي بن هاشم، عن حميد، عن أنس رضي الله عنه، قال: استشار النبي ﷺ الناس في الأسرى يوم بدر، فقال «إن الله قد أمكنكم منهم» فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله اضرب أعناقهم فأعرض عنهم النبي ﷺ، ثم عاد رسول الله ﷺ فقال: يا أيها الناس إن الله قد أمكنكم منهم وإنما هم إخوانكم بالأمس» فقام عمر فقال: يا رسول الله اضرب أعناقهم، فأعرض عنهم النبي ﷺ، ثم عاد النبي ﷺ فقال: للناس مثل ذلك، فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله نرى أن تعفو عنهم، وأن تقبل منهم الفداء، قال فذهب عن وجهه رسول الله ﷺ ما كان فيه من الغم، فعفا عنهم وقبل منهم الفداء، قال وأنزل الله عز وجل ﴿لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾ وقد سبق في أول السورة حديث ابن عباس في صحيح مسلم بنحو ذلك.

وقال الأعمش: عن عمرو بن مرة، عن أبي عبيدة، عن عبد الله قال: لما كان يوم بدر، قال رسول الله ﷺ: «ما تقولون في هؤلاء الأسرى؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله قومك وأهلك، استبقيهم واستتب لهم لعل الله أن يتوب عليهم، وقال عمر «يا رسول الله كذبوك وأخر جوك فقدتهم فاضرب أعناقهم»، وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله أنت في واد كثير الحطب، أضرم الوادي عليهم ناراً، ثم ألقهم فيه، قال فسكت رسول الله ﷺ فلم يرد عليهم شيئاً، ثم قام فدخل، فقال ناس: يأخذ يقول أبي بكر، وقال ناس: يأخذ يقول عمر، وقال ناس: يأخذ يقول عبد الله بن رواحة.

ثم خرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: «إن الله ليدين قلوب رجال حتى تكون أليين من اللين، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبي بكر كمثل إبراهيم عليه السلام، قال ﴿فمن تبني فانه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾ [إبراهيم: ٣٦] وإن مثلك يا أبي بكر كمثل عيسى عليه السلام، قال ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ [المائدة: ١١٨] وإن مثلك يا عمر، كمثل موسى عليه السلام، قال ﴿ربنا اطمس على أموالهم واسدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾ [يوحنا: ٨٨] وإن مثلك يا عمر، كمثل نوح عليه السلام، قال ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ [نوح: ٢٦] أنت عالة فلا ينفك أحد منهم إلا بفاء، أو ضربة عنق» قال ابن مسعود: قلت: يا رسول الله إلا سهيل ابن بيضاء، فإنه يذكر الإسلام، فسكت رسول الله ﷺ فما رأيتني في يوم أخوف من أن تقع علي حجارة من السماء مني في ذلك اليوم، حتى قال رسول الله ﷺ: «إلا سهيل ابن بيضاء» فأنزل الله عز وجل ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى﴾ إلى آخر الآية^(٢).

(١) المستند ٢٤٣/٣

(٢) أخرجه الترمذى في تفسير سورة ٨، باب ٦، وأحمد في المستند ١/ ٣٨٣، ٣٨٤، والطبرى في تفسيره . ٢٨٧/٦

رواه الإمام أحمد والترمذى من حديث أبي معاوية عن الأعمش به، والحاكم في مستدركه، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وروى الحافظ أبو بكر بن مردوه عن عبد الله بن عمر، وأبي هريرة رضي الله عنهمَا، عن النبي ﷺ نحوه.

وفي الباب عن أبي أيوب الأنباري، وروى ابن مردوه أيضاً، واللفظ له والحاكم في مستدركه، من حديث عبيد الله بن موسى، حدثنا إسرائيل عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد عن ابن عمر، قال: لما أسر الأسرى يوم بدر، أسر العباس فيمن أسر، أسره رجل من الأنصار، قال وقد أوعدته الأنصار أن يقتلوه، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «إني لم أنم الليلة من أجل عمي العباس، وقد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه» فقال له عمر أفأتم؟ فقال «نعم»، فأتي عمر الأنصار فقال لهم: أرسلوا العباس، فقالوا: لا والله لا نرسله، فقال لهم عمر: فإن كان لرسول الله ﷺ رضي؟ قالوا فإن كان لرسول الله ﷺ رضي فخذنه، فأخذه عمر فلما صار في يده، قال له: يا عباس أسلم فو الله لأن تسلم أحباب إلي من أن يسلم الخطاب، وما ذاك إلا لما رأيت رسول الله ﷺ يعجبه إسلامك، قال واستشار رسول الله ﷺ أبا بكر فيهم، فقال أبو بكر عشيرتك فأرسلهم، فاستشار عمر فقال: اقتلهم ففاداهم رسول الله ﷺ، فأنزل الله ﷺ: «ما كان لنبي أن يكون له أسرى» الآية، قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وقال سفيان الثوري عن هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، عن عبيدة، عن علي رضي الله عنه، قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ يوم بدر، فقال: خير أصحابك في الأسرى، إن شاؤوا الفداء، وإن شاؤوا القتل، على أن يقتل عاماً مقبلاً منهم مثلهم، قالوا: الفداء ويقتل منها^(١)، رواه الترمذى والنسائى وابن حبان في صحيحه من حديث الثوري به، وهذا حديث غريب جداً، وقال ابن عون عن عبيدة عن علي، قال: قال رسول الله ﷺ في أسرى يوم بدر: «إن شئتم قتلتكم وإن شئتم فاديتموهם، واستمتعتم بالفاء واستشهد منكم بعذتهم» قال فكان آخر السبعين، ثابت بن قيس قتل يوم اليمامة رضي الله عنه، ومنهم من روی هذا الحديث عن عبيدة مرسلاً، فالله أعلم.

وقال محمد بن إسحاق عن ابن أبي نجيح، عن عطاء عن ابن عباس: «ما كان لنبي أن يكون له أسرى» فقرأ حتى بلغ «عذاب عظيم». قال غنائم بدر قبل أن يحلها لهم، يقول: لو لا أني لا أعدب من عصاني، حتى أتقدم إليه لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم^(٢)، وكذا روی ابن أبي نجيح: عن مجاهد، وقال الأعمش: سبق منه أن لا يعذب أحداً شهد بدرأ، وروي نحوه عن سعد بن أبي وقاص، وسعيد بن جبير وعطاء، وقال شعبة عن أبي هاشم عن مجاهد «لولا كتاب من الله سبق» أي لهم بالمغفرة ونحوه، عن سفيان الثوري رحمه الله.

(١) أخرجه الترمذى في السير باب ١٨.

(٢) انظر سيرة ابن هشام ٦٧٦/١.

وقال علي بن أبي طلحة: عن ابن عباس في قوله «لولا كتاب من الله سبق» يعني في أم الكتاب الأول، أن المغامن والأسرى حلال لكم «لمسكم فيما أخذتم» من الأسرى «عذاب عظيم» قال الله تعالى: «فكلوا مما غنمتم حلاً طيباً» الآية. وكذا روى العوفي عن ابن عباس، وروي مثله عن أبي هريرة، وابن مسعود، وسعيد بن جبير، وعطاء والحسن البصري، وقتادة والأعمش أيضاً، أن المراد «لولا كتاب من الله سبق» لهذه الأمة بإحلال الغنائم، وهو اختيار ابن جرير رحمة الله.

ويشهد لهذا القول، بما أخرجه في الصحيحين عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلني: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وظهوراً، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه، وبعثت إلى الناس عامة»^(١) وقال الأعمش عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لم تحل الغنائم لسود الرؤوس غيرنا»^(٢) ولهذا قال تعالى: «فكلوا مما غنمتم حلاً طيباً» الآية، فعند ذلك أخذوا من الأسرى الفداء.

وقد روى الإمام أبو داود في سنته: حدثنا عبد الرحمن بن المبارك العبسي، حدثنا سفيان بن حبيب، حدثنا شعبة عن أبي العبس، عن أبي الشعاء، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر أربعيناتة^(٣)، وقد استمر الحكم في الأسرى عند جمهور العلماء، أن الإمام مخير فيهم إن شاء قتل كما فعلبني قريظة، وإن شاء فادى بمال كما فعل بأسرى بدر، أو بمن أسر من المسلمين، كما فعل رسول الله ﷺ في تلك الجارية وابتتها، اللتين كانتا في سبي سلمة بن الأكوع، حيث ردهما وأخذ في مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين، وإن شاء استرق من أسر. هذا مذهب الإمام الشافعي وطائفة من العلماء، وفي المسألة خلاف آخر بين الأئمة، مقرر في موضعه من كتب الفقه.

يَأَيُّهَا النَّٰئِيْقُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيْكُمْ مِنْ أَسْرَى إِنْ يَعْلَمُ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ إِنَّمَا يُؤْتَكُمْ خَيْرًا مَمَّا أَخْذَ مِنْكُمْ وَيَعْنِفُكُمْ وَاللَّهُ عَمُورٌ رَّحِيمٌ وَإِنْ يُرِيدُوا إِخْيَانَكُمْ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ إِنْ قَبْلَ فَأَمَّا كُنْ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكْمٌ

حَكْمٌ

(١) أخرجه البخاري في التيم باب ١، والصلة باب ٥٦، والخمس باب ٨، ومسلم في المساجد حديث ٥، ٣.

(٢) أخرجه الترمذى في تفسير سورة ٨، باب ٧، وأحمد في المسند ٢٥٢ / ٢.

(٣) أخرجه أبو داود في الجهاد باب ١٢١.

قال محمد بن إسحاق: حدثني العباس بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر: «إني قد عرفت أن أناساً منبني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً لا حاجة لهم بقتالنا فمن لقي منكم أحداً منهم - أي منبني هاشم - فلا يقتله، ومن لقي أبي البختري بن هشام فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله، فإنه إنما أخرج مستكرهاً» فقال أبو حذيفة بن عتبة أقتل أبناءنا وأبنائنا وأخواننا وعشائرنا ونترك العباس والله لئن لقيته لأجلمنه بالسيف فبلغت رسول الله ﷺ فقال لعمر بن الخطاب «يا أبي حفص - قال عمر والله إنه لأول يوم كناني فيه رسول الله ﷺ يا أبي حفص - أيضرب وجه عم رسول الله ﷺ بالسيف؟» فقال عمر يا رسول الله ائذن لي فأضرب عنقه فوالله لقد نافق، فكان أبو حذيفة يقول بعد ذلك والله ما آمن من تلك الكلمة التي قلت ولا أزال منها خائفاً إلا أن يكفرها الله تعالى عنى بشهادة، فقتل يوم اليمامة شهيداً رضي الله عنه.

وبه عن ابن عباس قال: لما أمسى رسول الله ﷺ يوم بدر، والأسارى محبوسون بالوثاق، بات رسول الله ﷺ ساهراً أول الليل فقال له أصحابه يا رسول الله ما لك لا تنام؟ وقد أسر العباس رجل من الأنصار فقال رسول الله ﷺ «سمعت أني عمي العباس في وثاقه فأطلقوه». فسكت فنام رسول الله ﷺ.

قال محمد بن إسحاق: وكان أكثر الأسارى يوم بدر فداء العباس بن عبد المطلب وذلك أنه كان رجلاً موسراً فافتدى نفسه بمائة أوقية ذهباً، وفي صحيح البخاري من حديث موسى بن عقبة قال ابن شهاب حدثنا أنس بن مالك أن رجالاً من الأنصار قالوا يا رسول الله ائذن لنا فلترك لابن أختنا عباس فداءه. قال «لا والله لا تذرون منه درهماً»^(١).

وقال يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان عن عروة عن الزهرى عن جماعة سماهم قالوا: بعثت قريشاً إلى رسول الله ﷺ في فداء أسراه فندى كل قوم أسيرهم بما رضوا، وقال العباس يا رسول الله قد كنت مسلماً فقال رسول الله ﷺ: «الله أعلم بإسلامك فإن يكن كما تقول فإن الله يجزيك وأما ظاهرك فقد كان علينا فافتدى نفسك وابني أخيك نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب، وحليفك عتبة بن عمرو أخي بنى الحارث بن فهر»: قال ما ذاك عندي يا رسول الله.

قال: «فأين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل؟» فقلت لها إن أصبحت في سفري هذا، فهذا المال الذي دفنته لبني الفضل وعبد الله وقثم» قال: والله يا رسول الله إني لأعلم أنك رسول الله إن هذا لشيء ما علمه أحد غيري وغير أم الفضل فاحسب لي يا رسول الله ما أصبحت مني عشرين

(١) أخرجه البخاري في الجهاد باب ١٧٢، والمغازي باب ١٢.

أوقية من مال كان معه فقال رسول الله ﷺ «لا ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك» ففدى نفسه وابني أخيه وحليفه فأنزل الله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيهِمْ مِّنَ الْأَسْرَى إِنَّمَا أَخْذُ مِنْكُمْ خَيْرًا مَا أَخْذُ مِنْكُمْ وَيَغْفِرُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قال العباس فأعطاني الله مكان العشرين الأوقية في الإسلام عشرين عبداً كلهم في يده مال يضرب به مع ما أرجو من مغفرة الله عز وجل.

وقد روى ابن إسحاق أيضاً عن ابن أبي نجيح عن عطاء عن ابن عباس في هذه الآية بنحو مما تقدم. وقال أبو جعفر بن جرير^(١): حدثنا ابن وكيع حدثنا ابن إدريس عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس قال: قال العباس: في نزلت ﴿مَا كَانَ لَنِبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يَخْنُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ فأخبرت النبي ﷺ بإسلامي وسألته أن يحاسبني بالعشرين الأوقية التي أخذت مني فأبى فأبدلني الله بها عشرين عبداً كلهم تاجر مالي في يده، وقال ابن إسحاق أيضاً حدثنى الكلبى عن أبي صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما عن جابر بن عبد الله بن رباب قال كان العباس بن عبد المطلب يقول في نزلت والله حين ذكرت لرسول الله ﷺ إسلامي ثم ذكر نحو الحديث كالذى قبله.

وقال ابن جريج عن عطاء الخراساني عن ابن عباس ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيهِمْ مِّنَ الْأَسْرَى﴾ عباس وأصحابه قال: قالوا للنبي ﷺ: آمنا بما جئت به ونشهد أنك رسول الله لنصحن لك على قومنا. فأنزل الله ﴿إِنْ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتَكُمْ خَيْرًا مَا أَخْذَ مِنْكُمْ﴾ إيماناً وتصديقاً يخلف لكم خيراً مما أخذ منكم ﴿وَيَغْفِرُ لَكُمْ﴾ الشرك الذي كنتم عليه قال فكان العباس يقول ما أحب أن هذه الآية لم تنزل علينا وإن لي الدنيا لقد قال ﴿يُؤْتَكُمْ خَيْرًا مَا أَخْذَ مِنْكُمْ﴾ فقد أعطاني خيراً مما أخذ مني مائة ضعف وقال ﴿وَيَغْفِرُ لَكُمْ﴾ وأرجو أن يكون قد غفر لي^(٢).

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية كان العباس أسر يوم بدر فافتدى نفسه بأربعين أوقية من ذهب فقال العباس حين قرئت هذه الآية لقد أعطاني الله عز وجل خصلتين ما أحب أن لي بهما الدنيا: إني أسرت يوم بدر ففديت نفسي بأربعين أوقية فاتانى أربعين عبداً وإنى لأرجو المغفرة التي وعدنا الله عز وجل^(٣). وقال قتادة في تفسير هذه الآية: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ لما قدم عليه مال البحرين ثمانون ألفاً وقد توضاً لصلاة الظهر فما أعطى يومئذ شاكياً ولا حرم سائلاً وما صلى يومئذ حتى فرقه، فأمر العباس أن يأخذ منه ويحتشى فكان العباس

(١) تفسير الطبرى / ٦ ٢٩٢ .

(٢) انظر تفسير الطبرى / ٦ ٢٩٣ ، ٢٩٢ .

(٣) تفسير الطبرى / ٦ ٢٩٢ .

يقول : هذا خير مما أخذ منا وأرجو المغفرة^(١).

وقال يعقوب بن سفيان : حدثنا عمرو بن عاصم حدثنا سليمان بن المغيرة عن حميد بن هلال قال بعث ابن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ من البحرين ثمانين ألفاً ما أتاها مال أكثر منه لا قبل ولا بعد . قال فنشرت على حصیر ونودی بالصلوة . قال وجاء رسول الله ﷺ فمثل قائماً على المال وجاء أهل المسجد فما كان يومئذ عدد ولا وزن ما كان إلا فيضاً وجاء العباس بن عبد المطلب فحثا في خميصة^(٢) عليه وذهب يقوم فلم يستطع قال فرفع رأسه إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ارفع علي . قال فتبسم رسول الله ﷺ حتى خرج ضاحكاً^(٣) أو نابه وقال له : «أعد من المال طائفه وقم بما تطيق» قال ففعل وجعل العباس يقول : وهو منطلق أما إحدى اللتين وعدنا الله فقد أنجزنا ، وما ندري ما يصنع الله في الأخرى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِّنَ الْأَسْرَى﴾ الآية ثم قال : هذا خير مما أخذ منا وما أدرى ما يصنع الله في الأخرى فما زال رسول الله ﷺ ماثلاً على ذلك المال حتى ما بقي منه درهم وما بعث إلى أهله بدرهم ثم أتى الصلاة فصلى .

حديث آخر في ذلك - قال الحافظ أبو بكر البهقي : أبأنا أبو عبد الله الحافظ أخبرني أبو الطيب محمد بن عبد الله السعدي حدثنا محمّس بن عصام حدثنا حفص بن عبد الله حدثنا إبراهيم بن طهمان عن عبد العزيز بن صهيب عن أنس بن مالك قال : أتني رسول الله ﷺ بمال من البحرين فقال «انثروه في مسجدي» قال وكان أكثر مال أتي به رسول الله ﷺ فخرج إلى الصلاة ولم يتلفت إليه فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه فما كان يرى أحداً إلا أعطاه إذ جاءه العباس فقال يا رسول الله أعطي فاني فاديت نفسي ، وفاديت عقيلاً فقال له رسول الله ﷺ «خذ» فحثا في ثوبه ثم ذهب يقله فلم يستطع فقال مر بعضهم يرفعه إلي قال «لا» قال فارفعه أنت علىي قال «لا» فشر منه ثم احتمله على كاهله ثم انطلق فما زال رسول الله ﷺ يتبعه بصره حتى خفي عنه عجبًا من حرصه ، فما قام رسول الله ﷺ وثم منها درهم ، وقد رواه البخاري^(٤) في مواضع من صحيحه تعليقاً بصيغة الجزم يقول : وقال إبراهيم بن طهمان ويسوقة وفي بعض السياقات أتم من هذا .

وقوله ﴿وَإِنْ يَرِيدُوا خِيَانتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي ﴿وَإِنْ يَرِيدُوا خِيَانتَكَ﴾ فيما أظهروا لك من الأقوال ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي من قبل بدر بالكفر به ﴿فَأُمِكِنَ

(١) تفسير الطبرى ٢٩٢/٦.

(٢) الخميصة : كساء أسود مربع .

(٣) خرج ضاحكاً : أي بدت أسنانه عند الضحك ، والضواحك : الأسنان التي تبدو عند الضحك ، وهي الأربع التي بين الأسنان والأضراس .

(٤) أخرجه البخاري في الصلاة باب ٤٢ ، والجزية باب ١ .

منهم» أي بالأسارى يوم بدر «والله علیم حکیم» أي علیم بفعله حکیم فيه . قال قتادة نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح الكاتب حين ارتد ولحق بالمرجعيين^(١) ، وقال ابن جريج عن عطاء الخراساني عن ابن عباس : نزلت في عباس وأصحابه حين قالوا : لننصرن لك على قومنا^(٢) وفسرها السدي على العموم وهو أشمل وأظهر والله أعلم .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَأَوْفَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أُولَئِكَمُ بَعْضٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَيْتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنْ أَسْتَنصُرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ الْأَنْصَارُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ يَتَنَاهُمْ وَيَنْهَا مَيْتَنِقُ وَاللَّهُ يَمْأُلُهُمْ مَمْأُلُونَ بَصِيرٌ

ذكر تعالى أصناف المؤمنين وقسمهم إلى مهاجرين خرجوا من ديارهم وأموالهم وجاؤوا لنصر الله ورسوله وإقامة دينه وبدلوا أموالهم وأنفسهم في ذلك ، وإلى أنصار وهم المسلمين من أهل المدينة إذ ذاك آتوا إخوانهم المهاجرين في منازلهم وواسوهم في أموالهم ونصروا الله ورسوله بالقتال معهم فهو لاء «بعضهم أولياء بعض» أي كل منهم أحق بالآخر من كل أحد ، ولهذا آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار كل اثنين أخوان فكانوا يتوارثون بذلك إرثاً مقدماً على القرابة حتى نسخ الله تعالى ذلك بالمواريث ، ثبت ذلك في صحيح البخاري عن ابن عباس ، ورواه العوفي وعلي بن أبي طلحة عنه ، وقال مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة وغير واحد :

قال الإمام أحمد^(٣) : حدثنا وكيع عن شريك عن عاصم عن أبي وائل عن جرير هو ابن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «المهاجرون والأنصار بعضهم أولياء بعض ، والطلقاء من قريش والعتقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض إلى يوم القيمة» تفرد به أحمد . وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا سفيان حدثنا عكرمة يعني ابن إبراهيم الأزدي حدثنا عاصم عن شقيق عن ابن مسعود قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «المهاجرون والأنصار ، والطلقاء من قريش والعتقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض في الدنيا والآخرة» هكذا رواه في مسنده عبد الله بن مسعود .

وقد أثني الله ورسوله على المهاجرين والأنصار ، في غير ما آية في كتابه ، فقال : «السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوه بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تحتها الأنهر» [التوبه : ١٠٠] الآية ، وقال «لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة» [التوبه : ١١٧]

(١) انظر تفسير الطبرى ٢٩٣ / ٦ .

(٢) انظر تفسير الطبرى ٢٩٣ / ٦ .

(٣) المسند ٣٦٣ / ٤ .

الآية، وقال تعالى: ﴿لِلْفَقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَتَغَافَلُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرَضُوا نَعَمْ وَيَنْصُرُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يَحْبُّونَ مِنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مَا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَاصَّةً﴾ [الحشر: ٩-٨] الآية.

وأحسن ما قيل في قوله ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مَا أُوتُوا﴾ أي لا يحسدونهم على فضل ما أعطاهم الله على هجرتهم، فإن ظاهر الآيات تقديم المهاجرين على الأنصار، وهذا أمر مجتمع عليه بين العلماء لا يختلفون في ذلك، ولهذا قال الإمام أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار في مسنده: حدثنا محمد بن عمر حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب، عن حذيفة، قال: خيرني رسول الله ﷺ بين الهجرة والنصرة، فاخترت الهجرة، ثم قال: لا نعرف إلا من هذا الوجه.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَيْتُهُمْ﴾ قرأ حمزة ولايهم بالكسر، والباقيون بالفتح، وهو واحد كالدلالة والدلالة ﴿مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يَهَاجِرُوا﴾ هذا هو الصنف الثالث من المؤمنين، وهم الذين آمنوا ولم يهاجروا، بل أقاموا في بواطنهم، فهو لاء ليس لهم في المغانم نصيب، ولا في خمسها إلا ما حضروا فيه القتال.

كما قال أحمد^(١): حدثنا سفيان، عن علقمة بن مرثد، عن سليمان بن بريدة، عن أبيه، عن يزيد بن الخصيب الأسلمي رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أو جيشاً، أو صاحب في خاصة نفسه، بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيراً، وقال: «اغروا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال - أو خلال - فأيتها ما أجابوك إليها فاقبل منهم، وكف عنهم. ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم. ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأعلمهم إن فعلوا ذلك أن لهم ما للمهاجرين، وأن عليهم ما على المهاجرين، فإن أبووا واختاروا دارهم، فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الفيء والغنيمة نصيب، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإنهم أبووا، فادعهم إلى إعطاء الجزية. فإن أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم، فإن أبووا فاستعن بالله وقاتلهم» انفرد به مسلم^(٢)، وعنده زيادات أخرى.

وقوله ﴿وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْر﴾ الآية، يقول تعالى وإن استنصركم هؤلاء الأعراب، الذين لم يهاجروا في قتال ديني على عدو لهم فانصروهم، فإنه واجب عليكم

(١) المستند ٣٥٢ / ٥.

(٢) كتاب الجهاد وحديث ٢.

نصرهم، لأنهم إخوانكم في الدين، إلا أن يستنصروكم على قوم من الكفار، بينكم وبينهم ميثاق أي مهادنة إلى مدة، فلا تخفروا ذمتكم ولا تنقضوا أيمانكم مع الذين عاهدتم، وهذا مروي عن ابن عباس رضي الله عنه.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعِصْمِهِمْ أُولَئِكَ أَبْعَضُهُمْ لَا تَفْعَلُوهُ كُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَيْرٌ^{١٧٢}

لما ذكر تعالى أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، قطع الموالاة بينهم وبين الكفار، كما قال الحاكم في مستدركه: حدثنا محمد بن صالح بن هانئ، حدثنا أبو سعيد يحيى بن منصور الهروي، حدثنا محمد بن أبىان، حدثنا محمد بن يزيد وسفيان بن حسین، عن الزهري، عن علي بن الحسین، عن عمرو بن عثمان، عن أسامه، عن النبي ﷺ قال «لا يتوارث أهل ملتین»، ولا يرث مسلم كافراً، ولا كافر مسلماً - ثم قرأ - «وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعِصْمِهِمْ أُولَئِكَ أَبْعَضُهُمْ لَا تَفْعَلُوهُ كُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَيْرٌ» ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخر جاه.

قلت: الحديث في الصحيحين من روایة أسماء بن زيد، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم»^(١) وفي المسند والسنن، من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتوارث أهل ملتین شتى»^(٢) وقال الترمذی: حسن صحيح وقال أبو جعفر بن جریر^(٣): حدثنا محمد، عن معاشر، عن الزهري، أن رسول الله ﷺ أخذ على رجل دخل في الإسلام، فقال: «تقييم الصلاة وتؤتي الزكاة وتحجج البيت وتصوم رمضان، وإنك لا ترى نار مشرك إلا وأنت له حرب» وهذا مرسل في هذا الوجه، وقد روى متصلًا في وجه آخر عن رسول الله ﷺ أنه قال: أنا بريء من كل مسلم بين ظهراني المشركين» ثم قال: «لا يتراءى نارا هما»^(٤).

وقال أبو داود في آخر كتاب الجهاد^(٥): حدثنا محمد بن داود بن سفيان، أخبرني يحيى بن حسان، أبىأنا سليمان بن موسى أبو آرد، حدثنا جعفر بن سعد بن سمرة بن جنبد أخبرني خبيب بن سليمان عن سمرة بن جنبد: أما بعد قال رسول الله ﷺ: «من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله» وذكر الحافظ أبو بكر بن مردویه من حديث حاتم بن إسماعيل عن عبد الله بن هرمز عن محمد وسعيد ابني عبيد عن أبي حاتم المزني قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا

(١) أخرجه البخاري في الفرائض باب ٢٦، ومسلم في الفرائض حديث ١.

(٢) أخرجه أبو داود في الفرائض باب ١٠، والترمذی في الفرائض باب ١٦، وابن ماجه في الفرائض باب ٦، والدارمي في الفرائض باب ٢٩، وأحمد في المسند ١٨٧/٢، ١٩٥.

(٣) تفسير الطبری ٢٩٦/٦.

(٤) أخرجه أبو داود في الجهاد باب ٩٥، والنمسائي في القسامۃ باب ٢٧.

(٥) باب ١٧٠.

أتاكم من ترثون دينه وخلقه فأنكحوه، إلا تفعلوه تكون فتنة في الأرض وفساد عريض» قالوا: يا رسول الله وإن كان فيه قال: «إذا أتاكم من ترثون دينه وخلقه فأنكحوه» ثلث مرات^(١)، وأخرجه أبو داود والترمذى من حديث حاتم بن إسماعيل به بنحوه.

ثم روى من حديث عبد الحميد بن سليمان: عن ابن عجلان عن أبي وثيمة النضرى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أتاكم من ترثون خلقه ودينه فروجوه، إلا تفعلوه تكون فتنة في الأرض وفساد عريض»^(٢) ومعنى قوله «إلا تفعلوه تكون فتنة في الأرض وفساد كبير» أي إن لم تجنبوا المشركين وتتوالوا المؤمنين وإلا وقعت فتنة في الناس وهو التباس الأمر واختلاط المؤمنين بالكافرين فيقع بين الناس فساد منتشر عريض طويل.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءاَوْرُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَفَّاً لَهُمْ مَغْفِرَةً وَرِزْقٌ كَرِيمٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَاجَرُوا وَجَهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أُولَئِنَّ يَبْعَضُ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُكْلِلُ شَيْءًا عَلَيْمٌ

لما ذكر تعالى حكم المؤمنين في الدنيا عطف بذلك مالهم في الآخرة، فأخبر عنهم بحقيقة الإيمان كما تقدم في أول السورة وأنه سبحانه سيجازيهم بالمغفرة والصفح عن الذنب إن كانت، وبالرزق الكريم وهو الحسن الكثير الطيب الشريف دائم مستمر أبداً لا ينقطع ولا ينضي ولا يسام ولا يمل لحسنه وتنوعه. ثم ذكر أن الأتباع لهم في الدنيا على ما كانوا عليه من الإيمان والعمل الصالح فهم معهم في الآخرة، كما قال **«والسابقون الأولون»** [التوبية: ١٠٠] الآية وقال **«والذين جاؤوا من بعدهم»** [الحشر: ١٠] الآية. وفي الحديث المتفق عليه بل المتوارد من طريق صحيحة، عن رسول الله ﷺ أنه قال «الماء مع من أحب»^(٣) وفي الحديث الآخر «من أحب قوماً فهو منهم» وهي رواية «حضر معهم».

وقال الإمام أحمد^(٤): حدثنا وكيع عن شريك عن عاصم عن أبي وائل عن جرير قال: قال رسول الله ﷺ: «المهاجرون والأنصار بعضهم أولياء بعض، والطلقاء من قريش والعتقاء من ثيف بعضهم أولياء بعض إلى يوم القيمة» قال شريك: فحدثنا الأعمش عن تميم بن سلمة عن عبد الرحمن بن هلال عن جرير عن النبي ﷺ مثله، تفرد به أحمد من هذين الوجهين.

وأما قوله تعالى: **«وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أُولَى بَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ**» أي في حكم الله وليس المراد بقوله: **«وَأُولُو الْأَرْحَامِ»** خصوصية ما يطلقه علماء الفرائض على القرابة الذين

(١) أخرجه أبو داود في النكاح باب ٣١، والترمذى في النكاح باب ٣.

(٢) أخرجه الترمذى في النكاح باب ٣، وابن ماجه في النكاح باب ٤٦.

(٣) أخرجه البخارى في الأدب باب ٩٦، ومسلم في البر حديث ١٦٥.

(٤) المسند ٤/٣٤٣.

لا فرض لهم ولا هم عصبة، بل يدلون بوارث كالخالة والخال والعمة وأولاد البنات وأولاد الأخوات ونحوهم، كما قد يزعمه بعضهم ويحتاج بالأية ويعتقد ذلك صريحاً في المسألة بل الحق أن الآية عامة تشمل جميع القرابات، كما نص عليه ابن عباس ومجاحد وعكرمة والحسن وقتادة وغير واحد على أنها ناسخة للإرث بالحلف والإيمان اللذين كانوا يتوارثون بهما أولاً، وعلى هذا فتشمل ذوي الأرحام بالاسم الخاص، ومن لم يورثهم يحتاج بأدلة من أقوالها حديث «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث»^(١) قالوا: فلو كان ذا حق لكان ذا فرض في كتاب الله مسمى فلما لم يكن كذلك لم يكن وارثاً، والله أعلم.

آخر تفسير سورة الأنفال . والله الحمد والمنة ، وعليه التكلان وهو حسبنا ونعم الوكيل .

(١) أخرجه أبو داود في الوصايا باب ٦ ، والترمذني في الوصايا باب ٦ ، وأحمد في المسند ٤ / ١٨٦ ، ١٨٧ . ٢٦٧ / ٥

سورة التوبية

بِرَاءَةٌ مَّنْ أَنَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَى الَّذِينَ عَنْهُدُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ فَسِيَحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ
عَدُمُّ مُعْجِزِي اللَّهِ وَإِنَّ اللَّهَ مُحَمَّدٌ أَكْفَارِنَ ۝

هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ كما قال البخاري^(١): حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة عن أبي إسحاق قال: سمعت البراء يقول آخر آية نزلت **﴿يَسْتَفْتُونَكَ قَلْ اللَّهُ يَفْتَحُ لَكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾** [النساء: ١٧٦] وأخر سورة نزلت براءة، وإنما لم يسمّل في أولها لأن يفتיקم في **الكلالة**» النساء: ١٧٦ وإنما لم يسمّل في أولها لأن الصحابة لم يكتبوا البسمة في أولها في المصحف الإمام، بل اقتدوا في ذلك بأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه، كما قال الترمذى: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد ومحمد بن جعفر وابن أبي عدي وسهيل بن يوسف قالوا: حدثنا عوف بن أبي جميلة، أخبرني يزيد الفارسي، أخبرني ابن عباس قال: قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم أن عمدمتم إلى الأنفال وهي من المثاني^(٢) وإلى براءة وهي من المثنين^(٣) وقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعموها في السبع الطوال ما حملكم على ذلك؟ فقال عثمان: كان رسول الله ﷺ مما يأتي عليه الزمان^(٤) وهو ينزل عليه السور ذات العدد فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن، وكانت قصتها شبيهة بقصتها وحسبت أنها منها، وقض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها في السبع الطوال^(٥)، وكذا رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه من طرق آخر عن عوف الأعرابي به، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجه.

وأول هذه السورة الكريمة نزل على رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك وهم بالحج، ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم في ذلك وأنهم

(١) كتاب التفسير، تفسير سورة ٩، باب ١.

(٢) المثاني: كل سورة عدد آياتها أقل من مائتين آية.

(٣) المثنين: كل سورة عدد آياتها أكثر من مائتين آية.

(٤) أي يأتي عليه الزمان الطويل.

(٥) أخرجه أبو داود في الصلاة باب ١٢٢، والترمذى في تفسير سورة ٩، باب ١، وأحمد في المستند

يطوفون بالبيت عراة، فكره مخالطتهم ويعث أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميراً على الحج تلك السنة ليقيم للناس مناسكهم ويعلم المشركين أن لا يحجوا بعد عامهم هذا، وأن ينادي في الناس **﴿براءة من الله ورسوله﴾** فلما قفل أتبعه بعلي بن أبي طالب ليكون مبلغاً عن رسول الله ﷺ لكونه عصبة له كما سيأتي بيانه.

قوله تعالى: **﴿براءة من الله ورسوله﴾** أي هذه براءة أي تبرؤ من الله ورسوله **﴿إلى الذين عاهدتم من المشركين فسيححوا في الأرض أربعة أشهر﴾** اختلف المفسرون هنا اختلافاً كثيراً، فقال قائلون: هذه الآية لذوي العهود المطلقة غير المؤقتة أو من له عهد دون أربعة أشهر فيكمل له أربعة أشهر، فأما من كان له عهد مؤقت فأجله إلى مدتة مهما كان، لقوله تعالى: **﴿فأنتموا إلهم عهدهم إلى مدتكم﴾** [التوبه: ٤] الآية، ولما سيأتي في الحديث. ومن كان بيته وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى مدتة وهذا أحسن الأقوال وأقوها، وقد اختاره ابن جرير رحمه الله، وروي عن الكلبي ومحمد بن كعب القرظي وغير واحد.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: **﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين فسيححوا في الأرض أربعة أشهر﴾** الآية، قال: حد الله للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر يسيحرون في الأرض حيث شاؤوا وأجل أجل من ليس له عهد انسلاخ الأشهر الحرم من يوم النحر إلى سلخ المحرم فذلك خمسون ليلة، فأمر الله نبيه إذا انسلاخ الأشهر الحرم أن يضع السيف فيمن لم يكن بيته عهد بقتلهم حتى يدخلوا في الإسلام، وأمر من كان له عهد إذا انسلاخ أربعة أشهر من يوم النحر إلى عشر خلون من ربيع الآخر أن يضع فيهم السيف أيضاً حتى يدخلوا في الإسلام^(١).

وقال أبو معشر المدنبي: حدثنا محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا: بعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميراً على الموسم سنة تسع، وبعث علي بن أبي طالب بثلاثين آية أو أربعين آية من براءة فقرأها على الناس، يؤجل المشركين أربعة أشهر يسيحرون في الأرض فقرأها عليهم يوم عرفة أجلهم عشرين من ذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول وعشراً من ربيع الآخر، وقرأها عليهم في منازلهم وقال: لا يحجن بعد عامنا هذا مشرك ولا يطوفن بالبيت عريان^(٢).

وقال ابن أبي نجيج، عن مجاهد **﴿براءة من الله ورسوله﴾** إلى أهل العهد خزانة ومدلخ ومن كان له عهد أو غيرهم، فقفز رسول الله ﷺ من تبوك حين فرغ فأراد رسول الله ﷺ الحج ثم قال: «إنما يحضر المشركون فيطوفون عراة فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك» فأرسل أبا بكر

(١) انظر تفسير الطبرى / ٣٠٣ / ٦.

(٢) تفسير الطبرى / ٣٠٤ / ٦.

وعلياً رضي الله عنهم فطافاً بالناس في ذي المجاز وبأمكتهم التي كانوا يتبايعون بها وبالمواسم كلها، فاذنوا أصحاب العهد بأن يؤمّنوا أربعة أشهر فهي الأشهر المتواليات عشرون من ذي الحجة إلى عشر يخلون من ربيع الآخر ثم لا عهد لهم، وأذن الناس كلهم بالقتال إلا أن يؤمّنوا^(١)، وهكذا روي عن السدي وقتادة وقال الزهري: كان ابتداء التأجيل من شوال وأخره سلخ المحرم، وهذا القول غريب وكيف يحاسبون بمدة لم يبلغهم حكمها وإنما ظهر لهم أمرها يوم النحر حين نادى أصحاب رسول الله ﷺ بذلك ولهذا قال تعالى:

وَإِذَا نَبَرَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحِجَّةِ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تَبْتَمِمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَيَّسْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعِذَابٍ أَلِيمٍ

يقول تعالى وإعلام «من الله ورسوله» وتقدم وإنذار إلى الناس (يوم الحج الأكبر) وهو يوم النحر الذي هو أفضل أيام المناسك وأظهرها وأكثرها جمعاً (أن الله بريء من المشركين ورسوله) أي بريء منهم أيضاً ثم دعاهم إلى التوبة إليه، فقال (فإن تبتم) أي مما أنتم فيه من الشرك والضلالة (فهو خير لكم وإن توليت) أي استمررت على ما أنتم عليه (فاعلموا أنكم غير معجزي الله) بل هو قادر عليكم وأنتم في قبضته وتحت قهره ومشيئته، (وبشر الذين كفروا بعذاب أليم) أي في الدنيا بالخزي والنکال وفي الآخرة بالمقامع والأغلال.

قال البخاري^(٢) رحمة الله: حدثنا عبد الله بن يوسف، حدثنا الليث، حدثني عقيل عن ابن شهاب قال: أخبرني حميد بن عبد الرحمن أن أبو هريرة قال: بعثني أبو بكر رضي الله عنه في تلك الحجة في المؤذنين الذين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمعنى أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان. قال حميد: ثم أردف النبي ﷺ علي بن أبي طالب فأمره أن يؤذن ببراءة، قال أبو هريرة فأذن معنا علي في أهل مني يوم النحر ببراءة، وأن لا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان.

ورواه البخاري^(٣) أيضاً: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب عن الزهري، أخبرني حميد بن عبد الرحمن أن أبو هريرة قال: بعثني أبو بكر فيمن يؤذن يوم النحر بمعنى لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، ويوم الحج الأكبر يوم النحر، وإنما قيل الأكبر من أجل قول الناس الحج الأصغر، فنبذ أبو بكر إلى الناس في ذلك العام فلم يحج عام حجة الوداع الذي حج فيه

(١) تفسير الطبرى ٣٠٤ / ٦

(٢) كتاب التفسير، تفسير سورة ٩، باب ٢، ٣.

(٣) كتاب الجهاد باب ٦٦.

رسول الله ﷺ مشرك، هذا لفظ البخاري في كتاب الجهاد.

وقال عبد الرزاق: عن معمر عن الزهري عن ابن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه في قوله: «براءة من الله ورسوله» قال: لما كان النبي ﷺ زمن حنين اعتمر من الجعرانة ثم أمر أبا بكر على تلك الحجّة، قال معمر: قال الزهري: وكان أبو هريرة يحدث أن أبا بكر أمر أبو هريرة أن يؤذن ببراءة في حجة أبي بكر، قال أبو هريرة: ثم أتبينا النبي ﷺ علينا وأمره أن يؤذن ببراءة وأبو بكر على الموسم كما هو أو قال على هيئته. وهذا السياق فيه غرابة من جهة أن أمير الحجّ كان سنة عمرة الجعرانة إنما هو عتاب بن أسيد فاما أبو بكر إنما كان أميراً سنة تسع.

وقال الإمام أحمد^(١): حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن مغيرة عن الشعبي عن محّرر بن أبي هريرة عن أبيه قال: كنت مع علي بن أبي طالب حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ببراءة فقال: ما كنتم تnadون؟ قال: كنا ننادي أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عرياناً، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فإن أجله أو مدة إلّى أربعة أشهر، فإذا مضت الأربعة الأشهر فإن الله بريء من المشركين ورسوله، ولا يحج هذا البيت بعد عامنا هذا مشرك، قال: فكنت أنا نادي حتى صحل صوتي^(٢).

وقال الشعبي: حدثني محّرر بن أبي هريرة عن أبيه قال: كنت مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين بعثه النبي ﷺ ينادي فكان إذا صحل ناديت فقلت: بأي شيء كنتم تnadون؟ قال بأربع، لا يطوف بالبيت عرياناً، ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فعهده إلى مدة، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يحج بعد عامنا هذا مشرك. رواه ابن جرير^(٣) من غير وجه عن الشعبي، ورواه شعبة عن مغيرة عن الشعبي به، إلا أنه قال: ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى أربعة أشهر وذكر تمام الحديث.

قال ابن جرير^(٤): وأخشى أن يكون وهماً من بعض نقلته لأن الأخبار متظاهرة في الأجل بخلافه.

وقال الإمام أحمد^(٥): حدثنا عفان، حدثنا حماد عن سماك عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بعثه ببراءة مع أبي بكر فلما بلغ ذا الحليفة قال: «لا يبلغها إلا أنا أو رجل من أهل بيتي» فبعث بها مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ورواه الترمذى^(٦) في التفسير: عن

(١) المستند ٢٩٩/٢.

(٢) صحل صوتي: أي يبح صوتي.

(٣) تفسير الطبرى ٣٠٦/٦.

(٤) تفسير الطبرى ٣٠٦/٦.

(٥) المستند ٢٨٣/٣.

(٦) كتاب التفسير، تفسير سورة ٩، باب ٥.

بندار عن عفان وعبد الصمد كلاهما عن حماد بن سلمة به، ثم قال: حسن غريب من حديث أنس رضي الله عنه.

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: حدثنا محمد بن سليمان، - لُوئِنْ - حدثنا محمد بن جابر عن سماك عن حنش عن علي رضي الله عنه قال: لما نزلت عشر آيات من براءة على النبي ﷺ دعا النبي ﷺ أبا بكر فعثه بها ليقرأها على أهل مكة ثم دعاني فقال: «أدرك أبا بكر فحيثما لحقته فخذ الكتاب منه فاذهب إلى أهل مكة فاقرأه عليهم» فلحقته بالحجفة فأخذت الكتاب منه ورجع أبو بكر إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، نزل في شيء؟ فقال «لا ولكن جبريل جاءني فقال: لن يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك»^(١) هذا إسناد فيه ضعف، وليس المراد أن أبا بكر رضي الله عنه رجع من فوره بل بعد قصائه للمناسك التي أمره عليها رسول الله ﷺ كما جاء مبيناً في الرواية الأخرى.

وقال عبد الله أيضاً: حدثني أبو بكر، حدثنا عمرو بن حماد عن أسباط بن نصر عن سماك عن حنش عن علي رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ حين بعثه ببراءة قال: يا نبي الله إني لست باللسن ولا بالخطيب قال: «لا بد لي أن أذهب بها أنا أو تذهب بها أنت» قال: فإن كان ولا بد فسأذهب أنا، قال: «انطلق فإن الله يثبت لسانك ويهدى قلبك» قال: ثم وضع يده على فيه^(٢).

وقال الإمام أحمد^(٣): حدثنا سفيان عن أبي إسحاق عن زيد بن يثيع رجل من همدان، سألناه علياً بأي شيء بعثت؟ يعني يوم بعثه النبي ﷺ مع أبي بكر في الحجة، قال: بعثت بأربع: لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين النبي ﷺ عهد فعهده إلى مدتة، ولا يحج المشركون والمسلمون بعد عاهمهم هذا، ورواه الترمذى^(٤) عن قلابة عن سفيان بن عيينة وقال: حسن صحيح كذا قال، ورواه شعبة عن أبي إسحاق فقال: زيد بن يثيع وهم فيه، ورواه الثوري عن أبي إسحاق عن بعض أصحابه عن علي رضي الله عنه.

وقال ابن جرير^(٥): حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبوأسامة عن زكريا عن أبي إسحاق عن زيد بن يثيع عن علي قال: بعثني رسول الله ﷺ حين أنزلت براءة بأربع: أن لا يطوف بالبيت عريان، ولا يقرب المسجد الحرام مشركاً بعد عاهمهم هذا، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مدتة، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ثم رواه ابن جرير^(٦) عن محمد بن عبد الأعلى عن

(١) أخرجه أحمد في المسند ١/١٥١.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ١/١٥٠.

(٣) المسند ١/٧٩.

(٤) كتاب التفسير، تفسير سورة ٩، باب ٥.

(٥) تفسير الطبرى ٦/٣٠٦.

(٦) تفسير الطبرى ٦/٣٠٦.

ابن ثور عن معمر عن أبي إسحاق عن الحارث عن علي قال: أمرت بأربع فذكره، وقال إسرائيل عن أبي إسحاق عن زيد بن يشيع قال: نزلت براءة فبعث رسول الله ﷺ أبا بكر ثم أرسل علينا فأخذها، فلما رجع أبو بكر قال: نزل في شيء؟ قال: «لا ولكن أمرت أن أبلغها أنا أو رجل من أهل بيتي» فانطلق إلى أهل مكة فقام فيهم بأربع لا يدخل مكة مشرك بعد عامه هذا، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهد إلى مده^(١).

وقال محمد بن إسحاق عن حكيم بن عباد بن حنيف عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي قال: لما نزلت براءة على رسول الله ﷺ وقد كان بعث أبا بكر لقيم الحج للناس فقيل يا رسول الله: لو بعثت إلى أبي بكر؟ فقال: «لا يؤديعني إلا رجل من أهل بيتي» ثم دعا عليناً فقال: «اذهب بهذه القصة من سورة براءة وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمني، أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فهو له إلى مده^(٢)» فخرج علي رضي الله عنه على ناقة رسول الله ﷺ العضباء حتى أدرك أبا بكر في الطريق فلما رأه أبو بكر قال: أمير أو مأمور؟ فقال بل مأمور، ثم مضيا فأقام أبو بكر للناس الحج إذ ذاك في تلك السنة على منازلهم من الحج التي كانوا عليها في الجاهلية حتى إذا كان يوم النحر قام علي بن أبي طالب فأذن في الناس بالذى أمره رسول الله ﷺ فقال: يا أيها الناس، إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فهو إلى مده^(٣)، فلم يحج بعد ذلك العام مشرك، ولم يطف بالبيت عريان، ثم قدما على رسول الله ﷺ فكان هذا من براءة فيمن كان من أهل الشرك من أهل العهد العام وأهل المدة إلى الأجل المسمى^(٤).

وقال ابن جرير^(٥): حدثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، أخبرنا أبو زرعة وهب الله بن راشد، أخبرنا حمزة بن شريح، أخبرنا ابن صخر أنه سمع أبا معاوية البجلي من أهل الكوفة يقول: سمعت أبا الصهباء البكري وهو يقول: سألت علياً عن يوم الحج الأكبر فقال: إن رسول الله ﷺ بعث أبا بكر بن أبي قحافة يقيم للناس الحج وبعثني معه بأربعين آية من براءة حتى أتى عرفة فخطب الناس يوم عرفة، فلما قضى خطبته التفت إلى فقل: قم يا علي فأد رسالة رسول الله ﷺ، فقمت فقرأت عليهم أربعين آية من براءة، ثم صدرنا فأتينا من فرميت الجمرة ونحرت البدنة ثم حلقت رأسى وعلمت أن أهل الجمع لم يكونوا كلهم حضروا خطبة

(١) انظر تفسير الطبرى ٣٠٦/٦.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٣٠٧/٦.

(٣) تفسير الطبرى ٣١٠، ٣٠٩/٦.

أبي بكر يوم عرفة فلتفت أتبع بها الفساطيط أقرأها عليهم فمن ثم أخال حسبتم أنه يوم النحر إلا وهو يوم عرفة.

وقال عبد الرزاق عن معاذ عن أبي إسحاق سألت أبي جحيفة عن يوم الحج الأكبر قال: يوم عرفة، فقلت: أمن عندك أم من أصحاب محمد ﷺ؟ قال: كل في ذلك^(١)، وقال عبد الرزاق أيضاً: عن ابن جريج عن عطاء قال: يوم الحج الأكبر يوم عرفة^(٢). وقال عمر بن الوليد الشنئي: حدثنا شهاب بن عباد العصري عن أبيه قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: هذا يوم عرفة هذا يوم الحج الأكبر فلا يصومنه أحد. قال: فحججت بعد أبي فأتيت المدينة فسألت عن أفضل أهلها فقالوا: سعيد بن المسيب فأتيته فقلت: إني سألت عن أفضل أهل المدينة فقالوا سعيد بن المسيب فأخبرني عن صوم يوم عرفة، فقال: أخبرك عنمن هو أفضل مني مائة ضعف عمر أو ابن عمر، كان ينهي عن صومه ويقول هو يوم الحج الأكبر، رواه ابن جرير^(٣) وابن أبي حاتم، وهكذا روي عن ابن عباس وعبد الله بن الزبير ومجاحد وعكرمة وطاوس أنهم قالوا: يوم عرفة هو يوم الحج الأكبر.

وقد ورد فيه حديث مرسلا رواه ابن جريج، أخبرت عن محمد بن قيس عن ابن مخرمة أن رسول الله ﷺ خطب يوم عرفة فقال: «هذا يوم الحج الأكبر»^(٤) وروي من وجه آخر: عن ابن جريج عن محمد بن قيس عن المسور بن مخرمة عن رسول الله ﷺ أنه خطبهم بعرفات فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد فإن هذا يوم الحج الأكبر» والقول الثاني أنه يوم النحر قال هشيم عن إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي عن علي رضي الله عنه قال: يوم الحج الأكبر يوم النحر، وقال إسحاق السبيعي عن الحارث الأعور: سألت علياً رضي الله عنه عن يوم الحج الأكبر فقال: هو يوم النحر^(٥).

وقال شعبة عن الحكم سمعت يحيى بن الجزار يحدث عن علي رضي الله عنه أنه خرج يوم النحر على بغلة بيضاء يرید الجبانة فجاء رجل فأخذ بلجام دابته فسألته عن يوم الحج الأكبر فقال هو يومك هذا خل سبليها^(٦)، وقال عبد الرزاق: عن سفيان عن شعبة عن عبد الملك بن عمير عن عبد الله بن أبي أوفى أنه قال: يوم الحج الأكبر يوم النحر^(٧)، وروى شعبة وغيره عن

(١) تفسير الطبرى / ٦ . ٣١٠

(٢) تفسير الطبرى / ٦ . ٣١٠

(٣) تفسير الطبرى / ٦ . ٣١٠

(٤) تفسير الطبرى / ٦ . ٣١٠

(٥) تفسير الطبرى / ٦ . ٣١١

(٦) تفسير الطبرى / ٦ . ٣١٢

(٧) تفسير الطبرى / ٦ . ٣١١

عبد الملك بن عمير به نحوه . وهكذا رواه هشيم وغيره عن الشيباني عن عبد الله بن أبي أوفى . وقال الأعمش عن عبد الله بن سنان قال : خطبنا المغيرة بن شعبة يوم الأضحى على بعير فقال : هذا يوم الأضحى وهذا يوم النحر وهذا يوم الحج الأكبر ، وقال حماد بن سلمة عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال : الحج الأكبر يوم النحر .

وكذا روي عن أبي جحيفة وسعيد بن جبير وعبد الله بن شداد بن الهاد ونافع بن جبير بن مطعم والشعبي وإبراهيم التخعي ومجاحد وعكرمة وأبي جعفر الباذر والزهري وبعد الرحمن بن زيد بن أسلم أنهم قالوا : يوم الحج الأكبر هو يوم النحر واختاره ابن جرير ، وقد تقدم الحديث عن أبي هريرة في صحيح البخاري أن أبا بكر بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى .

وقد ورد في ذلك أحاديث أخرى كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير^(١) : حدثني سهل بن محمد الحسانى ، حدثنا أبو جابر الحرمي ، حدثنا هشام بن الغازى الجرجشى عن نافع عن ابن عمر قال : وقف رسول الله ﷺ يوم النحر عند الجمرات فى حجة الوداع فقال : «هذا يوم الحج الأكبر» وهكذا رواه ابن أبي حاتم وابن مردوه من حديث أبي جابر واسمته محمد بن عبد الملك به ، ورواه ابن مردوه أيضاً من حديث الوليد بن مسلم عن هشام بن الغازى به ، ثم رواه من حديث سعيد بن عبد العزيز عن نافع به ، وقال شعبة عن عمرو بن مرة عن مرة الهمданى عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال : قام فيما رأى رسول الله ﷺ على ناقة حمراء مخضرة فقال : «أتدرؤن أي يوم يومكم هذا؟» قالوا : يوم النحر ، قال : «صدقتم يوم الحج الأكبر» .

وقال ابن جرير^(٢) : حدثنا أحمد بن المقدام ، حدثنا يزيد بن زريع ، حدثنا ابن عون عن محمد بن سيرين عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال : لما كان ذلك اليوم قعد رسول الله ﷺ على بعير له وأخذ الناس بخطامه أو زمامه ، فقال : «أي يوم هذا؟» قال : فسكتنا حتى ظتنا أنه سيسمه سوى اسمه ، فقال «أليس هذا يوم الحج الأكبر؟» وهذا إسناد صحيح وأصله مخرج في الصحيح . وقال أبو الأحوص عن شبيب بن غرقدة عن سليمان بن عمرو بن الأحوص عن أبيه قال : سمعت رسول الله ﷺ في حجة الوداع فقال : «أي يوم هذا؟» قالوا : اليوم الحج الأكبر ، وعن سعيد بن المسيب أنه قال : يوم الحج الأكبر اليوم الثاني من يوم النحر رواه ابن أبي حاتم .

(١) تفسير الطبرى ٣١٥/٦ ، وفيه : سهل بن محمد السجستانى ، بدل : سهل بن محمد الحسانى .

(٢) تفسير الطبرى ٣١٥/٦ .

وقال مجاهد أيضاً: يوم الحج الأكبر أيام الحج كلها، وكذا قال أبو عبيد. قال سفيان: يوم الحج ويوم الجمل ويوم صفين أي أيامه كلها، وقال سهل السراج: سئل الحسن البصري عن يوم الحج الأكبر؟ فقال: ما لكم وللحج الأكبر ذاك عام حج فيه أبو بكر الذي استخلفه رسول الله ﷺ فحج بالناس رواه ابن أبي حاتم، وقال ابن جرير^(١): حدثنا ابن وكيع، حدثنا أبو أسامة عن ابن عون، سأله محمد يعني ابن سيرين عن يوم الحج الأكبر، فقال: كان يوماً وافق فيه حج رسول الله ﷺ وحج أهل الوير.

إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْفُضُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُطْهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَاقْتُلُوْا إِلَيْهِمْ
عَهْدَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ①

هذا استثناء من ضرب مدة التأجيل بأربعة أشهر لمن له عهد مطلق ليس بمؤقت، فأجله أربعة أشهر يسبح في الأرض يذهب فيها لينجو بنفسه حيث شاء، إلا من له عهد مؤقت فأجله إلى مدة المضروبة التي عوهده عليها، وقد تقدمت الأحاديث ومن كان له عهد مع رسول الله ﷺ فعهده إلى مدة، وذلك بشرط أن لا ينقض المعاهد عهده ولم يظاهر على المسلمين أحداً أى يمالئ عليهم من سواهم، فهذا الذي يوفي له بذمته وعهده إلى مدة ولهذا حرض تعالى على الوفاء بذلك، فقال «إن الله يحب المتقين» أي المؤمنين بعهدهم.

إِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدُّوكُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاعْدُوْا إِلَيْهِمْ كُلَّ
مَرْضَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقْامُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكُوْةَ فَخُلُّوْسِيَّا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَمُورٌ رَّحِيمٌ ٢٦

اختلف المفسرون في المراد بالأشهر الحرم هنا ما هي؟ فذهب ابن جرير إلى أنها المذكورة في قوله تعالى: «منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا نظلموا فيهن أنفسكم» [التوبه: ٣٦] الآية، قال أبو جعفر الباقر، ولكن قال ابن جرير: آخر الأشهر الحرم في حفهم المحرم، وهذا الذي ذهب إليه حكاه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وإليه ذهب الضحاك أيضاً وفيه نظر، والذي يظهر من حيث السياق ما ذهب إليه ابن عباس في رواية العوفي عنه، وبه قال مجاهد وعمرو بن شعيب ومحمد بن إسحاق وقاده والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أن المراد بها أشهر التسخير الأربع المنصوص عليها بقوله «فسيحوا في الأرض أربعة أشهر» [التوبه: ٢] ثم قال: «إذا أنسليخ الأشهر الحرم» أي إذا انقضت الأشهر الأربع التي حرمنا عليكم فيها قتالهم وأجلناهم فيها فحيثما وجدتموه فاقتلوهم لأن عود العهد على

(١) تفسير الطبرى / ٣١٣ / ٦.

مذكور أولى من مقدر، ثم إن الأشهر الأربع المحرمة سيأتي بيان حكمها في آية أخرى بعد في هذه السورة الكريمة.

وقوله: «فاقتلووا المشركين حيث وجدتهم» أي من الأرض وهذا عام، والمشهور تخصيصه بتحريم القتال في الحرم، بقوله: «ولا تقاتلهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم» [البقرة: ١٩١] وقوله: «وخذلهم» أي وأسرهم إن شئتم قتلاً وإن شئتم أسرًا، وقوله: «واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد» أي لا تكتفوا بمجرد وجدانكم لهم، بل اقصدوهم بالحصار في معاقلهم وحصونهم والرصد في طرقهم ومسالكهم حتى تضيقوا عليهم الواسع وتضطروهم إلى القتل أو الإسلام، ولهذا قال: «فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكوة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم».

ولهذا اعتمد الصديق رضي الله عنه في قتال مانعي الزكاة على هذه الآية الكريمة وأمثالها، حيث حرمت قاتلهم بشرط هذه الأفعال وهي الدخول في الإسلام والقيام بأداء واجباته، ونبه بأعلاها على أدناها فإن أشرف أركان الإسلام بعد الشهادتين الصلاة التي هي حق الله عز وجل، وبعدها أداء الزكوة التي هي نفع متعد إلى الفقراء والمحاويع وهي أشرف الأفعال المتعلقة بالمخلوقين، ولهذا كثيراً ما يقرن الله بين الصلاة والزكوة. وقد جاء في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكوة»^(١) الحديث.

وقال أبو إسحاق: عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: أمرتم بإقام الصلاة وإيتاء الزكوة ومن لم يزك فلا صلاة له، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أبي الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكوة وقال: يرحم الله أبا بكر ما كان أفقهه!

وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا علي بن إسحاق، أبناؤنا عبد الله بن المبارك، أبناؤنا حميد الطويل عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله واستقبلوا قبلتنا وأكلوا ذبيحتنا وصلوا صلاتنا فقد حرمت علينا دمائهم وأموالهم إلا بحقها، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم»^(٣) رواه البخاري في صحيحه وأهل السنن إلا ابن ماجه، من حديث عبد الله بن

(١) أخرجه البخاري في الإيمان باب ١٧، ومسلم في الإيمان حديث ٣٢.

(٢) المستند ١٩٩ / ٣، ٢٢٤، ٢٢٥.

(٣) أخرجه البخاري في الصلاة باب ٢٨، وأبو داود في الزكوة باب ١، والجهاد باب ٩٥، والترمذى في الإيمان باب ١، ٢، وتفسیر سورة ٨٨، والنمسائي في الزكوة باب ٣، والإيمان باب ١٥، والجهاد باب ١، والتحريم باب ١، وابن ماجه في المقدمة باب ٩، والفتن باب ١.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير^(١): حدثنا عبد الأعلى بن واصل الأستدي، حدثنا عبيد الله بن موسى أخبرنا أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده وعبادته لا يشرك به شيئاً فارقها والله عنه راض» قال: وقال أنس: هو دين الله الذي جاءت به الرسل وببلغوه عن ربهم قبل هرج الأحاديث واختلاف الأهواء، وتصديق ذلك في كتاب الله في آخر ما أنزل، قال الله تعالى: «فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُوا سَبِيلَهُمْ» قال: توبتهم خلع الأوثان وعبادة ربهم وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ثم قال في آية أخرى: «فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانَكُمْ فِي الدِّينِ» [التوبية: ١١] رواه ابن مردويه ورواه محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة له. حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أئبنا حكماً بن سلمة، حدثنا أبو جعفر الرازي به سواء.

وهذه الآية الكريمة هي آية السيف التي قال فيها الضحاك بن مزاحم: إنها نسخت كل عهد بين النبي ﷺ وبين أحد من المشركين وكل عقد وكل مدة، وقال العوفي: عن ابن عباس في هذه الآية لم يبق لأحد من المشركين عهد ولا ذمة منذ نزلت براءة، وانسلاخ الأشهر الحرم ومدة من كان له عهد من المشركين قبل أن تنزل براءة أربعة أشهر، من يوم أذن ببراءة إلى عشر من أول شهر رمضان الآخر، وقال علي بن أبي طلحة: عن ابن عباس في هذه الآية قال: أمره الله تعالى أن يضع السيف فيمن عاهد إن لم يدخلوا في الإسلام، ونقض ما كان سمي لهم من العهد والميثاق، وأذهب الشرط الأول.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا إسحاق بن موسى الأنصاري قال: قال سفيان بن عيينة: قال علي بن أبي طالب: بعث النبي ﷺ بأربعة أسياف سيف في المشركين من العرب، قال الله تعالى: «فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حِيثُ وَجَدْنَمُوْهُمْ» هكذا رواه مختصراً، وأظن أن السيف الثاني هو قتال أهل الكتاب لقوله تعالى: «فَاقْتُلُوا الَّذِينَ لَا يَؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يَحْرِمُونَ مَا حَرَمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الَّذِينَ أُتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يَعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدِ وَهُمْ صَاغِرُونَ» [التوبية: ٢٩] والسيف الثالث قتال المنافقين في قوله «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدُ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ» [التوبية: ٧٣] والتحريم: ٩ الآية، والرابع قتال الباغين في قوله «وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ افْتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغْتَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفْيِءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ» [الحجرات: ٩] ثم اختلف المفسرون في آية السيف هذه فقال

الضحاك والسيدي هي منسوخة بقوله تعالى: «فَإِمَا مَنَّا بَعْدَ إِمَامَ فَدَاءٍ» [محمد: ٤] وقال قتادة بالعكس.

وَإِنْ أَحَدًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَسْتَجَارَكَ فَأَحِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَةَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلَغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه «وإن أحد من المشركين» الذين أمرتك بقتالهم وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم «استجارك» أي استأمنك فأجبه إلى طلبته «حتى يسمع كلام الله» أي القرآن تقرؤه عليه وتذكر له شيئاً من أمر الدين تقيم به عليه حجة الله «ثم أبلغه مأمونه» أي وهو آمن مستمر الأمان حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه «ذلك بأنهم قوم لا يعلمون» أي إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله وتنشر دعوة الله في عباده.

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد في تفسير هذه الآية قال: إنسان يأتيك ليسمع ما تقول وما أنزل عليك فهو آمن حتى يأتيك فتسمعه كلام الله وحتى يبلغ مأمونه حيث جاء^(١)، ومن هذا كان رسول الله ﷺ يعطي الأمان لمن جاءه مسترشداً أو في رسالة، كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش، منهم عروبة بن مسعود ومكرز بن حفص وسهيل بن عمرو وغيرهم، واحداً بعد واحد يترددون في القضية بينه وبين المشركين فرأوا من إعظام المسلمين رسول الله ﷺ ما بهرهم وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيسراً، فرجعوا إلى قومهم وأخبروهم بذلك، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم، ولهذا أيضاً لما قدم رسول مسيلمة الكذاب على رسول الله ﷺ قال له أتشهد أن مسيلمة رسول الله؟ قال نعم، فقال رسول الله ﷺ: «لولا أن الرسل لا تقتل لضربت عنقك» وقد قيض الله له ضرب العنق في إماراة ابن مسعود على الكوفة، وكان يقال له ابن النواحة ظهر عنه في زمان ابن مسعود أنه يشهد ل المسيلمة بالرسالة، فأرسل إليه ابن مسعود فقال له: إنك الآن لست في رسالة وأمر به ضرب عنقه لا رحمة الله ولعنه.

والغرض أن من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة أو تجارة أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية أو نحو ذلك من الأسباب، وطلب من الإمام أو نائبه أماناً أعطي أماناً ما دام متربداً في دار الإسلام، وحتى يرجع إلى مأمونه ووطنه، لكن قال العلماء لا يجوز أن يمكن من الإقامة في دار الإسلام سنة، ويجوز أن يمكن من إقامة أربعة أشهر، وفيما بين ذلك فيما زاد على أربعة أشهر ونقص عن سنة قولان عن الإمام الشافعي وغيره من العلماء رحمة الله.

(١) انظر تفسير الطبرى ٣٢٢/٦

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدُ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا أَسْتَقْبِلُكُمْ فَاسْتَقِيمُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ

يبين تعالى حكمته في البراءة من المشركين ونظرته إلى إبراهيم أربعة أشهر، ثم بعد ذلك السيف المرهف أين ثقفوا فقال تعالى: «كيف يكون للمشركين عهد» أي أمان ويتكون فيما هم فيه وهم مشركون بالله كافرون به وبرسوله «إلا الذين عاهدتم عن المسجد الحرام» يعني يوم الحديبية، كما قال تعالى: «هم الذين كفروا وصدواكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفاً أن يبلغ محله» [الفتح: ٢٥] الآية، «فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم» أي مهما تمسكوا بما عاقدتموهم عليه وعاهدتموهم من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين «فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقيين».

وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك والمسلمون. استمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذي القعدة في سنة ست إلى أن نقضت قريش العهد ومالئوا حلفاءهم وهم بنو بكر على خزاعة أخلاف رسول الله ﷺ فقتلواهم معهم في الحرم أيضاً فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثمان ففتح الله عليه البلد الحرام ومكنته من نواصيهم والله الحمد والمنة، فأطلق من أسلم منهم بعد الظهر والغبة عليهم فسموا الطلقاء، وكانوا قريباً من ألفين، ومن استمر على كفره وفرّ من رسول الله ﷺ بعث إليه بالأمان والتسيير في الأرض أربعة أشهر يذهب حيث شاء، ومنهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وغيرهما، ثم هداهم الله بعد ذلك إلى الإسلام التام، والله المحمود على جميع ما يقدره ويفعله.

كَيْفَ وَإِنْ يَظْهِرُوا عَيْنَكُمْ لَا يَرَقِبُوا فِيْكُمْ إِلَّا وَلَا ذَمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَسَقِيُونَ

يقول تعالى محراضاً للمؤمنين على معاداتهم والتبري منهم ومبيناً أنهم لا يستحقون أن يكون لهم عهد لشرفهم بالله تعالى وكفرهم برسول الله ﷺ، ولأنهم لو ظهروا على المسلمين وأديلوا عليهم لم يبقوا ولم يذروا ولا راقبوا فيهم إلاً ولا ذمة. قال علي بن أبي طلحة وعكرمة والعوفي عن ابن عباس: الإل القرابة والذمة العهد. وكذا قال الضحاك والسدي كما قال تميم بن مقبل: [الرمل]

أَفْسَدَ النَّاسَ خَلْوَفُ خَلْفَهُوا قَطَعُوا إِلَّا وَأَعْرَاقَ الرَّجَّامِ^(١)

وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه: [الطوبل]

(١) البيت لابن مقبل في تفسير الطبرى / ٣٢٦، وبلا نسبة في تفسير البحر المحيط ٥ / ٥.

وَجَدَنَاهُمْ كَاذِبًا إِلَهًا وَذُو الْإِلَّا وَالْعَهْدُ لَا يَكِيدُ^(١)

وقال ابن أبي نجيع عن مجاهد: لا يرقبون في مؤمن إلا، قال: الإل الله، وفي رواية لا يرقبون الله ولا غيره. وقال ابن جرير^(٢): حديثي يعقوب، حدثنا ابن علية عن سليمان عن أبي مجلز في قوله تعالى: ﴿لَا يرقبون في مؤمن إِلَّا وَلَا ذَمَةً﴾ [التوبه: ١٠] مثل قوله جبريل ميكائيل إسراويل كأنه يقول لا يرقبون الله، والقول الأول أظهر وأشهر وعليه الأكثر. وعن مجاهد أيضاً إل العهد. وقال قتادة: الإل الحلف.

أَشَرَّرُوا بِعِيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ لَا يَرْقِبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذَمَةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُمْتَدُونَ إِنَّمَا تَابُوا وَأَفْعَلُوا الظَّلَمَةَ وَمَآتُوا أَلَزَّكَوْنَ فَإِعْوَنُوكُمْ فِي الدِّينِ وَنَفَضَّلُ الْأَيْمَنَ لِقَوْمٍ يَعْدَلُونَ

يقول تعالى ذماً للمشركين وحثاً للمؤمنين على قتالهم «اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً» يعني أنهم اعتاضوا عن اتباع آيات الله بما التهوا به من أمور الدنيا الخسيسة «فصدوا عن سبيله» أي منعوا المؤمنين من اتباع الحق «إنهم ساء ما كانوا يعملون لا يرقبون في مؤمن إل ولا ذمة» تقدم تفسيره وكذا الآية التي بعدها «فإن تابوا وأقاموا الصلاة» إلى آخرها تقدمت.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا يحيى بن أبي بكر، حدثنا أبو جعفر الرازى، حدثنا الريبع بن أنس قال: سمعت أنس بن مالك يقول قال رسول الله ﷺ: «من فارق الدنيا على الإخلاص لله وعبادته لا يشرك به، وأقام الصلاة وآتى الزكاة فارقها والله عنه راضٍ» وهو دين الله الذي جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم، قبل هرج الأحاديث واختلاف الأهواء وتصديق ذلك في كتاب الله «فإن تابوا» يقول فإن خلعوا الأوثان وعبادتها «وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم» [التوبه: ٥] وقال في آية أخرى «فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكوة فإخوانكم في الدين» ثم قال البزار: آخر الحديث عندي والله أعلم فارقها وهو عنه راضٍ وباقيه عندي من كلام الريبع بن أنس.

وَإِنْ تَكُونُوا أَيْمَنَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَيْمَنَةَ الْكُفَّارِ إِنَّهُمْ لَا يَأْمَنُنَّ لَهُمْ لَعْنَهُمْ يَنْتَهُونَ

يقول تعالى وإن نكث المشركون الذين عاهدواهم على مدة معينة أيمانهم أي عهودهم ومواثيقهم «وطعنوا في دينكم» أي عابوه وانتقصواه، ومن هنا أخذ قتل من سب الرسول

(١) البيت ليس في ديوان حسان بن ثابت، وهو بلا نسبة في تفسير الطبرى ٦/٣٢٧.

(٢) تفسير الطبرى ٦/٣٢٥.

صلوات الله وسلامه عليه أو من طعن في دين الإسلام أو ذكره بنقص ، ولهذا قال : ﴿فَقَاتَلُوا أَئِمَّةَ الْكُفَّارِ إِنَّهُمْ لَا يُمْلِئُونَهُنَّا﴾ أي يرجعون عما هم فيه من الكفر والعناد والضلال . وقد قال قتادة وغيره : أئمة الكفر كأبي جهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف وعدد رجالاً^(١) ، وعن مصعب بن سعد بن أبي وقاص قال : مر سعد بن أبي وقاص برجل من الخوارج فقال الخارجي : هذا من أئمة الكفر فقال سعد كذبت بل أنا قاتلت أئمة الكفر رواه ابن مردويه ، وقال الأعمش عن زيد بن وهب عن حذيفة أنه قال ما قوتل أهل هذه الآية بعد . وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه : مثله ، وال الصحيح أن الآية عامة وإن كان سبب نزولها مشركي قريش فهي عامة لهم ولغيرهم والله أعلم .

وقال : الوليد بن مسلم : حدثنا صفوان بن عمرو عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير ، أنه كان في عهد أبي بكر رضي الله عنه إلى الناس حين وجههم إلى الشام قال : إنكم ستجدون قوماً محوقة رؤوسهم ، فاضربوا معاقد الشيطان منهم بالسيوف ، فوالله لأن أقتل رجلاً منهم أحب إلي من أن أقتل سبعين من غيرهم وذلك بأن الله يقول : ﴿فَقَاتَلُوا أَئِمَّةَ الْكُفَّارِ﴾ رواه ابن أبي حاتم .

أَلَا نَقْتِلُنُوكُمْ مَنْ كَثُرَ أَيْمَنَهُمْ وَهَمْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَكَدُءُوكُمْ أَوْلَى مَرَّةً أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ۝ قَاتَلُوكُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيهِنَّمْ وَيُخْزِنُهُمْ وَيَصْرُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝ وَيَذْهَبُ غَيْظُ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝

وهذا أيضاً تهيئة وتحضير وإغراء على قتال المشركين الناكثين بأيمانهم الذين هموا بإخراج الرسول من مكة ، كما قال تعالى : ﴿وَإِذْ يَمْكِرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكُمْ أَوْ يَخْرُجُوكُمْ وَيَمْكِرُونَ وَيَمْكِرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] وقال تعالى : ﴿يَخْرُجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [المتحنة: ١] الآية ، وقال تعالى : ﴿وَإِنْ كَادُوا لِيُسْتَفِزُوكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ لِيُخْرُجُوكُمْ مِّنْهَا﴾ [الإسراء: ٧٦] الآية ، قوله : ﴿وَهُمْ بَدُوءُوكُمْ أَوْلَى مَرَّةً﴾ قيل المراد بذلك : يوم بدر حين خرجوا للنصر عيرهم ، فلما نجت وعلموا بذلك استمرا على وجوههم ، طلباً للقتال بغياً وتكبراً كما تقدم بسط ذلك ، وقيل المراد تقضهم العهد وقتلهم مع حلفائهمبني بكر لخزاعة أحلاف رسول الله ﷺ حتى سار إليهم رسول الله ﷺ عام الفتح وكان ما كان والله الحمد والمنة .

وقوله : ﴿أَتَخْشَدُهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ تَخْشَوْهُمْ﴾ يقول تعالى لا تخشوهם واحشون فأنا أهل أن يخشى العباد من سطوتى وعقوبتي فييدي الأمر وما شئت كان وما لم أشا

(١) انظر تفسير الطبرى ٣٢٩ / ٦

لم يكن، ثم قال عزيمة على المؤمنين وبياناً لحكمته فيما شرع لهم من الجهاد مع قدرته على إهلاك الأعداء بأمر من عنده: «فَاتُّلُوهُمْ يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيهِمْ وَيَخْرُجُهُمْ وَيُنَصِّرُهُمْ عَلَيْهِمْ وَيُشَفِّعُهُمْ صَدُورُ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ». وهذا عام في المؤمنين كلهم، وقال مجاهد وعكرمة والسدسي في هذه الآية «ويشف صدور قوم مؤمنين» يعني خزانة، وأعاد الضمير في قوله: «ويذهب غيط قلوبهم» عليهم أيضاً.

وقد ذكر ابن عساكر في ترجمة مؤذن لعمرو بن عبد العزيز رضي الله عنه عن مسلم بن يسار عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ كان إذا غضبت أخذ بأنفها وقال «يا عويش قولي اللهم رب النبي محمد اغفر ذنبي، وأذهب غيط قلبي وأجرني من مضلات الفتنة» ساقه من طريق أبي أحمد الحكم، عن الباغندي عن هشام بن عمار حدثنا عبد الرحمن بن أبي الجوزاء عنه «ويتوب الله على من يشاء» أي من عباده «والله عاليم» أي بما يصلح عباده «حكيم» في أفعاله وأقواله الكونية والشرعية فيفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وهو العادل الحاكم الذي لا يجور أبداً ولا يضيع مثقال ذرة من خير وشر، بل يجازي عليه في الدنيا والآخرة.

**أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتَرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ، وَلَا
الْمُؤْمِنِينَ فَلِيَجْهَهُ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا قَعَدُوا**

يقول تعالى: «أم حسitem» أيها المؤمنون أن تترككم مهملين لا تختركم بأمور يظهر فيها أهل العزم الصادق من الكاذب ولهذا قال: «ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين ولبيحة» أي بطانة ودخيلة بل هم في الظاهر والباطن على النصح لله ولرسوله فاكتفى بأحد القسمين عن الآخر كما قال الشاعر: [الوافر]

وَمَا أَدْرِي إِذَا يَمْمَسْتُ أَرْضًا أَرِيدُ الْخَيْرَ أَيْهُمَا يَلِينِي^(١)

وقد قال الله تعالى في الآية الأخرى: «أَلَمْ أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَتَرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنُوا وَهُمْ لَا يَفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمُنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمُنَّ الْكَاذِبِينَ» [العنكبوت: ٢ - ٣] وقال تعالى: «أَمْ حسitem أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمُ الصَّابِرِينَ» [آل عمران: ١٤٢]، وقال تعالى: «مَا كَانَ اللَّهُ لِيذَرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يُمِيزَ الْخَيْثَ منَ الطَّيْبِ» [آل عمران: ١٧٩] الآية، والحاصل أنه تعالى لما شرع لعباده الجهاد بين أن له فيه حكمة وهو اختبار عبيده من يطاعه من يعصيه، وهو تعالى العالم بما كان

(١) البيت للمنقب العبدى في ديوانه ص ٢١٢، وخزانة الأدب ١١/٨٠، وشرح اختيارات المفضل ص ١٢٦٧، وشرح شواهد العيني ١/١٩١، وبلا نسبة في تخلص الشواهد ص ١٤٥، وخزانة الأدب ٣٧/٦.

وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكُون فيعلم الشيء قبل كونه ومع كونه على ما هو عليه لا إله إلا هو ولا رب سواه، ولا راد لما قدره وأمضاه.

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمَرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَهِيدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبَطَتْ أَعْمَالُهُمْ
وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١﴾ إِنَّمَا يَعْمَرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ مَاءَتْ إِلَيْهِ وَأَلَّيْهِ الْآخِرُ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ
وَإِنَّ الرَّكُوعَ وَلَمْ يَخْشِ إِلَّا اللَّهُ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهَتدِينَ ﴿٢﴾

يقول تعالى ما ينبغي للمشركين بالله أن يعمروا مساجد الله التي بنيت على اسمه وحده لا شريك له ، ومن قرأ مسجد الله فأراد به المسجد الحرام أشرف المساجد في الأرض الذي بني من أول يوم على عبادة الله وحده لا شريك له ، وأساسه خليل الرحمن ، هذا وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر أي بحالهم وقال لهم كما قال السدي : لو سألت النصراوي ما دينك ؟ لقال نصراوي ، ولو سألت اليهودي ما دينك ؟ لقال يهودي ، والصواب لقال صابيء ، والمشرك لقال مشرك ^(١) .

﴿أُولَئِكَ حَبَطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي بشركهم ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ وقال تعالى : ﴿وَمَا لَهُمْ
أَلَا يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصْدُونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أُولَئِيَّا
إِنَّمَا يَعْمَرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ﴾ فشهد تعالى بالإيمان لعمار المساجد كما قال الإمام أحمد ^(٢) : حدثنا شريح، حدثنا ابن وهب عن عمرو بن العاص ، أن دراجاً أبا السمح حدثه عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري ، أن رسول الله ﷺ قال «إِذَا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فأشهدوا له بالإيمان». قال الله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَعْمَرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ورواه الترمذى ^(٣) وابن مردويه والحاكم في مستدركه من حديث عبد الله بن وهب به .

وقال عبد الرحمن بن حميد في مسنده : حدثنا يونس بن محمد حدثنا صالح المري عن ثابت البغدادي عن ميمون بن سياه وجعفر بن زيد عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : «إنما عمار المساجد هم أهل الله» ورواه الحافظ أبو بكر البزار : عن عبد الواحد بن غيث عن صالح بن بشير المري عن ثابت عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : «إنما عمار المساجد هم أهل الله» ثم قال : لا نعلم رواه عن ثابت غير صالح ، وقد روى الدارقطني في الأفراد من طريق حكامة بنت عثمان بن أبيها عن أخيه مالك بن دينار عن أنس مرفوعاً «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ عَاهَةً نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْمَسَاجِدِ فَصَرَفَ عَنْهُمْ» ثم قال : غريب ، وروى الحافظ البهائى في

(١) انظر تفسير الطبرى ٣٣٤ / ٦

(٢) المسند ٦٨ ، ٦٨ / ٣

(٣) كتاب التفسير ، تفسير سورة ٩ ، باب ٨

المستقصى عن أبيه بسنده إلى أبي أمية الطرسوسي، حدثنا منصور بن صقير، حدثنا صالح المري عن ثابت عن أنس مرفوعاً يقول الله: وعزتي وجلالي إني لأهم بأهل الأرض عذاباً فإذا نظرت إلى عمار بيتي وإلى المتهاجرين في وإلى المستغفرين بالأحس哈尔 صرفت ذلك عنهم. ثم قال ابن عساكر: حديث غريب.

وقال الإمام أحمد^(١): حدثنا روح حدثنا سعيد عن قتادة، حدثنا العلاء بن زياد عن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال: «إن الشيطان ذئب الإنسان، كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية والناحية، فإياكم والشعوب وعليكم بالجماعة وال العامة والمسجد» وقال عبد الرزاق: عن معمر عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون الأودي قال: أدركت أصحاب محمد ﷺ وهم يقولون: إن المساجد بيوت الله في الأرض وإن حق على الله أن يكرم من زاره فيها. وقال المسعودي: عن حبيب بن أبي ثابت وعدي بن ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: من سمع النداء بالصلاحة ثم لم يجب ولم يأت المسجد ويصلّي فلا صلاة له وقد عصى الله ورسوله. قال الله تعالى: «إنما يعمّر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر» الآية، رواه ابن مردويه. وقد روی مرفوعاً من وجه آخر، قوله شواهد من وجوه آخر ليس هذا موضع بسطها.

وقوله: «وأقام الصلاة» أي التي هي أكبر عبادات البدن «وآتني الزكاة» أي التي هي أفضل الأعمال المتعددة إلى بر الخلق، قوله «ولم يخش إلا الله» أي ولم يخف إلا من الله تعالى ولم يخش سواه «فعني أولئك أن يكونوا من المهتدين» قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله «إنما يعمّر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر» يقول: من وحد الله وأمن باليوم الآخر يقول من آمن بما أنزل الله «وأقام الصلاة» يعني الصلوات الخمس «ولم يخش إلا الله» يقول لم يعبد إلا الله ثم قال: «فعني أولئك أن يكونوا من المهتدين» يقول تعالى: إن أولئك هم المفلحون كقوله لنبيه ﷺ: «عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً» [الإسراء: ٧٩] وهي الشفاعة، وكل عسى في القرآن فهي واجبة^(٢)، وقال محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله: عسى من الله حق^(٣).

﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْمَحَاجَّ وَعَمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْكَرَامِ كُنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْكَبِيرِ وَجَهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوِنُ عَنْهُ اللَّهُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَأْمُولُهُمْ وَأَنْسِيْهُمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عَنَّهُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُوَ الْفَائِزُونَ ﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتِ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾ خَلِيلِنَّ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

(١) المسند ٥/٢٣٢، ٢٣٣، ٢٤٣.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٦/٣٣٥.

(٣) تفسير الطبرى ٦/٣٣٥.

قال العوفي في تفسيره عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال: إن المشركين قالوا: عمارة بيت الله وقيام على السقاية خير من آمن وجاهد، وكانوا يفخرون بالحرم ويستكبرون به من أجل أنهم أهلها وعماره، فذكر الله استكبارهم وإعراضهم، فقال لأهل الحرم من المشركين «قد كانت آياتي تتلى عليكم فكتتم على أعقابكم تنكسون مستكبرين به سامراً تهجرون» [المؤمنون: ٦٧] يعني أنهم كانوا يستكبرون بالحرم قال «به سامراً» [المؤمنون: ٦٧] كانوا يسمرون به ويهجرون القرآن والنبي ﷺ فخير الله الإيمان والجهاد مع النبي ﷺ على عمارة المشركين البيت وقيامهم على السقاية ولم يكن ينفعهم عند الله مع الشرك به، وإن كانوا يعمرون بيته ويحرمون به. قال الله تعالى: «لا ينتظرون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين» يعني الذين زعموا أنهم أهل العمارة فسمواهم الله ظالمين بشرفهم فلم تغرنهم العمارة شيئاً.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال: قد نزلت في العباس بن عبد المطلب حين أسر بيدر قال: لئن كتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد لقد كان عمر المسجد الحرام ونسقي ونفك العاني، قال الله عز وجل: «أجعلتكم سقاية الحاج» - إلى قوله - «والله لا يهدي القوم الظالمين» يعني أن ذلك كله كان في الشرك ولا أقبل ما كان في الشرك^(١)، وقال الصحاح بن مزاحم: أقبل المسلمون على العباس وأصحابه الذين أسرروا يوم بدر يعيرونهم بالشرك، فقال العباس: أما والله لقد كان عمر المسجد الحرام ونفك العاني ونحجب البيت ونسقي الحاج، فأنزل الله «أجعلتكم سقاية الحاج» الآية^(٢).

وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن عيينة عن إسماعيل عن الشعبي: قال: نزلت في علي والعباس رضي الله عنهما بما تكلما في ذلك، وقال ابن جرير^(٣): حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني ابن لهيعة عن أبي صخر قال: سمعت محمد بن كعب القرظي يقول افتخر طلحة بن شيبة منبني عبد الدار وعباس بن عبد المطلب وعلى بن أبي طالب فقال طلحة: أنا صاحب البيت معي مفاتحه ولو أشاءت فيه. وقال العباس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها ولو أشاءت في المسجد، فقال علي رضي الله عنه: ما أدرى ما تقولان لقد صللت إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس وأنا صاحب الجهاد، فأنزل الله عز وجل «أجعلتكم سقاية الحاج» الآية كلها.

وهكذا قال السدي إلا أنه قال: افتخر علي والعباس وشيبة بن عثمان وذكر نحوه، وقال عبد الرزاق: أخبرنا عمر عن عمرو عن الحسن قال: نزلت في علي وعباس وعثمان وشيبة

(١) انظر تفسير الطبرى ٦/٣٣٦.

(٢) تفسير الطبرى ٦/٣٣٧.

(٣) تفسير الطبرى ٦/٣٣٧.

تكلموا في ذلك، فقال العباس: ما أراني إلا أني تارك سقايتنا، فقال رسول الله ﷺ «أقيموا على سقاياتكم فإن لكم فيها خيراً» ورواه محمد بن ثور: عن معمر عن الحسن فذكر نحوه.

وقد ورد في تفسير هذه الآية حديث مرفوع فلا بد من ذكره هنا، قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن يحيى بن أبي كثير عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن رجلاً قال: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أسي الحاج. وقال آخر: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام. وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلت. فزجرهم عمر رضي الله عنه وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ، وذلك يوم الجمعة، ولكن إذا صلينا الجمعة دخلنا على النبي ﷺ فسألناه. فنزلت **﴿أَجْعَلْتُمْ سَقَايَةَ الْحَاجِ وَعَمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾** - إلى قوله - **﴿لَا يَسْتَوْنَ عَنِ الدِّينِ﴾**^(١).

[طريق أخرى] قال الوليد بن مسلم حدثني معاوية بن سلام عن جده أبي سلام الأسود عن النعمان بن بشير الأنصاري قال: كنت عند منبر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه فقال رجل منهم: ما أبالي أن لا أعمل الله عملاً بعد الإسلام إلا أن أسي الحاج. وقال آخر: بل عمارة المسجد الحرام وقال آخر: بل الجهاد في سبيل الله خير مما قلت فزجرهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ، وذلك يوم الجمعة ولكن إذا صلیت الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفتته فيما اختلفتم فيه. قال ففعل فأنزل الله عزوجل **﴿أَجْعَلْتُمْ سَقَايَةَ الْحَاجِ وَعَمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾** - إلى قوله - **﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾**^(٢) ورواه مسلم في صحيحه وأبو داود وابن جرير وهذا لفظه، وابن مردويه وابن أبي حاتم في تفاسيرهم وابن حيان في صحيحه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْخِذُوا إِبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أُولَئِكَ إِنَّ أَسْنَجُوا الْكُفَّارَ عَلَى الْإِيمَانِ
وَمَن يَوْمَهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ **﴿قُلْ إِنْ كَانَ كَانَ إِبَاءُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَذْوَاجُكُمْ**
وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالُ أَقْرَبَتُمُوهَا وَتَجْرِيَنَّ مَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسِكَنُكُنْ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ
الَّهِ وَرَسُولِهِ وَجَهَادَ فِي سَبِيلِهِ فَتَرْبَصُوا حَتَّى يَأْتِيَنَّ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَسِيقِينَ﴾

أمر تعالى بمباهنة الكفار به وإن كانوا آباء أو أبناء، ونهى عن مواليتهم إن استحبوا أي اختاروا الكفر على الإيمان، وتوعد على ذلك كقوله تعالى **﴿لَا تَجِدُ قوماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يَوْدُونَ مِنْ حَادَّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ شَيْرَتَهُمْ أَوْ لِئَلَّكَ كُتُبٌ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيْدِيهِمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تُحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾**

(١) انظر تفسير الطبرى ٦/٣٣٦.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٦/٣٣٦، وأخرجه أيضاً مسلم في الإمارة حديث ١١١، وأحمد في المسند ٤/٢٦٩، والحديث بهذا اللفظ ليس في سن أبي داود.

[المجادلة: ٢٢] الآية، وروى الحافظ البهقي من حديث عبد الله بن شوذب قال: جعل أبو أبي عبيدة بن الجراح ينعت له الآلة يوم بدر وجعل أبو عبيدة يحيد عنه فلما أكثر الجراح قصده ابنه أبو عبيدة فقتلته فأنزل الله فيه هذه الآية ﴿لَا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله﴾ [المجادلة: ٢٢] الآية.

ثم أمر تعالى رسوله أن يتوعد من آثر أهله وقرباته وعشيرته على الله ورسوله وجihad في سبيله فقال: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالُ اقْرَفْتُمُوهَا﴾ أي اكتسبتموها وحصلتموها ﴿وَتِجَارَةً تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنَ تَرْضُونَهَا﴾ أي تحبونها لطبيتها وحسنها، أي إن كانت هذه الأشياء ﴿أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجَهَادِ فِي سَبِيلِهِ فَتُرْبِصُوا﴾ أي فانتظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم ولهذا قال ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

وقال الإمام أحمد^(١): حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا ابن لهيعة عن زهرة بن معبد عن جده قال: كنا مع رسول الله ﷺ وهو أخذ بيده عمر بن الخطاب فقال: والله يا رسول الله لأنك أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي ، فقال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون أحب إليه من نفسه» فقال عمر فأنت الآن وأنت أحب إلي من نفسي ، فقال رسول الله ﷺ: «الآن يا عمر» انفرد بإخراجه البخاري^(٢) فرواه عن يحيى بن سليمان عن ابن وهب عن حمزة بن شريح عن أبي عقيل زهرة بن معبد أنه سمع جده عبد الله بن هشام عن النبي ﷺ بهذا.

وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»^(٣) وروى الإمام أحمد وأبو داود واللفظ له من حديث أبي عبد الرحمن الخراساني عن عطاء الخراساني عن نافع عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم بأذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلة لا ينزعها حتى ترجعوا إلى دينكم»^(٤) وروى الإمام أحمد^(٥) أيضاً عن يزيد بن هارون عن أبي جناب عن شهر بن حوشب أنه سمع عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ بعنوان ذلك، وهذا شاهد للذى قبله والله أعلم.

لَقَدْ نَصَرْتُكُمْ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حَنَّينٍ إِذْ أَغْبَجَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمَّا تَفَعَّلَ

(١) المستند ٤/٣٣٦.

(٢) كتاب الأيمان باب ٣.

(٣) آخرجه البخاري في الإيمان باب ٨، ومسلم في الإيمان حديث ٦٩، ٧٠.

(٤) آخرجه أبو داود في البيوع باب ٥٤، وأحمد في المستند ٤٢/٢.

(٥) المستند ٢/٨٤.

عَنْكُمْ شَيْئاً وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحِبَتْ فِيمَا أَرْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّوْ تَرَوْهَا وَعَابَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَدَلَّكَ جَرَاءَ الْكُفَّارِينَ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ

قال ابن جريج عن مجاهد هذه أول آية نزلت من براءة يذكر تعالى للمؤمنين فضلهم عليهم وإحسانه لديهم في نصره إياهم في مواطن كثيرة من غزوتهم مع رسوله، وأن ذلك من عنده تعالى وبتأييده وتقديره لا بعدهم ولا بعدهم ونبههم على أن النصر من عنده سواء قل الجمع أو كثر فإن يوم حنين أعجبتهم كثراًهم ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئاً فولوا مدربين إلا القليل منهم مع رسول الله ﷺ ثم أنزل نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه كما سنبته إن شاء الله تعالى مفصلاً ليعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده ويامداته وإن قل الجمع فكم من فئة قليلة غلت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين.

وقد قال الإمام أحمد^(١): حدثنا وهب بن جرير حدثنا أبي سمعت يونس يحدث عن الزهرى عن عبيد الله عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الصحابة أربعة، وخير السرايا أربعمائة، وخير الجيوش أربعة آلاف ولن تغلب اثنا عشر ألفاً من قلة»^(٢) وهكذا رواه أبو داود والترمذى ثم قال هذا حديث حسن غريب جداً لا يسنده أحد غير جرير بن حازم، وإنما روی عن الزهرى عن النبي ﷺ مرسلاً. وقد رواه ابن ماجه والبيهقي وغيره عن أكثم بن الجون عن رسول الله ﷺ بنحوه والله أعلم.

وقد كانت وقعة حنين بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة. وذلك لما فرغ ﷺ من فتح مكة وتمهدت أمورها وأسلم عامّة أهلها وأطلقهم رسول الله ﷺ فبلغه أن هوازن جمعوا له ليقاتلوه وأن أميرهم مالك بن عوف بن النضر، ومعه ثيفي بكمالها وبنو جشم وبنو سعد بن بكر وأوزاع^(٣) من بني هلال وهم قليل وناس من بني عمرو بن عامر وعوف بن عامر وقد أقبلوا ومعهم النساء والولدان والشاء والنعيم وجاؤوا بقضهم وقضيضهم^(٤) فخرج إليهم رسول الله ﷺ في جيشه الذي جاء معه للفتح وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب ومعه الذين أسلموا من أهل مكة وهم الطلقاء في ألفين فسار بهم إلى العدو فالتقوا بواحد بين مكة والطائف يقال له حنين فكانت فيه الواقعة في أول النهار في غلس الصبح انحدروا في الوادي وقد كمنت فيه هوازن فلما تواجهوا لم يشعر المسلمين إلا بهم قد ثاروا بهم^(٥)، ورشقوا بالنبال

(١) المسند / ٢٩٤ ، ٢٩٩.

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد باب ٨٢ ، وابن ماجه في الجهاد باب ٢٥ .

(٣) الأوزاع: الفرق من الناس .

(٤) جاؤوا بقضهم وقضيضهم: أي بأجمعهم .

(٥) ثاروا بهم: أي ثاروا بهم ، والمثاورة: المواجهة .

وأصلتوا السيف وحملوا حملة رجل واحد كما أمرهم ملوكهم فعند ذلك ولـى المسلمين مدبرين كما قال الله عز وجل، وثبت رسول الله ﷺ وهو راكب يومئذ بغلته الشهباء يسوقها إلى نحو العدو، والعباس عمـه أخذ برـكابها الأيمن، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب أخذ برـكابها الأيسر يشقـلـانـها لـثـلا تـسـرـعـ السـيرـ وهو يـنـوـهـ باـسـمـهـ عـلـيـهـ الصـلـاـةـ وـالـسـلـامـ وـيـدـعـوـ الـمـسـلـمـينـ إـلـىـ الرـجـعـةـ وـيـقـولـ : «إـلـىـ عـبـادـ اللـهـ إـلـىـ أـنـاـ رـسـوـلـ اللـهـ» وـيـقـولـ فـيـ تـلـكـ الـحـالـ :

«أـنـاـ النـبـيـ لـاـ كـذـبـ أـنـاـ اـبـنـ عـبـدـ الـمـطـلـبـ»^(١)

وثبت معـهـ منـ أـصـحـابـهـ قـرـيبـ مـنـ مـائـةـ وـمـنـهـ مـنـ قـالـ ثـمـانـونـ فـمـنـهـ أـبـوـ بـكـرـ وـعـمـرـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـماـ وـالـعـبـاسـ وـعـلـيـ وـالـفـضـلـ بـنـ عـبـاسـ وـأـبـوـ سـفـيـانـ بـنـ الـحـارـثـ وـأـيـمـنـ اـبـنـ أـمـ أـيـمـنـ وـأـسـامـةـ بـنـ زـيـدـ وـغـيـرـهـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـمـ ثـمـ أـمـرـ بـلـيـلـةـ عـمـهـ الـعـبـاسـ وـكـانـ جـهـيـرـ الصـوتـ أـنـ يـنـادـيـ بـأـعـلـىـ صـوـتـهـ يـاـ صـحـابـ الـشـجـرـ يـعـنـيـ شـجـرـةـ بـيـعـةـ الرـضـوـانـ الـتـيـ بـاـيـعـهـ الـمـسـلـمـوـنـ مـنـ الـمـهـاجـرـيـنـ وـالـأـنـصـارـ تـحـتـهـاـ عـلـىـ أـنـ لـاـ يـفـرـوـعـهـ فـجـعـلـ يـنـادـيـ بـهـمـ يـاـ أـصـحـابـ السـمـرـةـ ، وـيـقـولـ تـارـةـ يـاـ أـصـحـابـ سـورـةـ الـبـقـرةـ ، فـجـعـلـوـنـ يـقـولـونـ يـاـ لـبـيـكـ ، وـأـنـعـطـفـ النـاسـ فـتـرـاجـعـوـ إـلـىـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺ ، حـتـىـ إـنـ الـرـجـلـ مـنـهـ إـذـ لـمـ يـطـاوـعـهـ بـعـرـهـ عـلـىـ الرـجـوعـ لـيـسـ درـعـهـ ثـمـ انـهـدرـ عـنـهـ وـأـرـسـلـهـ وـرـجـعـ بـنـفـسـهـ إـلـىـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺ .

فـلـمـ اـجـتـمـعـتـ شـرـذـمـةـ مـنـهـمـ عـنـدـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺ أـمـرـهـمـ عـلـيـهـ السـلـامـ أـنـ يـصـدـقـوـاـ الـحـمـلـةـ وـأـخـذـ قـبـصـةـ مـنـ تـرـابـ بـعـدـ مـاـ دـعـاـ رـبـهـ وـاستـصـرـهـ ، وـقـالـ «الـلـهـمـ أـنـجـزـ لـيـ ماـ وـعـدـتـيـ» ثـمـ رـمـىـ الـقـوـمـ بـهـاـ فـمـاـ بـقـيـ إـنـسـانـ مـنـهـ إـلـاـ أـصـابـهـ مـنـهـاـ فـيـ عـيـنـهـ وـفـمـهـ مـاـ يـشـغـلـهـ عـنـ الـقـتـالـ ثـمـ انـهـزـمـوـاـ فـاتـيـعـ الـمـسـلـمـوـنـ أـقـفـاءـهـمـ يـقـتـلـوـنـ وـيـأـسـرـوـنـ وـمـاـ تـرـاجـعـ بـقـيـةـ النـاسـ إـلـاـ وـالـأـسـرـيـ مـجـنـدـلـةـ بـيـنـ يـدـيـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺ .

وقـالـ الإـمـامـ أـحـمـدـ^(٢) : حـدـثـنـاـ عـفـانـ حـدـثـنـاـ حـمـادـ بـنـ سـلـمـةـ أـخـبـرـنـاـ يـعـلـىـ بـنـ عـطـاءـ عـنـ عـبـدـ اللـهـ بـنـ يـسـارـ عـنـ أـبـيـ هـمـامـ عـنـ أـبـيـ عـبـدـ الرـحـمـنـ الـفـهـرـيـ وـاسـمـهـ يـزـيدـ بـنـ أـسـيدـ وـيـقـالـ يـزـيدـ بـنـ أـيـسـ وـيـقـالـ كـرـزـ قـالـ : كـنـتـ مـعـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺ فـيـ غـزـوـةـ حـنـينـ فـسـرـنـاـ فـيـ يـوـمـ قـائـظـ شـدـيدـ الـحـرـ فـنـزـلـنـاـ تـحـتـ ظـلـالـ الشـجـرـ فـلـمـ زـالـ الشـمـسـ لـبـسـتـ لـأـمـتـيـ وـرـكـبـتـ فـرـسيـ فـانـطـلـقـتـ إـلـىـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺ وـهـوـ فـيـ فـسـطـاطـهـ فـقـلـتـ السـلـامـ عـلـيـكـ يـاـ رـسـوـلـ اللـهـ وـرـحـمـةـ اللـهـ وـبـرـكـاتـهـ حـانـ الـرـوـاحـ ؟ـ فـقـالـ : «أـجـلـ»ـ فـقـالـ : «يـاـ بـلـالـ»ـ فـتـارـ مـنـ تـحـتـ سـمـرـةـ كـانـ ظـلـلـهـ ظـلـ طـائـرـ فـقـالـ : لـبـيـكـ وـسـعـديـكـ وـأـنـاـ فـدـاؤـكـ فـقـالـ «أـسـرـجـ لـيـ فـرـسيـ»ـ فـأـخـرـجـ سـرـجاـ دـفـتـاهـ مـنـ لـيفـ لـيـسـ فـيـهـمـاـ أـشـرـ وـلـاـ بـطـرـ .

(١) الرجز لرسول الله ص في كتاب العين ٦/٦٥ ، وتهذيب اللغة ١٠/٦١١.

(٢) المسند ٥/٢٨٦.

قال فأسرج فركب وركبنا فصافتناهم عشيتنا وليلتنا فتشامت الخيلان فولى المسلمين مدبرين كمال قال الله تعالى: «ثم ولitem مدبرين» فقال رسول الله ﷺ (يا عباد الله أنا عبد الله ورسوله) ثم قال: «يا عشر المهاجرين أنا عبد الله ورسوله» قال ثم اقتحم عن فرسه فأخذ كفًا من تراب فأخبرني الذي كان أدنى إليه مني أنه ضرب به وجوههم وقال: «شاهدت الوجه» فهزهم الله تعالى. قال يعلى بن عطاء: فحدثني أبناؤهم عن آبائهم أنهم قالوا: لم يبق من أحد إلا امتلأت عيناه وفمه تراباً وسمعوا صلصلة بين السماء والأرض كإمامار الحديد على الطست الجديد، وهكذا رواه الحافظ البيهقي في دلائل النبوة من حديث أبي داود الطیالسي عن حماد بن سلمة به.

وقال محمد بن إسحاق: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه جابر بن عبد الله قال: فخرج مالك بن عوف بمن معه إلى حنين فسبق رسول الله ﷺ إليه فأعدوا وتهيئوا في مضائق الوادي وأحنائه وأقبل رسول الله ﷺ وأصحابه حتى انحط بهم الوادي في عمایة الصبح فلما انحط الناس ثارت في وجوههم الخيل فشدت عليهم وانكفا الناس منهزمين لا يقبل أحد على أحد وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين يقول: «أيها الناس هلموا إلي أنا رسول الله، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله» فلا شيء وركبت الإبل بعضها بعضاً فلما رأى رسول الله ﷺ أمر الناس قال: «يا عباس اصرخ يا عشر الأنصار يا أصحاب السمرة» فأجابوه ليك، ليك، فجعل الرجل يذهب ليعطف بعيده فلا يقدر على ذلك فيقذف درعه في عنقه ويأخذ سيفه وقوسه ثم يوم الصوت حتى اجتمع إلى رسول الله ﷺ منهم مائة فاستعرض الناس فاقتتلوا وكانت الدعوة أول ما كانت بالأنصار ثم جعلت آخرًا بالخروج وكانوا صبراء عند الحرب وأشرف رسول الله ﷺ في ركباه فنظر إلى مجتلد القوم فقال: «الآن حمي الوطيس» قال: فوالله ما راجعه الناس إلا والأسارى عند رسول الله ملقون فقتل الله منهم من قتل وانهزم منهم ما انهزم وأفاء الله على رسوله أمواهم وأبناءهم^(١).

وفي الصحيحين من حديث شعبة عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب رضي الله عنهما أن رجلاً قال له: يا أبا عمارة أفرترم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال: لكن رسول الله ﷺ لم يفر إن هوازن كانوا قوماً رماه لقيناهم وحملنا عليهم انهزمو فأقبل الناس على الغنائم فاستقبلونا بالسهام فانهزم الناس فلقد رأيت رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجام بغلته البيضاء وهو يقول:

«أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذَبْ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمَطَّلِبِ»^(٢)

(١) انظر سيرة ابن هشام ٤٤٢ / ٢، ٤٤٥.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد باب ٥٢، ومسلم في الجهاد حديث ٨٠.

قلت: وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة إنه في مثل هذا اليوم في حومة الوغى وقد انكشف عنه جيشه وهو مع هذا على بغلة وليس سريعة الجري ولا تصلح لفر ولا لكر ولا لهرب وهو مع هذا أيضا يركضها إلى وجوههم وينوه باسمه ليعرفه من لم يعرفه صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين وما هذا كله إلا ثقة بالله وتوكلًا عليه وعلماً منه بأنه سينصره ويتم ما أرسله به ويظهر دينه على سائر الأديان، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ أي طمأنيته وثباته على رسوله ﴿وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي الذين معه ﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لِّمَرْوِهِ﴾ وهم الملائكة كما قال الإمام أبو جعفر بن حرير^(١): حدثني الحسن بن عرفة قال حدثني المعتمر بن سليمان عن عوف هو ابن أبي جميلة الأعرابي قال سمعت عبد الرحمن مولى ابن برثن حدثني رجل كان مع المشركين يوم حنين قال لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين لم يقوموا لنا حلب شاة، قال: فلما كشفناهم جعلنا نسوقهم في آثارهم حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء فإذا هو رسول الله ﷺ قال: فتلقانا عنده رجال يضسان الوجوه فقالوا لنا شاهت الوجوه ارجعوا قال فانهزمنا وركبوا أكتافنا فكانت إياها.

وقال الحافظ أبو بكر البهقي: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ حدثني محمد بن أحمد بن بالويه حدثنا إسحاق بن الحسن الحربي حدثنا عفان بن مسلم حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثنا الحارث بن حصيرة حدثنا القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه قال: قال ابن مسعود رضي الله عنه: كنت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فولى عنه الناس وبقيت معه في ثمانين رجلاً من المهاجرين والأنصار قدمتنا ولم نولهم الدبر وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة قال: ورسول الله ﷺ على بغلته البيضاء يمضي قدماً فحادت بغلته فمال عن السرج فقلت: ارفع رفعك الله. قال: «ناولني كفًا من التراب» فناولته قال: فضرب به وجوههم فامتلأت أعينهم تراباً قال: «أين المهاجرون والأنصار؟» قلت: هم هناك قال: «اهتف بهم» فهتفت بهم فجاوزوا وسيوفهم بأيمانهم كأنها الشهب وولي المشركون أدبارهم، ورواه الإمام أحمد في مستنه عن عفان به نحوه.

وقال الوليد بن مسلم: حدثني عبد الله بن المبارك عن أبي بكر الهذلي عن عكرمة مولى ابن عباس عن شيبة بن عثمان قال: لما رأيت رسول الله ﷺ يوم حنين قد عري ذكرت أبي وعمي وقتل علي وحمزة إياهما فقلت اليوم أدرك ثاري منه قال: فذهبت لأجيئه عن يمينه فإذا أنا بالعباس بن عبد المطلب قائماً عليه درع بيضاء كأنها فضة يكشف عنها العجاج فقلت: عمه ولن يخذه قال فجثته عن يساره فإذا أنا بأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب فقلت: ابن عمه ولن يخذه فجثته من خلفه فلم يق لا أن سوره سورة بالسيف إذ رفع لي شواط من نار

(١) تفسير الطبرى ٦/٣٤٣، وفيه: حدثنا القاسم قال: حدثنا الحسن بن عرفة.

بيني وبينه كأنه برق فخفت أن تمحشني فوضعت يدي على بصري ومشيت القهقري فالتفت رسول الله ﷺ وقال: «يا شيبة يا شيبة ادن مني، اللهم أذهب عنه الشيطان» قال: فرفعت إليه بصري ولهو أحب إلي من سمعي وبصري فقال: «يا شيبة قاتل الكفار» رواه البهقي من حديث الوليد فذكره.

ثم روي من حديث أئوب بن جابر عن صدقة بن سعيد عن مصعب بن شيبة عن أبيه قال: خرجت مع رسول الله ﷺ يوم حنين والله ما أخرجنـي إسلام ولا معرفة به ولكنـي أبـيـت أنـ تـظـهـرـ هـواـزـنـ عـلـىـ قـرـيـشـ فـقـلـتـ وـأـنـاـ وـاقـفـ مـعـهـ:ـ ياـ رسـوـلـ اللهـ إـنـيـ أـرـىـ خـيـالـاـ بـلـقـاـ فـقـالـ:ـ (ـيـاـ شـيـبـةـ إـنـهـ لـاـ يـرـاهـ إـلـاـ كـافـرـ)ـ فـضـرـبـ يـدـهـ عـلـىـ صـدـرـيـ ثـمـ قـالـ:ـ (ـالـلـهـ أـهـدـ شـيـبـةـ)ـ ثـمـ ضـرـبـهـ ثـالـثـةـ ثـمـ قـالـ:ـ (ـالـلـهـ أـهـدـ شـيـبـةـ)ـ قـالـ:ـ فـوـالـلـهـ مـاـ رـفـعـ يـدـهـ عـنـ صـدـرـيـ فـيـ الثـالـثـةـ حـتـىـ مـاـ كـانـ أـحـدـ مـنـ خـلـقـ اللهـ أـحـبـ إـلـيـ مـنـهـ وـذـكـرـ تـامـ الـحـدـيـثـ فـيـ التـقـاءـ النـاسـ وـانـهـزـامـ الـمـسـلـمـينـ وـنـدـاءـ الـعـبـاسـ وـاسـتـنـصـارـ رـسـوـلـ اللهـ ﷺـ حـتـىـ هـزـمـ اللهـ تـعـالـىـ الـمـشـرـكـينـ.

قال محمد بن إسحاق: حدثني والدي إسحاق بن يسار عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال إننا لمع رسول الله ﷺ يوم حنين والناس يقتلون إذ نظرت إلى مثل البجاد الأسود يهوي من السماء حتى وقع بيننا وبين القوم فإذا نمل متثور قد ملاً الوادي فلم يكن إلا هزيمة القوم بما كنا نشك أنها الملائكة^(١)، وقال سعيد بن السائب بن يسار عن أبيه قال: سمعت يزيد بن عامر السوائي وكان شهد حنيناً مع المشركين ثم أسلم بعد فكنا نسألـهـ عن الرعب الذي ألقـىـ اللهـ فيـ قـلـوبـ الـمـشـرـكـينـ يـوـمـ حـنـينـ فـكـانـ يـأـخـذـ الـحـصـاـةـ فـيـ رـيـطـنـ فـيـقـولـ كـانـ نـجـدـ فـيـ أـجـوـافـنـاـ مـثـلـ هـذـاـ^(٢)ـ،ـ وـقـدـ تـقـدـمـ لـهـ شـاهـدـ مـنـ حـدـيـثـ يـزـيدـ بـنـ أـسـيدـ فـالـلـهـ أـعـلـمـ.

وفي صحيح مسلم^(٣) عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق أبناؤه عمر عن همام قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة أذ رسول الله ﷺ قال: «نصرت بالرعب وأوتيت جوامع الكلم» ولهذا قال تعالى: «ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين». ﴿﴾

وقوله: «ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم» قد تاب الله على بقية هوازن فأسلموا وقدموا عليه مسلمين ولحقوه وقد قارب مكة عند الجعرانة وذلك بعد الواقعة بقريب من عشرين يوماً فعند ذلك خيرهم بين سبיהם وبين أموالهم فاختاروا سبיהם وكانوا ستة

(١) انظر سيرة ابن هشام ٤٤٩/٢.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٣٤٣/٦.

(٣) كتاب المساجد حديث ٥.

الاف أسير ما بين صبي وامرأة، فرده عليهم وقسم الأموال بين الغانمين ونفل أناساً من الطلقاء لكي يتتألف قلوبهم على الإسلام فأعطاهم مائة من الإبل وكان من جملة من أعطى مائة مالك بن عوف النَّصْرِي واستعمله على قومه كما كان فامتدحه بقصيدته التي يقول فيها: [الطويل]

في الناس كلهم بمثل محمد^(١)
ما إن رأيت ولا سمعت بمثله
أوفي وأعطي للجزيل إذا اجتندي
ومتنى تشاً يخبرك بما في غدٍ
إذا الكتبية عرَدت أنيابها
بالسميري وضرب كل مهَّدٍ
فكانه ليث على أشباهه
وسط المباعة خادر في مرصدٍ

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ بَجْسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذِهِ أَوْ إِنْ
خَفْشَمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ^(٢) قَاتَلُوا
الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يَخْرُمُونَ مَا حَرَمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدْيُونُ دِينَ الْحَقِّ
مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوُا الْجِرْحِيَّةَ عَنْ يَدِهِمْ صَغِرُوكَ^(٣)

أمر تعالى عباده المؤمنين الطاهرين ديناً وذاتاً بنبغي المشركين الذين هم نجس ديناً عن المسجد الحرام وأن لا يقتربوه بعد نزول هذه الآية وكان نزولها في سنة تسع ولهذا بعث رسول الله ﷺ علياً صحبة أبي بكر رضي الله عنهما عاملاً وأمره أن ينادي في المشركين أن لا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان. فأتم الله ذلك وحكم به شرعاً وقدراً.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن جريج أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول في قوله تعالى: «إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا» إلا أن يكون عبداً أو أحداً من أهل الذمة^(٤). وقد روی مرفوعاً من وجه آخر فقال الإمام أحمد^(٣): حدثنا حسين حدثنا شريك عن الأشعث يعني ابن سوار عن الحسن عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل مسجدنا بعد عامنا هذا مشرك إلا أهل العهد وخدمهم» تفرد به الإمام أحمد مرفوعاً والموقوف أصح إسناداً.

وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعي، كتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أن امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين وأتبع نهيه قول الله تعالى: «إنما المشركون نجس» وقال عطاء: الحرم كله مسجد لقوله تعالى: «فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا» . ودللت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك كما ورد في الصحيح «المؤمن لا ينجس»^(٤) وأما

(١) الآيات في سيرة ابن هشام ٤٩١ / ٢.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٣٤٨ / ٦.

(٣) المستند ٣٩٢ / ٣.

(٤) أخرجه البخاري في الغسل باب ٢٣ ، ٢٤ .

نجasse بذنه فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات لأن الله تعالى أحل طعام أهل الكتاب، وذهب بعض الظاهيرية إلى نجasse أبدانهم، وقال أشعت عن الحسن من صافحهم فليتوضاً. رواه ابن جرير^(١).

وقوله ﴿وَإِنْ خَفْتُمْ عِيلَةً فَسُوفَ يَغْنِيَكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ قال محمد بن إسحاق: وذلك أن الناس قالوا لقطعنا عن الأسواق ولتهلكن التجارة وليديهين عن ما كنا نصيب فيها من المرافق فأنزل الله ﴿وَإِنْ خَفْتُمْ عِيلَةً فَسُوفَ يَغْنِيَكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ من وجه غير ذلك ﴿إِنْ شَاءَ﴾ إلى قوله ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أي هذا عرض ما تخوفتم من قطع تلك الأسواق فعوضهم الله مما قطع أمر الشرك ما أعطاهم من أعناق أهل الكتاب من الجزية^(٢)، وهكذا روي عن ابن عباس ومجاحد وعكرمة وسعيد بن جبیر وقتادة والضحاک وغيرهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ أي بما يصلحكم ﴿حَكِيمٌ﴾ أي فيما يأمر به وينهى عنه لأنه الكامل في أفعاله وأقواله العادل في خلقه وأمره تبارك وتعالى ولهذا عوضهم عن تلك المكاسب بأموال الجزية التي يأخذونها من أهل الذمة.

وقوله تعالى: ﴿قَاتَلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يَحْرِمُونَ مَا حَرَمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الَّذِينَ أَوْتَوْا الْكِتَابَ حَتَّى يَعْطُوُا الْجَزِيَّةَ عَنْ يَدِهِمْ صَاغِرُونَ﴾ فهم في نفس الأمر لما كفروا بمحمد ﷺ لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل ولا بما جاؤوا به وإنما يتبعون آراءهم وأهواءهم وأباءهم فيما هم فيه لا لأنه شرع الله ودينه، لأنهم لو كانوا مؤمنين بما بآيديهم إيماناً صحيحاً لقادهم ذلك إلى الإيمان بمحمد ﷺ لأن جميع الأنبياء بشروا به وأمرروا باتباعه فلما جاء وكفروا به وهو أشرف الرسل علم أنهم ليسوا متمسكين بشرع الأنبياء الأقدمين لأنه من عند الله. بل لحظوظهم وأهوائهم فلهذا لا ينفعهم إيمانهم بحقيقة الأنبياء وقد كفروا بسيدهم وأفضلهم وخاتمهم وأكملهم، ولهذا قال: ﴿قَاتَلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يَحْرِمُونَ مَا حَرَمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الَّذِينَ أَوْتَوْا الْكِتَابَ﴾ وهذه الآية الكريمة أول الأمر بقتال أهل الكتاب بعدما تمهدت أمور المشركين ودخل الناس في دين الله أفواجاً واستقامت جزيرة العرب أمر الله ورسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى وكان ذلك في سنة تسع ولهذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم ودعا الناس إلى ذلك وأظهره لهم وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم فأوعوا معه واجتمع من المقاتلة نحو من ثلاثة ألفاً وتخلف بعض الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم وكان ذلك في عام جدب وقت قيظ وحر وخرج رسول الله ﷺ يريد الشام لقتال الروم فبلغ تبوك فنزل بها وأقام بها قريباً من عشرين يوماً ثم استخار الله في الرجوع فرجع عامه ذلك لضيق الحال وضعف الناس كما سيأتي بيانه بعد إن شاء الله تعالى.

(١) تفسير الطبری ٦/٣٤٥.

(٢) انظر تفسير الطبری ٦/٣٤٨.

وقد استدل بهذه الآية الكريمة من يرى أنه لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب أو من أشباههم كالمجوس كما صح فيهم الحديث أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر وهذا مذهب الشافعى وأحمد في المشهور عنه وقال أبو حنيفة رحمه الله . بل تؤخذ من جميع الأعاجم سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين ولا تؤخذ من العرب إلا من أهل الكتاب .

وقال الإمام مالك : بل يجوز أن تضرب الجزية على جميع الكفار من كتابي ومجوسي ووثني وغير ذلك ولما خذل هذه المذاهب وذكر أدلةها مكان غير هذا والله أعلم . قوله : « حتى يعطوا الجزية » أي إن لم يسلموا « عن يد » أي عن قهر لهم وغلبة « وهم صاغرون » أي ذليلون حقيرون مهانون فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة ولا رفعهم على المسلمين بل هم أذلاء صغيرة أشقياء كما جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « لا تبدوا رأيكم والنصارى بالسلام وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه »^(١) ولهذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه تلك الشروط المعروفة في إذلالهم وتصغيرهم وتحقيرهم .

وذلك مما رواه الأئمة الحفاظ من روایة عبد الرحمن بن غنم الأشعري قال : كتبت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين صالح نصارى من أهل الشام : بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب عبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا لكم على أنفسنا أن لا نحدث في مدينتنا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة ولا قلاية ولا صومعة راهب ولا نجدد ما خرب منها ولا نحيي منها ما كان خططاً لل المسلمين وألا نمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين في ليل ولا نهار وأن نوسع أبوابها للماراة وابن السبيل وأن ننزل من مرتنا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمهم ولا نؤوي في كنائسنا ولا منازلنا جاسوساً ولا نكتم غشاً للمسلمين ولا نعلم أولادنا القرآن ولا نظر شركاً ولا ندعو إليه أحداً ولا نمنع أحداً من ذوي قرابتنا الدخول في الإسلام إن أرادوه وأن نوفر المسلمين وأن نقوم لهم من مجالسنا إن أرادوا الجلوس ولا نتشبه بهم في شيء من ملابسهم في قلسنة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ولا نتكلم بكلامهم ولا نكتبه بكتابهم ولا نركب السروج ولا نقلد السيوف ولا نتخد شيئاً من السلاح ولا نحمله معنا ولا نقش خواتيمنا بالعربية ولا نبيع الخمور وأن نجز مقاديم رقوتنا وأن نلزم زينا حيثما كنا وأن نشد الزنانير على أوساطنا وأن لا نظهر الصليب على كنائسنا وأن لا نظهر صلبنا ولا كتبنا في شيء من طرق المسلمين ولا أسوقهم ولا نضرب نوaciستنا في كنائسنا إلا ضرباً خفيفاً وأن لا نرفع أصواتنا

(١) آخرجه مسلم في السلام حدث ١٤

بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين ولا نخرج شعائين ولا باعوشاً ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ولا نظهر النيران معهم في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ولا نجاورهم بموتانا ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين وأن نرشد المسلمين ولا نطلع عليهم في منازلهم.

قال فلما أتيت عمر بالكتاب زاد فيه ولا نضرب أحداً من المسلمين شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الأمان فإن نحن خالقنا في شيء مما شرطناه لكم ووظفنا على أنفسنا فلا ذمة لنا وقد حل لكم مما يحل من أهل المعاندة والشقاوة.

**وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيزٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ
بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلِ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَفَيْؤَفِّكُونَ
أَخْذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرُهْبَنَتْهُمْ أَرْبَابًا مَّا دُرِبَ اللَّهُ وَالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَمَا أَمْرُوا إِلَّا
لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَجَدَّا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانُهُ كَمَا يُشَرِّكُونَ**

وهذا إغراء من الله تعالى للمؤمنين على قتال الكفار من اليهود والنصارى لمقاتلتهم هذه المقالة الشنيعة والفرية على الله تعالى فأما اليهود فقالوا في العزيز: إنه ابن الله تعالى الله عن ذلك علوأً كبيراً، وذكر السدي وغيره أن الشبهة التي حصلت لهم في ذلك أن العمالقة لما غلبت على بني إسرائيل فقتلوا علماءهم وبقوا كبارهم بقي العزيز يبكي على بني إسرائيل وذهب العلم منهم حتى سقطت جفون عينيه فيما هو ذات يوم إذ مر على جبانة وإذا امرأة تبكي عند قبر وهي تقول: وامطعمها واكاسيه فقال لها: ويحك من كان يطعمك قبل هذا؟ قالت: الله قال: فإن الله حي لا يموت، قالت يا عزيز فمن كان يعلم العلماء قبل بني إسرائيل؟ قال: الله.

قالت: فلم تبكي عليهم؟ فعرف أنه شيء قد وعظ به ثم قيل له اذهب إلى نهر كذا فاغسل منه وصل هناك ركتين فإنك ستلقى هناك شيئاً مما أطعمك فكله فذهب ففعل ما أمر به فإذا الشيخ فقال له: افتح فمك ففتح فمه فألقى فيه شيئاً كهيئة الجمرة العظيمة ثلاثة مرات فرجع عزيز وهو من أعلم الناس بالتوراة فقال: يا بني إسرائيل قد جئتكم بالتوراة فقالوا يا عزيز ما كنت كذلك فعدم فربط على أصبع من أصابعه قلماً وكتب التوراة بأصبعه كلها فلما تراجع الناس من عدوهم ورجع العلماء أخبروا بشأن عزيز فاستخرجو النسخ التي كانوا أودعوها في الجبال وقابلوها بها فوجدوا ما جاء به صحيحًا فقال بعض جهلتهم: إنما صنع هذا لأنه ابن الله^(١).

وأما ضلال النصارى في المسيح ظاهر، ولهذا كذب الله سبحانه الطائفتين فقال: «ذلك

قولهم بأفواههم ﴿أَيْ لَا مُسْتَدِلٌ لَهُمْ فِيمَا ادْعُوهُ سُوْىٰ افْتَرَاهُمْ وَاخْتَلَقُهُمْ﴾ أي يشبعون ﴿قُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلِ﴾ أي من قبلهم من الأمم ضلوا كما ضل هؤلاء ﴿قَاتَلُهُمُ اللَّهُ﴾ قال ابن عباس: لعنهم الله ﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ؟﴾ أي كيف يضلون عن الحق وهو ظاهر ويعدلون إلى الباطل؟

وقوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرَهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمُسِيحِ ابْنِ مَرْيَمَ﴾ روى الإمام أحمد والترمذى وابن جرير من طرق عن عدي بن حاتم رضي الله عنه أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فر إلى الشام وكان قد تنصر في الجاهلية فأسرت أخته وجماعة من قومه ثم من رسول الله ﷺ على أخيها وأعطتها فرجعت إلى أخيها فرغبت في الإسلام وفي القدوم على رسول الله ﷺ فقدم عدي إلى المدينة وكان رئيساً في قومه طيء وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم فتححدث الناس بقدومه فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عدي صليب من فضة وهو يقرأ هذه الآية ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرَهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم فقال: «بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم» وقال رسول الله ﷺ «يا عدي ما تقول؟ أيسرك أن يقال الله أكبر؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله ما يضرك أن يقال لا إله إلا الله فهل تعلم لها غير الله؟ ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم وشهد شهادة الحق قال فلقد رأيت وجهه استبشر ثم قال «إن اليهود مغضوب عليهم والنصارى صالون»^(١).

وهكذا قال حذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وغيرهما في تفسير ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرَهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ إنهم اتبعوهم فيما حللوه وحرموه، وقال السدي: استنصرعوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرَوْا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ أي الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام وما حلله فهو الحلال وما شرعه اتبع وما حكم به نفذ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سَبَحَانَهُ عَمَّا يَشْرُكُونَ﴾ أي تعالى وتقديس وتزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد إله إلا هو ولا رب سواه.

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ يَأْفَوْهُمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتَمَّمَ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهُ الْكَافِرُونَ ﴿٢﴾
هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُنَهِّرَ عَلَى الَّذِينَ كُفَّارٌ وَلَوْ كَرِهُ الْمُسْرِكُونَ ﴿٣﴾

يقول تعالى: يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب ﴿أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ أي ما بعث به رسول الله ﷺ من الهدى ودين الحق بمجرد جدالهم وافتائهم فمثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس أو نور القمر بنفسه وهذا لا سبيل إليه فكذلك ما أرسل به

(١) أخرجه الترمذى في تفسير سورة ٩، باب ١٠.

رسول الله ﷺ لابد أن يتم ويفتقر ولهذا قال تعالى مثاباً لهم فيما راموه وأرادوه: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَتَمَ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ والكافر هو الذي يستر الشيء ويغطيه ومنه سمي الليل كافراً لأنه يستر الأشياء والزارع كافراً لأنه يغطي الحب في الأرض كما قال ﴿يَعْجِبُ الْكُفَّارُ بِنَاهَتِهِ﴾ ثم قال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ فاللهى هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة والإيمان الصحيح والعلم النافع ودين الحق هي الأعمال الصالحة الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة.

﴿لِيظُهُرَ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي علىسائر الأديان كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله زوى لي الأرض مشارقها وغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها»^(١).

وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن محمد بن أبي يعقوب سمعت شقيق بن حيان يحدث عن مسعود بن قبيصة أو قبيصة بن مسعود يقول: صلى هذا الحي من محارب الصبح فلما صلوا قال شاب منهم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه ستفتح لكم مشارق الأرض وغاربها، وإن عمالها في النار إلا من اتقى الله وأدى الأمانة»، وقال الإمام أحمد^(٣): حدثنا أبو المغيرة حدثنا صفوان حدثنا سليم بن عامر عن تميم الداري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا دخله هذا الدين يعز عزيزاً ويدل ذليلاً، عز الله به الإسلام وذلاً يذل الله به الكفر» فكان تميم الداري يقول: قد عرفت ذلك أهل بيتي لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز ولقد أصاب من كان كافراً منهم الذل والصغر والجزية.

وقال الإمام أحمد^(٤): حدثنا يزيد بن عبد ربه حدثنا الوليد بن مسلم حدثني ابن جابر سمعت سليم بن عامر قال سمعت المقداد بن الأسود يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول «لا يبقى على وجه الأرض بيت مدر ولا وبر إلا دخلته كلمة الإسلام يعز عزيزاً، ويدل ذليلاً إما يعزهم الله فيجعلهم من أهلها، وإما يذلهم فيدينون لها».

وفي المسند^(٥) أيضاً: حدثنا محمد بن أبي عدي عن ابن عون عن ابن سيرين عن أبي حذيفة عن عدي بن حاتم سمعه يقول دخلت على رسول الله ﷺ فقال: «يا عدي أسلم تسلم» فقلت إني من أهل دين قال: «أنا أعلم بدينك منك» فقلت أنت أعلم بدينني مني؟ قال: «نعم ألسنت من الركوسية وأنت تأكل مرباع قومك؟ قلت: بل! قال: «فإن هذا لا يحل لك في

(١) أخرجه مسلم في الفتن حديث ١٩.

(٢) المسند ٥/٣٦٦، ٣٦٧.

(٣) المسند ٤/١٠٣.

(٤) المسند ٦/٤.

(٥) المسند ٤/٣٧٧، ٣٧٨، ٢٥٧.

«دینك» قال : فلم يعد أن قالها فتواضعت لها ، قال : «أما إني أعلم ما الذي يمنعك من الإسلام ، تقول إنما اتبعه ضعفة الناس ومن لا قوة له وقد رمتهم العرب أتعرف الحيرة ؟» قلت لم أرها وقد سمعت بها ، قال : «فو الذي نفسي بيده ليتمكن الله هذا الأمر حتى تخرج الطعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت من غير جوار أحد ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز» قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : «نعم كسرى بن هرمز ، وليذلن المال حتى لا يقبله أحد» قال عدي بن حاتم : فهذه الطعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت من غير جوار أحد ، ولقد كنت فيما فتح كنوز كسرى بن هرمز ، والذي نفسي بيده لتكون الثالثة لأن رسول الله ﷺ قد قالها .

وقال مسلم^(١) : حدثنا أبو معن زيد بن يزيد الرقاشي حدثنا خالد بن الحارث حدثنا عبد الحميد بن جعفر عن الأسود بن العلاء عن أبي سلمة عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى» فقلت : يا رسول الله إن كنت لأظن حين أنزل الله عز وجل **﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾** الآية ، أن ذلك تام ، قال : «إنه سيكون من ذلك ما شاء الله عز وجل ، ثم يبعث الله ريحًا طيبة فيتوفى كل من كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان فيبقى من لا خير فيه فيرجعون إلى دين آبائهم» .

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَجَارِ وَالرُّهْبَانَ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَطْلِيلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الْذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُوهُنَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرُهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكَوَّنُ بِهَا جَاهَّهُمْ وَجُنُودُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَزَّتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾

قال السدي : الأجراء والرهبان من النصارى^(٢) وهو كما قال فإن الأجراء هم علماء اليهود كما قال تعالى : «لولا ينهاهم الربانيون والأخبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت» [المائدة : ٦٣] والرهبان عباد النصارى والقسيسين علماؤهم كما قال تعالى : «ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا» [المائدة : ٨٢] والمقصود التحذير من علماءسوء وعباد الضلال كما قال سفيان بن عيينة : من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى . وفي الحديث الصحيح «لتركب سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة» قالوا : اليهود والنصارى ؟ قال : « فمن» ؟ وفي رواية فارس والروم ، قال : « فمن الناس إلا هؤلاء»^(٣) والحاصل التحذير من التشبه بهم في أقوالهم وأحوالهم ولهذا قال تعالى :

(١) كتاب الفتن حديث ٥٢.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٣٥٧/٦.

(٣) أخرجه أحمد في المستند ١٢٥ / ٤.

﴿يُأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله﴾ وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين ومناصبهم ورياستهم في الناس يأكلون أموالهم بذلك كما كان لأهبار اليهود على أهل الجاهلية شرف ولهم عندهم خرج وهدايا وضرائب تجيء إليهم فلما بعث الله رسوله ﷺ استمروا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم طمعاً منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات فأطأفها الله بنور النبوة وسلبهم إياها وعرضهم الذل والصغار وباؤوا بغضب من الله تعالى .

وقوله تعالى : «ويصدون عن سبيل الله» أي وهم مع أكلهم الحرام يصدون الناس عن اتباع الحق ويلبسون الحق بالباطل ويظهرون لمن اتبعهم من الجهلة أنهم يدعونه إلى الخير وليسوا كما يزعمون بل هم دعاة إلى النار ويوم القيمة لا ينصرون . قوله : «والذين يكثرون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم» هؤلاء هم القسم الثالث من رؤوس الناس فإن الناس عالة على العلماء وعلى العباد وعلى أرباب الأموال فإذا فسدت أحوال هؤلاء فسدت أحوال الناس كما قال ابن المبارك :

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأهبار سوء ورهباؤها

وأما الكثر فقال مالك عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر هو المال الذي لا تؤدي زكاته ، وروى الثوري وغيره عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قال : ما أدى زكاته فليس بكتز وإن كان تحت سبع أرضين وما كان ظاهراً لا تؤدي زكاته فهو كتز ، وقد روى هذا عن ابن عباس وجابر وأبي هريرة موقوفاً ومرفوعاً ، وقال عمر بن الخطاب نحوه أيما مال أديت زكاته فليس بكتز وإن كان مدفوناً في الأرض ، وأيما مال لم تؤدي زكاته فهو كتز يكوى به صاحبه وإن كان على وجه الأرض ، وروى البخاري من حديث الزهري عن خالد بن أسلم قال : خرجنا مع عبد الله بن عمر فقال : هذا قبل أن تنزل الزكاة فلما نزلت جعلها الله طهرا للأموال ، وكذا قال عمر بن عبد العزيز وعراك بن مالك نسخها قوله تعالى : «خذ من أموالهم صدقة» الآية .

وقال سعيد بن محمد بن زياد عن أبي أمامة أنه قال : حلية السيف من الكنز . ما أحدثكم إلا ما سمعتم من رسول الله ﷺ وقال الثوري عن أبي حصين عن أبي الضحى عن جعدة بن هبيرة عن علي رضي الله عنه قال : أربعة آلاف مما دونها نفقة فما كان أكثر من ذلك فهو كتز^(١) وهذا غريب وقد جاء في مدح التقلل من الذهب والفضة وذم التكثير منها أحاديث كثيرة . ولنورد منها هنا طرفاً يدل على الباقي قال عبد الرزاق : أخبرنا الثوري أخبرني أبو حصين عن أبي الضحى عن جعدة بن هبيرة عن علي رضي الله عنه في قوله : «والذين يكثرون الذهب والفضة» الآية . قال النبي : «تبأ للذهب تباً للفضة» يقولها ثلاثاً قال فشق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا : فـأـيـ مـالـ نـتـخـذـ ؟ـ فـقـالـ عـمـرـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ أـنـ أـعـلـمـ لـكـ ذـلـكـ فـقـالـ

(١) انظر تفسير الطبرى ٣٥٨/٦

يا رسول الله إن أصحابك قد شق عليهم وقالوا: فأي المال تأخذ قال: «لساناً ذاكراً وقلباً شاكراً وزوجة تعين أحدكم على دينه»^(١).

حديث آخر: قال الإمام أحمد^(٢): حدثنا عبد الله بن عمرو بن مرة عن أبي محمد جعفر حدثنا شعبة حدثني سالم بن عبد الله أخبرنا عبد الله بن أبي الهذيل حدثني صاحب لي أن رسول الله ﷺ قال «تبأ للذهب والفضة» قال وحدثني صاحبي أنه انطلق مع عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله قولك: «تبأ للذهب والفضة» ماذا ندخر؟ قال رسول الله ﷺ: «لساناً ذاكراً وقلباً شاكراً وزوجة تعين على الآخرة».

الحديث آخر: قال الإمام أحمد^(٣): حدثنا وكيع حدثنا عبد الله بن عمرو بن مرة عن أبيه عن سالم بن أبي الجعد عن ثوبان قال: لما نزل في الذهب والفضة ما نزل قالوا: فأي المال تأخذ؟ قال عمر: فأنا أعلم لكم ذلك فأوضع على بغير فادركه وأنا في أثره فقال: يا رسول الله أي المال تأخذ؟ قال: «قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً وزوجة تعين أحدكم على أمر الآخرة»^(٤) ورواه الترمذى وابن ماجه من غير وجه عن سالم بن أبي الجعد وقال الترمذى حسن، وحكى عن البخارى أن سالماً لم يسمعه من ثوبان قلت: ولهاذا رواه بعضهم عنه مرسلًا، والله أعلم.

الحديث آخر قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا حميد بن مالك حدثنا يحيى بن على المحاربى حدثنا أبي حدثنا غilan بن جامع المحاربى عن عثمان أبي اليقطان عن جعفر بن أبي إياس عن مجاهد عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية «والذين يكنزون الذهب والفضة» الآية، كبر ذلك على المسلمين وقالوا: ما يستطيع أحد منا أن يترك لولده مالاً يبقى بعده فقال عمر: أنا أفرج عنكم فانطلق عمر واتبعه ثوبان فأتى النبي ﷺ فقال: يا نبى الله إنه قد كبر على أصحابك هذه الآية، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقي من أموالكم وإنما فرض المواريث من أموال تبقى بعدكم» قال فكبر عمر ثم قال له النبي ﷺ: «الآن أخبارك بخير ما يكتز المرء؟ المرأة الصالحة التي إذا نظر إليها سرتها، وإذا أمرها أطاعته وإذا غاب عنها حفظتها» ورواه أبو داود والحاكم في مستدركه وابن مردويه من حديث يحيى بن على به وقال الحاكم: صحيح على شرطهما ولم يخرجاه.

الحديث آخر قال الإمام أحمد^(٥): حدثنا روح حدثنا الأوزاعي عن حسان بن عطية قال: كان شداد بن أوس رضي الله عنه في سفر فنزل منزلًا فقال لغلامه ائتنا بالشفرة نعبث بها فأنكرت

(١) انظر تفسير الطبرى ٦/٣٥٩.

(٢) المستند ٣٦٦/٥.

(٣) المستند ٢٨٢/٥.

(٤) أخرجه الترمذى في تفسير سورة ٩، باب ٩، وابن ماجه في النكاح باب ٥.

(٥) المستند ١٢٣/٤.

عليه فقال : ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت إلا وأنا أخطمها وأزمهما غير كلمتي هذه فلا تحفظوها علي واحفظوا ما أقول لكم سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إذا كنزا الناس الذهب والفضة فاكنزوا هؤلاء الكلمات : اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزم على الرشد وأسألك شكر نعمتك وأسألك حسن عبادتك وأسألك قلباً سليماً وأسألك لساناً صادقاً وأسألك من خير ما تعلم ، وأعوذ بك من شر ما تعلم وأستغفر لك لما تعلم إنك أنت علام الغيوب» .

وقوله تعالى : «**يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتَكُونُ بَهَا جَبَاهُهُمْ وَجَنُوبُهُمْ وَظَهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كَنَزْتُمْ تَكْنِزُونَ**» أي يقال لهم هذا الكلام تبكيناً وتقريراً وتهكماناً كما في قوله «**ثُمَّ صَبَوْا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ذَقَ إِنْكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ**» [الدخان: ٤٨ - ٤٩] أي هذا بذلك وهذا الذي كنتم تكنزون لأنفسكم ولهذا يقال من أحب شيئاً وقدمه على طاعة الله عذب به وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال آثر عندهم من رضا الله عنهم عذبوا بها كما كان أبو لهب لعنه الله جاهداً في عداوة رسول الله ﷺ وامرأته تعينه في ذلك كانت يوم القيمة عوناً على عذابه أيضاً في جيدها أي عنقها حبل من مسد أي تجمع من الحطب في النار وتلقى عليه ليكون ذلك أبلغ في عذابه من هو أشدق عليه في الدنيا كما أن هذه الأموال لما كانت أعز الأشياء على أربابها كانت أضر الأشياء عليهم في الدار الآخرة فيحمنى عليها في نار جهنم وناهيك بحرها فتكتوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم .

قال سفيان عن الأعمش عن عبد الله بن عمرو بن مرة عن مسروق عن عبد الله بن مسعود : والذي لا إله غيره لا يكتوى عبد يكتنز فيمس دينار ديناراً ولا درهم درهماً ولكن يوسع جلده فيوضع كل دينار ودرهم على حدته^(١) ، وقد رواه ابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعاً ولا يصح رفعه والله أعلم .

وقال عبد الرزاق أخبرنا معمراً عن ابن طاوس عن أبيه قال : بلغني أن الكنز يتحول يوم القيمة شجاعاً^(٢) يتبع صاحبه وهو يفر منه ويقول : أنا كنزنك لا يدرك منه شيئاً إلا أحده^(٣) . وقال الإمام أبو جعفر بن جرير^(٤) : حدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة عن سالم بن أبي الجعد عن معدان بن أبي طلحة عن ثوبان أن رسول الله ﷺ كان يقول «من ترك بعده كنزاً مثل له يوم القيمة شجاعاً أقع له زبيستان يتبعه ويقول : ويلك ما أنت ؟ فيقول : أنا كنزنك الذي تركته بعده ولا يزال يتبعه حتى يلجمه يده فيقضيها ثم يتبعها سائر جسده» ورواه ابن حبان في صحيحه من حديث يزيد عن سعيد به .

(١) انظر تفسير الطبرى ٣٦٣/٦.

(٢) الشجاع، بضم الشين وكسرها : الحبة.

(٣) انظر تفسير الطبرى ٣٦٣/٦.

(٤) تفسير الطبرى ٣٦٣/٦.

وأصل هذا الحديث في الصحيحين من رواية أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفي صحيح مسلم من حديث سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جعل له يوم القيمة صفائح من نار فيكوى بها جنبه وجهته وظهره في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار»^(١) وذكر تمام الحديث.

وقال البخاري^(٢) في تفسير هذه الآية: حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا جرير عن حصين عن زيد بن وهب قال: مررت على أبي ذر بالربذة فقلت ما أنزلك بهذه الأرض؟ . قال كنا بالشام فقرأت ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الْذَّهَبَ وَالْفَضْلَةَ وَلَا يَنْفَقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرُهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فقال معاوية ما هذه فيما ما هذه إلا في أهل الكتاب، قال: قلت إنها لفينا وفيهم.

ورواه ابن جرير^(٣) من حديث عابر بن القاسم عن حصين عن زيد بن وهب عن أبي ذر رضي الله عنه فذكره وزاد فارتفع في ذلك بياني وبينه القول فكتب إلى عثمان يشكوني فكتب إلي عثمان أن أقبل إليه قال فأقبلت إليه فلما قدمت المدينة ركبني الناس كأنهم لم يرونني قبل يومئذ فشكوت ذلك إلى عثمان فقال لي: تنح قريباً قلت: والله لن أدع ما كنت أقول.

(قلت) كان من مذهب أبي ذر رضي الله عنه تحريم ادخار ما زاد على نفقة العيال وكان يفتى بذلك ويحثهم عليه ويأمرهم به ويغليظ في خلافه فنهاه معاوية فلم ينته فخشى أن يضر الناس في هذا فكتب يشكوه إلى أمير المؤمنين عثمان وأن يأخذه إليه فاستقدمه عثمان إلى المدينة وأنزله بالربذة وحده وبها مات رضي الله عنه في خلافة عثمان. وقد اختره معاوية رضي الله عنه وهو عنده هل يوافق عمله قوله فبعث إليه بآلف دينار ففرقها من يومه ثم بعث إليه الذي أتاه بها فقال إن معاوية إنما بعثني إلى غيرك فاختلطت فهات الذهب فقال ويحك إنها خرجت ولكن إذا جاء مالي حاسبناك به وهكذا روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنها عامة وقال السدي: هي في أهل القبلة.

وقال الأحنف بن قيس قدمت المدينة فيينا أنا في حلقة فيها ملأ من قريش إذ جاء رجل أخشن الثياب أخشن الجسد أخشن الوجه فقام عليهم فقال: بشر الكنازين برضف يحمى عليه في نار جهنم فيوضع على حلمة ثدي أحدهم حتى يخرج من نغض كتفه ويوضع على نغض كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه يتزلزل قال فوضع القوم رؤوسهم بما رأيت أحداً منهم رجع إليه شيئاً قال وأدبر فاتبعته حتى جلس إلى سارية فقلت: ما رأيت هؤلاء إلا كرهوا ما قلت لهم، فقال:

(١) أخرجه مسلم في الزكاة حديث ٢٤٠، ٢٥٠.

(٢) كتاب التفسير، تفسير سورة ٩، باب ٦.

(٣) تفسير الطبرى ٦/٣٦١.

إن هؤلاء لا يعلمون شيئاً^(١).

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر: «ما يسرني أن عندي مثل أحد ذهباً يمر على ثلاثة أيام وعندى منه شيء إلا دينار أرصده ل الدين»^(٢) فهذا والله أعلم هو الذي حدا بأبي ذر على القول بهذا.

وقال الإمام أحمد^(٣): حدثنا عفان حدثنا همام قتادة عن سعيد بن أبي الحسن عن عبد الله بن الصامت رضي الله عنه أنه كان مع أبي ذر فخرج عطاوه ومعه جارية فجعلت تقضي حوائجه ففضلت معها سبعة فامرها أن تشتري به فلوساً قال: قلت لو ادخلته لحاجة بيتك وللضيف ينزل بك قال إن خليلي عهد إليّ أن أيما ذهب أو فضة أو كوى عليه فهو جمر على صاحبه حتى يفرغه في سبيل الله عز وجل . ورواه عن يزيد عن همام به وزاد إفراغاً .

وقال الحافظ ابن عساكر بسنده إلى أبي بكر الشبلي في ترجمته عن محمد بن مهدي حدثنا عمر بن أبي سلمة عن صدقة بن عبد الله عن طلحة بن زيد عن أبي فروة الراوبي عن عطاء عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الق الله فقيراً، ولا تلقه غنياً» قال: يا رسول الله كيف لي بذلك؟ قال: «ما سئلت فلا تمنع، وما رزقت فلا تخبئ» قال: يا رسول الله كيف لي بذلك؟ قال رسول الله ﷺ: «هو ذاك وإلا فالنار» إسناده ضعيف .

وقال الإمام أحمد^(٤): حدثنا عفان حدثنا جعفر بن سليمان حدثنا عبيدة عن يزيد بن الصرم قال سمعت علياً رضي الله عنه يقول مات رجل من أهل الصفة وترك دينارين أو درهماً فقال رسول الله ﷺ: «كتنان، صلوا على صاحبكم» وقد روي هذا من طرق آخر .

وقال قتادة عن شهر بن حوشب عن أبي أمامة صدي بن عجلان قال: مات رجل من أهل الصفة فوجد في مئزره دينار فقال رسول الله ﷺ: «كية» ثم توفي رجل في مئزره ديناران فقال رسول الله ﷺ: «كتنان»^(٥) وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا أبو النضر إسحاق بن إبراهيم الفradiسي حدثنا معاوية بن يحيى الاطرابلي حدثني أرطاة حدثني أبو عامر الهاوزي سمعت ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: «ما من رجل يموت وعنده أحمر أو أبيض إلا جعل الله بكل قيراط صفحة من نار يكوى بها من قدمه إلى ذقنه».

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا محمود بن خداش حدثنا سيف بن محمد الثوري حدثنا

(١) انظر تفسير الطبرى / ٦ / ٣٦٣.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق باب ١٤.

(٣) المستند / ٥ / ١٥٦ ، ١٧٥ ، ١٧٦ .

(٤) المستند / ١ / ٤١٢ ، ١٣٨ ، ١٣٧ .

(٥) انظر تفسير الطبرى / ٦ / ٣٥٩.

الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يوضع الدينار على الدينار، ولا الدرهم على الدرهم ولكن يوسع جلده فيكتوي بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون» سيف هذا كذاب متrox.

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ أَثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةُ حِرْمَانٌ ذَلِكَ الَّذِينَ أَلْقَيْمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتَلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَةً كَمَا يُقْتَلُونَكُمْ كَافَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ

قال الإمام أحمد^(١): حدثنا إسماعيل أخينا أيوب أخبرنا محمد بن سيرين عن أبي بكرة أن النبي ﷺ خطب في حجته فقال: «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاثة متواлиات ذو القعدة ذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان» ثم قال «ألا أي يوم هذا؟» قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميء بغير اسمه قال: «أليس يوم النحر؟» قلنا بلى ثم قال: «أي شهر هذا؟» قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميء بغير اسمه قال: «أليس ذا الحجة؟» قلنا بلى ثم قال: «أي بلد هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميء بغير اسمه قال: «أليست البلدة؟» قلنا بلى قال: «فإن دماءكم وأموالكم وأحبابكم قال - وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا. وستلقون ربكم فيسألوكم عن أعمالكم ألا لا ترجعوا بعدي ضللاً يضرب بعضكم رقب بعض ألا هل بلغت؟ ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب فلعل من يبلغه يكون أوعى له من بعض من سمعه»^(٢) رواه البخاري في التفسير وغيره. ومسلم من حديث أيوب عن محمد وهو ابن سيرين عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه به.

وقد قال ابن جرير^(٣): حدثنا معمر حدثنا روح حدثنا أشعث عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم: ثلاثة متواлиات - ذو القعدة ذو الحجة والمحرم - ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان» ورواه البزار عن محمد بن معمر به. ثم قال: لا يروى عن أبي هريرة إلا من هذا الوجه، وقد رواه ابن عون وقرة عن ابن سيرين عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه به.

(١) المستند ٣٧/٥.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٩، باب ٨، ومسلم في القسامية حديث ٢٩.

(٣) تفسير الطبرى ٦/٣٦٤، ولفظه: حدثنا محمد بن معمر بدل «معمر».

وقال ابن جرير^(١) أيضاً: حدثني موسى بن عبد الرحمن المسروري حدثنا زيد بن حباب حدثنا موسى بن عبيدة الربضي حدثني صدقة بن يسار عن ابن عمر قال: خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع بمنى في أوسط أيام التشريق فقال: «أيها الناس إن الزمان قد استدار فهو اليوم كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم أو لهم رجب مضمر بين جمادى وشعبان، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم» وروى ابن مردويه من حديث موسى بن عبيدة عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر مثله أو نحوه.

وقال حماد بن سلمة حدثني علي بن زيد عن أبي حمزة الرقاشي عن عميه وكانت له صحبة قال: كنت آخذـاً بزمام ناقة رسول الله ﷺ في أوسط أيام التشريق أذود الناس عنه فقال رسول الله ﷺ: «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم فلا تظلموا فيهن أنفسكم»^(٢).

وقال سعيد بن منصور حدثنا أبو معاوية عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله «منها أربعة حرم» قال محروم ورجب ذو القعدة وذو الحجة. وقوله ﷺ في الحديث: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض» تقرير منه صلوات الله وسلامه عليه، وثبتت للأمر على ما جعله الله ، في أول الأمر من غير تقديم ولا تأخير، ولا زيادة ولا نقص، ولا نسيء ولا تبديل كما قال في تحريم مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله تعالى إلى يوم القيمة» وهكذا قال هنا «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض» أي الأمر اليوم شرعاً كما ابتدع الله ذلك في كتابه يوم خلق السموات والأرض .

وقد قال بعض المفسرين والمتكلمين على هذا الحديث إن المراد بقوله «قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض» أنه اتفق أن حجـ رـ رسول الله ﷺ في تلك السنة في ذي الحجة وأن العرب قد كانت نسـات النـسيـء يـحجـونـ فيـ كـثـيرـ مـنـ السـنـينـ بلـ أـكـثـرـهـاـ فـيـ غـيـرـ ذـيـ الحـجـةـ وزعموا أن حـجـةـ الصـدـيقـ فيـ سـنـةـ تـسـعـ كـانـتـ فـيـ ذـيـ القـعـدـةـ وـفـيـ هـذـاـ نـظـرـ كـمـاـ سـبـيـبـهـ إـذـاـ تـكـلـمـنـاـ عـنـ النـسـيـءـ وـأـغـرـبـ مـنـهـ مـاـ رـوـاهـ الطـبـرـانـيـ عـنـ بـعـضـ السـلـفـ فـيـ جـمـلـةـ حـدـيـثـ أـنـهـ اـتـفـقـ حـجـ المـسـلـمـينـ وـالـيـهـودـ وـالـنـصـارـىـ فـيـ يـوـمـ وـاحـدـ وـهـوـ يـوـمـ النـحـرـ عـامـ حـجـةـ الـوـدـاعـ وـالـلـهـ اـعـلـمـ .

[فصل] ذكر الشيخ علم الدين السخاوي في جزء جمعه سماه «المشهور في أسماء الأيام والشهور» أن المحرم سمي بذلك لكونه شهراً محراً، وعندي أنه سمي بذلك تأكيداً لتحريمه

(١) تفسير الطبرى ٦/٣٦٤.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٥/٧٢، ٧٣.

لأن العرب كانت تقلب به فتحله عاماً وتحرمه عاماً قال ويجمع على محركات ومعارم ومحاريم، وصفر سمي بذلك لخلو بيوتهم منهم حين يخرجون للقتال والأسفار يقال صفر المكان إذا خلا ويجمع على أسفار كجمل وأجمال، وشهر ربيع الأول سمي بذلك لارتفاعهم فيه والارتفاع الإقامة في عمارة الربيع ويجمع على أربعة كنصيب وأنصباء، وعلى أربعة كرغيف وأرغفة، وربيع الآخر كال الأول. جمادى سمي بذلك لجمود الماء فيه، قال وكانت الشهور في حسابهم لا تدور، وفي هذا نظر إذ كانت شهورهم منوطة بالأهلة فلا بد من دورانها فلعلهم سموه بذلك أول ما سمي عند جمود الماء في البرد، كما قال الشاعر: [البسيط]

وليلة من جمادى ذات أندية لا يصر العبد في ظلمائها الطُّنْبَا^(١)
لا يبح الكلب فيها غير واحدة حتى يلفَّ على خرطومه الذُّنْبَا

ويجمع على جماديات كحباري وحباريات وقد يذكر ويؤنث فيقال جمادى الأولى والأول جمادى الآخر والآخرة. رجب من الترجيب وهو التعظيم ويجمع على أرجاب ورجاب ورجبات. شعبان من تشعب القبائل وتفرقها للغارقة ويجمع على شعابين وشعبات. رمضان من شدة الرمضاء وهو الحر يقال رمضان إذا عطشت ويجمع على رمضانات ورمضانين وأرمضنة قال: وقول من قال إنه اسم من أسماء الله خطأ لا يرجع عليه ولا يلتفت إليه، قلت: قد ورد فيه حديث ولكنه ضعيف وبيته في أول كتاب الصيام. شوال من شالت الإبل بأذنابها للطرق قال ويجمع على شواول وشواويل وشوالات. القعدة بفتح القاف، قلت وكسرها، لقعودهم فيه عن القتال والترحال ويجمع على ذوات القعدة. الحجة بكسر الحاء قلت وفتحها سمي بذلك لإقامتهم الحج فيه، ويجمع على ذوات الحجة.

أسماء الأيام أولها الأحد ويجمع على آحاد وأحاد وجود، ثم يوم الاثنين ويجمع على الإثنين، الثلاثاء يمد ويذكر ويؤنث ويجمع على ثلاثاً وثلاث، ثم الأربعاء بالمد ويجمع على أربعاء وأربعاء والخميس يجمع على أخمسة وأخams ثم الجمعة بضم الميم وإسكانها وفتحها أيضاً ويجمع على جمع وجماعات، السبت مأخوذ من السبت وهو القطع لانتهاء العدد عنده وكانت العرب تسمى الأيام أول ثم أمون ثم جبار ثم مؤنس ثم العروبة ثم شيار،

(١) يرى البيت الأول:

في ليلة من جمادى ذات أندية لا يصر الكلب من ظلمات الطُّنْبَا
وهو لمرة بن محكان في الأغاني ٣١٨/٣، والخصائص ٥٢/٣، ٢٣٧، وسر صناعة الإعراب ص ٦٢٠، وشرح الصريح ٢٩٣/٢، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ١٥٦٣، ولسان العرب (ندي)، والمقاصد التحوية ٤/٥١٠، والمقتضب ٣/٨١، وبلا نسبة في أوضح المسالك ٤/٢٩٤، وشرح الأشموني ٦٥٦/٣، وشرح شافية ابن الحاجب ص ٣٢٩، وشرح المفصل ١٧/١٠، ولسان العرب (رجل).

قال الشاعر من العرب العرباء العاربة المتقدمين : [الوافر]

أرجي أن أعيش وإن يومي برأول أو بأهون أو جبار^(١)
أو التالي دبار فإن أفتته فمؤنس أو عروبة أو شيار

وقوله تعالى : « منها أربعة حرم » فهذا مما كانت العرب أيضاً في الجاهلية تحرمه وهو الذي كان عليه جمهورهم إلا طائفة منهم يقال لهم البسل كانوا يحرمون من السنة ثمانية أشهر تعمقاً وتشديداً، وأما قوله « ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان » فإنما أضافه إلى مضر ليبين صحة قولهم في رجب أنه الشهر الذي بين جمادى وشعبان لا كما تظنه ربيعة من أن رجب المحرم هو الشهر الذي بين جمادى وشعبان لا كما تظنه ربيعة من أن رجب المحرم هو الشهر الذي بين شعبان و Shawwal وهو رمضان اليوم فيين بِكَلَّة أنه رجب مضر لا رجب ربيعة، وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة ثلاثة سرد وواحد فرد، لأجل أداء مناسك الحج والعمرة فحرم قبل أشهر الحج شهراً وهو ذو القعدة لأنهم يقعدون فيه عن القتال وحرم شهر ذي الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج ويستغلون فيه بأداء المناسك وحرم بعده شهراً آخر وهو المحرم ليرجعوا فيه إلى أقصى بلادهم آمنين، وحرم رجب في وسط الحول لأجل زيارة البيت والاعتمار به لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمناً.

وقوله : « ذلك الدين القيم » أي هذا هو الشرع المستقيم من امثال أمر الله فيما جعل من الأشهر الحرم والحدو بها على ما سبق من كتاب الله الأول قال تعالى : « فلا تظلموا فيهن أنفسكم » أي في هذه الأشهر المحرمة لأنها أكد وأبلغ في الإثم من غيرها كما أن المعاصي في البلد الحرام تضاعف لقوله تعالى : « ومن يرد فيه إلحاداً بظلم نذقه من عذاب أليم » [الحج : ٢٥] وكذلك الشهر الحرام تغلوظ فيه الآثام، ولهذا تغلوظ فيه الدينة في مذهب الشافعي وطائفة كثيرة من العلماء، وكذا في حق من قتل في الحرم أو قتل ذا حرم.

وقال حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس في قوله : « فلا تظلموا فيهن أنفسكم » قال : في الشهور كلها^(٢) ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله : « إن عدة الشهور عند الله » الآية، فلا تظلموا فيهن أنفسكم في كلهن ثم اختص من ذلك أربعة أشهر فجعلهن حراماً وعظم حرماتهن وجعل الذنب فيهن أعظم والعمل الصالح والأجر

(١) البيت الأول لبعض شعراء الجاهلية في لسان العرب (هون)، وتابع العروس (هون)، والبيتان بلا نسبة في الانصاف ٤٩٧/٢، وجمهرة اللغة ص ١٣١١، والدرر ١/١٠٣، ولسان العرب (عرب) (جبر)، (دبر)، (شبر)، (أنس)، (هون)، والمقاصد النحوية ٤/٣٦٧، وهمع الهوامع ١/٣٧، ويروى « أؤمّلُ » بدل « أرجي ».

(٢) انظر تفسير الطبرى ٦/٣٦٦

أعظم^(١).

وقال قتادة في قوله: ﴿فَلَا تظلمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُم﴾ إن الظلم في الأشهر الحرم أعظم خطيئة وزرًا من الظلم فيما سواها، وإن كان الظلم على كل حال عظيماً ولكن الله يعظم من أمره ما يشاء، وقال إن الله اصطفى صafia من خلقه. اصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس رسلاً واصطفى من الكلام ذكره، واصطفى من الأرض المساجد. واصطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم واصطفى من الأيام يوم الجمعة واصطفى من الليالي ليلة القدر فعظموا ما عظم الله. فإنما تعظيم الأمور بما عظمها الله به عند أهل الفهم وأهل العقل^(٢).

وقال الثوري عن قيس بن مسلم عن الحسن عن محمد ابن الحنفية بأن لا تحرموهن كحرمتين وقال محمد بن إسحاق: ﴿فَلَا تظلمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُم﴾ أي لا تجعلوا حرامها حلالاً ولا حلالها حراماً كما فعل أهل الشرك فإنما النسيء الذي كانوا يصنعون من ذلك زيادة في الكفر ﴿يُضْلِلُ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية، وهذا القول اختيار ابن جرير^(٣).

وقوله: ﴿وَقَاتَلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافِةً﴾ أي جميعكم ﴿كَمَا يَقَاتِلُونَكُمْ كَافِةً﴾ أي جميعهم ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ وقد اختلف العلماء في تحريم ابتداء القتال في الشهر الحرام هل هو منسوخ أو محكم على قولين [أحدهما] وهو الأشهر أنه منسوخ لأنه تعالى قال ههنا ﴿فَلَا تظلمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُم﴾ وأمر بقتال المشركين، وظاهر السياق مشعر بأنه أمر بذلك أمراً عاماً ولو كان محرماً في الشهر الحرام لأوشك أن يقيده بانسلاخها ولأن رسول الله ﷺ حاصر أهل الطائف في شهر حرام وهو ذو القعدة كما ثبت في الصحيحين أنه خرج إلى هوازن في شوال فلما كسرهم واستفاء أموالهم ورجع فلهم لجأوا إلى الطائف فعمد إلى الطائف فحاصرهم أربعين يوماً وانصرف ولم يفتحها فثبت أنه حاصر في الشهر الحرام والقول الآخر أن ابتداء القتال في الشهر الحرام وأنه لم ينسخ تحريم الشهر الحرام لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَّارَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٢] وقال: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ [المائدة: ١٩٤] والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾ [المائدة: ١٩٤] الآية، وقال ﴿إِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحَرَمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبه: ٥] الآية.

وقد تقدم أنها الأربع المقررة في كل سنة لا أشهر التسيير على أحد القولين. وأما قوله تعالى: ﴿وَقَاتَلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافِةً كَمَا يَقَاتِلُونَكُمْ كَافِةً﴾ فيحتمل أنه منقطع عما قبله وأنه حكم مستأنف ويكون من باب التهيج والتحفيض أي كما يجتمعون لحربكم إذا حاربوكم فاجتمعوا

(١) تفسير الطبرى /٦ ٣٦٦.

(٢) تفسير الطبرى /٦ ٣٦٦.

(٣) تفسير الطبرى /٦ ٣٦٦.

أنت أيضاً لهم إذا حاربتموهم وقاتلواهم بنظير ما يفعلون، ويحتمل أنه أذن للمؤمنين بقتال المشركين في الشهر الحرام إذا كانت البداءة منهم كما قال تعالى: ﴿الْشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحَرَمَاتِ قَصَاصٌ﴾ [البقرة: ١٩٤] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْاتِلُوهُمْ عَنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يَقْاتِلُوكُمْ فِيهِ إِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١] الآية.

وهكذا الجواب عن حصار رسول الله ﷺ أهل الطائف واستصحابه الحصار إلى أن دخل الشهر الحرام فإنه من تتمة قتال هوازن وأحلافها من ثقيف فإنهم هم الذين ابتدؤوا القتال وجمعوا الرجال ودعوا إلى الحرب والتزال فعندما قصدتهم رسول الله ﷺ كما تقدم فلما تحصنوا بالطائف ذهب إليهم ليزيلهم من حصونهم فنالوا من المسلمين وقتلو جماعة، واستمر الحصار بالمجانيق وغيرها قريباً من أربعين يوماً، وكان ابتداؤه في شهر حلال ودخل الشهر الحرام فاستمر فيه أيام ثم قفل عنهم لأنه يغترف في الدوام ما لا يغترف في الابداء، وهذا أمر مقرر له نظائر كثيرة والله أعلم، ولذكر الأحاديث الواردة في ذلك وقد حررنا ذلك في السيرة والله أعلم.

إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفَّارِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَكِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّعُوا عَذَابَهُ
مَا حَرَمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَمَ اللَّهُ زَبَنَ لَهُمْ سُوءٌ أَعْمَلُهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الْكُفَّارُ

هذا مما ذم الله تعالى به المشركين من تصرفهم في شرع الله بآدائهم الفاسدة، وتغييرهم أحكام الله بأهوائهم الباردة، وتحليلهم ما حرم الله وتحريمهم ما أحل الله ، فإنهما كان فيهم من القوة الغضبية والشهامة والحمية ما استطاعوا به مدة الأشهر الثلاثة في التحرير المانع لهم من قضاء أوطارهم من قتال أعدائهم، فكانوا قد أحدثوا قبل الإسلام بمدة تحليل المحرم فأخرجوه إلى صيف فيحلون الشهر الحرام ويحرمون الشهر الحلال ليواطئوا عدة ما حرم الله الأشهر الأربعية كما قال شاعرهم وهو عمير بن قيس المعروف بجدل الطعان: [الوافر]

لقد علمت معدّ بـأـنـ قـومـيـ
كرامـ النـاسـ إنـ لـهـمـ كـرـاماـ
الـسـنـاـ النـاسـيـنـ عـلـىـ مـعـدـ
شـهـورـ الـحـلـلـ نـجـعـلـهـاـ حـرـاماـ
فـأـيـ النـاسـ لـمـ نـدـرـكـ بـوـتـرـ
وـأـيـ النـاسـ لـمـ نـعـلـكـ لـجـاماـ

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفَّارِ﴾ قال النسيء أن جنادة بن عوف بن أمية الكناني كان يوافي الموسم في كل عام وكان يكتن أبا ثمامه فينادي ألا إن أبا ثمامه لا يجاذب ولا يعاب ألا وإن صرف العام الأول العام حلال فيحله للناس

(١) الآيات في سيرة ابن هشام ٤٥ / ١، والبيت الثاني لعمير الطعان في لسان العرب (نساء)، وتهذيب اللغة ١٣ / ٨٣، وتأج العروس (نساء)، ومعجم الشعراء ص ٢٤٣، وبلا نسبة في تاج العروس (قلمس).

فيحرم صفراً عاماً ويحرم المحرم عاماً فذلك قول الله ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر﴾ يقول: يتركون المحرم عاماً وعاماً يحرمونه^(١).

وروى العوفي عن ابن عباس نحوه، وقال ليث بن أبي سليم عن مجاهد كان رجل من بنى كنانة يأتي كل عام إلى الموسم على حمار له فيقول: يا أيها الناس: إني لا أعباب ولا أجاب ولا مرد لما أقول، إنا قد حرمنا المحرم وأخرنا صفر. ثم يجيء العام المقبل بعده فيقول مثل مقالته ويقول إنما قد حرمنا صفر وأخرنا المحرم فهو قوله ﴿ليواطئوا عدة ما حرم الله﴾ قال يعني الأربعه فيحلوا ما حرم الله لتأخير هذا الشهر الحرام^(٢)، وروي عن أبي وائل والضحاك وفتاده نحو هذا.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر﴾ الآية قال هذا رجل من بنى كنانة يقال له القلمس وكان في الجاهلية وكانوا في الجاهلية لا يغير بعضهم على بعض في الشهر الحرام يلقى الرجل قاتل أخيه ولا يمد إليه يده، فلما كان هو قال اخرجوا بنا قالوا له هذا المحرم قال ننسئه العام هما العام صفران، فإذا كان العام القابل قضينا جعلناهما محرمين، قال فعل ذلك فلما كان عام قابل قال لا لتغزو في صفر حرمته مع المحرم هما محرمان^(٣)، وهذه صفة غريبة في النسيء وفيها نظر لأنهم في عام إنما يحرمون على هذا ثلاثة أشهر فقط وفي العام الذي يليه يحرمون خمسة أشهر فأين هذا من قوله تعالى: ﴿يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله﴾.

وقد روى عن مجاهد صفة أخرى غريبة أيضاً فقال عبد الرزاق أخبرنا معمراً عن أبي نجيج عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر﴾ الآية، قال فرض الله عز وجل الحج في ذي الحجة، قال وكان المشركون يسمون ذا الحجة المحرم وصفر وربيع وربيع وجمادى وجمادى ورجب وشعبان ورمضان وشوالاً وذا القعدة وذا الحجة يحجون فيه مرة ثم يسكنون عن المحرم ولا يذكرونه ثم يعودون فيسمون صفراً، ثم يسمون رجب جمادى الآخرة، ثم يسمون شعبان رمضان، ثم يسمون شوالاً رمضان، ثم يسمون ذا القعدة شوالاً، ثم يسمون ذا الحجة ذا القعدة، ثم يسمون المحرم ذا الحجة فيحجون فيه واسمه عندهم ذا الحجة. ثم عادوا بمثل هذه الصفة فكانوا يحجون في كل عام شهرين حتى إذا وافق حجة أبي بكر الآخر من العامين في ذي القعدة، ثم حج النبي ﷺ حجته التي حج فوافق ذا الحجة فذلك حين يقول النبي ﷺ في خطبته: «إن الزمان قد استدار كهيته يوم خلق الله السموات والأرض»^(٤) وهذا

(١) انظر تفسير الطبرى ٣٦٩ / ٦.

(٢) تفسير الطبرى ٦ / ٣٧٠.

(٣) تفسير الطبرى ٦ / ٣٧١.

(٤) تفسير الطبرى ٦ / ٣٧١.

الذي قاله مجاهد فيه نظر أيضاً وكيف تصح حجة أبي بكر وقد وقعت في ذي القعدة وأنى هذا؟ .

وقد قال الله تعالى: «وَأَذْانُ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحِجَّةِ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بِرِيءٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولِهِ» [التوبية: ٣] الآية وإنما نودي به في حجة أبي بكر فلو لم تكن في ذي الحجة لما قال تعالى: «يَوْمَ الْحِجَّةِ الْأَكْبَرِ» ولا يلزم من فعلهم التسيء هذا الذي ذكره من دوران السنة عليهم وحجهم في كل شهر عامين فإن النسيء حاصل بدون هذا فإنهم لما كانوا يحلون شهر المحرم عاماً يحرمون عوضه صفرأً وبعده ربيع وربيع إلى آخر السنة بحالها على نظامها وعدتها وأسماء شهورها ثم في السنة الثانية يحرمون المحرم ويتركونه على تحريميه وبعد صفر وربيع وربيع إلى آخرها «يَحلُّونَهُ عَامًا وَيَحْرُمُونَهُ عَامًا لِيُوَطَّئُوا عَدْدَ مَا حَرَمَ اللَّهُ فَيَحْلُّوْا مَا حَرَمَ اللَّهُ» أي في تحريم أربعة أشهر من السنة إلا أنهم تارة يقدمون تحريم الشهر الثالث من الثلاثة المتواترة وهو المحرم وتارة ينسئونه إلى صفر أي يؤخرونها وقد قدمنا الكلام على قوله ﷺ: «إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ» الحديث أي إن الأمر في عدة الشهور وتحريم ما هو محرم منها على ما سبق في كتاب الله من العدد والتواتي لا كما تعتمده جهله العرب من فصلهم تحريم بعضها بالنسيء عن بعض والله أعلم وقال ابن أبي حاتم: حدثنا صالح بن بشير بن سلمة الطبراني حدثنا مكي بن إبراهيم حدثنا موسى بن عبيدة عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر أنه قال: وقف رسول الله ﷺ بالعقبة فاجتمع إليه من شاء الله من المسلمين فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل ثم قال: «وَإِنَّمَا النَّسِيءَ مِنَ الشَّيْطَانِ زِيَادَةً فِي الْكُفُرِ يَضْلِلُ بِهِ الظَّالِمِينَ كُفَّارًا يَحْلُّونَهُ عَامًا وَيَحْرُمُونَهُ عَامًا» فكانوا يحرمون المحرم عاماً ويستحلون صفر ويستحلون المحرم هو النسيء .

وقد تكلم الإمام محمد بن إسحاق على هذا في كتاب السيرة كلاماً مفيداً حسناً فقال: كان أول من نسأ الشهور على العرب فأحل منها ما حرم الله وحرم منها ما أحل الله عز وجل القلمس وهو حذيفة بن عبد فقيم بن عاصي بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معدن بن عدنان: ثم قام بعده على ذلك ابنه عباد ثم من بعد عباد ابنه قلع بن عباد ثم ابنه أمية بن قلع ثم ابنه عوف بن أمية ثم ابنه أبو ثامة جنادة بن عوف وكان آخرهم وعليه قام الإسلام فكانت العرب إذا فرغت من حجتها اجتمعت إليه فقام فيهم خطيباً فحرم رجباً وذا القعدة وذا الحجة ويحل المحرم عاماً ويجعل مكانه صفر ويحرمه ليواطئه عدة ما حرم الله فيحل ما حرم الله يعني ويحرم ما أحل الله^(١). والله أعلم .

يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ إِذَا آمَنُوا مَا كُنُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفَرُوا فِي سَيِّلِ اللَّهِ أَنَّا قَلَّمَنَا إِلَى الْأَرْضِ أَرَضَيْتُمْ

بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٢٨﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا
يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيُسْتَبِدِّلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾

هذا شروع في عتاب من تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك حين طابت الشمار والظلال في شدة الحر وحمارة القبيظ فقال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله» أي إذا دعيتم إلى الجهاد في سبيل الله «انقلتم إلى الأرض» أي تكاسلتم وملتم إلى المقام في الدعة والخنفس وطيب الشمار «أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة» أي ما لكم فعلتم هكذا أرضي منكم بالدنيا بدلًا من الآخرة؟ ثم زهد تبارك وتعالي في الدنيا، ورغم في الآخرة فقال «فما ماتع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل» كما قال الإمام أحمد^(١): حدثنا وكيع ويعبي بن سعيد قالا حدثنا إسماعيل بن أبي خالد عن قيس عن المستورد أخيبني فهر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليه فلينظر بم ترجع؟» وأشار بالسبابة انفردا بإخراجه مسلم^(٢).

وروى ابن أبي حاتم حدثنا بشر بن مسلم بن عبد الحميد الحمصي بمحض حدثنا الربع بن روح حدثنا محمد بن خالد الوهبي حدثنا زياد يعني الجصاص عن أبي عثمان قال: قلت: يا أبا هريرة سمعت من إخوانني بالبصرة ألك تقول: سمعت النبي ﷺ يقول «إن الله يجزي بالحسنة ألف ألف حسنة» قال أبو هريرة: بل سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن الله يجزي بالحسنة ألف الف حسنة» ثم تلا هذه الآية «فما ماتع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل» فالدنيا ما مضى منها وما بقي منها عند الله قليل. وقال الثوري عن الأعمش في الآية «فما ماتع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل» قال: كزاد الراكب.

وقال عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه: لما حضرت عبد العزيز بن مروان الوفاة. قال: ائتوني بكفني الذي فيه أنظر إليه فلما وضع بين يديه نظر إليه فقال: أما لي من كبير ما أخلف من الدنيا إلا هذا؟ ثم ولى ظهره فبكى وهو يقول ألم لك من دار إن كان كثيرك لقليل، وإن كان قليلك لقصير، وإن كان منك لففي غرور. ثم توعد تعالي من ترك الجهاد فقال: «إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليمًا» قال ابن عباس: استنصر رسول الله ﷺ حياً من العرب فتشاقلوا عنه فأمسك الله عنهم القطر فكان عذابهم^(٣).

«وَيُسْتَبِدِّلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ» أي لنصرة نبيه وإقامة دينه كما قال تعالي: «إِن تَوْلُوا يَسْتَبِدُ

(١) المسند ٤/٢٢٨، ٢٢٩.

(٢) كتاب الجنة حديث ٥٥.

(٣) انظر تفسير الطبرى ٦/٣٧٣.

قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم» [محمد: ٣٨] «ولا تضروه شيئاً» أي ولا تضروا الله شيئاً بتوليك عن الجهاد، ونكلوكم وتثاقلوكم عنه «والله على كل شيء قدير» أي قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم، وقد قيل إن هذه الآية قوله: «انفروا خفافاً وثقلاً» [التوبه: ٤١] قوله: «ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخللوا عن رسول الله» [التوبه: ١٢٠] إنهم منسوخات بقوله تعالى: «وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة» [التوبه: ١٢٢] روي هذا عن ابن عباس وعكرمة والحسن، وزيد بن أسلم ورده ابن جرير وقال: إنما هذا فيما دعاهم رسول الله عليه السلام إلى الجهاد فتعين عليهم ذلك فلو تركوه لعوقبوا عليه وهذا له اتجاه والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذَا أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَةً أَثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْفَكَارِ إِذْ
يَقُولُ لِصَاحِبِيهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيْتَهُمْ بِجُنُودِ لَمْ
تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلِيَّا وَاللَّهُ

عَزِيزٌ حَكِيمٌ

يقول تعالى: «إلا تنصروه» أي تنصروا رسوله فإن الله ناصره ومؤيده وكافيه وحافظه كما تولى نصره «إذا أخرجه الدين كفروا ثانية اثنين» أي عام الهجرة لما هم المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه فخرج منهم هارباً بصحبة صديقه وصاحبه أبي بكر بن أبي قحافة فلجاً إلى غار ثور ثلاثة أيام ليرجع الطلب الذين خرجوا في آثارهم ثم يسيراً نحو المدينة فجعل أبو بكر رضي الله عنه يجزع أن يطلع عليهم أحد فيخلاص إلى رسول الله عليه السلام منهم أذى فجعل النبي عليه السلام يسكنه ويبيته ويقول: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما».

كما قال الإمام أحمد^(١): حدثنا عفان حدثنا همام أباؤنا ثابت عن أنس أن أباً بكر حدثه قال: قلت للنبي عليه السلام ونحن في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه قال: فقال: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما»^(٢) آخر جاه في الصحيحين، ولهذا قال تعالى: «فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ» أي تأييده ونصره عليه أي على الرسول عليه السلام في أشهر القولين وقيل على أبي بكر، وروي عن ابن عباس وغيره قالوا: لأن الرسول عليه السلام لم تزل معه سكينة وهذا لا ينافي تجدد سكينة خاصة بتلك الحال ولهذا قال: «وَأَيْدِهِ جَنُودٌ لَمْ تَرُوهَا» أي الملائكة «وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلِيَّا» قال ابن عباس يعني بكلمة الذين كفروا الشرك وكلمة الله هي لا إله إلا الله.

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: سئل رسول الله عليه السلام عن

(١) المستند ٤ / ١.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٩، باب ١١.

الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رباء أي ذلك في سبيل الله فقال: «من قاتل لتكوين كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»^(١) وقوله: ﴿وَاللهُ عَزِيزٌ﴾ أي في انتقامته وانتصاره، منيع الجناب لا يضام من لاذ ببابه، واحتى بالتمسك بخطابه ﴿حَكِيمٌ﴾ في أقواله وأفعاله.

أَنْفِرُوا خَفَافًا وَثَقَالًا وَجَاهُدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ

قال سفيان الثوري عن أبيه عن أبي الضحى مسلم بن صبيح: هذه الآية ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ أول ما نزل من سورة براءة^(٢) وقال معتمر بن سليمان عن أبيه قال: زعم حضرمي أنه ذكر له أن ناساً كانوا عسى أن يكون أحدهم علياً وكثيراً فيقول: إني لا آثم فأنزل الله ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ الآية^(٣).

أمر الله تعالى بالنفير العام مع رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك لقتال أعداء الله من الروم الكفرة من أهل الكتاب وحتم على المؤمنين في الخروج معه على كل حال في المنشط والمكره والعسر واليسر فقال ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾.

وقال علي بن زيد عن أنس عن أبي طلحة: كهولاً وشباناً ما سمع الله عذر أحد ثم خرج إلى الشام فقاتل حتى قتل وفي رواية قرأ أبو طلحة سورة براءة فأتى على هذه الآية ﴿انفروا خفافاً وثقالاً وجاحدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾ فقال أرى ربنا استفرنا شيوخاً وشباناً جهزونا يابني، فقال بنوه يرحمك الله قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات ومع أبي بكر حتى مات ومع عمر حتى مات فتحن نغزو عنك فأبى فركب البحر فمات فلم يجدوا له جزيرة يدفنوه فيها إلا بعد تسعه أيام فلم يتغير دفنه فيها.

وهكذا روي عن ابن عباس وعكرمة وأبي صالح والحسن البصري وسهيل بن عطية ومقاتل بن حيان والشعبي وزيد بن أسلم أنهم قالوا في تفسير هذه الآية ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ كهولاً وشباناً وكذا قال عكرمة والضحاك ومقاتل بن حيان وغير واحد، وقال مجاهد شباناً وشيوخاً وأغنياء ومساكين وكذا قال أبو صالح وغيره وقال الحكم بن عتبة: مشاغيل وغير مشاغيل، وقال العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ يقول انفروا نشاطاً وغير نشاط، وكذا قال قتادة وقال ابن أبي نجح عن مجاهد ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ قالوا فإن فينا الثقيل، وهذا الحاجة والضياعة والشغل والمتسير به أمره فأنزل الله وأبى أن يعذرهم دون أن ينفروا ﴿خفافاً وثقالاً﴾ أي على ما كان منهم وقال الحسن بن أبي الحسن البصري أيضاً في

(١) أخرجه البخاري في العلم باب ٤٥، ومسلم في الإمارة حديث ١٥٠، ١٥١.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٦/٣٧٩.

(٣) تفسير الطبرى ٦/٣٧٨.

العسر واليسر وهذا كله من مقتضيات العموم في الآية وهذا اختيار ابن جرير.

وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعي: إذا كان التفير إلى دروب الروم نفر الناس إليها خفافاً وركباناً وإذا كان التفير إلى هذه السواحل نفروا إليها خفافاً وثقلاً وركباناً ومشاة وهذا تفصيل في المسألة وقد روي عن ابن عباس ومحمد بن كعب وعطاء الخراساني وغيرهم أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: «فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ» وسيأتي الكلام على ذلك إن شاء الله، وقال السدي قوله: «انفروا خفافاً وثقلاً» يقول غنياً وفقيراً وقوياً وضعيفاً فجاءه رجل يومئذ زعموا أنه المقداد وكان عظيماً سميأناً فشكاه إليه وسأله أن يأذن له فأبى فنزلت يومئذ «انفروا خفافاً وثقلاً» فلما نزلت هذه الآية اشتد على الناس فنسختها الله فقال: «لَيْسَ عَلَى الْمُصْعِفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفَقُونَ حَرْجٌ إِذَا نَصَحَوْا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ».

وقال ابن جرير^(١): حديثي يعقوب حدثنا ابن علي حدثنا أيوب عن محمد قال شهد أبو أيوب مع رسول الله ﷺ بدرًا ثم لم يختلف عن غزوة المسلمين إلا عاماً واحداً قال وكان أبو أيوب يقول: قال الله تعالى: «انفروا خفافاً وثقلاً» فلا أجدني إلا خفيفاً أو ثقيلاً. وقال ابن جرير^(٢): حديثي سعيد بن عمرو السكوني حدثنا بقية حدثنا جرير حديثي عبد الرحمن بن ميسرة حدثني أبو راشد الحبراني قال: وافت المقداد بن الأسود فارس رسول الله ﷺ جالساً على تابوت من توابيت الصيارة بحمص وقد فصل عنها من عظمه يريد الغزو فقلت: له قد أعتذر الله إليك فقال: أنت علينا سورة البعث^(٣) «انفروا خفافاً وثقلاً».

وقال ابن جرير^(٤): حديثي حبان بن زيد الشرعي قال: نفرنا مع صفوان بن عمرو وكان والياً على حمص قبل الأفسوس إلى الجراجمة فرأيت شيخاً كبيراً هماً قد سقط حاجبه على عينيه من أهل دمشق على راحته فيمن أغاث فأقبلت إليه فقلت يا عم لقد أعتذر الله إليك قال فرفع حاجبيه فقال يا ابن أخي استغفرا الله خفافاً وثقلاً لا إنه من يحبه الله يبتليه ثم يعيده الله فيبيقه وإنما يبتلي الله من عباده من شكر وصبر وذكر ولم يعبد إلا الله عز وجل.

ثم رغب تعالى في النفقة في سبيله وبذل المهج في مرضاته ومرضاة رسوله فقال: «وَجَاهُدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرُ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» أي هذا خير لكم في الدنيا والآخرة لأنكم تغترون في النفقة قليلاً فيغمونكم الله أموال عدوكم في الدنيا مع ما يدخل لكم من الكرامة في الآخرة كما قال النبي ﷺ: «تَكْفُلُ اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِهِ إِنْ تَوَفَّاهُ

(١) تفسير الطبرى / ٦ ٣٧٨.

(٢) تفسير الطبرى / ٦ ٣٧٨.

(٣) قال الأستاذ شاكر في حاشية تفسير الطبرى / ٦ ٣٧٨: لم أجد من سمي سورة التوبه سورة البعث، بل أجمعوا على تسميتها سورة البحوث، سميت بها لما تضمنت من البحث في أسرار المنافقين.

(٤) تفسير الطبرى / ٦ ٣٧٧.

أن يدخله الجنة، أو يرده إلى منزله بما نال من أجر أو غنيمة»^(١) ولهذا قال الله تعالى : «كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون» ومن هذا القبيل ما رواه الإمام أحمد^(٢): حدثنا محمد بن أبي عدي عن حميد عن أنس أنَّ رسول الله ﷺ قال لرجل : «أسلم» قال : أجدني كارهاً قال : «أسلم وإن كنت كارهاً» .

لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا فَاصْدَأْ لَا تَبْعُوكَ وَلَكِنْ بَعْدَ عَلَيْهِمُ الشَّفَةَ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَوْ أَسْتَطَعْنَا لَرْجَنَا مَعَكُمْ يَهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ

يقول تعالى موبخاً للذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك وقعدوا بعدما استأذنوه في ذلك مظهرين أنهم ذوو أعياد ولم يكونوا كذلك فقال : «لو كان عرضاً قريباً» قال ابن عباس : غنيمة قريبة «وسفراً فاصداً» أي قريباً أيضاً «لا تبعوك» أي لكانوا جاؤوا معك لذلك «ولكن بعدت عليهم الشفة» أي المسافة إلى الشام « وسيحلفون بالله» أي لكم إذا رجعتم إليهم «لو استطعنا لخرجنا معكم» أي لو لم يكن لنا أعياد لخرجنا معكم قال الله تعالى : «يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكافرون» .

عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لَمْ أَذِنْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَذَّابُونَ لَا يَسْتَغْنُكَ الَّذِينَ يَؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجْهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ إِنَّمَا يَسْتَغْنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَرَاتَهُمْ فُلُوْبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَرْدَدُونَ

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا أبو حصين بن سليمان الرازي حدثنا سفيان بن عيينة عن مسعر عن عون قال : هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا ؟ نداء بالغفو قبل المعاشرة فقال «عفا الله عنك لم أذن لهم» وكذا قال مورق العجلي وغيره . وقال قتادة : عاته كما تستمعون ثم أنزل التي في سورة النور فرخص له في أن يأذن لهم إن شاء فقال «إذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم» [النور : ٦٢] الآية^(٣) . وكذا روی عن عطاء الخراساني ، وقال مجاهد : نزلت هذه الآية في أنس قالوا : استأذنا رسول الله ﷺ فإن أذن لكم فاقعدوا وإن لم يأذن لكم فاقعدوا^(٤) .

(١) آخرجه البخاري في التوحيد باب ٢٨ ، ٣٠ ، ومسلم في الإمارة حديث ١٠٤ ، وأحمد في المستند ٤٩٤/٢ ، ٤٢٤ ، ٣٧٤ ، ٣٩٩ ، ٢٢١/٢ .

(٢) المستند ١٠٩/٣ .

(٣) انظر تفسير الطبرى ٦/٣٨١ .

(٤) تفسير الطبرى ٦/٣٨١ .

ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لِكُمُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ أي في إبداء الأذار ﴿وَتَعْلُمُ الْكَاذِبِينَ﴾ يقول تعالى هلا تركتهم لما استأذنوك فلم تأذن لأحد منهم في القعود لتعلم الصادق منهم في إظهار طاعتك من الكاذب فإنهم قد كانوا مصرين على القعود عن الغزو وإن لم تأذن لهم فيه.

ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذنه في القعود عن الغزو أحد يؤمن بالله ورسوله فقال: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكُم﴾ أي في القعود عن الغزو ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَجَاهِدُوْا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ لأنهم يرون الجهاد قربة ولما ندبهم إليه بادروا وامثلوا ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَقْبِلِينَ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكُم﴾ أي في القعود من لا عنده له ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي لا يرجون ثواب الله في الدار الآخرة على أعمالهم ﴿وَارْتَابُتْ قُلُوبُهُم﴾ أي شكت في صحة ما جئتهم به ﴿فَهُمْ فِي رِبِّهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ أي يتحيرون يقدمون رجالاً ويؤخرون أخرى وليس لهم قدم ثابتة في شيء فهم حيارى هلكى لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُروْجَ لَأَعْدَدُوا لَهُمْ عَدَّةً وَلَذِكْرَ كَرَهَ اللَّهُ أَبْعَادَهُمْ فَثَبَطُهُمْ وَقِيلَ أَفْعَدُوا مَعَ الْقَادِيرِ﴾ **﴿لَوْ خَرَجُوا فَيُكَلُّ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا حَبَالًا وَلَا وَصَعْوًا خَلَلَكُمْ يَغُونَكُمْ أَفْنَنَةً وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾**

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُروْجَ﴾ أي معك إلى الغزو ﴿لَأَعْدَدُوا لَهُمْ عَدَّةً﴾ أي لكانوا تأهبوا له ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ أَبْعَادَهُمْ﴾ أي أبغض أن يخرجوا معكم قدرأ ﴿فَثَبَطُهُمْ﴾ أي أخرهم ﴿وَقِيلَ أَفْعَدُوا مَعَ الْقَادِيرِ﴾ أي قدرأ ثم بين تعالى وجه كراهته لخروجهم مع المؤمنين فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيْكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا حَبَالًا﴾ أي لأنهم جبناء مخذولون ﴿وَلَا وَصَعْوًا خَلَلَكُمْ يَغُونَكُمْ أَفْنَنَةً﴾ أي ولأسرعوا السير والمشي بينكم بالنمية والبغضاء والفتنة.

﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ أي مطيعون لهم ومستحسنون لحديثهم وكلامهم يستنصرونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم فيؤدي إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير. وقال مجاهد وزيد بن أسلم وابن جرير: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ أي عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم، وهذا لا يبقى له اختصاص بخروجهم معهم بل هذا عام في جميع الأحوال والمعنى الأول أظهر في المناسبة بالسياق وإليه ذهب قتادة وغيره من المفسرين.

وقال محمد بن إسحاق: كان الذين استأذنوا فيما بلغني من ذوي الشرف منهم عبد الله بن أبي ابن سلوى والجد بن قيس كانوا أشرافاً في قومهم فثبطهم الله لعلمه بهم أن يخرجوا معه فيفسدوا عليه جنده وكان في جنده قوم أهل محبة لهم وطاعة فيما يدعونهم إليه لشرفهم فيهم فقال: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾^(١).

ثم أخبر تعالى عن تمام علمه فقال: «وَاللَّهُ عَلَيْمٌ بِالظَّالِمِينَ» فأخبر بأنه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، ولهذا قال تعالى: «لَوْ خَرَجُوكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا» فأخبر عن حالهم كيف يكون لو خرجوا ومع هذا ما خرجوا كما قال تعالى: «وَلَوْ رَدَوْكُمْ رُدُوا لِعَادُوكُمْ لِمَا نَهَا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ» [الأنعام: ٢٨] وقال تعالى: «وَلَوْ عِلْمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْعَهُمْ وَلَوْ أَسْعَهُمْ لَتُولُوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ» [الأنفال: ٢٣] وقال تعالى: «وَلَوْ أَنَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوكُمْ أَوْ اخْرُجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوكُمْ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنْهُمْ فَعَلُوكُمْ مَا يَوْعَذُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَ تَبْيَانًا وَإِذَا لَاتَّيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَا أَجْرًا عَظِيمًا وَلَهُدِينَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا» [النساء: ٦٨ - ٦٦] والآيات في هذا كثيرة.

لَقَدِ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلٍ وَكَيْبَوْ لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَ

كَرِهُونَ

يقول تعالى محراضاً لنبيه عليه السلام على المنافقين: «لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلٍ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ» أي لقد أعملوا فكرهم وأجالوا آراءهم في كيدك وקיד أصحابك وخذلان دينك وإخمامده مدة طويلة، وذلك أول مقدم النبي ﷺ بالمدينة رمته العرب عن قوس واحدة، وحاربه يهود المدينة ومنافقوها، فلما نصره الله يوم بدر وأعلى كلمته قال عبد الله بن أبي وأصحابه: هذا أمر قد توجه فدخلوا في الإسلام ظاهراً ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله غاظهم ذلك وساءهم ولهذا قال تعالى: «حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ».

وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُوْنُ أَذْنَنَ لِي وَلَا تَفْتَنَ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقْطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ

بِالْكَافِرِينَ

يقول تعالى ومن المنافقين من يقول لك: يا محمد «أذنن لي» في القعود «وَلَا تفتني» بالخروج معك بسبب الجواري من نساء الروم. قال الله تعالى: «أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقْطُوا» أي قد سقطوا في الفتنة بقولهم هذا كما قال محمد بن إسحاق عن الزهري ويزيد بن رومان عبد الله بن أبي بكر وعااصم بن قتادة وغيرهم قالوا: قال رسول الله ﷺ ذات يوم وهو في جهازه للجد بن قيس أخيبني سلمة: «هَلْ لَكَ يَا جَدَ الْعَامِ فِي جَلَادِ بْنِ الْأَصْفَرِ؟» فقال: يا رسول الله أو تاذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشد عجبًا بالنساء مني، وإنني أخشى إن رأيت نساءبني الأصفر أن لا أصبر عنهن. فأعرض عنهن رسول الله ﷺ وقال: «قد أذنت لك» ففي الجد بن قيس نزلت هذه: «وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَذْنَنَ لِي وَلَا تَفْتَنِي» الآية، أي إن كان إنما يخشى من نساءبني الأصفر وليس ذلك به فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن

رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه أعظم^(١).

وهكذا روي عن ابن عباس ومجاحد وغير واحد أنها نزلت في الجد بن قيس، وقد كان الجد بن قيس هذا من أشرافبني سلمة. وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لهم: «من سيدكم يا بني سلمة؟» قالوا: الجد بن قيس على أنا نبخله. فقال رسول الله ﷺ «وأي داء أدوا من البخل! ولكن سيدكم الفتى الجعد الأبيض بشر بن البراء بن معروف» وقوله تعالى: «وإن جهنم لمحيطة بالكافرين» أي لا مجيد لهم عنها ولا محيسن ولا مهرب.

إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةً سُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةً يَقُولُوا قَدْ أَخْذَنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ
وَيَكْتُلُونَا وَهُمْ فَرِحُونَ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ
فَلَيَسْتَوْكِلُ الْمُؤْمِنُونَ

يعلم تبارك وتعالى نبيه ﷺ بعداوة هؤلاء له لأنه مهما أصابه من حسنة أي فتح ونصر وظفر على الأعداء مما يسره ويسر أصحابه ساءهم ذلك « وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل» أي قد احتزنا من متابعته من قبل هذا « ويتولوا وهم فرحون» فأرشد الله تعالى رسول الله ﷺ إلى جوابهم في عداوتهم هذه التامة فقال: «قل» أي لهم «لن يصيّبنا إلا ما كتب الله لنا» أي نحن تحت مشيئة وقدره « هو مولانا» أي سيدنا وملجؤنا « وعلى الله فليتوكل المؤمنون» أي ونحن متوكلون عليه وهو حسبنا ونعم الوكيل.

قُلْ هَلْ تَرَصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحَسَنَيْنِ وَخُنُونَرَبِّكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ
عِنْدِهِ أَوْ يَأْتِيَنَا فَتَرَبَصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُّتَرَصِّعُونَ قُلْ أَنْفَقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يَنْقَبَّ
مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفْقَهُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا
بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ، وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كَسَالَىٰ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ

يقول تعالى: «قل» لهم يا محمد « هل تربصون بنا» أي تتظرون بنا « إلا إحدى الحسنين» شهادة أو ظفر بكم قاله ابن عباس ومجاحد وقتادة وغيرهم « ونحن نترقب بكم» أي ننتظر بكم «أن يصيّبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا» أي نتظر بكم هذا أو هذا إما «أن يصيّبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا» بسيء أو بقتل « فترقصوا إنا معكم مترصعون» وقوله تعالى: « قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً» أي مهما أنفقتم من نفقة طائعين أو مكرهين « لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين».

ثم أخبر تعالى عن سبب ذلك وهو أنهم لا يتقبل منهم « لأنهم كفروا بالله وبرسوله» أي والأعمال إنما تصح بالإيمان « ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالي» أي ليس لهم قصد صحيح

وَلَا هُمَّةِ فِي الْعَمَلِ ۝ وَلَا يَنْفَقُونَ ۝ نَفْقَةٌ ۝ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ۝ وَقَدْ أَخْبَرَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ ۝ إِنَّ اللَّهَ لَا يَمْلِكُ حَتَّىٰ تَمْلَأُوا وَأَنَّ اللَّهَ طَيْبٌ لَا يَقْبِلُ إِلَّا طَيْبًا ۝ فَلَهُذَا لَا يَقْبِلُ اللَّهُ مِنْ هُؤُلَاءِ نَفْقَةٍ ۝ وَلَا عَمَلًا لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَتَقْبِلُ مِنَ الْمُتَقِينَ ۝

فَلَا تَعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ بِعِبَدِهِمْ إِيمَانًا وَتَرَهُقَ أَنفُسَهُمْ وَهُمْ كُفَّارُونَ ۝

يقول تعالى لرسوله ﷺ «فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم» كما قال تعالى: «وَلَا تَمْدُنْ عَيْنِيكَ إِلَىٰ مَا مَتَعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَنَفْتَنَاهُمْ فِيهِ وَرَزَقَ رَبُّكَ خَيْرًا وَأَبْقَى ۝» [طه: ١٣١] وقال «أَيُّحِسْبُونَ أَنَّ مَا نَمَدُهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نَسَّارُهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ۝» [المؤمنون: ٥٦ - ٥٥].

وقوله ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ بِعِبَدِهِمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال الحسن البصري بزكاتها والنفقة منها في سبيل الله^(١)، وقال قتادة: هذا من المقدم والمؤخر تقديره: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما ي يريد الله ليعدبهم بها في الآخرة^(٢). واختار ابن جرير قول الحسن، وهو القول القوي الحسن، وقوله ﴿وَتَرَهُقَ أَنفُسَهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ أي و يريد أن يميتهם حين يمتهنهم على الكفر ليكون ذلك أنكى لهم وأشد لعذابهم. عيادةً بالله من ذلك وهذا يكون من باب الاستدراج لهم فيما هم فيه.

وَمُكَلِّفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَيْسُ كُمْ وَمَا هُمْ بِمُكَلِّفٍ وَلَكُنْهُمْ قَوْمٌ يَفْرَغُونَ ۝ لَوْ يَحْدُثُنَّ مَلْجَأً أَوْ مَغْرِبَاتٍ أَوْ مُدَخَّلًا لَوْلَوْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ۝

يخبر الله تعالى نبيه ﷺ عن جزعهم وفزعهم وهلعهم أنهم «يحلفون بالله إنهم لمنكم» يميناً مؤكدة «وَمَا هُمْ بِمُكَلِّفٍ» أي في نفس الأمر «وَلَكُنْهُمْ قَوْمٌ يَفْرَغُونَ» أي فهو الذي حملهم على الحلف «لَوْ يَحْدُثُنَّ مَلْجَأً» أي حسناً يتحصنون به وحرزاً يتحرزون به «أَوْ مَغَارَاتٍ» وهي التي في الجبال «أَوْ مُدَخَّلًا» وهو السرب في الأرض والنفق قال ذلك في ثلاثة ابن عباس ومجاحد وقتادة «لَوْلَوْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ» أي يسرعون في ذهابهم عنكم لأنهم إنما يخالطونكم كرهًا لا محبة وودوا أنهم لا يخالطونكم ولكن للضرورة أحكام ولهذا لا يزالون في هم وحزن وغم لأن الإسلام وأهله لا يزال في عز ونصر ورفعة، فلهذا كلما سر المسلمون ساءهم ذلك فهم يودون أن لا يخالطوا المؤمنين ولهذا قال «لَوْ يَحْدُثُنَّ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَخَّلًا لَوْلَوْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ».

(١) انظر تفسير الطبرى / ٦ . ٣٩١

(٢) تفسير الطبرى / ٦ . ٣٩١

وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أَعْطَوْهُمْ رِضْوًا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوهُمْ هَذَا إِذَا هُمْ يَسْخُطُونَ ۝ وَلَوْ
أَنَّهُمْ رَضُوا مَمَّا أَتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسِبْنَا اللَّهَ سَيِّئَتِنَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى
اللَّهِ رَاغُوبُونَ ۝

يقول تعالى: «وَمِنْهُمْ» أي ومن المنافقين «مَنْ يَلْمِزُكَ» أي يعيك عليك «فِي» قسم «الصدقات» إذا فرقها ويتهمك في ذلك وهم المتهمون المأبونون وهم مع هذا لا ينكرون للدين وإنما ينكرون لحظ أنفسهم ولهذا «فَإِنْ أَعْطَوْهُمْ رِضْوًا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوهُمْ هَذَا إِذَا هُمْ يَسْخُطُونَ» أي يغضبون لأنفسهم، قال ابن جريج: أخبرني داود بن أبي عاصم قال أتى النبي ﷺ بصدقه قسمها هاهنا وه هنا حتى ذهبت قال ووراءه رجل من الأنصار فقال: ما هذا بالعدل فنزلت هذه الآية^(١).

وقال قتادة في قوله: «وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ» يقول: ومنهم من يطعن عليك في الصدقات، وذكر لنا أن رجالاً من أهل الbadية حدث عهد بأعرابية أتى النبي ﷺ وهو يقسم ذهباً وفضة فقال يا محمد والله لئن كان الله أمرك أن تعدل ما عدلت فقال النبي ﷺ: «وَيْلَكَ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَعْدِلُ عَلَيْكَ بَعْدِي؟» ثم قال النبي ﷺ: «اَحْذِرُوكُمْ هَذَا وَآشْبَاهُهُ فَإِنْ كُنْتُ أَمْتَيْ أَشْبَاهَ هَذَا يَقْرُؤُونَ الْقُرْآنَ لَا يَجُوزُ تِرَاقيْهِمْ فَإِذَا خَرَجُوكُمْ فَاقْتُلُوكُمْ ثُمَّ إِذَا خَرَجُوكُمْ فَاقْتُلُوكُمْ» وذكر لنا أن النبي ﷺ كان يقول: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيدهِ مَا أُعْطِيْكُمْ شَيْئاً وَلَا أَمْنَعُكُمْ إِنْمَا أَنَا خَازِنٌ»^(٢).

وهذا الذي ذكره قتادة يشبه ما رواه الشیخان من حديث الزهری عن أبي سلمة عن أبي سعيد في قصة ذي الخویصرة واسمها حرقوص لما اعترض على النبي ﷺ حين قسم غنائم حنين فقال له: اعدل فإنك لم تعدل فقال: «القد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل» ثم قال رسول الله ﷺ وقد رأه مقفيما: «إنه يخرج من ضئبيء هذا قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية فأينما لقيتموه فاقتلوهم فإنهم شر قتلى تحت أديم السماء»^(٣) وذكر بقية الحديث.

ثم قال تعالى منها لهم على ما هو خير لهم من ذلك فقال: «وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسِبْنَا اللَّهَ سَيِّئَتِنَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغُوبُونَ» فتضمنت هذه الآية الكريمة أدباً عظيماً وسراً شريفاً حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله والتوكيل على الله وحده وهو قوله: «وَقَالُوا حَسِبْنَا اللَّهَ»، وكذلك الرغبة إلى الله وحده في التوفيق لطاعة الرسول ﷺ.

(١) تفسير الطبری ٦/٣٩٣.

(٢) تفسير الطبری ٦/٣٩٤.

(٣) أخرجه مسلم في الزکاة حديث ١٤٨.

وامثال أوامره وترك زواجه وتصديق أخباره والاقتفاء بآثاره.

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَمَلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤْلَفَةُ فُلُوْبُهُمْ وَفِي الْرِّقَابِ وَالْغَرِيمَينَ وَفِي سَيِّلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّيِّلِ فِي ضَكَّةٍ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

لما ذكر تعالى اعتراض المنافقين الجهلة على النبي ﷺ ولمزهم إياه في قسم الصدقات بين تعالى أنه هو الذي قسمها وبين حكمها وتولى أمرها بنفسه ولم يكل قسمها إلى أحد غيره فجزأها لهؤلاء المذكورين كما رواه الإمام أبو داود^(١) في سننه من حديث عبد الرحمن بن زياد بن أنعم وفيه ضعف عن زياد بن نعيم عن زياد بن الحارث الصدائي رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ فبایعه فأتى رجل فقال: أعطني من الصدقة فقال له: «إن الله لم يرض بحكمنبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها هو فجزأها ثمانية أصناف فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك» وقد اختلف العلماء في هذه الأصناف الثمانية هل يجب استيعاب الدفع لها أو إلى ما أمكن منها؟ على قولين [أحدهما] أنه يجب ذلك وهو قول الشافعي وجماعة.

[والثاني] أنه لا يجب استيعابها بل يجوز الدفع إلى واحد منها ويعطي جميع الصدقة مع وجود الباقين وهو قول مالك وجماعة من السلف والخلف منهم عمر وحذيفة وأبي عباس وأبو العالية وسعيد بن جبير وميمون بن مهران، قال ابن جرير: وهو قول جماعة عامة من أهل العلم، وعلى هذا فإنما ذكرت الأصناف هنا لبيان المصرف لا لوجوب استيعاب الإعطاء. ولو جوهر الحاجاج والمأخذ مكان غير هذا والله أعلم، وإنما قدم الفقراء هنا على البقية لأنهم أحوج من غيرهم على المشهور ولشدة فاقتهم وحاجتهم، وعند أبي حنيفة أن المسكين أسوأ حالاً من الفقير وهو كما قال أحمد.

وقال ابن جرير^(٢): حدثني يعقوب حدثنا ابن علية أباًنا ابن عون عن محمد قال: قال عمر رضي الله عنه: الفقير ليس بالذي لا مال له، ولكن الفقير الأخلاق الكسب قال ابن علية: الأخلاق المحارف عندها، والجمهور على خلافه وروي عن ابن عباس ومجاهد والحسن البصري وأبي زيد. واختار ابن جرير وغير واحد أن الفقير هو المتعفف الذي لا يسأل الناس شيئاً والمسكين هو الذي يسأل ويطوف ويتبع الناس.

وقال قتادة: الفقير من به زمانة والمسكين الصحيح الجسم^(٣) وقال الثوري عن منصور عن إبراهيم هم فقراء المهاجرين، قال سفيان الثوري يعني ولا يعطى الأعراب منها شيئاً وكذا روي عن سعيد بن جبير وسعيد بن عبد الرحمن بن أبي زيد. وقال عكرمة: لا تقولوا لقراء المسلمين

(١) كتاب الزكاة باب .٢٤

(٢) تفسير الطبرى / ٦ .٣٩٦

(٣) تفسير الطبرى / ٦ .٣٩٥

مساكين إنما المساكين أهل الكتاب ولنذكر أحاديث تتعلق بكل من الأصناف الشمانية.

فأما الفقراء فعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني ولا لذى مرة سوي»^(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذى، ولأحمد أيضاً والنمسائى وابن ماجه عن أبي هريرة مثله وعن عبيد الله بن عدى بن الخيار أن رجلين أخبراه أنهما أتيا النبي ﷺ يسألانه من الصدقة فقلب فيماهما البصر فرأهما جلدين فقال: «إن شتما أعطيتكما ولا حظ فيها لغنى ولا لقوى مكتسب»^(٢) رواه أحمد وأبو داود والنمسائى بإسناد قوى.

وقال ابن أبي حاتم في كتاب الجرح والتعديل: أبو بكر العبسي قال قرأ عمر رضي الله عنه «إنما الصدقات للفقراء» قال: هم أهل الكتاب روى عنه عمر بن نافع سمعت أبي يقول ذلك (قلت) وهذا قول غريب جداً بقدر صحة الإسناد فإن أبو بكر هذا وإن لم ينص أبو حاتم على جهالته لكنه في حكم المجهول.

وأما المساكين فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المiskin بهذا الطواف الذي يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان قالوا فمن المiskin يا رسول الله؟ قال: «الذى لا يجد غنى يغنى، ولا يفطن له فيتصدق عليه ولا يسأل الناس شيئاً»^(٣) رواه الشيخان.

وأما العاملون عليها فهم الجبة والسعاء يستحقون منه قسطاً على ذلك ولا يجوز أن يكونوا من أقرباء رسول الله ﷺ الذين تحرم عليهم الصدقة لما ثبت في صحيح مسلم عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث، أنه انطلق هو والفضل بن العباس يسألان رسول الله ﷺ ليستعملهما على الصدقة فقال: «إن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد، إنما هي أوساخ الناس»^(٤). وأما المؤلفة قلوبهم فأقسام منهم من يعطى ليسلم، كما أعطى النبي ﷺ صفوان بن أمية من غنائم حنين، وقد كان شهدتها مشركاً، قال: فلم يزل يعطي حتى صار أحب الناس إلى بعد أن كان أبغض الناس إلى، كما قال الإمام أحمد: حدثنا زكريا بن عدي أبناؤنا ابن المبارك، عن يونس عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن صفوان بن أمية قال: أعطاني رسول الله ﷺ يوم حنين وإنه لأبغض الناس إلى، مما زال يعطي حتى إنه لأحب الناس

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة باب ٢٤، والترمذى في الزكاة باب ٢٣، والنمسائى في الزكاة باب ٩٠، وابن ماجه في الزكاة باب ٢٦، والدارمى في الزكاة باب ١٥، وأحمد في المسند ١٦٤/٢، ٢٩٢، ٣٧٧، ٣٨٩/٥، ٦٢/٤.

(٢) أخرجه أبو داود في الزكاة باب ٢٤، والنمسائى في الزكاة باب ٩١، وأحمد في المسند ٤/٢٢٤، ٣٦٢/٥.

(٣) أخرجه البخارى في الزكاة باب ٥٣، ومسلم في الزكاة حديث ١٠١.

(٤) أخرجه مسلم في الزكاة حديث ١٦٧، ١٦٨.

إلي^(١)، ورواه مسلم والترمذى من حديث يونس عن الزهرى به.

ومنهم من يعطى ليحسن إسلامه ويثبت قلبه، كما أعطى يوم حنين أيضاً جماعة من صناديد الطلقاء وأشرافهم مائة من الإبل، وقال «إنى لأعطي الرجل وغيره أحب إلى منه خشية أن يكبه الله على وجهه في نار جهنم»^(٢). وفي الصحيحين عن أبي سعيد أن علياً بعث إلى النبي ﷺ بذهبية في تربتها من اليمن، فقسمها بين أربعة نفر: الأقرع بن حابس، وعبيدة بن بدر، وعلقمة بن علاة، وزيد الخير، وقال «أتألفهم»^(٣) ومنهم من يعطى لما يرجى من إسلام نظرائه، ومنهم من يعطى ليجي الصدقات ممن يليه، أو ليدفع عن حوزة المسلمينضرر من أطراف البلاد، ومحل تفصيل هذا في كتب الفروع، والله أعلم.

وهل تعطى المؤلفة على الإسلام بعد النبي ﷺ؟ فيه خلاف، فروي عن عمر وعامر والشعبي وجماعة: أنهم لا يعطون بعده لأن الله قد أعز الإسلام وأهله ومكن لهم في البلاد، وأذل لهم رقاب العباد، وقال آخرون: بل يعطون لأنهم عليه الصلاة والسلام قد أعطاهم بعد فتح مكة وكسر هوازن، وهذا أمر قد يحتاج إليه فيصرف إليهم. وأما الرقاب فروي عن الحسن البصري ومقاتل بن حيان وعمر بن عبد العزيز وسعيد بن جبير والنخعي والزهرى وابن زيد أنهم المكاتبون، وروي عن أبي موسى الأشعري نحوه، وهو قول الشافعى واللith رضي الله عنهم.

وقال ابن عباس والحسن: لا بأس أن تعتق الرقبة من الزكاة، وهو مذهب أحمد ومالك وإسحاق، أي أن الرقاب أعم من أن يعطي المكاتب أو يشتري رقبة فيعتقها استقلالاً، وقد ورد في ثواب الإعتاق وفك الرقبة أحاديث كثيرة، وأن الله يعتق بكل عضو منها عضواً من معتقها حتى الفرج بالفرج، وما ذاك إلا لأن الجزاء من جنس العمل «وما تجزون إلا ما كتتم تعملون» وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «ثلاثة حق على الله عنهم: الغازي في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف»^(٤) رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا أبو داود.

وفي المستند عن البراء بن عازب قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله دلني على عمل يقربني من الجنة ويباعدني من النار؟ فقال: «أعتق النساء وفك الرقبة» فقال: يا رسول الله أو ليسا

(١) أخرجه مسلم في الفضائل حديث ٥٩، والترمذى في الزكاة باب ٣٠، وأحمد في المستند ٤٠١/٣، ٤٠٨، ٤٦٥/٦.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة باب ٥٣، ومسلم في الزكاة حديث ١٣١.

(٣) أخرجه البخاري في الأبياء باب ٦، ومسلم في الزكاة حديث ١٣٢، ١٣٣، ١٤٣.

(٤) أخرجه الترمذى في فضائل الجهاد باب ٢٠، والنمسائي في النكاح باب ٥، وابن ماجه في العتق باب ٣، وأحمد في المستند ٤٣٧، ٢٥١/٢.

واحداً؟ قال: «لا، عتق النسمة أن تفرد بعنتها، وفك الرقبة أن تعين في ثمنها»^(١).

وأما الغارمون فهم أقسام فمنهم: من تحمل حمالة أو ضمن ديناً فلزمته فأجحف بماليه أو غرم في أداء دينه أو في معصية ثم تاب فهو لاء يدفع إليهم، والأصل في هذا الباب حديث قبيصة بن مخاير الهلالي قال: تحملت حمالة فأتيت رسول الله ﷺ أسله فيها، فقال «أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها» قال: ثم قال: «يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة^(٢) اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش^(٣) - أو قال سداداً من عيش^(٤) - ورجل أصابته فاقه حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجja من قربة قومه فيقولون لقد أصابت فلاناً فاقه^(٥) فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش - أو قال سداداً من عيش - فما سواهن من المسألة سحت^(٦) يأكلها أصحابها سحتاً» رواه مسلم^(٧).

وعن أبي سعيد قال: أصيب رجل في عهد رسول الله ﷺ في ثمار ابتعاه فكثر دينه، فقال النبي ﷺ: «تصدقوا عليه» فصدق الناس عليه فلم يبلغ ذلك وفاة دينه، فقال النبي ﷺ لغرمائه: «خذوا ما وجدتم وليس لكم إلا ذلك» رواه مسلم^(٨).

وقال الإمام أحمد^(٩): حدثنا عبد الصمد، أئبنا صدقة بن موسى عن أبي عمران الجوني عن قيس بن يزيد عن قاضي المصريين^(١٠) عن عبد الرحمن بن أبي بكر قال: قال رسول الله ﷺ: «يدعوا الله بصاحب الدين يوم القيمة حتى يوقف بين يديه فيقول: يا ابن آدم فيما أخذت هذا الدين وفيما ضيغت حقوق الناس؟ فيقول: يا رب إنك تعلم أنني أخذته فلم أكل ولم أشرب ولم أضيع ولكن أتى على يدي إما حرق وإما سرق وإما ضيغة. فيقول الله صدق عبدي أنا أحق من قضى عنك اليوم، فيدعوك الله بشيء فيضعه في كفة ميزانه فترجع حسناته على سيئاته، فيدخل الجنة بفضل الله ورحمته» وأما في سبيل الله فمنهم الغزاوة الذين لا حق لهم في الديوان، وعند الإمام أحمد والحسن وإسحاق والحجج من سبيل الله الحديث.

(١) آخرجه أحمد في المستند ٤/٢٩٩.

(٢) الجائحة: كل مصيبة عظيمة، والأفة التي تهلك الشمار والأموال.

(٣) قواماً من عيش: أي يجد ما تقوم به حاجته.

(٤) سداداً من عيش: ما يسد به حاجته.

(٥) أي: حتى يقوموا على رؤوس الأشهاد قائلين: إن فلاناً أصابته فاقه. وذوى الحججا: أي ذوو العقل.

(٦) السحت: الحرام.

(٧) كتاب الزكاة ١٠٩.

(٨) كتاب المسافة حديث ١٩.

(٩) المستند ١/١٩٧، ١٩٨.

(١٠) قاضي المصريين: هو شريح. والمصران هما البصرة والكوفة.

وكذلك ابن السبيل وهو المسافر المجتاز في بلد ليس معه شيء يستعين به على سفره، فيعطي من الصدقات ما يكفيه إلى بلده وإن كان له مال، وهكذا الحكم فيمن أراد إنشاء سفر من بلده وليس معه شيء، فيعطي من مال الزكاة كفایته في ذهابه وإيابه. والدليل على ذلك الآية وما رواه الإمام أبو داود وابن ماجه من حديث عمر عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغنى إلا لخمسة: العامل عليها أو رجل اشتراها بماله، أو غارم، أو غاز في سبيل الله، أو مسكين تصدق عليه منها فأهلدي لغنى»^(١) وقد رواه السفطيان عن زيد بن أسلم عن عطاء مرسلاً، ولأبي داود عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغنى إلا في سبيل الله وابن السبيل أو جار فقير فهدى لك أو يدعوك»^(٢) قوله: «فريضة من الله» أي حكماً مقدراً بتقدير الله وفرضه وقسمه «والله علیم حکیم» أي علیم بظواهر الأمور وبواطنها وبمصالح عباده «حکیم» فيما يقوله ويفعله ويشرعه ويحكم به، لا إله إلا هو رب سواه.

**وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذِنُونَ اللَّهِ يَقُولُونَ هُوَ أَذْنٌ قُلْ أَذْنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ
لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذِنُونَ رَسُولُ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**

يقول تعالى ومن المنافقين قوم يؤذون رسول الله ﷺ بالكلام فيه، ويقولون «هو أذن» أي من قال له شيئاً صدقه فيما ومن حدثه صدقة، فإذا جئناه وحلينا له صدقنا. روی معناه عن ابن عباس ومجاهد وقتادة. قال الله تعالى: «قل أذن خير لكم» أي هو أذن خير يعرف الصادق من الكاذب «يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين» أي ويصدق المؤمنين «ورحمة للذين آمنوا منكم» أي وهو حجة على الكافرين ولهذا قال «والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم».

**يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضُوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ إِنَّمَا
يَعْلَمُ أَنَّهُمْ مَنْ يُخَاهِدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُمْ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخَرْزُ الْعَظِيمُ**

قال قتادة في قوله تعالى: «يحلرون بالله لكم ليرضوكم» الآية. قال ذكر لنا أن رجلاً من المنافقين قال: والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا وإن كان ما يقول محمد حقاً، لهم شر من الحمير. قال: فسمعها رجل من المسلمين فقال: والله ما يقول محمد الحق ولا أنت أشر من الحمار، قال: فسعى بها الرجل إلى النبي ﷺ فأخبره، فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال «ما حملك على الذي قلت؟» فجعل يتلعن ويحلف بالله ما قال ذلك، وجعل الرجل المسلم يقول: اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب، فأنزل الله الآية^(٣). قوله تعالى: «ألم يعلموا أنه

(١) آخرجه أبو داود في الزكاة باب ٢٥ ، وابن ماجه في الزكاة باب ٢٧ ، وممالك في الزكاة حديث ٢٩ .

(٢) آخرجه أبو داود في الزكاة باب ٢٥ .

(٣) انظر تفسير الطبرى ٦ / ٤٠٧ .

من يحادث الله ورسوله **﴿الآية، أي ألم يتحققوا ويعلموا أنه من حاد الله عز وجل أي شاقق وحاربه وخالقه، وكان في حد والله ورسوله في حد ﴿فَإِنْ لَهُ نَارٌ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ أي مهاناً معدباً، ﴿وَذُلِكَ الْخَرْبَى الْعَظِيمُ﴾ أي وهذا هو الذل العظيم والشقاء الكبير.**

يَحْذِرُ الْمُنَفِّقُونَ أَن تَزَلَّ عَلَيْهِمْ سُوْرَةٌ نُتْبَعِهِمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ أَسْتَهِنُ بِوَاللهِ مُخْرِجٌ مَا
مَحَدُورٌ

قال مجاهد: يقولون القول بينهم ثم يقولون عسى الله أن لا يفشي علينا سرنا هذا، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: «إِذَا جَاؤُوكُمْ حَيُوكُمْ بِمَا لَمْ يَحْكِمْ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يَعْذِنُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسِبُهُمْ جَهَنَّمَ يَصْلُونَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ» [المجادلة: ٨]، وقال في هذه الآية: «قُلْ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذِرُونَ» أي إن الله سينزل على رسوله ما يفضحكم به وبين له أمركم، كقوله تعالى: «أَمْ حَسِبُ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرْضٌ أَنْ لَنْ يَخْرُجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ» - إلى قوله - «وَلَتَعْرِفُوهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ» [محمد: ٢٩ - ٣٠] الآية، ولهذا قال قتادة: كانت تسمى قوله هذه السورة الفاضحة فاضحة المنافقين^(١).

وَلِئِن سَأَلْتُهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخْوَضُ وَنَكْعَبُ فَلَمَّا أَبْلَغَهُمْ رَسُولُهُ كُنْتُمْ
تَسْتَهِزُونَ^{١٥} لَا تَمْنَدُوا فَدَكْرُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ تَفْعَلُونَ طَالِفَةٌ مِّنْكُمْ تُعَذَّبْ طَالِفَةٌ يَأْتِهِمْ
كَانُوا بُجُورَمِينَ

قال أبو معاشر المديني : عن محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا : قال رجل من المنافقين : ما أرى قراءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطوناً وأكذبنا ألسنة ، وأجبتنا عند اللقاء . فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ فجاء إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته فقال : يا رسول الله إنما كانا نخوض ولعب . فقال : «أبا الله وأياته ورسوله كنتم تستهزئون» - إلى قوله - «كانوا مجرمين» وإن رجليه لسفعان الحجارة وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ وهو متعلق بنسعة رسول الله ﷺ^(٢) .

وقال عبد الله بن وهب: أخبرني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عبد الله بن عمر قال: قال رجل في غزوة تبوك في مجلس: ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً ولا أكذب أنساناً ولا أجبن عند اللقاء. فقال رجل في المسجد: كذبت ولكنك منافق لأن الخبرن رسول الله ﷺ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن، فقال عبد الله بن عمر أنا رأيته متعلقاً بحقب ناقة رسول الله ﷺ تنكه الحجارة، وهو يقول يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، رسول الله ﷺ

(١) انظِمْ تفسِّر الطَّبِيعِي، ٤٠٨/٦

(٢) انظر تفسير الطبرى ٤٠٩، ٤١٠.

يقول: ﴿أَبَا اللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تُسْتَهْزَئُونَ﴾ الآية^(١). وقد رواه الليث عن هشام بن سعيد بنحو من هذا.

وقال ابن إسحاق وقد كان من جماعة من المنافقين منهم وديعة بن ثابت أخوبني أمية بن زيد بن عمرو بن عوف، ورجل من أشجع حليف لبني سلمة يقال له مخشي بن حمير، يسيرون مع رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك فقال بعضهم لبعض: أتحسبون جlad بنـي الأنصـف^(٢) كقتـالـ العـربـ بـعـضـهـمـ بـعـضاـ؟ـ وـالـلـهـ لـكـأـنـاـ بـكـمـ غـدـاـ مـقـرـنـيـنـ فـيـ الـحـبـالـ،ـ إـرـجـافـاـ وـتـرـهـيـاـ لـلـمـؤـمـنـيـنـ فـقـالـ مـخـشـيـ بـنـ حـمـيرـ:ـ وـالـلـهـ لـوـدـدـتـ أـنـ أـفـاضـيـ عـلـىـ أـنـ يـضـرـبـ كـلـ رـجـلـ مـنـ مـائـةـ جـلـدـةـ،ـ إـنـاـ نـغـلـبـ أـنـ يـنـزـلـ فـيـنـاـ قـرـآنـ لـمـقـاتـلـكـمـ هـذـهـ،ـ وـقـالـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺـ فـيـمـاـ بـلـغـنـيـ لـعـمـارـ بـنـ يـاسـرـ «ـأـدـرـكـ الـقـوـمـ فـإـنـهـمـ قـدـ اـحـتـرـقـوـاـ فـاسـأـلـهـمـ عـماـ قـالـوـاـ فـإـنـ أـنـكـرـوـاـ فـقـلـ بـلـىـ قـلـتـ كـذـاـ وـكـذـاـ»ـ فـانـطـلـقـ إـلـيـهـمـ عـمـارـ فـقـالـ ذـلـكـ لـهـمـ فـأـتـوـاـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺـ يـعـتـذـرـوـنـ إـلـيـهـ فـقـالـ وـدـيـعـةـ بـنـ ثـابـتـ وـرـسـوـلـ اللـهـ وـاقـفـ عـلـىـ رـاحـلـتـهـ،ـ فـجـعـلـ يـقـولـ وـهـوـ آخـذـ بـحـقـبـهـ:ـ يـاـ رـسـوـلـ اللـهـ إـنـمـاـ كـنـاـ نـخـوـضـ وـنـلـعـبـ فـقـالـ مـخـشـيـ بـنـ حـمـيرـ:ـ يـاـ رـسـوـلـ اللـهـ قـعـدـ بـيـ اـسـمـيـ وـاسـمـ أـبـيـ فـكـانـ الـذـيـ عـفـيـ عـنـهـ فـيـ هـذـهـ الـآـيـةـ مـخـشـيـ بـنـ حـمـيرـ فـتـسـمـيـ عـبـدـ الرـحـمـنـ وـسـأـلـ اللـهـ أـنـ يـقـتـلـ شـهـيـداـ لـاـ يـعـلـمـ مـكـانـهـ،ـ فـقـتـلـ يـوـمـ الـيـمـاـمـةـ وـلـمـ يـوـجـدـ لـهـ أـثـرـ^(٣).

وقال قتادة **﴿وَلَئِنْ سَأَلْتُهُمْ لِيَقُولُنَّ إِنَّمَا كَنَا نَخْوَضُ وَنَلْعَبُ﴾** قال: فيبينما النبي ﷺ في غزوة تبوك وركب من المنافقين يسيرون بين يديه، فقالوا: يظن هذا أن يفتح قصور الروم وحصونها هيهات هيهات، فأطلع الله نبيه ﷺ على ما قالوا، فقال **﴿عَلَيَّ بِهُؤُلَاءِ النَّفَر﴾** فدعاهم فقال **﴿قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا﴾** فحلفو ما كنا إلا نخوض ونلعب^(٤). وقال عكرمة في تفسير هذه الآية: كان رجل من إن شاء الله عفا عنه يقول اللهم إني أسمع آية أنا أعني بها تشعر منها الجلد وتجب منها القلوب، اللهم فاجعل وفاتي قتلاً في سبيلك لا يقول أحد أنا غسلت أنا كفنت أنا دفت. قال: فأصيب يوم اليمامة بما من أحد من المسلمين إلا وقد وجده غيره^(٥). قوله: **﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾** أي بهذا المقال الذي استهزأتم به **﴿إِنْ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾** أي لا يعفى عن جميعكم ولا بد من عذاب بعضكم **﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾** أي مجرمين بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة.

(١) تفسير الطبرى ٤٠٩/٦.

(٢) بنو الأنصـفـ هـمـ الرـوـمـ.

(٣) انظر سيرة ابن هشام ٥٢٤ / ٥٢٥ .

(٤) تفسير الطبرى ٤٠٩/٦ .

(٥) انظر تفسير الطبرى ٤٠٩/٦ .

الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ إِنْ يَأْمُرُونَ بِالْمُتَكَبِّرِ وَيَنْهَا عَنِ الْمَعْرُوفِ
وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيهِمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيْهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَسِيْقُونَ^{١٧٦} وَعَدَ اللَّهُ
الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسِيْبَةٌ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ

مُقِيمٌ^{١٧٧}

يقول تعالى منكراً على المنافقين الذين هم على خلاف صفات المؤمنين، ولما كان المؤمنون يأمرتون بالمعروف وينهون عن المنكر، كان هؤلاء «يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم» أي عن الإنفاق في سبيل الله، «نسوا الله» أي نسوا ذكر الله «فسيهم» أي عاملهم معاملة من نسيهم قوله تعالى: «وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا» [الجاثية: ٣٤] «إن المنافقين هم الفاسدون» أي الخارجون عن طريق الحق الداخلون في طريق الضلال، قوله: «وعد الله المنافقين والمنافقات والكافار نار جهنم» أي على هذا الصنيع الذي ذكر عنهم «خالدين فيها» أي ماكثين فيها مخلدين هم والكافار «هي حسيهم» أي كفايتهم في العذاب «ولعنهم الله» أي طردتهم وأبعدتهم «ولهم عذاب مقيم».

كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ فُحْشًا وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعُمْ
بِخَلَاقِكُمْ كَمَا أَسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِينَ كَانُوا أَوْلَئِكَ حَرَطَتْ
أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ^{١٧٨}

يقول تعالى أصحاب هؤلاء من عذاب الله في الدنيا والآخرة كما أصحاب من قبلهم، قوله «بخلاقيهم» قال الحسن البصري: بدينهم^(١)، قوله «وخطضتم كالذى خاضوا» أي في الكذب والباطل «أولئك حبطت أعمالهم» أي بطلت مساعدتهم فلا ثواب لهم عليها لأنها فاسدة في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون» لأنهم لم يحصل لهم عليها ثواب. قال ابن جريج عن عمرو بن عطاء عن عكرمة عن ابن عباس في قوله «كالذين من قبلكم» الآية، قال ابن عباس: ما أشبه الليلة بالبارحة «كالذين من قبلكم» هؤلاء بنو إسرائيل شبهنا بهم لا أعلم إلا أنه قال: «والذي نفسي بيده لتبعنهم حتى لو دخل الرجل منهم جحر ضب لدخلتهموه»^(٢).

قال ابن جريج: وأخبرني زياد بن سعد عن محمد بن زياد بن مهاجر عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبراً وذراعاً بذراع وباعاً بباع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتهموه»

(١) انظر تفسير الطبرى ٤١٣/٦.

(٢) تفسير الطبرى ٤١٣/٦.

قالوا: ومن هم يا رسول الله، أهل الكتاب؟ قال «فمن؟»^(١) وهكذا رواه أبو معاشر عن أبي سعيد المقبرى عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: فذكره، وزاد قال أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم القرآن **﴿كالذين من قبلكم﴾ الآية**، قال أبو هريرة: **الخلق الدين وخصتم كالذى خاضوا** **﴿قالوا يا رسول الله كما صنعت فارس والروم؟ قال﴾ **﴿فهل الناس إلا هم؟﴾**^(٢) وهذا الحديث له شاهد في الصحيح.**

الَّذِي يَأْتِيهِمْ بَأْلَهِيهِمْ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمٌ نُوحٌ وَعَادٍ وَثَمُودٍ وَقَوْمٌ إِبْرَاهِيمَ وَاصْحَابِ مَدِينَ وَالْمُؤْنَفَكَاتِ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ

يقول تعالى واعظاً لهؤلاء المنافقين المكذبين للرسل **﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ بِأَلْهِيهِمْ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾** أي ألم تخبروا خبراً من كان قبلكم من الأمم المكذبة للرسل **﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾** وما أصابهم من الغرق العام لجميع أهل الأرض إلا من آمن بعده ورسوله نوح عليه السلام، **﴿وَعَادٌ﴾** كيف أهلكوا بالريح العقيم لما كذبوا هوداً عليه السلام، **﴿وَثَمُود﴾** كيف أخذتهم الصيحة لما كذبوا صالح عليه السلام وعقرروا الناقة، **﴿وَقَوْمُ إِبْرَاهِيم﴾** كيف نصره الله عليهم وأيده بالمعجزات الظاهرة عليهم وأهلك ملوكهم نمرود بن كعنان بن كوش الكعناني لعنه الله.

﴿وَاصْحَابِ مَدِينَ﴾ وهو قوم شعيب عليه السلام وكيف أصابتهم الرجفة وعداب يوم الزلة، **﴿وَالْمُؤْنَفَكَاتِ﴾** قوم لوط وقد كانوا يسكنون في مداين، وقال في الآية الأخرى **﴿وَالْمُؤْنَفَكَةُ أَهْوَى﴾** [النجم: ٥٣] أي الأمة المؤتكفة وقيل أم قراهم، وهي سدوم، والغرض أن الله تعالى أهلكهم عن آخرهم بتكذبهم نبي الله لوط عليه السلام وإيتائهم الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين، **﴿أَتَتْهُمْ رَسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾** أي بالحجج والدلائل القاطعات، **﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيظْلِمَهُمْ﴾** أي بإهلاكه إياهم لأنَّه أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل وإزاحة العلل، **﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾** أي بتكذبهم الرسل ومخالفتهم الحق فصاروا إلى ما صاروا إليه من العذاب والدمار.

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلَيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيَؤْتُونَ الزَّكُورَةَ وَيُطْبِعُونَ اللَّهَ رَسُولُهُ أَوْلَيَكُمْ سَيِّدُهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

لما ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة عطف بذلك صفات المؤمنين المحمودة، فقال: **﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلَيَاءُ بَعْضٍ﴾** أي يتناصرون ويتعاوضون كما جاء في الصحيح **﴿الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبَنِيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا﴾**^(٣) وشبك بين أصابعه، وفي الصحيح أيضاً **﴿مُثُل﴾**

(١) تفسير الطبرى ٤١٣/٦.

(٢) تفسير الطبرى ٤١٢/٦، ٤١٣.

(٣) أخرجه البخارى في الصلاة باب ٨٨، ومسلم في البر حديث ٦٥.

المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكتى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر^(١) قوله: ﴿يُأْمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيُنْهَا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ أَمْةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيُأْمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيُنْهَا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤] الآية.

وقوله: ﴿وَيَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيَؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أي يطعون الله ويسعدون إلى خلقه ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي فيما أمر وترك ما عنه زجر ﴿أَوْلَئِكَ سَيِّرُهُمُ اللَّهُ﴾ أي سير حم الله من اتصف بهذه الصفات ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي عز من أطاعه فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ﴿حَكِيمٌ﴾ في قسمته هذه الصفات لهؤلاء وتخصيصه المنافقين بصفاتهم المتقدمة، فإنه له الحكمة في جميع ما يفعله تبارك وتعالى.

وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَكِنَ طَيْبَةً فِي
جَنَّتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٍ مِنْ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ^(٢)

يخبر تعالى بما أعده للمؤمنين به والمؤمنات من الخيرات والنعيم المقيم في «جنات» تجري من تحتها الأنهر خالدين فيها^(٣) أي ماكثين فيها أبداً ﴿وَمَسَكِنَ طَيْبَةً﴾ أي حسنة البناء طيبة القرار، كما جاء في الصحيحين من حديث أبي عمران الجوني عن أبي بكر بن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «جنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آتيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكباراء على وجهه في جنة عدن»^(٤) ويه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن للمؤمن من في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها ستون ميلاً في السماء! للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم لا يرى بعضهم بعضاً»^(٥) آخر جاه في الصحيحين.

وفيهما أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة وصام رمضان، فإن حقاً على الله أن يدخله الجنة هاجر في سبيل الله أو حس في أرضه التي ولد فيها» قالوا: يا رسول الله أفل نخبر الناس؟ قال: «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسأله الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن»^(٦) وعنده الطبراني والترمذى وابن ماجه من روایة زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن معاذ بن جبل

(١) أخرجه البخاري في الأدب باب ٢٧، ومسلم في البر حديث ٦٦.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٥٥، باب ١، ٢، ومسلم في الإيمان حديث ٢٩٦.

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٥٥، باب ٢، ومسلم في الجنة حديث ٢٣.

(٤) أخرجه البخاري في التوحيد باب ٢٢، والترمذى في الجنة باب ٤، والنمسائي في الجهاد باب ١٨، وأحمد في المستند ٣٣٥/٢، ٣٣٩.

رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول فذكر مثله .

وللترمذني عن عبادة بن الصامت مثله. وعن أبي حازم عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة ليتزاوون الغرف في الجنة كما ترون الكوكب في السماء»^(١) آخر جاه في الصحيحين، ثم ليعلم أن أعلى منزلة في الجنة مكان يقال له الوسيلة لقربه من العرش وهو مسكن رسول الله ﷺ من الجنة، كما قال الإمام أحمد^(٢): حدثنا عبد الرزاق أخبرنا سفيان عن ليث عن كعب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا صليتم على فسلوا الله لي الوسيلة» قيل يا رسول الله وما الوسيلة؟ قال «أعلى درجة في الجنة لا ينالها إلا رجل واحد وأرجو أن أكون أنا هو».

وفي صحيح مسلم من حديث كعب بن علقة: عن عبد الرحمن بن جبير عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا على فإنه من صلى على صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشرًا»، ثم سلوا لي الوسيلة فإنها متزلة في الجنة لا تبغي إلا لعبد من عباد الله. وأرجو أن أكون هو، فمن سأله لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة يوم القيمة»^(٣) وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أحمد بن علي الأبار، حدثنا الوليد بن عبد الملك الحراني، حدثنا موسى بن أعين عن ابن أبي ذئب عن محمد بن عمرو بن عطاء عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: سلوا الله لي الوسيلة فإنه لم يسألها لي عبد في الدنيا إلا كنت له شهيداً أو شفيعاً يوم القيمة» رواه الطبراني. وفي مسنده الإمام أحمد^(٤) من حديث سعد بن مجاهد الطائي عن أبي المدد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله حدثنا عن الجنة ما بناؤها؟ قال: «لبنة ذهب ولبنة فضة، وملاطها المسك وحصاً وها اللؤلؤ والياقوت، وتراها الزعفران. من يدخلها ينعم لا يأس ويخلد لا يموت، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه» وروي عن ابن عمر مرفوعاً نحوه، وعند الترمذى من حديث عبد الرحمن بن إسحاق عن النعمان بن سعد عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لغرفاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها» فقام أعرابي فقال: يا رسول الله لمن هي؟ فقال: «المن طيب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نiam»^(٥) ثم قال: حديث غريب رواه الطبراني من حديث عبد الله بن عمرو وأبي مالك الأشعري كل منهما عن النبي ﷺ بنيحوه، وكل من الإسنادين جيد وحسن، وعنه أن

(١) أخرجه الترمذى في الجنة باب ١٩.

المسند ٢ / ٢٦٥ (٢)

(٣) آخر جه مسلم في الصلاة حديث ١١.

(٤) المسند ٣٠٤، ٣٠٥ / ٢

(٥) آخر جه الترمذى فى الجنة ياب ٣

السائل هو أبو مالك الأشعري ، فالله أعلم .

و عن أسامة بن زيد قال : قال رسول الله ﷺ : «ألا هل من مشمر إلى الجنة ؟ فإن الجنة لا خطر لها ، هي و رب الكعبة نور يتلألأ و زريحانة تهتز ، و قصر مشيد ، و نهر مطرد ، و ثمرة نضيجه ، وزوجة حسناء جميلة . و حلل كثيرة ، و مقام في أبد في دار سليمة ، و فاكهة و خضراء و حبرة و نعمة في محلة عالية بهية» قالوا : نعم يا رسول الله نحن المشمرون لها ، قال : «قولوا إن شاء الله» فقال القوم : إن شاء الله ، رواه ابن ماجه^(١) .

وقوله تعالى : «ورضوان من الله أكبر» أي رضا الله عنهم أكبر وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم ، كما قال الإمام مالك رحمه الله عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة فيقولون : ليك ربنا وسعدتك والخير في يديك . فيقول : هل رضيتكم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ، فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون يا رب وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أستخط عليكم بعده أبداً»^(٢) أخرجه من حديث مالك .

وقال أبو عبد الله الحسين بن إسماعيل المحمالي : حدثنا الفضل الرجائي ، حدثنا الغريابي عن سفيان عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا دخل أهل الجنة قال الله عز وجل هل تستهون شيئاً فأزيدكم ؟ قالوا يا ربنا ما خير مما أعطيتنا ؟ قال : رضوانى أكبر» ورواه البزار في مسنده من حديث الثوري ، وقال الحافظ الضياء المقدسي في كتابه صفة الجنة : هذا عندي على شرط الصحيح ، والله أعلم .

يَأَيُّهَا النَّاسُ جِهْدُ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَعْلَمُتُ عَنْهُمْ وَمَا وَهُمْ جَهَنَّمُ وَبَئْسَ الْمَصِيرُ^(٣)
يَخْلِفُونَكَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمُوا بِمَا لَمْ يَنْتَلِوْا وَمَا نَقْمُوْا
إِلَّا أَنْ أَغْنَنَهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوْبُوا إِلَيْكُمْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَوْلُوا عَذَابَهُمْ اللَّهُ عَدَّاً أَلِيمًا فِي
الْدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ^(٤)

أمر تعالى رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين والغسلة عليهم ، كما أمره بأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين ، وأخبره أن مصير الكفار والمنافقين إلى النار في الدار الآخرة ، وقد تقدم عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه قال : بعث رسول الله ﷺ بأربعة أسياف : سيف للمشركين «فإذا انسلح الأشهر الحرم فاقتلو المشركين» [التوبه : ٥] و سيف لكافار أهل الكتاب «قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين

(١) كتاب الزهد بباب ٣٩.

(٢) أخرجه البخاري في الرفاق بباب ٥١ ، ومسلم في الإيمان حديث ٣٠٢ ، والجنة حديث ٩.

الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴿﴾ [التوبه: ٢٩] وسيف للمنافقين ﴿جاهد الكفار والمنافقين﴾ وسيف للبغاء ﴿فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله﴾ [الحجارات: ٩] وهذا يقتضي أنهم يجاهدون بالسيوف إذا أظهروا التناق وهو اختيار ابن جرير^(١).

وقال ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿جاهد الكفار والمنافقين﴾ قال: بيده فإن لم يستطع فليكفره في وجهه^(٢). وقال ابن عباس: أمره الله تعالى بجهاد الكفار بالسيف والمنافقين باللسان وأذهب الرفق عنهم^(٣)، وقال الضحاك: جاهد الكفار بالسيف واغلظ على المنافقين بالكلام وهو مجاهدتهم^(٤)، وعن مقاتل والريع مثله، وقال المحسن وقتادة مجاهدتهم إقامة الحدود عليهم، وقد يقال إنه لا منافاة بين هذه الأقوال لأنه تارة يؤاخذهم بهذا وتارة بهذا بحسب الأحوال، والله أعلم.

وقوله: ﴿يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم﴾ قال قتادة: نزلت في عبد الله بن أبي وذلك أنه اقتل رجلان جهني وأنصاراً فعلاً الجهني على الأنصار، فقال عبد الله للأنصار ألا تنصروا أخاكم؟ والله ما مثنا ومثل محمد إلا كما قال القائل: سمن كلبك يأكلك، وقال لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنا الأعز منها الأذل، فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبي ﷺ فأرسل إليه فسأله فجعل يحلف بالله ما قاله، فأنزل الله فيه هذه الآية^(٥).

وروى إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة عن عمّه موسى بن عقبة قال: فحدثني عبد الله بن الفضل أنه سمع أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: حزنت على من أصيب بالحرة من قومي فكتب إلى زيد بن أرقم وبلغه شدة حزني يذكر أنه سمع رسول الله يقول: «اللهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار» وشك ابن الفضل في أبناء أبناء الأنصار قال ابن الفضل: فسأل أنس بعض من كان عنده عن زيد بن أرقم فقال: هو الذي يقول له رسول الله ﷺ: «أوفي الله له بإذنه» قال: وذلك حين سمع رجلاً من المنافقين يقول ورسول الله ﷺ يخطب: لشن كان صادقاً فنحن شر من الحمير، فقال زيد بن أرقم: فهو والله صادق ولأنت شر من الحمار. ثم رفع ذلك إلى رسول الله ﷺ فجحده القائل فأنزل الله هذه الآية تصديقاً لزيد، يعني قوله: ﴿يحلفون بالله

(١) تفسير الطبرى ٤١٩/٦.

(٢) تفسير الطبرى ٤١٩/٦.

(٣) تفسير الطبرى ٤٢٠/٦.

(٤) تفسير الطبرى ٤٢٠/٦.

(٥) تفسير الطبرى ٤٢٢/٦.

ما قالوا^(١) الآية، رواه البخاري^(٢) في صحيحه عن إسماعيل بن أبي أويس عن إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة - إلى قوله - هذا الذي أوفى الله له بإذنه، ولعل ما بعده من قول موسى بن عقبة، وقد رواه محمد بن فليح عن موسى بن عقبة بإسناده: ثم قال ابن شهاب فذكر ما بعده عن موسى عن ابن شهاب.

والمشهور في هذه القصة أنه كانت في غزوة بني المصطلق فعلل الراوي وهم في ذكر الآية، وأراد أن يذكر غيرها فذكرها، والله أعلم. قال الأموي في مغازييه: حدثنا محمد بن إسحاق عن الزهري عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه عن جده قال: لما قدم رسول الله ﷺ أخذني قومي فقالوا: إنك أمرؤ شاعر فإن شئت أن تعذر إلى رسول الله ﷺ بعض العلة ثم يكون ذنباً تستغفر الله منه، وذكر الحديث بطوله إلى أن قال: وكان منمن تخلف من المنافقين ونزل فيه القرآن منهم من كان مع النبي ﷺ الجلاس بن سويد بن الصامت، وكان على أم عمير بن سعد، وكان عمير في حجره، فلما نزل القرآن وذكرهم الله بما ذكر مما أنزل في المنافقين قال الجلاس: والله لئن كان هذا الرجل صادقاً فيما يقول لنحن شر من الحمير؟ فسمعها عمير بن سعد فقال: والله يا جلاس إنك لأحب الناس إليّ وأحسنهم بلاء عندي وأعزهم عليّ أن يصله شيء يكرهه، ولقد قلت مقالة لئن ذكرتها لتفضحنك ولئن كتمتها لتهلكني، والإدحاماً أهون عليّ من الأخرى، فمشى إلى رسول الله ﷺ فذكر له ما قال الجلاس، فلما بلغ ذلك الجلاس خرج حتى أتى النبي ﷺ فحلف بالله ما قال ما قال عمير بن سعد ولقد كذب عليّ، فأنزل الله عز وجل فيه **﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا لَمْ يَأْتُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةُ الْكُفَّارِ وَكَفَرُوا بَعْدِ إِسْلَامِهِمْ﴾** إلى آخر الآية، فوقفه رسول الله ﷺ عليها فزعهموا أن الجلاس تاب فحسنت توبته ونزع فاحسن التزوع.

هكذا جاء هذا مدرجاً^(٣) في الحديث متصلاً به وكأنه والله أعلم من كلام ابن إسحاق نفسه لا من كلام كعب بن مالك.

وقال عروة بن الزبير: نزلت هذه الآية في الجلاس بن سويد بن الصامت، أقبل هو وابن أمرأته مصعب من قباء، فقال الجلاس: إن كان ما جاء به محمد حقاً فنحن أشر من حمرنا هذه التي نحن عليها، فقال مصعب: أما والله يا عدو الله لأخرين رسول الله ﷺ بما قلت فأتيت النبي ﷺ وخفت أن ينزل في القرآن أو تصيبني قارعة أو أن أخلط بخطيئته، فقلت: يا رسول الله أقبلت أنا والجلاس من قباء فقال كذا وكذا ولو لا مخافة أن أخلط بخطيئة أو تصيبني قارعة ما أخبرتك، قال: فدعوا الجلاس فقال «يا جلاس أقلت الذي قاله مصعب؟»

(١) كتاب التفسير، تفسير سورة ٦٣، باب ٦.

(٢) المدرج: هو أن يذكر الراوي عقيبه حديث رسول الله ﷺ كلاماً لنفسه أو لغيره. فيرويه من بعده متصلة بالحديث من غير فصل. فيتوهم أنه من الحديث.

فحلف فأنزل الله ﷺ يحلفون بالله ما قالوا ﴿ الآية ^(١) .

وقال محمد بن إسحاق: كان الذي قال تلك المقالة فيما بلغني الجلاس بن سويد بن الصامت فرفعها عليه رجل كان في حجره يقال له عمير بن سعد فأنكرها فحلف بالله ما قالها، فلما نزل فيه القرآن تاب ونزع وحسن توبته فيما بلغني ^(٢) ، وقال الإمام أبو جعفر بن جرير ^(٣): حدثني أبوبن إسحاق بن إبراهيم، حدثنا عبد الله بن رجاء، حدثنا إسرائيل عن سماك عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ جالساً في ظل شجرة فقال: «إنه سيأتيكم إنسان فينظر إليكم - بعيوني الشيطان - فإذا جاء فلا تكلموه» فلم يلبثوا أن طلع رجال أزرق فدعاهم رسول الله ﷺ فقال: «علام تشتموني أنت وأصحابك؟» فانطلق الرجل فجاءه بأصحابه فحلفو بالله ما قالوا حتى تجاوز عنهم، فأنزل الله عز وجل ﷺ يحلفون بالله ما قالوا ﴿ الآية ^(٤) .

وقوله ﴿وَهُمْ وَمَا لَمْ يَنْلَوْا﴾ قيل أنزلت في الجلاس بن سويد وذلك أنه هم بقتل ابن امرأته حين قال لأخرين رسول الله ﷺ، وقيل في عبد الله بن أبي، هم بقتل رسول الله ﷺ، وقال السدي: نزلت في أناس أرادوا أن يتوجوا عبد الله بن أبي وإن لم يرض رسول الله ﷺ وقد ورد أن نفراً من المنافقين هموا بالفتک بالنبي ﷺ وهو في غزوة تبوك، في بعض تلك الليلات في حال السير، وكانوا بضعة عشر رجلاً، قال الضحاك: فيهن نزلت هذه الآية.

وذلك بين فيما رواه الحافظ أبو بكر البهقي في كتاب دلائل النبوة من حديث محمد بن إسحاق عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي البختري عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: كنت آخذًا بخطام ناقة رسول الله ﷺ أقود به وعمار يسوق الناقة أو أنا أسوقه وعمار يقوده حتى إذا كنا بالعقبة فإذا أنا بائني عشر راكباً قد اعترضوه فيها، قال فأنبأه رسول الله ﷺ بهم، فصرخ بهم فولوا مدبرين فقال لنا رسول الله ﷺ: «هل عرفتم القوم؟» قلنا: لا يا رسول الله قد كانوا متلثمين ولكننا قد عرفنا الركاب قال: «هؤلاء المنافقون إلى يوم القيمة وهل تدرؤن ما أرادوا؟» قلنا: لا، قال: «أرادوا أن يزاحموا رسول الله ﷺ في العقبة فيلقوه منها» قلنا: يا رسول الله أفلأ تبعث إلى عشائرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس أصحابهم؟ قال: «لا، أكره أن تتحدث العرب بينها أن محمداً قاتل بقوم حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم - ثم قال - اللهم ارمهم بالدبابة» قلنا: يا رسول الله وما الدبابة؟ قال: «شهاب من نار يقع على نيات قلب أحدهم فيهلك».

وقال الإمام أحمد ^(٤) رحمه الله: حدثنا يزيد أخبرنا الوليد بن عبد الله بن جمیع عن أبي

(١) انظر تفسير الطبرى / ٦ ٤٢١.

(٢) تفسير الطبرى / ٦ ٤٢١.

(٣) تفسير الطبرى / ٦ ٤٢٢.

(٤) المسند / ٥ ٤٥٣، ٤٥٤.

الطفيل قال: لما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أمر منادياً فتaldi: إن رسول الله ﷺ أخذ العقبة فلا يأخذها أحد بينما رأى رسول الله ﷺ يقوله حذيفة عمار إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل فغشوا عماراً وهو يسوق برسول الله ﷺ فأقبل عمار رضي الله عنه يضرب وجوه الرواحل فقال رسول الله ﷺ لـ حذيفة «قد قد» حتى هبط رسول الله ﷺ فلما هبط نزل ورجع عمار فقال يا عمار: «هل عرفت القوم؟» قال: لقد عرفت عامة الرواحل والقوم متلثمون قال «هل تدري ما أرادوا؟» قال: الله ورسوله أعلم قال: «أرادوا أن ينفروا برسول الله ﷺ» - راحلته فيطروحه» قال: فسأل عمار رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ فقال نشتك بالله كم تعلم كان أصحاب العقبة؟ قال: أربعة عشر رجلاً فقال: إن كنت منهم فقد كانوا خمسة عشر قال فعد رسول الله ﷺ منهم ثلاثة قالوا: والله ما سمعنا منادي رسول الله ﷺ وما علمنا ما أراد القوم فقال عمار أشهد: أن الثانية عشر الباقين حرب الله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

وهيذا روى ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة بن الزبير نحو هذا، وأن رسول الله ﷺ أمر أن يمشي الناس في بطن الوادي وصعد هو وحذيفة وعمار العقبة، فتبعهم هؤلاء التفر الأرذلون وهم متلثمون فأرادوا سلوك العقبة، فأطلع الله على مرادهم رسول الله ﷺ فأمر حذيفة فرجع إليهم فضرب وجوه رواحلهم ففزعوا ورجعوا مقيحبين، وأعلم رسول الله ﷺ حذيفة وعماراً بأسمائهم وما كانوا همبا به من الفتك به صلوات الله وسلامه عليه وأمرهما أن يكتما عليهم، وكذا روى يونس بن بكير عن ابن إسحاق، إلا أنه سمي جماعة منهم، فالله أعلم.

وكذا قد حكى في معجم الطبراني قاله البيهقي، ويشهد لهذه القصة بالصحة ما رواه مسلم^(١): حدثنا زهير بن حرب حدثنا أبو أحمد الكوفي، حدثنا الوليد بن جميع، حدثنا أبو الطفيلي قال: كان بين رجل من أهل العقبة وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس، فقال: أنشدك بالله كم كان أصحاب العقبة؟ قال: فقال له القوم: أخبره إذ سألك؟ فقال: كنا نخبر أربعة عشر وإن كنت منهم فقد كان القوم خمسة عشر، وأشهد بالله أن الثاني عشر منهم حرب الله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وعذر ثلاثة قالوا: ما سمعنا منادي رسول الله ﷺ ولا علمنا بما أراد القوم؟ وقد كان في حرفة يمشي فقال: إن الماء قليل فلا يسبقني إليه أحد، فوجد قرماً قد سبقوه فلعنهم يومئذ.

وما رواه مسلم^(٢) أيضاً من حديث قتادة عن أبي نضرة عن قيس بن عباد عن عمار بن ياسر قال: أخبرني حذيفة عن النبي ﷺ أنه قال: «في أصحابي اثنا عشر منافقاً لا يدخلون الجنة ولا يجدون ريحها حتى يلتج الجمل في سم الخياط: ثمانية منهم تكفيتهم الدبيلة سراج من نار

(١) كتاب صفات المنافقين حديث ١١ .

(٢) كتاب صفات المنافقين حديث ٩ ، ١٠ .

ظهور بين أكتافهم حتى ينجم في صدورهم» ولهذا كان حذيفة يقال له صاحب السر الذي لا يعلمه غيره أي من تعين جماعة من المنافقين وهم هؤلاء قد أطلعه عليهم رسول الله ﷺ دون غيره، والله أعلم.

وقد ترجم الطبراني في مسند حذيفة تسمية أصحاب العقبة، ثم روي عن علي بن عبد العزير عن الزبير بن بكار أنه قال: هم معتب بن قشيرة ووديعة بن ثابت وجند بن عبد الله بن نبتل بن الحارث من بني عمرو بن عوف والحارث بن يزيد الطائي وأوس بن قيظي والحارث بن سويد وسعد بن زرار وقيس بن فهد وسويد بن داعس من بني الجبلي وقيس بن عمرو بن سهل وزيد بن اللصيت وسلامة بن الحمام وهو ما من بني قينقاع أظهرها الإسلام.

وقوله تعالى: «وَمَا نَقْمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ» أي وما للرسول عندهم ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته ويعين سعادته، ولو تمت عليه السعادة لهذاهم الله لما جاء به كما قال ﷺ للأنصار: «أَلمْ أَجِدْكُمْ ضَلَالًا فَهَدَاكُمُ اللَّهُ بِي وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَفْلَغْكُمُ اللَّهُ بِي، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ بِي» كلما قال شيئاً قالوا الله ورسوله أمنٌ^(١). وهذه الصيغة تقال حيث لا ذنب، كقوله: «وَمَا نَقْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يَؤْمِنُوا بِاللَّهِ» [البروج: ٨] الآية. وقوله عليه السلام «ما ينتقم ابن جميل إلا أن كان فقيراً فأغناه الله»^(٢) ثم دعاهم الله تبارك وتعالى إلى التوبة فقال: «فإِنْ يَتُوبُوا إِلَيْكُمْ لَهُمْ وَإِنْ يَتُولُوا يَعذِّبُهُمُ اللَّهُ عذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ» أي وإن يستمرروا على طريقهم يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا أي بالقتل والهم والغم، والآخرة أي بالعذاب والنكال والهوان والصغراء «وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ» أي وليس لهم أحد يسعدهم ولا ينجدهم لا يحصل لهم خيراً ولا يدفع عنهم شراً.

* وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَيْتَ مَا تَنْهَا مِنْ فَضْلِهِ لَتَصْدِقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ١٧٣ فَلَمَّا آتَيْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخْلَوْا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعَرِّضُونَ ١٧٤ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ١٧٥ أَرَأَيْمُؤْمِنًا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجَوْنَهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَمَ الْغُيُوبَ ١٧٦

يقول تعالى ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناه من فضله ليصدقون من ماله ول يكن من الصالحين، فما وفى بما قال ولا صدق فيما ادعى، فأعقبهم هذا الصنيع نفأاً سكن في قلوبهم إلى يوم يلقون الله عز وجل يوم القيمة عياذاً بالله من ذلك، وقد ذكر كثير من المفسرين منهم ابن عباس والحسن البصري أن سبب نزول هذه الآية الكريمة في ثعلبة بن حاطب الأنصاري.

(١) تقدم الحديث مع تخریج في تفسیر الآية ٦٣ من سورة الأنفال.

(٢) آخر جه البخاري في الزكاة باب ٤٩، ومسلم في الزكاة حديث ١١.

وقد ورد فيه حديث رواه ابن جرير^(١) هنا، وابن أبي حاتم من حديث معان بن رفاعة عن علي بن يزيد عن أبي عبد الرحمن القاسم بن عبد الرحمن مولى عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية عن أبي أمامة الباهلي عن ثعلبة بن حاطب الأننصاري، أنه قال لرسول الله ﷺ: ادع الله أن يرزقني مالاً، قال: فقال رسول الله ﷺ: «ويحك يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه» قال: ثم قال مرة أخرى فقال: «أما ترضى أن تكون مثل نبي الله - فو الذي نفسي بيده لو شئت أن تسير الجبال معي ذهباً وفضةً لسارت» قال: والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقني مالاً لأعطيك كل ذي حق حقه.

فقال رسول الله ﷺ: «اللهم ارزق ثعلبة مالاً» قال فاتخذ غنماً فنمـت كما ينمو الدود فضاقت عليه المدينة فتنحـى عنها فنزل وادياً من أوديتها حتى جعل يصلـي الظهر والعصر في جماعة ويترك ما سواهـما، ثم نـمت وكـثرـت فـتنـحـى حتى تركـ الصلـوات إـلاـ الجمعةـ، وهي تـنمـيـ كـماـ يـنمـوـ الدـودـ حتىـ تركـ الجمعةـ، فـطـفـقـ يـتـلـقـيـ الرـكـبـانـ يـوـمـ الـجـمـعـةـ لـيـسـأـلـهـ عـنـ الـأـخـبـارـ فـقـالـ رسولـ اللهـ ﷺ: «ـمـاـ فـعـلـ ثـعـلـبـةـ؟ـ» فـقـالـواـ: يـاـ رـسـوـلـ اللهـ اـتـخـذـ غـنـماـ فـضـاقـتـ عـلـيـهـ المـدـيـنـةـ، فـأـخـبـرـوـهـ بـأـمـرـهـ، فـقـالـ: «ـيـاـ وـيـحـ ثـعـلـبـةـ يـاـ وـيـحـ ثـعـلـبـةـ».

وأنزل الله جل ثناؤه **﴿خـذـ مـنـ أـمـوـلـهـ صـدـقـةـ﴾** [التوبـةـ: ١٠٢] الآيةـ، ونزلـتـ فـرـائـضـ الصـدـقةـ فـبـعـثـ رسـوـلـ اللهـ ﷺـ رـجـلـيـنـ عـلـىـ الصـدـقـةـ مـنـ الـمـسـلـمـيـنـ رـجـلـاـ مـنـ جـهـيـنـةـ وـرـجـلـاـ مـنـ سـلـيمـ وـكـتبـ لـهـمـاـ كـيـفـ يـأـخـدـانـ الصـدـقـةـ مـنـ الـمـسـلـمـيـنـ، وـقـالـ لـهـمـاـ: «ـمـرـاـ بـثـعـلـبـةـ وـبـفـلـانـ - رـجـلـ مـنـ بـنـيـ سـلـيمـ - فـخـذـاـ صـدـقـاتـهـماـ» فـخـرـجـاـ حتـىـ أـتـيـاـ ثـعـلـبـةـ فـسـأـلـهـ الصـدـقـةـ وـأـقـرـأـهـ كـتـابـ رسولـ اللهـ ﷺـ، فـقـالـ: مـاـ هـذـ إـلـ جـزـيـةـ مـاـ هـذـ إـلـ أـخـتـ الـجـزـيـةـ مـاـ أـدـرـيـ مـاـ هـذـاـ؟ـ اـنـطـلـقـاـ حتـىـ تـفـرـغـاـ ثـمـ عـوـدـاـ إـلـيـ فـانـطـلـقـاـ وـسـمـعـ بـهـمـاـ السـلـمـيـ فـنـظـرـ إـلـيـ خـيـارـ أـسـنـانـ إـلـيـهـ فـعـزـلـهـاـ لـلـصـدـقـةـ ثـمـ اـسـتـقـبـلـهـمـاـ بـهـمـاـ، فـلـمـ رـأـوـهـاـ قـالـواـ مـاـ يـجـبـ عـلـيـكـ هـذـاـ وـمـاـ نـرـيدـ أـنـ تـأـخـذـ هـذـاـ مـنـكـ، فـقـالـ: بـلـيـ فـخـذـوـهـاـ إـنـ نـفـسـيـ بـذـلـكـ طـيـةـ وـإـنـمـاـ هـيـ لـهـ، فـأـخـذـاـهـاـ مـنـهـ وـمـرـاـ عـلـىـ النـاسـ فـأـخـذـاـ الصـدـقـاتـ ثـمـ رـجـعـاـ إـلـيـ ثـعـلـبـةـ فـقـالـ: أـرـوـنيـ كـتـابـكـمـاـ فـقـرـأـهـ فـقـالـ مـاـ هـذـ إـلـ جـزـيـةـ مـاـ هـذـ إـلـ أـخـتـ الـجـزـيـةـ اـنـطـلـقـاـ حتـىـ أـرـىـ رـأـيـ، فـانـطـلـقـاـ حتـىـ أـتـيـاـ النـبـيـ ﷺـ فـلـمـ رـأـهـماـ قـالـ: «ـيـاـ وـيـحـ ثـعـلـبـةـ» قـبـلـ أـنـ يـكـلـمـهـمـاـ وـدـعـاـ لـلـسـلـمـيـ بـالـبـرـكـةـ فـأـخـبـرـهـ بـالـذـيـ صـنـعـ ثـعـلـبـةـ وـالـذـيـ صـنـعـ السـلـمـيـ، فـأـنـزـلـ اللهـ عـزـ وـجـلـ **﴿وـمـنـهـ مـنـ عـاهـدـ اللهـ لـئـنـ آتـانـاـ مـنـ فـضـلـهـ لـنـصـدـقـنـ﴾** [التوبـةـ: ٧٥] الآيةـ.

قال وعند رسول الله ﷺـ رـجـلـ مـنـ أـقـارـبـ ثـعـلـبـةـ فـسـمـعـ ذـلـكـ فـخـرـجـ حتـىـ أـتـاهـ فـقـالـ: «ـوـيـحـكـ ياـ ثـعـلـبـةـ قدـ أـنـزـلـ اللهـ فـيـكـ كـذـاـ وـكـذـاـ، فـخـرـجـ ثـعـلـبـةـ حتـىـ أـتـيـ النـبـيـ ﷺـ فـسـأـلـهـ أـنـ يـقـبـلـ مـنـهـ صـدـقـتـهـ، فـقـالـ: «ـوـيـحـكـ إـنـ اللهـ مـنـعـنـيـ أـنـ أـقـبـلـ مـنـكـ صـدـقـتـكـ» فـجـعـلـ يـحـثـوـ عـلـىـ رـأـسـهـ التـرـابـ، فـقـالـ لـهـ

رسول الله ﷺ «هذا عملك قد أمرتك فلم تطعني» فلما أبى رسول الله ﷺ أن يقبل صدقته رجع إلى منزله، فقبض رسول الله ﷺ ولم يقبل منه شيئاً، ثم أتى أبو بكر رضي الله عنه حين استختلف فقال قد علمت منزلتي من رسول الله ﷺ وموضعي من الأنصار فاقبل صدقتي، فقال أبو بكر لم يقبلها منك رسول الله ﷺ وأبى أن يقبلها، فقبض أبو بكر ولم يقبلها.

فلما ولِيَ عمر رضي الله عنه أَتَاهُ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ اقْبِلْ صِدْقَتِي فَقَالَ: لَمْ يَقْبِلْهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَلَا أَبُو بَكْرٍ وَأَنَا أَقْبِلْهَا مِنْكَ؟ فَقَبَضَ وَلَمْ يَقْبِلْهَا، فَلَمَّا ولِيَ عُثْمَانَ رضي الله عنه أَتَاهُ فَقَالَ: اقْبِلْ صِدْقَتِي فَقَالَ لَمْ يَقْبِلْهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَلَا أَبُو بَكْرٍ وَلَا عَمِرٌ وَأَنَا أَقْبِلْهَا مِنْكَ؟ فَلَمْ يَقْبِلْهَا مِنْهُ فَهَلَكَ ثُلْبَةُ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ.

وقوله تعالى: **﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ الآية**، أي أعقهم النفاق في قلوبهم بسبب إخلافهم الوعد وكذبهم كما في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال **﴿إِذَا الْمُنَافِقُونَ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَثَ كَذْبٌ وَإِذَا وَعَدُ أَخْلَفَ وَإِذَا أُوتَمَنَ خَان﴾**^(١) وله شواهد كثيرة، والله أعلم.

وقوله: **﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سَرَهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ الآية**، يخبر تعالى أنه يعلم السر وأخفى، وأنه أعلم بضمائرهم وإن أظهروا أنه إن حصل لهم أموال تصدقوا منها وشكروا عليهما فإن الله أعلم بهم من أنفسهم، لأنَّه تعالى علام الغيوب أي يعلم كلَّ غيب وشهادة وكل سر ونجوى ويعلم ما ظهر وما بطن.

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَوَّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَحِدُّونَ إِلَّا جَهَدُهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخْرَيْ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

وهذا أيضاً من صفات المنافقين لا يسلم أحد من عبيهم ولمزهم في جميع الأحوال حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم، إن جاء أحد منهم بما لجهة صدقة قالوا هذا مراء، وإن جاء بشيء يسير قالوا: إن الله لغنى عن صدقة هذا، كما روى البخاري حدثنا عبيد الله بن سعيد، حدثنا أبو النعمان البصري، حدثنا شعبة عن سليمان عن أبي وائل عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل على ظهورنا، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير فقالوا: مراتي، وجاء رجل فتصدق بصاع: فقالوا إن الله لغنى عن صدقة هذا. فنزلت **﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَوَّعِينَ﴾**^(٢) الآية. وقد رواه مسلم أيضاً في صحيحه من حديث شعبة به.

وقال الإمام أحمد^(٣): حدثنا يزيد حدثنا الجرجيري عن أبي السليل قال: وقف علينا رجل

(١) آخرجه البخاري في الشهادات باب ٢٨، ومسلم في الإيمان حديث ١٠٧، ١٠٩.

(٢) آخرجه بلفظ **«كنا نحامل»**، البخاري في الزكاة باب ١٠، ومسلم في الزكاة حديث ٧٤، وأخرجه بلفظ **«كنا نتحامل»** البخاري في تفسير سورة ٩، باب ١١.

(٣) المسند ٣٤ / ٥.

في مجلسنا بالبقيع فقال: حدثني أبي أو عمي أنه رأى رسول الله ﷺ بالبقيع وهو يقول: «من يتصدق بصدقه أشهد له بها يوم القيمة» قال: فحللت من عمامتي لوثاً أو لوثير و أنا أريد أن أتصدق بهما، فأدركني ما يدرك ابن آدم فعقدت على عمامتي، فجاء رجل لم أر بالبقيع رجلاً أشد منه سواداً ولا أصغر منه ولا آدم، بغير ساقه لم أر بالبقيع ناقة أحسن منها فقال: يا رسول الله أصدقة؟ قال: «نعم» قال: دونك هذه الناقة، قال فلمزه رجل فقال: هذا يتصدق بهذه فو الله لهي خير منه. قال: فسمعها رسول الله ﷺ فقال «كذبت بل هو خير منك ومنها» ثلث مرات، ثم قال: «ويل لأصحاب المئين من الإبل» ثلاثاً قالوا إلا من يا رسول الله؟ قال: «إلا من قال بالمال هكذا وهكذا» وجمع بين كفيه عن يمينه وعن شماليه ثم قال: «قد أفلح المزهد المجهد» ثلاثاً. المزهد في العيش، المجهد في العبادة.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية قال: جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب إلى رسول الله ﷺ وجاءه رجل من الأنصار بصاع من طعام، فقال بعض المنافقين: والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء به إلا رباء، وقالوا: إن الله ورسوله لغنيان عن هذا الصاع^(١).

وقال العوفي عن ابن عباس: إن رسول الله خرج إلى الناس يوماً فنادى فيهم أن اجتمعوا صدقاتكم، فجمع الناس صدقاتهم، ثم جاء رجل من آخرهم بصاع من تمر، فقال: يا رسول الله هذا صاع من تمر بت ليتني أجر بالجرير الماء حتى نلت صاعين من تمر فأمسكت أحدهما وأتيتك بالأخر، فأمره رسول الله ﷺ أن يتشره في الصدقات، فسخر منه رجال وقالوا: إن الله ورسوله لغنيان عن هذا وما يصنعون بصاعك من شيء، ثم إن عبد الرحمن بن عوف قال لرسول الله ﷺ: هل بقي أحد من أهل الصدقات؟ فقال رسول الله ﷺ: «لم يبق أحد غيرك» فقال له عبد الرحمن بن عوف فإن عندي مائة أوقية من ذهب في الصدقات، فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمجون أنت؟ قال ليس بي جنون، قال أفعلت ما فعلت؟ قال: نعم مالي ثمانية آلاف أما أربعة آلاف فأقرضها ربى وأما أربعة آلاف فلي، فقال له رسول الله ﷺ «بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت» ولمزه المنافقون فقالوا والله ما أعطى عبد الرحمن عطيته إلا رباء وهم كاذبون إنما كان به متظوعاً، فأنزل الله عز وجل عذرها وعدر صاحبه المسكين الذي جاء بالصاع من التمر فقال تعالى في كتابه: «الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات»^(٢) الآية.

وهكذا روي عن مجاهد وغير واحد وقال ابن إسحاق: كان من المطوعين من المؤمنين في

(١) انظر تفسير الطبرى ٤٣٠ / ٦.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٤٣٠ / ٦.

الصدقات عبد الرحمن بن عوف تصدق بأربعة آلاف درهم وعاصم بن عدي أخو بني العجلان، وذلك أن رسول الله ﷺ رغب في الصدقة وحضر عليها فقام عبد الرحمن بن عوف فتصدق بأربعة آلاف وقام عاصم بن عدي وتصدق بمائة وستة من تمر فلمزوهما وقالوا: ما هذا إلا رباء، وكان الذي تصدق بجهده أبو عقيل أخوبني أنيف الأراضي حليفبني عمرو بن عوف، أتى بصاع من تمر فأفرغه في الصدقة فتضاحكوا به وقالوا: إن الله لغنى عن صاع أبي عقيل^(١).

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا طالوت بن عباد، حدثنا أبو عوانة عن عمر بن أبي سلمة عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تصدقوا فإني أريد أن أبعث بعثاً» قال فجاء عبد الرحمن بن عوف فقال يا رسول الله: عندي أربعة آلاف، ألفين أفرضهما ربي وألفين لعيالي، فقال رسول الله ﷺ: «بارك الله لك فيما أعطيت وبارك لك فيما أمسكت»، وبات رجل من الأنصار فأصاب صاعين من تمر فقال يا رسول الله: أصبحت صاعين من تمر صاع أفرضه لربى وصاع لعيالي، قال فلمزه المنافقون وقالوا: ما أعطى الذي أعطى ابن عوف إلا رباء، وقالوا: ألم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا؟ فأنزل الله ﷺ (الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم) الآية، ثم رواه عن أبي كامل عن أبي عوانة عن عمر بن أبي سلمة عن أبيه موسلاً، قال ولم يستنده أحد إلا طالوت.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير^(٢): حدثنا ابن وكيع، حدثنا زيد بن الحباب عن موسى بن عبيدة، حدثني خالد بن يسار عن ابن أبي عقيل عن أبيه، قال: بت أجر الجرير على ظهري على صاعين من تمر، فانقلب بأحدهما إلى أهلي يتبلغون به وجيئ بالآخر أقرب إلى رسول الله ﷺ فأتيته فأخبرته، فقال: «إن شر في الصدقة» قال فسخر القوم وقالوا لقد كان الله غنياً عن صدقة هذا المسكين، فأنزل الله ﷺ (الذين يلمزون المطوعين) الآيتين، وكذا رواه الطبراني من حديث زيد بن حباب به، وقال: اسم أبي عقيل حباب ويقال عبد الرحمن بن عبد الله بن ثعلبة.

وقوله: (فيسخرون منهم سخر الله منهم) هذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم واستهزائهم بالمؤمنين، لأن الجزء من جنس العمل فعاملهم معاملة من سخر منهم انتصاراً للمؤمنين في الدنيا، وأعد للمنافقين في الآخرة عذاباً أليماً لأن الجزء من جنس العمل.

أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا سَتَغْفِرُ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَمَّا يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ يَأْتُهُمْ كَفَرُوا
بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ

يخبر تعالى نبيه ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلاً للاستغفار وأنه لو استغفر لهم سبعين

(١) انظر تفسير الطبرى ٤٣١ / ٦.

(٢) تفسير الطبرى ٤٣٢ / ٦.

مرة فلن يغفر الله لهم ، وقد قيل إن السبعين إنما ذكرت حسماً لمادة الاستغفار لهم ، لأن العرب في أساليب كلامها تذكر السبعين في مبالغة كلامها ، ولا تزيد التحديد بها ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها ، وقيل بل لها مفهوم كما روى العوفي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : «لما نزلت هذه الآية أسمع ربي قد رخص لي فيهم فو الله لأستغفرن لهم أكثر من سبعين مرة لعل الله أن يغفر لهم» فقال الله من شدة غضبه عليهم : «سواء عليهم أستغترت لهم أم لم تستغفر لهم» الآية .

وقال الشعبي لما ثقل عبد الله بن أبي انتلقي ابنه إلى النبي ﷺ فقال : إن أبي قد احتضر فأحب أن تشهده وتصلني عليه فقال له النبي ﷺ : «ما اسمك؟» قال : الحباب بن عبد الله قال : «بل أنت عبد الله بن عبد الله إن الحباب اسم شيطان» ، فانتلقي معه حتى شهده وألبسه قميصه وهو عرق وصلى عليه فقيل له : أتصلي عليه وهو منافق؟ فقال : «إن الله قال ﴿إن تستغفر لهم سبعين مرة﴾ ولأستغفرن لهم سبعين وسبعين وسبعين» وكذا روي عن عروة بن الزبير ومجاحد بن جبير وقتادة بن ذعامة ورواه ابن جرير^(١) بأسانيده .

فَرَحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلَفَ رَسُولَ اللَّهِ وَكَهُواً أَنْ يُجْهَدُوا بِأَمْلَاهُمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَاتُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْهَمُونَ ﴿٤﴾ فَلَيَضْحَكُوكُلًا يَلِيلًا وَلَيَبْكُوكُلًا جَزَاءً إِيمَانًا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥﴾

يقول تعالى ذاماً للمنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، وفرحوا بعودهم بعد خروجه **﴿وَكَرِهُوا أَنْ يَجَاهُوا﴾** معه **﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَاتُوا﴾** أي بعضهم لبعض **﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾** وذلك أن الخروج في غزوة تبوك كان في شدة الحر عند طيب الظلال والشمار ، فلهذا قالوا **﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾** قال الله تعالى لرسوله ﷺ : **«قُلْ لَهُمْ ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ الَّتِي تَصِيرُونَ إِلَيْهَا بِمِخَالَفَتِكُمْ ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾** مما فررت منه من الحر بل أشد حرًّا من النار ، كما قال الإمام مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : **«نَارٌ بَنِي آدَمَ الَّتِي تَوَقَّدُونَهَا جَزءٌ مِّنْ سَبْعِينَ جَزءًا مِّنْ نَارِ جَهَنَّمَ»** فقالوا : يا رسول الله إن كانت لكافية؟ فقال : **«فَضَلَّتْ عَلَيْهَا بِتَسْعَةِ وَسِتِينَ جَزْءًا﴾**^(٢) آخر جاه في الصحيحين من حديث مالك به .

وقال الإمام أحمد^(٣) : حدثنا سفيان عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : **«إِن نَارَكُمْ هَذِهِ جَزءٌ مِّنْ سَبْعِينَ جَزْءًا مِّنْ نَارِ جَهَنَّمَ، وَضَرَبَتْ فِي الْبَحْرِ مَرْتَيْنَ وَلَوْلَا ذَلِكَ**

(١) تفسير الطبرى ٤٣٤ / ٦ .

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ١٠ ، ومسلم في الجنة حديث ٣٠ ، ومالك في جهنم حديث ١ .

(٣) المستند ٢ / ٢٤٤ .

ما جعل الله فيها منفعة لأحد» وهذا أيضاً إسناده صحيح، وقد روى الإمام أبو عيسى الترمذى وابن ماجه عن عباس الدورى، وعن يحيى بن أبي بكر عن شريك عن عاصم عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أوقد الله على النار ألف سنة حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابليست، ثم أوقد عليها ألف سنة، حتى اسودت، فهي سوداء كالليل المظلم»^(١) ثم قال الترمذى: لا أعلم أحداً رفعه غير يحيى، كذا قال، وقد رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه، عن إبراهيم بن محمد عن محمد بن الحسين بن مكرم عن عبيد الله بن سعد عن عممه عن شريك وهو ابن عبد الله التخعي به.

وروى أيضاً ابن مردويه، من رواية مبارك بن فضالة عن ثابت بن أنس قال: تلا رسول الله ﷺ **«ناراً وقودها الناس والحجارة»** [التحرىم: ٦] قال: «أوقد عليها ألف عام حتى ابليست، وألف عام حتى احمرت، وألف عام حتى اسودت، فهي سوداء كالليل لا يضيء لهاها، وروى الحافظ أبو القاسم الطبراني من حديث تمام بن نجيح، وقد اختلف فيه عن الحسن عن أنس رفعه «لو أن شرارة بالشرق - أي من نار جهنم - لوجد حرها من بالغرب» وروى الحافظ أبو يعلى، عن إسحاق بن أبي إسرائيل عن أبي عبيدة الحداد عن هشام بن حسان عن محمد بن شبيب عن جعفر بن أبي وحشية عن سعيد بن جبير عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كان في هذا المسجد مائة ألف أو يزيدون وفيهم رجال من أهل النار فتنفس فأصابهم نفسه لاحتراق المسجد ومن فيه» غريب.

وقال الأعمش عن أبي إسحاق عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيمة لمن له نعالن وشراكان من نار جهنم يغلي منها دماغه كما يغلي المرجل، لا يرى أن أحداً من أهل النار أشد عذاباً منه وإنه أهونهم عذاباً»^(٢) أخرجه في الصحيحين من حديث الأعمش، وقال مسلم أيضاً: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا يحيى بن أبي كثیر، حدثنا زهير بن محمد عن سهيل بن أبي صالح عن النعمان بن أبي عياش عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إن أدنى أهل النار عذاباً يوم القيمة يتعلن بتعلين من نار يغلي دماغه من حرارة عليه»^(٣)، وقال الإمام أحمد^(٤): حدثنا يحيى عن ابن عجلان، سمعت أبي هريرة عن النبي ﷺ قال «إن أدنى أهل النار عذاباً رجل يجعل له نعالن يغلي منها دماغه» وهذا إسناد جيد قوي رجاله على شرط مسلم والله أعلم، والأحاديث والآثار النبوية في هذا كثيرة.

(١) أخرجه الترمذى في جهنم باب ٨.

(٢) أخرجه البخارى في الرقاق باب ٥١، ومسلم في الإيمان حديث ٣٦٤.

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٣٦١.

(٤) المستد ٤٣٢، ٤٣٨، ٤٣٩.

وقال الله تعالى في كتابه العزيز ﴿كلا إنها لظى نزاعة للشوى﴾ [المعارج: ١٥ - ١٦] وقال تعالى: ﴿يُصْبِطُ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمَ يَصْهُرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجَلُودُ وَلَهُمْ مَقَامٌ مِّنْ حَدِيدٍ كُلُّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍ أَعْيَدُوهَا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج: ١٩ - ٢٢] وقال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سُوفَ نَصْلِيهِمْ نَارًا كُلُّمَا نَضْجَتْ جَلُودُهُمْ بَدَلَنَا هُمْ جَلُودًا غَيْرَهَا لَيَذُوقُوا الْعَذَابِ﴾ [النساء: ٥٦] وقال تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمْ أَشَدُ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ أي لو أنهم يفهون ويفهمون لنفروا مع الرسول في سبيل الله في الحر ليتقوا به من حر جهنم الذي هو أضعاف أضعاف هذا ولكنهم كما قال الآخر: [البسيط]
كالمستجير من الرمضاء بالنار^(١)

وقال الآخر: [البسيط]

عمرك بالحمى أفتته خوفاً من البارد والحر
وكان أولى لك أن تتقى من المعاصي حذر النار
ثم قال تعالى جل جلاله متوعداً هؤلاء المنافقين على صنيعهم هذا: ﴿فَلَيُضْحِكُوكُلِّيَّا﴾ الآية، قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: الدنيا قليل فليضحكوا فيها ما شاؤوا، فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله عز وجل استأنفوا بكاء لا ينقطع أبداً، وكذا قال أبو رزين والحسن وقتادة والربيع بن خثيم وعنون العقيلي وزيد بن أسلم، وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا عبد الله بن عبد الصمد بن أبي خداش، حدثنا محمد بن جبير عن ابن المبارك عن عمران بن زيد، حدثنا يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس ابكونا فإن لم تبكوا فتباكوا فإن أهل النار ي يكون حتى تسيل دموعهم في وجوهم كأنها جداول حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء فتقرح العيون، فلو أن سفناً أرجيت فيها لجرت»^(٢) ورواه ابن ماجه من حديث الأعمش عن يزيد الرقاشي به.

وقال الحافظ أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا: حدثنا محمد بن عباس، حدثنا حماد الجزري عن زيد بن رفيع رفعه، قال: إن أهل النار إذا دخلوا النار بكوا الدموع زماناً ثم بكوا القيح زماناً، قال: فتقول لهم الخزنة يا معاشر الأشقياء تركتم البكاء في الدار المرحوم فيها أهلها في الدنيا هل تجدون اليوم من تستغشون به؟ قال: فيرعنون أصواتهم يا أهل الجنة يا معاشر الآباء والأمهات والأولاد خرجنا من القبور عطاشاً وكنا طول الموقف عطاشاً ونحن

(١) يروى البيت بتمامه:

والمستجير بعمرو عند كربته كالمستجير من الدعصاء بالنار
وهو ابن دريد في تاج العروس (دعص)، وليس في ديوانه، وبلا نسبة في لسان العرب (دعص)،
وجمهرة اللغة ص ٦٥٣.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الإقامة باب ١٧٦ ، والزهد باب ١٩.

اليوم عطاش، فأفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله، فيدعون أربعين سنة لا يجيئهم، ثم يجيئهم **﴿إنكم ماكثون﴾** فيأيسون من كل خير.

فَإِنْ رَجَعْتُمْ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذُنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَّمْ تَخْرُجُوا مَعِيْ أَبْدَاً وَلَمْ نُقْتَلُوا مَعِيْ عَدْوًا إِنَّكُمْ رَضِيْتُمْ بِالْقَعْدَةِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾٢٤﴾

يقول تعالى أمراً لرسوله عليه الصلاة السلام **﴿فَإِنْ رَجَعْتُمْ إِلَى اللَّهِ﴾** أي ردد الله من غزوتك هذه **﴿إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾** قال قادة: ذكر لنا أنهم كانوا اثنى عشر رجلاً **﴿فَاسْتَأْذُنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾** أي معك إلى غزوة أخرى **﴿فَقُلْ لَّمْ تَخْرُجُوا مَعِيْ أَبْدَاً وَلَمْ نُقْتَلُوا مَعِيْ عَدْوًا﴾** أي تعزيزاً لهم وعقوبة، ثم علل ذلك بقوله: **﴿إِنَّكُمْ رَضِيْتُمْ بِالْقَعْدَةِ أَوَّلَ مَرَّةً﴾** وهذا قوله تعالى: **﴿وَنَقْلَبُ أَفْدَتِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِأَوَّلَ مَرَّةً﴾** [الأعراف: ١١٠] الآية، فإن جزاء السيئة أفالتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة **﴿فَإِنْ رَجَعْتُمْ إِلَى اللَّهِ﴾** [الأنعام: ١١٠] الآية، فإن إلقاء السيئة بعدها كما أن ثواب الحسنة بعدها، كقوله في عمرة الحديبية **﴿سِيَقُولُ الْمُخْلَفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمٍ لَتَأْخُذُوهَا﴾** [الفتح: ١٥] الآية. وقوله تعالى: **﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾** قال ابن عباس: أي الرجال الذين تخلفوا عن الغزاة، وقال قادة **﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾** أي مع النساء قال ابن جرير وهذا لا يستقيم لأن جمع النساء لا يكون بالياء والنون ولو أريد النساء لقال فاقعدوا مع الخوالف أو الخالفات، ورجح قول ابن عباس رضي الله عنهما.

وَلَا تُنْصِلُ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَا تَأْبِدَا وَلَا تَنْقِمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَا أَتُوا وَهُمْ فَسَقِيُونَ ﴾٢٥﴾

أمر الله تعالى رسوله **ﷺ** أن يبرأ من المنافقين وأن لا يصلى على أحد منهم إذا مات، وأن لا يقوم على قبره ليستغفر له أو يدعوه لأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا عليه وهذا حكم عام في كل من عرف نفاقه، وإن كان سبب نزول الآية في عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين كما قال البخاري: حدثنا عبيد بن إسماعيل عن أبيأسامة عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قال: لما توفي عبد الله بن أبي « جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله **ﷺ** فسألته أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه، ثم سأله أن يصلى عليه فقام رسول الله **ﷺ** ليصلى عليه، فقام عمر فأخذ بشوب رسول الله **ﷺ** فقال: يا رسول الله تصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟ فقال رسول الله **ﷺ**: **«إِنَّمَا خَيْرِنِي اللَّهُ فَقَالَ أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾** [التوبة: ٨٠] وسائل زيد على السبعين» قال: إنه منافق. قال فصلى عليه رسول الله **ﷺ** فأنزل الله عز وجل آية **﴿وَلَا تَصْلِي عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَا تَأْبِدَا وَلَا تَنْقِمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾**^(١)، وكذا رواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة عن أبيأسامة حماد بنأسامة به، ثم رواه

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٩، باب ١٢، ومسلم في المنافقين حديث ٤، وفضائل الصحابة حديث ١٨، وأحمد في المسند ٢٥.

البخاري عن إبراهيم بن المنذر عن أنس بن عياض عن عبيد الله وهو ابن عمر العمري به، وقال فصلى عليه وصلينا معه وأنزل الله ﴿وَلَا تُنْظَلُ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبْدًا﴾ الآية. وهكذا رواه الإمام أحمد عن يحيى بن سعيد القطان عن عبيد الله به.

وقد روي من حديث عمر بن الخطاب نفسه أيضاً بنحو من هذا، فقال الإمام أحمد^(١): حدثنا يعقوب، حدثنا أبي عن ابن إسحاق، حدثني الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس، قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لما توفي عبد الله بن أبي، دعى رسول الله ﷺ للصلوة عليه، فقام إليه فلما وقف عليه يريد الصلاة تحولت حتى قمت في صدره فقلت يا رسول الله أعلى عدو الله عبد الله بن أبي القائل يوم كذا وكذا يعد أيامه، قال رسول الله ﷺ يبتسم، حتى إذا أكثرت عليه فقال: «آخر عني يا عمر، إني خيرت فاخترت، قد قيل لي ﴿اسْتَغْفِرُ لَهُمْ﴾ الآية. لو أعلم أني لوزدت على السبعين غفر له لزدت» قال ثم صلى عليه ومشى معه وقام على قبره حتى فرغ منه، قال فعجبت من جرأتي على رسول الله ﷺ والله ورسوله أعلم. قال فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان ﴿وَلَا تُنْظَلُ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبْدًا﴾ الآية. فما صلى رسول الله ﷺ بعده على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله عز وجل^(٢). وهكذا رواه الترمذى في التفسير من حديث محمد بن إسحاق عن الزهرى به، وقال حسن صحيح، ورواه البخارى عن يحيى بن بکير عن الليث عن عقيل عن الزهرى به فذكر مثله، قال: «آخر عني يا عمر» فلما أكثرت عليه قال: «إني خيرت فاخترت ولو أعلم أني إن زدت على السبعين غفر له لزدت عليها» قال فصلى عليه رسول الله ثم انصرف، فلم يلبث إلا يسيراً حتى نزلت الآيتان من براءة ﴿وَلَا تُنْظَلُ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبْدًا وَلَا تَقْمِلْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ الآية، فعجبت بعد من جرأتي على رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ أعلم^(٣).

وقال الإمام أحمد^(٤): حدثنا محمد بن أبي عبيد، حدثنا عبد الملك عن أبي الزبير عن جابر قال: لما مات عبد الله بن أبي أتى ابنه النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إنك إن لم تأته لم نزل نعير بهذا، فأتاه النبي ﷺ فوجده قد أدخل في حفرته فقال: «أفلا قبل أن تدخلوه» فأخرج من حفرته وتفل عليه من ريقه من قرنه إلى قدمه وألبسه قميصه، ورواه النسائي عن أبي داود الحرجاني عن يعلى بن عبيد عن عبد الملك وهو ابن أبي سليمان به، وقال البخارى: حدثنا عبد الله بن عثمان، أخبرنا ابن عيينة عن عمرو سمع جابر بن عبد الله قال: أتى النبي ﷺ عبد الله بن أبي بعد ما أدخل في قبره فأمر به فأنخرج ووضع على ركبتيه ونفث عليه من ريقه وألبسه قميصه والله

(١) المستند ١٦١.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٩، باب ١٢، والترمذى في تفسير سورة ٩ باب ١٢، ١٣.

(٣) راجع الحاشية السابقة.

(٤) المستند ٣٧١/٣.

أعلم^(١).

وقد رواه أيضاً في غير موضع مسلم والنسائي من غير وجه، عن سفيان بن عيينة به . وقال الإمام أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار في مسنده: حدثنا عمرو بن علي ، حدثنا يحيى ، حدثنا مجالد ، حدثنا عامر ، حدثنا جابر (ح) وحدثنا يوسف بن موسى ، حدثنا عبد الرحمن بن مغراة الدوسي ، حدثنا مجالد عن الشعبي عن جابر قال: لما مات رأس المنافقين قال يحيى بن سعيد بالمدينة فأوصى أن يصلي عليه النبي ﷺ فجاء ابنه إلى النبي ﷺ فقال: إن أبي أوصى أن يكفن بقميصك وهذا الكلام في حديث عبد الرحمن بن مغراة ، قال يحيى في حديثه: فصلى عليه وألبسه قميصه فأنزل الله تعالى: «ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره» وزاد عبد الرحمن: وخلع النبي ﷺ قميصه فأعطاه إيه ومشى فصلى عليه وقام على قبره ، فأتاه جبريل عليه السلام لما ولى قال «ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره» وإسناده لا بأس به وما قبله شاهد له.

وقال الإمام أبو جعفر الطبرى^(٢): حدثنا أحمد بن إسحاق ، حدثنا أحمد ، حدثنا حماد بن سلمة عن يزيد الرقاشي عن أنس ، أن رسول الله ﷺ أراد أن يصلي على عبد الله بن أبي فأخذ جبريل بشوبه وقال «ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره» ورواه الحافظ أبو يعلى في مسنده من حديث يزيد الرقاشي وهو ضعيف . وقال قتادة أرسل عبد الله بن أبي إلى رسول الله ﷺ وهو مريض فلما دخل عليه قال له النبي ﷺ: «أهللك حب يهود» قال: يا رسول الله إنما أرسلت إليك لستغفر لي ولم أرسل إليك لتؤنبني ، ثم سأله عبد الله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه إيه وصلى عليه وقام على قبره ، فأنزل الله عز وجل «ولا تصل على أحد منهم مات أبداً»^(٣) الآية .

وقد ذكر بعض السلف أنه إنما كساه قميصه لأن عبد الله بن أبي لما قدم العباس طلب له قميص فلم يوجد على تفصيله إلا ثوب عبد الله بن أبي لأنه كان ضخماً طويلاً ففعل ذلك به رسول الله ﷺ مكافأة له فالله أعلم . ولهذا كان رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية الكريمة عليه لا يصلي على أحد من المنافقين ولا يقوم على قبره ، كما قال الإمام أحمد^(٤): حدثنا يعقوب ، حدثنا أبي عن أبيه ، حدثني عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا دعي إلى جنائز سأل عنها ، فإن أثني عليها خيراً قام فصلى عليها ، وإن كان غير ذلك قال لأهلها «شأنكم

(١) أخرجه البخاري في الجنائز باب ٢٢ ، واللباس باب ٨ ، ومسلم في المنافقين حديث ٢ ، والنسائي في الجنائز باب ٤٠.

(٢) تفسير الطبرى ٤٤٩ / ٦ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ .

(٣) انظر تفسير الطبرى ٤٤١ ، ٤٤٠ / ٦ .

(٤) المستند ٣٠٠ ، ٢٩٩ / ٥ .

بها» ولم يصل عليها، وكان عمر بن الخطاب لا يصلي على جنازة من جهل حاله حتى يصلى عليها حذيفة بن اليمان لأنه كان يعلم أعيان المنافقين، قد أخبره بهم رسول الله ﷺ، ولهذا كان يقال له صاحب السر الذي لا يعلمه غيره أي من الصحابة.

وقال أبو عبيد في كتاب الغريب في حديث عمر، أنه أراد أن يصلى على جنازة رجل فمرزه حذيفة كأنه أراد أن يصده عن الصلاة عليها. ثم حكى عن بعضهم أن المرز بلغة أهل اليمامة هو القرص بأطراف الأصابع، ولما نهى الله عز وجل عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم للاستغفار لهم، كان هذه الصنعة من أكبر القرارات في حق المؤمنين فشرع ذلك، وفي فعله الأجر الجليل كما ثبت في الصحاح وغيرها من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «من شهد الجنائز حتى يصلى عليها فله قيراط، ومن شهدتها حتى تدفن فله قيراطان» قيل وما القيراطان؟ قال «أصغرهما مثل أحد»^(١) وأما القيام عند قبر المؤمن إذا مات، فروى أبو داود: حدثنا إبراهيم بن موسى الرازي، أخبرنا هشام عن عبد الله بن بحير عن هانيء، وهو أبو سعيد البريري مولى عثمان بن عفان عن عثمان رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال: «استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل» انفرد بإخراجه أبو داود^(٢) رحمه الله.

وَلَا تُعِجِّلْكَ أَمْوَالَهُمْ وَلَا لَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُمْ بِمَا فِي الدُّنْيَا وَتَرَهُقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ^(٣)
قد تقدم تفسير نظير هذه الآية الكريمة والله الحمد والمنة^(٤).

وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةً أَنْ إِيمَانُهُمْ وَجَاهَهُمْ وَأَمَّا بَرِيدُ اللَّهِ أَن يُعَذِّبَهُمْ بِمَا فِي الدُّنْيَا وَتَرَهُقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ^(٥)
رَضُوا بِمَا يَكُونُوا مَعَ الْحَوَالِفِ وَطُمِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ^(٦)
يقول تعالى منكراً وذاماً للمتخلفين عن الجهاد الناكلين عنه مع القدرة عليه وجود السعة والطول. واستأذنوا الرسول في القعود وقلوا «ذرنا نكن مع القاعدين» ورضوا لأنفسهم بالعارض في البلد مع النساء، وهن الخوالف بعد خروج الجيش، فإذا وقع الحرب كانوا أجبن الناس، وإذا كان أمن كانوا أكثر الناس كلاماً، كما قال تعالى عنهم في الآية الأخرى: «فإذا جاء الخوف رأيتمهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بأسنة حداد» [الأحزاب: ١٩] أي علت ألسنتهم بالكلام الحاد القوي في الأمان، وفي الحرب أجبن شيء، وكما قال الشاعر: [الطويل]

(١) أخرجه البخاري في الجنائز باب ٥٩، ومسلم في الجنائز حديث ٥٢.

(٢) كتاب الجنائز باب ٦٩.

(٣) انظر تفسير الآية ٥٥ من هذه السورة.

أفي السلم أعياراً جفاءً وغلظةٌ وفي الحرب أشباء النساء العوارك؟^(١)

وقال تعالى في الآية الأخرى «وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَّلْتَ سُورَةً فَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةً مُحَكَّمَةً وَذَكَرَ فِيهَا القَتَالَ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرْضٌ يَنْظَرُونَ إِلَيْكُمْ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ طَاعَةُ وَقُولَهُ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرَ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ» [محمد: ٢٠ - ٢١] الآية، قوله «وَطَبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ» أي بسبب نكولهم عن الجهاد والخروج مع الرسول في سبيل الله «فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ» أي لا يفهمون ما فيه صلاح لهم فيفعلوه ولا ما فيه مضره لهم فيجتنبوه.

لَتَكُنْ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ كَأَمْمَوْا عَمَّهُ جَاهَدُوا يَأْمُوْلُهُمْ وَأَنْتُسِهُمْ وَأَوْلَئِكَ هُمُ الْخَيْرَاتُ وَأَوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٤﴾ أَعَدَ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ مِّنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَرُ خَلِيلِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥﴾

لما ذكر تعالى ذنب المنافقين وبين ثناءه على المؤمنين وما لهم في آخرتهم، فقال *«لَكُنَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا يَأْمُوْلُهُمْ وَأَنْتُسِهُمْ وَأَوْلَئِكَ هُمُ الْخَيْرَاتُ وَأَوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٤﴾ إِلَى أَخْرِ الْآيَتَيْنِ مِنْ بَيْانِ حَالِهِمْ وَمَالِهِمْ، وَقُولُهُ: (وَأَوْلَئِكَ هُمُ الْخَيْرَاتُ ﴿٥﴾ أي في الدار الآخرة في جنات الفردوس والدرجات العليّة.*

وَجَاءَ الْمُعَذَّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٦﴾

ثم بين تعالى حال ذوي الأعذار في ترك الجهاد الذين جاؤوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه ويبينون له ما هم فيه من الضعف وعدم القدرة على الخروج وهو من أحياء العرب ممن حول المدينة. قال الصحاح عن ابن عباس، إنه كان يقرأ «وجاء المعدرون» بالتحقيق ويقول: هم أهل العذر. وكذا روى ابن عيينة عن حميد عن مجاهد سواء، قال ابن إسحاق: وبلغني أنهم نفر منبني غفار خفاف بن إيماء بن رحضة^(٢).

وهذا القول هو الأظهر في معنى الآية، لأنه قال بعد هذا «وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴿٦﴾ أي لم يأتوا فيعتذروا، وقال ابن جريج عن مجاهد «وَجَاءَ الْمُعَذَّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ» قال: نفر منبني غفار جاؤوا فاعتذروا فلم يعتذرهم الله، وكذا قال الحسن وقناة محمد بن إسحاق والقول الأول أظهر والله أعلم، لما قدمتنا من قوله بعده «وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴿٦﴾ أي وَقَعَدَ آخَرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ عَنِ الْمَجِيءِ لِلْاعْتِذَارِ ثُمَّ أَوْعَدَهُمْ بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ فَقَالَ: (سَيُصِيبُ

(١) البيت لهند بنت عتبة في خزانة الأدب /٣، والمقدمة النحوية /٣، ١٤٢، وبلا نسبة في شرح أبيات سيبويه /١، ٣٨٢، والكتاب /١، ٣٤٤، ولسان العرب (عور)، (غير)، (عرك)، والمقتضب /٣، ٢٦٥، والمقرب /١، ٢٥٨، وتأرجح العروس (عرك)، وسيرة ابن هشام /١، ٦٥٦.

(٢) انظر تفسير الطبراني ٤٤٤/٦، ٤٤٥.

الذين كفروا منهم عذاب أليم .

لَيْسَ عَلَى الْضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحِدُّونَ حَرْجٌ إِذَا نَصَحَوْا لَهُ
وَرَسُولُهُ، مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكُ
لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَحِدُ مَا أَحْمَلُكُمْ عَلَيْهِ تَوْلُوا وَأَعْسِنُهُمْ تَقْيِضُ مِنَ الدَّمْعِ حَرْكَانًا أَلَا يَحِدُّونَ
مَا يُنْفِقُونَ ﴿٢﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَدِّنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ
الْحَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْدُونَ ﴿٣﴾

ثم بين تعالى الأعذار التي لا حرج على من قعد معها عن القتال، فذكر منها ما هو لازم للشخص لا ينفك عنه وهو الضعف في التركيب الذي لا يستطيع معه الجلاad في الجهاد، ومنه العمى والعرج ونحوهما، ولهذا بدأ به ومنه ما هو عارض بسبب مرض عن له في بدنـه شغله عن الخروج في سبيل الله أو بسبب فقره لا يقدر على التجهيز للحرب، فليس على هؤلاء حرج إذا قعدوا ونصحوا في حال قعودهم ولم يرجفوا بالناس ولم يبطوهم وهم محسنون في حالهم هذا، ولهذا قال: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال سفيان الثوري عن عبد العزيز بن رفيع عن أبي ثمامـة رضي الله عنه قال: قال الحواريون يا روح الله أخبرنا عن الناصـح للـه؟ قال الذي يؤثـر حق الله على حق الناس، وإذا حدث له أمران أو بدا له أمر الدنيا وأمر الآخرة، بدأ بالـذي للأخـرة ثم تفرـغ للـذي للـدنيـا .

وقال الأوزاعـي: خـرج الناس إلى الاستـقاء فقام فيـهم بـلال بن سـعد فـحمد الله وأـثنـى عليه ثم قال، يا مـعـشر من حـضـرـ أـلسـتم مـقـرـين بـالـإـسـاءـة؟ قالـوا اللـهـمـ نـعـمـ، فـقالـ اللـهـمـ إـنـا نـسـمعـكـ تـقـولـ: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ اللـهـمـ وـقـدـ أـقـرـنـا بـالـإـسـاءـةـ فـاغـفـرـ لـنـاـ وـارـحـمـنـاـ وـاسـقـنـاـ، وـرـفـعـ يـدـيـهـ وـرـفـعـ أـيـدـيـهـمـ فـسـقـوـاـ، وـقـالـ قـتـادـةـ نـزـلـتـ هـذـهـ الـآـيـةـ فـيـ عـائـذـ بـنـ عـمـرـوـ الـمـزـنـيـ، وـقـالـ
ابـنـ أـبـيـ حـاتـمـ: حـدـثـنـاـ أـبـيـ لـيـلـيـ عنـ زـيـدـ بـنـ ثـابـتـ قـالـ: كـنـتـ أـكـتـبـ لـرـسـوـلـ اللـهـ ﷺ فـكـنـتـ أـكـتـبـ بـرـاءـةـ، فـإـنـيـ لـوـاضـعـ الـقـلـمـ عـلـىـ أـذـنـيـ إـذـ أـمـرـنـاـ بـالـقـتـالـ، فـجـعـلـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺ يـنـظـرـ مـاـ يـنـزـلـ عـلـيـهـ، إـذـ جـاءـ
أـعـمـىـ فـقـالـ: كـيـفـ بـيـ يـاـ رـسـوـلـ اللـهـ وـأـنـاـ أـعـمـىـ؟ فـنـتـلـتـ ﴿لـيـسـ عـلـىـ الـضـعـفـاءـ﴾ الـآـيـةـ .

وقـالـ العـوـفـيـ عـنـ اـبـنـ عـبـاسـ فـيـ هـذـهـ الـآـيـةـ، وـذـلـكـ أـنـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺ أـمـرـ النـاسـ أـنـ يـنـبـعـثـواـ
غـازـيـنـ مـعـهـ، فـجـاءـتـهـ عـصـابـةـ مـنـ أـصـحـابـهـ فـيـهـمـ عـبـدـ اللـهـ بـنـ مـغـفـلـ بـنـ مـقـرـنـ الـمـزـنـيـ فـقـالـلـوـ: يـاـ
رـسـوـلـ اللـهـ اـحـمـلـنـاـ فـقـالـ لـهـمـ: ﴿و~الـلـهـ لـاـ أـجـدـ مـاـ أـحـمـلـكـمـ عـلـيـهـ﴾ فـتـولـواـ وـهـمـ يـكـوـنـ وـعـزـ عـلـيـهـمـ
أـنـ يـجـلـسـوـاـ عـنـ الـجـهـادـ وـلـاـ يـجـدـوـنـ نـفـقـةـ وـلـاـ مـحـمـلاـ. فـلـمـ رـأـيـ اللـهـ حـرـصـهـ عـلـىـ مـحـبـتـهـ وـمـحـبةـ
رـسـوـلـهـ أـنـزـلـ عـذـرـهـمـ فـقـالـ ﴿لـيـسـ عـلـىـ الـضـعـفـاءـ﴾ إـلـىـ قـوـلـهـ ﴿فـهـمـ لـاـ يـعـلـمـونـ﴾^(١).

قال مجاهد في قوله: «وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتُوكُ لِتَحْمِلُهُمْ» نزلت في بنى مقرن من مزينة^(١)، وقال محمد بن كعب: كانوا سبعة نفر من بنى عمرو بن عوف سالم بن عمير، ومن بنى واقف حرمي بن عمرو، ومن بنى مازن بن النجار عبد الرحمن بن كعب ويكنى أبو ليلى، ومن بنى المعلى سلمان بن صخر، ومن بنى سلمة عمرو بن غنمة وعبد الله بن عمرو المزني^(٢).

وقال محمد بن إسحاق في سياق غزوة تبوك: ثم إن رجالاً من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ وهم البكاؤون وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم، من بنى عمرو بن عوف سالم بن عمير وعليه بن زيد أخو بنى حارثة، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب أخو بنى مازن بن النجار، وعمرو بن الحمام أخو بنى سلمة وعبد الله بن المغفل المزني، وبعض الناس يقول بل هو عبد الله بن عمرو المزني، وحرمي بن عبد الله أخو بنى واقف وعياض بن سارية الفزارى، فاستحملوا رسول الله ﷺ وكانوا أهل حاجة فقال «لَا أَجِد مَا أَحْمَلُكُمْ عَلَيْهِ تَوْلُوا وَأَعْنِيهِمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزْنًا لَا يَجِدُوا مَا يَنْفَقُونَ»^(٣).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمر بن الأودي، حدثنا وكيع عن الربيع عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد خلقت بالمدينة أقواماً ما أنفقتم من نفقة ولا قطعتم وادياً ولا نلتكم من عدو نيلاً إلا وقد شرکوكم في الأجر» ثم قرأ «وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتُوكُ لِتَحْمِلُهُمْ قُلْتَ لَا أَجِد مَا أَحْمَلُكُمْ عَلَيْهِ» الآية، وأصل الحديث في الصحيحين من حديث أنس، أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا قَطَعْتُمْ وَادِيًّا وَلَا سَرَّتُمْ سِيرًا لَا وَهُمْ مَعَكُمْ» قالوا وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؟ قال: «نَعَمْ حَبْسَهُمُ الْعَذْرُ»^(٤)، وقال الإمام أحمد^(٥): حدثنا وكيع حدثنا الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد خلقت بالمدينة رجالاً ما قطعتم وادياً ولا سلكتم طريقاً إلا شرکوكم في الأجر، حبسهم المرض»^(٦) ورواه مسلم وابن ماجه من طرق عن الأعمش به ثم رد تعالى الملامة على الذين يستأذنون في القعود وهم أغبياء، وأنهم في رضاهم بأن يكونوا مع النساء الخوالف في الرجال «وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ».

﴿يَعَذِّرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ثُلَّ لَا يَعَذِّرُونَ إِنَّ ثُؤْمَنَ لَكُمْ فَدَبَّبَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾

(١) تفسير الطبرى ٤٤٦/٦.

(٢) تفسير الطبرى ٤٤٧/٦.

(٣) سيرة ابن هشام ٥١٨/٢.

(٤) أخرجه البخارى في الجهاد باب ٣٥، والمعازى باب ٨١.

(٥) المسند ٣٠٠/٣.

(٦) أخرجه مسلم في الإمارة حديث ١٥٩، وابن ماجه في الجهاد باب ٦.

وَسَيِّرِي اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تَرَدُّوْكُمْ إِلَى عَلِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَتَّكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا أَنْقَلْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِلَيْهِمْ رِجْسٌ وَمَا وَهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَهُمْ لِتَرَضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرَضُوا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾

أخبر تعالى عن المنافقين بأنهم إذا رجعوا إلى المدينة أنهم يعتذرون إليهم ﴿قل لا تعذروا لن نؤمن لكم﴾ أي لن نصدقكم «قد نبأنا الله من أخباركم» أي قد أعلمنا الله أحوالكم «وسيرى الله عملكم ورسوله» أي سيظهر أعمالكم للناس في الدنيا «ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون» أي فيخبركم بأعمالكم خيراً وشرها ويجزيكم عليها، ثم أخبر عنهم أنهم سيحلفون لكم معتذرين لعرضوا عليهم فلا تؤنبوهم فأعرضوا عنهم احتقاراً لهم إنهم رجس أي خبث نجس بواطنهم واعتقادتهم، وأماواهم في آخرتهم جهنم «جزاء بما كانوا يكسبون» أي من الآثام والخطايا، وأخبر أنهم إن رضوا عنهم بخلافهم لهم «فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين» أي الخارجين عن طاعة الله وطاعة رسوله، فإن الفسق هو الخروج، ومنه سميت الفارة فويستفه لخروجها من جحرها للإفساد، ويقال فسقت الرطبة إذا خرجت من أكمامها

الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفَّارًا وَنَفَاقًا وَأَجَدَرُ أَلَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَسْخَذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرِبًا وَيَرْبَصُ بِكُمُ الدَّوَابِرَ عَلَيْهِمْ دَاهِرَةُ السَّوءَ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَسْخَذُ مَا يُنْفِقُ فَرِيَتِي عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيِّدُ خَلْقِهِمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾

أخبر تعالى أن في الأعراب كفاراً ومنافقين ومؤمنين، وأن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد وأجدر، أي أخرى أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله كما قال الأعمش عن إبراهيم قال: جلس أعرابي إلى زيد بن صوحان وهو يحدث أصحابه وكانت يده قد أصبيت يوم نهاوند، فقال الأعرابي: والله إن حديثك ليعجبني، وإن يدك لتريبني. فقال زيد: ما يرببك من يدي إنها الشمال؟ فقال الأعرابي: والله ما أدرى اليدين يقطعن أو الشمال؟ فقال زيد بن صوحان: صدق الله ﴿الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله﴾.

وقال الإمام أحمد^(١): حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا سفيان عن أبي موسى عن وهب بن منبه عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال: «من سكن الباذية جفا، ومن اتبع الصيد

غفل، ومن أتى السلطان افتئن^(١) ورواه أبو داود والترمذى والنسائى من طرق عن سفيان الثورى به، وقال الترمذى حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الثورى.

ولما كانت الغلطة والجفاء في أهل البوادي لم يبعث الله منهم رسولًا، وإنما كانت البعثة من أهل القرى كما قال تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى» [يوسف: ١٠٩] ولما أهدى ذلك الأعرابى تلك الهدية لرسول الله ﷺ فرد عليه أضعافها حتى رضى، قال: «لقد همت أن لا أقبل هدية إلا من قرضي أو ثقفي أو أنصاري أو دوسي» لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن مكة والمطائف والمدينة واليمن، فهم ألطف أخلاقاً من الأعراب لما في طباع الأعراب من الجفاء.

[حديث الأعرابى في تقبيل الولد] قال مسلم: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وأبو كريب قالا: حدثنا أبوأسامة وابن نمير عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت: قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا: أتقبلون صبيانكم؟ قالوا نعم، قالوا لكننا والله ما نقبل، فقال رسول الله ﷺ: «وأملك إن كان الله نزع منكم الرحمة» وقال ابن نمير: «من قلبك الرحمة»^(٢).
وقوله «والله عليم حكيم» أي عليم بمن يستحق أن يعلمه الإيمان والعلم، حكيم فيما قسم بين عباده من العلم والجهل والإيمان والكفر والنفاق، لا يسأل عما يفعل لعلمه وحكمته، وأخبر تعالى أن منهم «من يتخذ ما ينفق» أي في سبيل الله «مغرياً» أي غرامة وخسارة «ويترخص بكم الدوائر» أي يتنتظر بكم الحوادث والأفات «عليهم دائرة السوء» أي هي منعكسة عليهم والسوء دائرة عليهم «والله سميع عليم» أي سميع لدعاء عباده عليم بمن يستحق النصر من يستحق الخذلان.

وقوله: «ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول» هذا هو القسم الممدوح من الأعراب، وهم الذين يتخذون ما ينفقون في سبيل الله قربة يتبربون بها عند الله وييتغرون بذلك دعاء الرسول لهم «ألا إنها قربة لهم» أي ألا إن ذلك حاصل لهم «سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم».

**وَالسَّيِّقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا
عَنْهُ وَأَعْدَّ لَهُمْ جَنَّتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَلِيلِينَ فِيهَا أَبْدَأَ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**

يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، ورضاهم عنه بما أعد لهم من جنات النعيم والنعيم المقيم، قال الشعبي: السابقون الأولون من

(١) أخرجه أبو داود في الأضاحي باب ٢٤، والترمذى في الفتن باب ٦٩، والنسائى في الصيد باب ٢٤.

(٢) أخرجه البخارى في الأدب باب ١٨، ومسلم في الفضائل حديث ٦٤.

المهاجرين والأنصار من أدرك بيعة الرضوان عام الحديبية^(١)، وقال أبو موسى الأشعري وسعيد بن المسيب ومحمد بن سيرين والحسن وقتادة، هم الذين صلوا إلى القبلتين مع رسول الله ﷺ^(٢)، وقال محمد بن كعب القرظي: مر عمر بن الخطاب برجل يقرأ هذه الآية، «والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار» فأخذ عمر بيده فقال: من أقرأك هذا؟ فقال: أبي بن كعب، فقال: لا تفارقني حتى أذهب بك إليه، فلما جاءه قال عمر أنت أقرأت هذا هذه الآية هكذا؟ قال: نعم. قال: وسمعتها من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: لقد كنت أرى أنا رفعتنا رفة لا يبلغها أحد بعدها، فقال أبي تصدقين هذه الآية في أول سورة الجمعة^(٣) (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم) [الجمعة: ٣] وفي سورة الحشر^(٤) «والذين جاؤوا من بعدهم» [الحشر: ١٠] الآية، وفي الأنفال^(٥) «والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا معكم» [الأنفال: ٧٥] الآية، ورواه ابن جرير^(٦).

قال: وذكر عن الحسن البصري أنه كان يقرؤها برفع الأنصار عطفاً على والسابقون الأولون، فقد أخبر الله العظيم أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فياويل من أبغضهم أو سبهم أو أغضهم أو سب بعضهم، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول وخирهم وأفضلهم أعني الصديق الأكبر وال الخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه، فإن الطائفة المخدولة من الراضة يعادون أفضل الصحابة ويعيضونهم ويسبونهم. عياذاً بالله من ذلك. وهذا يدل على أن عقولهم معكوسه وقلوبهم منكوسه، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن إذ يسبون من رضي الله عنهم؟ وأما أهل السنة فإنهم يترضون عن رضي الله عنه ويسبون من سبه الله ورسوله، ويروتون من يوالى الله ويعادون من يعادى الله وهم متبعون لا مبتدعون ويقتدون ولا يبتدون، ولهذا هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون.

وَمِنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرْدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُنَّ هُنْ لَغْيَةٌ لَا يَعْلَمُهُمْ
سَنَعْدِهِمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرْدُونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ

يخبر تعالى رسوله صلوات الله وسلامه عليه أن في أحياط العرب من حول المدينة منافقون، وفي أهل المدينة أيضاً منافقون «مردوا على النفاق» أي مرنوا واستمروا عليه، ومنه يقال شيطان مريد، ومارد ويقال تمود فلان على الله أي عتا وتجبر، وقوله: «لا تعلمهم نحن نعلمهم» لا ينافي قوله تعالى: «ولو نشاء لأربناكم فلعلهم بسيماهم ولتعرفهم في لحن

(١) انظر تفسير الطبرى / ٦ / ٤٥٣.

(٢) تفسير الطبرى / ٦ / ٤٥٤.

(٣) تفسير الطبرى / ٦ / ٤٥٥.

القول﴿ [٣٠] لأن هذا من باب التوسم فيهم بصفات يعرفون بها، لا أنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب على التعين، وقد كان يعلم أن في بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقاً وإن كان يراه صباحاً ومساءً.

وشاهد هذا بالصحة ما رواه الإمام أحمد^(١) في مسنده حيث قال: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن النعمان بن سالم عن رجل عن جبير بن مطعم رضي الله عنه، قال قلت: يا رسول الله إنهم يزعمون أنه ليس لنا أجر بمكة فقال: «لتأتينكم أجوركم ولو كتم في جحر ثعلب» وأصغى إلى رسول الله ﷺ برأسه فقال «إن في أصحابي منافقين» ومعناه أنه قد يبوح بعض المنافقين والمرجفين من الكلام بما لا صحة له ومن مثلهم صدر هذا الكلام الذي سمعه جبير بن مطعم، وتقدم في تفسير قوله ﴿وَهُمْ بِمَا لَمْ يَنلُوا﴾ أنه ﷺ أعلم حذيفة بأعيان أربعة عشر أو خمسة عشر منافقاً، وهذا تخصيص لا يقتضي أنه اطلع على أسمائهم وأعيانهم كلهم، والله أعلم.

وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي عمر البيروتي من طريق هشام بن عمار: حدثنا صدقة بن خالد، حدثنا ابن جابر، حدثني شيخ بيروت يكنى أبياً عمر، أظنه حدثني عن أبي الدرداء أن رجلاً يقال له حرملة أتى النبي ﷺ فقال: الإيمان هنا وأشار بيده إلى لسانه، والنفاق هنا وأشار بيده إلى قلبه، ولم يذكر الله إلا قليلاً، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اجعل له لساناً ذاكراً، وقلباً شاكراً، وارزقه حبي وحب من يحبني، وصير أمره إلى خير» فقال: يا رسول الله إنه كان لي أصحاب من المنافقين وكنت رأساً فيهم أفلأ آتاك بهم؟ قال: «من أتانا استغفرتنا له، ومن أصر فالله أولى به، ولا تخرقن على أحد ستراً»، قال وكذا رواه أبو أحمد الحاكم عن أبي بكر الباغندي عن هشام بن عمار به.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن قتادة في هذه الآية أنه قال: ما بال أقوام يتكلفون علم الناس، فلان في الجنة وفلان في النار، فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال لا أدرى لعمري أنت بنفسك أعلم منك بأحوال الناس، ولقد تكلفت شيئاً ما تكلفه الأنبياء قبلك، قال النبي الله نوح عليه السلام ﴿وَمَا عَلِمَيْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقال النبي الله شعيب عليه السلام ﴿بِقِيَةَ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ وقال الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾^(٢).

وقال السدي عن أبي مالك عن ابن عباس في هذه الآية قال: قام رسول الله ﷺ خطيباً يوم الجمعة فقال: «اخرج يا فلان فإنك منافق، واخرج يا فلان إنك منافق» فأخرج من المسجد

(١) المستند ٤/٨٢، ٨٣، ٨٤.

(٢) تفسير الطبرى ٦/٤٥٦.

ناساً منهم فضحهم، فجاء عمر وهم يخرجون من المسجد فاختباً منهم حياءً أنه لم يشهد الجمعة وظن أن الناس قد انصروا، واختبأوا هم من عمر ظنوا أنه قد علم بأمرهم، فجاء عمر فدخل المسجد فإذا الناس لم يصلوا، فقال له رجل من المسلمين: أبشر يا عمر قد فضح الله المنافقين اليوم، قال ابن عباس: وهذا العذاب الأول حين أخرجهم من المسجد، والعذاب الثاني عذاب القبر^(١)، وكذا قال الثوري عن السدي عن أبي مالك نحو هذا.

وقال مجاهد في قوله ﴿سَعْدِبُهُمْ مَرْتَين﴾ يعني القتل والسببي، وقال في رواية بالجوع وعداب القبر، ثم يردون إلى عذاب عظيم^(٢)، وقال ابن جريج عذاب الدنيا وعداب القبر ثم يردون إلى عذاب عظيم النار^(٣)، وقال الحسن البصري: عذاب في الدنيا وعداب في القبر^(٤)، وقال عبد الرحمن بن زيد: أما عذاب في الدنيا فالأموال والأولاد، وقرأ قوله تعالى ﴿فَلَا تَعْجِبْكَ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادَهُمْ إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيَعْذِبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فهذه المصائب لهم عذاب وهي للمؤمنين أجر، وعذاب في الآخرة في النار ﴿ثُمَّ يَرْدُونَ إِلَى عذاب عظيم﴾ قال النار^(٥)، وقال محمد بن إسحاق ﴿سَعْدِبُهُمْ مَرْتَين﴾ قال: هو فيما بلغني ما هم فيه من أمر الإسلام وما يدخل عليهم من غيبة ذلك على غير حسبة، ثم عذابهم في القبور إذا صاروا إليها، ثم العذاب العظيم الذي يردون إليه عذاب الآخرة والخلد فيه^(٦)، وقال سعيد عن قاتدة في قوله: ﴿سَعْدِبُهُمْ مَرْتَين﴾ عذاب الدنيا وعداب القبر ﴿ثُمَّ يَرْدُونَ إِلَى عذاب عظيم﴾ وذكر لنا أن نبي الله ﷺ أسر إلى حذيفة باثنى عشر رجلاً من المنافقين، فقال ستة منهم تكفيهم الدبالة سراج من نار جهنم يأخذ في كتف أحدهم حتى يفضي إلى صدره، وستة يموتون موتاً، وذكر لنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا مات رجل منمن يرى أنه منهم، نظر إلى حذيفة فإن صلى عليه وإلا تركه، وذكر لنا أن عمر قال لحذيفة أنسدك الله أمنهم أنا؟ قال لا ولا أؤمن منها أحداً بعدك.

وَآخَرُونَ أَعْتَرُفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَلِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ

لما بين تعالى حال المنافقين المتخلفين عن الغزارة رغبة عنها وتكذيباً وشكراً، شرع في بيان حال المذنبين الذين تأخرو عن الجهاد كسلاماً وميلاً إلى الراحة مع إيمانهم وتصديقهم بالحق، فقال ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرُفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي أقرروا بها واعترفوا فيما بينهم وبين ربهم، ولهم أعمال

(١) تفسير الطبرى / ٦ ٤٥٧.

(٢) تفسير الطبرى / ٦ ٤٥٧.

(٣) تفسير الطبرى / ٦ ٤٥٨.

(٤) تفسير الطبرى / ٦ ٤٥٨.

(٥) تفسير الطبرى / ٦ ٤٥٨.

(٦) تفسير الطبرى / ٦ ٤٥٨.

آخر صالحة خلطوا هذه بتلك فهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه، وهذه الآية وإن كانت نزلت في أناس معينين إلا أنها عامة في كل المذنبين الخاطئين المخلطين المتباهين، وقد قال مجاهد: إنها نزلت في أبي لبابة لما قال لبني قريظة: إنه الذبح وأشار بيده إلى حلقه^(١)، وقال ابن عباس «وآخرون» نزلت في أبي لبابة وجماعة من أصحابه تختلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقال بعضهم: أبو لبابة وخمسة معه، وقيل وبسبعة معه، وقيل وتسعه معه، فلما رجع رسول الله ﷺ من غزوه ربطوا أنفسهم بسواري المسجد وحلقوه لا يحلهم إلا رسول الله ﷺ فلما أنزل الله هذه الآية «وآخرون اعترفوا بذنوبهم» أطلقهم رسول الله ﷺ وغاف عنهم.

وقال البخاري^(٢): حدثنا مؤمل بن هشام، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا عوف، حدثنا أبو رجاء، حدثنا سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ لنا «أتاني الليلة آتیان فابتغضنا فانهيا بي إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة فتلقانا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت رأء، وشطر كأبغض ما أنت رأء، قالا لهم اذهبوا فقعوا في ذلك النهر فوقعوا فيه ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلكسوء عنهم فصاروا في أحسن صورة، قالا لي هذه جنة عدن وهذا منزلك، قالا وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح، فإنهم خلطوا عملاً صالحاً وأخر سيئاً تجاوز الله عنهم» هكذا رواه البخاري مختصرًا في تفسير هذه الآية.

مُذْنَدٌ مِّنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةٌ تُظَهِّرُهُمْ وَرَزِّكُهُمْ بِهَا وَصَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ صَلَوَاتَكُمْ سَكُنٌ لَّهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبِلُ التَّوْبَةَ عَنِ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْوَابِ الرَّحِيمُ

أمر تعالى رسوله ﷺ بأن يأخذ من أموالهم صدقة يظهرهم ويزكيهم بها وهذا عام وإن أعاد بعضهم الضمير في أموالهم إلى الذين اعترفوا بذنوبهم وخلطوا عملاً صالحاً وأخر سيئاً، ولهذا اعتقاد بعض مانعي الزكاة من أحياء العرب أن دفع الزكاة إلى الإمام لا يكون، وإنما كان هذا خاصاً بالرسول ﷺ، ولهذا احتجوا بقوله تعالى: «خذ من أموالهم صدقة» الآية، وقد رد عليهم هذا التأويل والفهم الفاسد، أبو بكر الصديق وسائر الصحابة وقاتلوكهم حتى أدوا الزكاة إلى الخليفة كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ، حتى قال الصديق: والله لو منعني عناقًا - وفي رواية عقالاً - كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلتهم على منعه^(٣).

وقوله «وصل عليهم» أي ادع لهم واستغفر لهم كما رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن أبي أوفى قال: كان النبي ﷺ إذا أتي بصدقة قوم صلي عليهم فأتأه أبو بكر بصدقته فقال: «اللهم

(١) انظر تفسير الطبرى ٤٦٢/٦.

(٢) كتاب التفسير، تفسير سورة ٩، باب ١٠.

(٣) أخرج البخاري في الاعتصام باب ٢، ومسلم في الإيمان حديث ٣٢.

صل على آل أبي أوفى^(١) وفي الحديث الآخر أن امرأة قالت: يا رسول الله صل على وعلی زوجي، فقال «صلی الله علیک وعلی زوجک»^(٢).

وقوله: «إن صلاتك سكن لهم» قرأ بعضهم صلواتك على الجمع وأخرون قرأوا إن صلاتك على الإفراد «سكن لهم» قال ابن عباس: رحمة لهم، وقال قتادة وقار، وقوله: «والله سميع» أي لدعائك «عليم» أي بمن يستحق ذلك منك ومن هو أهل له، قال الإمام أحمد^(٣): حديثنا أبو العميس عن أبي بكر بن عمرو بن عتبة عن ابن حذيفة عن أبيه أن النبي ﷺ كان إذا دعا لرجل أصابته وأصابت ولده وولد ولد، ثم رواه عن أبي نعيم عن مسعود عن أبي بكر بن عمرو بن عتبة عن ابن حذيفة، قال مسعود: وقد ذكره مرة عن حذيفة إن صلاة النبي ﷺ لتدرك الرجل وولده وولد ولد^(٤).

وقوله «ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات» هذا تهبيج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منها يحط الذنوب ويمحصها ويتحققها، وأخبر تعالى أن كل من تاب إليه تاب عليه، ومن تصدق بصدقة من كسب حلال، فإن الله تعالى يتقبلها بيمينه فيريها لصاحبها حتى تصير التمرة مثل أحد، كما جاء بذلك الحديث عن رسول الله ﷺ كما قال الثوري ووكيع كلاهما عن عباد بن منصور عن القاسم بن محمد، أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيريها لأحدكم كما يربى أحدكم مهره، حتى أن اللقمة لتكون مثل أحد» وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل «ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات» قوله: «يتحقق الله الربا ويربي الصدقات»^(٥) [البقرة: ٢٧٦].

وقال الثوري والأعمش، كلاهما عن عبد الله بن السائب عن عبد الله بن أبي قتادة قال: قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، إن الصدقة تقع في يد الله عز وجل قبل أن تقع في يد السائل، ثم قرأ هذه الآية «ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات»^(٦).

وقد روى ابن عساكر في تاريخه في ترجمة عبد الله بن الشاعر السكسيكي الدمشقي وأصله حمصي، وكان أحد الفقهاء، روى عن معاوية وغيره، وحكى عنه حوشب بن سيف السكسيكي الحمصي قال: غزا الناس في زمان معاوية رضي الله عنه وعليهم عبد الرحمن بن خالد بن

(١) أخرجه مسلم في الزكاة حديث ١٧٦.

(٢) أخرجه أبو داود في الوتر باب ٢٨.

(٣) المسند ٥ / ٣٨٥ ، ٣٨٦.

(٤) المسند ٥ / ٤٠٠.

(٥) انظر تفسير الطبرى ٦ / ٤٦٦.

(٦) تفسير الطبرى ٦ / ٤٦٦.

الوليد، فغل رجل من المسلمين مائة دينار رومية. فلما قفل الجيش ندم وأتى الأمير فأبى أن يقبلها منه وقال: قد تفرق الناس ولن أقبلها منك حتى تأتى الله بها يوم القيمة، فجعل الرجل يستقرى الصحابة فيقولون له مثل ذلك، فلما قدم دمشق ذهب إلى معاوية ليقبلها منه فأبى عليه، فخرج من عنده وهو يبكي ويسترجع، فمر بعد الله بن الشاعر السكسكي فقال له ما يبكيك؟ فذكر له أمره، فقال له: أو مطبي أنت؟ فقال: نعم، فقال اذهب إلى معاوية فقل له أقبل مني خمسك فادفع إليه عشرين ديناراً وانظر إلى الشهانين الباقية فتصدق بها عن ذلك الجيش، فإن الله يقبل التوبة عن عباده وهو أعلم بأسمائهم ومكانتهم، ففعل الرجل، فقال معاوية رضي الله عنه: لأن أكون أفتته بها أحب إلى من كل شيء أملكه، أحسن الرجل.

وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِيرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَرَدُوكُمْ إِلَى عَنْلِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَدَةِ فَيُبَشِّرُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

قال مجاهد: هذا وعيد يعني من الله تعالى للمخالفين أوامره بأن أعمالهم ستعرض عليه تبارك وتعالى وعلى الرسول ﷺ وعلى المؤمنين. وهذا كائن لا محالة يوم القيمة كما قال: «يومئذ تعرضون لا تخفي منكم خافية» [الحاقة: ١٨] وقال تعالى: «يوم تبلى السرائر» [الطارق: ٩] وقال: «وحصل ما في الصدور» [العاديات: ١٠] وقد يظهر الله تعالى ذلك للناس في الدنيا، كما قال الإمام أحمد^(١): حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد مرفوعاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لأخرج الله عمله للناس كائناً ما كان» وقد ورد: أن أعمال الأحياء تعرض على الأموات من الأقرباء والعشائر في البرزخ، كما قال أبو داود الطيالسي: حدثنا الصلت بن دينار عن الحسن عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أعمالكم تعرض على أقربائكم وعشائركم في قبورهم، فإن كان خيراً استبشروا به، وإن كان غير ذلك قالوا: اللهم ألهمنهم أن يتعلموا بطاعتكم» وقال الإمام أحمد^(٢): أنبأنا عبد الرزاق عن سفيان عن سمع أنساً يقول: قال النبي ﷺ: إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات فإن كان خيراً استبشروا به وإن كان غير ذلك قالوا اللهم لا تتمهم حتى تهدىهم كما هديتنا».

وقال البخاري^(٣): قالت عائشة رضي الله عنها: إذا أعجبك حسن عمل امرئ مسلم فقل «أعملوا فسیری الله عملکم ورسوله والمؤمنون» وقد ورد في الحديث شيء بهذا، قال الإمام

(١) المستند ٢٨/٣.

(٢) المستند ١٦٤/٣، ١٦٥.

(٣) كتاب الشهادات باب ٢٦.

أحمد^(١): حدثنا يزيد، حدثنا حميد عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «لا عليكم أن تعجبوا بأحد حتى تنظروا بم يختتم له، فإن العامل يعمل زماناً من عمره أو برهة من عمل صالح لو مات عليه دخل الجنة ثم يتحول فيعمل عملاً سيئاً، وإن العبد ليعمل البرهة من دهره بعمل سيء لو مات عليه دخل النار ثم يتحول فيعمل عملاً صالحاً، وإذا أراد الله بعده خيراً استعمله قبل موته» قالوا: يا رسول الله وكيف يستعمله؟ قال: «يوفقه لعمل صالح ثم يقضيه عليه» تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه.

وَآخَرُونَ مَرْجَونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذَّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وغير واحد: هم الثلاثة الذين خلفوا أي عن التوبه، وهم مرارة بن الربيع وکعب بن مالك وهلال بن أمية، قعدوا عن غزوة تبوك في جملة من قعد كسلاً وميلاً إلى الدعوة والحفظ وطيب الشمار والظلال لا شكاً ونفاقاً، فكانت منهم طائفة ربطوا أنفسهم بالسواري كما فعل أبو لبابة وأصحابه، وطائفة لم يفعلوا ذلك وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون، فنزلت توبه أولئك قبل هؤلاء وأرجي هؤلاء عن التوبه، حتى نزلت الآية الآتية وهي قوله ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمَهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ [التوبه: ١١٧] الآية، ﴿وَعَلَىٰ الْمُلْكَةِ الَّتِي خَلَفَتْ حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحِبَتْ﴾ [التوبه: ١١٨] الآية، كما سيأتي في بيانه في حديث كعب بن مالك، وقوله ﴿إِمَّا يُعَذَّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ أي هم تحت عفو الله إن شاء فعل بهم هذا وإن شاء فعل بهم ذاك، ولكن رحمته تغلب غضبه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليم بمن يستحق العقوبة ومن يستحق العفو، حكيم في أفعاله وأقواله لا إله إلا هو ولا رب سواه.

وَالَّذِينَ أَخْكَذُوا مَسْجِدًا ضَرَادًا وَكُثُرًا وَنَفَرْبَيًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلٍ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشَهِّدُ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ لَا نَقْمَدُ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسْسَىٰ عَلَىٰ أَنْتَقَوْيَ مِنْ أَوْلَىٰ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ رِجَالٌ مُّحْبَّونَ أَنْ يَنْظَهَرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُظَاهِرِينَ

سبب نزول هذه الآيات الكريمتات، أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب، وكان قد تنصر في الجاهلية وقرأ علم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة في الجاهلية وله شرف في الخزرج كبير، فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة واجتمع المسلمون عليه وصارت للإسلام كلمة عالية وأظهراهم الله يوم بدر، شرق اللعين أبو عامر بريقه ويبارز بالعداوة وظاهر بها، وخرج فاراً إلى كفار مكة من مشركي قريش، يمالئهم

على حرب رسول الله ﷺ فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب وقدموا عام أحد، فكان من أمر المسلمين ما كان وامتحنهم الله عز وجل، وكانت العاقبة للمتقين.

وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين، فوقع في إحداهم رسول الله ﷺ وأصيب ذلك اليوم فجرح وجهه وكسرت رباعيته اليمنى السفلية وشح رأسه صلوات الله وسلامه عليه، وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار فخاطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه قالوا: لا أنعم الله بك علينا يا فاسقاً يا عدو الله، ونالوا منه وسبوه فرجع وهو يقول: والله لقد أصاب قومي بعدي شر، وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره وقرأ عليه من القرآن، فأبى أن يسلم وتمرد، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيداً طريراً فنالت هذه الدعوة، وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد، ورأى أمر الرسول ﷺ في ارتفاع وظهور، ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ فوعده ومناه وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يدعهم ويعينهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه، وأمرهم أن يتخدوا له معللاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ويكون مرصاداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك.

فسرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك، وجاؤوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتي إليهم فوصل إلى مسجدهم ليحتجو بصلاته فيه على تقريره وإثباته، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال: «إنا على سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله» فلما قفل عليه السلام راجعاً إلى المدينة من تبوك ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم، نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار وما اعتمدته بانوه من الكفر والتفرق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم مسجد قباء الذي أسس من أول يوم على التقوى. فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة، كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية، هم أناس من الأنصار بنوا مسجداً.

فقال لهم أبو عامر: أبنوا مسجداً واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح فإني ذاهب إلى قيسار ملك الروم فأتى بجنود من الروم وأخرج محمداً وأصحابه، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي ﷺ فقالوا له: قد فرغنا من بناء مسجدنا فتحب أن تصلي فيه وتدعوا لنا بالبركة، فأنزل الله عز وجل ﴿لَا تَقْمِ فِيهِ أَبْدًا﴾ إلى قوله: ﴿الظَّالَمِينَ﴾ وكذا روي عن سعيد بن جبير ومجاحد وعروة بن الزبير وقتادة وغير واحد من العلماء.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار، عن الزهري، ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبي بكر وعاصم بن عمر بن قتادة وغيرهم، قالوا: أقبل رسول الله ﷺ يعني من تبوك حتى نزل بذي أوان بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار، وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو

يتجهز إلى تبوك فقالوا: يا رسول الله إنا قد بنينا مسجداً الذي العلة وال الحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإننا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه، فقال: «إنى على جناح سفر وحال شغل» أو كما قال رسول الله ﷺ «ولو قد قدمنا إن شاء الله تعالى أتيتكم فصلينا لكم فيه».

فلما نزل بذى أوان أتاه خبر المسجد فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشمش أخا بن سالم بن عوف، ومعن بن عدي أو أخاه عامر بن عدي أخا بلعجلان فقال: «انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهمدماه وحرقاه» فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدخشمش. فقال مالك لمعن: أنظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي، فدخل أهله فأخذ سعفاً من التخل فأشعل فيه ناراً ثم خرجا يشتدان حتى دخلا المسجد وفيه أهله، فحرقاه وهدمها وتفرقوا عنه، ونزل فيهم من القرآن ما نزل ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَادُوا مَسْجِدًا ضَرَارًا وَكُفْرًا﴾ إلى آخر القصة.

وكان الذين بنوه اثنى عشر رجلاً: خدام بن خالد من بني عبيد بن زيد أحد بني عمرو بن عوف، ومن داره أخرج مسجد الشقاق، وثعلبة بن حاطب من بني عبيد وموالي بني أمية بن زيد، ومنتسب بن قشير من بني ضبيعة بن زيد، وأبو حبيبة بن الأزرع من بني ضبيعة بن زيد، وعباد بن حنيف أخو سهل بن حنيف من بني عمرو بن عوف، وحارثة بن عامر وابنه مجعم بن حارثة وزيد بن حارثة ونبيل الحارث وهم من بني ضبيعة ومحرج، وهم من بني ضبيعة، ويجاد بن عثمان وهو من بني ضبيعة، ووديعة بن ثابت، وموالي بني أمية رهط أبي لبابة بن عبد المنذر.

وقوله ﴿وَلِيَحْلِفُنَّ﴾ أي الذين بنوه ﴿إِنَّ أَرْدَنَا إِلَّا الْحَسْنَى﴾ أي ما أردنا ببنائه إلا خيراً ورفقاً بالناس، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشَهِدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي فيما قصدوا وفيما نووا، وإنما بنوه ضراراً لمسجد قباء وكفراً بالله وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل، وهو أبو عامر الفاسق الذي يقال له الراهب لعن الله.

وقوله ﴿لَا تَقْمِ فِيهِ أَبْدًا﴾ نهي له ﷺ والأمة تبع له في ذلك عن أن يقوم فيه أي يصلي فيه أبداً. ثم حثه على الصلاة بمسجد قباء الذي أسس من أول يوم ببنائه على التقوى، وهي طاعة الله وطاعة رسوله وجمعأ لكلمة المؤمنين ومعقلأً وموئلاً للإسلام وأهله، ولهذا قال تعالى: ﴿لَمْ يَسْجُدْ أَسَسٌ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحْقَقَ أَنْ تَقْوَمَ فِيهِ﴾ والسياق إنما هو في معرض مسجد قباء، ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة في مسجد قباء ك عمرة»^(١)، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يزور مسجد قباء راكباً ومشياً^(٢)، وفي

(١) أخرجه ابن ماجه في الصلاة باب .٣٠

(٢) أخرجه مسلم في الحجج حديث ٥١٥، وأحمد في المسند ٥ / ٢

الحاديـث أـن رـسول اللـه ﷺ لـما بـناه وـأسـسه أـول قـدومـه وـنـزولـه عـلـى بـنـي عـمـرـو بـنـ عـوفـ كـانـ جـبـرـيلـ هـو الـذـي عـيـنـ لـه جـهـةـ الـقـبـلـةـ، فـالـلـهـ أـعـلـمـ.

وقـالـ أـبـو دـاودـ: حـدـثـنـا مـحـمـدـ بـنـ العـلـاءـ، حـدـثـنـا مـعـاوـيـةـ بـنـ هـشـامـ عـنـ يـونـسـ بـنـ الـحـارـثـ عـنـ إـبـراهـيمـ بـنـ أـبـي مـيـمـونـةـ عـنـ أـبـي صـالـحـ عـنـ أـبـي هـرـيـرـةـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ عـنـ النـبـيـ ﷺ قـالـ: «نـزلـتـ هـذـهـ الـآـيـةـ فـي أـهـلـ قـبـاءـ» **﴿فـيـهـ رـجـالـ يـحـبـونـ أـنـ يـتـطـهـرـوا﴾** - قـالـ - كـانـوا يـسـتـجـوـنـ بـالـمـاءـ فـنـزـلتـ فـيـهـمـ هـذـهـ الـآـيـةـ^(١). وـرـوـاهـ التـرمـذـيـ وـابـنـ مـاجـهـ مـنـ حـدـيـثـ يـونـسـ بـنـ الـحـارـثـ وـهـ ضـعـيفـ، وـقـالـ التـرمـذـيـ غـرـيبـ مـنـ هـذـاـ الـوـجـهـ، وـقـالـ الطـبرـانـيـ: حـدـثـنـا الـحـسـنـ بـنـ عـلـيـ الـمـعـمـريـ، حـدـثـنـا مـحـمـدـ بـنـ حـمـيدـ الرـازـيـ، حـدـثـنـا سـلـمـةـ بـنـ الفـضـلـ مـنـ حـدـيـثـ مـحـمـدـ بـنـ إـسـحـاقـ عـنـ الـأـعـمـشـ عـنـ مـجـاهـدـ عـنـ اـبـنـ عـبـاسـ قـالـ: لـمـا نـزـلتـ هـذـهـ الـآـيـةـ» **﴿فـيـهـ رـجـالـ يـحـبـونـ أـنـ يـتـطـهـرـوا﴾** بـعـثـ رـسـولـ اللـهـ ﷺ إـلـىـ عـوـيـمـ بـنـ سـاعـدـةـ فـقـالـ: «مـاـ هـذـاـ الـطـهـورـ الـذـيـ أـثـنـىـ اللـهـ عـلـيـكـمـ؟» فـقـالـ: يـاـ رـسـولـ اللـهـ مـاـ خـرـجـ مـنـ رـجـلـ وـلـاـ اـمـرـأـ مـنـ الـغـائـطـ إـلـاـ وـغـسلـ فـرـجـهـ أـوـ قـالـ مـقـدـعـتـهـ، فـقـالـ النـبـيـ ﷺ «هـذـاـ».

وـقـالـ الإـمـامـ أـحـمـدـ^(٢): حـدـثـنـا حـسـينـ بـنـ مـحـمـدـ، حـدـثـنـا أـبـو أـوـيـسـ، حـدـثـنـا شـرـحـبـيلـ عـنـ عـوـيـمـ بـنـ سـاعـدـةـ الـأـنـصـارـيـ، أـنـهـ حـدـثـهـ أـنـ النـبـيـ ﷺ أـتـاهـمـ فـيـ مـسـجـدـ قـبـاءـ فـقـالـ: «إـنـ اللـهـ تـعـالـىـ قـدـ أـحـسـنـ عـلـيـكـمـ ثـنـاءـ فـيـ الـطـهـورـ فـيـ قـصـةـ مـسـجـدـكـمـ، فـمـاـ هـذـاـ الـطـهـورـ الـذـيـ تـظـهـرـونـ بـهـ؟» فـقـالـوـاـ: وـالـلـهـ يـاـ رـسـولـ اللـهـ مـاـ نـعـلـمـ شـيـئـاـ، إـلـاـ أـنـهـ كـانـ لـنـاـ جـيـرـانـ مـنـ الـيـهـودـ فـكـانـواـ يـغـسـلـونـ أـدـبـارـهـمـ مـنـ الـغـائـطـ فـغـسـلـنـاـ كـمـاـ غـسـلـوـاـ، وـرـوـاهـ اـبـنـ خـزـيـمـةـ فـيـ صـحـيـحـهـ، وـقـالـ هـشـيـمـ عـنـ عـبـدـ الـحـمـيدـ الـمـدـنـيـ عـنـ إـبـراهـيمـ بـنـ إـسـمـاعـيلـ الـأـنـصـارـيـ: أـنـ رـسـولـ اللـهـ ﷺ قـالـ لـعـوـيـمـ بـنـ سـاعـدـةـ: «مـاـ هـذـاـ الـذـيـ أـثـنـىـ اللـهـ عـلـيـكـمـ» **﴿فـيـهـ رـجـالـ يـحـبـونـ أـنـ يـتـطـهـرـواـ؟﴾** الـآـيـةـ، قـالـوـاـ: يـاـ رـسـولـ اللـهـ إـنـاـ نـغـسلـ الـأـدـبـارـ بـالـمـاءـ^(٣)، وـقـالـ اـبـنـ جـرـيرـ^(٤): حـدـثـنـيـ مـحـمـدـ بـنـ عـمـارـةـ الـأـسـدـيـ، حـدـثـنـاـ مـحـمـدـ بـنـ سـعـدـ عـنـ إـبـراهـيمـ بـنـ مـحـمـدـ عـنـ شـرـحـبـيلـ بـنـ حـنـبـلـ قـالـ: سـمـعـتـ خـزـيـمـةـ بـنـ ثـابـتـ يـقـولـ: نـزـلتـ هـذـهـ الـآـيـةـ» **﴿فـيـهـ رـجـالـ يـحـبـونـ أـنـ يـتـطـهـرـواـ وـالـلـهـ يـحـبـ الـمـطـهـرـينـ﴾** قـالـ كـانـواـ يـغـسـلـونـ أـدـبـارـهـمـ مـنـ الـغـائـطـ.

حـدـيـثـ آـخـرـ قـالـ الإـمـامـ أـحـمـدـ بـنـ حـنـبـلـ^(٥): حـدـثـنـا يـحـيـىـ بـنـ آـدـمـ، حـدـثـنـا مـالـكـ يـعـنـيـ اـبـنـ مـغـولـ، سـمـعـتـ سـيـارـاـ أـبـاـ الـحـكـمـ عـنـ شـهـرـ بـنـ حـوشـبـ عـنـ مـحـمـدـ بـنـ عـبـدـ اللـهـ بـنـ سـلـامـ قـالـ: لـمـاـ قـدـمـ رـسـولـ اللـهـ ﷺ يـعـنـيـ قـبـاءـ، فـقـالـ: «إـنـ اللـهـ عـزـ وـجـلـ قـدـ أـثـنـىـ عـلـيـكـمـ فـيـ الـطـهـورـ خـيـرـاـ أـفـلاـ

(١) أـخـرـجـهـ أـبـو دـاودـ فـيـ الـطـهـارـةـ بـابـ ٢٣ـ، وـالـتـرمـذـيـ فـيـ تـقـسـيـرـ سـوـرـةـ ٩ـ، بـابـ ١٥ـ، وـابـنـ مـاجـهـ فـيـ الـطـهـارـةـ بـابـ ٢٨ـ.

(٢) المسـنـدـ / ٤٢٢ـ.

(٣) انـظـرـ تـقـسـيـرـ الطـبـرـيـ / ٦ـ / ٤٧٧ـ.

(٤) تـقـسـيـرـ الطـبـرـيـ / ٦ـ / ٤٧٦ـ.

(٥) المسـنـدـ / ٦ـ.

تخبروني؟» يعني قوله **﴿فِيهِ رَجُالٌ يَحْبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾** فقالوا يا رسول الله إننا نجد مكتوباً علينا في التوراة الاستنجاء بالماء.

وقد صرخ بأنه مسجد قباء جماعة من السلف، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، ورواه عبد الرزاق عن عمر الزهرى عن عروة بن الزبير، وقال عطية العوفى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم والشعبي والحسن البصري ونقله البغوى عن سعيد بن جبير وقناة، وقد ورد في الحديث الصحيح أن مسجد رسول الله ﷺ الذي في جوف المدينة هو المسجد الذي أسس على التقوى، وهذا صحيح. ولا منافاة بين الآية وبين هذا، لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأخرى، ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل في مستنه: حدثنا أبو نعيم، حدثنا عبد الله بن عامر الإسلامي عن عمران بن أبي أنس، عن سهل بن سعد عن أبي بن كعب أن النبي ﷺ قال: «المسجد الذي أسس على التقوى مسجدي هذا» تفرد به أحمد^(١).

حديث آخر قال الإمام أحمد^(٢): حدثنا وكيع، حدثنا ربيعة بن عثمان التيمي عن عمران بن أبي أنس عن سهل بن سعد الساعدي قال: اختلف رجلان على عهد رسول الله ﷺ في المسجد الذي أسس على التقوى ف قال أحدهما هو مسجد رسول الله ﷺ، وقال الآخر هو مسجد قباء، فأتيا النبي ﷺ فسألاه فقال: «هو مسجدي هذا» تفرد به أحمد أيضاً.

حديث آخر قال الإمام أحمد^(٣): حدثنا موسى بن داود، حدثنا ليث عن عمران بن أبي أنس عن سعيد بن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: تمari رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم، فقال أحدهما هو مسجد قباء، وقال الآخر هو مسجد رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ «هو مسجدي هذا» تفرد به أحمد.

طريق آخر قال الإمام أحمد^(٤): حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا ليث حدثني عمران بن أبي أنس عن ابن أبي سعيد عن أبيه أنه قال: تمari رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم، فقال رجل هو مسجد قباء، وقال الآخر هو مسجد رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ «هو مسجدي»^(٥) وكذا رواه الترمذى والنمسائى عن قتيبة عن الليث وصححه الترمذى ورواه مسلم كما سيأتي.

(١) المسند ٥/١١٦.

(٢) المسند ٥/٣٣١.

(٣) المسند ٣/٨٩.

(٤) المسند ٣/٧.

(٥) أخرجه الترمذى في تفسير سورة ٩، باب ١٤، والنمسائى في المساجد باب ٨.

طريق أخرى قال الإمام أحمد^(١): حدثنا يحيى عن أنس بن أبي يحيى، حدثني أبي قال: سمعت أبا سعيد الخدري قال: اختلف رجلان رجل من بني خدرة ورجل من بني عمرو بن عوف، في المسجد الذي أسس على التقوى، فقال الخدري هو مسجد رسول الله ﷺ، وقال العمري هو مسجد قباء، فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه عن ذلك فقال: «هو هذا المسجد» لمسجد رسول الله ﷺ، وقال في ذلك يعني مسجد قباء.

طريق أخرى قال أبو جعفر بن جرير^(٢): حدثنا ابن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا حميد الخراط المدني سأله أبا سلمة بن عبد الرحمن بن أبي سعيد فقلت كيف سمعت أباك يقول في المسجد الذي أسس على التقوى؟ فقال إني أتيت رسول الله ﷺ فدخلت عليه في بيته لبعض نسائه فقلت: يا رسول الله أين المسجد الذي أسس على التقوى؟ قال: فأخذ كفافاً من حصباء فضرب به الأرض ثم قال: «هو مسجدكم هذا» ثم قال سمعت أباك يذكره، رواه مسلم^(٣) متقدراً به عن محمد بن حاتم عن يحيى بن سعيد به، ورواه عن أبي بكر بن أبي شيبة وغيره عن حاتم بن إسماعيل عن حميد الخراط به، وقد قال بأنه مسجد النبي ﷺ جماعة من السلف والخلف، وهو مروي عن عمر بن الخطاب وابنه عبد الله وزيد بن ثابت وسعيد بن المسيب، واختاره ابن جرير.

وقوله: «لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه رجال يحبون أن يتظهروا والله يحب المطهرين» دليل على استحباب الصلاة في المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له، وعلى استحباب الصلاة مع الجماعة الصالحين والعباد العاملين المحافظين على إسباغ الوضوء والتزه عن ملابسة القاذرات.

وقد قال الإمام أحمد^(٤): حدثنا محمد بن جعفر عن شعبة عن عبد الملك بن عمير، سمعت شبيباً أبا روح يحدث عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح فقرأ الروم فيها فأوهم فلما انصرف قال: «إنه يلبس علينا القرآن إن أقراها منكم يصلون معنا لا يحسنون الوضوء، فمن شهد الصلاة معنا فليحسن الوضوء» ثم رواه من طريقين آخرين عن عبد الملك بن عمير عن شبيب أبي روح من ذي الكلاع، أنه صلى مع النبي ﷺ فذكره، فدل هذا على أن إكمال الطهارة يسهل العبادة ويعين على إتمامها وإكمالها والقيام بمشروعيتها.

وقال أبو العالية في قوله تعالى: «والله يحب المطهرين» إن الطهور بالماء لحسن ولكنهم

(١) المستند ٢٣/٣.

(٢) تفسير الطبرى ٦/٤٧٣ ، ٤٧٤.

(٣) كتاب الحج الحديث ٥١٤.

(٤) المستند ٣/٤٧١ ، ٤٧٢.

المطهرون من الذنوب . وقال الأعمش التوبة من الذنوب والظهور من الشرك ، وقد ورد في الحديث المروي من طرق في السنن وغيرها أن رسول الله ﷺ قال لأهل قباء : « قد أثني الله عليكم في الظهور فماذا تصنعون؟ » فقالوا نستنجي بالماء ، وقد قال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا عبد الله بن شبيب ، حدثنا أحمد بن عبد العزيز قال : وجدته في كتاب أبي عن الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال نزلت هذه الآية في أهل قباء **﴿فِيهِ رَجُالٌ يَحْبُّونَ أَنْ يَتَظَاهِرُوا وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُطَهَّرِينَ﴾** فسألهم رسول الله ﷺ ، فقالوا إنا نتع الحجارة بالماء رواه البزار ، ثم قال : تفرد به محمد بن عبد العزيز عن الزهرى ولم يرو عنه سوى ابنه ، (قلت) وإنما ذكرته بهذا اللفظ لأنه مشهور بين الفقهاء ولم يعرفه كثير من المحدثين المتأخرين أو كلهم ، والله أعلم .

**أَفَمَنْ أَسَسَ بُيُّكِنَتُهُ عَلَى تَقْوَىٰ يَرْبَنْ اللَّهَ وَرَضُوَانِ خَيْرٍ أَمْ مَنْ أَسَسَ بُيُّكِنَتُهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ
هَكَارٍ فَأَنْهَارَ يَهُهَ، فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ أَنَّظَلِيمِينَ لَا يَرَأُلُ بُيُّكِنَتُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِبْيَةً فِي
قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقْطَعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**

يقول تعالى لا يستوي من أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان ومن بنى مسجداً ضراراً وكفراً وتفرقاً بين المؤمنين ، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل ، فإنما يبني هؤلاء بنيانهم على شفا جرف هار ، أي طرف حفيرة ، مثاله **﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾** أي لا يصلح عمل المفسدين . قال جابر بن عبد الله : رأيت المسجد الذي بني ضراراً يخرج منه الدخان على عهد رسول الله ﷺ ^(١) ، وقال ابن جريج : ذكر لنا أن رجالاً حفروا فوقدوا الدخان يخرج منه ^(٢) ، وكذا قال قتادة ، وقال خلف بن ياسين الكوفي : رأيت مسجد المنافقين الذي ذكره الله تعالى في القرآن وفيه جحر يخرج منه الدخان وهو اليوم مربلة ، رواه ابن جرير ^(٣) رحمه الله .

وقوله تعالى : **« لَا يَرَأُلُ بُيُّكِنَتُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِبْيَةً فِي قُلُوبِهِمْ »** أي شكاماً ونفاقاً ، بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع أورثهم نفاقاً في قلوبهم كما أشرب عابدو العجل حبه ، وقوله : **« إِلَّا أَنْ تَقْطَعَ قُلُوبِهِمْ »** أي بموتهم ، قاله ابن عباس ومجاحد وقتادة وزيد بن أسلم والسدي وحبيب بن أبي ثابت والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد من علماء السلف ، **﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾** أي بأعمال خلقه **« حَكِيمٌ »** في مجاراتهم عنها من خير وشر .

(١) انظر تفسير الطبرى / ٤٧٩ .

(٢) تفسير الطبرى / ٤٧٩ .

(٣) تفسير الطبرى / ٤٧٩ .

إِنَّ اللَّهَ أَشَرَّى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يَقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلُونَ وَيَقْتَلُونَ وَعَدَ اللَّهُ عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّورَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنَ وَمَنْ أَوْفَ بِعَهْدِهِ فَإِنَّ اللَّهَ فَاسْتَبِشْرُوا بِيَبْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١﴾

يخبر تعالى أنه عاوض عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذ بذلوها في سبيل الجنة، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه، فإنه قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عبيده المطاعين له. ولهذا قال الحسن البصري وقتادة: بایعهم والله فأغلقى ثمنهم . وقال شمر بن عطية: ما من مسلم إلا والله عز وجل في عنقه بيعة، وفي بها أو مات عليها ثم تلا هذه الآية^(١). ولهذا يقال من حمل في سبيل الله بایع الله أي قبل هذا العقد ووفى به . وقال محمد بن كعب القرظي وغيره ، قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه لرسول الله ﷺ يعني ليلة العقبة: اشترط لربك ولنفسك ما شئت ، فقال «أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشرکوا به شيئاً . وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم» قالوا فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ قال «الجنة» قالوا: ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل ، فنزلت ﴿إِنَّ اللَّهَ أَشَرَّى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُم﴾^(٢).

الآية، قوله: ﴿يَقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلُونَ وَيَقْتَلُونَ﴾ أي سواء قتلوا أو قتلوا ، أو اجتمع لهم هذا فقد وجبت لهم الجنة . ولهذا جاء في الصحيحين «وتكتل الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيله وتصديق برسله بأن توفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى منزله الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة»^(٣).

وقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ عَلَيْهِ حَقًّا فِي التُّورَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ تأكيد لهذا الوعد وإنكار بأنه قد كتبه على نفسه الكريمة وأنزله على رسليه في كتبه الكبار ، وهي التوراة المتزلة على موسى ، والإنجيل المتزل على عيسى ، والقرآن المتزل على محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . قوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ فإنـه لا يخلف الميعاد . هذا كقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقَ مِنَ اللَّهِ حِدِيثَنَا﴾ [النساء: ٨٧] ﴿وَمَنْ أَصْدَقَ مِنَ اللَّهِ قِيلَ﴾ [النساء: ١٢٢] ولهذا قال ﴿فَاسْتَبِشْرُوا بِيَبْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي فليستبشر من قام بمقتضى هذا العقد ووفى بهذا العهد بالفوز العظيم والنعيم المقيم .

الثَّبِيُورُونَ الْمُعْتَدِلُونَ الْمُحِمَّدُونَ السَّكِيْحُونَ الْرَّكِيْعُونَ السَّكِيْجُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالْمَاهُورُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْمُنْفِطُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَيَسِّرْ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾

(١) انظر تفسير الطبرى ٤٨٢/٦.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٤٨٢/٦.

(٣) أخرجه البخاري في الخمس باب ٨ ، ومسلم في الإمارة حديث ١٠٤ .

هذا نعت المؤمنين الذين اشتري الله منهم أنفسهم وأموالهم بهذه الصفات الجميلة والخلال الجليلة ﴿التائبون﴾ من الذنب كلها التاركون للفواحش ﴿العابدون﴾ أي القائمون بعبادة ربهم محافظين عليها وهي الأقوال والأفعال، فمن أخص الأقوال الحمد، فلهذا قال: ﴿الحامدون﴾ ومن أفضل الأعمال الصيام وهو ترك الملاذ من الطعام والشراب والجماع، وهو المراد بالسياحة هنا، ولهذا قال: ﴿السائحون﴾ كما وصف أزواج النبي ﷺ بذلك في قوله تعالى: ﴿سائحات﴾ [التحریم: ٥] أي صائمات، وكذا الرکوع والسجود وهما عبارة عن الصلاة، ولهذا قال: ﴿الراکعون الساجدون﴾ وهم مع ذلك ينفعون خلق الله ويرشدونهم إلى طاعة الله بأمرهم بالمعرفة ونهيهم عن المنكر مع العلم بما ينبغي فعله ويجب تركه، وهو حفظ حدود الله في تحليله وتحريميه علمًاً وعملًاً، فقاموا بعبادة الحق ونصح الخلق، ولهذا قال: ﴿وبشر المؤمنين﴾ لأن الإيمان يشمل هذا كله، والسعادة كل السعادة لمن اتصف به.

[بيان أن المراد بالسياحة الصيام] قال سفيان الثوري: عن عاصم عن زر عن عبد الله بن مسعود قال ﴿السائحون﴾ الصائمون^(١) وكذا روي عن سعيد بن جبير والعموفي عن ابن عباس، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس كل ما ذكر الله في القرآن السياحة هم الصائمون^(٢)، وكذا قال الضحاك رحمه الله، وقال ابن جرير^(٣): حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو أحمد، حدثنا إبراهيم بن يزيد عن الوليد بن عبد الله عن عائشة رضي الله عنها قالت: سياحة هذه الأمة الصيام، وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء وأبو عبد الرحمن السلمي والضحاك بن مزاحم وسفيان بن عيينة وغيرهم، أن المراد بالسائحين الصائمون، وقال الحسن البصري: ﴿السائحون﴾ الصائمون شهر رمضان، وقال أبو عمرو العبدى: ﴿السائحون﴾ الذين يديرون الصيام من المؤمنين.

وقد ورد في حديث مرفوع نحو هذا، وقال ابن جرير^(٤): حدثني محمد بن عبد الله بن بزيع، حدثنا حكيم بن حزام، حدثنا سليمان عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ ﴿السائحون هم الصائمون﴾ وهذا الموقوف أصح، وقال أيضاً حدثني يونس عن ابن وهب عن عمر بن الحارث عن عمرو بن دينار عن عبيد بن عمير، قال: سئل النبي ﷺ عن السائحين، فقال «هم الصائمون» وهذا مرسل جيد وهذا أصح الأقوال وأشهرها.

وجاء ما يدل على أن السياحة الجهاد وهو ما روى أبو داود في سنته من حديث أبي أمامة أن رجلاً قال: يا رسول الله ائذن لي في السياحة، فقال النبي ﷺ: «سياحة أمتي الجهاد في

(١) انظر تفسير الطبرى ٤٨٤ / ٦.

(٢) تفسير الطبرى ٤٨٤ / ٦.

(٣) تفسير الطبرى ٤٨٦ / ٦.

(٤) تفسير الطبرى ٤٨٤ / ٦.

سبيل الله^(١)) وقال ابن المبارك عن ابن لهيعة، أخبرني عمارة بن غزية أن السياحة ذكرت عند رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «أبدلنا الله بذلك الجهاد في سبيل الله والتکبير على كل شرف» وعن عكرمة أنه قال: هم طلبة العلم، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المهاجرون، رواهما ابن أبي حاتم.

وليس المراد من السياحة ما قد يفهمه بعض من يتبع بمجرد السياحة في الأرض والتفرد في شواهد الجبال والكهوف والبراري، فإن هذا ليس مشروع إلا في أيام الفتنة والزلزال في الدين، كما ثبت في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ قال: «يوشك أن يكون خير مال الرجل غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتنة»^(٢) وقال العوفي وعلي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: «والحافظون لحدود الله» قال القائمون بطاعة الله، وكذا قال الحسن البصري وعنه رواية «الحافظون لحدود الله» قال: لفرض الله، وفي رواية القائمون على أمر الله.

ما كَانَ لِلنَّبِيِّ وَلِذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَئِكُنْ قُرُونٌ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ
لَهُنَّ أَنَّهُمْ أَضَحَّبُ الْجَحِيمَ وَمَا كَانَ أَسْتَغْفِرًا إِلَّا لِهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِنَّهَا
فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُمْ عَدُوٌّ لِلَّهِ وَلِرَبِّهِ مِنْهُ إِنَّ إِلَّاهَهُمْ لَآؤَاهُ حَلِيمٌ

قال الإمام أحمد: ^(٣) حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر عن الزهرى عن ابن المسىب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنه أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية، فقال «أي عم، قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله عز وجل» فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فقال: أنا على ملة عبد المطلب، فقال النبي ﷺ «لأستغفرن لك ما لم أنه عنك» فنزلت ^{﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمسركين ولو كانوا أولئي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾} قال ونزلت فيه ^{﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مِنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مِنْ يَشَاء﴾}^(٤) [القصص: ٥٦]

آخر جاه.

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد باب ٦.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان باب ١٢، والفتنة باب ١٤، والرقاق باب ٣٤، وأبو داود في الفتنة باب ٤، والنسائي في الإيمان باب ٣٠، وابن ماجه في الفتنة باب ١٣، ومالك في الاستئذان حديث ١٦، وأحمد في المسند ٦/٣، ٣٠، ٤٣، ٥٧.

(٣) المسند ٥/٥٣٣.

(٤) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٩، باب ١٦، ومسلم في الإيمان حديث ٣٩.

وقال الإمام أحمد^(١): حدثنا يحيى بن آدم، أخبرنا سفيان عن أبي إسحاق عن أبي الخليل عن علي رضي الله عنه قال: سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهم مشركان، فقلت: أيستفغر الرجل لأبويه وهم مشركان؟ فقال: أو لم يستغفر إبراهيم لأبيه؟ فذكرت ذلك للنبي ﷺ فنزلت **﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾** الآية، قال لما مات فلا Adri، قاله سفيان أو قاله إسرائيل أو هو في الحديث لما مات، (قلت): هذا ثابت عن مجاهد أنه قال لما مات.

وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا زهير، حدثنا زيد بن الحارث اليامي عن محارب بن دثار عن ابن بريدة عن أبيه قال كنا مع النبي ﷺ ونحن في سفر، فنزل بنا ونجن قريب من ألف راكب، فصلى ركعتين ثم أقبل علينا بوجهه وعيناه تذرفان، فقام إليه عمر بن الخطاب وفداه بالأب والأم وقال: يا رسول الله ما لك؟ قال «إني سألت ربِّي عز وجل في الاستغفار لأمي فلم يأذن لي فدمعت عيناي رحمة لها من النار، وإنِّي كنت نهيتكم عن ثلاثة: نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها لتذكِّرُوكم زياراتها خيراً. ونهيتكم عن لحوم الأضاحي بعد ثلاثة فكلوا وأمسكوا ما شئتم، ونهيتكم عن الأشربة في الأوุية فاشربوا في أي وعاء شئتم ولا تشربوا مسکراً».

وروى ابن جرير^(٣) من حديث علقة بن مرثد عن سليمان بن بريدة عن أبيه أن النبي ﷺ لما قدم مكة، أتى رسم قبر فجلس إليه فجعل يخاطب ثم قام مستعبراً، فقلنا يا رسول الله إننا رأينا ما صنعت. قال: «إني استأذنت ربِّي في زيارة قبر أمي فأذن لي واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي» فما رأي باكيًا أكثر من يومئذ.

وقال ابن أبي حاتم في تفسيره: حدثنا أبي، حدثنا خالد بن خداش، حدثنا عبد الله بن وهب عن ابن جرير عن أبوبن هانيء عن مسروق عن عبد الله بن مسعود، قال: خرج رسول الله ﷺ يوماً إلى المقابر فاتبعناه فجاء حتى جلس إلى قبر منها، فناجاه طويلاً ثم بكى بكينا لبكائه، ثم قام فقام إليه عمر بن الخطاب فدعاه ثم دعا، فقال «ما أبكاكم؟» فقلنا بكينا لبكائكم. قال: «إن القبر الذي جلست عنده قبر آمنة، وإنِّي استأذنت ربِّي في زياراتها فأذن لي»^(٤) ثم أورده من وجه آخر، ثم ذكر من حديث ابن مسعود قريباً منه، وفيه «وإنِّي استأذنت ربِّي في الدعاء لها فلم يأذن لي وأنزل على **﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾** الآية، فأخذني ما يأخذ الولد للوالد، وكنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها فإنها تذكر الآخرة».

(١) المسند ١/٩٩.

(٢) المسند ٥/٣٥٥.

(٣) تفسير الطبرى ٦/٤٨٩.

(٤) أخرجه السيوطي في الدر المثمر ٣/٥٠٧.

حدث آخر في معناه. قال الطبراني: حدثنا محمد بن علي المروزي، حدثنا أبو الدرداء عبد العزيز بن منيب، حدثنا إسحاق بن عبد الله بن كيسان، عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما أقبل من غزوة تبوك واعتبر، فلما هبط من ثنية عسفان أمر أصحابه أن استندوا إلى العقبة حتى أرجع إليكم، فذهب فنزل على قبر أمه فناجى ربه طويلاً، ثم إنه بكى فاشتد بكاؤه وبكي هؤلاء لبكائه، وقالوا ما بكى نبي الله بهذا المكان إلا وقد أحدث الله في أمته شيئاً لا تطيقه، فلما بكى هؤلاء قام فرجع إليهم فقال: «ما يبكيكم؟» قالوا يا نبي الله بكينا لبكائك، فقلنا لعله أحدث في أمتك شيء لا تطيقه، قال: «لا، وقد كان بعضه، ولكن نزلت على قبر أمي فسألت الله أن يأذن لي في شفاعتها يوم القيمة فأبى الله أن يأذن لي فرحمتها وهي أمي فبكى، ثم جاءني جبريل فقال: «وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو الله تبراً منه» فتبراً أنت من أمك كما تبراً إبراهيم من أبيه، فرحمتها وهي أمي ودعوت ربى أن يرفع عن أمتي أربعاً فرفع عنهم اثنين وأبى أن يرفع عنهم اثنين، ودعوت ربى أن يرفع عنهم الرجم من السماء والغرق من الأرض وأن لا يلبسهم شيئاً وأن لا يذيق بعضهم بأس بعض، فرفع الله عنهم الرجم من السماء والغرق من الأرض وأبى الله أن يرفع عنهم القتل والهرج» وإنما عدل إلى قبر أمه لأنها كانت مدفونة تحت كداء وكانت عسفان لهم^(١)، وهذا حديث غريب وسياق عجيب.

وأغرب منه وأشد نكارة ما رواه الخطيب البغدادي في كتاب السابق واللاحق بسند مجهول عن عائشة في حديث فيه قصة، أن الله أحياناً أمه فآمنت ثم عادت، وكذلك ما رواه السهيلي في الروض بسند فيه جماعة مجهولون: إن الله أحياناً له أباء وأمه فآمنا به. وقد قال الحافظ ابن دحية في هذا الاستدلال، بما حاصله أن هذه حياة جديدة كما رجعت الشمس بعد غيبوبتها، فصلى علي العصر، قال الطحاوي: وهو حديث ثابت يعني حديث الشمس، قال القرطبي: فليس بإحياءهما يمتنع عقلاً ولا شرعاً، قال وقد سمعت أن الله أحياناً عمه أبا طالب فآمن به، (قلت) وهذا كله متوقف على صحة الحديث فإذا صلح فلا مانع منه، والله أعلم.

وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: «ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين» الآية، أن النبي ﷺ أراد أن يستغفر لأمه فنهاه الله عز وجل عن ذلك، فقال «إن إبراهيم خليل الله قد استغفر لأبيه» فأنزل الله «وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة عدها إياه»^(٢) الآية، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية، كانوا يستغفرون لهم حتى نزلت هذه الآية، فأمسكوا عن الاستغفار لأمواتهم ولم ينهوا أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا، ثم

(١) انظر الدر المثمر ٣/٥٠٦، ٥٠٧، وأضاف: وبها ولد النبي ﷺ.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٦/٤٨٩.

أنزل الله ﷺ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه الآية.

وقال قتادة في الآية: ذكر لنا أن رجالاً من أصحاب النبي ﷺ قالوا: يا نبي الله إن من آبائنا من كان يحسن الجوار ويصل الأرحام ويفك العاني ويوفى بالذم أفلأ تستغفر لهم؟ قال: فقال النبي ﷺ «بلى والله إني لاستغفر لأبي كما استغفر إبراهيم لأبيه» فأنزل الله ﷺ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين حتى بلغ قوله ﷺ «الجحيم» ثم عذر الله تعالى إبراهيم عليه السلام، فقال: «وما كان استغفار إبراهيم لأبيه» الآية، قال: وذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال: «قد أوحى الله إليّ كلمات فدخلن في ذنبي ووقرن في قلبي: أمرت أن لا استغفر لمن مات مشركاً، ومن أعطى فضل ماله فهو خير له، ومن أمسك فهو شره، ولا يلوم الله على كفاف»^(١).

وقال الثوري عن الشيباني عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: مات رجل يهودي وله ابن مسلم فلم يخرج معه، فذكر ذلك لابن عباس فقال: فكان ينبغي له أن يمشي معه ويدفعه ويدعوه له بالصلاح ما دام حياً، فإذا مات وكله إلى شأنه، ثم قال: «وما كان استغفار إبراهيم لأبيه» - إلى قوله - «تبراً منه» لم يدع^(٢). ويشهد له بالصحة ما رواه أبو داود وغيره عن علي رضي الله عنه، لما مات أبو طالب قلت: يا رسول الله إن عمك الشيخ الضال قد مات، قال: «اذهب فواره ولا تحدث شيئاً حتى تأتيني»^(٣) فذكر تمام الحديث، وروي أنه ﷺ لما مرت به جنازة عمه أبي طالب قال: «وصلتك رحمة يا عم» وقال عطاء بن أبي رباح: ما كنت لأدع الصلاة على أحد من أهل القبلة، ولو كانت حبشية حبل من الزنا، لأنني لم أسمع الله حجب الصلاة إلا عن المشركين، يقول الله عز وجل: «ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين» الآية.

وروى ابن جرير^(٤)، عن ابن وكيع عن أبيه عن عصمة بن زامل عن أبيه، قال: سمعت أبا هريرة يقول رحم الله رجلاً استغفر لأبي هريرة ولأمه، قلت ولأبيه. قال لا. قال إن أبي مات مشركاً، وقوله: «فلما تبين له أنه عدو الله تبراً منه» قال ابن عباس: ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات، فلما تبين له أنه عدو الله تبراً منه، وفي رواية لما مات تبين له أنه عدو الله، وكذلك قال مجاهد والضحاك وقتادة وغيرهم رحمهم الله، وقال عبيد بن عمير وسعيد بن جبير: إنه يتبرأ منه يوم القيمة حتى يلقى أباء، وعلى وجه أبيه القرفة والغبرة، فيقول: يا إبراهيم إني كنت أعصيك وإنني اليوم لا أعصيك، فيقول أي رب ألم تعدني أن لا تخزنني يوم يبعثون، فأي خزي

(١) انظر تفسير الطبرى / ٦٤٨٩.

(٢) انظر تفسير الطبرى / ٦٤٩٠ ، ٤٩١.

(٣) آخرجه أبو داود في الجنائز باب ٦٦، والنمسائي في الطهارة باب ١٢٧، والجنائز باب ٨٤، وأحمد في المسند / ١٩٧ ، ٩٧ ، ١٠٣ ، ١٣٠ ، ١٣١.

(٤) تفسير الطبرى / ٦٤٩١.

آخرى من أبي الأبعد، فيقال انظر إلى ما وراءك فإذا هو بذيخ متلطف^(١)، أي قد مسخ ضبعاً ثم يسحب بقوائمه ويلقى في النار.

وقوله: «إن إبراهيم لأواه حليم» قال سفيان الثوري وغير واحد: عن عاصم بن بهدلة عن زر بن حبيش عن عبد الله بن مسعود، أنه قال الأواه الدعاء، وكذا روي من غير وجه: عن ابن مسعود، وقال ابن جرير^(٢): حدثني المثنى، حدثنا الحجاج بن منهال، حدثني عبد الحميد بن بهرام، حدثنا شهر بن حوشب عن عبد الله بن شداد بن الهاد، قال: بينما النبي ﷺ جالس قال: رجل يا رسول الله ما الأواه؟ قال: «المتضعر» قال: «إن إبراهيم لأواه حليم» ورواه ابن أبي حاتم: من حديث ابن المبارك عن عبد الحميد بن بهرام به، ولفظه قال الأواه المتصغر الدعاء. وقال الثوري عن سلمة بن كهيل عن مسلم البطين عن أبي الغدير، أنه سأله ابن مسعود عن الأواه فقال هو الرحيم، وبه قال مجاهد وأبو ميسرة عمر بن شربيل والحسن البصري وقتادة وغيرهما أي الرحيم أي بعباد الله.

وقال ابن المبارك عن خالد عن عكرمة عن ابن عباس، قال: الأواه المؤمن بلسان الجبشتة، وكذا قال العوفي عن ابن عباس أنه المؤمن، وكذا قال مجاهد والضحاك، وقال علي بن أبي طلحة ومجاهد عن ابن عباس: الأواه المؤمن، زاد علي بن أبي طلحة عنه: هو المؤمن التواب، وقال العوفي عنه هو المؤمن بلسان الجبشتة. وكذا قال ابن جرير هو المؤمن بلسان الجبشتة.

وقال الإمام أحمد^(٣): حدثنا موسى، حدثنا ابن لهيعة عن الحارث بن يزيد عن علي بن رباح عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال لرجل يقال له ذو التجادين «إنه أواه» وذلك أنه رجل كان إذا ذكر الله في القرآن رفع صوته بالدعاء، ورواه ابن جرير^(٤). وقال سعيد بن جبير والشعبي: الأواه المسبح، وقال ابن وهب عن معاوية بن صالح عن أبي الزاهري عن جبير بن نفیر عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: لا يحافظ على سبحة الضحى إلا الأواه، وقال شفي بن مانع عن أبي أیوب، الأواه الذي إذا ذكر خطایاه استغفر منها، وعن مجاهد الأواه الحفظ الوجل يذنب الذنب سراً ثم يتوب منه سراً، ذكر ذلك كله ابن أبي حاتم رحمه الله. وقال ابن جرير^(٥): حدثنا ابن وكيع، حدثنا المحاربي عن حجاج عن الحكم عن الحسن بن مسلم بن بيان، أن رجلاً كان يكثر ذكر الله ويسبح، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال «إنه أواه».

(١) الذيخ، بكسر الذال: ذكر الصباع، وذيخ متلطف: أي متلطف برجيجه أو بالطين.

(٢) تفسير الطبرى ٤٩٨/٦.

(٣) المستند ٤/١٥٩.

(٤) تفسير الطبرى ٦/٤٩٩.

(٥) تفسير الطبرى ٦/٤٩٧.

وقال أيضاً: حدثنا أبو كريب، حدثنا ابن هانئ، حدثنا المنهال بن خليفة عن حجاج بن أرطاة عن عطاء عن ابن عباس، أن النبي ﷺ دفن ميتاً فقال: «رحمك الله إن كنت لأواها» يعني تلاء للقرآن، وقال شعبة عن أبي يونس الباهلي، قال سمعت رجلاً بمكة وكان أصله رومياً وكان قاصاً يحدث عن أبي ذر، قال: كان رجل يطوف بالبيت الحرام ويقول في دعائه: أوه أوه فذكر ذلك للنبي ﷺ، فقال: «إنه أواه» قال: فخرجت ذات ليلة فإذا رسول الله ﷺ يدفن ذلك الرجل ليلاً ومعه المصباح، هذا حديث غريب رواه ابن جرير^(١).

وروي عن كعب الأحبار أنه قال: سمعت **«إن إبراهيم لأواه»** قال كان إذا ذكر النار قال:
أوه من النار، وقال ابن جريج عن ابن عباس **«إن إبراهيم لأواه»** قال: فقيه. قال الإمام أبو
جعفر بن حرير^(٢): وأولى الأقوال قول من قال إنه الدعاء وهو المناسب للسياق، وذلك أن الله
تعالى لما ذكر أن إبراهيم إنما استغفر لأبيه عن موعدة وعدها إيه، وقد كان إبراهيم كثير الدعاء
حليماً عمن ظلمه وأناله مكروهاً، ولهذا استغفر لأبيه مع شدة أذاه له في قوله **«أراغب أنت عن
آلته يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني ملياً** قال سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان
بي حفياً» [مريم: ٤٦] فحلم عنه مع أذاه له ودعا له واستغفر، ولهذا قال تعالى: **«إن إبراهيم
لأواه حليم»**.

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يَئِنَّ لَهُمْ مَا يَتَقَوَّنُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحِبُّهُ وَيُحِبُّهُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُورٍ إِنَّ اللَّهَ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٌ

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة وحكمه العادل: إنه لا يضل قوماً بعد إبلاغ الرسالة إليهم، حتى يكونوا قد قاموا بحاجة، كما قال تعالى: «وَأَمَّا ثُمَودٌ فَهُدِينَا لَهُمْ» [فصلت: ١٧] الآية، وقال مجاهد في قوله تعالى: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَضْلِلْ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ» الآية، قال بيان الله عز وجل للمؤمنين في ترك الاستغفار للمشركين خاصة، وفي بيانه لهم من معصيته وطاعته عامة، فافعلوا أو ذروا^(٣).

وقال ابن حجرير^(٤): يقول الله تعالى وما كان الله ليقضى عليكم في استغفاركم لموتاكم المشركين بالضلالة بعد إذ رزقكم الهدى ووفقاكم للإيمان به وبرسوله، حتى يتقدم إليكم بالنهى عنه فتترکوا، فاما قبل أن يبيّن لكم كراهة ذلك بالنهى عنه فلم تضيّعوا نهيه إلى ما نهاكم

(١) تفسير الطبرى / ٦ / ٤٩٨ .

(٢) تفسير الطبرى / ٦ / ٤٩٩ .

(٣) انظر تفسير الطبرى ٦ / ٥٠٠ .

(٤) تفسير الطيري ٦ / ٥٠٠

عنه فإنه لا يحكم عليه بالضلal، فإن الطاعة والمعصية إنما يكونان من المأمور والمنهي، وأما من لم يؤمر ولم ينه فغير كائن مطيناً أو عاصياً فيما لم يؤمر به ولم ينه عنه.

وقوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَحِيِّي وَيَمْتَدِّ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ» قال ابن جرير، هذا تحريض من الله تعالى لعباده المؤمنين في قتال المشركين وملوك الكفر، وأن يثقوا بنصر الله مالك السموات والأرض ولا يرهبوا من أعدائهم، فإنه لا ولـي لهم من دون الله ولا نصير لهم سواه، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن أبي دلامة البغدادي، حدثنا عبد الوهاب بن عطاء، حدثنا سعيد عن قتادة عن صفوان بن محرز عن حكيم بن حرام قال: بينما رسول الله ﷺ بين أصحابه إذ قال لهم: «هل تسمعون ما أسمـع؟» قالوا ما نسمع من شيء، فقال رسول الله ﷺ: «إني لأسمع أطيط السماء وما تلام أن تطـع وما فيها من موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم» وقال كعب الأحبار: ما من موضع خرم إبرة من الأرض إلا وملك موكل بها يرفع علم ذلك إلى الله، وإن ملائكة السماء لأكثر من عدد التراب، وإن حملة العرش ما بين كعب الأحبار إلى مخـه مسيرة مائة عام.

لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى الَّتِي وَالْمُهَاجِرِينَ وَلَا إِنْصَارِ الظَّالِمِينَ أَتَبْعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَرِيدُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا يُهَمِّ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ

قال مجاهد وغير واحد: نزلت هذه الآية في غزوة تبوك، وذلك أنهم خرجوا إليها في شدة من الأمر في سنة مجدبة وحر شديد وعسر من الزاد والماء، قال قتادة: خرجوا إلى الشام عام تبوك في لهاب الحر على ما يعلم الله من الجهد، أصابهم فيها جهد شديد حتى لـقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم يمسـها هذا ثم يشرب عليها ثم يمسـها هذا ثم يشرب عليها، فتاب الله عليهم وأفـلـهم من غزوـتهم.

وقال ابن جرير^(١): حدثني يونس بن عبد الأعلى، أخبرـنا ابن وهـب، أخبرـني عمـرو بن الحارث عن سعيد بن أبي هلال عن عتبـة بن أبي عـتبـة عن نافعـ بن جـبـيرـ بن مـطـعمـ عن عبد الله بن عباسـ، أنه قـيلـ لـعـمرـ بنـ الخطـابـ فيـ شـأنـ العـسـرةـ، فـقاـلـ عـمـرـ بنـ الخطـابـ: خـرجـناـ معـ رسولـ اللهـ إلىـ تـبـوكـ فيـ قـيـظـ شـدـيدـ، فـنـزـلـنـاـ مـنـزـلاـ فـأـصـابـنـاـ فـيـ عـطـشـ حتـىـ ظـنـنـاـ أـنـ رـقـابـنـاـ سـتـنـقـطـ، وـحتـىـ إـنـ كـانـ الرـجـلـ لـيـذـهـبـ يـلتـمـسـ المـاءـ فـلاـ يـرـجـعـ حتـىـ يـظـنـ أـنـ رـقـبـتـهـ سـتـنـقـطـ، وـحتـىـ إـنـ الرـجـلـ لـيـنـحـرـ بـعـيرـهـ فـيـعـصـرـ فـرـثـهـ فـيـشـرـبـهـ وـيـجـعـلـ مـاـ بـقـيـ عـلـىـ كـبـدـهـ، فـقاـلـ أـبـوـ بـكـرـ الصـدـيقـ: يـاـ رـسـولـ اللهـ إـنـ اللهـ عـزـ وـجـلـ قـدـ عـودـكـ فـيـ الدـعـاءـ خـيـراـ فـادـعـ لـنـاـ، فـقاـلـ «تـحـبـ ذـلـكـ؟ـ»ـ قـالـ نـعـمـ، فـرـفـعـ يـدـيـهـ فـلـمـ يـرـجـعـهـمـاـ حـتـىـ سـالـتـ السـمـاءـ فـأـهـطـلـتـ ثـمـ سـكـنـتـ، فـمـلـؤـواـ مـاـ مـعـهـمـ ثـمـ ذـهـبـنـاـ نـظـرـ فـلـمـ نـجـدـهـاـ جـاـوزـتـ الـعـسـكـرـ.

وقال ابن جرير^(١) في قوله ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمَهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ أي من النفقه والطهر والزاد والماء ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَرِيْغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾ أي عن الحق، ويشك في دين الرسول ﷺ ويرتاب للذى نالهم من المشقة والشدة في سفرهم وغزوهم ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ يقول: ثم رزقهم الإنابة إلى ربهم والرجوع إلى الثبات على دينه ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

وَعَلَى الْأَنْشَأَةِ الَّذِينَ خَلَقْنَا حَتَّى إِذَا أَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ يَمْرَحُّبُّتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنَّ لَا مَلْجَأً مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ تَبَّأَ عَلَيْهِمْ لِيَسْتُوْبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَوَّاْبُ الرَّحِيمُ ﴿١٨﴾ يَنَّاهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا آتَنُوا اللَّهَ كُلُّهُمُوا مَعَ الصَّدِيقِينَ ﴿١٩﴾

قال الإمام أحمد^(٢): حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن أخي الزهري محمد بن عبد الله، عن عمته مسلم الزهري أخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، أن عبد الله بن كعب بن مالك وكان قائداً لكتيبة حيين عمي، قال: سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقال كعب بن مالك: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزها قط إلا في غزوة تبوك، غير أنني كنت تخلفت في غزوة بدر ولم يعاتب أحد تخلف عنها، وإنما خرج رسول الله ﷺ يريد غير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر في الناس منها وأشهر.

وكان من خبرني حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، أنني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزاة، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزاة، وكان رسول الله ﷺ قلماً يريد غزوة يغزوها إلا ورئي^(٣) بغيرها حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد واستقبل سفراً بعيداً ومفاوز^(٤)، واستقبل عدواً كثيراً فخلى للمسلمين أمرهم ليتأبهوا أهبة عدوهم، فأخبارهم وجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، لا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان - .

قال كعب: فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى عليه ما لم ينزل فيه وهي من الله عز وجل، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة حين طابت الشمار والظلال وأنا إليها

(١) تفسير الطبرى ٥٠٢/٦.

(٢) المستند ٤٥٦/٣ - ٤٥٩.

(٣) ورئي بغيرها: أي سترها، وأوهم أنه يريد غيرها.

(٤) المفاوز: بريه وصحراء قليلة الماء.

أصرع^(١)، فتجهز إليها رسول الله ﷺ والمؤمنون معه، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض من جهازي شيئاً، فأقول لنفسي أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادي بي حتى شمر بالناس الجد، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً وال المسلمين معه ولم أقض من جهازي شيئاً وقلت أتجهز بعد يوم أو يومين ثم أتحققه فغدوت بعد ما فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض من جهازي شيئاً، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً، فلم يزل ذلك يتمادي بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو فهممت أن أرتحل فألح عليهم وليت أبي فعلت، ثم لم يقدر ذلك لي فطفقت إذا خرجت في الناس بعد رسول الله ﷺ يحزنني أبي لا أرى إلا رجلاً مغموماً عليه في النفاق أو رجلاً من عذر الله عز وجل، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعب بن مالك» فقال رجل منبني سلمة: حبسه يا رسول الله برداء والنظر في عطفيه.

قال معاذ بن جبل: بئسما قلت والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً. فسكت رسول الله ﷺ.

قال كعب بن مالك: فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك، حضرني بشيء وطفقت أتذكر الكذب، وأقول بماذا أخرج من سخطه غداً وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً، زاح عني الباطل وعرفت أبي لم أتع من بشيء أبداً، فأجمعت صدقه فأصبح رسول الله ﷺ وكان إذا قدم من سفربدأ بالمسجد فصلى ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخالفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ويستغفر لهم ويكل سرائرهم إلى الله تعالى، حتى جئت فلما سلمت عليه تبسم المغضب، ثم قال لي «تعال» فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: «ما خلفك ألم تكون قد اشتريت ظهرأً» فقلت يا رسول الله إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر، لقد أعطيت جدلاً ولكني والله لقد علمت لتن حدثتك اليوم بحديث كذب ترضى به عني ليوش肯 الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك بصدق تجد علي فيه إني لأرجو عقبي ذلك من الله عز وجل والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أفرغ ولا أيس مني حين تخلفت عنك.

قال: فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك» فقمت وقام إلي رجال منبني سلمة واتبعوني فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا ولقد عجزت إلا أن تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المخالفون، فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك، قال: فوالله ما زالوا يؤذنوني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي،

(١) أصرع: أي أميل.

قال ثم قلت لهم هل لقي معي هذا أحد؟ قالوا نعم لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت، وقيل لهم مثل ما قيل لك، فقلت فمنهما؟ قالوا مراة بن الربيع العامري وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدنا بدرأً لي فيهما أسوة.

قال: فمضيت حين ذكروهما لي قال ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت لي في نفسي الأرض فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فأمّا أصحابي فاستكانا وقعدا في بيتهما يبكيان، وأمّا أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم، فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف بالأسواق فلا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ وهو في مجلسه بعد الصلاة فأسلم وأقول في نفسي أحرك شفتيه برد السلام علىَّ أم لا؟ ثم أصلي قرباً منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلىَّ، فإذا التفت نحوه أعرض عنِّي، حتى إذا طال عليَّ ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسرّرت حائط أبي قاتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إلىَّ، فسلمت عليه فوالله ما رد عليَّ السلام، فقلت له: يا أبا قاتادة أنشدك الله هل تعلم أنِّي أحب الله ورسوله؟ قال فسكت، قال فعدت له فتشدته فسكت، فعدت له فتشدته فسكت، فقال الله ورسوله أعلم.

قال ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار، فيينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا أنا بنبطي من أنباط الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول من يدل على كعب بن مالك، قال فلطفق الناس يشيرون له إلى حتى جاءه فدفع إلى كتاباً من ملك غسان وكتب كتاباً، فإذا فيه: أما بعد فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك وإن الله لم يجعلك في دار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك، قال: فقلت حين قرأته وهذا أيضاً من البلاء، قال: فنيمت به التئور فسجّرته به حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا برسول رسول الله ﷺ يأتيني يقول: يأمرك رسول الله ﷺ أن تعتزل امرأتك، قال فقلت أطلقها أم ماذا أفعل؟ فقال: بل اعزّلها ولا تقربها، قال وأرسل إلى صاحبها بمثل ذلك، قال فقلت لأمرأتي الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ما يشاء، قال فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن هلالاً شيخ ضعيف ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه، قال «لا ولكن لا يقربنّك» قالت وإن الله ما به من حرفة إلى شيء، وإن الله ما زال يبكيي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا، قال فقال لي بعض أهلي لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه، قال فقلت والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما أدرى ما يقول فيها رسول الله ﷺ إذا استأذنته وأنا رجل شاب.

قال: فلبثنا عشر ليال فكمّل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا، قال: ثم صليت صلاة الصبح صباح خمسين ليلة على ظهر بيته، فيينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منها قد ضاقت على نفسي وضاقت على الأرض بما رحبت، سمعت صارخاً أوفى

على جبل سلع يقول بأعلى صوته: أبشر يا كعب بن مالك، قال: فخررت ساجداً وعرفت أن قد جاء الفرج من الله عز وجل بالتوبة علينا، فآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلي الفجر، فذهب الناس يبشروننا وذهب قبل صاحبِي مبشرون، وركض إلى رجل فرساً وسعى ساع من أسلم وأوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس.

فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبَي فكسوتهما إياه بشارته، والله ما أملك يومئذ غيرهما، واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت أوم رسول الله ﷺ وتلقاني الناس فوجأً فوجأً يهونني بتوبة الله، يقولون ليهناك توبة الله عليك حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد والناس حوله، فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهروي حتى صافحني وهناني والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره، قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة، قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور «أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك» قال: قلت أمن عندك رسول الله أم من عند الله؟ قال «لا بل من عند الله» قال وكان رسول الله ﷺ إذا سر استئنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر حتى يعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت يا رسول الله إن من توبيتي أن أخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله، قال « أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك».

قال: فقلت: فإني أمسك سهمي الذي بخير وقلت يا رسول الله: إنما نجاني الله بالصدق وإن من توبيتي أن لا أحدث إلا صدقًا ما بقيت، قال: فوالله ما أعلم أحدًا من المسلمين أبلغه الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلغني الله تعالى، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإنني لأرجو أن يحفظني الله عز وجل فيما بقي.

(قال) وأنزل الله تعالى: «لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم يا أيها الذين آمنوا انقوا الله وكونوا مع الصادقين» إلى آخر الآيات. قال كعب: فوالله ما أعلم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقتي رسول الله ﷺ يومئذ، أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوه، فإن الله تعالى قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، فقال الله تعالى: «سيحلون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومواهم جهنم جراء بما كانوا يكسبون يحلون لكم لتعرضوا عنهم فإن ترموا عنهم فإن الله لا يرضي عن القوم الفاسقين» [التوبة: ٩٦] قال: وكنا أيها الثلاثة الذين خلفنا عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا فباعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله أمراً

حتى قضى الله فيه، فلذلك قال عز وجل ﴿وَعَلَى الْثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا﴾ وليس تخليفه إياتا وارجاؤه أمرنا الذي ذكر مما خلفنا بـتخليفنا عن الغزو، وإنما هو عن حلف له واعتذر إليه فقبل منه^(١).

هذا حديث صحيح ثابت متفق على صحته رواه أصحاب الصحيح البخاري ومسلم، من حديث الزهرى بنحوه، فقد تضمن هذا الحديث تفسير هذه الآية الكريمة بأحسن الوجوه وأبسطها، وكذا روى عن غير واحد من السلف في تفسيرها، كما رواه الأعمش عن أبي سفيان عن جابر بن عبد الله في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا﴾ قال: هم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، وكلهم من الأنصار، وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغير واحد وكلهم قال مرارة بن ربيعة، وكذا في مسلم بن ربيعة في بعض نسخه، وفي بعضها مرارة بن الربيع، وفي رواية عن الضحاك مرارة بن الربيع كما وقع في الصحيحين وهو الصواب، وقوله فسموا رجلين شهدا بدرأً قيل إنه خطأ من الزهرى، فإنه لا يعرف شهود واحد من هؤلاء الثلاثة بدرأً، والله أعلم.

ولما ذكر تعالى ما فرج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب من هجر المسلمين إياهم نحوًا من خمسين ليلة ب أيامها، وضاقت عليهم أنفسهم وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، أي مع سعتها فسدت عليهم المسالك والمذاهب فلا يهتدون ما يصنعون، فصبروا لأمر الله واستكانوا لأمر الله وثبتوا حتى فرج الله عنهم بسبب صدقهم رسول الله ﷺ في تخلفهم، وأنه كان عن غير عذر فعocabوا على ذلك هذه المدة ثم تاب الله عليهم، فكان عاقبة صدقهم خيراً لهم وتوبة عليهم، ولهذا قال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ أي اصدقوا والزموا الصدق تكونوا من أهله وتنجووا من المهالك، ويجعل لكم فرجاً من أموركم ومخرجاً.

وقد قال الإمام أحمد^(٢): حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن شقيق عن عبد الله هو ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»^(٣) آخر جاه في الصحيحين.

وقال شعبة عن عمرو بن مرة: سمع أبا عبيدة يحدث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل، اقرؤوا إن شئتم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ هكذا قرأها، ثم قال فهل تجدون لأحد فيه رخصة^(٤)، وعن عبد الله بن

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٩، باب ١٨، ومسلم في التوبه حديث ٥٣.

(٢) المستند / ٣٨٤ / ١.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب باب ٦٩، ومسلم في البر حديث ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥.

(٤) انظر تفسير الطبرى ٥٠٩ / ٦ . ٥١٠.

عمره في قوله ﴿اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ قال مع محمد ﷺ وأصحابه، وقال الضحاك مع أبي بكر وعمر وأصحابهما^(١)، وقال الحسن البصري إن أردت أن تكون مع الصادقين فعليك بالزهد في الدنيا والكف عن أهل الملة.

مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ إِنَّ الْأَغْرَى إِنْ يَتَحَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْجِعُونَا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَاءً وَلَا نَصْبٌ وَلَا مُخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْعُونَكَ مَوْطَنًا يَغْيِظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُوكَ مِنْ عَذَابٍ يَنْلَا إِلَّا كُتُبَ لَهُمْ يَهُمْ عَمَلٌ صَنَعُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٧﴾

يعاتب تبارك وتعالى المخالفين عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك من أهل المدينة ومن حولها من أحياء العرب، ورغبتهم بأنفسهم عن مواتاته فيما حصل له من المشقة، فإنهم نقصوا أنفسهم من الأجر لأنهم ﴿لَا يصيّبُهُمْ ظَمَاءً﴾ وهو العطش ﴿وَلَا نَصْبٌ﴾ وهو التعب ﴿وَلَا مُخْمَصَةٌ﴾ وهي المجاعة ﴿وَلَا يَطْعُونَ مَوْطَنًا يَغْيِظُ الْكُفَّارَ﴾. أي يتزلون متولاً يرهب عدوهم ﴿وَلَا يَنَالُونَ﴾ منه ظفراً وغله عليه ﴿إِلَّا كُتُبَ لَهُمْ﴾ بهذه الأعمال التي ليست داخلة تحت قدرهم وإنما هي ناشئة عن أفعالهم أعمالاً صالحة وثواباً جزيلاً ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ كقوله ﴿إِنَا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كِبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًّا إِلَّا كُتُبَ لَهُمْ لِيَجْرِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَا يَنْفَقُونَ﴾ هؤلاء الغزاة في سبيل الله ﴿نفقة صغيرة ولا كبيرة﴾ أي قليلاً ولا كثيراً ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًّا﴾ أي في السير إلى الأعداء ﴿إِلَّا كُتُبَ لَهُمْ﴾ ولم يقل ههنا به، لأن هذه أفعال صادرة عنهم، ولهذا قال: ﴿لِيَجْرِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقد حصل لأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه من هذه الآية الكريمة حظ وافر ونصيب عظيم، وذلك أنه أنفق في هذه الغزوة النفقات الجليلة والأموال الجليلة، كما قال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثنا أبو موسى العتزي، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، حدثني سليمان بن المغيرة، حدثني الوليد بن أبي هشام، عن فرقـد أبي طلحـة، عن عبد الرحمن بن خباب السلمـي، قال: خطـب رسول الله ﷺ فـتحـ على جـيش العـسـرة فـقال عـثمان بن عـفـان رـضـي الله عـنهـ: عـلـيـ مـائـةـ بـعـيرـ بـأـحـلـسـهـ وـأـقـتابـهـ، قـالـ ثـمـ حـثـ، فـقـالـ عـثمانـ: عـلـيـ مـائـةـ بـعـيرـ أـخـرىـ بـأـحـلـسـهـ وـأـقـتابـهـ، قـالـ ثـمـ نـزـلـ مـرـقاـةـ مـنـ المنـبـرـ ثـمـ حـثـ، فـقـالـ عـثمانـ بنـ عـفـانـ: عـلـيـ مـائـةـ أـخـرىـ بـأـحـلـسـهـ وـأـقـتابـهـ. قـالـ: فـرـأـيـتـ رـسـولـ اللهـ ﷺ قـالـ بـيـدـهـ هـكـذـاـ يـحـرـكـهـاـ، وـأـخـرـجـ عبدـ الصـمدـ يـدـهـ

(١) انظر تفسير الطبرى ٥٠٩/٦.

كالمتعجب «ما على عثمان ما عمل بعد هذا»^(١).

وقال عبد الله أيضاً: حدثنا هارون بن معروف، حدثنا ضمرة، حدثنا عبد الله بن شوذب، عن عبد الله بن القاسم عن كثير مولى عبد الرحمن بن سمرة عن عبد الرحمن بن سمرة، قال: جاء عثمان رضي الله عنه إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه حتى جهز النبي ﷺ جيش العسرة، قال: فصبها في حجر النبي ﷺ فرأيت النبي ﷺ يقلبه بيده ويقول: «ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم» يردها مراراً^(٢)، وقال قتادة في قوله تعالى: «ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم الآية. ما ازداد قوم في سبيل الله بعداً من أهليهم إلا ازدادوا قرباً من الله.

**وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لَيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرُ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ
وَيَسْتَدِرُوا فَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**

هذا بيان من الله تعالى لما أراد من نفي الأحياء مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فإنه قد ذهبت طائفة من السلف إلى أنه كان يجب النفي على كل مسلم إذا خرج رسول الله ﷺ ولهذا قال تعالى: «انفروا خفافاً وثقلاً» [التوبه: ٤١] وقال «ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب» [التوبه: ١٢١] الآية، قال فنسخ ذلك بهذه الآية. وقد يقال إن هذا بيان لمراذه تعالى من نفي الأحياء كلها وشريعة من كل قبيلة إن لم يخرجوا كلهم، ليتفقه الخارجون مع الرسول بما يتزل من الوحي عليه وينذرموا قومهم إذا رجعوا إليهم بما كان من أمر العدو، فيجتمع لهم الأمران في هذا النفي المعين، وبعده ﷺ تكون الطائفة النافرة من الحي إما للتتفقة وإما للجهاد، فإنه فرض كفاية على الأحياء.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية «وما كان المؤمنون لينفروا كافة» يقول: ما كان المؤمنون لينفروا جميعاً ويتركوا النبي ﷺ وحده «فلولا نفر من كل فرقه منهم طائفة» يعني عصبة يعني السرايا ولا يسيروا إلا بإذنه، فإذا رجعت السرايا وقد أنزل بعدهم قرآن تعلمه القاعدون مع النبي ﷺ، وقالوا إن الله قد أنزل على نبيكم قرآنًا وقد تعلمناه فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم ويبعث سرايا أخرى، فذلك قوله: «ليتفقها في الدين» يقول: ليتعلموا ما أنزل الله على نبيهم وليعملوا السرايا إذا رجعت إليهم، «لعلهم يحدرون»^(٣).

وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في أنس من أصحاب النبي ﷺ، خرجوا في البوادي فأصابوا من الناس معروفاً، ومن الخصب ما يتذمرون به، ودعوا من وجدوا من الناس إلى

(١) أخرجه أحمد في المسند ٧٥/٤.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٦٣/٥.

(٣) انظر تفسير الطبرى ٥١٤/٦.

الهدى ، فقال الناس لهم : ما نراك إلا وقد تركتم أصحابكم وجئتمونا ؟ فوجدوا في أنفسهم من ذلك تحرجاً وأقبلوا من الbadية كلهم حتى دخلوا على النبي ﷺ ، فقال الله عز وجل : «فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة» **يغون الخير** **«ليتفقهوا في الدين»** وليسمعوا ما في الناس وما أنزل الله فعذرهم **«ولينذروا قومهم»** الناس كلهم إذا رجعوا إليهم **«لعلهم يحضرنون»**^(١).

وقال قتادة في الآية : هذا إذا بعث رسول الله ﷺ الجيوش أمرهم الله أن يغزوا بنبيه ﷺ ، وتقيم طائفة مع رسول الله ﷺ تتفقه في الدين ، وتنطلق طائفة تدعو قومها وتحذرهم وقائع الله فيما خلا قبلهم^(٢).

وقال الضحاك : كان رسول الله ﷺ إذا غزا بنفسه لم يحل لأحد من المسلمين أن يتختلف عنه إلا أهل الأعذار ، وكان إذا قام وأسرى السرايا لم يحل لهم أن ينطلقوا إلا بإذنه ، وكان الرجل إذا أسرى فنزل بعده قرآن وتلاه النبي ﷺ على أصحابه القاعدين معه ، فإذا رجعت السريعة قال لهم الذين أقاموا مع رسول الله ﷺ : إن الله أنزل بعدكم على نبيه قرآنًا فيقرئونهم ويفقهونهم في الدين ، وهو قوله : **«وما كان المؤمنون لينفروا كافة»** يقول إذا أقام رسول الله **«فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة»** يعني بذلك أنه لا ينبغي للمسلمين أن ينفروا جميعاً ونبي الله ﷺ قاعد ، ولكن إذا قعد النبي الله فسرت السرايا وقعد معه معظم الناس^(٣).

وقال علي بن أبي طلحة أيضاً عن ابن عباس في الآية ، قوله **«وما كان المؤمنون لينفروا كافة»** إنها ليست في الجهاد ، ولكن لما دعا رسول الله ﷺ على مضر بالسينين ، أجدب بلادهم وكانت القبيلة منهم تقبل بأسرها ، حتى يحلوا بالمدينة من الجهد ويعتلوا بالإسلام وهم كاذبون ، فضيقوا على أصحاب رسول الله ﷺ وأجهدوهم ، فأنزَل الله تعالى يخبر رسوله أنهم ليسوا مؤمنين ، فردهم رسول الله ﷺ إلى عشائرهم وحذر قومهم أن يفعلوا فعلهم ، فذلك قوله : **«ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم»** الآية^(٤).

وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية : كان ينطلق من كل حي من العرب عصابة فيأتون النبي ﷺ فيسألونه عما يريدون من أمر دينهم ويتفقهون في دينهم ، ويقولون للنبي ﷺ : ما تأمرنا أن نفعله ؟ وأخبرنا بما نأمر به عشائرنا إذا قدمنا عليهم ، قال فیأمرهم النبي ﷺ بطاعة الله ورسوله ويعتهم إلى قومهم بالصلوة والزكاة ، وكانوا إذا أتوا قومهم قالوا : إن من أسلم فهو منا وينذرونهم ، حتى إن الرجل ليفارق أباه ، وأمه ، وكان النبي ﷺ يخبرهم وينذرهم قومهم ، فإذا رجعوا إليهم يدعونهم إلى الإسلام وينذرونهم النار ويبشرونهم

(١) انظر تفسير الطبرى ٥١٣/٦.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٥١٤/٦.

(٣) تفسير الطبرى ٥١٤/٦.

(٤) تفسير الطبرى ٥١٤/٦.

بالجنة^(١)

وقال عكرمة لما نزلت هذه الآية ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا بِعِذْبِكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [التوبه: ٣٩] و﴿ما كان لأهل المدينة﴾ [التوبه: ١٢٠] الآية، قال المنافقون: هلك أصحاب البدو الذين تخلفوا عن محمد ولم ينفروا معه، وقد كان ناس من أصحاب النبي ﷺ خرجوا إلى البدو إلى قومهم يفقهونهم فأنزل الله عز وجل ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لَيَنْفِرُوا كَاتِه﴾ الآية، ونزلت ﴿وَالَّذِينَ يَحْاجُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجَبْنَا لَهُ حَجْتُهُمْ دَاهِخَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ١٦] وقال الحسن البصري في الآية: ليتفقهوا الذين خرجوا بما يرثهم الله من الظهور على المشركين والنصرة، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم^(٢).

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَكُونُوكُمْ مِنْ أَكْفَارَ وَلَيَحِدُوا فِي كُمْ عِظَاظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُنْتَقِيْنَ

أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلو الكفار أولاً، فأولاً الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام، ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة والطائف واليمامة وهجر وخير وحضرموت وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب، ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجاً، شرع في قتال أهل الكتاب، فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام لأنهم أهل الكتاب، فبلغ تبوك ثم رجع لأجل جهد الناس وجدب البلاد وضيق الحال، وذلك ستة تسع من هجرته عليه السلام، ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجة الوداع، ثم عاجلهه المنية صلوات الله وسلامه عليه بعد حجته بأحد وثمانين يوماً، فاختاره الله لما عنده.

قام بالأمر بعده وزيره وصديقه وخليفةه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وقد مال الدين ميلة كاد أن ينجفل فثبته الله تعالى به، فوطد القواعد وثبت الدعائم، ورد شارد الدين وهو راغم، ورد أهل الردة إلى الإسلام، وأخذ الزكاة ممن منعها من الطعام^(٤)، وبين الحق لمن جهله، وأدى عن الرسول ما حمله، ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عبدة الصلبان، وإلى الفرس عبدة النيران، ففتح الله ببركة سفارته البلاد، وأرغم أنف كسرى وقيصر ومن أطاعهما من العباد. وأنفق كنوزهما في سبيل الله كما أخبر بذلك رسول الله، وكان تمام الأمر على يدي وصيه من بعده، وولي عهده الفاروق الأول، شهيد المحراب، أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأرغم الله به أنوف الكفرة الملحدين، وقمع الطغاة والمنافقين

(١) انظر تفسير الطبرى ٥١٤ / ٦، ٥١٥.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٥١٥ / ٦.

(٣) انظر تفسير الطبرى ٥١٦ / ٦.

(٤) الطعام: أوغاد الناس.

واستولى على الممالك شرقاً وغرباً.

وحملت إليه خزائن الأموال من سائر الأقاليم بعدها وقريباً. ففرقها على الوجه الشرعي. والسبيل المرضي. ثم لما مات شهيداً وقد عاش حميداً. أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار على خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه شهيد الدار.

فكسي الإسلام رياسته حلقة سابغة. وامتدت في سائر الأقاليم على رقب العباد حجة الله البالغة. فظهر الإسلام في مشارق الأرض وغاربيها. وعلت كلمة الله وظهر دينه. وبلغت الملة الحنيفة من أعداء الله غاية مبارتها. وكلما علوا أمم انتقلوا إلى من بعدهم ثم الذين يلونهم من العتاة الفجار، امثالاً لقوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قاتلُوا الَّذِينَ يُلُونُكُمْ مِّنَ الْكُفَّارِ» [التوبه: ١٢٣] وقوله تعالى: «وَلَيُبَدِّلُوا فِيمَكُمْ غَلَظَةً» أي وليجدوا فيكم غلظة في قتالكم لهم، فإن المؤمن الكامل هو الذي يكون رفيقاً لأخيه المؤمن غليظاً على عدوه الكافر.

كت قوله تعالى: «فَسُوفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يَحْبِهِمْ وَيَحْبُّهُمْ أَذْلَلُهُمْ عَلَىِ الْمُؤْمِنِينَ» [المائدة: ٥٤] وقوله تعالى: «مُحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشَدُهُمْ عَلَىِ الْكُفَّارِ رَحْمَاءُ بَيْنَهُمْ» [الفتح: ٢٩] وقوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدُ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ» [التوبه: ٧٣] والتحرير: ٩] وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ قال: «أنا الضحوة للقتال» يعني أنه ضحوة في وجهه وليه قتال لهامة عدوه، وقوله: «واعلموا أن الله مع المتقيين» أي قاتلوا الكفار وتوكلوا على الله واعلموا أن الله معكم إذا اتقتموه وأطعتموه، وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الأمة في غاية الاستقامة والقيام بطاعة الله تعالى لم يزالوا ظاهرين على عدوهم. ولم تزل الفتوحات كثيرة ولم تزل الأعداء في سفال وخسار.

ثم لما وقعت الفتنة والأهواء والاختلافات بين الملوك طمع الأعداء في أطراف البلاد وتقدموا إليها، فلم يمانعوا لشغلهن الملوك بعضهم بعض، ثم تقدموا إلى حوزة الإسلام فأخذوا من الأطراف بلداناً كثيرة، ثم لم يزالوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام والله الأمر من قبل ومن بعد، فكلما قام ملك من ملوك الإسلام وأطاع أوامر الله وتوكل على الله ففتح الله عليه من البلاد واسترجع من الأعداء بحسبه وبقدر ما فيه من ولاية الله. والله المسؤول المأمول أن يمكن المسلمين من نواصي أعدائه الكافرين وأن يعلي كلمتهم في سائر الأقاليم إنه جواد كريم.

وَإِذَا مَا أُنزِلتْ سُورَةً فِيهَا مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَهُ هَلْيَةً إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ مَأْمَنُوا فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبِّشُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمْ رَجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَا تُؤْمِنُو وَهُمْ

كَفَّارٌ

يقول تعالى: «وَإِذَا مَا أُنزِلتْ سُورَةً فِيهَا مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَهُ هَلْيَةً إِيمَانًا» أي يقول بعضهم لبعض أيكم زادته هذه السورة إيماناً قال الله تعالى: «فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَادَهُمْ تَفْسِيرُ ابنِ كَثِيرٍ / ج٤ / ١٤

إيماناً وهم يستبشرون﴿﴾ وهذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص ، كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء . بل قد حكى غير واحد الإجماع على ذلك . وقد بسط الكلام على هذه المسألة في أول شرح البخاري رحمه الله ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرْضٌ فَزَادُوهُمْ رَجْسًا إِلَى رَجْسِهِم﴾ أي زادتهم شكاً إلى شکهم وربما إلى ربيهم كما قال تعالى : ﴿وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شَفَاءٌ﴾ الآية ، قوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقَرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمَّا أُولَئِكَ يَنادِونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت : ٤٤] وهذا من جملة شفائهم أن ما يهدى القلوب يكون سبباً لضلالهم ودمارهم كما أن سبب المزاج لو غذى به لا يزيده إلا خبلاً ونقصاً.

أَوَلَّا يَرَوُنَ أَنَّهُمْ يَفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّيْتَ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١﴾ وَإِذَا مَا أَنْزَلْتَ سُورَةً نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَى كُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرُ فُؤُلُؤاً صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٢﴾

يقول : تعالى أو لا يرى هؤلاء المنافقون ﴿أَنَّهُمْ يَفْتَنُونَ﴾ أي يختبرون ﴿في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون﴾ أي لا يتوبون من ذنبهم السالفة ولا هم يذكرون فيما يستقبل من أحوالهم ، قال مجاهد يختبرون بالسنة والجوع وقال قتادة بالغزو في السنة مرة أو مرتين ، وقال شريك عن جابر : هو الجعفي عن أبي الضحى عن حذيفة في قوله : ﴿أَوْ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يَفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّيْتَ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ قال : كنا نسمع في كل عام كذبة أو كذبتين فيفضل بها فثاماً من الناس كثير رواه ابن جرير^(١) وفي الحديث عن أنس : لا يزداد الأمر إلا شدة ولا يزداد الناس إلا شحّاً وما من عام إلا والذي بعده شر منه ، سمعته من نبيكم ﷺ^(٢) .

وقوله : ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتَ سُورَةً نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرُ فُؤُلُؤاً صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ هذا أيضاً إخبار عن المنافقين أنهم إذا أُنْزِلَت سورة على رسول الله ﷺ ﴿نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ أي تلفتوا ﴿هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرُ فُؤُلُؤاً﴾ أي توّلوا عن الحق وانصرفوا عنه وهذا حالهم في الدين لا يثبتون عند الحق ولا يقبلونه ولا يفهمونه كقوله تعالى : ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذَكُّرِ مَعْرِضٌ كَأَنَّهُمْ حَمَرٌ مُسْتَنْفَرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةً﴾ [المدثر : ٤٩ - ٤١] قوله تعالى : ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مَهْتَدِينَ عَنِ الْبَيْنِ وَعَنِ الشَّمَالِ عَزِيزٌ﴾ [المعارج : ٣٦ - ٣٧] أي ما لهؤلاء القوم يتفللون عنك يميناً وشمالاً هروباً من الحق وذهاباً إلى الباطل وقوله : ﴿ثُمَّ انْصَرُ فُؤُلُؤاً صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ كقوله : ﴿فَلَمَّا زَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [الصف : ٥] أي لا يفهمون عن الله خطابه ولا يقصدون لفهمه

(١) تفسير الطبرى / ٦ - ٥٢٠.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الفتنة باب . ٢٤

ولا يريدونه بل هم في شغل عنه ونفور منه فلهذا صاروا إلى ما صاروا إليه.

**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عِنْتُمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ
بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٨﴾ إِنَّ تَوَلَّا فَتُلْحَى حَسِيبٌ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلُونَ وَهُوَ
رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٩﴾**

يقول تعالى ممتناً على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولًا من أنفسهم أي من جنسهم وعلى لغتهم كما قال إبراهيم عليه السلام: «ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم» [البقرة: ١٢٩] وقال تعالى: «لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم» [آل عمران: ١٦٤] وقال تعالى: «لقد جاءكم رسول من أنفسكم» أي منكم وبلغتكم كما قال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى: إن الله بعث فينا رسولاً منا نعرف نسبة وصفته ومدخله ومخرجه وصدقه وأمانته وذكر الحديث وقال سفيان بن عيينة عن جعفر بن محمد عن أبيه في قوله تعالى: «لقد جاءكم رسول من أنفسكم» قال: لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية وقال عليه السلام «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح»^(١).

وقد وصل هذا من وجه آخر كما قال الحافظ أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمي في كتابه الفاصل بين الراوي والواعي: حدثنا أبو أحمد يوسف بن هارون بن زياد حدثنا ابن أبي عمر حدثنا محمد بن جعفر بن محمد قال: أشهد على أبي لحدثني عن أبيه عن جده عن علي قال: قال رسول الله عليه السلام «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي لم يمسني من سفاح الجاهلية شيء».

وقوله تعالى: «عزيز عليه ما عنتم» أي يعز عليه الشيء الذي يعنت أمته ويشق عليها ولهذا جاء في الحديث المروي من طرق عنه أنه قال: «بعثت بالحنينية السمية»^(٢) وفي الصحيح «إن هذا الدين يسر وشرعيته كلها سهلة سمححة كاملة يسيرة على من يسرها الله تعالى عليه»^(٣) «حرirsch عليكم» أي على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم، وقال الطبراني حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقربي حدثنا سفيان بن عيينة عن أبي الطفيلي عن أبي ذر قال: تركنا رسول الله عليه السلام وما طائر يقلب جناحه في الهواء إلا وهو يذكر لنا منه علمًا قال: وقال رسول الله عليه السلام: «ما بقي شيء يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بين لكم» وقال الإمام أحمد^(٤): حدثنا قطن حدثنا المسعودي عن

(١) انظر تفسير الطبراني / ٥٢٢ / ٦.

(٢) أخرجه أحمد في المستند / ٥ ، ٢٦٦ / ٦ ، ٢٣٣ / ٦.

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان باب ٢٩ ، وأحمد في المستند / ٥ / ٦٩.

(٤) المستند / ١ / ٣٩٠.

الحسن بن سعد عن عبدة الهدلي عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لم يحرم حرمة إلا وقد علم أنه سيطعنها منكم مطلع ألا وإنني أخذ بحجزكم أن تهافتوا في النار كتهافت الفراش أو الذباب».

وقال الإمام أحمد^(١): حدثنا حسن بن موسى حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أتاه ملكان فيما يرى النائم فقعد أحدهما عند رجليه والأخر عند رأسه. فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه: اضرب مثل هذا ومثل أمته فقال: إن مثله ومثل أمته كمثل قوم سفر انتهوا إلى رأس مفازة ولم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به فيبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل في حلة حبرة فقال: أرأيتم إن وردت بكم رياضاً معيشة وحياضاً رواء تتبعوني؟ فقالوا: نعم قال: فانطلق بهم فأوردهم رياضاً معيشة وحياضاً رواء فأكلوا وشربوا وسمعوا فقال لهم: ألم أفككم على تلك الحال فجعلتم لي إن وردت بكم رياضاً معيشة وحياضاً رواء أن تتبعوني؟ فقالوا بلى فقال: فإن أيديكم رياضاً هي أعشب من هذه وحياضاً هي أروى من هذه فاتبعوني فقالت طائفة صدق والله لتبعد ، وقالت طائفة قد رضينا بهذا نقيم عليه .

وقال البزار: حدثنا سلمة بن شبيب وأحمد بن منصور قالا حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبيان حدثنا أبي عن عكرمة عن أبي هريرة رضي الله عنه أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ يستعينه في شيء قال عكرمة: أراه قال في دم فأعطيه رسول الله ﷺ شيئاً ثم قال: «أحسنت إليك» قال الأعرابي لا ولا أجملت فغضب بعض المسلمين وهموا أن يقوموا إليه فأشار رسول الله ﷺ إليهم أن كفوا فلما قام رسول الله ﷺ وبلغ إلى منزله دعا الأعرابي إلى البيت فقال: «إنك إنما جئتنا تسألنا فأعطيتك فقلت ما قلت» فزاده رسول الله ﷺ شيئاً وقال: «أحسنت إليك؟» فقال الأعرابي نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً.

قال النبي ﷺ: «إنك جئتنا فسألتنا فأعطيتك فقلت ما قلت. وفي نفس أصحابي عليك من ذلك شيء فإذا جئت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب عن صدورهم» فقال: نعم فلما جاء الأعرابي قال رسول الله ﷺ: «إن صاحبكم كان جاء فسألنا فأعطيته فقال ما قال، وإنما قد دعوناه فأعطيته فزعم أنه قد رضي، كذلك يا أعرابي؟» فقال الأعرابي: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً.

فقال النبي ﷺ: «إن مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه فاتبعها الناس فلم يزدوها إلا نفوراً. فقال لهم صاحب الناقة خلوا بيبي وبيبي ناقتي فأنا أرفق بها وأنا أعلم بها فتووجه إليها وأأخذ لها من قتام الأرض ودعها حتى جاءت واستجابت وشد عليها

رحلها وإنني لو أطعكم حيث قال ما قال لدخل النار» رواه البزار ثم قال لا نعلمه يروى إلا من هذا الوجه.

(قلت) وهو ضعيف بحال إبراهيم بن الحكم بن أبان والله أعلم، قوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفُ رَحِيم﴾ كقوله ﴿وَأَخْفَضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنْ عَصْوَكَ فَقْلَ إِنِّي بِرِيءٍ مَا تَعْمَلُونَ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [الشعراء: ٢١٥ - ٢١٧] وهكذا أمره تعالى في هذه الآية الكريمة وهي قوله تعالى ﴿فَإِنْ تُولُوا﴾ أي تولوا عما جئتم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة الشاملة ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي الله كافي لا إله إلا هو عليه توكلت كما قال تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَ وَالْمَغْرِبَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمول: ٩].

﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أي هو مالك كل شيء وخلقه، لأنه رب العرش العظيم الذي هو سقف المخلوقات وجميع الخلقات من السموات والأرضين وما فيهما وما بينهما تحت العرش مقهورون بقدرة الله تعالى، وعلمه محيط بكل شيء وقدره نافذ في كل شيء وهو على كل شيء وكيل.

قال الإمام أحمد^(١): حدثنا محمد بن أبي بكر حدثنا بشر بن عمر حدثنا شعبة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس رضي الله عنهما عن أبي بن كعب قال: آخر آية نزلت من القرآن هذه الآية ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى آخر السورة، وقال عبد الله ابن الإمام أحمد حدثنا روح بن عبد المؤمن حدثنا عمر بن شقيق حدثنا أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب رضي الله عنهم أنهم جمعوا القرآن في مصاحف في خلافة أبي بكر رضي الله عنه فكان رجال يكتبون ويملي عليهم أبي بن كعب فلما انتهوا إلى هذه الآية من سورة براءة ﴿ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرْفَ اللَّهِ قَلْوَبُهُمْ﴾ [التوبه: ١٢٧] الآية فظنوا أن هذا آخر ما نزل من القرآن فقال لهم أبي بن كعب إن رسول الله ﷺ أرقاني بعدها آيتين ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى آخر السورة قال هذا آخر ما نزل من القرآن فختم بما فتح به بالله الذي لا إله إلا هو وهو قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنباء: ٢٥] وهذا غريب أيضاً.

وقال أحمد^(٢): حدثنا علي بن بحر حدثنا علي بن محمد بن سلمة عن محمد بن إسحاق عن يحيى بن عباد عن أبيه عباد بن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قال أتى الحارث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر براءة ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى عمر بن الخطاب فقال: من

(١) المستند ١١٧ / ٥.

(٢) أخرجه أحمد في المستند ١٣٤ / ٥.

(٣) المستند ١ / ١٩٩.

معك على هذا ؟ قال : لا أدرى والله إني لأشهد لسمعتها من رسول الله ﷺ ووعيتها وحفظتها فقال عمر : وأناأشهد لسمعتها من رسول الله ﷺ ثم قال : لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة فانظروا سورة من القرآن فضعوها فيها ، فوضعوها في آخر براءة .

وقد تقدم الكلام أن عمر بن الخطاب هو الذي أشار على أبي بكر الصديق رضي الله عنهمما بجمع القرآن فأمر زيد بن ثابت فجتمعه وكان عمر يحضرهم وهم يكتبون ذلك ، وفي الصحيح أن زيداً قال : فوجدت آخر سورة براءة مع خزيمة بن ثابت أو أبي خزيمة^(١) ، وقد قدمنا أن جماعة من الصحابة تذكروا ذلك عند رسول الله ﷺ كما قال خزيمة بن ثابت حين ابتدأهم بها والله أعلم .

وقد روى أبو داود^(٢) عن يزيد بن محمد عن عبد الرزاق بن عمر - وقال : كان من ثقات المسلمين من المتباهين عن مدرك بن سعد قال يزيد شيخ ثقة عن يونس بن ميسرة عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال : من قال إذا أصبح وإذا أمسى : حسيبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم . سبع مرات إلا كفاه الله ما أهمه .

وقد رواه ابن عساكر في ترجمة عبد الرزاق عن عمر ، هذا من روایة أبي زرعة الدمشقي عنه عن أبي سعد مدرك بن أبي سعد الفزاري عن يونس بن ميسرة بن حليس عن أم الدرداء سمعت أبي الدرداء يقول : ما من عبد يقول : حسيبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم سبع مرات صادقاً كان بها أو كاذباً إلا كفاه الله ما أهمه . وهذه زيادة غريبة ، ثم رواه في ترجمة عبد الرزاق أبي محمد بن أحمد بن عبد الله بن عبد الرزاق عن جده عبد الرزاق بن عمر بسنده فرفعه فذكر مثله بالزيادة وهذا منكر ، والله أعلم .

آخر سورة براءة والله الحمد والمنة

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٩ ، باب ٢٠ .

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب باب ١٠١ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّئِسُ مَا يَكُنُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ
الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدْرَ صِدْقِهِمْ إِنَّ رَبَّهُمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا سِحْرٌ مِّنْ

أما الحروف المقطعة في أوائل سور فقد تقدم الكلام عليها في أوائل سورة البقرة، وقال أبو الضحى عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنَا اللَّهُ أَرَى﴾^(١). وكذلك قال الضحاك. وغيره ﴿تَلَكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ أي هذه آيات القرآن المحكم المبين وقال مجاهد ﴿إِنَّمَا
تَلَكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾. وقال الحسن: التوراة والزبور، وقال قتادة: ﴿تَلَكَ آيَاتُ
الْكِتَابِ﴾ قال الكتب التي كانت قبل القرآن، وهذا القول لا أعرف وجهه ولا معناه.

وقوله ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً﴾ الآية. يقول تعالى منكراً على من تعجب من الكفار من إرسال المرسلين من البشر كما أخبر تعالى عن القرون الماضين من قوله: ﴿أَبْشِرْ يَهُودَنَا﴾ [التغابن:
٦] وقال هود وصالح لقومهما: ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذَكْرُ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ﴾
[الأعراف: ٦٣ - ٦٩] وقال تعالى مخبراً عن كفار قريش أنهم قالوا: ﴿أَجْعَلُ الْآلَهَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ
هَذَا لَشَيْءٍ عَجَابٌ﴾ [ص: ٥] وقال الضحاك عن ابن عباس: لما بعث الله تعالى محمداً^{عليه السلام}
رسولاً أنكرت العرب ذلك أو من أنكر منهم فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل
محمد قال فأنزل الله عز وجل ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً﴾^(٢) الآية.

وقوله: ﴿أَنْ لَهُمْ قَدْرَ صِدْقِهِمْ﴾ اختلفوا فيه فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿وَبَشِّرْ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدْرَ صِدْقِهِمْ﴾ يقول سبقت لهم السعادة في الذكر الأول^(٣)
وقال العوفي عن ابن عباس ﴿أَنْ لَهُمْ قَدْرَ صِدْقِهِمْ﴾ يقول: أَجْرًا حَسَنًا بِمَا قَدَّمُوا^(٤)
وكذا قال الضحاك والربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهذا كقوله تعالى: ﴿لَيَنْذِرَ
بَاسًا شَدِيدًا﴾ [الكهف: ٢] الآية، وقال مجاهد ﴿أَنْ لَهُمْ قَدْرَ صِدْقِهِمْ﴾ قال الأعمال
الصالحة صلاتهم وصومهم وصدقهم وتسبيحهم قال: ومحمد^{عليه السلام} يشفع لهم، وكذا قال

(١) انظر تفسير الطبرى ٥٢٥/٦.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٥٢٧/٦.

(٣) انظر تفسير الطبرى ٥٢٨/٦.

(٤) تفسير الطبرى ٥٢٨/٦.

زيد بن أسلم ومقاتل بن حيان وقال قتادة سلف صدق عند ريهم واختار ابن جرير قول مجاهد أن الأعمال الصالحة التي قدموها كما يقال له قدم في الإسلام، كقول حسان: [الطوبل]
لنا القدم العليا إليك وخلفنا لأولنا في طاعة الله تابع^(١)

وقول ذي الرمة: [الطوبل]

لكم قدم لا ينكر الناس أنها مع الحساب العادي طمت على البحر^(٢)
وقوله تعالى: «قال الكافرون إن هذا لساحر مبين» أي مع أنها بعثنا إليهم رسولًا منهم رجلاً من جنسهم بشيراً ونذيراً «قال الكافرون إن هذا لساحر مبين» أي ظاهر وهم الكاذبون في ذلك.

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا
مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ إِنَّمَا تَذَكَّرُونَ

يخبر تعالى أنه رب العالم جميعه، وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام قيل كهذه الأيام وقيل كل يوم كالف سنة مما تعدون كما سيأتي بيانه ثم على استوى العرش والعرش أعظم المخلوقات وسقفها. قال ابن أبي حاتم حدثنا حجاج بن حمزة حدثنا أبو أسامة حدثنا إسماعيل بن أبي خالد قال سمعت سعداً الطائي يقول: العرش ياقوتة حمراء، وقال وهب بن منه خلقه الله من نوره وهذا غريب. قوله: «يدبر الأمر» أي يدبّر أمر الخلائق «لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض» [سبا: ٣] ولا يشغله شأن عن شأن ولا تغله المسائل ولا يتبرم بالحاج الملحقين ولا يلهي تدبّر الكبير عن الصغير في الجبال والبحار وال عمران والقفار «وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها» [هود: ٦] الآية.

«وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين» [الأنعام: ٥٩] وقال الدراوري عن سعد بن إسحاق بن كعب أنه قال حين نزلت هذه الآية «إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض» الآية، لقيهم ركب عظيم لا يرون إلا أنهم من العرب فقالوا لهم: من أنتم؟ قالوا: من الجن خرجنا من المدينة أخرجتنا هذه الآية رواه ابن أبي حاتم. قوله: «ما من شفيع إلا من بعد إذنه» كقوله تعالى: «من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه» [البقرة: ٢٥٥] وكقوله تعالى: «وكم من ملك في السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى» [النجم: ٢٦] قوله: «ولا تنفع الشفاعة عنده

(١) البيت لحسان بن ثابت الأنصاري في ديوانه ص ٢٤١، ولسان العرب (خلف)، والمخصص ١٨٩/١٦، وتأج العروس (خلف)، والمذكر والمؤثر للأباري ص ١٩٧، والمستقصى ٣٠١/٢. وتفسير الطبرى ٥٢٩/٦.

(٢) البيت لذى الرمة في تفسير البحر المحيط ٥/١٢٧، وتفسير الطبرى ٦/٥٢٩.

إِلَّا لِمَنْ أَذْنَ لَهُ [سبأ: ٢٣] وقوله «ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلًا تذكرون» أي أفردوه بالعبادة وحده لا شريك له «أفلًا تذكرون» أي أيها المشركون في أمركم تعبدون مع الله إلهاً غيره وأنتم تعلمون أنه المتفرد بالخلق كقوله تعالى: «ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله» [الزخرف: ٨٧] وقوله: «قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون الله أفلًا تتقون» [المؤمنون: ٨٦ - ٨٧] وكذا الآية التي قبلها والتي بعدها.

**إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَيِّعاً وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِجَزَرَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
يَا لِقْسَطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ**

يخبر تعالى أن إليه مرجع الخلائق يوم القيمة لا يترك منهم أحداً حتى يعيده كما بدأ، ثم ذكر تعالى أنه كما بدأ الخلق كذلك يعيده «وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه» [الروم: ٢٧] «ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط» أي بالعدل والجزاء الأوفي «والذين كفروا لهم شراب من حميم وعداب أليم بما كانوا يكفرون» أي بسبب كفرهم يعذبون يوم القيمة بأنواع العذاب. من «سموم وحميم وظل من يحوم» [الواقعة: ٤٢ - ٤٣] «هذا فليذوقوه حميم وغساق وآخر من شكله أزواج» [ص: ٥٧ - ٥٨] «هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن» [الرحمن: ٤٣ - ٤٤].

**هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدْرَهُ مَنَازِلٌ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّنَاتِ وَالْحِسَابَ مَا حَلَقَ اللَّهُ
ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ إِنَّ فِي أَخْلَافِ أَثَيلٍ وَالنَّهَارِ وَمَا حَلَقَ اللَّهُ فِي
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَكُتِ لِقَوْمٍ يَسْتَهِونَ**

يخبر تعالى بما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه أنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياءً وجعل شعاع القمر نوراً، هذا فن وهذا فن آخر، ففاوت بينهما لثلا يشتبها، وجعل سلطان الشمس بالنهار وسلطان القمر بالليل، وقدر القمر منازل، فأول ما يبدو صغيراً ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يستوسع ويكمel إداره، ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حالته الأولى في تمام شهر كقوله تعالى: «والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالمرجون القديم لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون» [يس: ٤٠] وقوله تعالى: «والشمس والقمر حسبان» [الأنعام: ٩٦] الآية، وقوله في هذه الآية الكريمة: «وقدره» أي القمر «منازل لتعلموا عدد السنين والحساب» فالشمس تعرف الأيام وبسيير القمر تعرف الشهور والأعوام.

«ما خلق الله ذلك إلا بالحق» أي لم يخلقه عبثاً بل له حكمة عظيمة في ذلك وحججة بالغة كقوله تعالى: «وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلأ ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين

كفروا من النار» [ص: ٢٧] وقال تعالى: «أفحسبتم أنما خلقناكم عباداً وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم» [المؤمنون: ١١٥ - ١١٦] وقوله: «نفصل الآيات» أي نبين الحجج والأدلة «لقوم يعلمون» وقوله: «إن في اختلاف الليل والنهر» أي تعاقبهما إذا جاء هذا ذهب هذا وإذا ذهب هذا جاء هذا لا يتأنّ عنده شيئاً كقوله تعالى: «يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً» [الأعراف: ٥] وقال: «لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر» [يس: ٤٠] الآية.

وقال تعالى: «فالق الإاصلاح وجعل الليل سكناً» [الأنعام: ٩٦] الآية، وقوله: «وما خلق الله في السموات والأرض» أي من الآيات الدالة على عظمته تعالى كما قال: «وكانين من آية في السموات والأرض» [يوسف: ١٠٥] الآية، وقوله: «قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغنى الآيات والذر عن قوم لا يؤمّنون» [يونس: ١٠١] وقال: «أفلّم بروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض» [سيا: ٩٥] وقال: «إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهر لآيات لأولي الألباب» [آل عمران: ١٩٠] أي العقول، وقال ه هنا «لآيات لقوم يتقون» أي عقاب الله وسخطه وعذابه.

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأْنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ مَا يَنْهَا غَافِلُونَ
أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ التَّنَّارُ إِمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ
أَوْ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ التَّنَّارُ إِمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ

يقول تعالى مخبراً عن حال الأشقياء الذين كفروا بلقاء الله يوم القيمة ولا يرجون في لقاءه شيئاً ورضوا بهذه الحياة الدنيا واطمأنّت إليها نفوسهم. قال الحسن: والله ما زينوها ولا رفعوها حتى رضوا بها وهم غافلون عن آيات الله الكونية فلا يتفكرون فيها والشرعية فلا يأتّرون بها فإن مأواهم يوم معادهم النار جزاء على ما كانوا يكسبون في دنياهم من الآثام والخطايا والإجرام مع ما هم فيه من الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر.

إِنَّ الَّذِينَ مَأْمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهُدِيهِمُ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتٍ
الْتَّيْمِيرِ
دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْتَهَنَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَهَاهُ دَعَوْهُمْ أَنْ لَحْمَدُ اللَّهِ رَبِّ
الْعَنَمِينَ

هذا إخبار عن حال السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين وامتثلوا ما أمروا به فعملوا الصالحات بأنه سيهديهم بإيمانهم، يتحمل أن تكون الباء هنّا سببية فتقديره بسبب إيمانهم في الدنيا يهديهم الله يوم القيمة على الصراط المستقيم حتى يجروه ويخلصوا إلى الجنة، ويحتمل أن تكون للاستعانة كما قال مجاهد في قوله: «يَهُدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ» قال: يكون

لهم نوراً يمشون به^(١) ، وقال ابن جريج في الآية: يمثل له عمله في صورة حسنة وريح طيبة إذا قام من قبره يعارض صاحبه ويشره بكل خير فيقول له: من أنت؟ فيقول: أنا عملك فيجعل له نوراً من بين يديه حتى يدخله الجنة فذلك قوله تعالى: ﴿يَهُدِّيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ والكافر يمثل له عمله في صورة سيئة وريح متنعة فيلزم صاحبه ويلاره^(٢) حتى يقذفه في النار^(٣) ، وروي نحوه عن قتادة مرسلاً فالف الله أعلم.

وقوله: ﴿دُعَوَاهُمْ فِيهَا سَبَحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحْيِتَهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دُعَوَاهُمْ أَنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي هذا حال أهل الجنة . قال ابن جريج أخبرت بأن قوله: ﴿دُعَوَاهُمْ فِيهَا سَبَحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ قال: إذا مرت بهم الطير يشتهونه قالوا سبحانك اللهم وذلك دعواهم فيأتهم الملك بما يشتهونه فيسلم عليهم فيردون عليه ذلك قوله: ﴿وَتَحْيِتَهُمْ فِيهَا سَلامٌ﴾ قال فإذا أكلوا حمدوا الله بذلك قوله: ﴿وَآخِرُ دُعَوَاهُمْ أَنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

وقال مقاتل بن حيان: إذا أراد أهل الجنة أن يدعوا بالطعام قال أحدهم ﴿سَبَحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ قال فيقوم على أحدهم عشرة آلاف خادم مع كل خادم صحفة من ذهب فيها طعام ليس في الأخرى قال فياكل منها كلهن ، وقال سفيان الثوري: إذا أراد أحدهم أن يدعو بشيء قال ﴿سَبَحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ وهذه الآية فيها شبهة من قوله: ﴿تَحْيِتَهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤] الآية.

وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلامًا﴾ [الواقعة: ٢٥ - ٢٦] وقوله: ﴿سَلامٌ قِيلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨] وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الرعد: ٢٣ - ٢٤] الآية، وقوله: ﴿وَآخِرُ دُعَوَاهُمْ أَنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هذا فيه دلالة على أنه تعالى هو المحمود أبداً، المعبد على طول المدى ، ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره وفي ابتداء كتابه وعند ابتداء تنزيله حيث يقول تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١] ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١] إلى غير ذلك من الأحوال التي يطول بسطها وأنه المحمود في الأولى والآخرة في الحياة الدنيا وفي الآخرة وفي جميع الأحوال ولهذا جاء في الحديث: «إن أهل الجنة يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس»^(٤) . وإنما يكون ذلك كذلك لما يرون من تزايد نعم الله عليهم فتكرر وتعدد وتزداد فليس لها انقضاء ولا أمد فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

(١) انظر تفسير الطبرى ٥٣٤ / ٦ .

(٢) يلاره: يقارنه ويلازمه ويلتصق به.

(٣) انظر تفسير الطبرى ٥٣٤ / ٦ .

(٤) أخرجه مسلم في الجنة حديث ١٨ ، ١٩ ، والدارمي في الرفاق باب ١٠٤ ، وأحمد في المستند ٣٤٩ / ٣ ، ٣٥٤ . ٣٨٤

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ السَّرَّ أَسْتَعْجَلُهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضَى إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ
لِقاءَنَا فِي طُفِّيْلِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

يخبر تعالى عن حلمه ولطفه بعباده أنه لا يستجيب له إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم في حال ضجرهم وغضبهم وأنه يعلم منهم عدم القصد بالشر إلى إرادة ذلك فلهذا لا يستجيب لهم والحالة هذه لطفاً ورحمة كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأموالهم أو لأولادهم بالخير والبركة والنماء ولهذا قال: «ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم» الآية، أي لو استجاب لهم كلما دعوه به في ذلك لأهلكم ولكن لا ينبغي الإكثار من ذلك كما جاء في الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا محمد بن معمر حدثنا يعقوب بن محمد حدثنا حاتم بن إسماعيل حدثنا يعقوب بن مجاهد أبو حزرة عن عبادة بن الوليد حدثنا جابر قال: قال رسول الله ﷺ «لا تدعوا على أنفسكم، لا تدعوا على أولادكم لا تدعوا على أموالكم لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم»^(١) ورواه أبو داود من حديث حاتم بن إسماعيل به.

وقال البزار وتفرد به عبادة بن الوليد بن الصامت الأنصاري لم يشاركه أحد فيه وهذا كقوله تعالى: «وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرُورَ مَرَّكَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زَيْنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»^(٢).

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِيهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرُورَ مَرَّكَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زَيْنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

يخبر تعالى عن الإنسان وضجره وقلقه إذا مسه الشر كقوله: «وَإِذَا مَسَهُ الشَّرُّ فَذُو دَعَاءٍ عَرِيضٍ» [فصلت: ٥١] أي كثير وهو ما في معنى واحد وذلك لأنه إذا أصابته شدة قلق لها وجزع منها وأكثر الدعاء عند ذلك فدعا الله في كشفها ورفعها عنه في حال اضطجاعه وقعوده وقيامه وفي جميع أحواله فإذا فرج الله شدته وكشف كربته أعرض ونأى بجانبه وذهب كأنه ما كان به من ذلك شيء «مَرَّ كَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ» ثم ذم تعالى من هذه صفتة وطريقته فقال: «كَذَلِكَ زَيْنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» فاما من رزقه الله الهداية والسداد والتوفيق والرشاد فإنه مستثنى من ذلك كقوله تعالى: «إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» [هود: ١١] وكقول

(١) أخرجه مسلم في الرهد حديث ٧٤، وأبو داود في الوتر باب ٢٧.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٥٣٧/٦.

رسول الله ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له وإن أصابته سراء فشكراً كان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن»^(١).

وَلَقَدْ أَهْلَكَا الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا يُؤْمِنُوا كَذَلِكَ هَجَرُوا
الْقَوْمُ الْمُجْرِمُينَ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَقِيفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ

أخبار تعالى عما أحل بالقرون الماضية في تكذيبهم الرسل فيما جاؤوهم به من البيانات والحجج الواضحات، ثم استخلف الله هؤلاء القوم من بعدهم وأرسل إليهم رسولاً لينظر طاعتهم له، واتباعهم رسوله وفي صحيح مسلم من حديث أبي نصرة عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت من النساء»^(٢).

وقال ابن جرير^(٣): حدثني المشتى حدثنا زيد بن عوف أبو ربيعة فهد أباينا حماد عن ثابت البناوي عن عبد الرحمن بن أبي ليلى أن عوف بن مالك قال لأبي بكر رأيت فيما يرى النائم كأن سبيلاً دلي من السماء فانتشر رسول الله ﷺ ثم أعيد فانتشر أبو بكر ثم ذرع الناس حول المنبر ففضل عمر ثلاثة أذرع حول المنبر فقال عمر: دعنا من رؤياك لا أرب لنا فيها فلما استخلف عمر قال: يا عوف رؤياك؟ قال وهل لك في رؤياي من حاجة أو لم تتهمني؟ قال ويحك إني كرهت أن تنعي ل الخليفة رسول الله ﷺ نفسه فقص عليه الرؤيا حتى إذا بلغ ذرع الناس إلى المنبر بهذه الثلاثة الأذرع قال: أما إحداهن فإنه كان الخليفة. وأما الثانية فإنه لا يخاف في الله لومة لائم، وأما الثالثة فإنه شهيد، قال: فقال يقول الله تعالى: «ثم جعلناكم خلائق في الأرض من بعدهم لنظر كيف تعملون» فقد استخلفت يا ابن أم عمر فانظر كيف تعمل؟ وأما قوله فإني لا أخاف في الله لومة لائم فيما شاء الله، وأما قوله: «شهيد» فأني لعم الشهادة والمسلمون مطيفون به؟

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ أَيَّالُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرَ هَذَا أَوْ بَدَلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوَّهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَذْرَكُمْ بِهِ فَقَدْ لَمَّتْ فِيهِمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقُلُونَ

(١) أخرجه مسلم في الزهد حديث ٦٤، وأحمد في المستند ٤/٣٣٢، ٦/٣٣٣، ١٥/٦.

(٢) أخرجه مسلم في الذكر حديث ٩٩.

(٣) تفسير الطبرى ٦/٥٣٩.

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَعْنِتِ الْكُفَّارِ مِنْ مُشْرِكِي قَرِيشِ الْجَاهِدِينَ الْمُعْرَضِينَ عَنْهُ أَنَّهُمْ إِذَا قَرُأُوا عَلَيْهِمُ الرَّسُولُ ﷺ كِتَابَ اللَّهِ وَحْجَتْهُ الْوَاضِحةُ قَالُوا لَهُ: إِئْتُ بِقُرْآنَ غَيْرَ هَذَا أَيْ رَدُّ هَذَا وَجَهْنَا بَغْيَرِهِ مِنْ نَمْطٍ أَخْرَى أَوْ بَدْلَهُ إِلَى وَضْعٍ أَخْرَى قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِبَيْهِ ﷺ: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبْدِلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي﴾ أَيْ لَيْسَ هَذَا إِلَيْيَ إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ مَأْمُورٌ وَرَسُولٌ مُبْلِغٌ عَنِ اللَّهِ ﴿إِنْ أَتَبْعَ إِلَّا مَا يَوْحِي إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتَ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

ثُمَّ قَالَ مُحْتَاجًا عَلَيْهِمْ فِي صِحَّةِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوَّهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرِكُمْ بِهِ﴾ أَيْ هَذَا إِنَّمَا جَهَّتُكُمْ بِهِ عَنْ إِذْنِ اللَّهِ لِي فِي ذَلِكَ وَمُشَيْتَهُ وَإِرَادَتِهِ، وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنِّي لَسْتُ أَتَقُولُهُ مِنْ عَنْدِي وَلَا افْتَرِيَتُهُ أَنْكُمْ عَاجِزُونَ عَنْ مَعْارِضِهِ وَأَنْكُمْ تَعْلَمُونَ صَدِيقِي وَأَمَانِتِي مِنْذُ نَشَأْتُ بَيْنَكُمْ إِلَى حِينَ بَعْثَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَا تَتَقَدَّمُونَ عَلَيَّ شَيْئًا تَعْمَصُونِي^(١) بِهِ وَلَهُذَا قَالَ: ﴿فَقَدْ لَبَثْتُ فِيْكُمْ عُمْرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفْلَا تَعْقِلُونَ﴾ أَيْ أَفْلَيْسَ لَكُمْ عُقُولٌ تَعْرَفُونَ بِهَا الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ وَلَهُذَا لَمَّا سُأَلَ هَرقلُ مَلِكَ الرُّومِ أَبَا سَفِيَّانَ وَمَنْ مَعَهُ فِيمَا سُأَلَهُ مِنْ صَفَةِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ هَرقلُ لِأَبِي سَفِيَّانَ: هَلْ كَتَمْتُ تَهْمُونَهُ بِالْكَذْبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قَالَ أَبُو سَفِيَّانَ فَقَلَّتْ لَا، وَكَانَ أَبُو سَفِيَّانَ إِذَا ذَاكَ رَأْسُ الْكُفَّارِ وَزَعِيمُ الْمُشْرِكِينَ وَمَعَهُ اعْتَرَفَ بِالْحَقِّ.

وَالْفَضْلُ مَا شَهَدْتُ بِهِ الْأَعْدَاءُ.

فَقَالَ لِهِ هَرقلُ: فَقَدْ أَعْرَفْتُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِي دُعَى الْكَذْبُ عَلَى النَّاسِ ثُمَّ يَذْهَبُ فِيْكَذْبٍ عَلَى اللَّهِ وَقَالَ جَعْفُرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ لِلنْجَاشِيِّ مَلِكِ الْجَبَشِيَّةِ: بَعَثَ اللَّهُ فِيهَا رَسُولًا نَعْرَفُ صَدْقَهُ وَنَسْبَهُ وَأَمَانَتَهُ، وَقَدْ كَانَتْ مَدَةً مَقَامَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَيْنَ أَظْهَرِنَا قَبْلَ النَّبُوَّةِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمَسِيبِ ثَلَاثًا وَأَرْبَعِينَ سَنَةً، وَالصَّحِّيْحُ الْمُشْهُورُ الْأَوَّلُ.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِإِيمَنِهِ إِنَّمَا لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ

يَقُولُ تَعَالَى لَا أَحَدٌ أَظْلَمُ وَلَا أَعْتَى وَلَا أَشَدُ إِجْرَامًا «مِنْ افْتَرِي عَلَى اللَّهِ كَذِبًا» وَتَقُولُ عَلَى اللَّهِ وَزَعَمَ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُ وَلَمْ يَكُنْ كَذَّلِكَ فَلِيُّسَ أَحَدٌ أَكْبَرُ جُرْمًا وَلَا أَعْظَمُ ظَلْمًا مِنْ هَذَا، وَمِثْلُ هَذَا لَا يَخْفَى أَمْرُهُ عَلَى الْأَغْبَيِّاءِ فَكِيفَ يَشْتَهِي حَالُهُذَا بِالْأَبْيَاءِ إِنَّمَا قَالَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ صَادِقًا أَوْ كَاذِبًا فَلَا بدَ أَنَّ اللَّهَ يَنْصُبُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَدْلَةِ عَلَى بَرِهِ أَوْ فَجُورِهِ مَا هُوَ أَظْهَرُ مِنَ الشَّمْسِ، فَإِنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَبَيْنَ مُسِيلَمَةَ الْكَذَّابِ لَمْ شَاهَدُهُمَا أَظْهَرَ مِنَ الْفَرْقِ بَيْنَ وَقْتِ الْضَّحَى وَبَيْنِ نَصْفِ الْلَّيْلِ فِي حِنْدَسِ الْظَّلَمَاءِ، فَمَنْ شَيْمَ كُلَّ مِنْهُمَا وَأَفْعَالَهُ وَكَلَامَهُ يَسْتَدِلُّ مِنْ لَهُ بَصِيرَةٌ عَلَى صَدَقِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَكَذَّبَ مُسِيلَمَةَ الْكَذَّابِ وَسَجَاحَ وَالْأَسْوَدِ الْعَنْسِيِّ.

(١) غَصَّصَهُ: احْتَقَرَ وَعَابَهُ.

قال عبد الله بن سلام لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس فكنت فيمن انجل، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب قال: فكان أول ما سمعته يقول: «يا أيها الناس افسحوا السلام، وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام وصلوا بالليل والناس نiam تدخلون الجنة بسلام»^(١) ولما قدم وفد ضمام بن ثعلبة على رسول الله ﷺ في قومهبني سعد بن بكر قال لرسول الله فيما قال له من رفع هذه السماء؟ قال: «الله» قال: ومن نصب هذه الجبال قال «الله» قال: ومن سطح هذه الأرض؟ قال: «الله» قال: فالذي رفع السماء ونصب هذه الجبال وسطح هذه الأرض أرسلك إلى الناس كلهم؟ قال: «اللهم نعم» ثم سأله عن الصلاة والزكاة والحج والصيام، ويحلف عند كل واحدة هذه اليمين ويحلف له رسول الله ﷺ فقال له: صدقت، والذي بعثك بالحق لا أزيد على ذلك ولا أنقص، فاكتفى هذا الرجل بمجرد هذا، وقد أيقن بصدقه صلوات الله وسلامه عليه بما رأى وشاهد من الدلائل الدالة عليه. وقال حسان بن ثابت: [الطوبل]

لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت بديهته تأتيك بالخبر^(٢)

وأما مسيلمة فمن شاهده من ذوي البصائر علم أمره لا محالة بأقواله الركيكة التي ليست بفصيحة، وأفعاله غير الحسنة بل القبيحة، وقرآن الذي يخلد به في النار يوم الحسرة والفضيحة، وكم من فرق بين قوله تعالى ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ إلى آخرها. وبين قول مسيلمة قبحه الله ولعنه. يا ضفدع بنت ضفدعين، نقي كم تنقين لا الماء تكدرین، ولا الشارب تمنعين. وقوله قبحه الله لقد أنعم الله على الجبلى، إذ أخرج منها نسمة تسعى، من بين صفاق وحشى. وقوله خلده الله في نار جهنم. وقد فعل: الفيل وما أدرك ما الفيل، له خر طوم طويل، وقوله أبعده الله عن رحمته: والعاجنات عجناً، والخابزات خبزاً، واللائمات لقماً، إهالة وسمناً، إن قريشاً قوم يعتدون.

إلى غير ذلك من الخرافات والهذيات التي يأنف الصبيان أن يلفظوا بها إلا على وجه السخرية والاستهزاء، ولهذا أرغم الله أنفه، وشرب يوم حديقة الموت حتى مرض شمله. ولعنه صحبه وأهله. وقدموا على الصديق تائبين، وجاؤوا في دين الله راغبين فسألهم الصديق خليفة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ورضي عنه أن يقرأوا عليه شيئاً من قرآن مسيلمة لعنه الله فسألوه أن يغفيم من ذلك فأبى عليهم إلا أن يقرأوا شيئاً منه ليس معه من لم يسمعه من الناس فيعرفوا فضل ما هم عليه من الهدى والعلم فقرأوا عليه من هذا الذي ذكرناه وأشباهه، فلما فرغوا قال لهم الصديق رضي الله عنه: وبحكم أين كان يذهب بعقولكم؟ والله إن هذا لم

(١) أخرجه أحمد في المسند . ٤٥١ / ٥

(٢) البيت ليس في ديوان حسان بن ثابت.

يخرج من إل.

وذكروا أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة وكان صديقاً له في الجاهلية وكان عمرو لم يسلم بعد فقال له مسيلمة: ويحك يا عمرو ماذا أنزل على أصحابكم يعني رسول الله ﷺ في هذه المدة؟ فقال: لقد سمعت أصحابه يقرأون سورة عظيمة قصيرة فقال: وما هي؟ فقال **«والعمر إن الإنسان لفي خسر»** [العمر: ١ - ٢] إلى آخر السورة ففكر مسيلمة ساعة ثم قال وأنا قد أنزل على مثله فقال وما هو فقال يا وبر يا وبر، إنما أنت أذنان وصدر، وسائلك حفر نقر. كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أني أعلم أنك تكذب. فإذا كان هذا من مشرك في حال شركه لم يشتبه عليه حال محمد ﷺ وصدقه، وحال مسيلمة لعنه الله وكذبه، فكيف بأولي البصائر والنهاي، وأصحاب العقول السليمة المستقيمة والحججا، ولهذا قال تعالى: **«وَمِنْ أَظْلَمُ مَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيْيَ وَلَمْ يَوْجِدْ إِلَيْهِ شَيْءًا وَمَنْ قَالَ سَأَنْزَلَ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ أَنْعَمْ [٩٣] وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ **«وَمِنْ أَظْلَمُ مَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يَفْلُحُ الْمُجْرِمُونَ»** [الأنعام: ٢١] وكذلك من كذب بالحق الذي جاءت به الرسل. وقامت عليه الحجج، لا أحد أظلم منه كما جاء في الحديث «أعتى الناس على الله رجل قتل نبياً أو قتلهنبي»^(١).**

وَيَعْبُدُونَ مَنْ دُورِبَ اللَّهُ مَا لَا يَضْرُبُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُوتُنَا عَنَّ اللَّهِ قُلْ أَتَنْبَثُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشَرِّكُونَ وَمَا كَانَ الْكَاثِرُ إِلَّا أُمَّةٌ وَجَدَهُ فَأَخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةُ سَيِّقَتْ مِنْ يَنْكَ لَفُضِيَّ بِنَهَمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ^(٢)

ينكر تعالى على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره ظانين أن تلك الآلهة تفعهم شفاعتها عند الله فأخبر تعالى أنها لا تضر ولا تنفع ولا تملك شيئاً، ولا يقع شيء مما يزعمون فيها ولا يكون هذا أبداً ولهذا قال تعالى: **«قُلْ أَتَبْتُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ»**.

وقال ابن جرير^(٢): معناه أتخبرون الله بما لا يكون في السموات ولا في الأرض؟ ثم نزه نفسه الكريمة عن شركهم وكفرهم فقال: **«سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشَرِّكُونَ»** ثم أخبر تعالى أن هذا الشرك حادث في الناس كائن بعد أن لم يكن وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد وهو الإسلام قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ثم وقع الاختلاف بين الناس وعبدت الأصنام والأنداد والأوثان فبعث الله الرسل بآياته وبيناته وحججه البالغة

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤٠٧ / ١.

(٢) تفسير الطبرى ٥٤٢ / ٦.

وَبِرَاهِينَهُ الدَّامِغَةُ «لَيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيْتِهِ وَيَحْيَى مَنْ حَيَ عَنْ بَيْتِهِ» [الأنفال: ٤٢] وقوله: «وَلَوْلَا كَلْمَةُ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ» الآية، أي لو لا ما تقدم من الله تعالى أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجّة عليه، وأنه قد أجل الخلق إلى أجل محدود لقضى بيهم فيما اختلفوا فيه فأسعد المؤمنين وأعنت الكافرين.

وَقَوْلُوكَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَا يَهْدِي مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَأَنْتَظِرُوكُمْ إِنِّي مَعَكُمْ مِنْ الْمُنْتَظِرِينَ

أي ويقول هؤلاء الكفّرة المكذبون المعاندون: لو لا أنزل على محمد آية من ربه يعنيون كما أعطى الله ثمود الناقة أو أن يحول لهم الصفا ذهباً أو يزيح عنهم جبال مكة ويجعل مكانها بساتين وأنهاراً أو نحو ذلك مما الله عليه قادر ولكن حكيم في أفعاله وأقواله كما قال تعالى: «بَارَكَ اللَّهُ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَجَعَلَ لَكَ قَصْرًا بَلْ كَذَبُوكُمْ بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لَمَنْ كَذَبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا» [الفرقان: ١٠ - ١١] وك قوله: «وَمَا مَنَّا نَعْنَى أَنْ نَرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَبُوكُمْ بِالْأَوْلَوْنِ» [الإسراء: ٥٩] الآية، يقول تعالى: إن سنتي في خلقتي أني إذا آتتكم ما سألكوا، فإن آمنوا وإلا عاجلتهم بالعقوبة. ولهذا لما خير رسول الله ﷺ بين إعطائهم ما سألكوا فإن آمنوا وإلا عذبوا وبين إنتظارهم اختيار إنتظارهم كما حلم عنهم غير مرّة رسول الله ﷺ ولهذا قال تعالى إرشاداً للنبي ﷺ إلى الجواب عما سألكوا: «فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ» أي الأمر كله لله وهو يعلم العواقب في الأمور.

فَانْتَظِرُوكُمْ إِنِّي مَعَكُمْ مِنْ الْمُنْتَظِرِينَ أي إن كنتم لا تؤمنون حتى تشاهدو ما سألتم فانتظروا حكم الله فيّ وفيكم. هذا مع أنهم قد شاهدوا من آياته ﷺ أعظم مما سألكوا حين أشار بحضورتهم إلى القمر ليلة إيداره فانشق اثنين فرقة من وراء الجبل وفرقة من دونه. وهذا أعظم من سائر الآيات الأرضية مما سألكوا وما لم يسألوا، ولو علم الله منهم أنهم سألكوا ذلك استرشاداً وتنبيئاً لأجابهم، ولكن علم أنهم إنما يسألون عناداً وتعتباً فتركهم فيما رابهم وعلم أنهم لا يؤمنون منهن أحد كقوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلْمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْجَاءُهُمْ كُلُّ آيَةٍ» [يونس: ٩٦ - ٩٧] الآية. قوله تعالى: «وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَمْبَمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشِرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا لَيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ» [الأنعام: ١١١] الآية، ولما فيهم من المكابرة كقوله تعالى: «وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ» [الحجر: ١٤] الآية، وقوله تعالى: «وَلَوْ إِنْ يَرَوُا كَسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا» [الطور: ٤٤] الآية، وقال تعالى: «وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمْ سُوهْ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سُحْرٌ مُّبِينٌ» [الأنعام: ٧] فمثل هؤلاء أقل من أن يجاپو إلى ما سأله لأنه لا فائدة في جوابهم لأنه دائـر على تعنتهم وعـنـادـهـمـ لـكـثـرـةـ فـجـورـهـ وـفـسـادـهـ وـلـهـذاـ قـالـ: «فَانْتَظِرُوكُمْ إِنِّي مَعَكُمْ مِنْ الْمُنْتَظِرِينَ».

وَإِذَا أَذْقَنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَّاءٍ مَسْتَهِمْ إِذَا لَهُمْ أَسْرَعَ مَكْرُراً إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَكْرُرُونَ ۝ هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْأَرْضِ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفَلَكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بَرِيقٌ طَيْبٌ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِبِيعٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمْ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَاهِرُهُمْ أَحْيَطَ بِهِمْ دُعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَمْ يُنْبَيِّنَا مِنْ هَذِهِ لِنَكْوَنَ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۝ فَلَمَّا أَنْجَنَّهُمْ إِذَا هُمْ يَعْوَنُونَ فِي الْأَرْضِ يَعْتَرُّ الْعَيْنَ يَأْتُهُمْ النَّاسُ إِنَّمَا يَغْيِيْكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةُ الَّذِي أَنْتُمْ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنَنِيْشُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝

يخبر تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمة من بعد ضراء مستهم كالرخاء بعد الشدة، والخصب بعد العجب، والمطر بعد القحط ونحو ذلك «إذا لهم مكر في آياتنا» قال مجاهد: استهزاء وتكذيب قوله: «وَإِذَا مَسَ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دُعَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا» [يونس: ١٢] الآية، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح على أثر سماء كانت من الليل أي مطر ثم قال: «هل تدرؤن ماذا قال ربكم الليلة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم قال: «قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذاك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذاك كافر بي مؤمن بالكوكب»^(١).

وقوله: «قُلَّا اللَّهُ أَسْرَعَ مَكْرُراً» أي أشد استدراجاً وإمهالاً حتى يظن الطاغي من المجرمين أنه ليس بمعدب وإنما هو في مهلة ثم يؤخذ على غرة منه والكتابون الكرام يكتبون عليه جميع ما يفعله ويحصونه عليه ثم يعرضونه على عالم الغيب والشهادة فيجازيه على الجليل والحقير والنمير والقطمير.

ثم أخبر تعالى أنه «هو الذي يسيركم في البر والبحر» أي يحفظكم ويكلئكم بحراسته «حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريء طيبة وفرحوا بها» أي بسرعة سيرهم رافقين فيما هم كذلك إذ « جاءتها » أي تلك السفن « ربيع عاصف » أي شديدة « وجاءهم الموج من كل مكان » أي اغتلهم البحر عليهم^(٢) « وظروا أنهم أحยط بهم » أي هلكوا « دعوا الله مخلصين له الدين » أي لا يدعون معه صنماً ولا وثنًا بل يفردونه بالدعاء والابتهاج كقوله تعالى: «وَإِذَا مَسْكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مِنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَاهُ فَلَمَّا نُجِّاْكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كُفُورًا» [الإسراء: ٦٧].

وقال ههنا: « دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه » أي هذه الحال « لنكونن من الشاكرين » أي لا نشرك بك أحداً ولنفرنك بالعبادة هناك كما أفردناك بالدعاء ههنا، قال الله

(١) أخرجه البخاري في الاستسقاء باب ٢٨، ومسلم في الإيمان حديث ١٢٥.

(٢) اغتلهم البحر عليهم: أي اشتد وجاج واضطرب.

تعالى : «فَلِمَا أَنْجَاهُمْ» أي من تلك الورطة «إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحِلَةِ» أي كان لم يكن من ذلك شيء «كَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضَرِّ مَسِهِ» ثم قال تعالى : «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِذَا حَانَتْ عَلَى أَنفُسِكُمْ» أي إنما يذوق وبال هذا البغي أنتم أنفسكم ولا تضرنون به أحداً غيركم ، كما جاء في الحديث «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرَ أَنْ يَعْجِلَ اللَّهَ عَقْوَبَتِهِ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدْخُلُ اللَّهُ لِصَاحِبِهِ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْبَغْيِ وَقَطْعَيْرِ الرَّحْمِ»^(١) قوله : «مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» أي إنما لكم متاع في الحياة الدنيا الدينية الحقيقة «ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ» أي مصيركم ومآلكم «فَنَبْيَكُمْ» أي فنخبركم بجميع أعمالكم ونوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه .

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٌ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْلَطْنَاهُ بِهِ بَأْثُرَ الْأَرْضِ مِنَ أَنْتَشَرَ كُلُّ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ حَتَّى يَرَوُا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ أَخْذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَأَرْبَيْتَهَا أَنْهَمَ قَدْرُوكَ عَيْنَاهَا أَنْهَمَ كَيْلَانَهَا أَنْهَمَ رَكَابَهَا كَيْلَانَهَا أَنْهَمَ رَكَابَهَا حَصِيدًا كَانَ لَمْ تَعْنِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَنْكُحُونَ بَيْنَهُمْ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ الْحَسَنَاتِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ

ضرب تبارك وتعالى مثلاً لزهرة الحياة الدنيا وزيتها وسرعة انقضائها وزوالها ، بالنبات الذي أخرجه الله من الأرض ، بماء أنزل من السماء ، مما يأكل الناس من زروع وثمار على اختلاف أنواعها وأصنافها ، وما تأكل الأنعام من أب وقضب وغير ذلك ، « حتَّى يَرَوُوا مَا حَسِيدَ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَأَرْبَيْتَهَا أَنْهَمَ قَدْرُوكَ عَيْنَاهَا أَنْهَمَ كَيْلَانَهَا أَنْهَمَ رَكَابَهَا كَيْلَانَهَا أَنْهَمَ رَكَابَهَا حَصِيدًا كَانَ لَمْ تَعْنِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَنْكُحُونَ بَيْنَهُمْ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ الْحَسَنَاتِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ » أي زيتها الفانية «وازبنت» أي حست بما خرج من ربها من زهور نمرة مختلفة الأشكال والألوان «وظن أهلها» الذين زرعوها وغرسواها «أنهم قادرون على جذاها وحصادها ، في بينما هم كذلك إذ جاءتها صاعقة أو ريح شديدة باردة ، فأيست أوراقها وأتلفت ثمارها ، ولهذا قال تعالى : «أَتَاهَا أَمْوَالُهَا لِيَلِيلًا أَوْ نَهَارًا فَحَمِلْنَاهَا حَصِيدًا » أي يابساً بعد الخضراء والضارة «كَانَ لَمْ تَعْنِ بِالْأَمْسِ» أي كانها ما كانت حسناء قبل ذلك . وقال قتادة : كأن لم تغن كأن لم تنعم ، وهكذا الأمور بعد زوالها كانها لم تكن .

ولهذا جاء في الحديث «يؤتى بائعم أهل الدنيا فيغمض في النار غمسة فيقال له هل رأيت خيراً قط ؟ هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول : لا ، ويؤتى بأشد الناس عذاباً في الدنيا فيغمض في النعيم غمسة ثم يقال له هل رأيت بؤساً قط ؟ فيقول لا»^(٢) وقال تعالى إخباراً عن المهلكين : «فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَانَ لَمْ يَغْنُوا فِيهَا» [هود: ٩٤ - ٩٥] ثم قال تعالى : «نَفَصِلُ الْآيَاتِ» أي نبين الحجج والأدلة «لِقَوْمٍ يَنْكُحُونَ بَيْنَهُمْ» فيعتبرون بهذا المثل في زوال الدنيا من أهلها سريعاً مع اغترارهم بها ، وتمكّنهم وثقتهم بمواعيدها وتقلّتها عنهم ، فإن من طبعها الهرب من طلبها ، والطلب لمن هرب منها .

(١) أخرجه أبو داود في الأدب باب ٤٣ ، وابن ماجه في الزهد باب ٢٣ .

(٢) أخرجه ابن ماجه في الزهد باب ٣٨ .

وقد ضرب الله تعالى مثل الدنيا بنبات الأرض في غير ما آية من كتابه العزيز، فقال في سورة الكهف: «وَاضْرَبْ لَهُم مِثْلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءً أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذَرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا» [الكهف: ٤٥] وكذا في سورة الزمر^(١) وال الحديد^(٢)، يضرب الله بذلك مثل الحياة الدنيا. وقال ابن جرير^(٣): حدثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن عبد الرحمن بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قال: سمعت مروان يعني ابن الحكم، يقرأ على المنبر: واذينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها، وما كان الله ليهلكهم إلا بذنب أهلها. قال قد قرأتها وليس في المصحف، فقال عباس بن عبد الله بن عباس هكذا يقرؤها ابن عباس، فأرسلوا إلى ابن عباس فقال هكذا أقرأني أبي بن كعب، وهذه قراءة غريبة وكأنها زيدت للتفسير.

وقوله تعالى: «وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ» الآية. لما ذكر تعالى الدنيا وسرعة زوالها، رغب في الجنة ودعا إليها وسمها دار السلام أي من الآفات، والنقصان والنكبات فقال: «وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ» قال أبو ب عن أبي قلابة: عن النبي ﷺ قال: «قيل لي لتشم عينك وليعقل قلبك ولتسمع أذنك، فنامت عيني وعقل قلبي وسمعت أذني ثم قيل لي: مثلي ومثل ما جئت كمثل سيدبني داراً ثم صنع مأدبة وأرسل داعياً فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة ورضي عنه السيد، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة ولو يرضي عنه السيد، والله السيد والدار والإسلام والمأدبة الجنة والداعي محمد ﷺ»^(٤) وهذا الحديث مرسل.

وقد جاء متصلًا من حديث الليث عن خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال «إِنِّي رأَيْتُ فِي الْمَنَامِ كَأْنَ جَبَرِيلَ عَنْ رَأْسِي وَمِيكَائِيلَ عَنْ رَجْلِي يَقُولُ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ اضْرِبْ لَهُ مَثَلًا»، فقال اسْمَعْ سمعت أذنك، واعقل عقل قلبك، إنما مثلك ومثل أمتك كمثل ملك اتخذ داراً ثم بني فيها بيتاً ثم جعل فيها مأدبة ثم بعث رسولًا يدعو الناس إلى طعامه، فمنهم من أجاب الرسول ومنهم من تركه فالله الملك والدار الإسلام والبيت الجنة، وأنت يا محمد الرسول فمن أجابك دخل الإسلام ومن دخل الإسلام دخل الجنة ومن دخل الجنة أكل منها» رواه ابن جرير^(٥).

(١) الآية: ٢١.

(٢) الآية: ٢٠.

(٣) تفسير الطبرى ٥٤٧/٦.

(٤) انظر تفسير الطبرى ٥٤٨/٦.

(٥) تفسير الطبرى ٥٤٩/٦.

وقال قتادة: حدثني خليل العصري عن أبي الدرداء مرفوعاً قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم طلعت فيه الشمس إلا ويجنبيها ملكان يناديان يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم إن ما قل وكفى خير مما كثر وألهي» قال وأنزل في قوله يا أيها الناس هلموا إلى ربكم ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوكُمْ إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ الآية. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير^(١).

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحَسَنَىٰ وَزِيَادَةًٰ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَطَّٰ وَلَا ذَلَّةٌ أُولَئِكَ أَحَبُّ الْجَنَّةَ هُمْ فِيهَا خَلِيلُونَ﴾

يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح: الحسن في الدار الآخرة كقوله تعالى: «هل جزاء الإحسان إلا الإحسان» [الرحمن: ٦٠] وقوله: «(وزيادة) هي تضييف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وزيادة على ذلك أيضاً، ويشمل ما يعطىهم الله في الجنان من التصور والحوور والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرة أعين وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه لا يستحقونها بعملهم بل بفضله ورحمته، وقد روی تفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم عن أبي بكر الصديق وحذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وسعيد بن المسيب وعبد الرحمن بن أبي ليلى وعبد الرحمن بن سابط ومجاهد وعكرمة وعامر بن سعد وعطاء والضحائل والحسن وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق وغيرهم من السلف والخلف.

وقد وردت فيه أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ، فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد^(٢): حدثنا عفان، أخبرنا حماد بن سلمة عن ثابت الباني عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صحيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحَسَنَىٰ وَزِيَادَةًٰ﴾ وقال: «إذا دخل أهل الجنة وأهل النار نادى منادياً أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه فيقولون: وما هو ألم يشق موازيننا؟ ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويعجرنا من النار - قال - فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم»^(٣) وهكذا رواه مسلم وجama'a من الأئمة من حديث حماد بن سلمة به.

وقال ابن جرير^(٤): حدثني يونس، قال أخبرنا ابن وهب، قال أخبرني شبيب عن أبيان عن أبي تميمة الهجيمي، أنه سمع أبا موسى الأشعري يحدث عن رسول الله ﷺ «إن الله يبعث يوم القيمة منادياً ينادي يا أهل الجنة - بصوت يسمع أولهم وأخرهم - إن الله وعدكم الحسنى

(١) تفسير الطبرى / ٦٥٤٨.

(٢) المستند / ٤٣٣.

(٣) أخرجه الترمذى فى تفسير سورة ١٠ ، باب ١ ، وابن ماجه فى المقدمة باب ١٣ .

(٤) تفسير الطبرى / ٦٥٥٠.

وزيادة، فالحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الرحمن عز وجل» ورواه أيضاً ابن أبي حاتم من حديث أبي بكر الهمذاني عن أبي تميمة الهجيمي به.

وقال ابن جرير^(١) أيضاً: حدثنا ابن حميد حدثنا إبراهيم بن المختار عن ابن جريج عن عطاء عن كعب بن عجرة عن النبي ﷺ في قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحَسْنَى وَزِيَادَةً﴾ قال «النظر إلى وجه الرحمن عز وجل». وقال أيضاً^(٢): حدثنا ابن عبد الرحيم حدثنا عمرو بن أبي سلمة سمعت زهيراً عمن سمع أبا العالية حدثنا أبي بن كعب أنه سأله رسول الله ﷺ عن قول الله عز وجل ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحَسْنَى وَزِيَادَةً﴾ قال: «الحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الله عز وجل» ورواه ابن أبي حاتم أيضاً من حديث زهير به.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْهَقُهُمْ قُرْبَةٌ﴾ أي قتام وسوداد في عرصات المحشر كما يعتري وجوه الكفارة الفجرة من القترة والغبرة ﴿وَلَا ذَلَّةٌ﴾ أي هوان وصغار أي لا يحصل لهم إهانة في الباطن ولا في الظاهر بل هم كما قال تعالى في حقهم: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرُّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَاهُمْ نَصْرَةً وَسُرُورًا﴾ أي نصرة في وجوههم وسروراً في قلوبهم، جعلنا الله منهم بفضله ورحمته آمين.

وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَرَأَهُنَّ سَيِّئَاتٍ بِمِثْلِهَا وَتَرَهُقُهُنَّ ذَلَّةً مَا لَهُمْ بَيْنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَانُوا أَغْشَيْتُ وُجُوهَهُمْ قَطْعًا مِنَ الْأَيْلَ مُظْلِمًا أَوْ لَهُكَ أَخْدَبَ النَّارَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

لما أخبر تعالى عن حال السعداء الذين يضاعف لهم الحسنات ويزدادون على ذلك عطف بذكر حال الأشقياء فذكر تعالى عدله فيهم وأنه يجازيهم على السيئة بمثلها لا يزيدتهم على ذلك ﴿وَتَرَهُقُهُمْ﴾ أي تعربيهم وتعلوهم ذلة من معاصيهم وخوفهم منها كما قال: «وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذلة» [الشوري: ٤٥] الآية وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسِنَ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يَؤْخِرُهُمْ لِيَوْمٍ تَنْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ مَهْطُونٍ رَّؤُوسُهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤٤ - ٤٢] الآيات، وقوله: ﴿مَا لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي مانع ولا واق يقيهم العذاب كقوله تعالى: ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ كَلَا لَا وزرٌ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقْرِ﴾ [القيامة: ١٠ - ١٢] تعالى: ﴿كَانُوا أَغْشَيْتُ وُجُوهَهُمْ﴾ الآية إخبار عن سوداد وجوههم في الدار الآخرة كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبَيَّنُ وُجُوهُ وَتَسُودُ وَجُوهُ فَمَا الَّذِينَ اسْوَدُتْ وَجُوهُهُمْ أَكْفَرُهُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ وَمَا الَّذِينَ ابْيَضُتْ وَجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦ - ١٠٧] قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مَسْفَرَةً ضَاحِكَةً مُسْتَبْشِرَةً وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبْرَةً﴾ [عبس: ٤٢ - ٣٨] الآية.

(١) تفسير الطبرى / ٦ . ٥٥١

(٢) تفسير الطبرى / ٦ . ٥٥١ ، وفيه: حدثنا ابن البرقى ، بدل: حدثنا ابن عبد الرحيم .

وَيَوْمَ تَحْشِرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ تَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوكُمْ أَنْتُمْ وَشَرِكَاً لِّمَ فَرِيزْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شَرِكَاً وَهُمْ مَا كُنْتُمْ إِنَّا نَقْبَدُونَ ﴿١﴾ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنِ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوُ كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرَدُوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَانَهُمُ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣﴾

يقول تعالى: «وَيَوْمَ نَحْشِرُهُمْ» أي أهل الأرض كلهم من جن وإنس وبر وفاجر ك قوله: «وَحَشِرْنَاهُمْ فَلِمْ نَعَدْرُ مِنْهُمْ أَحَدًا» [الكهف: ٤٧] «ثُمَّ تَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوكُمْ» الآية أي الزموا أنتم وهم مكاناً معيناً امتازوا فيه عن مقام المؤمنين كقوله تعالى: «وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيْهَا الْمُجْرِمُونَ» [يس: ٥٩] قوله: «وَيَوْمَ تَقْوَمُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ» [الروم: ١٤] وفي الآية الأخرى «يَوْمَئِذٍ يَصْدِعُونَ» [الروم: ٤٣] أي يصرون صدرين وهذا يكون إذا جاء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء ولهذا قيل ذلك^(١) يستشعف المؤمنون إلى الله تعالى أن يأتي لفصل القضاء ويريحنا من مقامنا هذا، وفي الحديث الآخر «نَحْنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى كُومٍ فَوْقَ النَّاسِ»^(٢).

وقال الله تعالى في هذه الآية الكريمة إخباراً عما يأمر به المشركين وأوثانهم يوم القيمة «مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشَرِكَاً كُمْ فَرِيزْنَا بَيْنَهُمْ» الآية أنكروا عبادتهم وتبؤوا منهم كقوله: «كُلُّ سَيِّكُفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ» [مريم: ٨٢] الآية قوله: «إِذْ تَبْرُأُ الظِّنَنُ اتَّبَعُوا مِنَ الظِّنَنِ اتَّبَعُوا» قوله: «وَمِنْ أَضْلَلَ مَنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حَشَرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءٍ» [الأحقاف: ٦ - ٥] الآية قوله في هذه الآية إخباراً عن قول الشركاء فيما راجعوا فيه عبادتهم عند ادعائهم عبادتهم: «فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ» الآية أي ما كنا نشعر بها ولا نعلم بها، وإنما كتم تعبدوننا من حيث لا ندرى بكم والله شهيد بيننا وبينكم أنا ما دعوناكم إلى عبادتنا ولا أمرناكم بها ولا رضينا منكم بذلك.

وفي هذا تبكيت عظيم للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره ممن لا يسمع ولا يبصر ولا يعني عنهم شيئاً، ولم يأمرهم بذلك ولا رضي به ولا أراده بل تبراً منهم وقت أحوج ما يكونون إليه وقد تركوا عبادة الحي القيوم السميع البصير القادر على كل شيء العليم بكل شيء، وقد أرسل رسلاً وأنزل كتبه أمراً بعبادته وحده لا شريك له ناهياً عن عبادة ما سواه كما قال تعالى: «وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هُدِيَ اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ» [النَّحْل: ٣٦] وقال تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا إِلَيْهِ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونَ» [الأَنْبِيَاء: ٢٥] وقال: «وَاسْأَلْ مِنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولَنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ أَلَّهُمْ يَعْبُدُونَ» [الزُّخْرُف: ٤٥].

(١) بعده بياض بالأصل.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٣٤٥ / ٣.

والمسركون أنواع وأقسام كثيرون قد ذكرهم الله في كتابه وبين أحوالهم وأقوالهم ورد عليهم فيما هم فيه أتم رد، وقال تعالى: «هُنَالِكَ تَبْلُو كُلَّ نَفْسٍ مَا أَسْلَتَتْ» أي في موقف الحساب يوم القيمة تختبر كل نفس وتعلم ما سلف من عملها من خير وشر كقوله تعالى: «يَوْمَ تَبْلِي السَّرَّائِرَ» [الطارق: ٩] وقال تعالى: «يَنْبَأُ الإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدِمَ وَآخَرَ» [القيمة: ١٣] وقال تعالى: «وَنَخْرُجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مُنْشَرُورًا أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا» [الإسراء: ١٣ - ١٤] وقد قرأ بعضهم «هُنَالِكَ تَبْلُو كُلَّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ» وفسرها بعضهم بالقراءة، وفسرها بعضهم بمعنى تتبع ما قدمت من خير وشر وفسرها بعضهم بحديث «لتتبع كل أمة ما كانت تعبد، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ويتابع من كان يعبد القمر القمر، ويتابع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت»^(١) الحديث، وقوله: «وَرَدُوا إِلَيْهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ» أي ورجعت الأمور كلها إلى الله الحكم العدل ففصلها وأدخل أهل الجنة الجنّة، وأهل النار النار «وَضَلَّ عَنْهُمْ» أي ذهب عن المسركين «مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ» أي ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه.

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْنَ يَمْلِكُ السَّمَعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُنْجِحُ الْحَقَّ مِنَ الْمُيَتِ فَمُنْجِحُ الْمُيَتِ مِنَ الْحَقِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ أَفْلَأُ نَنْتَقُونَ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا يَمْدُدُ الْعَقَدُ إِلَّا الصَّلَالُ فَإِنِّي تَصْرُفُونَ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلْمَتُ رَبِّكَ عَلَى الظَّيْنِ فَسَقُوا أَنْهَمَ لَا يُؤْمِنُونَ

يحتاج تعالى على المسركين باعترافهم بوحدانيته وربوبيته على وحدانية الآلهة فقال تعالى: «قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» أي من ذا الذي ينزل من السماء ماء المطر فيشق الأرض شقاً بقدرته ومشيئته فيخرج منها «حِبَا وَعَنْبَا وَقَضْبَا وَزَيْتُونَا وَنَخْلَا وَحَدَائِقَ غَلْبَاً وَفَاكِهَةً وَأَبَا» [عبس: ٢٧ - ٣١] إله مع الله؟ فسيقولون الله «أَمْنَ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ» [الملك: ٢١] وقوله: «أَمْنَ يَمْلِكُ السَّمَعَ وَالْأَبْصَارَ» [يونس: ٣١] أي الذي وهبكم هذه القوة السادعة، والقوة الباصرة، ولو شاء لذهب بها ولسلبكم إياها كقوله تعالى: «قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمَعَ وَالْأَبْصَارَ» [الملك: ٢٣] الآية.

وقال: «قُلْ أَرَأَيْتَ إِنْ أَخْذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ» [الأعراف: ٤٦] الآية وقوله: «وَمَنْ يَخْرُجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيْتِ وَيَخْرُجُ الْمَيْتُ مِنَ الْحَيِّ» أي بقدرته العظيمة ومتنه العميمة، وقد تقدم ذكر الخلاف في ذلك وأن الآية عامة لذلك كله وقوله: «وَمَنْ يَدْبِرُ الْأَمْرَ» أي من يديه ملوكوت كل شيء وهو يغير ولا يجار عليه وهو المتصرف الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون «يَسَّأَلُونَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأنٍ» [الرحمن: ٢٩]

(١) أخرجه البخاري في التوحيد باب ٢٤، والرقاق باب ٥٢، ومسلم في الإيمان حديث ٢٩٩.

فالمُلْك كله العلوى والسفلى وما فيهما من ملائكة وإنس وجان فقيرون إليه عباد له خاضعون لديه ﴿فَسِيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ أي وهم يعلمون ذلك ويعرفون به.

﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَقَوَّنُ﴾ أي أفلأ تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بآرائهم وجهلكم قوله: ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾ الآية أي فهذا الذي اعترفتم بأنه فاعل ذلك كله هو ربكم وإلهكم الحق الذي يستحق أن يفرد بالعبادة ﴿فَمَاذَا بَعْدُ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ أي فكل معبد سواه باطل لا إله إلا هو واحد لا شريك له ﴿فَإِنَّمَا تَصْرِفُونَ﴾ أي فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة ما سواه وأنتم تعلمون أنه رب الذي خلق كل شيء والمتصف في كل شيء، قوله: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلْمَةُ رَبِّكُمْ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ الآية أي كما كفر هؤلاء المشركون واستمروا على شركهم وعبادتهم مع الله غيره مع أنهم يعترفون بأنه الخالق المتصف في الملك وحده الذي بعث رسالته بتوحيده، فلهذا حقت عليهم كلمة الله أنهم أشقياء من ساكني النار قوله: ﴿قَالُوا بَلِّي وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلْمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

قُلْ هَلْ مِنْ شَرَكَاهُمْ مَنْ يَبْدُوا لِخَلْقَ ثُمَّ يُعِيْدُهُ قُلْ اللَّهُ يَكْبَدِئُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيْدُهُ فَإِنَّ تُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شَرَكَاهُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَفَنَّ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يَنْبَغِي أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِي فَالَّذِنَ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٥﴾ وَمَا يَنْبَغِي أَكْثَرُهُمْ إِلَّا أَنْ أَظَنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٦﴾

وهذا إبطال لدعواهم فيما أشركوا بالله غيره، وعبدوا من الأصنام والأنداد ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شَرَكَاهُمْ مَنْ يَبْدُوا لِخَلْقَ ثُمَّ يُعِيْدُهُ﴾ أي من بدأ خلق هذه السموات والأرض ثم ينشيء ما فيهما من الخلق، ويفرق أجرام السموات والأرض ويبدهما ببناء ما فيهما ثم يعيد الخلق خلقاً جديداً ﴿قُلْ اللَّهُ﴾ هو الذي يفعل هذا ويستقبل به وحده لا شريك له ﴿فَإِنَّمَا تُؤْفَكُونَ﴾ أي فكيف تصرفون عن طريق الرشد إلى الباطل ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شَرَكَاهُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ الآية أي أنتم تعلمون أن شركاءكم لا تقدر على هداية ضال، وإنما يهدي الحيارى والضلال ويقلب القلوب من الغي إلى الرشد الله الذي لا إله إلا هو.

﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يَنْبَغِي أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِي﴾ أي أفيتبع العبد الذي يهدي إلى الحق ويتصدر بعد العمى أم الذي لا يهدي إلى شيء إلا أن يهدي لعماء وبكمه كما قال تعالى إخباراً عن إبراهيم أنه قال: ﴿يَا أَبَتِ لَمْ تَعْدِ مَا لَا يُسْمَعُ وَلَا يُبَصِّرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢] وقال لقومه: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٩٥ - ٩٦] إلى غير ذلك من الآيات وقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي بما بالكم أن يذهب بعقولكم كيف سويتم بين الله وبين خلقه وعدلتם هذا بهذا وعبدتم هذا وهذا، وهلا أفردتكم الله جل جلاله المالك الحكم الهادي من الضلال بالعبادة وحده وأخلصتم إليه الدعوة والإنابة، ثم بين تعالى

أنهم لا يتبعون في دينهم هذا دليلاً ولا برهاناً وإنما هو ظن منهم أي توهם وتخيل، وذلك لا يعني عنهم شيئاً ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعُلُونَ﴾ تهديد لهم ووعيد شديد لأنَّه تعالى أخبر أنه سيجازيهم على ذلك أتم الجزاء.

وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الْكِتَابِ لَأَرَبَّ فِيهِ مِنْ رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَهُ قُلْ فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِثْلَهُ وَادْعُوا مِنْ أَسْتَطْعُمُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَدِيقِنَ ﴿١٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَرْتُ بِحُكْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَنْقَبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ وَمِنْهُمْ سَنُّ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٢٠﴾

هذا بيان لإعجاز القرآن وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله ولا بعشر سور ولا بسورة من مثله لأنه بفصاحته وببلاغته ووجازته واحشتماله على المعاني العزيزة النافعة في الدنيا والآخرة لا تكون إلا من عند الله الذي لا يشبهه شيء في ذاته ولا في صفاتاته ولا في أفعاله وأقواله فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين ولهذا قال تعالى: «وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله» أي مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله ولا يشبه هذا كلام البشر «ولكن تصدقه الذي بين يديه» أي من الكتب المتقدمة ومهيمناً عليه ومُبيناً لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل.

وقوله: «وَتَفَسِّيَ الْكِتَابَ لَا رَبِّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ» أي وبيان الأحكام والحلال والحرام بياناً شافياً كافياً حقاً لا مرية فيه من الله رب العالمين كما تقدم في حديث الحارث الأعور عن علي بن أبي طالب فيه خبر ما قبلكم ونبأ ما بعدكم وفصل ما بينكم أي خبر عما سلف وعما سيأتي وحكم فيما بين الناس بالشرع الذي يحبه الله ويرضاه. قوله: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَهُ قُلْ فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِثْلَهُ وَادْعُوا مِنْ أَسْتَطْعُمُ صَادِقِينَ» أي إن ادعitem وافتريتم وشككتم في أن هذا من عند الله وقلتم كذباً وميناً إن هذا من عند محمد فمحمد بشر مثلكم وقد جاء فيما زعمتم بهذا القرآن فأتوا أنتم بسورة مثله، أي من جنس هذا القرآن واستعينوا على ذلك بكل من قدرتم عليه من إنس وجان.

وهذا هو المقام الثالث في التحدي فإنه تعالى تحداهم ودعاهم إن كانوا صادقين في دعواهم أنه من عند محمد فليعارضوه بنظرير ما جاء به وحده وليسعنوا بمن شاؤوا وأخبر أنهم لا يقدرون على ذلك ولا سبيل لهم إليه فقال تعالى: «قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسَانُ وَالْجَنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لَبِعْضٍ ظَهِيرَاً» [الإسراء: ٨٨] ثم تقاضر معهم إلى عشر سور منه فقال في أول سورة هود: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَهُ قُلْ فَأَتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلَهُ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مِنْ أَسْتَطْعُمُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» [هود: ١٣] ثم تنازل إلى سورة فقال في هذه السورة: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَهُ قُلْ فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِثْلَهُ وَادْعُوا مِنْ أَسْتَطْعُمُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ

صادقين» وكذا في سورة البقرة وهي مدنية تحداهم بسورة منه وأخبر أنهم لا يستطيعون ذلك أبداً فقال: «فَإِنْ لَمْ تَفْعُلُوا وَلَنْ تَفْعُلُوا فَاقْتُلُوا النَّارَ» [البقرة: ٢٤] الآية.

هذا وقد كانت الفصاحة من سجاياهم، وأشعارهم ومعلقاتهم إليها المنتهي في هذا الباب، ولكن جاءهم من الله مالا قبل لأحد به، ولهذا آمن من آمن منهم بما عرف من بلاغة هذا الكلام وحالاته وجزالته وطلاؤته وإفادته وبراعته فكانوا أعلم الناس به وأفهمهم له وأتبعهم له وأشدّهم له انقياداً كما عرف السحرة لعلمهم بفنون السحر أن هذا الذي فعله موسى عليه السلام لا يصدر إلا عن مؤيد مسدود مرسل من الله وأن هذا لا يستطيع البشر إلا بإذن الله. وكذلك عيسى عليه السلام بعث في زمان علماء الطب ومعالجة المرضى فكان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، ومثل هذا لا مدخل للعلاج والدواء فيه فعرف من عرف منهم أنه عبد الله ورسوله.

ولهذا جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أو حاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً»^(١).

وقوله: «بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله» يقول بل كذب هؤلاء بالقرآن ولم يفهموه ولا عرفوه «ولما يأتهم تأويله» أي ولم يحصلوا ما فيه من الهدى ودين الحق إلى حين تكذيبهم به جهلاً وسفهاً « كذلك كذب الذين من قبلهم» أي من الأمم السالفة «فانظر كيف كان عاقبة الظالمين» أي فانتظر كيف أهلكتناهم بتكذيبهم رسالتنا ظلماً وعلواً وكفراً وعندما وجهلاً فاحذروا أيها المكذبون أن يصييكم ما أصابهم.

وقوله: «وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ» الآية، أي ومن هؤلاء الذين بعثت إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن ويتبين ويتفق بما أرسلت به «وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ» بل يموت على ذلك وييُعث عليه «وربك أعلم بال媳دين» أي وهو أعلم بمن يستحق الهدایة فيهديه؟ ومن يستحق الضلالة فيضلله، وهو العادل الذي لا يجور، بل يعطي كلّاً ما يستحقه تبارك وتعالى وتقدس وتنزه لا إله إلا هو.

وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَّلْتُمْ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَتَنْهَا بِرِبِّيْمَ مَمَّا أَعْمَلْ وَإِنَّا بِرِيْمَ مَمَّا تَعْمَلُونَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَعِيْنَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ شَيْعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقُلُونَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعَمَّيْ وَلَوْ كَانُوا لَا يُصْرُوْنَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفَسَهُمْ يَظْلِمُونَ

يقول تعالى لنبيه ﷺ وإن كذب هؤلاء المشركون فتبرأ منهم ومن عملهم «فقل لي عملي

(١) أخرج البخاري في فضائل القرآن باب ١، ومسلم في الإيمان حديث ٢٣٩.

ولكم عملكم» كقوله تعالى: «فَلِيَا أَيْهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ» [الكافرون: ١ - ٢] إلى آخرها، وقال إبراهيم الخليل وأتباعه لقومهم المشركين «إِنَّا بِرَءَاءٍ مِّنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» [المتحنة: ٤] الآية، وقوله: «وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمْعُونَ إِلَيْكُمْ» أي يسمعون كلامك الحسن والقرآن العظيم والأحاديث الصحيحة الفضيحة النافعة في القلوب والأديان والأبدان وفي هذا كفاية عظيمة، ولكن ليس ذلك إليك ولا إليهم فإنك لا تقدر على إسماع الأصم وهو الأطروش فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء إلا أن يشاء الله «وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظَرُ إِلَيْكُمْ» أي ينظرون إليك وإلى ما أعطاك الله من التؤدة والسمت الحسن والخلق العظيم، والدلالة الظاهرة على نبوتك لأولي البصائر والنهي. وهؤلاء ينظرون كما ينظر غيرهم ولا يحصل لهم من الهدایة شيء كما يحصل لغيرهم، بل المؤمنون ينظرون إليك بعين الورق، وهؤلاء الكفار ينظرون إليك بعين الاحتقار «وَإِذَا رأَوكُمْ إِنْ يَتَخَذُونَكُمْ إِلَّا هَرَوْا» [الفرقان: ٤١] الآية.

ثم أخبر تعالى أنه لا يظلم أحداً شيئاً وإن كان قد هدى به من هدى وبصر به من العمى، وفتح به أعيناً عمياً وأذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، وأضل به عن الإيمان آخرين، فهو الحاكم المتصرف في ملكه بما يشاء الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون لعلمه وحكمته وعدله، ولهذا قال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ» وفي الحديث عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل «يَا عَبْدِي إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بِيْنَكُمْ مَحْرَماً فَلَا تَظَالَّمُوا - إِلَى أَنْ قَالَ فِي آخِرِهِ - يَا عَبْدِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصَيْهَا لَكُمْ ثُمَّ أَوْفِيْكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلِيَحْمِدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ» رواه مسلم^(١) بطوله.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَمَا لَمْ يُبْلِغُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ الْهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ حَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا يُلْقَأُ اللَّهُ وَمَا كَانُوا

مُهْتَدِينَ ٤٥

يقول تعالى مذكرة للناس قيام الساعة وحشرهم من أجدائهم إلى عرصات القيمة: «وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ» الآية. كقوله: «كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يُلْبِثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ» وكقوله: «كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يُلْبِثُوا إِلَّا عَنْسِيَةً أَوْ ضَحَاحَاهَا» [النازعات: ٤٦] وقال تعالى: «يَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ رِزْقًا يَتَخَافَّوْنَ بَيْنَهُمْ قَدْ حَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا يُلْقَأُ اللَّهُ وَمَا كَانُوا

يَقُولُ أَمْلَاهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبَثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا» [طه: ١٠٢ - ٤] وقال تعالى: «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَقْسِمُ الْمُجْرِمِينَ مَا لَبَثُوا غَيْرَ سَاعَةً» [الروم: ٥٥] الآيتين، وهذا كله دليل على استقصار الحياة الدنيا في الدار الآخرة كقوله: «قَالَ كُمْ لَبَثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدْ سَنِينَ قَالَوْا لَبَثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلُ الْعَادِينَ قَالَ إِنْ لَبَثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنْكُمْ كُتُمْ تَعْلَمُونَ» [المؤمنون: ١١٢ - ١١٤].

وقوله: ﴿يَتَعَارِفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي يعرف الأبناء الآباء والقرابات بعضهم البعض كما كانوا في الدنيا ولكن كل مشغول بنفسه ﴿فَإِذَا نَفَخْتُ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ [المؤمنون: ١٥١] الآية، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمًا﴾ [المعارج: ١١] الآيات، قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءَ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ قوله تعالى: ﴿وَوَيلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥] لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيمة ألا ذلك هو الخسران المبين ولا خسارة أعظم من خسارة من فرق بينه وبين أحبه يوم الحسرة والندامة.

وَلِمَا نُرِينَكُمْ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ نَتُوفِينَكُمْ فَإِلَيْنَا تُرْجَعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤﴾ وَلِمَكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ فُضِّلَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥﴾

يقول تعالى مخاطباً لرسوله ﷺ: ﴿وَإِمَّا نُرِينَكُمْ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ﴾ أي ننتقم منهم في حياتك لتقر عينك منهم ﴿أَوْ نَتُوفِينَكُمْ فَإِلَيْنَا تُرْجَعُهُمْ﴾ أي مصيرهم ومنتقلتهم والله شهيد على أفعالهم بعده وقد قال الطبراني: حدثنا عبد الله بن أحمد حدثنا عقبة بن مكرم حدثنا أبو بكر الحنفي حدثنا داود بن الجارود عن أبي السليل عن حذيفة بن أسيد عن النبي ﷺ قال: «عرضت على أمتي البارحة لدى هذه الحجرة أولها وأخرها» فقال رجل: يا رسول الله عرض عليك من خلق فكيف من لم يخلق؟ فقال: «صوروا لي في الطين حتى أعرف بالإنسان منهم من أحدكم بصاحبه» ورواه عن محمد بن عثمان بن أبي شيبة عن عقبة بن مكرم عن يونس بن بكير عن زياد بن المنذر عن أبي الطفيلي عن حذيفة بن أسيد به نحوه.

وقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولَهُمْ﴾ قال مجاهد: يعني يوم القيمة^(١) ﴿فَقَضَى بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ الآية، قوله تعالى: ﴿وَأَشَرَّقَ الْأَرْضَ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩] الآية، فكل أمة تعرض على الله بحضرته رسولها وكتاب أعمالها من خير وشر موضوع شاهد عليهم وحفظتهم من الملائكة شهود أيضاً أمة بعد أمة وهذه الأمة الشريفة وإن كانت آخر الأمم في الخلق إلا أنها أول الأمم يوم القيمة يفصل بينهم ويقضي لهم كما جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نحن الآخرون السابعون يوم القيمة، المقضي يفصل لهم قبل الخلاق»^(٢) فأمته إنما حازت قصب السبق بشرف رسولها صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين.

وَيَقُولُونَ مَاذَا هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجْلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْبِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُهُ بَيْتَنَا أَوْ نَهَارًا مَاذَا

(١) انظر تفسير الطبراني ٥٦٥ / ٦

(٢) أخرجه مسلم في الجمعة حديث ٢٢

يَا سَيِّدَ الْمُحْمَدِ مَوْنَ [١٧] أَنْهَ إِذَا مَا وَقَعَ عَامِنَهُ بِهِ مَا كَنَ وَقَدْ هُنَمْ بِهِ سَتَعْجِلُونَ [١٨] ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ صَنَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخَلْدَ هَلْ بَخْرُونَ إِلَيْهِمْ كَنَمْ تَكْسِبُونَ [١٩]

يقول تعالى مخبراً عن كفر هؤلاء المشركين في استعجالهم العذاب وسؤالهم عن وقته قبل التعين مما لا فائدة لهم فيه كقوله: «**يُسْتَعْجِلُ** بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق» [الشوري: ١٨] أي كائنة لا محالة وواقعة وإن لم يعلموا وقتها عيناً، ولهذا أرشد تعالى رسوله ﷺ إلى جوابهم فقال: «**قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا**» الآية، أي لا أقول إلا ما علمني ولا أقدر على شيء مما استأثر به إلا أن يطلعني الله عليه فأنا عبده ورسوله إليكم وقد أخبرتكم بمجيء الساعة وأنها كائنة ولم يطلعني على وقتها ولكن «**لَكُلِّ أُمَّةٍ حِلٌّ**» أي لكل قرن مدة من العمر مقدرة فإذا انقضى أجلهم «**فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ** ساعة **لَا يَسْقُدُونَ**» كقوله: «**وَلَنْ يَؤْخِرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلَهَا**» [المนาقوفون: ١١] الآية.

ثم أخبر أن عذاب الله سيأتيهم بغتة فقال: «**فَلَمْ أَرَأِتُمْ إِنْ أَنَا كَمْ عَذَابَهُ بَيَانًاً أَوْ نَهَارًاً**» أي ليلاً أو نهاراً «**مَذَا يُسْتَعْجِلُ** مَنْ الْمُجْرِمُونَ أَنَّهُمْ إِذَا مَا وَقَعَ عَامِنَهُ بِهِ الْآنَ وَقَدْ كَنَتْ بِهِ سَتَعْجِلُونَ» يعني أنهم إذا جاءهم العذاب قالوا «ربنا أبصرنا وسمعنا» [السجدة: ١٢] الآية، وقال تعالى: «**فَلَمَّا رَأَوْا بِأَسْنَا** قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنان سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون» [غافر: ٨٤ - ٨٥] ثم قيل للذين **صَنَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخَلْدَ** أي يوم القيمة يقال لهم هذا تبكيتاً وتقريراً كقوله: «**يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمْ دُعَا هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كَنَتْ بِهَا تَكَذِّبُونَ أَفْسَحْ رَاهِنْ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تَبْصِرُونَ اصْلُوهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تَجْزُونَ مَا كَنْتُمْ تَعْمَلُونَ**» [الطور: ١٣ - ١٦].

وَسَتَكْتُلُوكَ أَحَقُّ هُوٌ قُلْ إِيْ وَرَبِّيْ إِنَّمَّا لَحْقٌ وَمَا أَنْشَمْ بِمُعْجِزِيْكَ [٢٠] وَلَوْ أَنْ لِكُلِّ نَفْسٍ ظُلْمَتْ مَا لَمْ يَرِيْدْ لَفْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرَوْ الْنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَقُضَوْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ [٢١]

يقول تعالى ويستخبرونك «أحق هو» أي المعاد والقيمة من الأجداث بعد صيرورة الأجسام تراباً «**قُلْ إِيْ وَرَبِّيْ إِنَّهُ لَحْقٌ وَمَا أَنْشَمْ بِمُعْجِزِيْكَ**» أي ليس صيرورتكم تراباً بمعجز الله عن إعادتكم كما بدأكم من العدم ف «**إِنَّمَا أُمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كَنْ فِيْكُونَ**» [يس: ٨٢] وهذه الآية ليس لها نظير في القرآن إلا آياتان أخرى يأن الله تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد في سورة سباء «**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلِيْ وَرَبِّيْ لِتَأْتِنِكُمْ**» [سبأ: ٣] وفي التغابن «**زَعْمُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يَعْثُوا قُلْ بَلِيْ وَرَبِّيْ لِتَبْعَثُنَ ثُمَّ لِتَبْيَئُنَ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**» [التغابن: ٧] ثم أخبر تعالى أنه إذا قامت القيمة يود الكافر لو افتدى من عذاب الله بمال الأرض ذهبأ «**وَأَسْرَوْ الْنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَقُضَيْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ**» أي بالحق **وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ**.

**أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ هُوَ يُحْكِي وَيُمِيزُ
وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض وأن وعده حق كائن لا محالة وأنه يحيي ويميت وإليه مرجعهم، وأنه قادر على ذلك العليم بما تفرق من الأجسام وتمزق في سائر أقطار الأرض والبحار والقفار.

**يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشَفَاءٌ لِمَا فِي الْصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ هُنَّ قَرْبَانٌ
يُنَصِّلُ أَنَّ اللَّهَ وَرِحْمَتِهِ فِي ذَلِكَ فَلَيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَحْمَلُونَ**

يقول تعالى ممتناً على خلقه بما أنزله من القرآن العظيم على رسوله الكريم: «يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم» أي زاجر عن الفواحش «وشفاء لما في الصدور» أي من الشبه والشكوك وهو إزالة ما فيها من رجس ودنس، وهدى ورحمة أي يحصل به الهدایة والرحمة من الله تعالى، وإنما ذلك للمؤمنين به والمصدقين الموقنين بما فيه، كقوله تعالى: «وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا» [الإسراء: ٨٢] قوله: «قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء» [فصلت: ٤٤] الآية.

وقوله تعالى: «قل بفضل الله وبرحمته بذلك فليفرحوا» أي بهذا الذي جاءهم من الله من الهدى ودين الحق فليفرحوا، فإنه أولى ما يفرجون به «هو خير مما يجمعون» أي من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة لا محالة، كما قال ابن أبي حاتم في تفسير هذه الآية، وذكر بسنده عن بقية بن الوليد عن صفوان بن عمرو، سمعت أبيفع بن عبد الكلاعي يقول: لما قدم خراج العراق إلى عمر رضي الله عنه، خرج عمر ومولى له فجعل عمر يعد الإبل فإذا هي أكثر من ذلك، فجعل عمر يقول الحمد لله تعالى، ويقول مولاه هذا والله من فضل الله ورحمته، فقال عمر: كذبت ليس هذا، هو الذي يقول الله تعالى: «قل بفضل الله وبرحمته» الآية، وهذا مما يجمعون، وقد أنسدَه الحافظ أبو القاسم الطبراني، فرواه عن أبي زرعة الدمشقي عن حبيبة بن شريح عن بقية فذكره.

**قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ بَيْتَهُ سِرَّاً مَا وَحَلَّ لَكُمْ قُلْ أَلَا اللَّهُ أَذْكَرْ نَكْمَةً أَمْ عَلَى اللَّهِ
تَفَرَّوْنَ هُنَّ وَمَا ظُلُّ الَّذِينَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذَّابُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُরُّ فَضْلِهِ عَلَى الَّذِينَ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ**

قال ابن عباس ومجاحد والضحاك وقادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم: نزلت إنكاراً على المشركين فيما كانوا يحللون ويحرمون من البحائر والسوائب والوصائل، كقوله تعالى: «وَجَعَلُوا اللَّهَ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرَثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً» [الأنعام: ١٣٦] الآيات، وقال الإمام

أحمد^(١): حديثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن أبي إسحاق، سمعت أبا الأحوص، وهو عوف بن مالك بن نضلة، يحدث عن أبيه قال: أتيت رسول الله ﷺ وأنا رث الهيئة فقال: «هل لك مال؟ قلت نعم. قال من أي المال؟ قال قلت من كل المال من الإبل والرقيق والخيل والغم، فقال: «إذا آتاك الله مالاً فليه عليك - وقال! هل تتبع إبلك صاححاً آذانها فتعمد إلى موسى فتقطع آذانها فتقول هذه بحر، وتشق جلودها وتقول هذه صرم وتحرمها عليك وعلى أهلك» قال نعم قال «فإن ما آتاك الله لك حل، ساعد الله أشد من ساعدك وموسى الله أحد من موساك» وذكر تمام الحديث.

ثم رواه عن سفيان بن عيينة عن أبي الزهراء عمرو بن عمرو عن عمه أبي الأحوص، وعن بهز بن أسد عن حماد بن سلمة عن عبد الملك بن عمير عن أبي الأحوص به، وهذا حديث جيد قوي الإسناد، وقد أنكر الله تعالى على من حرم ما أحل الله أو أحل ما حرم بمجرد الآراء والأهواء التي لا مستند لها ولا دليل عليها، ثم توعدهم على ذلك يوم القيمة فقال: «وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيمة» أي ما ظنهم أن يصنع بهم يوم مرجعهم إلينا يوم القيمة.

وقوله: «إن الله لذو فضل على الناس» قال ابن جرير^(٢): في تركه معاجلتهم بالعقوبة في الدنيا (قلت) ويحتمل أن يكون المراد لذو فضل على الناس فيما أباح لهم مما خلقه من المنافع في الدنيا ولم يحرم عليهم إلا ما هو ضار لهم في دنياهم أو دينهم (ولكن أكثرهم لا يشكرون) بل يحرمون ما أنعم الله به عليهم، ويضيقون على أنفسهم فيجعلون بعضًا حلالاً وبعضًا حراماً. وهذا قد وقع فيه المشركون فيما شرعوه لأنفسهم، وأهل الكتاب فيما ابتدعواه في دينهم.

وقال ابن أبي حاتم في تفسير هذه الآية حديثنا أبي حديثنا أبا الحواري حدثنا رياح حدثنا عبد الله بن سليمان حدثنا موسى بن الصباح في قوله عز وجل: «إن الله لذو فضل على الناس» قال إذا كان يوم القيمة يؤتى بأهل ولاية الله عز وجل فيقومون بين يدي الله عز وجل ثلاثة أصناف قال فيؤتى برجل من الصنف الأول فيقول: عبدي لماذا عملت؟ فيقول يا رب خلقت الجنة وأشجارها وثمارها وأنهارها وحورها ونعمتها وما أعددت لأهل طاعتك فيها فأسهرت ليلاً وأظمأت نهاري شوقاً إليها.

- قال! فيقول الله تعالى: عبدي إنما عملت للجنة هذه الجنة فادخلها ومن فضلي عليك قد أعتقتك من النار ومن فضلي عليك أن أدخلك جتي فيدخل هو ومن معه الجنة - قال - ثم يؤتى برجل من الصنف الثاني فيقول عبدي لماذا عملت فيقول يا رب خلقت ناراً وخليقت أغلالها

(١) المستند ٣/٤٧٣، ٤٧٤، ١٣٦، ١٣٧.

(٢) تفسير الطبرى ٦/٥٧٢.

وسعيرها وسمومها ويحومها وما أعددت لأعدائك وأهل معصيتك فيها فأسهرت ليلى وأظمأت نهاري خوفاً منها فيقول عبدي إنما عملت ذلك خوفاً من ناري فإني قد اعتقتك من النار ومن فضلي عليك أن أدخلك جنتي فيدخل هو ومن معه الجنة. ثم يؤتى برجل من الصنف الثالث فيقول عبدي لماذا عملت؟ فيقول رب حباً لك وشوقاً إليك وعزتك لقد أسررت ليلى وأظمأت نهاري شوقاً إليك وحباً لك. فيقول تبارك وتعالى: عبدي إنما عملت حباً لي وشوقاً إلى فيتجلى له الرب جل جلاله ويقول لها أنا ذا فانتظر إلي ثم يقول: من فضلي عليك أن اعتقك من النار وأبيحك جنتي وأزيرك ملائكتي وأسلم عليك بنفسك: فيدخل هو ومن معه الجنة.

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَنْتَلُو مِنْهُ مِنْ قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تَفِيضُونَ فِيهِ
وَمَا يَعْزِزُكُمْ عَنْ رَبِّكُمْ مِنْ مِنْقَالٍ ذَرَقَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كُتُبٍ

مُبَيِّنٍ ﴿١١﴾

يخبر تعالى نبيه ﷺ أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته وجميع الخلاق في كل ساعة وأوان ولحظة وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مقال ذرة في حقارتها وصغرها في السموات ولا في الأرض ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين قوله: «وعنه مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين» [الأنعام: ٥٩] فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات وكذلك الدواب السارحة في قوله: «وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أسم أمثالكم» [الأنعام: ٣٨] الآية وقال تعالى: «وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها» [هود: ٦] الآية.

وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء فكيف علمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة كما قال تعالى: «وَتَوَكَّلُ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ الَّذِي يَرَاكَ هِنَ تَقُومُ وَتَقْلِبُكَ فِي السَّاجِدِينَ» [الشعراء: ٢١٧ - ٢١٨] ولهذا قال تعالى: «وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَنْتَلُو مِنْهُ مِنْ قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تَفِيضُونَ فِيهِ» أي إذ تأخذون في ذلك الشيء نحن مشاهدون لكم رأؤون سامعون ولهذا قال ﷺ لما سأله جبريل عن الإحسان «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(١).

أَلَا إِنَّ أَوْلَيَاءَ اللَّهِ لَا يَحْوِفُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزُنُونَ ﴿١٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَقُولُونَ ﴿١٣﴾

(١) أخرجه البخاري في الإيمان باب ٣٧، ومسلم في الإيمان حديث ١، ٥ - ٧، وأبو داود في السنة باب ١٦، والترمذني في الإيمان باب ٤، والنamenti في الإيمان باب ٥، ٦، وابن ماجه في المقدمة باب ٩، وأحمد في المستند ١٠٧/٢، ١٣٢.

لَهُمُ الْبَشَرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا نَبْدِيلُ لِكَلَامَتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ

يُخبر تعالى أن أولياءه هم الذين آمنوا و كانوا يتقوون كما فسرهم ربهم، فكل من كان تقىًّا كان الله ولِيًّا فـ «لَا خوفٌ عَلَيْهِمْ» أي فيما يستقبلونه من أحوال الآخرة «وَلَا هُمْ يَحزُنُونَ» على ما وراءهم في الدنيا، وقال عبد الله بن مسعود وابن عباس وغير واحد من السلف أولياء الله الذين إذا رأوا ذكر الله^(١)، وقد ورد هذا في حديث مرفوع كما قال البزار: حدثنا علي بن حرب الرازي حدثنا محمد بن سعيد بن سابق حدثنا يعقوب بن عبد الله الأشعري وهو القمي عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رجل: يا رسول الله من أولياء الله؟ قال «الذين إذا رأوا ذكر الله» ثم قال البزار وقد روی عن سعيد مرسلاً.

وقال ابن جرير^(٢): حدثنا أبو هشام الرفاعي حدثنا أبو فضيل حدثنا أبي عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة عن عمرو بن جرير البجلي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ عِبَادًا يَغْبَطُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشَّهَدَاءُ» قيلَ مِنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَعَلَنَا نَحْبَهُمْ؟ قَالَ: «هُمْ قَوْمٌ تَحَبُّبُهُمْ فِي اللَّهِ مِنْ غَيْرِ أَمْوَالٍ وَلَا أَنْسَابٍ وَلَا جُوْهَرٍ نُورٌ عَلَىٰ مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ لَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ وَلَا يَحْزُنُونَ إِذَا حَزَنَ النَّاسُ» ثُمَّ قَرَأَ «أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خُوفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزُنُونَ» ثُمَّ رَوَاهُ أَيْضًاً أَبُو دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ جَرِيرٍ عَنْ عَمَارَةَ بْنِ الْقَعْدَةِ عَنْ عَمْرَوَ بْنِ جَرِيرٍ عَنْ عَمْرَ بْنِ الْخَطَابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِمَثْلِهِ وَهَذَا أَيْضًاً إِسْنَادٌ جَيِّدٌ إِلَّا أَنَّهُ مُنْقَطِعٌ بَيْنَ أَبِي زَرْعَةَ وَعَمْرَ بْنِ الْخَطَابِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وفي حديث الإمام أحمد^(٣) عن أبي النضر عن عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «يَأْتِي مِنْ أَفْنَاءِ النَّاسِ وَنَوَافِعِ الْقَبَائِلِ قَوْمٌ لَمْ تَتَصَلِّ بَيْنَهُمْ أَرْحَامٌ مُتَقَارِبةٌ تَحَبُّبُهُمْ فِي اللَّهِ وَتَصَافُوُهُمْ فِي اللَّهِ يَضْعُفُ اللَّهُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنَابِرٌ مِنْ نُورٍ فِي جُلْسِهِمْ عَلَيْهَا يَفْزُعُ النَّاسُ وَلَا يَفْزَعُونَ وَهُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ الَّذِينَ لَا خُوفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزُنُونَ» والحديث مطول.

وقال الإمام أحمد^(٤): حدثنا عبد الرزاق أخينا سفيان عن الأعمش عن ذكوان أبي صالح عن رجل عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله: «لَهُمُ الْبَشَرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ» قال «الرَّؤْيَا الصَّالِحةُ يَرَاهَا الْمُسْلِمُ أَوْ تُرَىٰ لَهُ».

(١) انظر تفسير الطبرى ٥٧٥ / ٦.

(٢) تفسير الطبرى ٥٧٥ / ٦ ، ٥٧٦ .

(٣) المسند ٣٤٣ / ٥ .

(٤) المسند ٤٤٥ / ٦ .

وقال ابن جرير^(١): حديثي أبو السائب حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن عطاء بن يسار عن رجل من أهل مصر عن أبي الدرداء في قوله: «لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة» قال سأله رجل أبا الدرداء عن هذه الآية فقال: لقد سألت عن شيء ما سمعت أحداً سأله عنه بعد رجل سأله عنه رسول الله ﷺ فقال: «هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل المسلم أو ترى له بشراه في الحياة الدنيا وبشراه في الآخرة الجنة» ثم رواه ابن جرير^(٢) عن سفيان عن ابن المنكدر عن عطاء بن يسار عن رجل من أهل مصر أنه سأله أبا الدرداء عن هذه الآية فذكر نحو ما تقدم.

ثم قال ابن جرير^(٣): حديثي المثنى حدثنا حجاج بن منهال حدثنا حماد بن زيد عن عاصم بن بهدلة عن أبي صالح قال: سمعت أبا الدرداء سئل عن هذه الآية «الذين آمنوا و كانوا يتقوون لهم البشري» فذكر نحوه سواء وقال الإمام أحمد^(٤): حدثنا عفان حدثنا أبان حدثنا يحيى عن أبي سلمة عن عبادة بن الصامت أنه سأله رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيت قول الله تعالى: «لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة» فقال: «لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد من أمتي أو قال أحد قبلك - تلك الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له» وكذا رواه أبو داود الطيالسي عن عمران القطان عن يحيى بن أبي كثیر به، ورواه الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثیر فذكره ورواه علي بن المبارك عن يحيى عن أبي سلمة قال: نبئنا عن عبادة بن الصامت سأله رسول الله ﷺ عن هذه الآية فذكره.

وقال ابن جرير^(٥): حديثي أبو حميد الحمصي حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا عمر بن عمرو بن عبد الأحموسى عن حميد بن عبد الله المزني قال: أتى رجل عبادة بن الصامت فقال: آية في كتاب الله أسألك عنها قول الله تعالى: «لهم البشري في الحياة الدنيا» فقال عبادة ما سألي عنها أحد قبلك سألت عنها النبي ﷺ فقال مثل ذلك «ما سألي عنها أحد قبلك الرؤيا الصالحة يراها العبد المؤمن في المنام أو ترى له» ثم رواه من حديث موسى بن عبيدة عن أيوب بن خالد بن صفوان عن عبادة بن الصامت أنه قال لرسول الله ﷺ: «لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة» فقد عرفنا بشرى الآخرة الجنة بما بشرى الدنيا؟ قال «الرؤيا الصالحة يراها العبد أو ترى له». وهي جزء من أربعة وأربعين جزءاً أو سبعين جزءاً من النبوة^(٦).

(١) تفسير الطبرى ٦ / ٥٧٨ ، ٥٧٧.

(٢) تفسير الطبرى ٦ / ٥٧٨.

(٣) تفسير الطبرى ٦ / ٥٨٠.

(٤) المسند ٥ / ٣١٥.

(٥) تفسير الطبرى ٦ / ٥٧٨.

(٦) انظر تفسير الطبرى ٦ / ٥٧٨.

وقال الإمام أحمد^(١) أيضاً: حدثنا بهز حدثنا حماد حدثنا أبو عمران عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر أنه قال يا رسول الله: الرجل يعمل العمل ويحمده الناس عليه، ويثنون عليه به فقال رسول الله ﷺ: «تلك عاجل بشرى المؤمن» رواه مسلم^(٢).

وقال أحمد^(٣) أيضاً: حدثنا حسن يعني الأشيب حدثنا ابن لهيعة حدثنا دراج عن عبد الرحمن بن جبير عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة» - قال - الرؤيا الصالحة يبشرها المؤمن جزء من تسعه وأربعين جزءاً من النبوة فمن رأى ذلك فليخبر بها، ومن رأى سوى ذلك فإنما هو من الشيطان ليحزنه فلينفث عن يساره ثلاثة وليكرب ولا يخبر بها أحداً» لم يخرجوه.

وقال ابن جرير^(٤): حدثني يونس أباينا ابن وهب حدثني عمرو بن الحارث أن دراجاً أبا السمح حدثه عن عبد الرحمن بن جبير عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لهم البشري في الحياة الدنيا الرؤيا الصالحة يبشرها المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» وقال أيضاً ابن جرير^(٥): حدثني محمد بن أبي حاتم المؤدب حدثنا عمار بن محمد حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة» - قال - في الدنيا الرؤيا الصالحة يراها العبد أو ترى له وهي في الآخرة الجنة» ثم رواه عن أبي كريب عن أبي بكر بن عياش عن أبي حصين عن أبي صالح عن أبي هريرة أنه قال: الرؤيا الحسنة بشري من الله، وهي من المبشرات^(٦) هكذا رواه من هذا الطريق موقفاً، وقال أيضاً حدثنا أبو كريب حدثنا أبو بكر حدثنا هشام عن ابن سيرين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا الحسنة هي البشري يراها المسلم أو ترى له»^(٧).

وقال ابن جرير^(٨): حدثني أحمد بن حماد الدوابي حدثنا سفيان عن عبيد الله بن أبي يزيد عن أبيه عن سباع بن ثابت عن أم كريز الكعبيه سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ذهبت النبوة وبقيت المبشرات» وهكذا روی عن ابن مسعود وأبی هریرة وابن عباس ومجاہد وعروبة بن الزبیر ویحیی بن أبی کثیر وإبراهیم النخعی وعطاً بن أبی رباح وغيرهم أنهم فسروا ذلك بالرؤيا

(١) المسند / ٥١٥٦ .

(٢) كتاب البر حديث ١٦٦ .

(٣) المسند / ٢١٩ ، ٢٢٠ .

(٤) تفسير الطبری / ٦ / ٥٨١ .

(٥) تفسير الطبری / ٦ / ٥٧٨ .

(٦) تفسير الطبری / ٦ / ٥٧٨ .

(٧) تفسير الطبری / ٦ / ٥٧٨ .

(٨) تفسير الطبری / ٦ / ٥٧٩ .

الصالحة. وقيل: المراد بذلك بشري الملائكة للمؤمن من عند احتضاره بالجنة والمغفرة قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَنَزَّلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَا تَخَافُوْنَا وَأَبْشِرُوْنَا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تَوَعَّدُونَ نَحْنُ أُولَئِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا شَهِيْدُتُ لَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ نَزِلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ» [فصلت: ٣٠ - ٣٢].

وفي حديث البراء رضي الله عنه أن المؤمن إذا حضره الموت جاءه ملائكة يypress الوجه بيypress الشياطين فقالوا اخرجني أيتها الروح الطيبة إلى روح وريحان ورب غير غضبان فتخرج من فمه كما تسيل قطرة من فم السقاء^(١) وأما بشراهم في الآخرة فكما قال تعالى: «لَا يَحْزُنُهُمْ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَلَاقُهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تَوَعَّدُونَ» [الأنياء: ١٠٣] وقال تعالى: «يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بِشَرَاكِمِ الْيَوْمِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكُمُ الْفَوزُ الْعَظِيمُ» [الحديد: ١٢] قوله: «لَا تَبْدِيلَ لِكَلْمَاتِ اللَّهِ» أي هذا الوعد لا يبدل ولا يخلف ولا يغير بل هو مقرر ثابت كائن لا محالة «ذَلِكُمُ الْفَوزُ الْعَظِيمُ».

وَلَا يَحْزُنُكُمْ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمِنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَسْتَعْجِلُهُنَّ مِنْ دُونِ اللَّهِ شَرِكَاءٌ إِنْ يَتَعَجَّلُونَ إِلَّا الظَّنُّ وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ أَيْتَلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ يَقُولُونَ يَسْمَعُونَ ﴿٣﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ: «لَا يَحْزُنُكُمْ» قول هؤلاء المشركين واستعن بالله عليهم وتوكل عليه فإن العزة لله جمِيعاً أي جميعها له ولرسوله وللمؤمنين «هو السميع العليم» أي السميع لأقوال عباده العليم بأحوالهم، ثم أخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض وأن المشركين يعدون الأصنام وهي لا تملك شيئاً لا ضراً ولا نفعاً ولا دليل لهم على عبادتها، بل إنما يتبعون في ذلك ظنونهم وتخرصهم وكذبهم وإفكهم، ثم أخبر أنه الذي جعل لعباده الليل ليسكنوا فيه، أي يستريحون من نصبهم وكلهم وحركاتهم «والنهار مبصرًا» أي مضيئاً لمعاشهم وسعدهم وأسفارهم ومصالحهم «إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ» أي يسمعون هذه الحجج والأدلة فيعتبرون بها ويستدللون على عظمة خالقها ومقدارها ومسيرها.

قَالُوا أَتَخَذُ اللَّهَ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِنَّهُمْ لَا يَقُولُونَ ﴿١﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذَّابُ لَا

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤/٢٨٧.

يُقْلِحُونَ مَتَّعٌ فِي الدِّينِ كَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرَجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَدَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ

يقول تعالى منكراً على من ادعى أن له: «ولداً سبحانه هو اغنى» أي تقدس عن ذلك هو الغني عن كل ما سواه وكل شيء فقير إليه «له ما في السموات، وما في الأرض» أي فكيف يكون له ولد مما خلق وكل شيء مملوك له عبد له «إن عندكم من سلطان بهذا» أي ليس عندكم دليل على ما تقولونه من الكذب والبهتان «أتقولون على الله ما لا تعلمون» إنكار ووعيد أكيد وتهديد شديد كقوله تعالى: «وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إذاً تکاد السموات يتضطرن منه وتشنق الأرض وتخر الرجال هذاً أن دعوا للرحمن ولداً وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً لقد أحصاهم وعدهم عذاباً وكلهم آتىه يوم القيمة فرداً» [مريم: ٨٨ - ٩٥].

ثم توعد تعالى الكاذبين عليه المفترين ممن زعم أن له ولداً بأنهم لا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة فاما في الدنيا فإنهم إذا استدرجهم وأملوا لهم معتهم قليلاً «ثُمَّ يضطربون إلى عذاب غليظ» كما قال تعالى ه هنا: «مَتَّاعٌ فِي الدِّينِ» أي مدة قريبة «ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ» أي يوم القيمة «ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَدَابَ الشَّدِيدَ» أي الموجع المؤلم «إِمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ» أي بسبب كفرهم وافترائهم وكذبهم على الله فيما ادعوا من الإفك والزور.

وَأَتَلَّ عَنْهُمْ بَنَآ نُوحٌ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَقُولُونَ إِنْ كَانَ كُبْرٌ عَلَيْكُمْ مَقَامٌ وَتَذَكِّرِي بِشَائِيتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكِّلْتُ فَاجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشَرَكَاهُ كُلُّمَا كُلُّهُ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غَمَّةٌ ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظَرُونَ فَإِنَّهُمْ تَوَلَّتُمُ فَمَا أَلْكَلْتُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنَّ أَجْرَيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمْرَتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَكَذَبُوهُ فَنَجَّيْتُهُمْ وَمَنْ مَعَهُمْ فِي الْفَلَكِ وَجَعَنَتْهُمْ حَلَّكِيفٌ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِشَاءِنَا فَأَنْظَرْتُ كَيْفَ كَانَ عَنْقِبَةُ الْمُذَرِّينَ

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه: «وَاتَّلَّ عَلَيْهِمْ» أي أخبرهم واتصص عليهم أي على كفار مكة الذين يكذبونك ويخالفونك «بَنَآ نُوحٌ» أي نوح مع قومه الذين كذبواه كيف أهلكم الله ودمرحم بالغرق أجمعين عن آخرهم ليحذر هؤلاء أن يصييهم من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك «إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمَ إِنْ كَانَ كُبْرٌ عَلَيْكُمْ مَقَامٌ» أي عظم عليكم «مقامي» أي فيكم بين أظهركم «وَتَذَكِّرِي» إياكم «بِآيَاتِ اللَّهِ» أي بحججه وبراهينه «فَعَلَى اللَّهِ تَوَكِّلْتُ» أي فإني لا أبالي ولا أكف عنكم سواء عظم عليكم أو لا «فَاجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشَرَكَاهُ كُلُّهُ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غَمَّةٌ» أي فاجتمعوا أنت وشركاؤكم الذين تدعون من دون الله من صنم ووثن «ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غَمَّةٌ» أي ولا تجعلوا أمركم عليكم ملتبساً، بل افصلوا حالكم معي فإن كتم تزعمون أنكم محقوون فاقضوا إلي «وَلَا تُنْظَرُونَ» أي ولا تؤخرونني ساعة واحدة أي مهما قدرتم فافعلوا فإني

لَا أَبَالِيكُمْ وَلَا أَخَافُ مِنْكُمْ لَأَنَّكُمْ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ كَمَا قَالَ هُودٌ لِّقَوْمِهِ: «إِنِّي أَشْهُدُ اللَّهَ وَأَشْهُدُوا أَنِّي بُرِيءٌ مِّمَّا تَشَرَّكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تَنْظُرُونَ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ» [هُودٌ: ٥٦ - ٥٧] الآية.

وقوله «فَإِنْ تُولِّيْتُمْ» أي كذبتم وأدبرتم عن الطاعة «فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِّنْ أَجْرٍ» أي لم أطلب منكم على نصحي إياكم شيئاً «إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمْرَتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ» أي وأنا ممثل ما أمرت به من الإسلام الله عز وجل والإسلام هو دين الأنبياء جميعاً من أولهم إلى آخرهم، وإن تنوّع شرائعهم وتعدد مذاهلمهم كما قال تعالى: «لَكُلَّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شَرِعَةً وَمِنْهَا جَاء» [المائدة: ٤٨] قال ابن عباس: سبلاً وسنة فهذا نوح يقول: «وَأَمْرَتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ» [النَّمَلٌ: ٩١] وقال تعالى عن إبراهيم الخليل: «إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلَمَ قَالَ أَسْلَمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّى بَهَا إِبْرَاهِيمَ بْنَهُ وَيَعْقُوبَ يَا بْنَيَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَتَتْمُ مُسْلِمُونَ» [البَّقَرَةُ: ١٣١ - ١٣٢].

وقال يوسف: «رَبِّنَا أَتَيْتَنِي مِنَ الْمَلَكِ وَعَلِمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطَّرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْتَ وَلَيْ بِي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تُوفِّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ» [يوسف: ١٠١] وقال موسى: «يَا قَوْمَ إِنْ كَنْتُمْ آمَّتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكِّلُوا إِنْ كَنْتُمْ مُسْلِمِينَ» [يوسٰف: ٨٤] وقال السحر: «رَبِّنَا أَفْرَغَ عَلَيْنَا صَبَرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ» [الأعراف: ١٢٦] وقالت بلقيس: «رَبِّنَا ظَلَمْتَنَا نَفْسِي وَأَسْلَمْتَنَا مَعَ سَلِيمَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» [النَّمَلٌ: ٤٤] . وقال تعالى: «إِنَّا أَنْزَلْنَا التُّورَةَ فِيهَا هُدٰى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا» [المائدة: ٤٤] وقال تعالى: «وَإِذَا أُوحِيتَ إِلَى الْحَوَارِيْنَ أَنْ آمَنُوا بِي وَبِرْسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشَهَدُ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ» [المائدة: ١١١] وقال خاتم الرسل وسيد البشر ﷺ: «إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايِي وَمَمَاتِي اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أَمْرَتُ أَنَا أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ» [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣] أي من هذه الأمة ولهذا قال في الحديث الثابت عنه: «نَحْنُ مُعْشَرُ الْأَنْبِيَاءِ أُولَادُ عَلَاتٍ وَدِينَنَا وَاحِدٌ» أي وهو عبادة الله وحده لا شريك له وإن تنوّع شرائنا وذلك معنى قوله أولاد علات وهم الإخوة من أمهات شتى والأب واحد.

وقوله تعالى: «فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمِنْ مَعْهُ» أي على دينه «فِي الْفَلَكِ» وهي السفينة «وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَافَتٍ» أي في الأرض «وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ» أي يا محمد كيف أنجينا المؤمنين وأهلكنا المكذبين.

ثُمَّ بَعَثَنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُهُمْ وَهُمْ يَأْبَيْنَنَا فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلٍ كَذَلِكَ نَصْبُعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِلِينَ

يقول تعالى ثُمَّ بَعَثَنَا مِنْ بَعْدِ نَوْحٍ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُهُمْ وَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ أَيْ بِالْحَجَجِ وَالْأَدْلَةِ

والبراهين على صدق ما جاءوهم به ﴿فَمَا كَانُوا لِيؤْمِنُوا بِمَا كَذَبُوا بِهِ مِنْ قَبْلِ﴾ أي فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسلهم بسبب تكذيبهم إياهم أول ما أرسلوا إليهم قوله تعالى: ﴿وَنَقْلَبُ أَفْئَدَتِهِمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾ [الأنعام: ١١٠] الآية قوله: ﴿كَذَلِكَ نَطَّعَ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِلِينَ﴾ أي كما طبع الله على قلوب هؤلاء فما آمنوا بسبب تكذيبهم المتقدم هكذا يطبع الله على قلوب من أشبههم ممن بعدهم ويختتم على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، والمراد أن الله تعالى أهلك الأمم المكذبة للرسل وأنجى من آمن بهم وذلك من بعد نوح عليه السلام فإن الناس كانوا من قبله من زمان آدم عليه السلام على الإسلام إلى أن أحدث الناس عبادة الأصنام فبعث الله إليهم نوحًا عليه السلام.

ولهذا يقول له المؤمنون يوم القيمة: أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض. وقال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام، وقال الله تعالى: ﴿وَكُمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقَرْوَنَ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧] الآية، وفي هذا إنذار عظيم لمشركي العرب الذين كذبوا سيد الرسل وخاتم الأنبياء والمرسلين فإنه إذا كان قد أصاب من كذب بتلك الرسل ما ذكره الله تعالى من العذاب والنكال فماذا ظن هؤلاء وقد ارتكبوا أكبر من أولئك.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَرُونَ^v إِلَيْهِ فِرْعَوْنَ وَمَلِئِيهِ^v بِإِيمَانِنَا فَأَسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا فَوْمًا مُجْرِمِينَ^v فَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحُقْقُ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّهُ هَذَا لِسُحْرُ مُرْبِّينَ^v قَالَ مُوسَى أَنْتُمْ أَنْتُمُ الْمُسْحِرُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسْحَرُهُنَا وَلَا يُفْلِحُ أَسْتَدْرُونَ^v قَالُوا أَجَئْنَا لِتُلْفِنَنَا عَمَّا وَجَدْنَا أَعْيُهُمْ أَبَاءَنَا وَتَكُونُ أَكْمَانُ الْكَبْرِيَاءِ^v فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ
لَكُمْ مِمْوَنِينَ^v

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ من بعد تلك الرسل ﴿مُوسَى وَهَارُونَ إِلَيْ فِرْعَوْنَ وَمَلِئِيهِ﴾ أي قومه ﴿بِإِيمَانِنَا﴾ أي حججنا وبراهيننا ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا فَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ أي استكباروا عن اتباع الحق والانقياد له وكانوا فوًما مجرمين ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحُقْقُ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّهُ هَذَا لِسُحْرُ مُرْبِّينَ﴾ لأنهم قبّهم الله أقسموا على ذلك وهم يعلمون أن ما قالوه كذب وبهتان كما قال تعالى: ﴿وَجَدَهُمْ
بِهَا وَاسْتِيقْنَتُهَا أَنْفُسُهُمْ ظَلَمًا وَعَلُوًا﴾ [النمل: ١٤] الآية ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿مُوسَى﴾ منكراً عليهم ﴿أَنْتُمْ أَنْتُمُ الْمُسْحِرُونَ لِلْحَقِّ﴾ أي ثنينا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا أَعْيُهُمْ أَبَاءَنَا وَتَكُونُ أَكْمَانُ الْكَبْرِيَاءِ﴾ أي الدين الذي كانوا عليه ﴿وَتَكُونُ لَكُمَا أَكْمَانُ الْكَبْرِيَاءِ^v﴾ أي العظمة والرياسة ﴿فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا مِمْوَنِينَ﴾.

وكثيراً ما يذكر الله تعالى قصة موسى عليه السلام مع فرعون في كتابه العزيز لأنها من أعجب القصص فإن فرعون حذر من موسى كل الحذر فسخره القدر أن ربي هذا الذي يحدّر منه على فراشه وما ثدته بمنزلة الولد ثم ترعرع وعقد الله له سبباً آخر جهه من بين أظهرهم ورزقه النبوة والرسالة والتكميل وبعثه إليه ليدعوه إلى الله تعالى ليعبدوه ويرجع إليه هذا مع ما كان عليه

فرعون من عظمة المملكة والسلطان، فجاءه برسالة الله تعالى وليس له وزير سوى أخيه هارون عليه السلام، فتمرد فرعون واستكبر وأخذته الحمية، والنفس الخبيثة وقوى رأسه وتولى بركته وادعى ما ليس له وتجهم على الله وعنه وبغي وأهان حزب الإيمان منبني إسرائيل والله تعالى يحفظ رسوله موسى عليه السلام وأخاه هارون ويحوطهما بعناته ويحرسهما بعينه التي لا تنام ولم تزل المحاجة والمجادلة والأيات تقوم على يدي موسى شيئاً بعد شيء، ومرة بعد مرة مما يبهر العقول ويدهش الآلباب مما لا يقوم له شيء ولا يأتي به إلا من هو مؤيد من الله «وما تأييهم من آية إلا هي أكبر من أختها» وصمم فرعون وملوه قبحهم الله على التكذيب بذلك كله والجحد والعناد والمكابرة حتى أحل الله بهم بأسه الذي لا يرد، وأغرقهم في صبيحة واحدة أجمعين «فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين» [الأنعام: ٤٥].

وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَتُوْنِي بِكُلِّ سَحِيرٍ عَلَيْمٍ ﴿١﴾ فَلَمَّا جَاءَهُ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٢﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جَعَلْتُ بِهِ السَّحَرَ إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣﴾ وَيَعْلَمُ اللَّهُ أَعْقَبِكُلَّمَيْهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٤﴾

ذكر الله سبحانه قصة السحرة مع موسى عليه السلام في سورة الأعراف وقد تقدم الكلام عليها هناك وفي هذه السورة وفي سورة طه وفي الشعراء وذلك أن فرعون لعنه الله أراد أن يتهرج على الناس ويعارض ما جاء به موسى عليه السلام من الحق المبين، بزخارف السحرة والمشعدين، فانعكس عليه النظام ولم يحصل له من ذلك المرام، وظهرت البراهين الإلهية في ذلك المحمل العام «وألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون» [الشعراء: ٤٦ - ٤٨] فظن فرعون أنه يستنصر بالسحارة، على رسول الله عالم الأسرار فخاب وخسر الجنة واستوجب النار «وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون» وإنما قال لهم ذلك لأنهم لما اصطفوا وقد وعدوا من فرعون بالتقريب والعطاء الجزييل «قالوا يا موسى إما أن تلقني وإما أن تكون أول من ألقى قال بل ألقوا» [طه: ٦٥ - ٦٦] فأراد موسى أن تكون البداءة منهم ليرى الناس ما صنعوا ثم يأتي بالحق بعده فيدمغ باطلهم.

ولهذا لما «ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوا وجاؤوا بسحر عظيم» [الأعراف: ١١٦] «فأوجس في نفسه خيفة موسى قلت لا تخف إنك أنت الأعلى وألق ما في يمينك تلتف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتي» [طه: ٦٧ - ٦٩] فعند ذلك قال موسى لما ألقوا: «ما جئتكم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين ويتحقق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون» وقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عمار بن الحارث حدثنا عبد الرحمن يعني الدشتكي أخبرنا أبو جعفر الرازبي عن ليث وهو ابن أبي سليم قال: بلغني أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر بإذن الله تعالى تقرأ في إناء فيه ماء ثم يصب على رأس المسحور

الآية التي من سورة يوئيل **﴿فَلِمَا أَلْقَوَا قَالُوا مُوسَى مَا جَنَّتُمْ بِهِ السُّرُورُ إِنَّ اللَّهَ سَيِّطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ وَيَحْقِّقُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكُلِّ مَا تَعْمَلُونَ﴾** والأية الأخرى **﴿فَوْقَ الْحَقِّ وَبِطْلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** إلى آخر أربع آيات، قوله **﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يَفْلُحُ السَّاحِرُ حِيثُ أَتَى﴾** [طه: ٦٩].

فَمَا أَمْنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرْيَةٌ مِّنْ قَوْمِهِ، عَلَى خَوْفٍ مِّنْ فَرْعَوْنَ وَمَلَائِكَتِهِمْ وَإِنَّ فَرْعَوْنَ لَعَالٌ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لِمِنَ الْمُسْرِفِينَ

يخبر تعالى أنه لم يؤمن بموسى عليه السلام مع ما جاء به من الآيات البينات والحجج القاطعات والبراهين الساطعات إلا قليل من قوم فرعون من الذريه وهم الشباب على وجل وخوف منه ومن ملئه أن يردوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر، لأن فرعون لعنه الله كان جباراً عنيداً مسرفاً في التمرد والعنو وكانت له سطوة ومهابة تخاف رعيته منه خوفاً شديداً، قال العوفي عن ابن عباس: **﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرْيَةٌ مِّنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّنْ فَرْعَوْنَ وَمَلَائِكَتِهِمْ أَنْ يَفْتَنُهُمْ﴾** قال: فإن الذريه التي آمنت لموسى من أناس غيربني إسرائيل من قوم فرعون يسير منهم امرأة فرعون: **وَمَؤْمِنٌ أَلَّا فَرْعَوْنَ وَخَازِنَ فَرْعَوْنَ وَامْرَأَ خَازِنَهِ**^(١).

وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله **﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرْيَةٌ مِّنْ قَوْمِهِ﴾** يقول بنى إسرائيل^(٢) وعن ابن عباس والضحاك وقتادة: الذريه القليل وقال مجاهد في قوله: **﴿إِلَّا ذُرْيَةٌ مِّنْ قَوْمِهِ﴾** قال: هم أولاد الذين أرسل إليهم موسى من طول الزمان ومات آباءهم^(٣) واختار ابن جرير قول مجاهد في الذريه أنها من بنى إسرائيل لا من قوم فرعون لعود الضمير على أقرب المذكورين، وفي هذا نظر لأنه أراد بالذريه الأحداث والشباب وأنهم من بنى إسرائيل.

فالمعروف أن بنى إسرائيل كلهم آمنوا بموسى عليه السلام واستبشروا به وقد كانوا يعرفون نعمته وصفته والبشرة به من كتبهم المتقدمة وأن الله تعالى سيقتدهم من أسر فرعون ويظهرهم عليه ولهذا لما بلغ هذا فرعون حذر كل الحذر فلم يجد عنه شيئاً، ولما جاء موسى آذاهم فرعون أشد الأذى، و**﴿قَالُوا أَوْذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جَئَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عَدُوكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيُنَظِّرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾** وإذا تقرر هذا فكيف يكون المراد إلا ذريه من قوم موسى وهم بنو إسرائيل **﴿عَلَى خَوْفٍ مِّنْ فَرْعَوْنَ وَمَلَائِكَتِهِمْ﴾** أي وأشراف قومه أن يفتنهم ولم يكن في بنى إسرائيل من يخاف منه أن يفتنه عن الإيمان سوى قارون فإنه كان من قوم

(١) انظر تفسير الطبرى ٦/٥٩٢.

(٢) تفسير الطبرى ٦/٥٩٢.

(٣) تفسير الطبرى ٦/٥٩١، ٥٩٢.

موسى فبغى عليهم لكنه كان طاوياً إلى فرعون متصلأً به متعلقاً بححاله ومن قال إن الضمير في قوله وملئهم عائد إلى فرعون وعظم الملك من أجل اتباعه أو بحذف آل فرعون وإقامة المضاف إليه مقامه فقد أبعد وإن كان ابن جرير قد حكاها عن بعض النهاة. ومما يدل على أنه لم يكن فيبني إسرائيل إلا مؤمن، قوله تعالى:

وَقَالَ مُوسَىٰ يَكُونُ إِنْ كُنْتُمْ أَمْنَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تُوكُلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٨﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلنَّوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩﴾ وَنَجْنَبْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن موسى أنه قال لبني إسرائيل: «يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين» أي فإن الله كاف من توكل عليه «أليس الله بكاف عبده» [الزمر: ٣٦] «ومن يتوكل على الله فهو حسبي» [الطلاق: ٣] وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين العبادة والتوكيل كقوله تعالى: «فاعبدوه وتوكل عليه» [هود: ١٢٣] «قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا» [الملك: ٢٩] «رب المشرق والمغارب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً» [المزمول: ٩] وأمر الله تعالى المؤمنين أن يقولوا في كل صلواتهم مرات متعددة «إياك نعبد وإياك نستعين» [الفاتحة: ٥].

وقد امتنل بنو إسرائيل ذلك فقالوا: «على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين» أي لا تتظرهم بنا وتسلطهم علينا فيظنوا أنهم إنما سلطوا لأنهم على الحق ونحن على الباطل فيفتونا بذلك هكذا روي عن أبي مجلز وأبي الصحى^(١)، وقال ابن أبي نجيح وغيره عن مجاهد لا تعذبنا بأيدي آل فرعون ولا بعذاب من عندك فيقول قوم فرعون لو كانوا على حق ما عذبوا ولا سلطاناً عليهم فيفتونوا^(٢) بنا وقال عبد الرزاق أنا بن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين^(٣) لا تسلطهم علينا فيفتونا. قوله: «ونجنا برحمتك» أي خلصنا برحمة منك وإحسان «من القوم الكافرين» أي الذين كفروا الحق وستروه ونحن قد آمنا بك وتوكلنا عليك.

وَأَوْحَيْنَا إِلَيْ مُوسَىٰ وَأَيَّهِ أَنْ تَبْوَأَ لِقَوْمِكَمَا يَمْسِرُ بِيَوْمِكَ وَاجْعَلْنَا بِيَوْمِكَمْ قِشْلَةً وَأَقِسْمُوا الْصَّلَوةَ وَبَشَّرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١﴾

يدرك تعالى سبب إنجائه بني إسرائيل من فرعون وقومه وكيفية خلاصهم منهم وذلك أن الله تعالى أمر موسى وأخاه هارون عليهما السلام أن يتبوأاً أي يتخذاً لقومهما بمصر بيوتاً، واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: «وَاجْعَلُوا بِيَوْمِكَمْ قِشْلَةً» فقال الثوري وغيره عن خصيف عن

(١) انظر تفسير الطبرى ٥٩٤/٦، ٥٩٥/٦.

(٢) تفسير الطبرى ٥٩٥/٦.

(٣) تفسير الطبرى ٥٩٤/٦.

عكرمة عن ابن عباس ﴿واجعلوا بيوتكم قبلة﴾ قال: أمروا أن يتخذوها مساجد^(١)، وقال الثوري أيضاً عن ابن منصور عن إبراهيم، ﴿واجعلوا بيوتكم قبلة﴾ قال: كانوا خائفين فأمرروا أن يصلوا في بيوتهم^(٢) وكذا قال مجاهد وأبو مالك والريبع بن أنس والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وأبوه زيد بن أسلم وكأن هذا والله أعلم لما اشتد بهم البلاء من قبل فرعون وقومه وضيقوا عليهم أمروا بكثرة الصلاة كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِنُوا بِالصَّابِرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ١٥٣].

وفي الحديث كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلي، أخرجه أبو داود^(٣)، ولهذا قال تعالى في هذه الآية: ﴿واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين﴾ أي بالثواب والنصر القريب، وقال العوفي عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال: قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام لا نستطيع أن نظرنا مع الفراعنة فإذا ذكر لهم أن يصلوا في بيوتهم وأمرروا أن يجعلوا بيوتهم قبل القبلة^(٤)، وقال مجاهد ﴿واجعلوا بيوتكم قبلة﴾ لما خاف بنو إسرائيل من فرعون أن يقتلوا في الكنائس الجامدة أمروا أن يجعلوا بيوتهم مساجد مستقبلة الكعبة يصلون فيها سراً^(٥) وكذا قال قتادة والضحاك وقال سعيد بن جبير ﴿واجعلوا بيوتكم قبلة﴾ أي يقابل بعضها بعضاً^(٦).

وَقَالَ مُوسَى رَبِّنَا إِنَّكَ مَانِيَتْ فِرْعَوْنَ وَمَلَأْتْ زِيَّنَةً وَأَمَّلَكَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبِّنَا لِيُضْلِلُوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبِّنَا أَطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا النَّذَابَ الْأَلِيمَ ٨٨ قَالَ قَدْ أَجِبْتَ دَعَوْتُكَ مَفَاسِقَيْمَا وَلَا نَتِيَّعَانِ سِكِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ٨٩

هذا إخبار من الله تعالى بما دعا به موسى عليه السلام على فرعون وملته لما أبوا قبول الحق واستمروا على ضلالهم وكفراهم معاندين جاحدين ظلمين وعلوا وتكبراً وعتوا قال موسى: ﴿ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة﴾ أي من أثاث الدنيا ومتاعها ﴿وأموالا﴾ أي جزيلة كثيرة ﴿في﴾ هذه ﴿الحياة الدنيا ربنا ليضلو عن سبيلك﴾ بفتح الياء أي أعطيتهم ذلك وأنت تعلم أنهم لا يؤمنون بما أرسلتني به إليهم استدراجاً منك لهم كقوله تعالى: ﴿لُفْتَنَتْهُمْ فِيهِ﴾ وقرأ آخرون ليضلو بضم الياء أي ليفتنن بما أعطيتهم من شئت من خلقك ليظن من أغويته أنك إنما

(١) تفسير الطبرى ٥٩٦/٦.

(٢) تفسير الطبرى ٥٩٦/٦.

(٣) لم أجده الحديث في سنن أبي داود، والحديث أخرجه النسائي في المواقف باب ٤٦، وأحمد في المسند ٢٠٦، ٢٦٨، ٢٨٠، ٣٨٨/٥.

(٤) تفسير الطبرى ٥٩٧/٦.

(٥) تفسير الطبرى ٥٩٧/٦.

(٦) تفسير الطبرى ٥٩٨/٦.

أعطيتهم هذا الحبك إياهم واعتنتك بهم ﴿رَبُّنَا اطْمَسَ عَلَى أَمْوَالِهِم﴾ قال ابن عباس ومجاحد: أي أهلكها، وقال الصحاح وأبو العالية والربيع بن أنس: جعلها الله حجارة منقوشة كهيئة ما كانت^(١)، وقال قتادة بلغنا أن زروعهم تحولت حجارة، وقال محمد بن كعب القرظي جعل سكرهم حجارة.

وقال ابن أبي حاتم حدثنا إسماعيل بن أبي العارث حدثنا يحيى بن أبي بكر عن أبي معشر حدثني محمد بن قيس أن محمد بن كعبقرأ سورة يومن على عمر بن عبد العزيز حتى بلغ ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبِّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فَرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ إلى قوله: ﴿رَبُّنَا اطْمَسَ عَلَى أَمْوَالِهِم﴾ الآية، فقال عمر: يا أبا حمزة أي شيء الطمس؟ قال: عادت أموالهم كلها حجارة، فقال عمر بن عبد العزيز لغلام له: اتنبي بكيس فجاءه بكيس فإذا فيه حمص وبهض قد حول حجارة.

وقوله: ﴿وَاشدَّدْ عَلَى قُلُوبِهِم﴾ قال ابن عباس: أي اطبع عليها ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرُوا الْعَذْبَ الْأَلِيمَ﴾ وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضباً لله ولدينه على فرعون وملئه الذين تبين لهم أنهم لا خير فيهم ولا يجيء منهم شيء كما دعا نوح عليه السلام فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَارًا إِنَّكَ إِنْكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يَضْلُّوْنَ عَبَادَكَ وَلَا يَلْدُوْنَ إِلَّا فَاجْرَأْ﴾ [نوح: ٢٦ - ٢٧] ولهذا استجاب الله تعالى لموسى عليه السلام فيهم هذه الدعوة التي أمن عليها أخوه هارون فقال تعالى: ﴿قَدْ أَجَبْتَ دُعَوْتَكُمَا﴾ قال أبو العالية وأبو صالح وعكرمة ومحمد بن كعب القرظي والربيع بن أنس دعا موسى وأمن هارون أي قد أجبنا كما فيما سألتما من تدمير آل فرعون، وقد يحتج بهذه الآية من يقول: إن تأمين المأمور على قراءة الفاتحة ينزل منزلة قراءتها لأن موسى دعا وهارون أمن، وقال تعالى: ﴿قَدْ أَجَبْتَ دُعَوْتَكُمَا فَاسْتَقِيمَا﴾ الآية، أي كما أجبت دعوتكم فاستقموا على أمري قال ابن جريج عن ابن عباس: فاستقموا فامضوا لأمري وهي الاستقامة قال ابن جريج يقولون إن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة، وقال محمد بن علي بن الحسين أربعين يوماً.

وَجَنَوْزَنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَبَعَهُمْ فَرَعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَعْيَانًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْفَرْقُ قَالَ إِنَّمَاتُ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ إِنَّمَاتُ يَهُودَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا نَّا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١﴾ إِلَّا لَنَّ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٢﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيَكَ بِيَدِنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ مَاءَهُ وَإِنَّ كَيْرًا مِنَ النَّاسِ عَنِ إِيمَانِنَا لَغَفِلُورُ ﴿٣﴾

يدرك تعالى كيفية إغرائه فرعون وجنوده فإن بني إسرائيل لما خرجوا من مصر بصحبة موسى عليه السلام وهم فيما قبل ستمائة ألف مقاتل سوى الذرية وقد كانوا استعاروا من القطب

حلياً كثيراً فخرجوا به معهم فاشتد حنق فرعون عليهم فأرسل في المدائن حاشرين يجمعون له جنوده من أفاليمه فركب وراءهم في أبهة عظيمة وجوش هائلة لما يريد الله تعالى بهم ولم يتختلف عنه أحد ممن له دولة وسلطان فيسائر مملكته فللحقوهم وقت شروق الشمس «فلم ترءى الجماع قال أصحاب موسى إنا لمدركون» [الشعراء: ٦١] وذلك أنهم لما انتهوا إلى ساحل البحر وفرعون وراءهم ولم يبق إلا أن يقاتل الجماع وألح أصحاب موسى عليه السلام عليه في السؤال كيف المخلص مما نحن فيه؟ فيقول: إني أمرت أن أسلك ه هنا «كلا إن معي ربى سيهدلين» [الشعراء: ٦٢].

فبعد ما ضاق الأمر اتسع فأمره الله تعالى أن يضرب البحر بعصاه فضربه فانفلق البحر «فكان كل فرق كالطود العظيم» [الشعراء: ١٣] الآية أي كالجبل العظيم وصار اثنى عشر طريقاً لكل سبط واحد وأمر الله الريح فنشفت أرضه «فاضرب لهم طريقاً في البحر يسألا تخاف دركاً ولا تخشى» [طه: ٧٧] وترخق الماء بين الطرق كهيئة الشبائك ليرى كل قوم الآخرين لثلا يظنوا أنهم هلكوا. وجاوزت بنو إسرائيل البحر فلما خرج آخرهم منه انتهى فرعون وجنوده إلى حافته من الناحية الأخرى وهو في مائة ألف أدهم سوى بقية الألوان، فلما رأى ذلك هاله وأحجم وهاب وهو بالرجوع وهياهات ولات حين مناص، نفذ القدر، واستجيست الدعوة.

وجاء جبريل عليه السلام على فرس وديق حائل فمر إلى جانب حصان فرعون فحمله إليها واقتصر جبريل البحر فاقتصر الحصان وراءه ولم يبق فرعون يملك من نفسه شيئاً فتجدد لأمرائه وقال لهم ليس بنو إسرائيل بأحق بالبحر منا فاقتصروا عليهم عن آخرهم وميكائيل في ساقتهم لا يترك منهم أحداً إلا أحقه بهم، فلما استوصقوا فيه وتكلموا وهم أولهم بالخروج منه أمر الله القدير البحر أن يرتطم عليهم فارتطم عليهم فلم ينج منهم أحد وجعلت الأمواج ترفعهم وتحضفهم وترآكم الأمواج فوق فرعون وغشته سكرات الموت فقال وهو كذلك:

«أمنت أنه لا إله إلا الذي أمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين» فامن حيث لا ينفعه الإيمان «فلما رأوا بأنسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفربنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأنسنا سنة الله التي خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون» [غافر: ٨٤ - ٨٥] ولهذا قال الله تعالى في جواب فرعون حين قال ما قال «الآن وقد عصيتك قبل» أي لهذا الوقت تقول، وقد عصيت الله قبل هذا فيما بينك وبينه «و كنت من المفسدين» أي في الأرض الذين أضلوا الناس «وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيمة لا ينصرون» [القصص: ٤١] وهذا الذي حكى الله تعالى عن فرعون من قوله هذا في حاله ذلك من أسرار الغيب التي أعلم الله بها رسوله ﷺ ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل^(١) رحمه الله: حدثنا سليمان بن حرب حدثنا

حمد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قال فرعون آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل». قال - قال لي جبريل: لو رأيتني وقد أخذت من حال البحر فدسته في فيه مخافة أن تناه الرحمة».

ورواه الترمذى^(١) وابن حماد^(٢) وابن أبي حاتم في تفاسيرهم من حديث حماد بن سلمة به، وقال الترمذى: حديث حسن، وقال أبو داود الطيالسى حدثنا شعبة عن عدي بن ثابت وعطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «قال لي جبريل لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فم فرعون مخافة أن تدركه الرحمة» وقد رواه أبو عيسى الترمذى^(٣) أيضاً وابن حماد^(٤) أيضاً من غير وجه عن شعبة به ذكر مثله، وقال الترمذى: حسن غريب صحيح، ووقع في رواية عند ابن حماد بن عبد الرحمن بن المثنى عن غندر عن شعبة عن عطاء وعدي عن سعيد عن ابن عباس رفعه أحدهما فكان الآخر لم يرفع فالله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشعج حدثنا أبو خالد الأحمر عن عمر بن عبد الله بن يعلى الثقفى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما أغرق الله فرعون أشار بأصبعه ورفع صوته «آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل» قال فخاف جبريل أن تسقى رحمة الله فيه غضبه فجعل يأخذ الحال بجناحيه فيضرب به وجهه فيرمسه، وكذا رواه ابن حماد عن سفيان بن وكيع عن أبي خالد به موقفاً، وقد روى من حديث أبي هريرة أيضاً فقال ابن حماد^(٥): حدثنا ابن حميد حدثنا حكما عن عتبة هو ابن أبي سعيد عن كثير بن زاذان عن أبي حازم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال لي جبريل يا محمد لو رأيتني وأنا أغطه وأدوس من الحال في فيه مخافة أن تدركه رحمة الله فيغفر له» يعني فرعون. كثير بن زاذان هذا قال ابن معين: لا أعرفه، وقال أبو زرعة وأبو حاتم: مجھول وباقى رجاله ثقات.

وقد أرسل هذا الحديث جماعة من السلف قادة وإبراهيم التيمي وميمون بن مهران ونقل عن الصحاك بن قيس أنه خطب بهذا للناس فالله أعلم. قوله: «فال يوم نجيك بيذنك لن تكون لمن خلفك آية» قال ابن عباس وغيره من السلف: إن بعض بنى إسرائيل شکوا في موت فرعون فأمر الله تعالى البحر أن يلقنه بجسده سوياً بلا روح وعليه درعه المعروفة على نجوة من الأرض وهو المكان المرتفع ليتحققوا موته وهلاكه ولهذا قال تعالى: «فال يوم نجيك» أي

(١) كتاب التفسير، تفسير سورة ١٠، باب ٣.

(٢) تفسير الطبرى ٦٠٥/٦.

(٣) كتاب التفسير، تفسير سورة ١٠، باب ٣.

(٤) تفسير الطبرى ٦٠٥/٦.

(٥) تفسير الطبرى ٦٠٥/٦.

نرفعك على نشر من الأرض **﴿بِيَدِنَكُ﴾** قال مجاهد: بجسده، وقال الحسن: بجسم لا روح فيه، وقال عبد الله بن شداد: سوياً صحيحاً أي لم يتمزق ليتحققوا ويعرفوه، وقال أبو صخر: بدرعك. وكل هذه الأقوال لا منافاة فيها كما تقدم والله أعلم.

وقوله: **﴿لَتَكُونَ لَمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾** أي لتكون لبني إسرائيل دليلاً على موتكم وهلاكم وأن الله هو القادر الذي ناصية كل دابة بيده وأنه لا يقوم لغضبه شيء ولهذا قرأ بعضهم **﴿لَتَكُونَ لَمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنْ كثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنِ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾** أي لا يتعظون بها ولا يعتبرون بها، وقد كان إهلاكهم يوم عاشوراء كما قال البخاري حدثنا محمد بن بشار حدثنا غذر حدثنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قدم النبي ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء فقال: «ما هذا اليوم الذي تصومونه؟» فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون. فقال النبي ﷺ لأصحابه: «أنتم أحق بموسي منهم فصوموه»^(١).

وَلَقَدْ بَوَأْنَا بَنَى إِسْرَائِيلَ مُبْرَأً صَدِيقِ وَرَزْقَنَهُمْ مِّنَ الطَّيْبَاتِ فَمَا آخْتَلُفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بِنَهْمَمَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ

يخبر تعالى بما أنعم به على بني إسرائيل من النعم الدينية والدنيوية وقوله: **«مبأً صدق»** قيل هو بلاد مصر والشام مما يلي بيت المقدس ونواحيه فإن الله تعالى لما أهلك فرعون وجندوه استقرت يد الدولة الموسوية على بلاد مصر بكمالها كما قال الله تعالى: **«وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يَسْتَعْفِفُونَ مُشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكَنَا فِيهَا وَتَمَتْ كَلْمَةُ رَبِّكَ الْحَسَنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمِرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فَرَعُونَ وَقَوْمَهُ وَمَا كَانُوا يَعْرُشُونَ»** [الأعراف: ١٣٧] وقال في الآية الأخرى **«فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِّنْ جَنَّاتٍ وَعَيْنَوْنَ وَكَنْزَوْنَ وَمَقَامَ كَرِيمٍ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهُمْ بَنِي إِسْرَائِيلَ»** [الشعراء: ٦٠ - ٥٨] وقال: **«كُمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْنَوْنَ»** [الدخان: ٢٥] الآيات.

ولكن استمروا مع موسى عليه السلام طالبين إلى بلاد بيت المقدس وهي بلاد الخليل عليه السلام فاستمر موسى بمن معه طالباً بيت المقدس وكان فيه قوم من العمالقة فنكلا بنو إسرائيل عن قتالهم فشدتهم الله تعالى في التيه أربعين سنة ومات فيه هارون ثم موسى عليهمما السلام وخرجوا بعدهما مع يوشع بن نون ففتح الله عليهم بيت المقدس واستقرت أيديهم عليها إلى أن أخذها منهم بختصر حيناً من الدهر ثم عادت إليهم ثم أخذها ملوك اليونان فكانت تحت أحکامهم مدة طويلة وبعث الله عيسى ابن مريم عليه السلام في تلك المدة فاستعانت اليهود بجهنم الله على معاداة عيسى عليه السلام بملوك اليونان وكانت تحت أحکامهم ووشوا عندهم وأوحوا إليهم أن هذا يفسد عليكم الرعايا **«فَبَعْثَتُ عَلَيْكُمُ الرُّعَايَا»** فقبضوا عليه فرفعه الله إليه وشبه لهم بعض الحواريين بمشيئة الله وقدره فأخذوه فصلبوه واعتقدوا أنه هو **«وَمَا قُتْلُوهُ يَقِينًا بَلْ رُفِعَهُ إِلَيْهِ**

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ١٠، باب ١.

وكان الله عزيزاً حكماً» [النساء: ١٥٧ - ١٥٨].

ثم بعد المسيح عليه السلام بنحو ثلاثة سنتين دخل قسطنطين أحد ملوك اليونان في دين النصرانية وكان فيلسوفاً قبل ذلك فدخل في دين النصارى قيل تقبة وقيل حيلة ليفسده فوضعت له الأساقفة منهم قوانين وشريعة بدعوها وأحدثوها فبني لهم الكنائس والبيع الكبار والصغرى والصوماع والهياكل والمعابد والقلابيات وانتشر دين النصرانية في ذلك الزمان واشتهر على ما فيه من تبديل وتغيير وتحريف ووضع وكذب ومخالفة لدين المسيح ولم يبق على دين المسيح على الحقيقة منهم إلا القليل من الرهبان فاتخذوا لهم الصوماع في البراري والمهامه والقفار.

واستحوذت يد النصارى على مملكة الشام والجزيرة وببلاد الروم وبنى هذا الملك المذكور مدينة قسطنطينية والقمامدة وبيت لحم وكنائس ببلاد بيت المقدس ومدن حوران وبصرى وغيرها من البلدان بنايات هائلة محكمة وعبدوا الصليب من حينئذ وصلوا إلى الشرق وصوروا الكنائس، وأحلوا لحم الخنزير وغير ذلك مما أحدثوه من الفروع في دينهم والأصول ووضعوا له الأمانة الحقيرة التي يسمونها الكبيرة وصنفوا له القوانين وبسط هذا يطول. والغرض أن يد هم لم تزل على هذه البلاد إلى أن انتزعها منهم الصحابة رضي الله عنهم وكان فتح بيت المقدس على يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه والله الحمد والمنة.

وقوله: «ورزقناهم من الطيبات» أي الحال من الرزق الطيب النافع المستطاب طبعاً وشرعاً وقوله: «فما اختلفوا حتى جاءهم العلم» أي ما اختلفوا في شيء من المسائل إلا من بعد ما جاءهم العلم أي ولم يكن لهم أن يختلفوا وقد بين الله لهم وأزال عنهم اللبس، وقد ورد في الحديث: «إن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة وإن النصارى اختلفوا على اثنين وسبعين فرقة وستفترق هذه الأمة على ثلات وسبعين فرقة منها واحدة في الجنة واثنان وسبعون في النار» قيل: من هم يا رسول الله قال: «ما أنا عليه وأصحابي»^(١) رواه الحاكم في مستدركه بهذا اللفظ وهو في السنن والمسانيد ولهذا قال الله تعالى: «إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ أَيْ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ».

فَإِنْ كُثِرَ فِي شَكٍّ يَمْنَأَ إِلَيْكَ فَسَلِّمُ الَّذِي رَأَيْتَ يَقْرَئُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونُنَّ مِنَ الْمُمْتَنَنِينَ ﴿١﴾ وَلَا تَكُونُنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِنَيَّاتِ اللَّهِ فَتَكُونُنَّ مِنَ الْخَسِيرِينَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ مَا يَلْهُ حَتَّىٰ يَرُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٤﴾

(١) أخرجه أبو داود في السنة باب ١ ، والترمذني في الإيمان باب ١٨ ، وابن ماجه في الفتنة باب ١٧ ، وأحمد في المسند ٣/١٤٥ .

قال فتادة بن دعامة: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «لا أشك ولا أسأل»^(١) وكذا قال ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن البصري وهذا فيه ثبّيت للأمة وإعلام لهم أن صفة نبيهم ﷺ موجودة في الكتب المتقدمة التي بأيدي أهل الكتاب كما قال تعالى: «الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل» [الأعراف: ١٥٧] الآية، ثم مع هذا العلم الذي يعرفونه من كتبهم كما يعرفون أبناءهم يلبسون ذلك ويحرفونه ويفيدونه ولا يؤمنون به مع قيام الحجة عليهم ولهذا قال تعالى: «إن الذين حلت عليهم كلمة ربكم لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم» أي لا يؤمنون إيماناً ينفعهم بل حين لا ينفع نفساً إيمانها ولهذا لما دعا موسى عليه السلام على فرعون ومثله قال «ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم» [يومن: ٨٨] كما قال تعالى: «ولو أتنا نزلنا إليهم الملائكة وكلّهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلًا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون» [الأنعام: ١١١] ثم قال تعالى:

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِيَّةً أَمْنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُؤْسِسُ لَمَّاً أَمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخَزِيرِ فِي الْحَيَاةِ
الْدُّنْيَا وَمَعَنَّاهُمْ إِلَى حِينٍ

يقول تعالى فهلا كانت قرية آمنت بكمالها من الأمم السالفة الذين بعثنا إليهم الرسل بل ما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول إلا كذبه قومه أو أكثرهم كقوله تعالى: «إِنَّا حسرةٌ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ» [يس: ٣٥] «كَذَّلِكَ مَا أَنْتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنْ رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ» [الذاريات: ٥٢] «وَكَذَّلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرِيَّةٍ مِّنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتَرْفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مَقْتَدُونَ» [الزخرف: ٢٣] وفي الحديث الصحيح «عرض على الأنبياء فجعل النبي يمر ومعه الفتام من الناس والنبي يمر معه الرجل والنبي معه الرجال والنبي ليس معه أحد» ثم ذكر كثرة أتباع موسى عليه السلام ثم ذكر كثرة أمته صلوات الله وسلمه عليه كثرة سدت الخافقين الشرقي والغربي.

والغرض، أنه لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيهم ممن سلف من القرى إلا قوم يومن وهم أهل نينوى وما كان إيمانهم إلا خوفاً من وصول العذاب الذي أذرهم به رسولهم بعدما عاينوا أسبابه، وخرج رسولهم من بين أظهرهم فعندما جأروا إلى الله واستغاثوا به وتضرعوا له واستكاثروا وأحضروا أطفالهم ودواهم ومواشيهم وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أذرهم به نبيهم فعندما رحّمهم الله وكشف عنهم العذاب وأخرموا كما قال تعالى: «إِلَّا قَوْمٌ يُؤْسِسُ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخَزِيرِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّنَاهُمْ إِلَى حِينٍ» [يومن: ٩٨] واحتلّ المفسرون هل كشف عنهم العذاب الآخروي مع الدنوي أو إنما كشف عنهم في الدنيا

(١) انظر تفسير الطبرى ٦١٠ / ٦

فقط؟ على قولين: (أحدهما) إنما كان ذلك في الحياة الدنيا كما هو مقيد في هذه الآية.

(والثاني) فيهما لقوله تعالى: «وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون فامنوا فمتعناهم إلى حين» فأطلق عليهم الإيمان. والإيمان منقد من العذاب الآخرمي وهذا هو الظاهر والله أعلم. وقال قتادة في تفسير هذه الآية: لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حين حضرها العذاب فتركت إلا قوم يونس لما فقدوا نبيهم وظنوا أن العذاب قد دنا منهم قذف الله في قلوبهم التوبة ولبسوا المسوح وفرقوا بين كل بهيمة وولدها ثم عجوا إلى الله أربعين ليلة فلما عرف الله منهم الصدق من قلوبهم والتوبة والدامة على ما مضى منهم كشف عنهم العذاب بعد أن تدلّى عليهم. قال قتادة: وذكر أن قوم يونس بنينوى أرض الموصل وكذا روي عن ابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف وكان ابن مسعود يقرؤها «فهلا كانت قرية آمنت» وقال أبو عمران عن أبي الجلد قال: لما نزل بهم العذاب جعل يدور على رؤوسهم كقطع الليل المظلم فمشوا إلى رجل من علمائهم فقالوا: علمنا دعاء ندعوه به لعل الله أن يكشف عنا العذاب فقال: قولوا: يا حي حين لا حي، يا حي محيي الموتى، يا حي لا إله إلا أنت، قال فكشف عنهم العذاب. وتمام القصة سيأتي مفصلاً في سورة الصافات إن شاء الله.

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَإِنَّ تُكَرِّهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَعْلَمُ الْإِحْسَنَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقُلُونَ ۝

يقول تعالى: «ولو شاء ربك» يا محمد لأن الأهل الأرض كلهم في الإيمان بما جئتهم به فامنوا كلهم ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى كقوله تعالى: «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين» [هود: ١١٨ - ١١٩] وقال تعالى: «أَفَلَمْ يَأْسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهُدِي النَّاسُ جَمِيعًا» [الرعد: ٣١] ولهذا قال تعالى: «أَفَإِنَّ تُكَرِّهُ النَّاسَ» أي تلزمهم وتلجمهم «حتى يكونوا مؤمنين» أي ليس ذلك عليك ولا عليك بل الله «يضل من يشاء ويهدى من يشاء» [النحل: ٩٣] «فَلَا تَذَهَّبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ» [فاطر: ٨] «لَيْسَ عَلَيْكَ هَدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ» [البقرة: ٢٧٢] «لَعْلَكَ بَاخْرَ نَفْسُكَ أَنْ لَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» [الشعراء: ٣] «إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحَبْبْتَ» [القصص: ٥٦] «فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ» [الرعد: ٤] «فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مَذْكُورْ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصْبِطِرْ» [الناشية: ٢١ - ٢٢] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى هو الفعال لما يريد الهادي من يشاء المضل لمن يشاء لعلمه وحكمته وعدله ولهذا قال تعالى: «وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَعْلَمُ الرَّجْسَ» وهو الخبال والضلال «عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقُلُونَ» أي حجاج الله وأدله، وهو العادل في كل ذلك في هداية من هدى وإضلal من ضل.

قُلْ أَنظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلُوا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ ثُمَّ نُجِّي رُسُلَّنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًا عَلَيْنَا نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ

يرشد تعالى عباده إلى التفكير في آلاته وما خلق الله في السموات والأرض من الآيات الباهرة لذوي الألباب، مما في السموات من كواكب نباتات، ثوابت وسيارات، والشمس والقمر والليل والنهار واختلافهما وإيلاج أحدهما في الآخر حتى يطول هذا ويقصر هذا، ثم يقصر هذا ويطول هذا، وارتفاع السماء واتساعها وحسنها وزينتها وما أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها، وأخرج فيها من أفنين الشمار والزروع والأزاهير وصنوف النبات وما ذرأ فيها من دواب مختلفة الأشكال والألوان والمنافع وما فيها من جبال وسهول وقار وعمران وخراب، وما في البحر من العجائب والأمواج وهو مع هذا مسخر مذلل للسائلين يحمل سفنهما ويجري بها برفق بتسيير القدير لا إله إلا هو ولا رب سواه.

وقوله: «وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ» أي وأي شيء تغنى الآيات السماوية والأرضية والرسل بآياتها وحججها وبراهينها الدالة على صدقها عن قوم لا يؤمنون كقوله «إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلْمَةُ رَبِّكُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» الآية. وقوله: «فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلُوا مِنْ قَبْلِهِمْ» أي فهل يتضرر هؤلاء المكذبون لك يا محمد من النقم والعقاب إلّا مثل أيام الله في الذين خلوا من قبلهم من الأمم الماضية المكذبة لرسليهم «فَلَمَّا نَتَظَرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ ثُمَّ نُجِّي رُسُلَّنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا» أي ونهلك المكذبين بالرسل «كَذَلِكَ حَقًا عَلَيْنَا نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ» حقاً أوجبه الله تعالى على نفسه الكريمة كقوله: «كَتَبْ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرِّحْمَةَ» وكما جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا فَهُوَ عَنْهُ فَوْقَ الْعَرْشِ إِنْ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضْبِي»^(١).

قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُثُرْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَبَدَّلُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّكُمْ وَلَمْ يُرْثُتُمْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْ أَقُمْ وَجْهَكُمْ لِلنِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْعَكُرُ وَلَا يَضُرُّكُ فَإِنَّ فَعْلَتْ فِي أَنْكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ وَإِنْ يَمْسِسْكَ اللَّهُ بِضَرٍ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَأْيَ لِمُضَلِّلِهِ يُصْبِيْ بِهِ مَنْ يَسْأَءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْعَفُورُ الْجَيْمُ

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ قل يا أيها الناس إن كتم في شك من صحة ما جئتكم به من الدين الحنيف الذي أوحاه الله إلي فأننا لا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله وحده

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ١ ، والتوحيد باب ١٥ ، ومسلم في التوبة حديث ١٤ ، ١٦ .

لا شريك له وهو الذي يتوفاكم كما أحياكم ثم إليه مرجعكم فان كانت الْهِكْمَةُ التي تدعون من دون الله حقاً فأنا لا أعبدها فادعوها فلتضرني فإنها لا تضر ولا تنفع وإنما الذي بيده الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له وأمرت أن أكون من المؤمنين قوله: ﴿وَأَنْ أَقْمِ وَجْهَكَ لِلَّدِينِ حَنِيفاً﴾ الآية أي أخلص العبادة لله وحده حنيفاً أي منحرفاً عن الشرك ولهذا قال: ﴿وَلَا تَكُونُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وهو معطوف على قوله: ﴿وَأَمْرَتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله ﴿وَإِنْ يَمْسِسَكَ اللَّهُ بِضَرٍ﴾ الآية فيه بيان لأن الخير والشر والنفع والضر إنما هو راجع إلى الله تعالى وحده لا يشاركه في ذلك أحد فهو الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له، روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة صفوان بن سليم من طريق عبد الله بن وهب أخبرني يحيى بن أيوب عن عيسى بن موسى عن صفوان بن سليم عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «اطلبوا الخير دهركم كله وتعرضوا لنفحات ربكم، فإن الله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده، واسألهو أن يستر عوراتكم وبيؤمن رواتبكم» ثم رواه من طريق الليث عن عيسى بن موسى عن صفوان عن رجل من أشجع عن أبي هريرة مرفوعاً بمثله سواء. قوله ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي لمن تاب إليه وتوكل عليه ولو من أي ذنب كان حتى من الشرك به فإنه يتوب عليه.

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ آتَهَنَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضْلُلُ عَنْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَكُمُ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ

يقول تعالى أمراً لرسوله ﷺ أن يخبر الناس أن الذي جاءهم به من عند الله هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك فيه فمن اهتدى به واتبعه فإنما يعود نفع ذلك الاتباع على نفسه، ومن ضل عنه فإنما يرجع وبال ذلك عليه ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي وما أنا موكل بكم حتى تكونوا مؤمنين وإنما أنا نذير لكم، والهدایة على الله تعالى قوله: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ﴾ أي تمسك بما أنزل الله عليك وأواحه إليك واصبر على مخالفه من خالفك من الناس ﴿حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ أي يفتح بينك وبينهم ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ أي خير الفاتحين بعدله وحكمته.

سورة هود
وهي مكية

قال الحافظ أبو يعلى حدثنا خلف بن هشام البزار حدثنا أبو الأحوص عن أبي إسحاق عن عكرمة قال: قال أبو بكر: سألت رسول الله ﷺ ما شيبك؟ قال «شيبني هود والواقعة وعم يتسائلون وإذا الشمس كورت» وقال أبو عيسى الترمذى: حدثنا أبو كريب محمد بن العلاء حدثنا معاوية بن هشام عن شيبان عن أبي إسحاق عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال أبو بكر: يا رسول الله قد شبت قال «شيبني هود والواقعة والمرسلات وعم يتسائلون وإذا الشمس كورت»^(١) وفي رواية «هود وأخواتها».

وقال الطبراني حدثنا عبداله بن أحمد حدثنا حجاج بن الحسن حدثنا سعيد بن سلام حدثنا عمر بن محمد عن أبي حازم عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «شيبني هود وأخواتها: الواقعة والحاقة وإذا الشمس كورت» وفي رواية «هود وأخواتها» وقد روى من حديث ابن مسعود نحوه فقال الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني في معجمه الكبير: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة حدثنا أحمد بن طارق الرائي حدثنا عمرو بن ثابت عن أبي إسحاق عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن أبا بكر قال: يا رسول الله ما شيبك؟ قال: «هود والواقعة». عمرو بن ثابت متزوج وأبو إسحاق لم يدرك ابن مسعود والله أعلم.

سُبْرَةُ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ كَتَبَ أَحْكَمَتْ مَا يَنْهَا ثُمَّ فَضَلَّتْ مِنْ لَدْنِ حَكِيمٍ خَيْرٍ () الْأَنْ تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ إِنَّى لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبِشَرٌ () وَإِنْ أَسْتَعْفِرُو رَبِّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُبَعَّكُمْ مَنَعَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَيَّرٍ وَيُؤْتَى كُلُّ ذِي فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلُوا فَإِنَّ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابًا يَوْمَ كَبِيرٍ () إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ()

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول سورة البقرة بما أغني عن إعادته هنا وبالله التوفيق.

وأما قوله: «أحكمت آياته ثم فصلت» أي هي محكمة في لفظها مفصلة في معناها فهو كامل صورة ومعنى، هذا معنى ما روي عن مجاهد وقتادة واختاره ابن جرير ومعنى قوله «من لدن حكيم خير» أي من عند الله الحكيم في أقواله وأحكامه خير بعاقب الأمور «ألا تعبدوا

(١) أخرجه الترمذى في تفسير سورة ٥٦، باب ٦.

إِلَّا اللَّهُ۝ أَيُّ نَزَلْ هَذَا الْقُرْآنُ الْمُفْصَلُ لِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ كَقُولَهُ تَعَالَى :
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وَقَالَ
﴿وَلَقَدْ بَعْثَنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنَّ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وَقُولَهُ ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْ نَذِيرٍ وَبَشِيرٍ﴾ أَيْ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مِنَ الْعَذَابِ إِنْ خَالَفُتُمُوهُ، وَبَشِيرٌ
بِالثَّوَابِ إِنْ أَطْعَمْتُمُوهُ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيفَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَدَعَ الصَّفَا فَدَعَا بِطْرَنَ
قَرِيشَ الْأَقْرَبَ ثُمَّ الْأَقْرَبَ فَاجْتَمَعُوا فَقَالُوا : «يَا مَعْشِرَ قَرِيشٍ أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنْ خَيْلًا
تَصْبِحُكُمْ أَسْتَمْ مَصْدِيقِي؟» فَقَالُوا : مَا جَرَبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا قَالَ : «إِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدِي عَذَابٍ
شَدِيدٍ﴾^(١) [سَبَا: ٤٦].

وَقُولَهُ : «وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبِّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يَمْتَعُوكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجْلِ مَسْمِيٍّ وَيُؤْتَ كُلُّ
ذِي فَضْلِهِ﴾ أَيْ وَأَمْرُكُمْ بِالاستغفارِ مِنَ الذُّنُوبِ السَّالِفَةِ وَالتُّوبَةِ مِنْهَا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَ فِيمَا
تَسْتَقْبِلُونَهُ، وَأَنْ تَسْتَمِرُوا عَلَى ذَلِكَ «يَمْتَعُوكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا» أَيْ فِي الدُّنْيَا «إِلَى أَجْلِ مَسْمِيٍّ
وَيُؤْتَ كُلُّ ذِي فَضْلِهِ﴾ أَيْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ قَالَهُ قَاتَدَةُ كَقُولَهُ : «مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكْرِ أَوْ
أَنْثِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنْحِينَهُ حَيَاةً طَيِّبَةً» [النَّحْل: ٩٧] الآيَةِ .

وَقَدْ جَاءَ فِي الصَّحِيفَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِسَعْدٍ «وَإِنَّكَ لَنْ تَنْفَقْ نَفْقَةً تَبْتَغِي بَهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا
أَجْرَتْ بَهَا حَتَّىٰ مَا تَجْعَلَ فِيٰ امْرَاتِكَ»^(٢) وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : حَدَّثَنِي الْمُسَيْبُ بْنُ شَرِيكَ عَنْ
أَبِي بَكْرٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبَيرٍ عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قُولَهُ : «وَيُؤْتَ كُلُّ ذِي فَضْلِ
هِ﴾ قَالَ مِنْ عَمَلِ سَيِّئَةٍ كَتَبَ عَلَيْهِ سَيِّئَةٍ وَمِنْ عَمَلِ حَسَنَةٍ كَتَبَ لَهُ عَشَرَ حَسَنَاتٍ فَإِنْ عَوَّبَ
بِالسَّيِّئَةِ الَّتِي كَانَ عَمِلَهَا فِي الدُّنْيَا بَقِيتْ لَهُ عَشَرَ حَسَنَاتٍ وَإِنْ لَمْ يَعْاقِبْ بَهَا فِي الدُّنْيَا أَحَدٌ مِنْ
الْحَسَنَاتِ الْعَشْرِ وَاحِدَةٍ وَبِقِيَتْ لَهُ تِسْعَ حَسَنَاتٍ ، ثُمَّ يَقُولُ هَلْكُ مِنْ غَلْبَ أَحَادِهِ عَلَى أَعْشَارِهِ .

وَقُولَهُ : «وَإِنْ تُولُوا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ» هَذَا تَهْدِيْدٌ شَدِيدٌ لِمَنْ تُولِيَ عَنْ
أَوْامِرِ اللَّهِ تَعَالَى وَكَذَبَ رَسْلَهُ فَإِنَّ الْعَذَابَ يَنْالُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا مَحَالَةٌ «إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ» أَيْ
مَعَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ «وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» أَيْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ مَا يَشَاءُ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَى
أُولَيَائِهِ وَانتِقامَهُ مِنْ أَعْدَائِهِ ، وَإِعادَةِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَهَذَا مَقَامُ التَّرْهِيبِ كَمَا أَنَّ الْأُولَى مَقَامٌ
تَرْغِيبِ .

أَلَا إِنَّهُمْ يَتَّخِذُونَ صُدُورَهُ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا جِنَّ يَسْتَعْشُونَ إِنَّهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسْرِرُونَ وَمَا يُعْلَمُونَ إِنَّهُمْ
عَلَيْمُ بِذَاتِ الْأَصْدُورِ

قال ابن عباس كانوا يكرهون أن يستقبلوا السماء بفروجهم وحال وقائهم فأنزل الله هذه

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ١١١، باب ١، وسورة ٢٦، باب ٢، ومسلم في الإيمان حديث ٣٥٥.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان باب ٤١، ومسلم في الوصية حديث ٥.

الآية، رواه البخاري^(١) من طريق ابن جريج عن محمد بن عباد بن جعفر أن ابن عباس قرأ ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَشْتَوْنَ صُدُورَهُمْ﴾، الآية فقلت: يا أبا العباس ما تشنوني صدورهم؟ قال: الرجل كان يجامع امرأته فيستحي أو يتخلل فيستحي فنزلت: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَشْتَوْنَ صُدُورَهُمْ﴾. وفي لفظ آخر له قال ابن عباس: أناس كانوا يستحبون أن يتخللوا فيفضوا إلى السماء وأن يجتمعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء فنزل ذلك فيهم ثم قال: حدثنا الحميدي حدثنا سفيان حدثنا عمرو قال قرأ ابن عباس: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَشْتَوْنَ صُدُورَهُمْ لَيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا هِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾.

قال البخاري^(٢) وقال غيره عن ابن عباس ﴿يَسْتَغْشُونَ﴾ يغضون رؤوسهم، وقال ابن عباس في رواية أخرى في تفسير هذه الآية: يعني به الشك في الله وعمل السيئات وكذا روي عن مجاهد والحسن وغيرهم أي أنهم كانوا يشنون صدورهم إذا قالوا شيئاً أو عملوه فيظنون أنهم يستخفون من الله بذلك فأخبرهم الله تعالى أنهم حين يستغشون ثيابهم عند مناهم في ظلمة الليل ﴿يَعْلَمُ مَا يَسْرُونَ﴾ من القول ﴿وَمَا يَعْلَمُونَ إِنَّهُ عَلَيْمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي يعلم ما تكن صدورهم من النيات والضمائر والسرائر، وما أحسن ما قال زهير بن أبي سلمى في معلقته المشهورة: [البسيط]

فَلَا تَكْتُمَنَّ اللَّهَ مَا فِي قَلْبِكُمْ
لِيَخْفَىٰ وَمَهْمَا يَكْتُمَ اللَّهُ يَعْلَمُ
يَؤْخِرُ فِي وَضْعِ فِي كِتَابٍ فِي دُخْرِ
لِيَسْوَمُ حَسَابَ أَوْ يَعْجَلُ فِي قِيمَ

فقد اعترف هذا الشاعر الجاهلي بوجود الصانع وعلمه بالجزئيات وبالمعاد وبالجزاء وبكتابة الأعمال في الصحف ليوم القيمة، وقال عبد الله بن شداد: كان أحدهم إذا مر برسول الله ثنى عنه صدره وغطى رأسه فأنزل الله ذلك، وعد الضمير إلى الله أولى لقوله: ﴿أَلَا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ وقرأ ابن عباس ألا إنهم تشنوني صدورهم برفع الصدور على الفاعلية وهو قريب المعنى.

﴿وَمَا مِنْ دَآبَةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَعِلْمُ مُسْتَقِرَّهَا وَمُسْتَوْدِعَهَا كُلُّهُ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾

أخبر تعالى أنه متکفل بأرزاق المخلوقات من سائر دواب الأرض صغيرها وكبيرها بحريرها وبرتها وأنه يعلم مستقرها ومستودعها أي يعلم أين منتهی سيرها في الأرض وأين تأوي إليه من وكرها وهو مستودعها، وقال علي بن أبي طلحة وغيره عن ابن عباس ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقِرَّهَا﴾ أي حيث تأوي ﴿وَمُسْتَوْدِعَهَا﴾ حيث تموت^(٤)، وعن مجاهد ﴿مُسْتَقِرَّهَا﴾ في الرحم

(١) كتاب التفسير، تفسير سورة ١١، باب ١.

(٢) راجع الحاشية السابقة.

(٣) البيتان في ديوان زهير بن أبي سلمى ص ١٨ ، والبيت الأول في تاج العروس (كتم).

(٤) انظر تفسير الطبرى ٣/٧ .

﴿وَمُسْتَوْدِعُهَا﴾ في الصلب كالتي في الأنعام^(١)، وكذا روي عن ابن عباس والضحاك وجماعة. وذكر ابن أبي حاتم أتوال المفسرين هنا كما ذكره عند تلك الآية فالله أعلم. وأن جميع ذلك مكتوب في كتاب عند الله مبين عن جميع ذلك كقوله: ﴿وَمَا مِنْ دَبَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا هُوَ يَعْلَمُ بِهَا وَمَا مِنْ حَثَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا يَعْلَمُ بِهَا﴾ [الأنعام: ٣٨] قوله: ﴿وَعِنْهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرْقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبْةٍ فِي ظَلَمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مَبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سَتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوْكُمْ أَيْكُمْ أَخْسَنُ عَمَلاً وَلَيْنَ قُلْتُ إِنَّكُمْ مُبَغْوِثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لِيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سُحْرٌ مُّبِينٌ وَلَيْنَ أَخْرَجْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أَمْمَةٍ مَعْدُودَةٍ لِيَقُولُنَّ مَا يَعْسِهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهِزُونَ

يخبر تعالى عن قدرته على كل شيء وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام وأن عرشه كان على الماء قبل ذلك كما قال الإمام أحمد^(٢): حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن جامع بن شداد عن صفوان بن محرز عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «اقبلوا البشرى يا بني تميم» قالوا: قد بشرتنا، فأعطينا، قال: «اقبلوا البشرى يا أهل اليمن قالوا: قد قيلنا. فأخبرنا عن أول هذا الأمر كيف كان؟ قال: «كان الله قبل كل شيء، وكان عرشه على الماء، وكتب في اللوح المحفوظ ذكر كل شيء» قال: فأتأني آت فقال: يا عمران انحلت نافتك من عقالها، قال: فخرجت في إنثرها فلا أدرى ما كان بعدي، وهذا الحديث مخرج في صحيح البخاري ومسلم بألفاظ كثيرة فمنها قالوا: جئناك نسألك عن أول هذا الأمر فقال: «كان الله ولم يكن شيء قبله وفي رواية - غيره - وفي رواية - معه - وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السموات والأرض»^(٣).

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ مَقَادِيرَ الْخَلَقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وَكَانَ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ»^(٤) وقال البخاري في تفسير هذه الآية: حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب أخبرنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عز وجل أتفق أتفق عليك» وقال: «يد الله ملائى لا يغيبها نفقة، سحاء الليل والنهر» وقال: «أفرأيتم ما أتفق منذ خلق السموات

(١) انظر تفسير الطبرى . ٤/٧.

(٢) المستند ٤٣١ / ٤ .

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ١ .

(٤) أخرجه مسلم في القدر حديث ١٦ .

والأرض فإنه لم يغض ما في يمينه وكان عرشه على الماء، وبهذه الميزان يخوض ويرفع^(١).

وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا حماد بن سلمة عن يعلى بن عطاء عن وكيق بن عدس عن عمه أبي رزين واسمها لقيط بن عامر بن المتفق العقيلي قال: قلت: يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه قال: «كان في عماء ما تحته هواء وما فوقه هواء، ثم خلق العرش بعد ذلك»^(٣) وقد رواه الترمذى في التفسير وابن ماجه في السنن من حديث يزيد بن هارون به وقال الترمذى: هذا حديث حسن.

وقال مجاهد «وكان عرشه على الماء» قبل أن يخلق شيئاً، وكذا قال وهب بن منبه وضمرة وقتادة وابن جرير وغير واحد، وقال قتادة في قوله «وكان عرشه على الماء» ينبيكم كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق السموات والأرض، وقال الريبع بن أنس «وكان عرشه على الماء» فلما خلق السموات والأرض قسم ذلك الماء قسمين فجعل نصفاً تحت العرش وهو البحر المسجور.

وقال ابن عباس: إنما سمي العرش عرشاً لارتفاعه، وقال إسماعيل بن أبي خالد سمعت سعداً الطائي يقول: العرش ياقوتة حمراء، وقال محمد بن إسحاق في قوله تعالى: «وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء» فكان كما وصف نفسه تعالى إذ ليس إلا الماء وعليه العرش وعلى العرش ذو الجلال والإكرام، والعزة والسلطان، والملك والقدرة، والحلم والعلم، والرحمة والنعمة الفعال لما يريد.

وقال الأعمش عن المنھال بن عمرو عن سعيد بن جبیر قال: سئل ابن عباس عن قول الله: «وكان عرشه على الماء» على أي شيء كان الماء؟ قال على متن الريح، وقوله تعالى: «لilyوكم أیکم أحسن عملاً» أي خلق السموات والأرض لنفع عباده الذين خلقهم ليعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ولم يخلق ذلك عبشاً كقوله «وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار» [ص: ٢٧] وقال تعالى: «أفحسبتم أنما خلقناكم عبشاً وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم» [المؤمنون: ١١٥ - ١١٦] وقال تعالى: «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» [الذاريات: ٥٦] الآية وقوله «لilyوكم» أي ليختبركم «أیکم أحسن عملاً» ولم يقل أكثر عملاً، بل أحسن عملاً ولا يكون العمل حسناً حتى يكون خالصاً لله عز وجل على شريعة رسول الله ﷺ فمتى فقد العمل واحداً من هذين الشرطين حبط وبطل.

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ١١، باب ٢.

(٢) المستند ١١/٤، ١٢.

(٣) أخرجه الترمذى في تفسير سورة ١١، باب ١، وابن ماجه في المقدمة باب ١٣.

وقوله: ﴿ولَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ﴾ الآية يقول تعالى ولئن أخبرت يا محمد هؤلاء المشركين أن الله سبحانه لهم بعد مماتهم كما بدأهم مع أنهم يعلمون أن الله تعالى هو الذي خلق السموات والأرض كما قال تعالى: ﴿ولَئِنْ سَأَلْتُهُمْ مِنْ خَلْقِهِمْ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] ﴿ولَئِنْ سَأَلْتُهُمْ مِنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسَخْرَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١] وهم مع هذا ينكرون البعث والمعاد يوم القيمة الذي هو بالنسبة إلى القدرة أهون من البداءة كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَا الْخَلْقَ ثُمَّ يَعْيِدُهُ وَهُوَ أَهُونُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] وقال تعالى: ﴿مَا خَلَقْتُكُمْ وَلَا بَعْثَكُمْ إِلَّا كَنْفُسَ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨] وقولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سُحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي يقولون كفراً وعندما نصدقك على وقوع البعث، وما يذكر ذلك إلا من سحرته فهو يتبعك على ما تقول.

وقوله: ﴿ولَئِنْ أَخْرَنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾ الآية. يقول تعالى ولئن آخرنا العذاب والمؤاخذة عن هؤلاء المشركين إلى أجل محدود وأمد محصور وأوعدناهم إلى مدة مضروبة ليقولن تكذيباً واستعجالاً، ما يحبسه أي يؤخر هذا العذاب عنا فإن سجاياهم قد ألفت التكذيب والشك فلم يق لهم محيص عنه ولا محيد والأمة تستعمل في القرآن والسنة في معان متعددة فيراد بها الأمد كقوله في هذه الآية ﴿إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾.

وقوله في يوسف: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَحَا مِنْهُمَا وَادْكُرْ بَعْدَ أُمَّةً﴾ [يوسف: ٤٥] وتستعمل في الإمام المقتدى به كقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَاتَلَهُ اللَّهُ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠] وتستعمل في الملة والدين كقوله إخباراً عن المشركين إنهم قالوا: ﴿إِنَا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ إِلَيَّاً مُّقْتَدِّرِينَ﴾ [الزخرف: ٢٣] وتستعمل في الجماعة كقوله: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءُ مَدِينٍ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣] وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقَسْطِ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٤٧].

والمراد من الأمة هنا الذين يبعث فيهم الرسول مؤمنهم وكافرهم كما في صحيح مسلم «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصرياني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار»^(١) وأما أمة الأتباع فهم المصدقون للرسول كما قال تعالى: ﴿كَتَمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أَخْرَجَتْ لِلنَّاسِ﴾ وفي الصحيح «فأَقُولُ أَمْتَيْ أَمْتَيْ» وتستعمل الأمة في الفرق والمطائفة كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَوْمٌ مُوسَى أُمَّةٌ يَهُدُونَ بِالْحَقِّ وَبَهُ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩] وقوله: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَمْمَةٌ قَائِمَةٌ﴾ [آل عمران: ١١٣] الآية.

وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَنَ مِمَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَّعْنَاهُ مِنْهُ إِنَّهُ لَيُشْوِشُ كَفُورًا وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءً

(١) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٢٤٠

بَعْدَ صَرَّاءَ مَسَّتُهُ لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ الْسَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لِفَرْجٍ فَخُورٌ إِلَّا الَّذِينَ صَرَّبُوا وَعَمِلُوا أَصْنَابًا حَتَّىٰ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ

يخبر تعالى عن الإنسان وما فيه من الصفات الذميمة إلا من رحم الله من عباده المؤمنين أنه إذا أصابته شدة بعد نعمة حصل له يأس وقنوط من الخير بالنسبة إلى المستقبل وكفر وجحود لماضي الحال كأنه لم يرج بعد ذلك فرجاً. وهكذا إن أصابته نعمة بعد نعمة (ليقول ذهب السيئات عنني) أي يقول: ما ينالني بعد هذا ضيم ولا سوء (إنه لفرح فخور) أي فرح بما في يده بطر فخور على غيره، قال الله تعالى: (إلا الذين صبروا) أي على الشدائـد والمكارـه (و عملوا الصالـحـاتـ) أي في الرخـاءـ والعـافـيـةـ (أولـثـكـ لـهـمـ مـغـفـرـةـ) أي بما يصـيبـهم من الضـراءـ (وأـجـرـ كـبـيرـ) بما أـسـلـفـوهـ في زـمـنـ الرـخـاءـ كـمـ جـاءـ فـيـ الـحـدـيـثـ (والـذـيـ نـفـسيـ بـيـدـهـ لاـ يـصـيبـ الـمـؤـمـنـ هـمـ وـلـاـ غـمـ وـلـاـ نـصـبـ وـلـاـ وـصـبـ وـلـاـ حـزـنـ حـتـىـ الشـوـكـةـ يـشـاكـهاـ إـلـاـ كـفـرـ اللهـ عـنـهـ بـهـ مـنـ خـطـايـاهـ) ^(١) وفي الصحيحين (والـذـيـ نـفـسيـ بـيـدـهـ لاـ يـقـضـيـ اللهـ لـلـمـؤـمـنـ قـضـاءـ إـلـاـ كـانـ خـيـرـاـ لـهـ إـنـ أـصـابـتـهـ سـرـاءـ فـشـكـرـ كـانـ خـيـرـاـ لـهـ، وـإـنـ أـصـابـتـهـ ضـرـاءـ فـصـبـرـ كـانـ خـيـرـاـ لـهـ، وـلـيـسـ ذـكـرـ لـأـحـدـ غـيرـ الـمـؤـمـنـ) ^(٢) ولـهـذاـ قـالـ اللهـ تـعـالـىـ: (وـالـعـصـرـ إـنـ إـلـاـ الـذـينـ آمـنـواـ وـعـمـلـواـ الصـالـحـاتــ وـتـوـاـصـوـاـ بـالـحـقــ وـتـوـاـصـوـاـ بـالـصـبـرـ) [العصـرـ: ١ - ٣] وـقـالـ تـعـالـىـ: (إـنـ إـلـاـ إـلـاـ هـلـوـعـاـ) [المعـارـجـ: ١٩] الـآـيـاتـ.

فَلَعْلَكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَنَّةٌ مَعْهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكَيْلٌ أَمْ يَقُولُونَ أَنَّرَبِهِ قُلْ فَأَتُوا بِعَشَرَ سُورٍ مُشَاهِدٍ مُفْرِيَّتٍ وَأَدْعُوا مِنْ أَسْتَطْعُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَدِيقِينَ إِلَمْ يَسْتَحِيُّوْلَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ

يقول تعالى مسلياً لرسوله ﷺ عما كانوا يتعلّقون به المشركون فيما كانوا يقولونه عن الرسول كما أخر تعالى عنهم في قوله: (وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً) [الفرقان: ٧ - ٨] فأمر الله تعالى رسوله صلوات الله وسلامه عليه وأرشده إلى أن لا يضيق بذلك منهم صدره ولا يصدنه ذلك ولا يثننه عن دعائهم إلى الله عز وجل آباء الليل وأطراف النهار كما قال تعالى: (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون) [الحجر: ٩٨] الآية، وقال هنا (فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا) أي لقولهم ذلك فإنما أنت نذير ولك أسوة بإخوانك من الرسل قبلك فإنهم كذبوا

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤/٣.

(٢) أخرجه مسلم في الزهد حديث ٦٤.

وأوذوا فصروا حتى أتاهم نصر الله عز وجل .

ثم بين تعالى إعجاز القرآن وأنه لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله ولا عشر سور مثله ولا بسورة من مثله لأن كلام الرب تعالى لا يشبه كلام المخلوقين كما أن صفاتاته لا تشبه صفات المحدثات . وذاته لا يشبهها شيء تعالى وتقديس وتنزه لا إله إلا هو ولا رب سواه ثم قال تعالى : ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِبُوكُمْ﴾ فإن لم يأتوا بمعارضة ما دعوتموه إليهم فاعملموا أنهم عاجزون عن ذلك وأن هذا الكلام متصل من عند الله متضمن علمه وأمره ونهيه ﴿وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلا
هُوَ فَهُلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ .

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرَبَّنَّا مُنْوَفٌ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيَسْ
لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا الْنَّكَارُ وَحَقِيقَةً مَا صَنَعُوا فِيهَا وَنَطَّلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾

قال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية : إن أهل الرياء يعطون بحسنانهم في الدنيا وذلك أنهم لا يظلمون نقيراً يقول من عمل صالحًا التماس الدنيا صوماً أو صلاة أو تهجدًا بالليل لا يعمله إلا التماس الدنيا يقول الله تعالى : أوفيه الذي التماس في الدنيا من المثابة وحطط عمله الذي كان يعمله لالتماس الدنيا وهو في الآخرة من الخاسرين : وهكذا روي عن مجاهد والضحاك وغير واحد ، وقال أنس بن مالك والحسن : نزلت في اليهود والنصارى ، وقال مجاهد وغيره : نزلت في أهل الرياء ، وقال قتادة : من كانت الدنيا همه ونيته وطلبه جازاه الله بحسنانه في الدنيا ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يعطي بها جزاء وأما المؤمن من فيجازى بحسنانه في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة^(١) ، وقد ورد في الحديث المرفوع نحو من هذا .

وقال تعالى : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءَ لَمْ نُرِيدْ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ
يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيًا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانُوا سَعَيْهِمْ
مَشْكُورًا كَلَّا نَمْدَهُؤُلَاءِ وَهُؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا انْظُرْ كِيفَ فَضَلَّنَا
بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ درجات وأَكْبَرُ تفضيلًا﴾ [الإسراء : ١٨ - ٢١] وقال تعالى :
﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرثَ الْآخِرَةِ نَزَدْ لَهُ فِي حَرثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرثَ الدُّنْيَا نَوْتَهُ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي
الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى : ٢٠].

أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْنَتِهِ مِنْ رَبِّهِ وَيَتَلوُهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمَنْ قَبْلَهُ كَتَبْ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ
يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرُ بِهِ مِنْ الْأَخْرَابِ فَالْأَخْرَابُ مَوْعِدُهُمْ فَلَا تَأْتُكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ

(١) انظر الحديث في تفسير الطبرى ١٤/٧ ، ولفظه : «من كانت الدنيا همه وسدهمه وطلبه ونيته» ، والسدّم :
الولوع بالشيء واللھج به ، والغم بطلبه والتدم على فوته ، وقد أخرج جه بلفظ الطبرى الدارمى في المقدمة
باب . ٣٢

أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾

يُخْبَرُ تَعَالَى عَنْ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى فَطْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي فَطَرَ عَلَيْهَا عِبَادَهُ مِنَ الاعْتِرَافِ لِهِ بَأْنَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: «فَأَقْمِ وَجْهَكَ لِلَّدِينِ حَنِيفًا فَطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا» [الرُّوم: ٣٠] الْآيَةُ وَفِي الصَّحِيحِينِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ مُولُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفَطْرَةِ فَأَبْوَاهُ يَهُودَانِهُ أَوْ يَنْصُرَانِهُ أَوْ يَمْجِسَانِهُ كَمَا تُولَدُ الْبَهِيمَةُ بِهِيمَةً جَمِيعَهُ مَلُوكٌ تَحْسُونُ فِيهَا مِنْ جَدَعَاءِ؟»^(١) الْحَدِيثُ. وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَيَاضِ بْنِ حَمَادٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حَنَفاءَ فَجَاءُهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالُوهُمْ عَنِ دِينِهِمْ وَحَرَمْتُ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمْرَتُهُمْ أَنْ يَشْرُكُوا بِي مَا لَمْ أَنْزُلْ بِهِ سُلْطَانًا»^(٢) وَفِي الْمُسْنَدِ وَالسُّنْنَ «كُلُّ مُولُودٍ يُولَدُ عَلَى هَذِهِ الْمُلْكَةِ حَتَّى يَعْرَبَ عَنْهُ لِسَانَهُ»^(٣) الْحَدِيثُ، فَالْمُؤْمِنُ باقٌ عَلَى هَذِهِ الْفَطْرَةِ.

وَقَوْلُهُ: «وَيَتَلَوُهُ شَاهِدٌ مِنْهُ» أي وَجَاءَهُ شَاهِدٌ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَا أَوْحَاهُ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الشَّرائِعِ الْمُطَهَّرَةِ الْمُكَمَّلَةِ الْمُخْتَتَمَةِ بِشَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ. وَلَهُذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمَجَاهِدُ وَعَكْرَمَةُ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَالضَّحَّاكُ وَإِبْرَاهِيمُ التَّخْعِيُّ وَالسَّدِيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَيَتَلَوُهُ شَاهِدٌ مِنْهُ»: إِنَّهُ جَبَرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَالْحَسَنِ وَقَتَادَةَ هُوَ مُحَمَّدُ ﷺ وَكُلَّا هُمَا قَرِيبٌ فِي الْمَعْنَى لَأَنَّ كُلَّا مِنْ جَبَرِيلٍ وَمُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا بَلَغَ رِسَالَةَ اللَّهِ تَعَالَى فِي جَبَرِيلٍ إِلَى مُحَمَّدٍ وَمُحَمَّدٍ إِلَى الْأَمْمَةِ، وَقِيلَ هُوَ عَلَيْهِ وَهُوَ ضَعِيفٌ لَا يَبْثُتُ لَهُ قَائِلٌ وَالْأَوَّلُ وَالثَّانِي هُوَ الْحَقُّ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ عِنْهُ مِنَ الْفَطْرَةِ مَا يَشَهِدُ لِلشَّرِيعَةِ مِنْ حِيثِ الْجَمْلَةِ وَالْتَّفَاصِيلِ تُؤْخَذُ مِنَ الشَّرِيعَةِ وَالْفَطْرَةِ تَصْدِيقَهَا وَتَؤْمِنُ بِهَا، وَلَهُذَا قَالَ تَعَالَى: «أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتَلَوُهُ شَاهِدٌ مِنْهُ» وَهُوَ الْقُرْآنُ بِلِغَةِ جَبَرِيلٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَبِلِغَةِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَى أُمَّتِهِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابُ مُوسَى» أي وَمَنْ قَبْلَ الْقُرْآنِ كِتَابُ مُوسَى وَهُوَ التُّورَةُ «إِمَاماً وَرَحْمَةً» أي أَنْزَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى تَلْكَ الْأَمْمَةِ إِمَاماً لَهُمْ وَقَدْوَةً يَقْتَدُونَ بِهَا وَرَحْمَةً مِنَ اللَّهِ بِهِمْ فَمَنْ آمَنَ بِهَا حَقِّ الْإِيمَانِ قَادَهُ ذَلِكُ إِلَى الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ، وَلَهُذَا قَالَ تَعَالَى: «أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ»^(٤).

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَوَعِّداً لِمَنْ كَذَبَ بِالْقُرْآنِ أَوْ بَشَيْءٍ مِنْهُ: «وَمَنْ يَكْفُرُ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مُوَعِّدَهُ» أي وَمَنْ كَفَرَ بِالْقُرْآنِ مِنْ سَائِرِ أَهْلِ الْأَرْضِ مُشْرِكُهُمْ وَكَافِرُهُمْ وَأَهْلُ الْكِتَابِ وَغَيْرُهُمْ

(١) أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ فِي الْجَنَاثَرِ بَابُ ٧٩، وَمُسْلِمٌ فِي الْقَدْرِ حَدِيثُ ٢٢، ٢٤.

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي الْجَنَةِ حَدِيثُ ٦٣.

(٣) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ ٣٥٣/٣، ٤٣٥، ٤٣٥/٤.

من سائر طوائف بني آدم على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وأجناسهم ممن بلغه القرآن كما قال تعالى: «لأندركم به ومن بلغ» [الأنعام: ١٩] وقال تعالى: «قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميماً» [الأعراف: ١٥٨] وقال تعالى: «ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده» [هود: ١٧].

وفي صحيح مسلم من حديث شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي أو نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار»^(١) وقال أبوب السختياني عن سعيد بن جبير قال: كنت لا أسمع بحديث عن النبي ﷺ على وجهه إلا وجدت مصادقه أو قال تصديقه في القرآن فبلغني أن النبي ﷺ قال: «لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني فلا يؤمن بي إلا دخل النار» فجعلت أقول أين مصادقه في كتاب الله؟ قال وقلما سمعت عن رسول الله ﷺ إلا وجدت له تصديقاً في القرآن حتى وجدت هذه الآية «ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده» قال من الملائكة كلها.

وقوله «فلا تك في مرية منه إنه الحق من ربك» الآية، أي القرآن حق من الله لا مرية ولا شك فيه كما قال تعالى: «ألم تنزل الكتاب لا رب له في من رب العالمين» [السجدة: ١ - ٢] وقال تعالى: «ألم ذلك الكتاب لا رب له» [البقرة: ١ - ٢] وقوله: «ولكن أكثر الناس لا يؤمنون» كقوله تعالى: «وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين» [يوسف: ١٠٣] وقال تعالى: « وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله» [الأنعام: ١١٦] وقال تعالى: «ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين» [سبأ: ٢٠].

ومن أظلم ممَّنْ أفترى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعَرِّضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَدُ هُنَّ لَهُؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ إِنَّ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَعْوِزُونَهَا عَوْجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَفَرُونَ إِنَّ أُولَئِكَ لَمْ يَكُنُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلَيَاءَ يُضَعِّفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبَصِّرُونَ إِنَّ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَا كَانُوا يَفْرَوْنَ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ

يبين تعالى حال المفترين عليه وفضحهم في الدار الآخرة على رؤوس الخلاقين من الملائكة والرسل والأنبياء وسائر البشر والجان كما قال الإمام أحمد^(٢) حدثنا بهيز وعفان أخبرنا همام حدثنا قتادة عن صفوان بن محرز قال: كنت أخذأً بيد ابن عمر إذ عرض له رجل قال:

(١) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٢٤٠.

(٢) المستد ٢/٧٤، ١٠٥.

كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيمة؟ قال: سمعته يقول: «إن الله عز وجل يدny المؤمن فيضع عليه كنهه^(١) ويستره من الناس ويقرره بذنبه ويقول له: أتعرف ذنبك كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ حتى إذا قرره بذنبه ورأى في نفسه أنه قد هلك قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا وإنني أغفرها لك اليوم» ثم يعطى كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون فيقول: «الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين»^(٢) الآية أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث قتادة به.

وقوله: «الذين يصدون عن سبيل الله ويعنونها عوجاً» أي يردون الناس عن اتباع الحق وسلوك طريق الهدى الموصولة إلى الله عز وجل ويجبنونهم الجنة «ويعنونها عوجاً» أي ويريدون أن يكون طريقهم عوجاً غير معبدلة «وهم بالأخرة هم كافرون» أي جاحدون بها مكذبون بواقعها وكونها «أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء» أي بل كانوا تحت قهره وغلبته وفي قبضته وسلطانه وهو قادر على الانتقام منهم في الدار الدنيا قبل الآخرة «إنما يؤخرونهم ليوم تشخيص فيه الأبرار».

وفي الصحيحين «إن الله ليملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»^(٣) ولهذا قال تعالى: «يضاعف لهم العذاب» الآية أي يضاعف عليهم العذاب، وذلك أن الله تعالى جعل لهم سمعاً وأبصاراً وأنفاساً فما أغنّى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أندثتهم بل كانوا صماءً عن سماع الحق عمياً عن اتباعه كما أخبر تعالى عنهم حين دخولهم النار قوله: «وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير» [الملك: ١٠].

وقال تعالى: «الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب» [النحل: ٨٨] الآية، ولهذا يذنبون على كل أمر تركوه وعلى كل نهي ارتكبوه ولهذا كان أصح الأقوال أنهم مكلفون بفروع الشرائع أمرها ونهيها بالنسبة إلى الدار الآخرة قوله: «أولئك الذين خسروا أنفسهم وضلّ عنهم ما كانوا يفترون» أي خسروا أنفسهم لأنهم أدخلوا ناراً حامية فهم معذبون فيها لا يفتر عنهم من عذابها طرفة عين كما قال تعالى: «كلما خبت زدناهم سعيراً» [الإسراء: ٩٧] «وضلّ عنهم» أي ذهب عنهم «ما كانوا يفترون» من دون الله من الأنداد والأصنام فلم تجد عنهم شيئاً بل ضررهم كل الضرر كما قال تعالى: «وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين» [الأحقاف: ٦].

وقال تعالى: «واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً كلاً سيكفرون بعبادتهم ويكونون

(١) يضع عليه كنهه: أي ستره وعفوه وصفحة.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ١١، باب ٤، ومسلم في التوبه حديث ٥٢.

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة ١١، باب ٥، ومسلم في البر حديث ٦٢.

عليهم ضداً» [مريم: ٨١ - ٨٢] وقال الخليل لقومه: «إِنَّمَا تَخْذِلُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بِعَصْبِكُمْ وَيَلْعُنُ بَعْضَكُمْ بَعْضًا وَمَا وَأَكْمَنَ النَّارَ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ» [العنكبوت: ٢٥] قوله: «إِذْ تَبِأُ الظِّنَّ اتَّبَعُوا مِنَ الظِّنَّ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا العَذَابَ وَتَقْطَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابَ» [البقرة: ١٦٦] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على خسرهم ودمارهم ولهذا قال: «لَا جُرْمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ» يخبر تعالى عن حالهم أنهم أخس الناس صفة في الدار الآخرة لأنهم استبدلوا الدرجات عن الدرجات، واعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم آن وعن شرب الرحيق المختوم بسموم وحميم وظل من يحموم وعن الحور العين بطعم من غسلين وعن القصور العالية بالهاوية، وعن قرب الرحمن، ورؤيته بغضب الديان وعقوبته، فلا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَجْنَبُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢﴾
﴿مَثُلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرُ وَالسَّمِيعُ هُلْ يَسْتَوِيَانِ مُثْلًا لَّا يَدْرِكُونَ﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء ثنى بذكر السعداء وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات فآمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة قولهً فأعلاً من الإتيان بالطاعات وترك المنكرات وبهذا ورثوا الجنات، المشتملة على الغرف العاليات، والسرر المصفوفات، والقطوف الدانيات، والفرش المرتفعات والحسان الخيرات، والفواكه المتنوعات، والماكل المشتهيات والمشارب المستلزمات، والنظر إلى خالق الأرض والسموات، وهم في ذلك خالدون لا يموتون ولا يهرمون ولا يمرضون ولا ينامون ولا يتغوطون ولا يصقون ولا يتمخطون، إن هو إلا رشح مسك يعرقون.

ثم ضرب تعالى مثل الكافرين والمؤمنين فقال: «مثُلُ الْفَرِيقَيْنِ» أي الذين وصفهم أولاً بالشقاء والمؤمنين بالسعادة فأولئك كالأعمى والأصم وهم لا يروا كالبصير والسميع، فالكافر أعمى عن وجه الحق في الدنيا والآخرة لا يهتدى إلى خير ولا يعرفه، أصم عن سماع الحجج فلا يسمع ما ينتفع به «وَلَوْ عِلْمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ» [الأنفال: ٢٣] الآية.

وأما المؤمن ففقط ذكي لي Bip يميز بينه وبين الباطل فيتبع الخير ويترك الشر سميع للحججة يفرق بينها وبين الشبهة فلا يروج عليه باطل، فهو يستوي هذا وهذا؟ «أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» أفلأ تعتبرون فتفرقون بين هؤلاء وهؤلاء كما قال في الآية الأخرى: «لَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ لَا الظَّلَمَاتُ لَا النُّورُ لَا الظُّلُمَاتُ لَا الْحُرُورُ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مِنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمَعٍ مِنْ فِي الْقَبُورِ إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَّ فِيهَا نَذِيرٌ» [فاطر: ١٩ - ٢٤].

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٠﴾ أَنَّ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابٍ يُوَحِّدُ الْأَيْمَرِ ﴿٢١﴾ فَقَالَ الْمَلاَئِكَةُ كُفَّارُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَكَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا نَرَكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا أَلَّذِينَ هُمْ أَرَادُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا زَرَنَا لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظَرْنَا إِلَيْكُمْ كَذِيلِنَّ ﴿٢٢﴾

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض من المشركين عبدة الأصنام أنه قال لقومه «إنني لكم نذير مبين» أي ظاهر النذارة لكم من عذاب الله إن أنتم عبدتم غير الله، ولهذا قال: «أن لا تعبدوا إلا الله» قوله: «إنني أخاف عليكم عذاب يوم اليم» أي إن استمررتם على ما أنتم عليه عذبكم الله عذاباً أليماً موجعاً شاقاً في الدار الآخرة.

﴿فَقَالَ الْمَلَائِكَةُ كُفَّارُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ والملائكة السادة والكباراء من الكافرين منهم «ما نراك إلا بشرًا مثلكنا» أي لست بملك ولكنك بشر فكيف أوحى إليك من دوننا ثم ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا كالباعة والحاكمة^(١) وأشباههم ولم يتبعك الأشراف ولا الرؤساء منا ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن ترو منهم ولا فكر ولا نظر بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك فاتبعوك ولهذا قالوا «ومَا نراك اتبعك إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ» أي في أول باديء الرأي «وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ» يقولون ما رأينا لكم علينا فضيلة في خلق ولا خلق ولا رزق ولا حال لما دخلتم في دينكم هذا «بِلْ نَظَرْنَا إِلَيْكُمْ كَذِيلِنَّ» أي فيما تدعونه لكم من البر والصلاح والعبادة والسعادة في الدار الآخرة إذا صرتم إليها.

هذا اعتراض الكافرين على نوح عليه السلام وأتباعه وهو دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم فإنه ليس بعار على الحق رذالة من اتبעה، فإن الحق في نفسه صحيح سواء اتبעה الأشراف أو الأراذل بل الحق الذي لا شك فيه أن اتباع الحق هم الأشراف ولو كانوا فقراء والذين يأبونه هم الأراذل ولو كانوا أغنياء ثم الواقع غالباً أن ما يتبع الحق ضعفاء الناس، والغالب على الأشراف والكباراء مخالفته كما قال تعالى: «وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتَرْفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءِنَا عَلَىٰ أَمْةً وَإِنَا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ» [الزخرف: ٢٣].

ولما سأله هرقل ملك الروم أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النبي ﷺ قال له فيما قال: أشراف الناس اتبعواه أو ضعفاً بهم. قال: بل ضغفاً بهم، فقال هرقل هم أتباع الرسل، وقولهم «بادِي الرأي» ليس بمذمة ولا عيب لأن الحق إذا وضح لا يبقى للرأي ولا للتفكير مجال بل لا بد من اتباع الحق والحالة هذه لكل ذي زكاء وذكاء بل لا يفكر ه هنا إلا غبي أو عبي، والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين إنما جاؤوا بأمر جلي واضح. وقد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر فإنه

(١) الحاكمة: الخياطون، وحراك الثوب: خاطه.

لم يتلهم» أي ما تردد ولا تروي لأنه رأى أمراً جلياً عظيماً وأضحاها بادر إليه وسارع.

وقوله: «وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ» هم لا يرون ذلك لأنهم عميان عن الحق لا يسمعون ولا يصرون بل هم في ربهم يتزدرون في ظلمات الجهل يعمهون وهم الأفاسن الكاذبون الأقلون الأرذلون وهم في الآخرة هم الأخسرون.

قَالَ يَقُولُ أَرَءَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بِيَنَّتِي مِنْ رَّبِّي وَإِنَّنِي رَحْمَةٌ مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنْلَزْمَكُومُهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ

يقول تعالى مخبراً عما رد به نوح على قومه في ذلك: «أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بِيَنَّتِي مِنْ رَّبِّي» أي على يقين وأمر جلي ونبوة صادقة وهي الرحمة العظيمة من الله به وبهم «فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ» أي خفيت عليكم فلم تهتدوا إليها ولا عرفتم قدرها بل بادرتم إلى تكذيبها وردها «أَنْلَزْمَكُومُهَا» أي نغضبك بقولها وأنتم لها كارهون.

وَيَقُولُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَنِيهِ مَا لَا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ أَمْنَوْا إِنَّهُمْ مُلَدُّوْرَاهُمْ وَلَكِنَّكُفْ قَوْمًا جَهَلُونَ وَيَقُولُ مَنْ يَنْصُرُ فِي مِنَ اللَّهِ إِنَّ طَرَدَهُمْ أَفَلَا نَذَكَرُونَ

يقول لقومه لا أسألكم على نصحي لكم مالاً: أجرة أخذها منكم إنما أبتغي الأجر من الله عز وجل «وَمَا أَنَا بَطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا» كانوا طلبوا منه أن يطرد المؤمنين عنه احتشاماً ونفاسة منهم أن يجلسوا معهم كما سأله مثاليهم خاتم الرسل ﷺ أن يطرد عنهم جماعة من الضعفاء ويجلس معهم مجلساً خاصاً فأنزل الله تعالى: «وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَدَةِ وَالْعَشِيِّ» [الأنعام: ٥٢] الآية وقال تعالى: «وَكَذَلِكَ فَتَنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا لِيَقُولُوا أَهُؤُلَاءِ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْمَانِ اللَّهِ بِأَعْلَمِ بِالشَاكِرِينَ» [الأنعام: ٥٣] الآيات.

وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنَ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلِكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزَدَّرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِهِمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا مَلَمْ أَظَلِّمِيْنَ

يخبرهم أنه رسول من الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له بإذن الله له في ذلك ولا يسألهم على ذلك أجراً بل هو يدعو من شريف ووضيع فمن استجاب له فقد نجا، ويخبرهم أنه لا قدرة له على التصرف في خزانة الله ولا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه وليس هو بملك من الملائكة بل هو بشر مرسل مؤيد بالمعجزات ولا أقول عن هؤلاء الذين تحقرنهم وتزدرونهم إنهم ليس لهم عند الله ثواب على أعمالهم الله أعلم بما في أنفسهم فإن كانوا مؤمنين باطنناً كما هو الظاهر من حالهم فلهم جزاء الحسنة ولو قطع لهم أحد بشر بعد ما آمنوا لكان ظالماً قائلاً ما لا علم له به.

قَالُوا يَسْوُحُ قَدْ جَادَلْنَا فَأَكْثَرَتْ حِدَالَنَا فَأَنْتَا بِمَا تَعْدُنَا إِنْ كُثُرَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْنِيْكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُ بِمَعْجِزِنَ ﴿١٤﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصْحِيْنَ إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغُويْكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن استعجال قوم نوح نفمة الله وعدابه وسخطه، والبلاء موكل بالمنطق. «قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت حidalنا» أي حاججتنا فأكثرت من ذلك ونحن لا تتبعك «فأنـنا بما تعدـنا» أي من النـفـمة والـعـذـاب ادعـ علينا بما شـنتـ فـليـأـنـنا ما تـدعـ به «إنـ كـنـتـ منـ الصـادـقـينـ قالـ إنـماـ يـأـتـيـكـمـ بـهـ اللـهـ إـنـ شـاءـ وـمـاـ أـنـتـ بـمـعـجـزـيـنـ» أي إنـماـ الـذـيـ يـعـاقـبـكـمـ وـيـعـجلـهـ لـكـمـ الـلـهـ الـذـيـ لـاـ يـعـجـزـهـ شـيءـ «وـلـاـ يـنـفـعـكـمـ نـصـحـيـنـ إـنـ أـرـدـتـ أـنـ أـنـصـحـ لـكـمـ إـنـ كـانـ اللـهـ يـرـيدـ أـنـ يـغـوـيـكـمـ» أي أيـ شيءـ يـعـجـدـيـ عـلـيـكـمـ إـبـلـاغـيـ لـكـمـ وـإـنـذـارـيـ إـيـاـكـمـ وـنـصـحـيـنـ «إـنـ كـانـ اللـهـ يـرـيدـ أـنـ يـغـوـيـكـمـ» أي إـغـوـاـكـمـ وـدـمـارـكـمـ «هـوـ رـبـكـمـ وـإـلـيـهـ تـرـجـعـونـ» أيـ هوـ مـالـكـ أـزـمـةـ الـأـمـرـ المتـصـرـفـ الـحـاـكـمـ الـعـادـلـ الـذـيـ لـاـ يـجـورـ،ـ لـهـ الـخـلـقـ وـلـهـ الـأـمـرـ وـهـ الـمـبـدـىـ الـمـعـيـدـ مـالـكـ الدـنـيـاـ وـالـآـخـرـةـ.

أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَهُ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَعَلَى إِجْرَامِيْ وَأَنَا بَرِيْهُ مِمَّا يُحْشِرُمُونَ ﴿١٦﴾

هذا كلام معترض في وسط هذه القصة مؤكـدـ لهاـ.ـ مـقرـرـ لهاـ يـقـولـ تعالىـ لـمـحمدـ:ـ أـمـ يـقـولـ هـؤـلـاءـ الـكـافـرـونـ الـجـاحـدـونـ اـفـتـرـىـ هـذـاـ وـافـتـعـلـهـ مـنـ عـنـهـ «قـلـ إـنـ اـفـتـرـيـتـهـ فـعـلـىـ إـجـرـامـيـ»ـ أيـ فـائـمـ ذـلـكـ عـلـيـ «وـأـنـاـ بـرـيـهـ مـاـ تـجـرـمـونـ»ـ أيـ لـيـسـ ذـلـكـ مـفـتـعـلـاـ وـلـاـ مـفـتـرـىـ لـأـنـيـ أـعـلـمـ مـاـ عـنـ اللـهـ مـنـ العـقوـبـةـ لـمـنـ كـذـبـ عـلـيـهـ.

وَأَوْحَى إِلَى نُوحَ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمَكَ إِلَّا مِنْ قَدَّاءَ أَمَنَ فَلَا يَبْتَسِيْسَ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ وَاصْبَعَ الْفَلَكَ بِأَعْيُنَنَا وَوَحِيْنَا وَلَا تُخَاطِبَنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرِبُونَ ﴿١٨﴾ وَاصْبَعَ الْفَلَكَ وَكَثُرَ مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنَّ سَخِرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْحَرُ مِنْكُمْ كَمَا سَحَرُونَ ﴿١٩﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْلِيهِ عَذَابٌ يُغَزِّيْهِ وَيَحْلِ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٢٠﴾

يخـبرـ تعالىـ أـنـهـ أـوـحـىـ إـلـىـ نـوـحـ لـمـاـ اـسـتـعـجـلـ قـوـمـهـ نـفـمـةـ اللـهـ بـهـ وـعـدـابـهـ لـهـمـ فـدـعـاـ عـلـيـهـمـ نـوـحـ دـعـوـتـهـ التـيـ قـالـ اللـهـ تـعـالـيـ مـخـبـرـاـ عـنـهـ قـالـ:ـ «رـبـ لـاـ تـذـرـ عـلـىـ الـأـرـضـ مـنـ الـكـافـرـينـ دـيـارـاـ»ـ [نـوـحـ:ـ ٢٦ـ]ـ «فـدـعـاـ رـبـهـ أـنـيـ مـغـلـوبـ فـانـتـصـرـ»ـ [الـقـمرـ:ـ ١٠ـ]ـ فـعـنـدـ ذـلـكـ أـوـحـىـ اللـهـ إـلـيـهـ «أـنـهـ لـنـ يـؤـمـنـ مـنـ قـوـمـكـ إـلـاـ مـنـ قـدـ آمـنـ»ـ فـلـاـ تـحـزـنـ عـلـيـهـمـ وـلـاـ يـهـمـنـكـ أـمـرـهـ «وـاصـبـعـ الـفـلـكـ»ـ يـعـنيـ السـفـيـنةـ «بـأـعـيـنـاـ»ـ أيـ بـمـرـأـيـ مـنـاـ «وـوـحـيـنـاـ»ـ أيـ تـعـلـيـمـنـاـ لـكـ مـاـ تـصـنـعـهـ «وـلـاـ تـخـاطـبـنـيـ فـيـ الـذـينـ ظـلـمـوـ إـنـهـمـ مـغـرـبـونـ»ـ فـقـالـ بـعـضـ السـلـفـ:ـ أـمـرـهـ اللـهـ تـعـالـيـ أـنـ يـغـزـ الخـشـبـ وـيـقطـعـهـ وـيـبـسـهـ فـكـانـ ذـلـكـ فـيـ مـائـةـ سـنـةـ وـنـجـرـهـاـ فـيـ مـائـةـ سـنـةـ أـخـرىـ وـقـيلـ فـيـ أـربعـينـ سـنـةـ وـالـلـهـ أـعـلـمـ.ـ وـذـكـرـ مـحـمـدـ بـنـ

إسحاق عن التوراة: أن الله أمره أن يصنعها من خشب الساج وأن يجعل طولها ثمانين ذراعاً وعرضها خمسين ذراعاً وأن يطلي باطنها وظاهرها بالقار وأن يجعل لها جُوْجُواً أَزُوراً^(١) يشق الماء، وقال قاتادة كان طولها ثلاثة ذراع في عرض خمسين وعن الحسن طولها ستمائة ذراع وعرضها ثلاثة وعنه مع ابن عباس طولها ألف ومائتا ذراع في عرض ستمائة وقيل طولها ألفاً ذراع وعرضها مائة ذراع فالله أعلم، قالوا كلامهم وكان ارتفاعها في السماء ثلاثة ثلثاً باباً كل طبقة عشرة ذراع فالسفلى للدواب والوحش والوسطى للإنس والعلياً للطيور وكان بابها في عرضها ولها غطاء من فوقها مطبق عليها.

وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير^(٢) أثراً غريباً من حديث علي بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران عن عبد الله بن عباس أنه قال: قال الحواريون ليعسى ابن مريم: لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينية فحدثنا عنها قال فانطلق بهم حتى انتهى إلى كثيب من تراب فأخذ كفأً من ذلك التراب بكفه فقال أندرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: هذا كعب حام بن نوح. قال فضرب الكثيب بعصاه قال قم بإذن الله فإذا هو قائماً ينفض التراب عن رأسه قد شاب قال له عيسى عليه السلام: أهكذا هلكت؟ قال: لا. ولكنني مت وأنا شاب ولكني ظنت أنها الساعة فمن ثم شبّت، قال حدثنا عن سفينية نوح؟ قال: كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع وكانت ثلاثة طبقات فطبقة فيها الدواب والوحش وطبقة فيها الإنس وطبقة فيها الطير فلما كثر روث الدواب أوحى الله عز وجل إلى نوح عليه السلام أن اغمر ذنب الفيل فغمزه فوقع منه خنزير وختزيرة فأقبلًا على الروث فلما وقع الفار بجوف السفينية يقرضها وحبالها أوحى الله إليه أن اضرب بين عيني الأسد فضرب فخرج من منخره سنور وسنورة فأقبلًا على الفار، فقال له عيسى عليه السلام: كيف علم نوح أن البلاد قد غرقت؟ قال: بعث الغراب يأتيه بالخبر فوجد جيفة فوق عليها فدعا عليه بالخوف فلذلك لا يألف البيوت.

قال: ثم بعث الحمامات فجاءت بورق زيتون بمنقارها وطين برجليها فعلم أن البلاد قد غرقت قال فطرقها الخضراء التي في عنقها ودعا لها أن تكون في أنس وأمان فمن ثم تألف البيوت قال فقلنا يا رسول الله: ألا ننطلق به إلى أهلينا فيجلس معنا ويحدثنا؟ قال: كيف يتبعكم من لا رزق له؟ قال فقال له: عد بإذن الله فعاد تراباً.

وقوله: «ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه» أي يهزؤون به ويذبذبون بما يتوعدهم به من الغرق «قال إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم» الآية وعيد شديد وتهديد أكيد «من يأتيه عذاب يخزيه» أي يهينه في الدنيا «ويحل عليه عذاب مقيم» أي دائم مستمر أبداً.

(١) الجُوْجُوا: الصدر، وأزور: من الزَّور: وهو الميل. كهيئة صدر السفينية.

(٢) تفسير الطبرى ٣٦ / ٧.

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ النُّورُ قُلْنَا أَخْمَلَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَيْنَهُ الْقَوْلُ
وَمَنْ ءَامَنَ وَمَمَّا أَمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿١﴾

هذه موعدة من الله تعالى لنوح عليه السلام إذا جاء أمر الله من الأمطار المتتابعة والهتان^(١) الذي لا يقلع ولا يفتر، بل هو كما قال تعالى: «ففتحنا أبواب السماء بماء من همر وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر وحملناه على ذات ألواح ودرس تجري بأعيننا جزاء من كان كفر» [القمر: ١٤ - ١١] وأما قوله «وفار النور» فعن ابن عباس التور وجه الأرض^(٢)، أي صارت الأرض عيوناً تغور حتى فار الماء من التنانير التي هي مكان النار صارت تغور ماء وهذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف، وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه التور فلق الصبح وتنوير الفجر^(٣)، وهو ضياؤه وإشراقه والأول أظهر وقال مجاهد الشعبي: كان هذا التور بالكوفة، وعن ابن عباس عين بالهند، وعن قتادة عين بالجزيرة يقال لها عين الوردة وهذه أقوال غريبة.

فحينذا أمر الله نوحًا عليه السلام أن يحمل معه في السفينة من كل زوجين اثنين من صنوف المخلوقات ذوات الأرواح، قيل وغيرها من النباتات اثنين ذكرًا وأنثى فقيل كان أول من دخل من الطيور الدرة وأخر من دخل من الحيوانات الحمار فتعلق إبليس بذنبه وجعل يريده أن ينهض فيقتل إبليس وهو متعلق بذنبه فجعل يقول له نوح عليه السلام: ما لك ويهلك ادخل فيه حضر ولا يقدر فقال: ادخل وإن كان إبليس معك فدخلا في السفينة، وذكر بعض السلف أنهم لم يستطعوا أن يحملوا معهم الأسد حتى أقيمت عليه الحمى.

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبد الله بن صالح كاتب الليث حدثني الليث حدثني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «لما حمل نوح في السفينة من كل زوجين اثنين قال أصحابه: وكيف تطمئن المواشي ومعها الأسد؟ فسلط الله عليه الحمى فكانت أول حمى نزلت في الأرض، ثم شكوا الفأر فقالوا: الفويسقة تفسد علينا طعامنا ومتاعنا فأوحى الله إلى الأسد فعطس، فخرجت الهرة منه فتخربت الفأرة منها».

وقوله «وأهلك إلا من سبق عليه القول» أي واحمل فيها أهلك وهم أهل بيته وقرباته إلا من سبق عليه القول منهم ممن لم يؤمن بالله فكان منهم ابنه يام الذي انعزل وحده وامرأة نوح

(١) هنت السماء تهتن هتناً وهتوناً وهتناً وهتهاً وهتهاً: انصبت، أو هو فوق الهطل، أو الضعيف الدائم، أو مطر ساعة ثم يفتر، ثم يعود، وسحب هاتنْ وهتونْ، وكذا هتان، كشداد، وهتن الدمع هتوناً: قطر.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٣٨/٧.

(٣) انظر تفسير الطبرى ٣٩/٧.

وكانَتْ كافِرَةً بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَقَوْلُهُ «وَمَنْ آمَنَ» أي من قومك «وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ» أي نزَر يسِيرٌ مع طول المدة والمقام بين أظهارهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فعن ابن عباس كانوا ثمانين نفساً منهم نساوهم، وعن كعب الأحبار كانوا اثنين وسبعين نفساً. وقيل كانوا عشرة، وقيل إنما كان نوح وبنوه ثلاثة سام وحام ويافث وكناهه^(١) الأربع نساء هؤلاء الثلاثة وامرأة يام، وقيل بل امرأة نوح كانت معهم في السفينة وهذا فيه نظر، بل الظاهر أنها هلكت لأنها كانت على دين قومها فأصابها ما أصابهم كما أصاب قومها، والله أعلم وأحكم.

﴿وَقَالَ أَرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مُجْرِيَهَا وَمُرْسِلَهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحُ أَبْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَتَبَقَّى أَرْكَبَ مَعْنَا وَلَا تَكُونُ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾ قَالَ سَائِرًا إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنْهُ أَمَاءٌ قَالَ لَا عَاصِمٌ لِلَّيْلَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَهَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغَرَّبِينَ ﴿٣﴾

يقول تعالى إخباراً عن نوح عليه السلام أنه قال للذين أمر بحملهم معه في السفينة «اركبوا فيها بسم الله مجرريها ومرساها» أي بسم الله يكون جريها على وجه الماء، وبسم الله يكون منتهي سيرها وهو رسوها، وقرأ أبو رجاء العطاردي «بسم الله مجرريها ومرسيها»^(٢) وقال الله تعالى: «إِنَّمَا أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَلَكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَقُلْ رَبِّ أَنْزَلَنِي مِنْ لَأَمْ بَارِكَأَ وَأَنْتَ خَيْرُ الْمَنْزَلِينَ» [المؤمنون: ٢٨ - ٢٩] ولهذا تستحب التسمية في ابتداء الأمور عند الركوب على السفينة وعلى الدابة كما قال تعالى: «وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفَلَكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ لَتَسْتَوُوا عَلَى ظَهُورِهِ» [الزخرف: ١٢ - ١٤] الآية، وجاءت السنة بالبحث على ذلك والتدبر إليه كما سيأتي في سورة الزخرف إن شاء الله وبه الثقة وقال أبو القاسم الطبراني حدثنا إبراهيم بن هاشم البغوي حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي وحدثنا زكريا بن يحيى الساجي حدثنا محمد بن موسى الحرشي قالا حدثنا عبد الحميد بن الحسن الهلالي عن نهشل بن سعيد عن الضحاك عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «أَمَانٌ أَمْتِي مِنَ الْغَرَقِ إِذَا رَكِبْتُمُ السُّفْنَ أَنْ يَقُولُوا بِسْمِ اللَّهِ الْمَلِكِ» [وَمَا قَدَرُوا اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ] [الأنعام: ٩١] - الآية - «بِسْمِ اللَّهِ مُجْرِيَهَا وَمُرْسِلَهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ» .

وقوله «إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ» مناسب عند ذكر الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين فذكر أنه غفور رحيم كقوله: «إِنْ رَبَكَ لَسريعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ» [الأعراف: ١٦٧] وقال: «وَإِنْ رَبَكَ لِذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنْ رَبَكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ» [الرعد: ٦] إلى غير ذلك من الآيات التي يقرن فيها بين رحمته وانتقامه قوله: «وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ» أي السفينة سائرة بهم على وجه الماء الذي قد طبق جميع الأرض حتى طفت على

(١) الكنان: جمع كَنَّةٍ، وهي امرأة الابن أو الأخ.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٤٤ / ٧.

رؤوس الجبال وارتفع عليها بخمسة عشر ذراعاً وقيل بثمانين ميلاً، وهذه السفينة جارية على وجه الماء سائرة بإذن الله وتحت كتفه وعنائه وحراسته وامتنانه كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لِمَا طَغَىٰ مَاءٌ حَمْلَنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ لَنَجْعَلُهَا لَكُمْ تَذَكِّرَةً وَتَعِيهَا أَذْنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١١ - ١٢] وقال تعالى: ﴿وَحَمْلَنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْوَاحِدِ وَدَسْرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفُورًا وَلَقَدْ تَرَكَنَا هَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مَدْكُرٍ﴾ [القمر: ١٣ - ١٥].

وقوله: ﴿وَنَادَى نُوحَ ابْنَهُ﴾ الآية، هذا هو الابن الرابع واسمه يام وكان كافراً دعاه أبوه عند ركوب السفينة أن يؤمن ويركب معهم ولا يغرق مثل ما يغرق الكافرون ﴿فَلَمْ سَأَوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصُمِنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ وقيل إنه اتخذ له مركباً من زجاج وهذا من الإسرائليليات والله أعلم بصحته، والذي نص عليه القرآن أنه قال: ﴿سَأَوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصُمِنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ اعتقاد بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى رؤوس الجبال، وأنه لو تعلق في رأس جبل لننجاه ذلك من الغرق، فقال له أبوه نوح عليه السلام: ﴿لَا عَاصِمٌ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مِنْ رَحْمَةٍ﴾ أي ليس شيء يعصم اليوم من أمر الله، وقيل إن عاصماً بمعنى معصوم كما يقال طاعم وكاس بمعنى مطعم ومكسو ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرِقِينَ﴾.

وَقِيلَ يَتَأَرْضُ أَبْلَعَى مَاءَكُمْ وَيَنْسَمِئُ أَقْلَعَى وَغَيْضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوْتَ عَلَى الْجَوْدِيِّ وَقِيلَ بُعدَا لِلْفَوْرِ الظَّالِمِينَ

يخبر تعالى أنه لما اغرق أهل الأرض كلهم إلا أصحاب السفينة أمر الأرض أن تبلغ ماءها الذي نبع منها واجتمع عليها، وأمر السماء أن تقلع عن المطر ﴿وَغَيْضَ الْمَاءِ﴾ أي شعر في النقص ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي فرغ من أهل الأرض قاطبة ومن كفر بالله لم يبق منهم ديار ﴿وَأَسْتَوْتَ﴾ السفينة بمن فيها ﴿عَلَى الْجَوْدِيِّ﴾ قال مجاهد: وهو جبل بالجزيرة تسامخت الجبال يومئذ من الغرق وتطاولت وتواضع هو لله عز وجل فلم يغرق وأرسست عليه سفينة نوح عليه السلام^(١) وقال قتادة: استوت عليه شهراً حتى نزلوا منها، قال قتادة: قد أبقى الله سفينة نوح عليه السلام على الجودي من أرض الجزيرة عبرة وآية حتى رأها أوائل هذه الأمة وكم من سفينة قد كانت بعدها فهلكت وصارت رماداً^(٢).

وقال الضحاك: الجودي جبل بالموصل^(٣) وقال بعضهم: هو الطور، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا عمرو بن رافع حدثنا محمد بن عبيد عن توبه بن سالم قال: رأيت زر بن حبيش يصلى في الزاوية حين يدخل من أبواب كندة على يمينك فسألته إنك لكثير الصلاة ه هنا

(١) تفسير الطبرى ٤٨/٧.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٤٨/٧.

(٣) انظر تفسير الطبرى ٤٨/٧.

يوم الجمعة قال بلغني أن سفينه نوح أرست من هنها . وقال علياء بن أحمر عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان مع نوح في السفينة ثمانون رجلاً معهم أهلوهم وإنهم كانوا فيها مائة وخمسين يوماً وإن الله وجه السفينة إلى مكة فطافت بالبيت أربعين يوماً ثم وجهها الله إلى الجودي فاستقرت عليه بعث نوح الغراب ليأتيه بخبر الأرض فذهب فوق على الجيف فأبطأ عليه بعث الحمامه فأته بورق الزيتون فلطفخت رجليها بالطين فعرف نوح عليه السلام أن الماء قد نصب فهبط إلى أسفل الجودي فابتني قرية ، وسمها ثمانين فأصبحوا ذات يوم وقد تبلبت ألسنتهم على ثمانين لغة إحدها اللسان العربي ، فكان بعضهم لا يفقه كلام بعض فكان نوح عليه السلام يعبر عنهم .

وقال كعب الأحبار : إن السفينة طافت ما بين المشرق والمغرب قبل أن تستقر على الجودي ، وقال قتادة وغيره : ركبوا في عاشر شهر رجب فساروا مائة وخمسين يوماً واستقرت بهم على الجودي شهراً وكان خروجهم من السفينة في يوم عاشوراء من المحرم ، وقد ورد نحو هذا في حديث مرفوع رواه ابن جرير^(١) وأنهم صاموا يومهم ذلك والله أعلم .

وقال الإمام أحمد^(٢) حدثنا أبو جعفر حدثنا عبد الصمد بن حبيب الأزدي عن أبيه حبيب بن عبد الله عن شبل عن أبي هريرة قال : مر النبي ﷺ بناس من اليهود وقد صاموا يوم عاشوراء فقال «ما هذا الصوم ؟ قالوا هذا اليوم الذي نجى الله به موسى وبني إسرائيل من الغرق وغرق فيه فرعون وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودي فصام نوح وموسى عليهما السلام شكرأ الله عز وجل . فقال النبي ﷺ : «أنا أحق بموسى وأحق بصوم هذا اليوم» فصام وقال لأصحابه : «من كان أصبع منكم صائمًا فليتم صومه ، ومن كان أصاب من غذاء أهله فليتم بقية يومه»^(٣) وهذا حديث غريب من هذا الوجه ولبعضه شاهد في الصحيح ، وقوله : «وقيل بعداً للقوم الظالمين» أي هلاكاً وخساراً لهم وبعداً من رحمة الله فإنهم قد هلكوا عن آخرهم فلم يبق لهم بقية .

وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير^(٤) والحربر أبو محمد بن أبي حاتم في تفسيريهما من حديث موسى بن يعقوب الزمعي عن فائد مولى عبيد الله بن أبي رافع أن إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي ربيعة أخبره أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته أن النبي ﷺ قال : «لو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم أم الصبي» قال رسول الله ﷺ : «كان نوح عليه السلام مكت في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يعني وغرس مائة سنة الشجر فعظمت وذهب كل مذهب ثم

(١) تفسير الطبرى ٤٨/٧ ، ٤٩.

(٢) المسند ٢/٣٥٩ ، ٣٦٠.

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة ١٠ ، باب ١ ، ومسلم في الصيام حديث ١٢٦ .

(٤) تفسير الطبرى ٤٨/٧ ، ٤٩.

قطعها ثم جعلها سفينة ويمررون عليه ويسخرون منه ويقولون تعمل سفينه في البر فكيف تجري؟ قال سوف تعلمون فلما فرغ ونبع الماء وصار في السكك خشيت أم الصبي عليه وكانت تحبه جداً فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثه فلما بلغها الماء ارتفعت حتى بلغت ثلثه فلما بلغها الماء خرجت به حتى استوت على الجبل فلما بلغ الماء رقتها رفعته بيديها ففرقها، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أم الصبي» وهذا حديث غريب من هذا الوجه، وقد روي عن كعب الأحبار ومجاهد بن جبیر قصة هذا الصبي وأمه بنحو من هذا.

وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّي إِنَّ أَبِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿١﴾ قَالَ يَسْنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلَ عَيْرَ صَالِحٍ فَلَا تَسْعَلْنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ أَعْظَمَهُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٢﴾ قَالَ رَبِّي إِنَّى أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَتَشَكَّكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَلَا تَقْفِرْ لِي وَتَرْحَبْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣﴾

هذا سؤال استعلام وكشف من نوح عليه السلام عن حال ولده الذي غرق «قال رب إن ابني من أهلي» أي وقد وعدتني بنجاة أهلي ووعدك الحق الذي لا يخالف فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين «قال يا نوح إنه ليس من أهلك» أي الذين وعدت إنجاءهم لأنني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك، ولهذا قال: «وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم» فكان هذا الولد من سبق عليه القول بالغرق لکفره ومخالفته أباه نبی الله نوح عليه السلام.

وقد نص غير واحد من الأئمة على تخطئة من ذهب في تفسير هذا إلى أنه ليس بابنه وإنما كان ابن زنية، ويحکى القول بأنه ليس بابنه وإنما كان ابن امرأته عن مجاهد والحسن وعيید بن عمیر وأبی جعفر الباقر وابن جریر، واحتج بعضهم بقوله: «إن، عمل غير صالح» وبقوله: «فخانتهما» فمن قاله الحسن البصري احتاج بهاتين الآيتين وبعضهم يقول ابن امرأته وهذا يتحمل أن يكون أراد ما أراد الحسن أو أراد أنه نسب إليه مجازاً لكونه كان ربیاً عنده فالله أعلم. وقال ابن عباس وغير واحد من السلف: ما زنت امرأة نبی قط قال: وقوله: «إنه ليس من أهلك» أي الذين وعدتك نجاتهم.

وقول ابن عباس في هذا هو الحق الذي لا محيد عنه فإن الله سبحانه أغير من أن يمكن امرأة النبي من الفاحشة ولهذا غضب الله على الذين رموا أم المؤمنين عائشة بنت الصديق زوج النبي ﷺ وأنكر على المؤمنين الذين تكلموا بها وأشاعوه ولهذا قال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْلَكَ عَصَبَةً مِنْكُمْ لَا تَحْسِبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لَكُلُّ امْرَءٍ مِنْهُمْ مَا اكتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوْلَى كَبِيرٌ مِنْهُمْ لِهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ» - إلى قوله - «إِذْ تَلْقَوْهُ بِالْسَّنَنِ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسِبُوهُنَّ هَيْنَا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ» [النور: ١١ - ١٥].

وقال عبد الرزاق أخبرنا معاشر عن قتادة وغيره عن عكرمة عن ابن عباس قال: هو ابنته غير أنه خالفه في العمل والنية قال عكرمة في بعض الحروف إنه عمل عملاً غير صالح، والخيانة

تكون على غير باب ، وقد ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ قد قرأ بذلك فقال الإمام أحمد^(١) حدثنا يزيد بن هارون حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول **«إنه عمل غير صالح»** وسمعته يقول: **«يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقطعوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً»** ولا يبالي **«إنه هو الغفور الرحيم»** وقال أحمد^(٢) أيضاً حدثنا وكيع حدثنا هارون التحوي عن ثابت البناي عن شهر بن حوشب عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قد قرأها **«إنه عمل غير صالح»** أعاده أحمد^(٣) أيضاً في مسنده .

أم سلمة هي أم المؤمنين والظاهر والله أعلم أنها أسماء بنت يزيد فإنها تكفي بذلك أيضاً^(٤) .
 وقال عبد الرزاق أيضاً أباينا الثوري عن ابن عيينة عن موسى بن أبي عائشة عن سليمان بن قبة قال سمعت ابن عباس سئل وهو إلى جنب الكعبة عن قول الله: **«فخاتاهما»** قال: أما إنه لم يكن بالزنا ولكن كانت هذه تخبر الناس أنه مجنون ، وكانت هذه تدل على الأضياف ثم قرأ **«إنه عمل غير صالح»** قال ابن عيينة وأخبرني عماد الذهني أنه سأله سعيد بن جبير عن ذلك فقال: كان ابن نوح إن الله لا يكذب . قال تعالى: **«وَنَادَى نُوحَ ابْنَهُ** قال وقال بعض العلماء: ما فجرت امرأة نبي قط . وكذا روى عن مجاهد أيضاً وعكرمة والضحاك وميمون بن مهران وثابت بن الحجاج وهو اختيار أبي جعفر بن جرير وهو الصواب الذي لا شك فيه .

قِيلَ يَنْجُ أَهْيَطْ بِسَلَمٍ مَّنَا وَبَرَكَتٌ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمِّكَ مَمَّنْ مَعَكَ وَأُمُّمٌ سَنَمَتُهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمْ مَّنَا عَذَابٌ أَلِيمٌ

يخبر تعالى عما قيل لنوح عليه السلام حين أرست السفينة على الجودي من السلام عليه وعلى من معه من المؤمنين وعلى كل مؤمن من ذريته إلى يوم القيمة كما قال محمد بن كعب: دخل في هذا السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيمة وكذلك في العذاب والمتابع كل كافر وكافرة إلى يوم القيمة^(٥) .

وقال محمد بن إسحاق: لما أراد الله أن يكشف الطوفان أرسل ريحًا على وجه الأرض فسكن الماء وانسدت ينابيع الأرض الغمر الأكبر وأبواب السماء يقول الله تعالى: **«وَقَيلَ يَا أَرْضَ ابْلُعِي مَاءَكَ** الآية فجعل الماء ينقص ويغيب ويدبر وكان استواء الفلك على الجودي

(١) المسند ٤٥٤/٦.

(٢) المسند ٦/٢٩٤.

(٣) المسند ٦/٣٢٢.

(٤) انظر تفسير الطبرى ٧/٥٣.

(٥) انظر تفسير الطبرى ٧/٥٥.

فيما يزعم أهل التوراة في الشهر السابع لسبعين عشرة ليلة مضت منه في أول يوم من الشهر العاشر رأى رؤوس الجبال فلما مضى بعد ذلك أربعون يوماً فتح نوح كوة الفلك التي ركب فيها ثم أرسل الغراب لينظر له ما صنع الماء فلم يرجع إليه فأرسل الحمامه فرجعت إليه لم تجد لرجليها موضعًا فبسط يده للحمامه فأخذها فأدخلها ثم مضى سبعة أيام ثم أرسلها لتنظر له فرجعت حين أمست وفي فيها ورق زيتون فعلم نوح أن الماء قد قل عن وجه الأرض ثم مكث سبعة أيام ثم أرسلها فلم ترجع فعلم نوح أن الأرض قد بربت فلما كملت السنة فيما بين أن أرسل الله الطوفان إلى أن أرسل نوح الحمامه ودخل يوم واحد من الشهر الأول من سنة اثنين برز وجه الأرض وظهر البر وكشف نوح غطاء الفلك وفي الشهر الثاني من سنة اثنين في ست وعشرين ليلة منه **﴿قَيلَ يَا نُوحَ اهْبِطْ بِسْلَامٍ مَّنَا﴾**^(١) الآية.

تَلَكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ تُوَجِّهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ
لِلْمُنْتَقِيْكَ

يقول تعالى لنبيه ﷺ هذه القصة وأشباهها: **«من أنباء الغيب»** يعني من أخبار الغيوب السالفة نوحها إليك على وجهها كأنك شاهدتها نوحها إليك أي تعلمك بها وحياناً منا إليك **«ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا»** أي لم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علم بها حتى يقول من يكذبك إنك تعلمتها منه بل أخبرك الله بها مطابقة لما كان عليه الأمر الصحيح كما تشهد به كتب الأنبياء قبلك فاصبر على تكذيب من كذبك من قومك وأذاهم لك فإذا ستنصرك ونحو طلك بعنایتنا ونجعل العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة كما فعلنا بالمرسلين حيث نصرناهم على أعدائهم **«إِنَّا لِنَنْصُرُ رَسُولَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾** [غافر: ٥١] الآية وقال تعالى: **«وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلْمَتَنَا لِعَبَادَنَا الْمَرْسُلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾** [الصفات: ١٧١ - ١٧٢] الآية وقال تعالى: **«فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُنْتَقِيْكَ**

وَإِنَّ عَادَ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُوْرُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنَّ أَنْشَمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ
يَنْقُوْرُ لَا أَسْفَلُكُمْ عَيْنَهُ أَجْرًا إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ
رَبُّكُمْ ثُمَّ تُوَبُّوْنَا إِلَيْهِ يُرْسِلُ أَسْسَمَةً عَيْنَكُمْ مَدْرَارًا وَيَرِدُكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تُنَوَّلُوْنَا
مجرمون

يقول تعالى **«وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْ عَادَ أَخَاهُمْ هُودًا﴾** أمرًا لهم بعبادة الله وحده لا شريك له ناهياً لهم عن الأوثان التي افتروها واختلقوا لها أسماء الآلهة وأخبرهم أنه لا يريد منهم أجراً على هذا النصح والبلاغ من الله إنما يبغى ثوابه من الله الذي فطره أفلأ تعقلون من يدعوكم إلى

(١) انظر تفسير الطبرى ٧.

ما يصلحكم في الدنيا والآخرة من غير أجرة ثم أمرهم بالاستغفار الذي فيه تكبير الذنوب السالفة وبالتوبه عما يستقبلون ، ومن اتصف بهذه الصفة يسر الله عليه رزقه وسهل عليه أمره وحفظ شأنه ولهذا قال : **﴿يَرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مَدْرَارًا﴾** [هود: ٥٢] ونوح : ١١] وفي الحديث «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب»^(١) .

قَالُوا يَدْهُودُ مَا جِئْنَا بِبَيْنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِهِ إِلَهَنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ إِنْ تَقُولُ إِلَّا أَعْتَرَنَكَ بَعْضُ إِلَهَنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أَشْهِدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَشَرِّكُونَ إِنْ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ إِنِّي تَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ أَخْذَدُ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صَرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

يخبر تعالى أنهم قالوا لنبيلهم **﴿مَا جِئْنَا بِبَيْنَةٍ﴾** أي بحجة ويرهان على ما تدعوه **﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِهِ إِلَهَنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾** أي بمجرد قولك اتركوههم نتركهم **﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾** بمصدقين **﴿إِنْ تَقُولُ إِلَّا أَعْتَرَنَكَ بَعْضُ إِلَهَنَا بِسُوءٍ﴾** يقولون : ما نظن إلا أن بعض الآلهة أصابك بجنون وخبيل في عقلك بسبب نهيك عن عبادتها وعيك لها **﴿فَالَّذِي أَشْهَدَ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَشَرِّكُونَ مِنْ دُونِهِ﴾** يقول : إنني بريء من جميع الأنداد والأصنام **﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾** أي أنتم والله تکرم إن كانت حقاً **﴿ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ﴾** أي طرفة عين قوله : **﴿إِنِّي تَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ أَخْذَدُ بِنَاصِيَتِهَا﴾** أي تحت قهره وسلطانه وهو الحاكم العادل الذي لا يجور في حكمه فإنه على صراط مستقيم .

قال الوليد بن مسلم عن صفوان بن عمرو عن أبيفع بن عبد الكلاعي أنه قال في قوله تعالى :

﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ أَخْذَدُ بِنَاصِيَتِهَا إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَصْرِيفُهُ عَلَى صَرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ قال : فإذا أخذ بنواصي عباده فيلقن المؤمن حتى يكون له أشدق من الوالد لوالده ويقول : **﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمَ﴾** وقد ضمن هذا المقام حجة بالغة ودلالة قاطعة على صدق ما جاءهم به وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر بل هي جماد لا تسمع ولا تبصر ولا تواли ولا تعادي وإنما يستحق إخلاص العبادة الله وحده لا شريك له الذي بيده الملك وله التصرف وما من شيء إلا تحت ملكه وقهره وسلطانه فلا إله إلا هو ولا رب سواه .

فَإِنْ تَوَلُّوْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَسَتَحْلِفُ رَبِّي قَوْمًا عَيْرَكُفَّ وَلَا تَضْرُونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِظٌ وَلَمَّا جَاءَهُمْ أَنْتَمَا بَيْتَنَا هُودًا وَالَّذِينَ أَمَنُوا مَعَهُ إِرْحَمَةٌ مَنَا وَنَحْيَتُهُمْ مَنْ عَذَابٌ غَلِظٌ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِعِيَاتِنَ رَبِّهِمْ وَعَصَوْرَسْلَهُ وَاتَّبَعُوا أَنْزَلَ كُلَّ جَيَارٍ عَنِيدٍ وَأَتَيْعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَبِوَمِ الْقِيمَةِ أَلَا إِنْ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بَعْدًا لِعَادٍ قَوْمٌ هُودٌ

(١) أخرجه أبو داود في الوتر باب ٢٦ ، وابن ماجه في الأدب باب ٥٧ ، وأحمد في المسند ١/٤٨ .

يقول لهم هود: فإن تولوا عما جنتكم به من عبادة الله ربكم وحده لا شريك له فقد قامت عليكم الحجة بإبلاغي إياكم رسالة الله التي بعثني بها «ويستخلف ربى قوماً غيركم» يعبدونه وحده لا يشركون به ولا يبالي بكم فإنكم لا تصررونه بکفركم بل يعود وبال ذلك عليكم «إن ربى على كل شيء حفيظ» أي شاهد وحافظ لأقوال عباده وأفعالهم ويجزيهم عليها إن خيراً فخير وإن شرًا فشر «ولما جاء أمرنا» وهو الريح العقيم فأهلكهم الله عن آخرهم ونجى هوداً وأتباعه من عذاب غليظ برحمته تعالى ولطفه.

﴿وَتُلِكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ كفروا بها وعصوا رسول الله وذلك أن من كفر بنبي فقد كفر بجميع الأنبياء لأنه لا فرق بين أحد منهم في وجوب الإيمان به فعاد كفروا بهؤلء فنزل كفرهم منزلة من كفر بجميع الرسول «واتبعوا أمر كل جبار عنيد» تركوا اتباع رسولهم الرشيد؟ واتبعوا أمر كل جبار عنيد، فلهذا أتبعوا في الدنيا لعنة من الله ومن عباده المؤمنين كلما ذكروا وينادي عليهم يوم القيمة على رؤوس الأشهاد «أَلَا إِنْ عَادًا كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ» الآية قال السدي: ما بعث النبي بعد عاد إلا لعنوا على لسانه.

﴿وَإِنْ تَمُودُ أَخَاهُمْ صَالِحًا يَقُولُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا كُنْتُ مِنْ إِلَهٍ عِنْدِهِ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرْتُكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُهُ تَمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّيَ قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾

يقول تعالى: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ» وهم الذين كانوا يسكنون مدائن الحجر بين تبوك والمدينة وكانوا بعد عاد فبعث الله منهم «أَخَاهُمْ صَالِحًا» فامرهم بعبادة الله وحده وللهذا قال: «هو أنشأكم من الأرض» أي ابتدأ خلقكم منها خلق منها آباكم آدم «وَاسْتَعْمَرْتُكُمْ فِيهَا» أي جعلكم عمارة تعمرونها وتستغلونها «فَاسْتَغْفِرُهُ» لسالف ذنبكم «ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ» فيما تستقبلونه «إِنْ رَبِّيَ قَرِيبٌ مُجِيبٌ» كما قال تعالى: «وَإِذَا سَأَلْتُ عَبْدِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أَجِيبٌ دُعْوَةُ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ» [البرة: ١٨٦] الآية.

قالوا يَصْدِلُحُ قَدْ كُنْتَ فِيْنَا مَرْجُوا قَبْلَ هَذَا أَنْتَهَنَا أَنْ تَعْبُدُ مَا يَعْبُدُ إِبْرَاهِيْمَ وَإِنَّا لَنَفِيْ شَكْ مَمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿١﴾ قَالَ يَنْقُوْمُ أَرْهَبْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنَهُ مِنْ رَبِّيْ وَإِنَّنِي مِنْهُ رَحْمَةٌ فَمَنْ يَصْرُفُنِي مِنْ أَنَّهُ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَرْبِيْدُونِي غَيْرَ تَحْسِيْرٍ ﴿٢﴾

يذكر تعالى ما كان من الكلام بين صالح عليه السلام وبين قومه وما كان من الجهل والعناد في قولهم «قد كنت فيينا مرجواً قبل هذا» أي كنا نرجوك في عقلك قبل أن تقول ما قلت «أنهانا أن نعبد ما يعبد آباءنا» وما كان عليه أسلافنا «وإنتا لافي شك مما تدعونا إليه مريب» أي شك كثير «قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بيته من ربى» فيما أرسلني به إليكم على يقين وبرهان «وأنتا منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته» وتركت دعوتكم إلى الحق

وعبادة الله وحده، فلو تركته لما نعمتوني ولما زدتمني **﴿غَيْرِ تَخْسِيرٍ﴾** أي خسارة.

وَيَنْقُولُهُ هَذِهِ نَافَةُ اللَّهِ لَكُمْ إِيمَانُهَا فَذَرُوهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا سُوءً فَإِنَّهُمْ عَذَابٌ فَرِيقٌ فَعَرَفُوهَا فَقَالَ تَمَسَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بَنَجَّشْنَا صَلَحًا وَالَّذِينَ إِمَانُوا مَعْلُومٌ بِرَحْمَةٍ مِنْكُمْ وَمَنْ حَزَّبَ يَوْمَئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ وَأَخْذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصِّيَحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَاهِدِينَ كَانَ لَمْ يَعْنُوا فِيهَا أَلَا إِنَّ شَهُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بُعْدًا لَشَمُودٍ

تقدّم الكلام على هذه القصة مستوفى في سورة الأعراف بما أغني عن إعادةه هنا وبالله التوفيق.

ولقد جاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَّمُ فَمَا لَيْثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ فَلَمَّا رَأَهَا أَيْدِيهِمْ لَا تَصْلُ إِلَيْهِمْ نَكْرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ فَوْرَمْ لُوطٍ وَأَمْرَأَهُمْ قَائِمَةً فَضَحِكَتْ فِي شَرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ قَالَتْ يَكُونُ لَقَاءُهُمْ أَلِدُهُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِيٌّ شَيْخًا إِنَّ هَذَا الشَّقْعُ عَجِيبٌ قَالُوا أَتَعْجَبُونَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَتُهُمْ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّمَا حَمِيدٌ مَحِيدٌ

يقول تعالى: «ولقد جاءت رسالتنا» وهم الملائكة إبراهيم بالبشرى قيل تبشره بإسحاق وقيل بهلاك قوم لوط ويشهد للأول قوله تعالى: «فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرُّوْحُ وَجَاءَتِهِ الْبُشْرَى يَجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لَوْطٍ» [هود: ٧٤] «قَالُوا سَلَّمًا قَالَ سلامًا» أي عليكم قال علماء البيان: هذا أحسن مما حيوه به لأن الرفع يدل على الشبوت والدואم «فَمَا لَيْثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ» أي ذهب سريعاً فأناهم بالضيافة وهو عجل فتي البقر، حنيد: مشوي على الرضف وهي الحجارة المحمامة. هذا معنى ما روى عن ابن عباس وقتادة وغير واحد كما قال في الآية الأخرى «فِرَاغٌ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينَ فَقَرِبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ» [الذاريات: ٢٦ - ٢٧] وقد تضمنت هذه الآية آداب الضيافة من وجوه كثيرة.

وقوله: «فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيهِمْ لَا تَصْلُ إِلَيْهِمْ نَكْرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً» وذلك أن الملائكة لا همة لهم إلى الطعام ولا يشهونه ولا يأكلونه فلهذا رأى حالهم معرضين عمما جاءهم به فارغين عنه بالكلية فعند ذلك نكرهم «وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً».

قال السدي: لما بعث الله الملائكة لقوم لوط أقبلت تمشي في صور رجال شبان حتى نزلوا على إبراهيم فتضييفوه، فلما رأهم أجلهم «فِرَاغٌ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينَ» فذبحه ثم شواه في الرضف وأناهم به فقد معهم وقامت سارة تخدمهم فذلك حين يقول - وامرأته قائمة وهو جالس - في قراءة ابن مسعود «فَلَمَّا فَقَرِبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ» قالوا: يا إبراهيم إنا لا نأكل طعاماً إلا بشمن، قال فإن لهذا ثمناً، قالوا: وما ثمنه؟ قال تذكرون اسم الله على أوله

وتحمدونه على آخره فنظر جبريل إلى ميكائيل فقال حق لهذا أن يتخدنه ربه خليلاً «فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم» يقول فلما رأهم لا يأكلون فزع منهم وأوجس منهم خيفة، فلما نظرت سارة أنه قد أكرمهم وقامت هي تخدمهم فضحت وقالت: عجباً لأضيفنا هؤلاء نخدمهم بأنفسنا كرامة لهم وهم لا يأكلون طعامنا^(١).

وقال ابن حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا نصر بن علي حدثنا نوح بن قيس عن عثمان بن محسن في ضيف إبراهيم قال كانوا أربعة: جبريل وميكائيل وإسرافيل ورافائيل. قال نوح بن قيس فزعم نوح بن أبي شداد أنهم لما دخلوا على إبراهيم فقرب إليهم العجل مسحه جبريل بجناحه فقام يدرج حتى لحق بأمه وأم العجل في الدار، وقوله تعالى إخباراً عن الملائكة: «قالوا لا تخف» أي قالوا لا تخف منا إنا ملائكة أرسلنا إلى قوم لوط لنبهلكم، فضحت سارة استبشراراً بهلاكم لكثرة فسادهم وغلوط كفرهم فلهذا جوزيت. بالبشارة بالولد بعد الإياس، وقال قتادة فضحت وعجبت أن قوماً يأتיהם العذاب وهم في غفلة^(٢).

وقوله: «ومن وراء إسحاق يعقوب» قال العوفي عن ابن عباس فضحت أي حاضر، وقول محمد بن قيس: إنها إنما فضحت من أنها ظنت أنهم يريدون أن يعملوا كما يعمل قوم لوط. وقول الكلبي: إنها إنما فضحت لما رأت من الرؤوف بإبراهيم ضعيفان ووجداً وإن كان ابن جرير قد رواهما بسندهما فلا يلتفت إلى ذلك والله أعلم.

وقال وهب بن منبه: إنما فضحت لما بشرت بإسحاق وهذا مخالف لهذا السياق فإن البشارة صريحة مرتبة على فضحتها «فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب» أي بولد لها يكون له ولد وعقب ونسل فإن يعقوب ولد إسحاق كما قال في آية البقرة «أم كنت شهداً إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسحاق إلهًا واحدًا ونحن له مسلمون» [البقرة: ١٣٣].

ومن هنا استدل من استدل بهذه الآية على أن الذبيح إنما هو إسماعيل، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق لأن وقعت البشارة به وأنه سيولد له يعقوب فكيف يؤمن إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده ووعد الله حق لا خلف فيه فيمتنع أن يؤمن بذبح هذا والحالة هذه، فتعين أن يكون إسماعيل وهذا من أحسن الاستدلال وأصحه وأبينه والله الحمد «قالت يا ويلتني أللّه وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً» الآية حكى قولها في هذه الآية كما حكى فعلها في الآية الأخرى فإنها «قالت يا ويلتني أللّه وأنا عجوز» وفي الذاريات «فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم» [الذاريات: ٢٩] كما جرت به

(١) انظر تفسير الطبرى ٧٠، ٧١.

(٢) تفسير الطبرى ٧١، ٧٢.

عادة النساء في أتوالهن وأفعالهن عند التعجب «قالوا أتعجبين من أمر الله» أي قالت الملائكة لها لا تعجبني من أمر الله فإنه إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون. فلا تعجبني من هذا وإن كنت عجوزاً عقيماً وبعلك شيخاً كبيراً فإن الله على ما يشاء قادر .

﴿رَحْمَةُ اللَّهِ وَبِرُّ كَاتِهِ عَلَيْكُمْ أَهْلُ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ أي هو الحميد في جميع أفعاله وأقواله محمود ممجد في صفاته وذاته، ولهذا ثبت في الصحيحين أنهم قالوا: قد علمنا السلام عليك فكيف الصلاة عليك يا رسول الله؟ «قال قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجید»^(۱).

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرُّؤْعَ وَجَاءَهُ الْبَشَرُ يُهَاجِدُهُ فِي قَوْمٍ لَوْطٍ ﴿٦٧﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيلٌ أَوَهُ مُنْسَبٌ
يَكْتُبُهُمْ أَغْرِضُ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَهُ أَنْشَرَ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ مَا تَهْمَمُ عَدَابُهُمْ عَبَرَ مَرَدُونَ ﴿٦٨﴾

يُخبر تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه لما ذهب عنه الرُّوح وهو ما أوجس من الملائكة خيفة حين لم يأكلوا ويشروه بعد ذلك بالولد وأخبروه بهلاك قوم لوط أخذ يقول كما قال سعيد بن جبير في الآية قال: لما جاءه جبريل ومن معه قالوا له: «إنا مهلكو أهل هذه القرية» قال لهم: أتلهلكون قرية فيها ثلاثة مؤمن؟ قالوا: لا، قال: أفتهلكون قرية فيها مائتاً مؤمن؟ قالوا: لا، قال أفتهلكون قرية فيها أربعون مؤمناً؟ قالوا: لا، قال ثلاثة؟ قالوا: لا، حتى بلغ خمسة قالوا: لا، قال: أرأيتم إن كان فيها رجل مسلم واحد أتلهلكونها؟ قالوا: لا، فقال إبراهيم عليه السلام عند ذلك: «إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجيه وأهله إلا امرأته» [العنكبوت: ٣٢ الآية]. فسكت عنهم واطمأنت نفسه^(٢).

وقال قنادة وغيره قريباً من هذا زاد ابن إسحاق أفرأيتم إن كان فيها مؤمن واحد؟ قالوا: لا، قال: فإن كان فيها لوط يدفع به عنهم العذاب قالوا: «نحن أعلم بمن فيها» [العنكبوت: ٣٢] الآية، قوله: «إن إبراهيم لحليم أواء منيب» مدح لإبراهيم بهذه الصفات الجميلة، وقد تقدم تفسيرها، قوله تعالى: «يا إبراهيم أخرض عن هذا آلة تدح حاماً أمر ربك» الآية، أي أنه قد نفذ فيهم القضاء وحقت عليهم الكلمة بالهلاك وحلول البأس الذي لا يرد عن القوم المجرمين.

وَلَمَّا جَاءَتْ وُسْكَانُ طَرِيقَةٍ وَضَلَالَةٍ وَهُمْ كُلُّ أَنْوَافِ الْمُجْرِمِينَ لَيْلًا يَوْمَ عَصَبَيْتَهُمْ وَلَيْلًا يَوْمَ قُوْمُهُمْ هُمْ مُهْرَبُونَ إِلَيْهِ
وَمِنْ قُتْلَهُمْ كَوْنُوا يَعْسُونَ الْمُسْتَكَاثِرَاتِ قَالَ رَجُلُ دَفْنَوْرِ هَذِهِ الْأَرْضُ شَيْءٌ أَطْهَرُ لِكُمْ فَأَدْفَنُوا اللَّهُ وَلَا يَهُورُونَ فِي
صَفَرَتِهِمْ أَنْتَرُهُمْ مَدْحُونُونَ حَسْنَاءً كَمَا أَنَّهُمْ هَذِهِ الْأَرْضَ كَمَا أَنَّهُمْ كَانُوكُمْ مَعْنَى حَقِيقَةَ مَا تَرَكُونَ

(١) أخرجه البخاري في الأنساء باب ١٠، ومسلم في الصلاة حديث ٦٥، ٦٦، ٦٩.

^(٢) انظر تفسير الطبرى ٧٧/٧

يُخبر تعالى عن قدوم رسله من الملائكة بعد ما أعلموا إبراهيم بهلاكهم وفارقوه وأخبوه بإهلاك الله قوم لوط هذه الليلة فانطلقا من عنده فأتوا لوطاً عليه السلام وهو على ما قيل في أرض له وقيل في منزله ووردوا عليه وهم في أجمل صورة تكون على هيئة شبان حسان الوجوه ابتلاء من الله وله الحكمة والمحجة البالغة فسأله شأنهم وضاقت نفسه بسيبهم وخشي إن لم يضيقهم أن يضيقهم أحد من قومه فينالهم بسوء **﴿وقال هذا يوم عصيّ﴾** قال ابن عباس وغير واحد: شديد بلاؤه^(١) وذلك أنه علم أنه سيدافع عنهم ويشق عليه ذلك.

وذكر قتادة أنهم أتوا وهو في أرض له فتضيقوا فاستحيا منهم فانطلق أمامهم وقال لهم في أثناء الطريق كالمعرض لهم بأن ينصرفوا عنه: إنه والله يا هؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أثبت من هؤلاء. ثم مشى قليلاً ثم أعاد ذلك عليهم حتى كرره أربع مرات، قال قتادة وقد كانوا أمروا أن لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك^(٢).

وقال السدي خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط فبلغوا نهر سدوم نصف النهار ولقوا بنت لوط تستقي فقالوا يا جارية هل من منزل؟ فقالت مكانكم حتى آتكم وفرقت^(٣) عليهم من قومها فأتت أباها فقالت يا أباها أدرك فتیاناً على باب المدينة ما رأيت وجوه قوم أحسن منهم لا يأخذهم قومك وكان قومه نهوه أن يضيق رجالاً فقالوا خل عننا فلنضيف الرجال فجاء بهم فلم يعلم بهم أحد إلا أهل بيته فخرجت امرأته فأخبرت قومها فجاؤوا يهرون عن إلية^(٤).

وقوله: **﴿يَهْرُونَ إِلَيْهِ﴾** أي يسرعون وبهروتون من فرجمهم بذلك قوله: **﴿وَمَنْ قَبْلَ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾** أي لم يزل هذا من سجيتهم حتى أخذوا وهم على ذلك الحال قوله: **﴿قَالَ يَا قَوْمَ هُؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾** يرشدهم إلى نسائهم فإن النبي للأمة بمنزلة الوالد فأرشدهم إلى ما هو أفعى لهم في الدنيا والآخرة كما قال لهم في الآية الأخرى: **﴿أَتَأْتُونَ الذِّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خُلِقَ لَكُمْ رِبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾** [الشعراء: ١٦٥ - ١٦٦] قوله في الآية الأخرى: **﴿قَالُوا أَوْ لَمْ نَهْكُ عنِ الْعَالَمِينَ﴾** أي ألم ننهك عن ضيافة الرجال **﴿قَالَ هُؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعْلَمُ لِعُمْرِكُمْ لِفِي سُكُرَتِهِمْ بِعَمَهُونَ﴾** [الحجر: ٧١ - ٧٢] وقال في هذه الآية الكريمة: **﴿هُؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾** قال مجاهد لم يكن بناته ولكن كمن أمهه وكل نبي أبو أمه^(٥) وكذا روي عن قتادة وغير واحد.

(١) انظر تفسير الطبرى ٧/٨١.

(٢) تفسير الطبرى ٧/٨٠.

(٣) فرقت عليهم: أي خافت عليهم.

(٤) تفسير الطبرى ٧/٨٠.

(٥) تفسير الطبرى ٧/٨٢.

وقال ابن جريج: أمرهم أن يتزوجوا النساء ولم يعرض عليهم سفاحا^(١), وقال سعيد بن جبير: يعني نساءهم هن بناته وهو أب لهم ويقال في بعض القراءات «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجهم وأمهاتهم وهو أب لهم» [الأحزاب: ٦] وكذا روي عن الربيع بن أنس وفتادة والستي ومحمد بن إسحاق وغيرهم قوله: «فانقوا الله ولا تخزنون في ضيفي» أي اقبلوا ما أمركم به من الاقتصار على نسائكم «أليس منكم رجل رشيد» أي فيه خير يقبل ما أمره به ويترك ما أنهاه عنه «قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق» أي إنك لتعلم أن نساءنا لا أرب لنا فيهن ولا نشتاهن «وإنك لتعلم ما نريد» أي ليس لنا غرض إلا في الذكر وأنت تعلم ذلك فأي حاجة في تكرار القول علينا في ذلك؟ قال السدي «وإنك لتعلم ما نريد» إنما نريد الرجال^(٢).

قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨﴾ قَالُوا يَنْلُوطُ إِنَّا رَسُولُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِي أَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ الْأَيْلَلِ وَلَا يَلْتَفِتَ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَأُكَ إِنَّمَا مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمْ الْصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ يَقِيرِبُ ﴿٩﴾

يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط عليه السلام إن لوطاً توعدهم بقوله: «لو أن لي بكم قوة» الآية أي لكتن نكلت بكم وفعلت بكم الأفاعيل بنفسه وعشيرتي، ولهذا ورد في الحديث من طريق محمد بن عمرو بن علقمة بن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «رحمة الله على لوط لقد كان يأوي إلى ركن شديد - يعني الله عز وجل - مما بعث الله بعده من نبي إلا في ثروة^(٣) من قومه»^(٤) فعند ذلك أخبرته الملائكة أنهم رسول الله إليهم وأنهم لا وصول لهم إليه.

«قالوا يا لوط إنما رسلي لك لن يصلوا إليك» وأمروه أن يسري بأهله من آخر الليل وأن يتبع أدبارهم أي يكون ساقه لأهله «ولا يلتفت منكم أحد» أي إذا سمعت ما نزل بهم ولا تهولنكم تلك الأصوات المزعجة ولكن استمروا ذاهبين «إلا امرأتك» قال الأكثرون هو استثناء من المثبت وهو قوله: «فأسر بأهلك» تقديره «إلا امرأتك» وكذلك قرأها ابن مسعود، ونصب هؤلاء امرأتك لأنه من مثبت فوجب نصبه عندهم، وقال آخرون من القراء والتحاة هو استثناء من قوله «ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك» فجوزوا الرفع والنصب.

وذكر هؤلاء أنها خرجت معهم وأنها لما سمعت الوجبة^(٥) التفت وقالت: واقوماه فجاءها

(١) تفسير الطبرى ٧/٨٣.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٧/٨٤.

(٣) في ثروة من قومه: أي في عدد كثير من قومه.

(٤) أخرجه الترمذى في تفسير سورة ١٢، باب ٢، وأحمد في المستند ٣٣٢/٢، ٣٨٤.

(٥) الوجبة: الرجفة.

حجر من السماء فقتلها ثم قربوا له هلاك قومه تبشيرًا له لأنه قال لهم أهل كوكهم الساعة فقالوا **﴿إِنْ مَوْعِدُهُمُ الصِّبْحُ أَلِيْسَ الصِّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾** هذا وقوم لوط وقوف على الباب عكوف قد جاؤوا يهرونون إليه من كل جانب ولوط واقف على الباب يدافعهم ويردعهم وبينهم عما هم فيه وهم لا يقبلون منه بل يتبعونه ويتهدونه فعند ذلك خرج عليهم جبريل عليه السلام فضرب وجوههم بجناحه فطمس أعينهم فرجعوا لهم لا يهتدون الطريق كما قال تعالى: **﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضِيقِهِ فَطَمَسَنَا أَعْيُنَهُمْ فَذَوَّقُوا عَذَابِي وَنَذَرِ﴾** [القرآن: ٣٧] الآية.

وقال عمر عن قتادة عن حذيفة بن اليمان قال: كان إبراهيم عليه السلام يأتي قوم لوط فيقول أنهاكم الله أن تعرضوا لعقوبته فلم يطعوه حتى إذا بلغ الكتاب أجله انتهت الملائكة إلى لوط وهو يعمل في أرض له فدعاهم إلى الضيافة فقالوا **إِنَا صَيْرِفُكَ اللَّيْلَةَ** وكان الله قد عهد إلى جبريل ألا يذهب عليهم حتى يشهد لهم لوط ثلاث شهادات فلما توجه بهم لوط إلى الضيافة ذكر ما يعمل قومه من الشر فمشى معهم ساعة ثم التفت إليهم فقال أما تعلمون ما يفعل أهل هذه القرية؟ ما أعلم على وجه الأرض شرًا منهم أين أذهب بكم؟ إلى قومي وهم أشر خلق الله، فالتفت جبريل إلى الملائكة فقال احفظوها هذه واحدة ثم مشى معهم ساعة فلما توسط القرية وأشفق عليهم واستحيى منهم قال أما تعلمون ما يفعل أهل هذه القرية؟ ما أعلم على وجه الأرض أشر منهم إن قومي أشر خلق الله فالتفت جبريل إلى الملائكة فقال احفظوها هاتان اثننتان، فلما انتهى إلى باب الدار بكى حياء منهم وشفقة عليهم فقال: إن قومي أشر خلق الله؟ أما تعلمون ما يفعل أهل هذه القرية؟ ما أعلم على وجه الأرض أهل قرية شرًا منهم.

فقال جبريل للملائكة احفظوا هذه ثلاثة قد حق العذاب فلما دخلوا ذهبوا عجوز السوء فضعدت فلورحت بشوبها فأتاها الفساق يهرونون سراعاً قالوا ما عندك؟ قالت ضيف لوط قواماً ما رأيت قط أحسن وجوهاً منهم ولا أطيب ريحًا منهم فهربوا يسارعون إلى الباب فعالجهم لوط على الباب فدافعواه طويلاً وهو داخل وهم خارج يناشدهم الله ويقول: **﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾** فقام الملك فلز بالباب - يقول فشده - واستأذن جبريل في عقوبته فأذن الله له فقام في الصورة التي يكون فيها في السماء، فنشر جناحه - ولجبريل جناحان - وعليه وشاح من در منظوم وهو برأس الثنيا أجلى الجبين ورأسه حبك حبك مثل المرجان^(١) وهو اللؤلؤ كأنه الثلوج ورجلاته إلى الخضراء فقال: يا لوط **﴿إِنَا رَسِلْ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوَ إِلَيْكَ﴾** امض يا لوط عن الباب ودعني وإلياهم، فتنحى لوط عن الباب فخرج إليهم فنشر جناحه فضرب به وجوههم شدّخ أعينهم فصاروا عمياً لا يعرفون الطريق، ثم أمر لوطاً فاحتمل بأهله في ليلته قال: **﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقَطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾**^(٢) وروي عن محمد بن كعب وقتادة والستي نحو هذا.

(١) أي شعرة جعد متكسر.

(٢) انظر تفسير الطبراني ٩٠/٧

فَلَمَّا جَاءَهُ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَنْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَيْكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّلَمِينَ بَعْدَ^(١)

يقول تعالى: «فلما جاء أمرنا» وكان ذلك عند طلوع الشمس «جعلنا عاليها» وهي سدوم «سافلها» كقوله: «فَشَاهَمَا مَا غَشَى» [النجم: ٥٤] أي أنطربنا عليها حجارة من سجيل وهي بالفارسية حجارة من طين قاله ابن عباس وغيره وقال بعضهم أي من سنك وهو الحجر وكل وهو الطين وقد قال في الآية الأخرى «حجارة من طين» [الذاريات: ٢٣] أي مستحجرة قوية شديدة، وقال بعضهم مشوية، وقال البخاري^(١) سجيل: الشديد الكبير، سجيل وسجين اللام والنون أختان، وقال تميم بن مقبل: [البسيط]

وزجلة يضربون البيض صاحبة ضرباً تواصت به الأبطال سجيننا^(٢)
وقوله: «منضود» قال بعضهم: في السماء أي معدة لذلك وقال آخرون: «منضود» أي يتبع بعضها بعضاً في نزولها عليهم وقوله: «مسومة» أي معلمة مختومة عليها أسماء أصحابها كل حجر مكتوب عليه اسم الذي ينزل عليه وقال قتادة وعكرمة: «مسومة» مطروقة بها نضع من حمرة وذكروا أنها نزلت على أهل البلد وعلى المترفين في القرى مما حولها فيما أحدهم يكون عند الناس يتحدث إذ جاءه حجر من السماء فسقط عليه من بين الناس فدمره فتتبعهم الحجارة من سائر البلاد حتى أهلكتهم عن آخرهم فلم يبق منهم أحد.

وقال مجاهد: أخذ جبريل قوم لوط من سرحمهم ودورهم حملهم بمواشיהם وأمتعتهم ورفعهم حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ثم أكفهم، وكان حملهم على حوافي جناحه الأيمن قال ولما قلبها كان أول ما سقط منها شرفاتها، وقال قتادة بلغنا أن جبريل أخذ بعروة القرية الوسطى ثم ألوى^(٢) بها إلى جو السماء حتى سمع أهل السماء ضواغي كلابهم^(٤) ثم دمر بعضهم على بعض ثم أتبع شذاذ القوم صخراً قال وذكر لنا أنهم كانوا أربع قرى في كل قرية مائة ألف وفي رواية ثلث قرى الكبرى منها سدوم، قال وبلغنا أن إبراهيم عليه السلام كان يشرف

(١) كتاب التفسير، تفسير سورة ١١، باب ٢.

(٢) يروى صدر البيت:

ورْجُلَةٌ يَضْرِبُونَ الْبَيْضَ عَنْ عُرْضٍ

وهو لابن مقبل في ديوانه ص ٣٣٣، ولسان العرب (رجل)، (سجل)، (سجن)، (سخن)، وتهذيب اللغة ١٠/٥٨٦، ١١/٥٩٥، ٢٩/٤٦٤، ١١٩٢، وجمهرة اللغة ص ١٣٧/٣، ومقاييس اللغة ١٣٧/٣، ومجمل اللغة ٣/١٢٢، ونتاج العروس (رجل)، (سجل)، (سجن)، وبلا نسبة في ديوان الأدب ٣٤١/١، وتفسيير الطبرى ٧/٩٢ (الشطر الثاني فقط).

(٣) ألوى بها إلى جو السماء: أي أحذتها وطار بها.

(٤) ضواغي كلابهم: أي صوت كلابهم، أو نباح كلابهم.

على سدوم ويقول: سدوم يوم هالك^(١).

وفي رواية عن قتادة وغيره قال وبلغنا أن جبريل عليه السلام لما أصبح نشر جناحه فانتسف بها أرضهم بما فيها من قصورها ودوايبها وحجارتها وشجرها وجميع ما فيها فضمهما في جناحه فحوها وطواها في جوف جناحه ثم صعد بها إلى السماء الدنيا حتى سمع سكان السماء أصوات الناس والكلاب وكانوا أربعة آلاف ثم قلبها فأرسلها إلى الأرض منكوبة ودمدم بعضها على بعض فجعل عاليها سافلها ثم أتبعها حجارة من سجيل^(٢).

وقال محمد بن كعب القرظي: كانت قرى قوم لوط خمس قريات سدوم وهي العظمى وصعبه وصعود وغمة دوما احتملها جبريل بجناحه ثم صعد بها حتى إن أهل السماء الدنيا ليسمعون نابحة كلابها وأصوات دجاجها ثم كفأها على وجهها ثم أتبعها الله بالحجارة، يقول الله تعالى: «جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل» فأهلكها الله وما حولها من المؤنثات، وقال السدي: لما أصبح قوم لوط نزل جبريل فاقتلع الأرض من سبع أرضين فحملها حتى بلغ بها السماء حتى سمع أهل السماء الدنيا نباح كلابهم وأصوات ديوکهم ثم قلبها فقتلهم فذلك قوله: «والمؤتفكة أهوى» ومن لم يمت حتى سقط للأرض أمطر الله عليه وهو تحت الأرض الحجارة ومن كان منهم شاذًا في الأرض يتبعهم في القرى فكان الرجل يتحدث فيأتيه الحجر فقتله فذلك قوله عز وجل: «وأمطرنا عليهم» أي في القرى حجارة من سجيل هكذا قال السدي.

وقوله: «وما هي من الظالمين بعيد» أي وما هذه التقدمة ممن تشبه بهم في ظلمهم بعيد عنه، وقد ورد في الحديث المروي في السنن عن ابن عباس مرفوعاً «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلو الفاعل والمفعول به»^(٣).

وذهب الإمام الشافعي في قول عنه وجماعة من العلماء إلى أن اللائط يقتل سواء كان محصناً أو غير محصن عملاً بهذا الحديث، وذهب الإمام أبو حنيفة إلى أنه يلقى من شاهق ويتابع بالحجارة كما فعل الله بقوم لوط والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

وإلى مدين آخاهُرْ شعيباً قالَ يَقُولُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمَكَيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرِكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَيْنَكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ

يقول تعالى ولقد أرسلنا إلى مدين وهم قبيلة من العرب كانوا يسكنون بين الحجاز والشام قريباً من معان. بلاداً تعرف بهم يقال لها مدين فأرسل الله إليهم شعيباً وكان من أشرفهم نسباً،

(١) انظر تفسير الطبرى ٧/٩٦ ، وفيه: سدوم - يوم مالك ، بدل: سدوم يوم هالك.

(٢) تفسير الطبرى ٧/٩٦ .

(٣) أخرجه الترمذى في الحدود باب ٢٤ ، وابن ماجه في الحدود باب ١٢ .

ولهذا قال: «أَخَاهُمْ شَعِيَّاً» يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له وبنهام عن التطفيف في المكياط والميزان «إِنِّي أَرَكُمْ بِخَيْرٍ» أي في معيشتكم ورزقكم وإنني أخاف أن تسلبوا ما أنتم فيه بانتهاكم محارم الله «وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ» أي في الدار الآخرة.

وَيَقُولُونَ أَقْوَافُ الْمَكَيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقَسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا الْأَنَاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَرُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١﴾ **بِقَيْمَتِ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ** ﴿٢﴾

بنهاهم أولًا عن نقص المكياط والميزان إذا أعطوا الناس، ثم أمرهم بوفاء الكيل والوزن بالقسط أخذين ومعطين ونهام عن العشو في الأرض بالفساد وقد كانوا يقطعون الطريق، قوله: «بقيمة الله خير لكم» قال ابن عباس: رزق الله خير لكم وقال الحسن رزق الله خير لكم من بحسكم الناس، وقال الربيع بن أنس وصية الله خير لكم، وقال مجاهد: طاعة الله وقال: قنادة حظكم من الله خير لكم، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الهلاك في العذاب والبقاء في الرحمة.

وقال أبو جعفر بن جرير^(١) «بقيمة الله خير لكم» أي ما يفضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم منأخذ أموال الناس قال وقد روى هذا عن ابن عباس قلت ويشبه قوله تعالى: «قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالْطَّيْبُ وَلَوْ أَعْجَبَ كُثْرَةَ الْخَبِيثِ» [المائدة: ١٠٠] الآية، قوله: «وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ» أي برقيب ولا حفيظ أي افعلوا ذلك الله عز وجل لا تفعلوه ليراكם الناس بل الله عز وجل.

قَالُوا يَسْعَيْثُ أَصْلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَنْتَرِكَ مَا يَعْبُدُءَ أَبَاؤُنَا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا دَشَّتُمُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٣﴾

يقولون له على سبيل التهكم قبحهم الله «أَصْلَاتُكَ» قال الأعمش أي قراءتك «تأمرك أن ترك ما يعبد آباؤنا» أي الأواثان والأصنام «أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء» فترك التطفيف على قولك وهي أموالنا نفعل فيها ما نريد، قال الحسن في قوله: «أَصْلَاتُكَ تأمرك أن ترك ما يعبد آباؤنا» أي والله إن صلاته لتأمرهم أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم، وقال الثوري في قوله: «أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء» يعنيون الزكاة «إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ» قال ابن عباس وميمون بن مهران وابن جريج وابن أسلم وابن جرير يقولون ذلك أعداء الله على سبيل الاستهزاء قبحهم الله ولعنهم عن رحمته وقد فعل.

قَالَ يَقُولُونَ أَرَعَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَتِي مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُحَالِقَكُمْ إِلَى مَا

أَنْهُمْ كُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا إِصْلَاحًا مَا أَسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوْكِيدُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨﴾

يقول لهم هل رأيت يا قوم إن كنت **«على بيته من رب»** أي على بصيرة فيما أدعوه إليه **«ورزقني منه رزقاً حسناً»** قيل أراد النبوة وقيل أراد الرزق الحلال ويتحمل الأمرين، وقال الثوري **«وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه»** أي لا أنهاكم عن الشيء وأخالف أنا في السر فأفعله خفية عنكم كما قال قنادة في قوله **«وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه»** يقول : لم أكن أنهاكم عن أمر وأرتکبه **«إن أريد إلَّا إِصْلَاحًا مَا اسْتَطَعْتُ»** أي فيما أمركم وأنهاكم إنما أريد إصلاحكم جهدي وطاقي **«وَمَا تَوْفِيقِي»** أي في إصابة الحق فيما أريده **«إِلَابَّهِ عَلَيْهِ تَوْكِيدٌ»** في جميع أموري **«وَإِلَيْهِ أُنِيبُ»** أي أرجع قاله مجاهد وغيره .

قال الإمام أحمد^(١) : حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة حدثنا أبو قزعة سويد بن حجير الباهلي عن حكيم بن معاوية عن أبيه أن أخاه مالكا : قال يا معاوية إن محمداً أخذ جيراني فانطلقت إليه فإنه قد كلمك وعرفك فانطلقت معه فقال : دع لي جيراني فقد كانوا أسلموا فأعرض عنه فقام مغضباً فقال : أما والله لئن فعلت إن الناس يزعمون أنك لتأمرنا بالأمر وتخالف إلى غيره وجعلت أجره وهو يتكلم فقال رسول الله ﷺ : «ما تقول؟» فقال : إنك والله لئن فعلت ذلك إن الناس ليزعمون أنك لتأمر بالأمر وتخالف إلى غيره . قال : فقال «أو قد قالوها - أي قائلهم - ولئن فعلت ما ذاك إلَّا علىي وما عليهم من ذلك من شيء أرسلوا له جيرانه» .

وقال أيضاً^(٢) : حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمراً عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال : أخذ النبي ﷺ ناساً من قومي في تهمة فحبسهم فجاء رجل من قومي إلى رسول الله ﷺ وهو يخطب فقال : يا محمد علام تحبس جيراني؟ فصممت رسول الله ﷺ فقال : إن ناساً ليقولون إنك تنهى عن الشيء وتستخلصي به فقال النبي ﷺ : «ما تقول؟» قال : فجعلت أعرض بينهما كلاماً مخافة أن يسمعها فيدعوا على قومي دعوة لا يفلحون بعدها أبداً فلم يزل رسول الله ﷺ حتى فهمها فقال : «قد قالوها أو قائلها منهم والله لو فعلت لكان عليي وما كان عليهم خلوا عن جيرانه» .

ومن هذا القبيل الحديث الذي رواه الإمام أحمد^(٣) حدثنا أبو عامر حدثنا سليمان بن بلال عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن عبد الملك بن سعيد بن سعيد الأنصاري قال سمعت أبا حميد وأبا أسيدا يقولون عنه ﷺ إنه قال : «إِذَا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم ، وتلين له أشعاركم وأبشراركم ، وترون أنه منكم قريب فأننا أولاً لكم به ، وإذا سمعتم الحديث عنى تنكرون قلوبكم وتتنفر منه أشعاركم وأبشراركم وترون أنه منكم بعيد فأننا أبعدكم منه» إسناده صحيح .

(١) المستند ٤/٤٤٧.

(٢) المستند ٥/٢.

(٣) المستند ٣/٤٩٧ ، ٥/٤٢٥ .

وقد أخرج مسلم بهذا السنن حديث «إذا دخل أحدكم المسجد فليقل اللهم افتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج فليقل اللهم إني أسألك من فضلك»^(١) ومعناه والله أعلم مهما بلغكم عنِّي من خير فأنا أولاكم به. ومهمما يكن من مكروه فأنا أبعدكم منه «وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه»^(٢) وقال قتادة عن عزرة عن الحسن العرنبي عن يحيى بن الجزار عن مسروق قال: جاءت امرأة إلى ابن مسعود فقالت أنتهى عن الوالصلة^(٢)؟ قال نعم، قالت: فعله بعض نسائك، فقال ما حفظت وصية العبد الصالح إذا «وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه»^(٢) وقال عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن أبي سليمان العتببي قال: كانت تجيئنا كتب عمر بن عبد العزيز فيها الأمر والنهي فيكتب في آخرها وما كنت من ذلك إلا كما قال العبد الصالح: «وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب».

وَيَقُولُ لَا يَجْرِي مِنْكُمْ شَقَاقٌ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمًا نُوحَ أَرْقَوْمَ هُودَ أَرْقَوْمَ صَلَحَ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ
يُنَكِّمُ بِيَعْيِدَ وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبَّ رَحِيمٌ وَدُودٌ

يقول لهم «ويَا قوم لَا يَجْرِي مِنْكُمْ شَقَاقٌ» أي لا تحملنكم عداوتي وبغضي على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط من النعمة والعقاب وقال قتادة «ويَا قوم لَا يَجْرِي مِنْكُمْ شَقَاقٌ» يقول: لا يحملنكم فرافي، وقال السدي عداوتي، على أن تعادوا في الضلال والكفر فيصيبكم من العذاب ما أصابهم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عوف الحمصي حدثنا أبو المعيرة عبد القدوس بن الحجاج حدثنا ابن أبي غنية حدثني عبد الملك بن أبي سليمان عن ابن أبي ليلى الكندي قال: كنت مع مولاي أمسك دابته وقد أحاط الناس بعثمان بن عفان إذ أشرف علينا من داره فقال: «يَا قوم لَا يَجْرِي مِنْكُمْ شَقَاقٌ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمًا نُوحَ أَرْقَوْمَ هُودَ أَرْقَوْمَ صَلَحَ» يا قوم لا تقتلوني إنكم إن قتلتوني كتم هكذا وشبك بين أصابعه، قوله: «وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِيَعْيِدَ» قيل المراد في الزمان، قال قتادة: يعني إنما هلكوا بين أيديكم بالأمس، وقيل في المكان ويتحمل الأمران «وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ» من سالف الذنب «ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ» فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة وقوله: «إِنَّ رَبَّ رَحِيمٌ وَدُودٌ» أي لمن تاب وأناب.

قَالُوا يَشْعَبُ مَا نَفَقَهُ كَيْدًا مَمَّا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعْفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَنَتَكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا عَزِيزٌ

(١) أخرجه مسلم في المسافرين حديث ٦٨.

(٢) الوالصلة: التي تصل شعرها بآخر زور.

تَعَمَّلُونَ مُحِيطٌ

يقولون ﴿يا شعيب ما نفقه﴾ ما نفهم ﴿كثيرا﴾ من قولك ﴿وإنا لنراك فيما ضعيفا﴾ قال سعيد بن جبير والثوري وكان ضرير البصر، وقال الثوري كان يقال له خطيب الأنبياء، قال السدي ﴿وإنا لنراك فيما ضعيفا﴾ قال: أنت واحد، وقال أبو روق: يعني ذليلا لأن عشيرتك ليسوا على دينك ﴿ولولا رهطك لرجمناك﴾ أي قومك لو لا معزتهم علينا لرجمناك قيل بالحجارة وقيل لسبيناك ﴿وما أنت علينا بعزيز﴾ أي ليس عندنا لك معزة ﴿قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله﴾ يقول: أتركوني لأجل قومي ولا تتركوني إعطاءً لجناب الرب تبارك وتعالى أن تناولوا نبيه بمساءة وقد اتخذتم كتاب الله ﴿وراءكم ظهريا﴾ أي نبذتكمه خلفكم لا تطيعونه ولا تعظمونه ﴿إن ربكم بما تعملون محبط﴾ أي هو يعلم جميع أعمالكم وسيجزيكم بها.

وَيَقُولُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّ عَمَلًا سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخَزِّيهِ وَمَنْ هُوَ كَذَّابٌ وَأَرْتَقَبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ۝ وَلَمَّا جَاءَهُمْ أَمْرَنَا بِعِجَّاتِنَا شَعِيبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مَنَا وَأَخْذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَاصْبَحُوا فِي دِرَرِهِمْ جَاثِمِينَ ۝ كَانَ لَمَّا يَغْنَوُ فِيهَا أَلَا بَعْدًا لِمَدِينَ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودٌ

لما يئس نبي الله شعيب من استجابتهم له قال يا قوم ﴿اعملوا على مكانكم﴾ أي طريقكم وهذا تهديد شديد ﴿إنِّي عامل﴾ على طريقتي ﴿سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب﴾ أي مني ومنكم ﴿وارتقبوا﴾ أي انتظروا ﴿إنِّي معكم رقيب﴾ قال الله تعالى: ﴿ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾ قوله جاثمين أي هامدين لا حراك بهم. وذكر هنا أنه أتتهم صيحة، وفي الأعراف رجفة وفي الشعرا عذاب يوم الظلة وهم أمة واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها، وإنما ذكر في كل سياق ما يناسبه وفي الأعراف لما قالوا ﴿لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا﴾ [الأعراف: ٨٨] ناسب أن يذكر الرجفة فرجفت بهم الأرض التي ظلموا بها وأرادوا إخراج نبيهم منها.

وه هنا لما أساوا الأدب في مقالتهم على نبيهم ذكر الصيحة التي استلبثتهم وأحمدتهم، وفي الشعراء لما قالوا ﴿فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين﴾ [الشعراء: ١٨٧] قال ﴿فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم﴾ [الشعراء: ١٨٩] وهذا من الأسرار الدقيقة والله الحمد والمنة كثيرا دائمأ، قوله: ﴿كان لم يغنو فيها﴾ أي يعيشوا في دارهم قبل ذلك ﴿ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود﴾ وكانوا جيرانهم قريباً منهم في الدار وشبيهاً بهم في الكفر وقطع الطريق وكانوا عرباً مثلهم.

وَلَقَدْ أَرَسَنَا مُوسَى بِيَاتِنَا وَسُلْطَنِينَ مُمِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلِئِيهِ فَأَبَيَّعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ يُرْشِيدُ يَقْدُمْ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَسَّرَ الْوَرْدُ الْمُورُودُ وَأَتَيْعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الْرِّفْدُ الْمَرْفُودُ

يقول تعالى مخبراً عن إرسال موسى بياته ودلاته الباهرة إلى فرعون ملك القبط وملته («فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ» أي منهجه وسلكه وطريقته في الغي «ومَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ» أي ليس فيه رشد ولا هدى . وإنما هو جهل وضلال وكفر وعناد، وكما أنهم اتبعوه في الدنيا وكان مقدمهم ورئيسهم كذلك هو يقدمهم يوم القيامة إلى نار جهنم فأوردهم إليها وشربوا من حياض رداها، وله في ذلك الحظ الأوفر، من العذاب الأكبر، كما قال تعالى: «فَعُصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخْذَنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا» [المزمول: ١٦] وقال تعالى: «فَكَذَّبُ وَعَصَى ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى فَحَسْرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى فَأَخْذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى إِنْ فِي ذَلِكَ لَعْبَةٌ لِمَنْ يَخْشِي】

النازعات: ٢١-٢٦.

وقال تعالى: «يَقْدُمْ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَسَّرَ الْوَرْدُ الْمُورُودُ» وكذلك شأن المتبوعين يكونون موفورين في العذاب يوم القيامة كما قال تعالى: «لَكُلِّ ضُعْفٍ وَلَكُنْ لَا تَعْلَمُونَ» [الأعراف: ٣٨] وقال تعالى إخباراً عن الكفراً أنهم يقولون في النار: «رَبَّنَا إِنَا أَطْعَنَا سَادَتَنَا وَكَبَّرَانَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَا رَبَّنَا آتَهُمْ ضُعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ» [الأحزاب: ٦٧] الآية.

وقال الإمام أحمد^(١): حدثنا هشيم حدثنا أبو الجهم عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أَمْرُ الْقَيْسِ حَامِلُ لَوَاءِ شُعَرَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ إِلَى النَّارِ» قوله: «وَأَتَبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةِ وَيَوْمِ الْقِيَامَةِ» الآية، أي أتبعناهم زيادة على عذاب النار لعنة في الدنيا («وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ») قال مجاهد: زيدوا لعنة يوم القيامة فتلك لعنتان، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس («بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ») قال: لعنة الدنيا والآخرة وكذا قال الضحاك وقتادة وهو كقوله («وَجَعَلْنَاهُمْ أَنْمَةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَنْصُرُونَ وَأَتَبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ») [القصص: ٤٢] وقال تعالى («النَّارُ يَعْرَضُونَ عَلَيْهَا غَدْوًا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا إِلَى فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ») [غافر: ٤٦].

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقَرْئَى نَقْصُهُ عَيْتَكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتَنَّهُمْ إِلَّا هُمْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَهُمْ رَبِّكَ وَمَا زَادُهُمْ غَيْرَ تَنْتِيبٍ

لما ذكر تعالى خبر الأنبياء وما جرى لهم مع أممهم وكيف أهلك الكافرين ونجى المؤمنين قال: («ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقَرْئَى» أي أخبارهم («نَقْصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ» أي عامر («وَحَصِيدٌ» أي

هالك ﴿وَمَا ظلمنَاهُمْ﴾ أي إِذ أهلكناهم ﴿ولكن ظلموا أنفسهم﴾ بتكميدهم رسّلنا وكفرهم بهم ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ أَهْلَهُمْ﴾ أو ثانهم التي يعبدونها ويدعونها ﴿مِنْ دُنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ما نفعوهم ولا أنقذوهم لما جاء أمر الله ﴿إِلَاهُكُمْ﴾ ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَبِيبٍ﴾ قال مجاهد وفتادة وغيرهما: أي غير تحسير^(١) وذلك أن سبب هلاكهم ودمارهم إنما كان باتباعهم تلك الآلهة فلهذا خسروا في الدنيا والآخرة.

وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخْذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُمُ اللَّهُ شَدِيدٌ ﴿١٧﴾

يقول تعالى وكما أهلكنا أولئك القرون الظالمة المكذبة لرسّلنا كذلك نفعل بأشباههم ﴿إِنَّ أَخْذَهُمُ اللَّهُ شَدِيدٌ﴾ وفي الصحيحين عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لِيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّىٰ إِذَا أَخْذَهُ لَمْ يَفْلِهِ» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذَ رَبَّكَ إِذَا أَخْذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾^(٢) الآية.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِيْةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ تَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿٢٩﴾ وَمَا نُؤْخِرُهُ إِلَّا لِأَجْلٍ مَعْدُودٍ ﴿٣٠﴾ يَوْمٌ يَأْتِ لَا تَكُلُّ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيقٌ وَسَعِيدٌ ﴿٣١﴾

يقول تعالى إن في إهلاكتنا الكافرين وإنجاثنا المؤمنين ﴿لَا يَأْتِي عَزَّةٌ وَأَعْتَارًا عَلَى صدق موعودنا في الآخرة ﴿إِنَّا لَنَصْرَرُ رَسْلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١] وقال تعالى ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لِنَهَلْكَنَ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم: ١٣] الآية. قوله: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لِهِ النَّاسُ﴾ أي أولهم وأخرهم كقوله: ﴿وَحَسْرَنَاهُمْ فَلَمْ نَعْدُرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧] ﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ أي عظيم تحضره الملائكة ويجتمع فيه الرسل وتحشر الخلاق بأسرهم من الإنس والجن والطير والوحش والدواب ويحكم فيه العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها.

وقوله ﴿وَمَا نُؤْخِرُهُ إِلَّا لِأَجْلٍ مَعْدُودٍ﴾ أي ما نؤخر إقامة القيمة إلا لأنه قد سبقت كلمة الله في وجود أناس معدودين من ذرية آدم وضرب مدة معينة إذا انقطعت وتكامل وجود أولئك المقدر خروجهم قامت الساعة ولهذا قال: ﴿وَمَا نُؤْخِرُهُ إِلَّا لِأَجْلٍ مَعْدُودٍ﴾ أي لمدة مؤقتة لا يزيد عليها ولا يتقصّ منها.

﴿يَوْمٌ يَأْتِ لَا تَكُلُّ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي يوم يأتي يوم القيمة لا يتكلّم أحد إلا بإذن الله كقوله: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مِنْ أَذْنِ لِهِ الرَّحْمَنِ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النَّبِيُّ: ٣٨] وقال: ﴿وَخَشِعْتُ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ [طه: ١٠٨] الآية. وفي الصحيحين من حديث الشفاعة «وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا

(١) انظر تفسير الطبرى ١١١/٧.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ١١، باب ٥، ومسلم في البر حديث ٦٢.

الرسل ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم سلم^(١) قوله: «فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ» أي فمن أهل الجمع شقي ومنهم سعيد كما قال «فِرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفِرِيقٌ فِي السَّعِيرِ» [الشورى: ٧] وقال الحافظ أبو يعلى في مسنده: حدثنا موسى بن حيان حدثنا عبد الملك بن عمرو حدثنا سليمان أبو سفيان حدثنا عبد الله بن دينار عن ابن عمر عن عمر قال: لما نزلت «فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ» سألت النبي ﷺ فقلت يا رسول الله: علام نعمل؟ على شيء قد فرغ منه أم على شيء لم يفرغ منه، فقال: «على شيء قد فرغ منه يا عمر وجرت به الأفلام، ولكن كل ميسر لما خلق له» ثم بين تعالى حال الأشقياء وحال السعداء فقال:

فَمَآمَا الَّذِينَ شَقُوا فَقَوْ فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِمَا يَرِيدُ ۝

يقول تعالى «لهم فيها زفير وشهيق» قال ابن عباس الزفير في الحلق والشهيق في الصدر أي تفسهم زفير وأخذهم النفس شهيق، لما هم فيه من العذاب عيادةً بالله من ذلك «خالدين فيها ما دامت السموات والأرض» قال الإمام أبو جعفر بن جرير^(٢): من عادة العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوارم أبداً قالت هذا دائم دوام السموات والأرض، وكذلك يقولون هو باق ما اختلف الليل والنهار، وما سمر أبناء سمير وما للألت العبر بأذنابها يعنون بذلك كله أبداً فخطابهم جل ثناؤه بما يتعارفونه بينهم فقال: «خالدين فيها ما دامت السموات والأرض».

(قلت): ويحتمل أن المراد بما دامت السموات والأرض الجنس لأنه لا بد في عالم الآخرة من سموات وأرض كما قال تعالى «يَوْمَ تَبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ» [إبراهيم: ٤٨] ولهذا قال الحسن البصري في قوله: «مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ» قال: يقول: سماء غير هذه السماء وأرض غير هذه فما دامت تلك السماء وتلك الأرض.

وقال ابن أبي حاتم ذكر عن سفيان بن حسين عن الحكم عن مجاهد عن ابن عباس قوله: «مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ» قال: لكل جنة سماء وأرض، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما دامت الأرض أرضاً والسماء سماء. قوله «إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِمَا يَرِيدُ» كقوله «النَّارُ مَثَوَّكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ» [الأنعام: ١٢٨].

وقد اختلف المفسرون في المراد من هذا الاستثناء على أقوال كثيرة حكاها الشيخ أبو الفرج بن الجوزي في كتابه زاد المسير، وغيره من علماء التفسير، ونقل كثيراً منها الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله في كتابه واختار هو ما نقله عن خالد بن معدان والضحاك وقتادة وابن سنان ورواوه ابن أبي حاتم عن ابن عباس والحسن أيضاً أن الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد من يخرجهم الله من

(١) أخرجه البخاري في الأذان باب ١٢٩، ومسلم في الإيمان حديث ٢٩٩.

(٢) تفسير الطبرى ٧/ ١١٤.

النار بشفاعة الشافعين، من الملائكة والنبين والمؤمنين، حتى يشفعون في أصحاب الكبائر ثم تأتي رحمة أرحم الراحمين فتخرج من النار من لم يعمل خيراً قط وقال يوماً من الدهر لا إله إلا الله كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله ﷺ بمضمون ذلك من حديث أنس وجابر وأبي سعيد وأبي هريرة وغيرهم من الصحابة ولا يبقى بعد ذلك في النار إلا من وجب عليه الخلود فيها ولا محيد له عنها، وهذا الذي عليه كثيرون من العلماء قديماً وحديثاً في تفسير هذه الآية الكريمة.

وقد روي في تفسيرها عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وابن مسعود وابن عباس وأبي هريرة وعبد الله بن عمرو وجابر وأبي سعيد من الصحابة، وعن أبي مجلز الشعبي وغيرهما من التابعين، وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وإسحاق بن راهويه وغيرهما من الأئمة في أقوال غريبة وورد حديث غريب في معجم الطبراني الكبير عن أبي أمامة صدي بن عجلان الباهلي ولكن سنته ضعيف والله أعلم. وقال قتادة: الله أعلم بثنائه، وقال السدي هي منسوخة بقوله «**خالدین فیها أبداً**».

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً عَيْنَ مَجْدُورٍ فِي﴾

يقول تعالى: «**وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا**» وهم أتباع الرسل «**فِي الْجَنَّةِ**» أي فما واهم الجنة «**خَالِدِينَ فِيهَا**» أي ما كثيرون فيها أبداً «**مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ**» معنى الاستثناء هنا أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم ليس أمراً واجباً بذاته بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى فله المنة عليهم دائماً ولهذا يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس.

وقال الضحاك والحسن البصري هي في حق عصاة الموحدين الذين كانوا في النار ثم أخرجوا منها وعقب ذلك بقوله «**عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْدُوذٌ**» أي غير مقطوع قاله مجاهد وابن عباس وأبو العالية وغير واحد لثلا يتوهם بعد ذكره المشيئة أن ثم انقطاعاً أو لبسًا أو شيئاً بل حتم له بالدوم وعدم الانقطاع كما بين هناك أن عذاب أهل النار في النار دائماً مردود إلى مشيته وأنه بعده وحكمته عذبهم ولهذا قال «**إِنْ رَبِّكَ فَعَالَ لَمَا يَرِيدَ**» كما قال: «**لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يَسْأَلُونَ**» [الأنياء: ٢٣] وهنا طيب القلوب وثبت المقصود بقوله: «**عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْدُوذٌ**» وقد جاء في الصحيحين «**يُؤْتَى بِالْمَوْتِ** في صورة كبس أملح فيذبح بين الجنة والنار ثم يقال يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويَا أهل النار خلود فلا موت»^(١)، وفي الصحيح أيضاً «**فَيَقَالُ** يا أهل الجنة إن لكم أن تعيشوا فلا تموتونا أبداً وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً وإن لكم أن تصحوا فلا تسقمو أبداً وإن لكم أن تنعموا فلا تأسوا أبداً»^(٢).

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ١٩، باب ١، ومسلم في الجنة حديث ٤٠.

(٢) أخرجه مسلم في الجنة حديث ٢٢.

فَلَا تَكُنْ فِي مَرْيَةٍ مَمَّا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ أَبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلِ وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ عَيْرًا مَمْفُوسٍ فَلَمَّا وَلَقَدْ أَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَأَخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلْمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لِقْضَى بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ وَإِنَّ كُلَّا لَمَّا يَوْفِيْنَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُمْ بِمَا يَعْمَلُونَ حِيلٌ

يقول تعالى: «فَلَا تَكُنْ فِي مَرْيَةٍ مَمَّا يَعْبُدُ هُؤُلَاءِ» المشركون إنَّه باطل وجهل وضلال فإنَّهم إنما يعبدون ما يعبد آباؤهم من قبل أي ليس لهم مستند فيما هم فيه إلا إتباع الآباء في الجهات وسيجزيهم الله على ذلك أتم الجزاء فيعذب كافرهم عذاباً لا يعذبه أحداً وإنْ كان لهم حسنات فقد وفاهم الله إياها في الدنيا قبل الآخرة. قال سفيان الثوري عن جابر الجعфи عن مجاهد عن ابن عباس «وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَمْفُوسٍ» قال ما وعدوا من خير أو شر^(١).

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم لموفوهם من العذاب نصيبيهم غير ممفووس ثم ذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب فاختلط الناس فيه فمن مؤمن به ومن كافر به فلك بمن سلف من الأنبياء قبلك يا محمد أسوة فلا يغrieveنك تكذيبهم لك ولا يهمنك ذلك «وَلَوْلَا كَلْمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لِقْضَى بَيْنَهُمْ» قال ابن جرير لولا ما تقدم من تأجيله العذاب إلى أجل معلوم لقضى الله بينهم ويحتمل أن يكون المراد بالكلمة أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه كما قال: «وَمَا كُنَّا مُعذِّبِينَ حَتَّى نُبَثِّرَ رُسُولًا» [الإسراء: ١٥] فإنه قد قال في الآية الأخرى: «وَلَوْلَا كَلْمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجْلَ مُسَمِّي فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ» [طه: ١٢٩ - ١٣٠] ثم أخبر تعالى أنه سيجمع الأولين والآخرين من الأمم ويجزيهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شرًّا فشر فقال: «وَإِنَّ كُلَّا لَمَّا يَوْفِيْنَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُمْ بِمَا يَعْمَلُونَ خَيْرٌ» أي عليم بأعمالهم جميعها جليلها وحقيرها صغيرها وكبیرها وفي هذه الآية قراءات كثيرة يرجع معناها إلى هذا الذي ذكرناه كما في قوله تعالى: «وَإِنَّ كُلَّا لَمَّا جَمِيعَ لَدِنَا مُحْضَرُونَ» [يس: ٢٢].

فَأَسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَنْطَعُ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ وَلَا تَرَكُونَا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ الشَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلَيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ

يأمر تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوم على الاستقامة وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء ومخالفة الأضداد ونهى عن الطغيان وهو البغي فإنه مصربة حتى ولو كان على مشرك وأعلم تعالى أنه بصير بأعمال العباد لا يغفل عن شيء ولا يخفى عليه شيء.

وقوله: «وَلَا تَرَكُونَا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا» قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: لا تداهنا^(٢) وقال العوفي عن ابن عباس: هو الركون إلى الشرك وقال أبو العالية: لا ترضوا

(١) انظر تفسير الطبرى ١٢٠ / ٧.

(٢) انظر تفسير الطبرى ١٢٤ / ٧.

بأعمالهم وقال ابن جرير عن ابن عباس: ولا تميلوا إلى الذين ظلموا وهذا القول حسن أي لا تستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم قد رضيتم بأعمالهم **﴿فَتَمْسِكُهُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلَاءِ شَيْءٍ لَا تَنْصُرُونَ﴾** أي ليس لكم من دونه من ولی ينقذكم ولا ناصر يخلصكم من عذابه.

وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِ الظَّهَارِ وَزُلْفَانِ الظَّلَّامِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهَبُنَّ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكْرٌ لِلذَّاكِرِينَ
وَأَصِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيقُ بِعَدْلِهِ أَجَرُ الْمُحْسِنِينَ

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس **﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِ الظَّهَارِ﴾** قال يعني الصبح والمغرب^(١) وكذا قال الحسن وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقال الحسن في رواية وقتادة والضحاك وغيرهم هي الصبح والعصر وقال مجاهد: هي الصبح في أول النهار والظهر والعصر من آخره **﴿وَزُلْفَانِ الظَّلَّامِ﴾** قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم يعني صلاة العشاء وقال الحسن في رواية ابن المبارك عن مبارك بن فضالة عنه **﴿وَزُلْفَانِ الظَّلَّامِ﴾** يعني المغرب والعشاء قال رسول الله ﷺ: **«هَمَا زَلَفْتَا اللَّيْلَ الْمَغْرِبَ وَالْعَشَاءَ»**^(٢) وكذا قال مجاهد ومحمد بن كعب وقتادة والضحاك إنها صلاة المغرب والعشاء، وقد يحتمل أن تكون هذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء فإنه إنما كان يجب من الصلاة صلاتان: صلاة قبل طلوع الشيمس وصلاة قبل غروبها، وفي أثناء الليل قيام عليه وعلى الأمة ثم نسخ في حق الأمة وثبت وجوبه عليه ثم نسخ عنه أيضاً في قول والله أعلم.

وقوله: **«إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهَبُنَّ السَّيِّئَاتِ»** يقول إن فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قال: كنت إذا سمعت من رسول الله حديثاً نفعني الله بما شاء أن ينفعني منه وإذا حدثني عنه أحد استحلقه فإذا حلف لي صدقته، وحدثني أبو بكر وصدق أبو بكر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَذْنُبُ ذَنْبًا فَيَتَوَضَّأُ وَيَصْلِي رَكْعَتَيْنِ إِلَّا غُفرِلَهُ»**^(٣).

وفي الصحيحين عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان أنه توضاً لهم كوضوء رسول الله ﷺ ثم قال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وقال: **«مَنْ تَوَضَّأَ وَضَوَّئِي هَذَا ثُمَّ صَلَى رَكْعَتَيْنِ لَا يَحْدُثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ غَفْرَلَهُ مَا تَقْدِمُ مِنْ ذَنْبِهِ»**^(٤).

وروى الإمام أحمد^(٥) وأبو جعفر بن جرير^(٦) من حديث أبي عقيل زهرة بن معبد أنه سمع

(١) انظر تفسير الطبرى ١٢٥/٧.

(٢) تفسير الطبرى ١٢٧/٧.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٢/١.

(٤) أخرجه البخارى في الوضوء باب ٢٤، ٢٨. ومسلم في الطهارة حديث ٣، ٤، ٨.

(٥) المسند ١/٧١.

(٦) تفسير الطبرى ١٣٠/٧.

الحارث مولى عثمان يقول: جلس عثمان يوماً وجلسنا معه فجاءه المؤذن فدعا عثمان بما في إماء أظنه سيكون فيه قدر مد فتوضاً ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وضوئي هذا ثم قال «من توضأ وضوئي هذا ثم قام فصلى صلاة الظهر غفر له ما بينه وبين صلاة الصبح ثم صلى العصر غفر له ما بينه وبين صلاة الظهر ثم صلى المغرب غفر له ما بينه وبين صلاة العصر ثم صلى العشاء غفر له ما بينه وبين صلاة المغرب ثم لعله يبيت يتمرغ ليلته ثم إن قام فتوضاً وصلى الصبح غفر له ما بينها وبين صلاة العشاء وهن الحسنات يذهبن السيئات».

وفي الصحيح عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «رأيتم لو أن بباب أحدكم نهراً غمراً يغسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيئاً؟ قالوا: لا يا رسول الله قال: «كذلك الصلوات الخمس يمحو الله بهن الذنوب والخطايا»^(١).

وقال مسلم في صحيحه: حدثنا أبو الطاهر وهارون بن سعيد قالا: حدثنا ابن وهب عن أبي سخر أن عمر بن إسحاق مولى زائدة حدثه عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «الصلوات الخمس وال الجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكرفات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر»^(٢) وقال الإمام أحمد^(٣) حدثنا الحكم بن نافع حدثنا إسماعيل بن عياش عن ضممض بن زرعة عن شريح بن عبيد أن أبا هرهم السمعي كان يحدث أن أبا أيوب الأنباري حدثه أن رسول الله ﷺ كان يقول: «إن كل صلاة تحط ما بين يديها من خطيئة».

وقال أبو جعفر بن جرير^(٤) حدثنا محمد بن عوف حدثنا محمد بن إسماعيل حدثنا أبي عن ضممض بن زرعة عن شريح بن عبيد عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «جعلت الصلوات كفارات لما بينهن» فإن الله قال «إن الحسنات يذهبن السيئات».

وقال البخاري: حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا يزيد بن زريع عن سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي عن ابن مسعود أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة فأتى النبي ﷺ فأخبره فأنزل الله ﷺ وأقام الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات» فقال الرجل يا رسول الله ألي هذا؟ قال: «الجميع أمتى كلهم»^(٥) هكذا رواه في كتاب الصلاة وأخرجها في التفسير عن مسدد عن يزيد بن زريع بنحوه ورواه مسلم وأحمد وأهل السنن إلا أبا داود من طرق عن أبي عثمان النهدي واسمه عبد الرحمن بن مل به.

(١) أخرجه البخاري في المواقف باب ٦، ومسلم في المساجد حديث ٢٨٤.

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة حديث ١٦.

(٣) المسند ٤١٣ / ٥.

(٤) تفسير الطبرى ١٣٠ / ٧.

(٥) أخرجه البخاري في تفسير سورة ١١، باب ٦، ومسلم في التوبة حديث ٣٩، والترمذى في تفسير سورة ١١، باب ٦، وأحمد في المسند ٣٨٦ / ١، ٤٣٠.

ورواه الإمام أحمد ومسلم والترمذى والنمسائى وابن جرير وهذا لفظه من طرق عن سماك بن حرب أنه سمع إبراهيم بن يزيد يحدث عن علقة والأسود عن ابن مسعود قال جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني وجدت امرأة في بستان ففعلت بها كل شيء غير أني لم أجتمعها قبلتها ولزمنتها ولم أفعل غير ذلك فافعل بي ما شئت فلم يقل رسول الله ﷺ شيئاً فذهب الرجل. فقال عمر: لقد ستر الله عليه لو ستر على نفسه، فأتبعه رسول الله ﷺ بصره ثم قال: «ردوه على» فردوه عليه فقرأ عليه «أقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين» فقال معاذ وفي رواية عمر يا رسول الله أله وحده ألم للناس كافة؟ قال: «بل للناس كافة»^(١).

وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا محمد بن عبيد حدثنا أبان بن إسحاق عن الصباح بن محمد عن مرة الهمданى عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الدين إلا من أحب فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه والذي نفسي بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ولا يؤمن حتى يؤمن جاره بوائقه» قال: قلنا: وما بوائقه يا نبى الله؟ قال: «غشه وظلمه ولا يكسب عبد مالاً حراماً فينفق منه فيبارك له فيه ولا يتصدق فيقبل منه ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار إن الله لا يمحو السيء بالسيء ولكن يمحو السيء بالحسن إن الخبيث لا يمحو الخبيث».

وقال ابن جرير^(٣): حدثنا أبو السائب حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن إبراهيم قال: كان فلان ابن معتب رجلاً من الأنصار فقال يا رسول الله دخلت على امرأة فنلت منها ما ينال الرجل من أهلها إلا أني لم أوقعها فلم يدر رسول الله ﷺ ما يجيئه حتى نزلت هذه الآية «وأتم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين» فدعاه رسول الله فقرأها عليه وعن ابن عباس أنه عمرو بن غزية الأنصاري التمار وقال مقاتل هو أبو نفيل عامر بن قيس الأنصاري وذكر الخطيب البغدادي أنه أبو اليسر كعب بن عمرو.

وقال الإمام أحمد^(٤) حدثنا يونس وعفان قالا: حدثنا حماد يعني ابن سلمة عن علي بن زيد قال عفان أبنانا علي بن يزيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أن رجلاً أتى عمر فقال إن

(١) أخرجه مسلم في التوبة حديث ٤٢ ، وأبو داود في الحدود باب ٣١ ، والترمذى في تفسير سورة ١١ ، باب ٤ ، وأحمد في المستند ٤٤٩ / ١ ، والطبرى في تفسيره ١٣١ / ٧ .

(٢) المستند ٣٨٧ / ١ .

(٣) تفسير الطبرى ١٣٢ / ٧ .

(٤) المستند ٢٤٥ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ / ١ .

امرأة جاءت تباعيه فأدخلتها الدولج^(١) فأصبحت منها ما دون الجماع، فقال ويحك لعلها مغيبة^(٢) في سبيل الله؟ قال أجل، قال فائت أبا بكر فسله. قال فأتأه فسألها فقال لعلها مغيبة في سبيل الله؟ فقال مثل قول عمر ثم أتى النبي ﷺ فقال له مثل ذلك قال «فلعلها مغيبة في سبيل الله» ونزل القرآن «وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنت يذهبن السيئات» إلى آخر الآية، فقال يا رسول الله لي خاصة أم للناس عامة؟ فضرب يعني عمر صدره بيده وقال لا ولا نعمة عين بل للناس عامة فقال رسول الله ﷺ: «صدق عمر».

وروى الإمام أبو جعفر بن جرير^(٣) من حديث قيس بن الربيع عن عثمان بن موهب عن موسى بن طلحة عن أبي اليسر كعب بن عمرو الأنباري قال أتنى امرأة تتبع مني بدرهم تمرة فقللت إن في البيت تمراً أجود من هذا فدخلت فأهويت إليها فقبلتها فأتيت عمر فسألته فقال أتق الله واستر على نفسك ولا تخبرن أحداً فلم أصبر حتى أتيت أبا بكر فسألته فقال أخلفت رجلاً غازياً في سبيل الله في أهله بمثل هذا» حتى ظنت أنني من أهل النار حتى تمييت أنني أسلمت ساعتين فاطرق رسول الله ﷺ ساعة فنزل جبريل فقال أبو اليسر فجئت فقرأ عليّ رسول الله «وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنت يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين» فقال إنسان: يا رسول الله له خاصة أم للناس عامة؟ قال «للناس عامة».

وقال الحافظ أبو الحسن الدارقطني حدثنا الحسين بن إسماعيل المحاملي حدثنا يوسف بن موسى حدثنا جرير عن عبد الملك بن عمير عن عبد الرحمن بن أبي ليلي عن معاذ بن جبل أنه كان قاعداً عند النبي ﷺ فجاء رجل فقال: يا رسول الله ما تقول في رجل أصاب من امرأة لا تحل له فلم يدع شيئاً الرجل يصيبه من امرأته إلا قد أصاب منها غير أنه لم يجامعها؟ فقال له النبي ﷺ: «تواضاً وضوءاً حسناً ثم قم فصل» فأنزل الله عز وجل هذه الآية يعني قوله: «وأقم الصلاة طرفي النهار» فقال معاذ أهي له خاصة أم للمسلمين عامة؟ قال: «بل للمسلمين عامة» ورواه ابن جرير^(٤) من طرق عن عبد الملك بن عمير به.

وقال عبد الرزاق حدثنا محمد بن مسلم عن عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ ذكر امرأة وهو جالس مع رسول الله ﷺ فاستأذنه لحاجة فاذن له فذهب يطلبها فلم يجدوها فأقبل الرجل يريد أن يبشر النبي ﷺ بالمطر فوجد المرأة جالسة على غدير فدفع في صدرها وجلس بين رجلها فصار ذكره مثل الهدبة فقام نادماً حتى أتى النبي ﷺ فأخبره

(١) الدولج: المخدع، وهو البيت الصغير داخل البيت.

(٢) المغيبة: التي غاب عنها زوجها.

(٣) تفسير الطبرى / ٧ ١٣٤.

(٤) تفسير الطبرى / ٧ ١٣٣.

بما صنع فقال له: «استغفر ربك وصل أربع ركعات» قال: وتلا عليه ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل﴾ الآية^(١).

وقال ابن جرير^(٢): حديثي عبد الله بن أحمد بن سيبويه حدثنا إسحاق بن إبراهيم حدثني عمرو بن الحارث حدثني عبد الله بن سالم عن الزبيدي عن سليم بن عامر أنه سمع أبو أمامة يقول إن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أقم في حـدـ الله - مـرـة أو اثـتـين - فأعرض عنه رسول الله ﷺ ثم أقيمت الصلاة فلما فرغ النبي ﷺ من الصلاة قال: «أين هذا الرجل القائل أقم في حـدـ الله؟» قال: أنا ذا. قال: أتممت الوضوء وصليت معنا آنفـاً؟ قال: نـعـمـ. قال: «فإنك من خطـيـئـتك كـيـومـ ولـدـتكـ أـمـكـ فـلـاـ تـعـدـ» وأنزل الله على رسول الله ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنـاتـ يـذـهـبـنـ السـيـئـاتـ ذـلـكـ ذـكـرـىـ لـلـذـاكـرـينـ﴾.

وقال الإمام أحمد^(٣) حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة أباًنا علي بن زيد عن أبي عثمان قال كنت: مع سلمان الفارسي تحت شجرة فأخذ منها غصناً يابساً فهزه حتى تحـاتـ ورقـهـ ثم قال: يا أبي عثمان ألا تسألـنيـ لمـ أـفـعـلـ هـذـاـ قـلـتـ وـلـمـ تـفـعـلـهـ؟ـ قالـ هـكـذـاـ فـعـلـ رسـولـ اللهـ ﷺـ فـقـالـ:ـ إنـ المـسـلـمـ إـذـاـ توـضـأـ فـأـحـسـنـ الـوـضـوـءـ ثـمـ صـلـىـ الصـلـوـاتـ الـخـمـسـ تـحـاتـ خـطـيـاـهـ كـمـاـ يـتـحـاتـ هـذـاـ الـوـرـقـ.ـ وـقـالـ:ـ ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنـاتـ يـذـهـبـنـ السـيـئـاتـ ذـلـكـ ذـكـرـىـ لـلـذـاكـرـينـ﴾.

وقال الإمام أحمد^(٤): حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن حبيب بن أبي ثابت عن ميمون بن أبي شبيب عن معاذ أن رسول الله ﷺ قال له: يا معاذ «اتبع السيئة الحسنة تمـحـهاـ وـخـالـقـ النـاسـ بـخـلـقـ حـسـنـ».ـ

وقال الإمام أحمد^(٥): حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن حبيب عن ميمون بن أبي شبيب عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال: «اتق اللهـ حـيـثـماـ كـنـتـ وـأـتـبـعـ السـيـئـةـ الـحـسـنـةـ تمـحـهاـ وـخـالـقـ النـاسـ بـخـلـقـ حـسـنـ».ـ

وقال أحمد^(٦) حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن شمر بن عطية عن أشياخه عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله أوصـنـيـ،ـ قالـ:ـ «إـذـاـ عـمـلـتـ سـيـئـةـ فـأـتـبـعـهـاـ بـحـسـنـةـ تمـحـهاـ»ـ قالـ:ـ قـلـتـ:ـ يا رسول اللهـ أـمـنـ الـحـسـنـاتـ لـاـ إـلـهـ إـلـاـ اللهـ؟ـ قـالـ:ـ «ـهـيـ أـفـضـلـ الـحـسـنـاتـ»ـ.

(١) تفسير الطبرى ١٣٤/٧.

(٢) تفسير الطبرى ١٣٣/٧ ، وفيه: عبد الله بن أحمد بن شبوه، بدل سيبويه.

(٣) المستند ٤٣٧/٥.

(٤) المستند ٢٢٨/٥.

(٥) المستند ١٥٣/٥ ، ١٥٨.

(٦) المستند ١٦٩/٥.

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي حدثنا هذيل بن إبراهيم الجمامي حدثنا عثمان بن عبد الرحمن الزهري عن ولد سعد بن أبي وقاص عن الزهري عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما قال عبد لا إله إلا الله في ساعة من ليل أو نهار إلا طلست^(١) ما في الصحيفة من السيئات حتى تسكن إلى مثلها من الحسنات» عثمان بن عبد الرحمن يقال له الوقاصي فيه ضعف. وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا بشر بن آدم وزيد بن أخرم قالا حدثنا الضحاك بن مخلد حدثنا مستور بن عباد عن ثابت عن أنس أن رجلاً قال: يا رسول الله ما تركت من حاجة ولا داجة^(٢) فقال رسول الله ﷺ: «تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟» قال: بلـى. قال «فإن هذا يأتي على ذلك» تفرد به من هذا الوجه مستور.

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أَفْلَوْ بَقِيَّةً يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مَمَنْ أَجْبَحَنَا مِنْهُمْ وَأَتَبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ۝ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيَهْلِكَ الْقُرَىٰ بِطُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ۝

يقول تعالى فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض، قوله: «إلا قليلاً» أي قد وجد منهم من هذا الضرب قليل لم يكونوا كثيراً وهم الذين أنجاحهم الله عند حلول غضبه وفجأة نقمته ولهذا أمر الله تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر كما قال تعالى: «ولتكن هذه الأمة أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون» [آل عمران: ٤٠] وفي الحديث «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغوروه أو شك أن يعمهم الله بعقاب»^(٣) ولهذا قال تعالى: «فلو لا كان من القرون من قبلكم ألو بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أنجينا منهم».

وقوله: «واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه» أي استمروا على ما هم عليه من المعاصي والمنكرات ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك حتى فجأهم العذاب «وكانوا مجرمين» ثم أخبر تعالى أنه لم يهلك قرية إلا وهي ظالمة لنفسها ولم يأت قرية مصلحة بأمسه وعداها فقط حتى يكونوا هم الطالمين كما قال تعالى: «وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم» [هود: ١٠١] وقال: «وما ربك بظلم للعبيد» [فصلت: ٤٦].

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَوْنَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ

(١) طلست: أي محـت.

(٢) الداجة: أخفـ من الحاجـة.

(٣) أخرجـ ابن ماجـهـ فيـ الفتـنـ بـابـ ٢٠ـ، وأـحمدـ فيـ المسـندـ ٩، ٥، ٢/١ـ.

كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسُ أَجْمَعِينَ ﴿٢٩﴾

يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كلهم أمة واحدة من إيمان أو كفر كما قال تعالى: «ولو شاء ربكم لآمن من في الأرض كلهم جمِيعاً» [يوسف: ٩٩] قوله: «ولَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مِنْ رَحْمَةِ رَبِّكَ» أي ولا يزال الخلف بين الناس في أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وأرائهم، وقال عكرمة: مختلفين في الهدى وقال الحسن البصري: مختلفين في الرزق يسخر بعضهم بعضاً، والمشهور الصحيح الأول.

وقوله: «إِلَّا مِنْ رَحْمَةِ رَبِّكَ» أي إِلَّا الْمَرْحُومِينَ مِنْ أَتَابِعِ الرَّسُولِ الَّذِينَ تَمْسَكُوا بِمَا أَمْرَوْا بِهِ مِنَ الدِّينِ، أَخْبَرْتَهُمْ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْهِمْ وَلَمْ يَزِلْ ذَلِكَ دَأْبُهُمْ حَتَّى كَانَ النَّبِيُّ وَخَاتَمُ الرَّسُولِ وَالْأَنْبِيَاءِ فَاتَّبَعُوهُ وَصَدَقُوهُ وَوَازْرُوهُ فَفَازُوا بِسَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لِأَنَّهُمْ فَرَقَةٌ نَاجِيَةٌ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْوِيِّ فِي الْمَسَانِيدِ وَالسَّنَنِ مِنْ طَرِيقٍ يَشَدُّ بَعْضَهَا بَعْضًاً «إِنَّ الْيَهُودَ افْتَرَقُتْ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فَرَقَةً وَإِنَّ النَّصَارَى افْتَرَقُتْ عَلَى اثْتَتِينَ وَسَبْعِينَ فَرَقَةً وَسَفَرَتْرَقَ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثَ وَسَبْعِينَ فَرَقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا فَرَقَةً وَاحِدَةً»، قالوا: «وَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟» قَالَ: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»^(١) رواه الحاكم في مستدركه بهذه الزيادة.

وقال عطاء: «ولَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ» يعني اليهود والنصارى والمجوس «إِلَّا مِنْ رَحْمَةِ رَبِّكَ» يعني الحنيفية وقال قتادة أهل رحمة الله أهل الجماعة وإن تفرق ديارهم وأبدانهم وأهل معصيته أهل فرقه وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم، قوله: «وَلَذِكْرُ خَلْقِهِمْ» قال الحسن البصري في رواية عنه وللخلاف خلقهم، وقال مكي بن أبي طلحة عن ابن عباس: خلقهم فريقين كقوله: «فَمِنْهُمْ شَقِيقٌ وَسَعِيدٌ» وقيل للرحمة خلقهم قال ابن وهب أخبرني مسلم بن خالد عن ابن أبي نجيح عن طاووس: أن رجلين اختصما إِلَيْهِ فَأَكْتَرَا فَقَالَ طاووس اخْتَلَفُتِي مَا أَكْرَتَمَا فَقَالَ أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ: لَذِكْرُ خَلْقَنَا فَقَالَ طاووس: كَذَبْتَ فَقَالَ أَلِيسَ اللَّهُ يَقُولُ: «وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مِنْ رَحْمَةِ رَبِّكَ وَلَذِكْرُ خَلْقِهِمْ» قال لم يخلقهم ليختلفوا ولكن خلقهم للجماعة والرحمة كما قال الحكم بن أبيان عن عكرمة عن ابن عباس قال: للرحمة خلقهم ولم يخلقهم للعذاب، وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة ويرجع معنى هذا القول إلى قوله تعالى: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّةَ وَالْإِنْسَانَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ» [الذاريات: ٥٦].

وقيل بل المراد للرحمة والاختلاف خلقهم كما قال الحسن البصري في رواية عنه في قوله: «وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مِنْ رَحْمَةِ رَبِّكَ وَلَذِكْرُ خَلْقِهِمْ» قال الناس مختلفون على أديان شتى «إِلَّا مِنْ رَحْمَةِ رَبِّكَ» فمن رحم ربكم غير مختلف فقيل له لذكْر خلقهم قال خلق هؤلاء

(١) أخرجه أبو داود في السنّة باب ١ ، والترمذى في الإيمان باب ١٨ ، وابن ماجه في الفتن باب ١٧ ، وأحمد في المسند ٢ / ٣٣٢ ، ١٢٠ / ٣ ، ١٤٥ .

لجنته وخلق هؤلاء لناره وخلق لعذابه وكذا قال عطاء بن أبي رباح والأعمش ، وقال ابن وهب سألت مالكاً عن قوله تعالى : « ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم » قال فريق في الجنة وفريق في السعير .

وقد اختار هذا القول ابن جرير وأبو عبيد الفراء وعن مالك فيما روينا عنه من التفسير « ولذلك خلقهم » قال للرحمه وقال قوم للاختلاف .

وقوله : « وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » يخبر تعالى أنه قد سبق في قضائه وقدره لعلمه التام وحكمته النافذة أن من من خلقه من يستحق الجنة ومنهم من يستحق النار وأنه لا بد أن يملاً جهنم من هذين التقليدين الجن والإنس وله الحاجة البالغة والحكمة التامة ، وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « اختصمت الجنة والنار فقالت الجنة : ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم وقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجررين فقال الله عز وجل للجنة : أنت رحمتي أرحم بك من أشاء وقال للنار أنت عذابي أنتقم بك من أشاء ولكل واحدة منكم ملؤها فأما الجنة فلا يزال فيها فضل حتى ينشيء الله لها خلقاً يسكن فضل الجنة وأما النار فلا تزال تقول هل من مزيد حتى يضع عليها رب العزة قدمه فتقول قط قط^(١) وعزتك^(٢) . »

وَكُلَّا نَقْصٌ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرَّسُولِ مَا مُثِّلَ بِهِ فَوَادِكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذَكْرٌ
لِلْمُؤْمِنِينَ

يقول تعالى وكل أخبار نصها عليك من أنباء الرسل المتقدمين من قبلك مع أممهم وكيف جرى لهم من المحاجات والخصومات وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى وكيف نصر الله حزبه المؤمنين وخذل أعداء الكافرين . كل هذا مما ثبت به فوادك أي قلبك يا محمد ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسوة .

وقوله : « وجاءك في هذه الحق » أي هذه السورة قال ابن عباس ومجاهد وجماعة من السلف ، وعن الحسن في رواية عنه وقتادة في هذه الدنيا والصحيح في هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء وكيف أنجاهم الله والمؤمنين بهم وأهلك الكافرين جاءك فيها قصص حق ونبياً صدق وموعظة يرتدع بها الكافرون وذكرى يتذكر بها المؤمنون .

وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ إِنَّا عَمَلَنَا وَأَنْتَنِظُرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ

(١) قط قط : أبي حسبي .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد باب ٢٥ ، وتفسير سورة ٥٠ ، باب ١ ، ومسلم في الجنة حديث ٣٥ ، ٣٦ ، وأحمد في المسند ٣١٤ / ٢ .

يقول تعالى آمراً رسوله أن يقول للذين لا يؤمنون بما جاء به من ربه على وجه التهديد «اعملوا على مكانتكم» أي على طريقتكم ومنهجكم «إنا عاملون» أي على طريقتنا ومنهجنا «وانظروا إنا منتظرؤن» أي «فستعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون» وقد أنجز الله لرسوله وعده ونصره وأيده وجعل كلمته هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلة والله عزيز حكيم.

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَأَعْبُدُهُ وَنَوَّكُلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ

يخبر تعالى أنه عالم غيب السموات والأرض وأنه إليه المرجع والمأب، وسيؤتي كل عامل عمله يوم الحساب، فله الخلق والأمر، فأمر تعالى بعبادته والتوكيل عليه. فإنه كاف من توكل عليه وأناب إليه، وقوله: «وما ربك بغافل عما تعملون» أي ليس يخفى عليه ما عليه مكتوبك يا محمد بل هو عليم بأحوالهم وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء في الدنيا والآخرة وسينصرك وحزبك عليهم في الدارين، وقال ابن جرير^(١) حدثنا ابن وكيع حدثنا زيد بن العباب عن جعفر بن سليمان عن أبي عمران الجوني عن عبد الله بن رباح عن كعب قال: خاتمة التوراة خاتمة هود. آخر تفسير سور هود عليه السلام والله الحمد والمنة.

سورة يوسف

وهي مكية

روى الثعلبي وغيره من طريق سلام بن سلم، ويقال: سليم المدائني، وهو متوفى عن هارون بن كثير، وقد نص على جهالته أبو حاتم، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن أبي أمامة، عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ «علموا أرقاكم سورة يوسف، فإنه أيمما مسلم تلاها أو علمها أهلها أو ما ملكت يمينه، هون الله عليه سكرات الموت وأعطاه من القوة أن لا يحسد مسلماً»، وهذا من هذا الوجه لا يصح لضعف إسناده بالكلية.

وقد ساقه الحافظ ابن عساكر متابعاً من طريق القاسم بن الحكم، عن هارون بن كثير به، ومن طريق شابة عن محمد بن عبد الواحد التضري، عن علي بن زيد بن جدعان، وعن عطاء بن أبي ميمونة، عن زر بن حبيش، عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ، فذكر نحوه، وهو منكر من سائر طرقه، وروى البيهقي في الدلائل أن طائفة من اليهود حين سمعوا رسول الله ﷺ يتلو هذه السورة أسلموا لموافقتها ما عندهم، وهو من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّبُّ الَّذِي لَمْ يَأْتِ بِكَيْفَيْتِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ لَمْ يَجِدْ نَفْعًا مِنْ تَلَاقِكُمْ عَلَيْكَ أَحْسَنُ
الْفَضَّاصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْءَانَ وَإِنْ كَثُرَتْ مِنْ قَبْلِهِ لَمْ يَأْتِ مِنْ أَفْلَقَلِينَ ۝

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة. قوله: «تلك آيات الكتاب»، أي هذه آيات الكتاب، وهو القرآن المبين، أي الواضح الجلي الذي يفصح عن الأشياء المبهمة، ويفسرها ويبينها «إنما أنزلناه قرآنًا عربيًّا لعلكم تعقلون» وذلك لأن لغة العرب أفصحت اللغات وأبيتها وأوسعتها وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالتفوس، فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات، على أشرف الرسل بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابتدىء إنزاله في أشرف شهور السنة، وهو رمضان، فكم من كل الوجوه، ولهذا قال تعالى: «لَمْ يَجِدْ نَفْعًا مِنْ تَلَاقِكُمْ عَلَيْكَ أَحْسَنُ الْفَضَّاصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْءَانَ» بسبب إيحائنا إليك هذا القرآن.

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية ما رواه ابن جرير^(١): حديثي نصر بن عبد الرحمن الأودي، حدثنا حكام الرازي عن أيوب، عن عمرو هو ابن قيس الملائقي، عن ابن عباس قال: قالوا: يا رسول الله ﷺ لو قصصت علينا؟ فنزلت «نحن نقص عليك أحسن القصص»، ورواه من وجه آخر عن عمرو بن قيس مرسلاً. وقال أيضاً^(٢): حدثنا محمد بن سعيد القطان، حدثنا عمرو بن محمد، أئبنا خالد الصفار عن عمرو بن قيس، عن عمرو بن مرة، عن مصعب بن سعد، عن أبيه قال: أنزل على النبي ﷺ القرآن. قال: فتلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله لو قصصت علينا؟ فأنزل الله عز وجل «الر تلك آيات الكتاب المبين» إلى قوله: «لعلكم تعقلون» ثم تلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله لو حدثتنا، فأنزل الله عز وجل «الله نزل أحسن الحديث» الآية، وذكر الحديث، ورواه الحاكم من حديث إسحاق بن راهويه عن عمرو بن محمد الفرجي المنقري به.

وروى ابن جرير^(٣) بسنده عن المسعودي، عن عون بن عبد الله قال: مل أصحاب رسول الله ﷺ ملة فقالوا: يا رسول الله حدثنا، فأنزل الله «الله نزل أحسن الحديث» ثم ملوا ملة أخرى، فقالوا: يا رسول الله حدثنا فوق الحديث، ودون القرآن يعنون القصص، فأنزل الله عز وجل «الر تلك آيات الكتاب المبين إنا أنزلناه قرآنًا عربياً لعلكم تعقلون نحن نقص عليك أحسن القصص» الآية، فأرادوا الحديث، فدلهم على أحسن الحديث، وأرادوا القصص فدلهم على أحسن القصص.

ومما يناسب ذكره عند هذه الآية الكريمة المشتملة على مدح القرآن، وأنه كاف عن كل ما سواه من الكتب ما رواه الإمام أحمد^(٤): حدثنا سريج بن النعمان، أئبنا هشيم، أئبنا مجالد عن الشعبي، عن جابر بن عبد الله أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصحابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه على النبي ﷺ. قال: فغضب وقال: «أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبونه، أو بباطل فتصدقونه، والذي نفسي بيده، لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني».

وقال الإمام أحمد^(٥): حدثنا عبد الرزاق، أئبنا سفيان عن جابر، عن الشعبي، عن عبد الله بن ثابت قال: جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني مررت بأخ لي من قريطة، فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك؟ قال: فتغير وجه رسول الله ﷺ، قال

(١) تفسير الطبرى ١٤٧/٧.

(٢) تفسير الطبرى ١٤٨/٧.

(٣) تفسير الطبرى ١٤٧/٧، ١٤٨.

(٤) المستند ٣٧٨/٣.

(٥) المستند ٣٦٥، ٣٦٦/٣.

عبد الله بن ثابت: فقلت له: ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: رضينا بالله ربنا وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً. قال: فسرى عن النبي ﷺ وقال: «والذي نفس محمد بيده، لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم حظي من الأمم، وأنا حظكم من النبيين».

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا عبد الغفار بن عبد الله بن الزبير، حدثنا علي بن مسهر عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن خليفة بن قيس، عن خالد بن عرفطة قال: كنت جالساً عند عمر إذ أتي برجل من عبد القيس مسكنه بالسوس، فقال له عمر: أنت فلان بن فلان العبد؟ قال: نعم. قال: وأنت النازل بالسوس^(١)? قال: نعم، فضربه بقناة معه، قال: فقال الرجل: ما لي يا أمير المؤمنين؟ فقال له عمر: اجلس فجلس، فقرأ عليه ﷺ بسم الله الرحمن الرحيم آلل تلك آيات الكتاب المبين إنا أنزلناه قرآنًا عرباً لعلكم تعقلون نحن نقص عليك أحسن القصص» - إلى قوله - «لمن الغافلين» فقرأها عليه ثلاثاً، وضربه ثلاثة، فقال له الرجل: ما لي يا أمير المؤمنين؟ فقال: أنت الذي نسخت كتاب دانيال. قال: مرنبي بأمرك أتبعه، قال: انطلق فامحه بالحجيم^(٢) والصوف الأبيض ثم لا تقرأه ولا تقرئه أحداً من الناس فلن بلغني عنك أنك قرأته أو أقرأته أحداً من الناس لأنه كذلك عقوبة^(٣).

ثم قال، له اجلس فجلس بين يديه، فقال: انطلق أنا فانتسخت كتاباً من أهل الكتاب، ثم جئت به في أديم، فقال لي رسول الله ﷺ: «ما هذا في يدك يا عمر؟» قال: قلت: يا رسول الله كتاب نسخته لتزداد به علماً إلى علمنا، فغضب رسول الله ﷺ حتى احمرت وجنتاه، ثم نودي بالصلوة جامعاً، فقالت الأنصار: أغضب نيكم الله ﷺ؟ السلاح السلاح، فجاوزوا حتى أحدقوا بمذبح رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس إني قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه، واختصر لي اختصاراً، ولقد أتيتكم بها بيضاء نقية، فلا تتهوكوا ولا يغرنكم المتهوكون».

قال عمر: فقمت فقلت: رضيت بالله ربنا وبالإسلام ديناً، وبك رسولاً، ثم نزل رسول الله ﷺ، وقد رواه ابن أبي حاتم في تفسيره مختصراً من حديث عبد الرحمن بن إسحاق به وهذا حديث غريب من هذا الوجه، وعبد الرحمن بن إسحاق هو أبو شيبة الواسطي، وقد ضعفوه وشيخه. قال البخاري: لا يصح حديثه.

قلت: وقد روی له شاهد من وجه آخر، فقال الحافظ أبو بكر أحمد بن إبراهيم

(١) السوس: بلدة بخوزستان، وجد فيها دانيال، فدفن في نهرها تحت الماء، وغم قبره، وموضعه ظاهر يزار.

(٢) الحجيم: الماء الحار.

(٣) أنهكه عقوبة: أي بالغ في عقوبته.

الإسماعيلي: أخبرني الحسن بن سفيان، حدثنا يعقوب بن سفيان، حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن العلاء الزبيدي، حدثني عمرو بن العمارث، حدثنا عبد الله بن سالم الأشعري عن الزبيدي، حدثنا سليم بن عامر أن جبير بن نفير حدثهم أن رجلين كانوا بحمص في خلافة عمر رضي الله عنه، فأرسل إليهما فimin أرسل من أهل حمص، وكانا قد اكتبا من اليهود صلاصة فأخذها معهما يستفتيان فيها أمير المؤمنين يقولون: إن رضيها لنا أمير المؤمنين ازدنا فيها رغبة، وإن نهانا عنها رفضناها، فلما قدموا عليه قالا: إننا بأرض أهل الكتاب، وإننا نسمع منهم كلاماً تقشعر منه جلوتنا، أفناخذ منه أو نترك؟ فقال: لعلكم كتبتما منه شيئاً؟ فقالا: لا، قال سأحدثكم: انطلقت في حياة النبي ﷺ حتى أتيت خيراً، فوجدت يهودياً يقول قوله أعزبني، فقلت: هل أنت مكتبي مما تقول؟ قال: نعم فأتيت بأديم، فأخذ ي ملي على حتى كتبت في الأكرع، فلما رجعت قلت: يا نبي الله وأخبرته.

قال «أتني به» فانطلقت أرغم عن الشيء رجاء أن أكون جئت رسول الله ببعض ما يحب، فلما أتيت به قال: «اجلس أقرأ علي» فقرأت ساعة، ثم نظرت إلى وجه رسول الله ﷺ فإذا هو يتلون، فتحيرت من الفرق، فما استطعت أن أجيز منه حرفاً، فلما رأى الذي بي رفعه ثم جعل يتبعه رسمًا فيمحوه بريقه، وهو يقول: «لا تتبعوا هؤلاء فإنهم قد هوكوا وتهوكوا» حتى محا آخره حرفاً حرفاً. قال عمر رضي الله عنه: فلو علمت أنكم كتبتما منه شيئاً جعلتكم نكالاً لهذه الأمة، قال: والله ما نكتب منه شيئاً أبداً، فخرجا بصلاصفهما، فحفرا لها، فلم يألوا أن يعمقا ودفناها، فكان آخر العهد منها، وهكذا روى الثوري عن جابر بن يزيد الجعفي عن الشعبي عن عبد الله بن ثابت الأنباري عن عمر بن الخطاب بنحوه، وروى أبو داود في المراسيل من حديث أبي قلابة عن عمر نحوه، والله أعلم.

إذ قال يوسف لأبيه يتأتى إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي سجدت

يقول تعالى: اذْكُرْ لِقَوْمِكَ يَا مُحَمَّدُ فِي قَصْصِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَصْصَةِ يُوسُفَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ، وَأَبُوهُ هُوَ يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، كَمَا قَالَ الْإِمامُ أَحْمَدُ^(١): حَدَّثَنَا عَبْدُ الصَّمْدِ حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: «الْكَرِيمُ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنُ الْكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ» انفرد بإخراجه البخاري^(٢)، فرواه عن عبد الله بن الصمد عن عبد الصمد به، وقال البخاري أيضًا: حدثنا محمد، أنبأنا عبدة عن عبيد الله عن سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هريرة قال: سئل رسول الله ﷺ، أي الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم» قالوا: ليس عن هذا نسأل.

(١) المسند ٩٦/٢

(٢) كتاب التفسير، تفسير سورة ١٢، باب ١.

قال: «فأكفر الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله» قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فعن معادن العرب تسألوني؟» قالوا: نعم. قال «فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا» ثم قال: تابعه أبوأسامة عن عبيد الله.

وقال ابن عباس رؤيا الأنبياء وحي، وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام أن الأحد عشر كوكباً عبارة عن إخوته، وكانوا أحد عشر رجلاً سواه، والشمس والقمر عبارة عن أمه وأبيه. روي هذا عن ابن عباس والضحاك وقتادة وسفيان الثوري وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقد وقع تفسيرها بعد أربعين سنة، وقيل: ثمانين سنة، وذلك حين رفع أبيه على العرش وهو سريره وإخوته بين يديه **﴿وَخَرُوا لَهُ سَاجِدًا﴾** وقال يا أبت هذا تأويل رؤيائي من قبل قد جعلها ربي حقاً» [يوسف: ١٠٠].

وقد جاء في حديث تسمية هذه الأحد عشر كوكباً، فقال الإمام أبو جعفر بن جرير^(١): حدثني علي بن سعيد الكندي، حدثنا الحكم بن ظهير عن السدي عن عبد الرحمن بن سبط، عن جابر قال: أتى النبي ﷺ رجل من يهود يقال له بستانة اليهودي، فقال له: يا محمد أخبرني عن الكواكب التي رأها يوسف أنها ساجدة له، ما اسماؤها؟ قال: فسكت النبي ﷺ ساعة فلم يجبه بشيء. ونزل عليه جبريل عليه السلام فأخبره بأسمائها، قال: فبعث رسول الله ﷺ إليه فقال: «هل أنت مؤمن إذا أخبرتك بأسمائها؟» فقال: نعم. قال «جريان، والطارق، والذيال، ذو الكنفات، وقبس، ووثاب، وعمودان، والفيق، والمصبع، والضروح، ذو الفرغ، والضياء، والنور» فقال اليهودي: إيه والله إنها لأسماؤها.

ورواه البيهقي في الدلائل من حديث سعيد بن منصور عن الحكم بن ظهير. وقد روى هذا الحديث الحافظان أبو يعلى الموصلي وأبو بكر البزار في مستدينهما، وابن أبي حاتم في تفسيره، أما أبو يعلى فرواه عن أربعة من شيوخه عن الحكم بن ظهير به، وزاد: قال رسول الله ﷺ: «لما رأها يوسف قصها على أبيه يعقوب فقال له أبوه: هذا أمر متشتت يجمعه الله من بعد، - قال - والشمس أبوه والقمر أمّه» تفرد به الحكم بن ظهير الفزاري وقد ضعفه الأئمة وتركته الأكثرون، وقال الجوزجاني: ساقط وهو صاحب حديث حسن، ثم ذكر الحديث المروي عن جابر أن يهودياً سأله النبي ﷺ عن الكواكب التي رأها يوسف، ما اسماؤها؟ وأنه أجابه، ثم قال: تفرد به الحكم بن ظهير، وقد ضعفه الأربعة.

قَالَ يَسْعَى لَا نَقْصُصْ رُءْيَاتَكَ عَلَى إِحْوَاتِكَ فَيَكِيدُ وَلَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلنَّاسِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ

يقول تعالى مخبراً عن قول يعقوب لابنه يوسف حين قص عليه ما رأى من هذه الرؤيا التي تعبيرها خصوص إخوته له، وتعظيمهم إياه تعظيمًا زائداً بحيث يخرؤن له ساجدين إجلالاً واحتراماً وإكراماً، فخشى يعقوب عليه السلام أن يحدث بهذا المقام، أحداً من إخوته فيحسدونه على ذلك، فيبغون له الغواص حسداً منهم له، ولهذا قال له: ﴿لَا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً﴾ أي يحتالوا لك حيلة يردونك فيها.

ولهذا ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ قال «إذا رأى أحدكم ما يحب فليحدث به، وإذا رأى ما يكره فليتحول إلى جنبه الآخر، وليقل عن يساره ثلاثة، وليستعد بالله من شرها، ولا يحدث بها أحداً فإنها لن تضره»^(١) وفي الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد وبعض أهل السنن من روایة معاوية بن حيدة، القشيري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا على رجل طائر مالم تعبر، فإذا عبرت وقعت»^(٢) ومن هذا يؤخذ الأمر بكتمان النعمة حتى توجد وتظهر، كما ورد في حديث «استعينوا على قضاء الحوائج بكتمانها، فإن كل ذي نعمة محسود».

وَكَذَلِكَ يُجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعْلَمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُشَدُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ إِلَيْكَ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَهَا عَلَىٰ أَبْوَيْكَ مِنْ قَبْلٍ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن قول يعقوب لولده يوسف: إنه كما اختارك ربك وأراك هذه الكواكب مع الشمس والقمر ساجدة لك ﴿كَذَلِكَ يُجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أي يختارك ويصطفيك لنبوته ﴿ويعلمك من تأويل الأحاديث﴾ قال مجاهد وغير واحد: يعني تعبير الرؤيا^(٣) ﴿وَيُتَمَ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ﴾ أي بإرمالك والإيحاء إليك، ولهذا قال: ﴿كَمَا أَتَمَهَا عَلَىٰ أَبْوَيْكَ مِنْ قَبْلٍ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهو الخليل ﴿وَإِسْحَاقَ﴾ ولده وهو الذبيح في قول، وليس بالرجيع ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي هو أعلم حيث يجعل رسالته، كما قال في الآية الأخرى.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْرَوْيَهِ مَا يَتَّثَبَّ لِلسَّائِلِينَ ﴿٧﴾ إِذَا قَالُوا لِيُوسُفَ وَأَخْوَهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِيهِنَا مِنَّا وَمَنْ هُنَّ عُصَبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي صَلَلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ أَفَنَلُو يُوسُفَ أَوْ أَطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَيْكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَلَاحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا نَقْنُلُو يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَّبَاتِ الْجَنِّ يَلْقَطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَنِعِلِينَ ﴿١٠﴾

يقول تعالى: لقد كان في قصة يوسف وخبره مع إخوته آيات، أي عبرة ومواعظ للسائلين

(١) أخرجه أبو داود في السنة باب ١٨ ، والأدب باب ٨٨ ، وابن ماجه في الرؤيا باب ٤ ، والدارمي في الرؤيا باب ٥ ، وأحمد في المستند ٥/٢٩٦ ، ٣٠٣ ، ٣٠٩ .

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب باب ٨٨ ، وابن ماجه في الرؤيا باب ٦ ، وأحمد في المستند ٤/١٠ .

(٣) انظر تفسير الطبرى ٧/١٥١ .

عن ذلك المستخبرين عنه، فإنه خبر عجيب يستحق أن يخبر عنه ﴿إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا﴾ أي حلفوا فيما يظنون والله ليوسف وأخوه، يعنون بنيامين وكان شقيقه لأمه ﴿أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة﴾ أي جماعة، فكيف أحب ذينك الاثنين أكثر من الجماعة ﴿إن أبانا لفي ضلال مبين﴾ يعنون في تقديمهم علينا، ومحبته إياهما أكثر منا.

واعلم أنه لم يقدم دليلاً على نبوة إخوة يوسف، وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك، ومن الناس من يزعم أنهم أوحى إليهم بعد ذلك، وفي هذا نظر، ويحتاج مدعى ذلك إلى دليل، ولم يذكروا سوى قوله تعالى: ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأساطيل﴾ وهذا فيه احتمال لأن بطون بنى إسرائيل يقال لهم الأساطيل، كما يقال للعرب قبائل وللجم شعوب، يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أساطيل بنى إسرائيل فذكرهم إجمالاً لأنهم كثيرون، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف، ولم يقدم دليلاً على أعيان هؤلاء أنهم أوحى إليهم، والله أعلم.

﴿قتلوا يوسف أو اطروحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم﴾ يقولون: هذا الذي يزاحمكم في محبة أبيكم لكم أعدمه من وجه أبيكم، ليخلو لكم وحدكم، إما بأن تقتلوه أو تلقوه في أرض من الأراضي تستريحوا منه، وتخلوا أنتم بأبيكم ﴿وتكونوا من بعده قوماً صالحين﴾ فأضمرروا التوبة قبل الذنب ﴿قال قائل منهم﴾ قال قنادة ومحمد بن إسحاق: وكان أكبرهم واسمه روبيل. وقال السدي: الذي قال ذلك، يهوداً. وقال مجاهد هو شمعون الصفا.

﴿لا تقتلوا يوسف﴾ أي لا تصلوا في عداوته وبغضه إلى قتله، ولم يكن لهم سبيل إلى قتله لأن الله تعالى كان يريد منه أمراً لا بد من إمداده وإتمامه من الإيحاء إليه بالنبوة، ومن التمكين له ببلاد مصر والحكم بها، فصرفهم الله عنه بمقالة روبيل فيه وإشارته عليهم بأن يلقوه في غيابة الجب وهو أسفله. قال قنادة: وهي بشر بيت المقدس ﴿يلقطه بعض السيارة﴾ أي المارة من المسافرين فتستريحوا منه بهذا ولا حاجة إلى قتله ﴿إن كنتم فاعلين﴾ أي إن كنتم عازمين على ما تقولون. قال محمد بن إسحاق بن يسار: لقد اجتمعوا على أمر عظيم من قطعة الرحم، وعقوق الوالد، وقلة الرأفة بالصغير الضرع الذي لا ذنب له، وبالكبير الفاني ذي الحق والحرمة والفضل، وخطره عند الله مع حق الوالد على ولده، ليفرقوا بينه وبين أبيه وحيبه على كبر سنه ورقه عظمها، مع مكانه من الله فيمن أحبه طفلاً صغيراً، وبين ابنه على ضعف قوته وصغر سنه و حاجته إلى لطف والده وسكنه إليه، يغفر الله لهم وهو أرحم الراحمين، فقد احتملوا أمراً عظيماً رواه ابن أبي حاتم من طريق سلمة بن الفضل عنه.

قَاتُلُوا يَأْبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَمُّنَصِّحُونَ ﴿١﴾ أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدَّاً يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَمُّ

لَحَفَظُونَ ﴿٢﴾

لما تواتأوا على أخذه وطرحه في البئر كما أشار به عليهم أخوهم الكبير روبيل، جاؤوا أباهم يعقوب عليه السلام فقالوا: ما بالك ﴿لَا تَأْمِنَا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ وهذه توطئة ودعوى، وهم يريدون خلاف ذلك لما له في قلوبهم من الحسد لحب أبيه له ﴿أَرْسَلْنَا إِلَيْهِ مَعَنَا﴾ أي ابعثه معنا ﴿غَدَا نَرْتَعُ وَنَلْعَبُ﴾ وقرأ بعضهم بالياء ﴿يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ﴾ قال ابن عباس: يسعى وينشط^(١)، وكذا قال قتادة والضحاك والستي وغيرهم ﴿وَإِنَا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ يقولون: ونحن نحفظه ونحوطه من أجلك.

قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذَهَّبُوا إِلَيْهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الْذَّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ فَقَالُوا لَيْسَ أَكَلَهُ الْذَّئْبُ وَنَحْنُ عَصِبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَسْرَانٍ وَنَ

يقول تعالى مخبراً عن نبيه يعقوب أنه قال لبنيه في جواب ما سألوا من إرسال يوسف معهم إلى الرعي في الصحراء ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذَهَّبُوا إِلَيْهِ﴾ أي يشق على مفارقته مدة ذهابكم به إلى أن يرجع، وذلك لفروط محبته له لما يتوضّم فيه من الخير العظيم وشمائل النبوة والكمال فيخلق والخلق صلوّات الله وسلامه عليه. قوله: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الْذَّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ يقول: وأخشى أن تستغلوا عنه برميكم ورعيكم فيأكله ذئب فأكله وأنتم لا تشعرون، فأخذوا من فمه هذه الكلمة، وجعلوها عذرهم فيما فعلوه، وقالوا مجيبين له عنها في الساعة الراهنة ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الْذَّئْبُ وَنَحْنُ عَصِبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَسْرَانٍ﴾ يقولون: لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا ونحن جماعة إنما إذا لھا الكون عاجزون.

فَلَمَّا ذَهَبُوا إِلَيْهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَمْعَلُوُهُ فِي عَيْنَتِ الْجَنِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْتِنَاهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ

يقول تعالى: فلما ذهب به إخوته من عند أبيه بعد مراجعتهم له في ذلك ﴿وَأَجْمَعُوا أَنْ يَمْعَلُوُهُ فِي غَيَّابِ الْجَب﴾ هذا فيه تعظيم لما فعلوه، أنهم اتفقوا كلهم على إلقاءه في أسفل ذلك الجب وقد أخذوه من عند أبيه فيما يظهر ونه له إكراماً له، وبساطاً وشرحاً لصدره، وإدخالاً للسرور عليه، فيقال إن يعقوب عليه السلام لما بعثه معهم ضمه إليه وقبله ودعا له، وذكر السدي وغيره أنه لم يكن بين إكرامهم له وبين إظهار الأذى له إلا أن غابوا عن عين أبيه وتواروا عنه، ثم شرعوا يؤذونه بالقول من شتم ونحوه، والفعل من ضرب ونحوه، ثم جاؤوا به إلى ذلك الجب الذي اتفقا على رمييه فيه، فربطوه بحبل ودلوه فيه، فكان إذا لجأ إلى واحد منهم لطممه وشتمه، وإذا تشبت بحفافات البئر ضربوا على يديه، ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة، فسقط في الماء غمره، فصعد إلى صخرة تكون في وسطه يقال لها الراغفة، فقام فوقها.

وقوله: «وأوحينا إليه لتبنتهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون»، يقول تعالى ذاكراً لطفه ورحمته وعائذته وإنزاله اليسر في حال العسر: إنه أوحى إلى يوسف في ذلك الحال الضيق تطبيباً لقلبه وتشييماً له، إنك لا تحزن مما أنت فيه، فإن لك من ذلك فرجاً ومخرجاً حسناً، وسينصرك الله عليهم ويعليك درجتك وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع، قوله: «وهم لا يشعرون». قال مجاهد وقتادة: «وهم لا يشعرون» بإيحاء الله إليه.

قال ابن عباس: ستبتنتهم بصنعيهم هذا في حقيقتك، وهم لا يعرفونك ولا يستشعرون بك، كما قال ابن جرير^(١): حدثني الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا صدقة بن عبادة الأنصاري عن أبيه، سمعت ابن عباس يقول: لما دخل إخوة يوسف عليه فعرفتهم وهم له منكرون، قال: جيء بالصواع^(٢) فوضعه على يده، ثم نقره فطن، فقال: إنه ليخبرني هذا الجام^(٣) أنه كان لكم آخر من أبيكم يقال له يوسف، يدنيه دونكم، وأنكم انطلقتم به وألقيتموه في غيابة الجب، قال: ثم نقره فطن، قال: فأتيتم أباكم فقلتم: إن الذئب أكله وجتنتم على قميصه بدم كذب، قال: فقال بعضهم لبعض: إن هذا الجام ليخبره بخبركم. قال ابن عباس: فلا نرى هذه الآية نزلت إلا فيهم «لتبتنتهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون».

وَجَاءُوَّا بَاهْمَ عِشَاءَ يَتَكُونُ ﴿١﴾ قَالُوا يَا تَابَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِي وَرَكَّنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَعِنَا فَأَكَلَهُ الذَّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنْتَ نَاصِدِقِينَ ﴿٢﴾ وَجَاءَهُوَ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمِ كَذِبٍ قَالَ بْلَ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَتَرَا فَصَبَرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ أَمْسَعَانُ عَلَى مَا تَصْفُونَ ﴿٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن الذي اعتمد إخوة يوسف بعد ما ألقوه في غيابة الجب، ثم رجعوا إلى أبيهم في ظلمة الليل ي يكون ويظهرون الأسف والجزع على يوسف ويتغممون لأبيهم، وقالوا معتذرين عما وقع فيما زعموا «إنا ذهبنا نستنق» أي نترامي، «وتركتنا يوسف عند متابعنا» أي ثيابنا وأمتعتنا، «فأكله الذئب»، وهو الذي كان قد جزع منه وحذر عليه.

وقوله: «وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين» تلطف عظيم في تقرير ما يحاولونه، يقولون: ونحن نعلم أنك لا تصدقنا والحالة هذه لو كنا عندك صادقين، فكيف وأنت تتهمنا في ذلك، لأنك خشيت أن يأكله الذئب، فأكله الذئب، فأنت معدور في تكذيبك لنا لغراية ما وقع، وعجب ما اتفق لنا في أمرنا هذا «وجاؤوا على قميصه بدم كذب» أي مكذوب مفترى، وهذا من الأفعال التي يؤكدون بها ما تمالئوا عليه من المكيدة، وهو أنهم عمدوا إلى

(١) تفسير الطبرى ١٥٩/٧.

(٢) الصواع: مكيال، يكال به.

(٣) الجام إناء من فضة.

سخلة^(١) فيما ذكره مجاهد والسدوي وغير واحد، فذبحوها ولطخوا ثوب يوسف بدمها، موهمين أن هذا قميصه الذي أكله فيه الذئب، وقد أصابه من دمه، ولكنهم نسوا أن يخرقوه، فلهذا لم يرج هذا الصنيع على النبي الله يعقوب، بل قال لهم معرضاً عن كلامهم إلى ما وقع في نفسه من لبسهم عليه «بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل» أي فاصبر صبراً جميلاً على هذا الأمر الذي اتفقتم عليه حتى يفرجه الله بعونه ولطفه «والله المستعان على ما تصفون» أي على ما تذكرون من الكذب والمحال.

قال الشوري عن سماك، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس «وجاؤوا على قميصه بدم كذب» قال: لو أكله السبع لخرق القميص^(٢)، وكذا قال الشعبي والحسن وقتادة وغير واحد. وقال مجاهد: الصبر الجميل الذي لا جزع فيه^(٣). وروى هشيم عن عبد الرحمن بن يحيى، عن حبان بن أبي جبلة، قال: سئل رسول الله ﷺ عن قوله: «فَصَبَرْ جَمِيل» فقال: صبر لا شكوى فيه، وهذا مرسل. وقال عبد الرزاق: قال الشوري، عن بعض أصحابه أنه قال: ثلاثة من الصبر: أن لا تحدث بوجعك، ولا بمصيبك، ولا تزركي نفسك وذكر البخاري^(٤) هنا حديث عائشة في الإفك حتى ذكر قولها: والله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف: «فَصَبَرْ جَمِيلْ وَاللهُ الْمُسْتَعْنَى عَلَى مَا تَصْفُون» [يوسف: ٦].

وَجَاءَتْ سِيَّارَةً فَأَرْسَلُوا وَارْدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَكْبِشَرَى هَذَا عَلَمٌ وَاسْرُوهُ بِصَنْعَةِ اللَّهِ عَلِيهِمْ بِمَا يَعْمَلُونَ وَشَرَوْهُ بِشَمْنَ بِخَسِّ دَرَاهِمَ مَعَدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الرَّاهِدِينَ

يقول تعالى مخبراً عما جرى ليوسف عليه السلام حين ألقاه إخوته وتركوه في ذلك الجب وحيداً فريداً، فمكث في البئر ثلاثة أيام فيما قاله أبو بكر بن عياش، وقال محمد بن إسحاق: لما ألقاه إخوته جلسوا حول البئر يومهم ذلك، ينظرون ماذا يصنع وما يصنع به، فساق الله له سيارة، فنزلوا قريباً من تلك البئر، وأرسلوا واردهم وهو الذي يتطلب لهم الماء، فلما جاء ذلك البئر وأدلوا دلوه فيها، تشبت يوسف عليه السلام فيها فأخرجوه واستبشر به، وقال: «يا بشري هذا غلام»

وقرأ بعض القراء يا بشري، فزعم السدي أنه اسم رجل، ناداه ذلك الرجل الذي أدللي دلوه معلماً له أنه أصاب غلاماً، وهذا القول من السدي غريب لأنه لم يسبق إلى تفسير هذه القراءة

(١) السخلة: ولد الشاة من المعز والضأن، ذكر أكان أم أنتي.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٧/١٦١.

(٣) انظر تفسير الطبرى ٧/١٦٢.

(٤) كتاب التفسير، تفسير سورة ١٢، باب ٣.

بهذا إلا في رواية عن ابن عباس، والله أعلم، وإنما معنى القراءة على هذا النحو يرجع إلى القراءة الأخرى، ويكون قد أضاف البشري إلى نفسه وحذف باء الإضافة، وهو يريدها كما تقول العرب: يا نفس اصبري ويا غلام أقبل، بحذف حرف الإضافة، ويجوز الكسر حينئذ والرفع، وهذا منه، وتفسرها القراءة الأخرى يا بشراي، والله أعلم.

وقوله: **﴿وأسروه بضاعة﴾** أي وأسره الواردون من بقية السيارة وقالوا: اشتريناه وتبعضناه من أصحاب الماء مخافة أن يشاركوهم فيه إذا علموا خبره، قاله مجاهد والسدی وابن جریر: هذا قول، وقال العوفی عن ابن عباس قوله: **﴿وأسروه بضاعة﴾** يعني إخوة يوسف أسروا شأنه، وكتموا أن يكون أخاهم، وكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوه، واختار البيع فذكره إخوته لوارد القوم، فنادى أصحابه **﴿يا بشرى هذا غلام﴾** يباع فإنه إخوته.

وقوله: **﴿والله علیم بما یعملون﴾** أي علیم بما یفعله إخوة يوسف ومشتروه، وهو قادر على تغيير ذلك ودفعه، ولكن له حکمة وقدر سابق، فترك ذلك ليمضي ما قدره وقضاه **﴿ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾** [الأعراف: ٥٤] وفي هذا تعريض لرسوله محمد ﷺ وإعلام له بأنني عالم بأذى قومك لك، وأنا قادر على الإنكار عليهم، ولكنني سأعطي لهم ثم أجعل لك العاقبة والحكم عليهم، كما جعلت ليوسف الحكم والعاقبة على إخوته.

وقوله: **﴿وشروه بشمن بخس دراهم معدودة﴾** يقول تعالى: وبائعه إخوته بشمن قليل. قاله مجاهد وعكرمة والبخس: هو النقص، كما قال تعالى: **﴿فلا يخاف بخساً ولا رهقاً﴾** [الجن: ١٣] أي اعتاض عنه إخوته بشمن دون قليل، ومع ذلك كانوا فيه من الزاهدين أي ليس لهم رغبة فيه، بل لو سئلوا بلا شيء لأجابوا. قال ابن عباس ومجاهد والضحاك: إن الضمير في قوله: **﴿وشروه﴾** عائد على إخوة يوسف. وقال قتادة: بل هو عائد على السيارة. والأول أقوى، لأن قوله: **﴿وكانوا فيه من الزاهدين﴾** إنما أراد إخوته لا أولئك السيارة، لأن السيارة استبشاوا به وأسروه بضاعة، ولو كانوا فيه زاهدين لما اشتوروه، فترجع من هذا أن الضمير في **﴿شروه﴾** إنما هو لإخوته.

وقيل: المراد بقوله **﴿بخس﴾** الحرام. وقيل: الظلم، هذا وإن كان كذلك لكن ليس هو المراد هنا، لأن هذا معلوم يعرفه كل أحد أن ثمنه حرام على كل حال وعلى كل أحد لأنه نبي ابن نبي ابن خليل الرحمن فهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، وإنما المراد هنا بالبخس الناقص أو الزيف أو كلامها، أي إنهم إخوته وقد باعواه، ومع هذا بأنقص الأثمان، ولهذا قال **﴿درارهم معدودة﴾**، فعن ابن مسعود رضي الله عنه: باعوه بعشرين درهماً، وكذا قال ابن عباس ونوف البکالی والسدی وقتادة وعطاء العوفی، وزاد اقتسموها درهمین درهمین.

وقال مجاهد:اثنان وعشرون درهماً. وقال محمد بن إسحاق وعكرمة: أربعون درهماً. وقال الضحاك في قوله ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الْمُزَاهِدِينَ﴾ وذلك أنهم لم يعلموا نبوته و منزلته عند الله عز وجل، وقال مجاهد: لما باعوه جعلوا يتبعونهم ويقولون لهم: استوثقوا منه لا يأبقي، حتى وقفوه بمصر فقال: من يبتاعني ولبيشر؟ فاشتراه الملك وكان مسلماً.

وَقَالَ الَّذِي أَشْرَكَهُ مِنْ مَصْرَ لِأُمْرَاتِهِ أَكْرَمِي مَثَوَّهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعُنَا أَوْ نَنْخَذُهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَنًا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلَعِلْمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ عَالِيٌّ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَلَمَّا بَلَغَ أَشَدَّهُءَتَنَّهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ بَفْرِي الْمُحْسِنِينَ ۝

يخبر تعالى بالطافه بيوسف عليه السلام أنه قيس له الذي اشتراه من مصر حتى اعتنى به وأكرمه، وأوصى أهله به، وتوضّم فيه الخير والصلاح، فقال لأمراته ﴿أَكْرَمِي مَثَوَّهَ عَسَى أَنْ يَنْفَعُنَا أَوْ نَنْخَذُهُ وَلَدًا﴾ وكان الذي اشتراه من مصر عزيزها وهو الوزير. حدثنا العوفي عن ابن عباس وكان اسمه قطفي.

وقال محمد بن إسحاق: اسمه أطفير بن روحيب وهو العزيز، وكان على خزان مصر، وكان الملك يومئذ الريان بن الوليد رجل من العمالق، قال: واسم امرأته راعيل بنت رعائيل^(١)، وقال غيره: اسمها زليخا، وقال محمد بن إسحاق أيضاً، عن محمد بن السائب، عن أبي صالح، عن ابن عباس: كان الذي باعه بمصر مالك بن دعر بن بويب بن عنتا بن مديان بن إبراهيم، فائ الله أعلم.

وقال أبو إسحاق عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود أنه قال: أفرس الناس ثلاثة: عزيز مصر حين قال لأمراته: ﴿أَكْرَمِي مَثَوَّهَ﴾، والمرأة التي قالت لأبيها ﴿يَا ابْنَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾ [القصص: ٢٦] الآية، وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما^(٢).

يقول تعالى: كما أنقلنا يوسف من إخوته ﴿كَذَلِكَ مَكَنًا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني بلاد مصر ﴿وَلَنَعْلَمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾.

قال مجاهد والستي: هو تعبير الرؤيا ﴿وَاللَّهُ عَالِيٌّ عَلَى أَمْرِهِ﴾ أي إذا أراد شيئاً فلا يرد ولا يمانع ولا يخالف، بل هو الغالب لما سواه. قال سعيد بن جبير في قوله: ﴿وَاللَّهُ عَالِيٌّ عَلَى أَمْرِهِ﴾: أي فعال لما يشاء. قوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يقول: لا يدركون حكمته في خلقه وتلطّفه و فعله لما يريد، قوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ أي يوسف عليه السلام ﴿أَشَدَّهُ﴾

(١) انظر تفسير الطبرى ١٧٢ / ٧.

(٢) انظر تفسير الطبرى ١٧٣ / ٧.

أي استكمل عقله وتم خلقه «آتيناه حكماً وعلماً» يعني النبوة أنه حباها بين أولئك الأقوام «وكذلك نجزي المحسنين» أي إنه كان محسناً في عمله عاملاً بطاعة الله تعالى.

وقد اختلف في مقدار المدة التي بلغ فيها أشد، فقال ابن عباس ومجاحد وقتادة: ثلاثة وثلاثون سنة. وعن ابن عباس: بضع وثلاثون. وقال الضحاك: عشرون، وقال الحسن: أربعون سنة. وقال عكرمة: خمس وعشرون سنة. وقال السدي: ثلاثون سنة. وقال سعيد بن جبير: ثمانية عشرة سنة. وقال الإمام مالك وربيعة بن زيد بن أسلم والشعبي: الأشد الحلم، وقيل غير ذلك، والله أعلم.

وَرَادَتْهُ الَّتِي هُوَ فَيَتَهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَعَلَقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّ
أَحْسَنَ مَثَوَى إِنَّمَا لَيَفْلُجُ الظَّالِمُونَ

يخبر تعالى عن امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها بمصر، وقد أوصاها زوجها به وبإكرامه، فراودته عن نفسه، أي حاولته على نفسه ودعنته إليها، وذلك أنها أحبته جداً لجماله وحسنه وبهائه، فحملها ذلك على أن تجملت له وغلقت عليه الأبواب ودعنته إلى نفسها، «وقالت هيت لك» فامتنع من ذلك أشد الامتناع، و«قال معاذ الله إنه رب أحسن مثواي» وكانوا يطلقون الرب على السيد الكبير، أي إن بعلك ربى أحسن مثواي أي متزلي، وأحسن إلي فلا أقابلها بالفاحشة في أهلها «إنه لا يفلح الظالمون»، قال ذلك مجاهد والسدى ومحمد بن إسحاق وغيرهم.

وقد اختلف القراء في قوله: «هيت لك» فقرأه كثيرون بفتح الهاء وإسكان الياء وفتح التاء، وقال ابن عباس ومجاحد وغير واحد: معناه أنها تدعوه إلى نفسها. وقال علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس: هيت لك، تقول هلم لك، وكذلك قال زر بن حبيش وعكرمة والحسن وقتادة. قال عمرو بن عبيد عن الحسن: وهي كلمة بالسريانية، أي عليك. وقال السدي: هيت لك، أي هلم لك، وهي بالقبطية. وقال مجاهد: هي لغة عربية تدعوه بها. وقال البخاري ^(١): وقال عكرمة: هيت لك، أي هلم لك بالحورانية. وهكذا ذكره معلقاً.

وقد أسنده الإمام جعفر بن جرير ^(٢): حدثني أحمد بن سهل الواسطي، حدثنا قرة بن عيسى، حدثنا النضر بن عربي الجزري عن عكرمة مولى ابن عباس في قوله: «هيت لك» قال: هلم لك، قال: هي بالحورانية، وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: وكان الكسائي يحكى هذه القراءة، يعني هيت لك، ويقول: هي لغة لأهل حوران وقعت إلى أهل الحجاز، ومعناها تعال. وقال أبو عبيدة: سألت شيخاً عالماً من أهل حوران، فذكر أنها لغتهم يعرفها، واستشهد

(١) كتاب التفسير، تفسير سورة ١٢، باب ٤.

(٢) تفسير الطبرى ١٧٧/٧.

الإمام ابن جرير على هذه القراءة بقول الشاعر علي بن أبي طالب رضي الله عنه: [مجزوء الكامل]

أبْلَغَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَخَا الْعَرَاقِ إِذَا أَتَيْنَا^(١)
إِنَّ الْعَرَاقَ وَأَهْلَهُ عَنْقَ إِلَيْكَ فَهِيتَ هِيتَا

يقول: فتعال واقترب، وقرأ ذلك آخرون هئت لك بكسر الهاء وبالهمز وضم التاء، بمعنى تهيات لك من قول القائل هئت بالأمر أهيء هته، ومن روى عنه هذه القراءة: ابن عباس وأبو عبد الرحمن السلمي وأبو وائل وعكرمة وقتادة، وكلهم يفسرها بمعنى تهيات لك. قال ابن جرير: وكان أبو عمرو والكسائي ينكران هذه القراءة، وقرأ عبد الله بن إسحاق: هيت بفتح الهاء وكسر التاء، وهي غريبة، وقرأ آخرون منهم عامة أهل المدينة هيت بفتح الهاء وضم التاء، وأنشد قول الشاعر: [الوافر]

لِيسْ قَوْمِيْ بِالْأَبْعَدِيْنَ إِذَا مَا قَالَ دَاعِ مِنَ الْعَشِيرَةِ هِيتُ^(٢)

قال عبد الرزاق: أبناؤنا الثوري، عن الأعمش، عن أبي وائل، قال: قال ابن مسعود وقد سمع القراء: سمعتهم متقاربين، فاقرئوا كما علمتم، وإياكم والتنفع والاختلاف، وإنما هو كقول أحدكم: هلم وتعال. ثم قرأ عبد الله: هيت لك، فقال: يا أبو عبد الرحمن إن ناساً يقرؤونها هيت. قال عبد الله: أن أقرأها كما علمت أحب إلي^(٣).

وقال ابن جرير^(٤): حدثني ابن وكيع، حدثنا ابن عيينة عن منصور، عن أبي وائل، قال: قال عبد الله: هيت لك، فقال له مسروق: إن ناساً يقرؤونها: هيت لك، فقال: دعوني فإني أقرأ كما أقرئت، أحب إلي، وقال أيضاً: حدثني المثنى، حدثنا آدم بن أبي إياس، حدثنا شعبة عن شقيق، عن ابن مسعود، قال: هيت لك بتصب الهاء والتاء، ولا نهمز. وقال آخرون: هيت لك بكسر الهاء، وإسكان الياء، وضم التاء. قال أبو عبيد معمر بن المثنى: هيت لا تثنى، ولا تجمع، ولا تؤنث، بل يخاطب الجميع بلفظ واحد، فيقال: هيت لك، وهيت لكم، وهيت لكم، وهيت لكن، وهيت لهن.

وَلَقَدْ هَمَتْ بِهِ وَهُمْ يَهْبَأُ لَوْلَا أَنَّ رَمَاءَ بِرْهَنَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لَنَصَرَفَ عَنْهُ الْسُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّمَا مِنْ عِبَادَنَا الْمُخَلَّصِينَ^(٥)

(١) البيتان بلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٢٥١، ٤٤٠، والخصائص ١/ ٢٧٩، وشرح المفصل ٤/ ٣٢، ولسان العرب (هـت)، (عنق)، والمحتسب ١/ ٣٣٧، ٣٣٨، وتفسير الطبرى ٧/ ١٧٦.

(٢) البيت لطوفة بن العبد في تفسير الطبرى ٧/ ١٧٩، وليس في ديوانه.

(٣) انظر تفسير الطبرى ٧/ ١٧٩.

(٤) تفسير الطبرى ٧/ ١٧٩.

اختللت أقوال الناس وعباراتهم في هذا المقام، وقد روي عن ابن عباس ومجاحد وسعيد بن جبير وطائفة من السلف في ذلك ما رواه ابن جرير^(١) وغيره، والله أعلم. وقيل: المراد بهم بها خطرات حديث النفس، حكاه البغوي عن بعض أهل التحقيق، ثم أورد البغوي هنا حديث عبد الرزاق عن معاذ، عن همام، عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: إذا هم عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة، فإنما تركها من جرائي، فإن عملها له عشر أمثالها، وإن هم بسيئة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإنما تركها من جرائي، فإن عملها فاكتبوها بمثلها»^(٢)، وهذا الحديث مخرج في الصحيحين وله ألفاظ كثيرة منها.

وقيل: هم بضربيها. وقيل: تمناها زوجة. وقيل: «هم بها لولا أن رأى برهان ربه» أي فلم يهم بها، وفي هذا القول نظر من حيث العربية، حكاه ابن جرير وغيره. وأما البرهان الذي رأه فيه أقوال أيضاً، فعن ابن عباس وسعيد ومجاحد وسعيد بن جبير ومحمد بن سيرين والحسن وقتادة وأبي صالح والضحاك ومحمد بن إسحاق وغيرهم: رأى صورة أبيه يعقوب عليه السلام عاصماً على أصبعه بفمه. وقيل عنه في رواية: فضرب في صدر يوسف. وقال العوفي عن ابن عباس: رأى خيال الملك يعني سيده، وكذلك قال محمد بن إسحاق فيما حكاه عن بعضهم: إنما هو خيال قطفي سيده حين دنا من الباب.

وقال ابن جرير^(٣): حدثنا أبو كريب، حدثنا وكيع عن أبي مودود، سمعت من محمد بن كعب القرظي. قال رفع يوسف رأسه إلى سقف البيت، فإذا كتاب في حائط البيت «ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبلاً» [الإسراء: ٣٢]، وكذلك رواه أبو معشر المدنى عن محمد بن كعب. وقال عبد الله بن وهب: أخبرني نافع بن يزيد، عن أبي صخر، قال: سمعت القرظي يقول: في البرهان الذي رأه يوسف ثلاث آيات من كتاب الله « وإن عليكم لحافظين » [الانتصار: ١٠] الآية، قوله: « وما تكون في شأن » [يونس: ٦٦] الآية، قوله: « فمن هو قائم على كل نفس بما كسبت » [الرعد: ٣٣] قال نافع: سمعت أبا هلال يقول مثل قول القرظي، وزاد آية رابعة « ولا تقربوا الزنا » [الإسراء: ٣٣]. وقال الأوزاعي رأى آية من كتاب الله في الجدار تنهى عن ذلك.

قال ابن جرير^(٤): والصواب أن يقال: إنه رأى آية من آيات الله تزجره عما كان هم به، وجائز أن يكون صورة يعقوب، وجائز أن يكون صورة الملك، وجائز أن يكون ما رأه مكتوباً من الزجر عن ذلك، ولا حجة قاطعة على تعين شيء من ذلك، فالصواب أن يطلق كما قال الله

(١) تفسير الطبرى ١٨١/٧.

(٢) أخرجه البخاري في الرفاق باب ٣١، ومسلم في الإيمان ٢٠٦، ٢٠٧.

(٣) تفسير الطبرى ١٨٨/٧.

(٤) تفسير الطبرى ١٨٩/٧.

تعالى . وقوله : ﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء﴾ أي كما أريناه برهاناً صرفه عما كان فيه ، كذلك نقيه السوء والفحشاء في جميع أموره : ﴿إنه من عبادنا المخلصين﴾ أي من المجتبين المطهرين المختارين المصطفين الآخيار ، صلوات الله وسلامه عليه .

وَأَسْبَقَاهُ الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَفْنَا سَيْدَهَا لَهُ الْبَابَ قَالَتْ مَا جَرَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿فَالَّتِي رَأَوْدَتِنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهَدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبْلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنْ الْكَذِيلِينَ ﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿فَلَمَّا رَأَهَا قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكَنْ عَظِيمٌ ﴾ يُوسُفُ أَغْرِضَ عَنْ هَذَا وَأَسْتَعْفِرِي لِذَنْبِكَ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾

يخبر تعالى عن حالهما حين خرجا يستبقان إلى الباب : يوسف هارب ، والمرأة تطلبه ليرجع إلى البيت ، فلحقته في أثناء ذلك فأمسكت بقميصه من ورائه ، فقدتْه قدأً فظيعاً ، يقال : إنه سقط عنه واستمر يوسف هارباً ذاهباً ، وهي في أثره ، فاللها سيدها وهو زوجها عند الباب ، فعند ذلك خرجت مما هي فيه بمكرها وكيدها ، وقالت لزوجها متصلة وقادفة يوسف بدايتها ﴿ما جراء من أراد بأهلك سوءاً﴾ أي فاحشة ﴿إلا أن يسجن﴾ أي يحبس ، ﴿أو عذاب أليم﴾ أي يضرب ضرباً شديداً موجعاً . فعند ذلك انتصر يوسف عليه السلام بالحق ، وتبرأ مما رمته به من الخيانة ، و﴿قال﴾ بارأ صادقاً ﴿هي راودتني عن نفسي﴾ وذكر أنها اتبعته تجذبه إليها حتى قدت قميصه .

﴿وَشَهَدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبْلٍ﴾ أي من قدامه ﴿فصدقت﴾ أي في قوله إن راودها عن نفسها ، لأنَّه يكون لها دعاها وأبَتْ عليه دفعته في صدره ، فقدتْ قميصه فيصبح ما قالت ﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وذلك يكون كما وقع لما هرب منها وتطلبتَه ، أمسكت بقميصه من ورائه لترده إليها فقدتْ قميصه من ورائه ، وقد اختلفوا في هذا الشاهد : هل هو صغير أو كبير ؟ على قولين لعلماء السلف ، فقال عبد الرزاق ، أخبرنا إسرائيل عن سماع ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ﴿وَشَهَدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا﴾ قال ذو لحية ، وقال الثوري ، عن جابر ، عن ابن أبي مليكة ، عن ابن عباس : كان من خاصة الملك ، وكذا قال مجاهد وعكرمة والحسن وفتادة والسدِي ومحمد بن إسحاق وغيرهم : إنه كان رجلاً . وقال زيد بن أسلم والسدِي : كان ابن عمها . وقال ابن عباس : كان من خاصة الملك . وقد ذكر ابن إسحاق أن زليخا كانت بنت أخت الملك الريان بن الوليد .

وقال العوفي عن ابن عباس في قوله ﴿وَشَهَدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا﴾ قال : كان صبياً في المهد ، وكذا روَى عن أبي هريرة وهلال بن يساف والحسن وسعيد بن جبير والضحاك بن مزاحم أنه

كان صبياً في الدار، واختاره ابن جرير^(١). وقد ورد فيه حديث مرفوع فقال ابن جرير^(٢): حدثنا الحسن بن محمد، حدثنا عفان، حدثنا حماد هو ابن سلمة، أخبرني عطاء بن السائب عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «تكلم أربعة وهم صغار» فذكر فيهم شاهد يوسف، ورواه غيره عن حماد بن سلمة، عن عطاء، عن سعيد، عن ابن عباس أنه قال «تكلم أربعة وهم صغار: ابن ماشطة بنت فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسي ابن مریم». وقال ليث بن أبي سليم عن مجاهد: كان من أمر الله تعالى، ولم يكن إنسياً وهذا قول غريب.

وقوله: «فَلِمَا رأى قَمِصَهْ قَدَّ مِنْ دُبْرِهِ أَيْ لِمَا تَحَقَّقَ زَوْجَهَا صَدَقَ يُوسُفَ وَكَذَبَهَا فِيمَا قَذَفَتْهُ وَرَمَتْهُ بِهِ» قال إنه من كيدك^(٣) أي إن هذا البهت واللطخ الذي لطخت عرض هذا الشاب به من جملة كيدك^(٤) «إِنْ كَيْدَكُنْ عَظِيمٌ» ثم قال آمراً ليوسف عليه السلام بكتمان ما وقع «يُوسُفُ أَعْرَضْ عَنْ هَذَا» أي اضرب عن هذا صحفاً، أي فلا تذكره لأحد.

«وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكَ» يقول لامرأته وقد كان لين العريكة سهلاً أو أنه عذرها لأنها رأت ما لا صبر لها عنه فقال لها: استغفرى لذنبك أي الذي وقع منك من إرادة السوء بهذا الشاب ثم قذفه بما هو بريء منه «إِنْكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ».

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ أَمْرَأُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًا إِنَّا لَنَرَهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ يَمْكُرُهُنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكِّلًا وَأَنَّتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتْ أَخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْتَهُ أَكْرَرْنَهُ وَقَطَعْنَ أَنْدَيْهِنَّ وَقَلَنْ حَشَّ اللَّهُ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ قَالَتْ فَذَلِكَنَّ الَّذِي لُمْتُنِّي فِيهِ وَلَقَدْ رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَأَسْتَعْصَمُ وَلَيْسَ لَمْ يَفْعَلْ مَا مَأْمُرْهُ لِيَسْجُنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ قَالَ رَبُّ الْتِجْنُونَ أَحَبُّ إِلَى مَا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَنَصَّرَفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبَحَ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ فَأَسْتَجَابَ لِهِ رَبُّهُ فَصَرَّفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

يخبر تعالى أن خبر يوسف وامرأة العزيز، شاع في المدينة وهي مصر حتى تحدث به الناس «وقال نسوة في المدينة» مثل نساء الكبار والأمراء، ينكرون على امرأة العزيز وهو الوزير ويعبن ذلك عليها «امرأة العزيز تراود فتاتها عن نفسه» أي تحاول غلامها عن نفسه وتدعوه إلى نفسها «قد شغفها حباً» أي قد وصل حبه إلى شغاف قلبها وهو غلافه. قال الضحاك عن ابن عباس: الشغف الحب القاتل، والشغف دون ذلك، والشغاف حجاب القلب «إنما لترها في ضلال مبين» أي في صنيعها هذا من حبها فتاتها ومراؤتها إيه عن نفسه، «فلما سمعت بمكرهن» قال بعضهم: بقولهن ذهب الحب بها، وقال محمد بن إسحاق: بل بلغهن حسن

(١) تفسير الطبرى ١٩١ / ٧.

(٢) تفسير الطبرى ١٩٢ / ٧.

يوسف، فأحببن أن يرينه، فقلن ذلك ليتوصلن إلى رؤيته ومشاهدته، فعند ذلك **﴿أرسلت إليهن﴾** أي دعتهن إلى منزلها لتضييفهن **﴿وأعندت لهن متكا﴾**.

قال ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاحد والحسن والسدسي وغيرهم: هو المجلس المعد فيه مفارش، ومخاد، وطعام فيه ما يقطع بالسكاكين من أترج ونحوه، ولهذا قال تعالى: **﴿وأت كل واحدة منها سكينا﴾** وكان هذا مكيدة منها ومقابلة لهن في احتيالهن على رؤيهن **﴿وقالت اخرج عليهن﴾** وذلك أنها كانت قد خجأته في مكان آخر **﴿فلمما﴾** خرج **﴿ورأينه أكبرنها﴾** أي أعظمنه أي أعظمن شأنه، وأجللن قدره، وجعلن يقطعن أيديهن دهشاً برؤيته، وهن يظنن أنهن يقطعن الأترج بالسكاكين، والمراد أنهن حزنوا أيديهن بها، قاله غير واحد، وعن مجاهد وقتادة: قطعن أيديهن حتى أقيتها، فالله أعلم.

وقد ذكر غير واحد أنها قالت لهن بعد ما أكلن وطابت أنفسهن، ثم وضعت بين أيديهن أترجاً **﴿وأت كل واحدة منها سكينا﴾**: هل لكن في النظر إلى يوسف؟ قلن: نعم، فبعثت إليه تأمره أن اخرج إليهن، فلما رأينه جعلن يقطعن أيديهن، ثم أمرته أن يرجع ليرئنه مقبلاً ومدبراً، فرجمع وهن يحزنون في أيديهن، فلما أحسسين بالألم جعلن يولولن، فقالت: أتن من نظرة واحدة فعلتن هذا، فكيف ألام أنا؟.

﴿وَقَلَنْ حَاشَ اللَّهُ مَا هَذَا بِشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكُ كَرِيمٌ﴾ ثم قلن لها: وما نرى عليك من لوم بعد هذا الذي رأينا، لأنهن لم يرین في البشر شبيهه ولا قريباً منه، فإنه عليه السلام كان قد أعطي شطر الحسن كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح في حديث الإسراء أن رسول الله ﷺ مر بيوفى عليه السلام في السماء الثالثة، قال «إِنَّمَا هُوَ الْمُؤْمِنُ بِالْحَسَنِ»^(١).

وقال حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطي يوسف وأمه شطر الحسن»^(٢). وقال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود قال: أعطي يوسف وأمه ثلث الحسن^(٣). وقال أبو إسحاق أيضاً، عن أبي الأحوص، عن عبد الله، قال: كان وجه يوسف مثل البرق، وكانت المرأة إذا أتته لحاجة غطى وجهه مخافة أن تفتتن به. ورواه الحسن البصري مرسلاً عن النبي ﷺ أنه قال: «أعطي يوسف وأمه ثلث حسن أهل الدنيا، وأعطي الناس الثلثين»، أو قال «أعطي يوسف وأمه الثلثين والناس الثلث». وقال سفيان، عن منصور، عن مجاهد عن ربيعة الجرشمي قال: قسم الحسن نصفين فأعطي يوسف وأمه سارة نصف الحسن، والنصف الآخر بين سائر الخلق.

(١) أخرجه مسلم في الإيمان حديث ٢٥٩.

(٢) تفسير الطبرى ٧/٢٠٥.

(٣) تفسير الطبرى ٧/٢٠٥.

وقال الإمام أبو القاسم السهيلي: معناه أن يوسف عليه السلام كان على النصف من حسن آدم عليه السلام، فإن الله خلق آدم بيده على أكمل صورة وأحسنها، ولم يكن في ذريته من يوازيه في جماله، وكان يوسف قد أعطى شطر حسنة، فلهذا قال هؤلاء النسوة عند رؤيته ﴿حاش لله﴾. قال مجاهد وغير واحد: معاذ الله ﴿ما هذا بشر﴾، وقرأ بعضهم ما هذا بشري أي بمشتري بشراء ﴿إن هذا إلا ملك كريم قالت فذلکن الذي لمتنني فيه﴾ تقول هذا معتذرة إليهن بأن هذا حقيق أن يحب لجماله وكماله.

﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم﴾ أي فامتنع. قال بعضهم: لما رأين جماله الظاهر أخبرتهن بصفاته الحسنة التي تخفي عنهن، وهي العفة مع هذا الجمال، ثم قالت تتوعده ﴿ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن ول يكونا من الصاغرين﴾ فعند ذلك استعاد يوسف عليه السلام من شرهن وكيدهن، و﴿قال رب السجن أحب إلي مما يدعوني إليه﴾ أي من الفاحشة ﴿وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن﴾ أي إن وكلتني إلى نفسي فليس لي منها قدرة ولا أملك لها ضرًا ولا نفعًا إلا بحولك وقوتك، أنت المستعان وعليك التكلان، فلا تكلني إلى نفسي.

﴿أصب إليهن وأكن من الجاهلين فاستجاب له ربه﴾ الآية، وذلك أن يوسف عليه السلام عصمه الله عصمة عظيمة، وحماه فامتنع منها أشد الامتناع، واختار السجن على ذلك، وهذا في غاية مقامات الكمال أنه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه سيدته، وهي امرأة عزيز مصر، وهي مع هذا في غاية الجمال والمال والرياسة، ويامتنع من ذلك ويختار السجن على ذلك خوفاً من الله ورجاء ثوابه.

ولهذا ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشا في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقوا عليه، ورجل تصدق بصدقه فأخفاها حتى لا تعلم شماليه ما أنفقته يمينه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»^(١).

ثُرَّ بِكَاهُمْ مِنْ بَعْدِ مَارَأُوا إِلَيْكُنَّ لَيْسُ جُنُّهُ حَتَّى حَيْنِ [.]

يقول تعالى: ثم ظهر لهم من المصلحة فيما رأوه أنهم يسجنونه إلى حين، أي إلى مدة، وذلك بعد ما عرفوا براءته وظهرت الآيات، وهي الأدلة على صدقه في عفته وزناهته، وكأنهم - والله أعلم - إنما سجنوه لما شاع الحديث إيهاماً أنه راودها عن نفسها وأنهم سجنوه على ذلك. ولهذا لما طلبه الملك الكبير في آخر المدة امتنع من الخروج حتى تبين براءته مما نسب

(١) أخرجه البخاري في الأذان باب ٣٦، ومسلم في الزكاة حديث ٩١.

إليه من الخيانة. فلما تقرر ذلك، خرج وهو نقى العرض صلوات الله عليه وسلم. وذكر السدي أنهم إنما سجنوه لثلا يشيع ما كان منها في حقه، ويرأ عرضه فيفضحها.

وَدَخَلَ مَعَهُ الْسِّيْجَنَ فَتَبَيَّنَ قَالَ أَحَمَدُ هُمَا إِنِّي أَرَيْتُنِي أَعْصَرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَيْتُنِي أَحْمَلُ فَوَقَ رَأَيْتُ خَبْرًا تَأْكِلُ الطَّيْرَ مِنْهُ بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَزَّلْنَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ

قال قتادة: كان أحدهما ساقى الملك، والآخر خبازه. قال محمد بن إسحاق: كان اسم الذي على الشراب نبوا والآخر مجلث^(١). قال السدي: كان سبب حبس الملك إياهما أنه توهم أنهما تمالأ على سمه في طعامه وشرابه، وكان يوسف عليه السلام قد اشتهر في السجن بالجود والأمانة، وصدق الحديث، وحسن السمت، وكثرة العبادة، صلوات الله عليه وسلم. ومعرفة التعبير والإحسان إلى أهل السجن، وعيادة مرضاهما، والقيام بحقوقهم. ولما دخل هذان الفتيان إلى السجن تالفا به وأحباه جباً شديداً وقالا له: والله لقد أحببناك جباً زائداً. قال: بارك الله فيكما، إنه ما أحبني أحد إلا دخل عليّ من محبته ضرر، أحببني عمتي فدخل عليّ الضرر بسببيها، وأحببني أبي فأؤذيت بسببيه، وأحببني امرأ العزيز فكذلك، فقالا: والله ما نستطيع إلا ذلك، ثم إنهم رأيا مناماً فرأى السافي أنه يعصر خمراً يعني عنباً، وكذلك هي في قراءة عبد الله بن مسعود: إني أراني أعصر عنباً.

ورواه ابن أبي حاتم عن أحمد بن سنان، عن يزيد بن هارون، عن شريك، عن الأعمش، عن زيد بن وهب، عن ابن مسعود أنه قرأها: أعصر عنباً: وقال الضحاك في قوله «إني أراني أعصر خمراً» يعني عنباً، قال: وأهل عمان يسمون العنبر خمراً.

وقال عكرمة: قال له: إني رأيت فيما يرى النائم أني غرست حبلة من عنبر، فنبتت فخرج فيها عاقيد، فعصرتهن ثم سقيهن الملك، فقال: تمكث في السجن ثلاثة أيام ثم تخرج فتسقيه خمراً، وقال الآخر وهو الخباز «إني أراني أحمل فوق رأسي خبراً تأكل الطير منه بشنا بتاؤيله» الآية، والمشهور عند الأكثرين ما ذكرناه أنهم رأيا مناماً وطلباً تعبيره.

وقال ابن جرير^(٢): حدثنا وكيع وابن حميد قالا: حدثنا جرير عن عمارة بن القعقاع عن إبراهيم عن عبد الله بن مسعود قال: ما رأى صاحبنا يوسف شيئاً، إنما كان تحالماً ليجربه عليه.

قَالَ لَا يَأْتِي كُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَ إِنَّا لَا بَنَاثِكُمَا بِتَأْوِيلِهِ، قَبْلَ أَنْ يَأْتِي كُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلِمْنَا رَبِّنَا إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَفَرُونَ وَأَتَبَعْتُ مِلَّةَ مَابَاءَتِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشَرِّكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ وَذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى أَنَّاسٍ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ أَنَّاسٍ لَا

(١) انظر تفسير الطبرى ٢١٢/٧.

(٢) تفسير الطبرى ٢١٢/٧، ولفظه: حدثنا ابن وكيع وابن حميد.

يَشْكُرُونَ ﴿٢٨﴾

يخبرهما يوسف عليه السلام أنهما مهما رأيا في المنام من حلم فإنه عارف بتفسيره يخبرهما بتاؤيله قبل وقوعه، ولهذا قال: ﴿لَا يأْتِيكُمَا طَعَمٌ تَرْزُقَانِهِ إِلَّا نَبَاتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ قال مجاهد: يقول ﴿لَا يأْتِيكُمَا طَعَمٌ تَرْزُقَانِهِ﴾ في يومكم ﴿إِلَّا نَبَاتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يأْتِيكُمَا﴾، وكذا قال السدي. وقال ابن أبي حاتم رحمة الله: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا محمد بن يزيد شيخ له، عن الحسن بن ثوبان، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: ما أدرى لعل يوسف عليه السلام كان يعتاف وهو كذلك، لأنني أجد في كتاب الله حين قال للرجلين: ﴿لَا يأْتِيكُمَا طَعَمٌ تَرْزُقَانِهِ إِلَّا نَبَاتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ قال: إذا جاء الطعام حلواً أو مرّاً اعتاف عند ذلك.

ثم قال ابن عباس: إنما علم فعلم، وهذا أثر غريب، ثم قال: وهذا إنما هو من تعليم الله إبّاّي، لأنني اجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر، فلا يرجون ثواباً ولا عقاباً في المعاد ﴿وَاتَّبَعْتَ مَلَةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ الآية، يقول: هجرت طريق الكفر والشرك، وسلكت طريق هؤلاء المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى، واتبع طريق المرسلين، وأعرض عن طريق الضالين، فإن الله يهدي قلبه، ويعلمه ما لم يكن يعلم، و يجعله إماماً يقتدى به في الخير، وداعياً إلى سبيل الرشاد.

﴿مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشَرِّكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾ هذا التوحيد وهو الإقرار بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له ﴿مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾ أي أوحاه إلينا وأمرنا به. ﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾ إذ جعلنا دعوة لهم إلى ذلك ﴿وَلَكُنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي لا يعرفون نعم الله عليهم بارسال الرسل إليهم، بل ﴿بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَار﴾ [إبراهيم: ٢٨]. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية، حدثنا حجاج عن عطاء، عن ابن عباس أنه كان يجعل الجد أباً ويقول: والله فمن شاء لاعنته عند الحجر، ما ذكر الله جداً ولا جدة، قال الله تعالى يعني إخباراً عن يوسف: ﴿وَاتَّبَعْتَ مَلَةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾.

يَصْنَجِي السِّجْنَ إِرْبَابُ مُتَفَرِّقُونَ حَمِيرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْفَهَارُ ﴿٢٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُوَرٍ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَيَّتُمُوهَا أَسْمُرٌ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَنٍ إِنَّ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمْرٌ أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الْدِينُ الْقِيمُ وَلَكُنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾

ثم إن يوسف عليه السلام أقبل على الفتين بالمخاطبة والدعاء لهما إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وخلع ما سواه من الأوثان التي يعبدها قومهما، فقال: ﴿أَرْبَابُ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْفَهَارُ﴾ أي الذي ذل كل شيء لعز جلاله وعظمته سلطانه، ثم بين لهما أن التي

يعبدونها ويسمونها آلهة إنما هو جهل منهم، وتسمية من تقاء أنفسهم، تلقاها خلفهم عن سلفهم، وليس لذلك مستند من عند الله، ولهذا قال: «ما أنزل الله بها من سلطان» أي حجة ولا برهان، ثم أخبرهم أن الحكم والتصرف والمشيئة والملك كله لله، وقد أمر عباده قاطبة أن لا يعبدوا إلا إياه، ثم قال تعالى: «ذلك الدين القيم» أي هذا الذي أدعوكم إليه من توحيد الله وإخلاص العمل له، هو الدين المستقيم الذي أمر الله به، وأنزل به الحجة والبرهان الذي يحبه ويرضاه «ولكن أكثر الناس لا يعلمون» أي فلهذا كان أكثرهم مشركين، «وما أكثر الناس ولو حرثت بمؤمنين» [يوسف: ١٠٣].

وقد قال ابن جرير^(١): إنما عدل بهم يوسف عن تعبير الرؤيا إلى هذا، لأنه عرف أنها ضارة لأدھما، فأحب أن يشغلهما بغير ذلك لئلا يعودوه فيها. فعاودوه فأعاد عليهم الموعظة، وفي هذا الذي قاله نظر، لأنه قد وعدهما أولاً بتعييرها، ولكن جعل سؤالهما له على وجه التعظيم والاحترام وصلة وسبباً إلى دعائهما إلى التوحيد والإسلام، لما رأى في سجيتهما من قبول الخير والإقبال عليه والإنصات إليه، ولهذا لما فرغ من دعوتهما شرع في تعبير رؤياهما من غير تكرار سؤال فقال:

يَصْنِجِي السِّجْنَ أَمَا أَحَدُكُمَا فِي سَقِّي رَبِّهِ خَمْرًا وَأَمَا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَكَلَّ الْطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْفِيَانٌ

يقول لهما «يا صاحبي السجن أما أحدكمَا فيستقي ربِّهِ خمراً» وهو الذي رأى أنه يعصر خمراً، ولكنه لم يعينه لثلا يحزن ذاك، ولهذا أبهمه في قوله «وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه» وهو في نفس الأمر الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبراً، ثم أعلمهمما أن هذا قد فرغ منه، وهو واقع لا محالة، لأن الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر فإذا عبرت وقعت، وقال الثوري: عن عمارة بن القعقاع، عن إبراهيم عن عبد الله قال: لما قالا ما قالا وأخبرهما، قالا: ما رأينا شيئاً، فقال: «قضى الأمر الذي فيه تسفيان»^(٢).

ورواه محمد بن فضيل عن عمارة، عن إبراهيم، عن علقة، عن ابن مسعود به، وكذا فسره مجاهد وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم، وحاصله أن من تحلم بباطل، وفسره فإنه يلزم بتأويله، والله تعالى أعلم، وقد ورد في الحديث الشريف الذي رواه الإمام أحمد عن معاوية بن حيدة، عن النبي ﷺ قال: «الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر، فإذا عبرت وقعت» وفي مسند أبي يعلى من طريق يزيد الرقاشي، عن أنس مرفوعاً «الرؤيا لأول عابر».

وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٌ مِنْهُمَا أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَنَهُ الشَّبَّاطُنُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَمَّا ثَ

(١) تفسير الطبرى ٢١٤/٧ . ٢١٥

(٢) تفسير الطبرى ٢١٩/٧

الْسِّجْنُ بِضَعْ سَنِينَ ﴿٢﴾

ولما ظن يوسف عليه السلام أن الساقى ناج، قال له يوسف خفية عن الآخر، والله أعلم - لثلا يشعره أنه المصلوب - قال له **﴿إذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾** يقول: اذكر قصتي عند ربك، وهو الملك، فensi ذلك الموصي أن يذكر مولاه الملك بذلك، وكان من جملة مكاييد الشيطان لثلا يطلع نبي الله من السجن، هذا هو الصواب أن الضمير في قوله **﴿فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذَكْرَ رَبِّهِ﴾** عائد على الناجي، كما قاله مجاهد ومحمد بن إسحاق وغير واحد. ويقال: إن الضمير عائد على يوسف عليه السلام رواه ابن حجرير عن ابن عباس ومجاهد أيضاً وعكرمة وغيرهم.

وأنسند ابن حجرير^(١) ه هنا حديثاً فقال: حدثنا ابن وكيع، حدثنا عمرو بن محمد عن إبراهيم بن يزيد، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس مرفوعاً، قال: قال الذي **﴿لَوْلَمْ يَقُلَّ - يَعْنِي يَوْسُفَ -﴾** الكلمة التي قال، ما لبث في السجن طول ما لبث حيث يتغيّر الفرج من عند غير الله، وهذا الحديث ضعيف جداً، لأن سفيان بن وكيع ضعيف، وإبراهيم بن يزيد هو الخوزي أضعف منه أيضاً. وقد روی عن الحسن وقتادة مرسلاً عن كل منهما، وهذه المرسلات هنا لا تقبل لو قبل المرسل من حيث هو في غير هذا الموطن، والله أعلم.

وأما البعض فقال مجاهد وقتادة: هو ما بين الثلاث إلى التسع. وقال وهب بن منبه: مكث أيوب في البلاء سبعاً، ويوفى في السجن سبعاً، وعذب بختنصر سبعاً، وقال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما **﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضَعْ سَنِينَ﴾** قال: ثنتا عشرة سنة. وقال الضحاك: أربع عشرة سنة.

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانًا يَأْكُلُهُنَّ سَبْعَ عِجَافٍ وَسَبْعَ سُنْلَكَتٍ حُضْرٍ وَأَخْرَى
 يَأْسِتُّ يَتَائِيَهَا الْمَلَاكُونَ فِي رُؤْيَتِي إِنْ كُنْتُمْ لِرُؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٢﴾ قَالُوا أَصْنَعْتُ أَحَنْمَرَ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ
 الْأَحَنْمَرِ بَعْلَمِنَا ﴿٣﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَّا مِنْهُمَا وَأَذْكَرَ بَعْدَ أُمَّةً أَنَّنِي نَبَّكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرَسْلَوْنَ ﴿٤﴾ يُوسُفُ أَهْبَأَ
 الْمُصَدِّيقِ أَفْسَنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانًا يَأْكُلُهُنَّ سَبْعَ عِجَافٍ وَسَبْعَ سُنْلَكَتٍ حُضْرٍ وَأَخْرَى يَأْسِتُّ
 لَعَلَّ أَرْجُعُ إِلَى النَّاسِ لِعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ قَالَ تَرَزَّعُونَ سَبْعَ سِينَ دَابِّا فَأَحَدَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُبْلَهِ إِلَّا قَلِيلًا
 مِمَّا نَأْكُلُونَ ﴿٦﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعَ شِدَّادًا يَأْكُلُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴿٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ
 بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُعَذَّثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصُرُونَ ﴿٨﴾

هذه الرؤيا من ملك مصر مما قدر الله تعالى أنها كانت سبباً لخروج يوسف عليه السلام من السجن، معززاً مكرماً، وذلك أن الملك رأى هذه الرؤيا، فهالته وتعجب من أمرها وما يكون

تفسيرها، فجمع الكهنة والحزاة^(١) وكبار دولته وأمراءه فقص عليهم ما رأى وسألهم عن تأويلها، فلم يعرفوا ذلك، واعتذروا إليه بأنها «أضغاث أحلام» أي أخلاط أحلام اقتضته رؤياك هذه «وما نحن بتأويل الأحلام بعاليمن» أي لو كانت رؤيا صحيحة من أخلاط لما كان لنا معرفة بتأويلها، وهو تعبيرها، فعند ذلك تذكر الذي نجا من ذينك الفتية الذين كانوا في السجن مع يوسف، وكان الشيطان قد أنساه ما وصاه به يوسف من ذكر أمره للملك، فعند ذلك تذكر بعد أمة، أي مدة، وقرأ بعضهم بعد أمه أي بعد نسيان، فقال لهم، أي للملك والذين جمعهم لذلك.

«أنا أنبئكم بتأويل هذه المنام، (فأرسلون) أي فابعثون إلى يوسف الصديق إلى السجن، ومعنى الكلام بعثوه فجاءه، فقال: (يوسف أيها الصديق أفتنا) وذكر المنام الذي رأه الملك، فعند ذلك ذكر له يوسف عليه السلام تعبيرها من غير تعنيف للفتى في نسيانه ما وصاه به، ومن غير اشتراط للخروج قبل ذلك، بل قال: (ترعون سبع سنين دأباً) أي يأتيكم الخصب والمطر سبع سنين متاليات ففسر البقر بالسنين لأنها تشير الأرض التي تستغل منها الثمرات والزرع، وهن السبلات الخضر.

ثم أرشدهم إلى ما يعتدونه في تلك السنين، فقال «فما حصدتم فذروه في سبليه إلا قليلاً مما تأكلون» أي مهما استغللتم في هذه السبع السنين الخصب، فادخروه في سبليه ليكون أبقى له وأبعد عن إسراع الفساد إليه إلا المقدار الذي تأكلونه، وليكن قليلاً قليلاً، لا تسرفو فيه لتنتفعوا في السبع الشداد، وهن السبع السنين المحل التي تعقب هذه السبع المتاليات، وهن البقرات العجاف اللاتي تأكل السمان، لأن سني الجدب يؤكل فيها ما جمعوه في سني الخصب، وهن السبلات اليابسات، وأخبرهم أنهن لا ينتبن شيئاً، وما بذرده فلا يرجعون منه إلى شيء، ولهذا قال: «يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلاً مما تحصون».

ثم بشرهم بعد الجدب العام المتالي بأنه يعقبهم بعد ذلك «عام فيه يغاث الناس»، أي يأتيهم الغيث وهو المطر وتغلّب البلاد، ويتعصر الناس ما كانوا يعصرون على عادتهم من زيت ونحوه، وسكر ونحوه، حتى قال بعضهم: يدخل فيه حلب اللبن أيضاً. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس «و فيه يعصرون» يحلبون^(٢).

وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْنِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بِالنِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيهِنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلَيْمٌ فَقَالَ مَا خَطَبُكُنَّ إِذَ رَأَوْدُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ فُلْرَ حَشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ

(١) حزا حزوا وتحزّى تحزّوا: زَجَّ ونكّن، والحزاة، جمع حاز هو المتكهن، يحرز الأشياء ويفدرها بظنه.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٢٣١/٧.

سُوءَ قَالَتْ أُمَّرَأُتُ الْعَزِيزَ الْقَنَ حَحْمَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوِدَتُهُ عَنْ نَفْسِهِ، وَإِنَّمَا لِي مِنَ الصَّدِيقَيْنَ ١٦ ذَلِكَ لِي عِلْمٌ أَنِّي لَمْ أَخْتُهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِيْنَ ١٧ وَمَا أَبْرَئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَا تَمَارِثُ بِالشَّوَّءِ إِلَّا مَا رَحْمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٨

يقول تعالى إخباراً عن الملك لما رجعوا إليه بتعبير رؤياه التي كان رأها بما أعجبه وأيقنه، فعرف فضل يوسف عليه السلام، وعلمه وحسن اطلاعه على رؤياه، وحسن أخلاقه على من بيده من رعاياه، فقال: «أَتَوْنِي بِهِ» أي أخرجوه من السجن وأحضروه، فلما جاءه الرسول بذلك امتنع من الخروج حتى يتحقق الملك ورعايته براءة ساحته وزناهه عرضه مما نسب إليه من جهة امرأة العزيز، وأن هذا السجن لم يكن على أمر يقتضيه، بل كان ظلماً وعدواناً، فقال: «ارجع إلى ربك» الآية.

وقد وردت السنة بمدحه على ذلك والتنبيه على فضله وشرفه وعلو قدره وصبره، صلوات الله وسلامه عليه، ففي المسند وال الصحيحين من حديث الزهرى عن سعيد وأبي سلمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرنى كف تحيي الموتى» الآية، ويرحم الله لو طا كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبست في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي»^(١).

وفي لفظ لأحمد^(٢): حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله: «فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليهم» فقال رسول الله ﷺ: «لو كنت أنا، لسرعت الإجابة وما ابتغيت العذر».

وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن عيينة عن عمرو بن دينار، عن عكرمة قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان، ولو كنت مكانه ما أجبتهم حتى أشترط أن يخرجنى، ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه، والله يغفر له حين أتاه الرسول، ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب، ولكنه أراد أن يكون له العذر»، هذا حديث مرسل.

وقوله تعالى: «قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه» إخبار عن الملك حين جمع النسوة اللاتي قطعن أيديهن عند امرأة العزيز، فقال مخاطباً لهن كلهن وهو يريد امرأة وزيره، وهو العزيز، قال الملك للنسوة اللاتي قطعن أيديهن «ما خطبكن» أي شأنكن وخبركن «إذ راودتن يوسف عن نفسه» يعني يوم الضيافة، «قلن حاش الله ما علمنا عليه من سوء» أي قالت نسوة جواباً للملك: حاش الله أن يكون يوسف متهمًا، والله ما علمنا عليه من سوء، فعند ذلك

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ١٢، باب ٥، ومسلم في الإيمان حديث ٢٣٨.

(٢) المسند ٣٤٧/٢، ٣٨٩.

﴿أنا راودته عن نفسه وإنه لم من الصادقين﴾ أي في قوله: «هي راودتني عن نفسي» ﴿ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب﴾ تقول: إنما اعترفت بهذا على نفسي ليعلم زوجي أني لم أخنه بالغيب في نفس الأمر، ولا وقع المحذور الأكبر، وإنما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع، فلهذا اعترفت ليعلم أني بريئة ﴿وأن الله لا يهدي كيد الخائنين وما أبرئ نفسي﴾ تقول المرأة: ولست أبريء نفسي، فإن النفس تتحدث وتتمنى، ولهذا راودته لأن ﴿النفس لأماره بالسوء إلا ما رحم ربها﴾ أي إلا من عصمه الله تعالى: ﴿إن ربى غفور رحيم﴾ وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعانى الكلام.

وقد حكاه الماوردي في تفسيره، وانتدب لنصره الإمام أبو العباس بن تيمية رحمة الله، فأفرده بتصنيف على حدة، وقد قيل: إن ذلك من كلام يوسف عليه السلام يقول: «ذلك ليعلم أني لم أخنه» في زوجته «بالغيب» الآيتين، أي إنما ردت الرسول ليعلم الملك براءتي، وليعلم العزيز «أني لم أخنه» في زوجته «بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين» الآية، وهذا القول هو الذي لم يحك ابن جرير ولا ابن أبي حاتم سواه.

وقال ابن جرير^(١): حدثنا أبو كريب، حدثنا وكيع عن إسرائيل، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما جمع الملك النسوة فسألهن: هل راودتن يوسف عن نفسه؟ «فلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حخصوص الحق» الآية، قال يوسف «ذلك ليعلم أني لم أخنن بالغيب» فقال جبريل عليه السلام: ولا يوم هممت بما هممت به؟ فقال «وما أبلىء نفسي» الآية، وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وابن أبي الهذيل والضحاك والحسن وقتادة والسدي، والقول الأول أقوى وأظهر، لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضور الملك، ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم، بل بعد ذلك أحضره الملك.

وَقَالَ الْمَلِكُ اثْنَوْنَيْهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ⑤ ⑥ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَىٰ
خَرَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِظُ عِلْمَهُ ⑦

يقول تعالى إخباراً عن الملك حين تحقق براءة يوسف عليه السلام ونراهه عرضه مما نسب إليه، قال **﴿أَتَوْنِي بِهِ أَسْتَخْلَصُهُ لِنفْسِي﴾** أي أجعله من خاصتي وأهل مشورتي **﴿فَلَمَّا كَلَمَهُ﴾** أي خطابه الملك، وعرفه، ورأى فضله وبراعته، وعلم ما هو عليه من خلق وخلق وكمال، قال له الملك **﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لِدِينِنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾** أي إنك عندنا قد بقيت ذا مكانة وأمانة، فقال

يوسف عليه السلام «اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم» مدح نفسه، ويجوز للرجل ذلك إذا جهل أمره للحاجة، وذكر أنه «حفيظ» أي حازن أمين، «عليم» ذو علم وبصيرة بما يتولاه. وقال شيبة بن نعامة: حفيظ لما استودعتني، عليم ببني الجدب، رواه ابن أبي حاتم، وسأل العمل لعلمه بقدرته عليه ولما فيه من المصالح للناس، وإنما سأله أن يجعله على خزائن الأرض، وهي الأهرام التي يجمع فيها الغلات، لما يستقبلونه من السنين التي أخبرهم بشأنها، فيتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلاح والارشد، فأجيب إلى ذلك رغبة فيه وتكرمة له ولهذا قال تعالى:

وَكَذَلِكَ مَكَنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦﴾ وَلَا أَجْرَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٧﴾

يقول تعالى: «وَكَذَلِكَ مَكَنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ» أي أرض مصر، «يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ» قال السدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يتصرف فيها كيف يشاء. وقال ابن جرير^(١): يتخذ منها منزلًا حيث يشاء بعد الضيق والحبس والإسار، «نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ» أي وما أضمنا صبر يوسف على أذى إخوته وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز، فلهذا أعقبه الله عز وجل السلام والنصر والتأييد، «وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَا أَجْرَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ» يخبر تعالى أن ما ادخره الله تعالى لنبيه يوسف عليه السلام في الدار الآخرة أعظم وأكثر وأجل مما خوله من التصرف والتنفيذ في الدنيا، كقوله في حق سليمان عليه السلام «هذا عطاونا فامن أو أمسك بغير حساب وإن له عندنا لزلفي وحسن مأب» [ص: ٤٠ - ٣٩] والغرض أن يوسف عليه السلام ولاه ملك مصر الريان بن الوليد الوزارة في بلاد مصر مكان الذي اشتراه من مصر زوج التي راودته، وأسلم الملك على يدي يوسف عليه السلام، قاله مجاهد.

قال محمد بن إسحاق: لما قال يوسف للملك: «اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم» [يوسف: ٥٥] قال الملك: قد فعلت، فولاه فيما ذكروا عمل اطفير، وعزل اطفير عما كان عليه، يقول الله عز وجل: «وَكَذَلِكَ مَكَنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ» قال: فذكر لي - والله أعلم - أن اطفير هلك في تلك الليالي، وأن الملك الريان بن الوليد زوج يوسف امرأة اطفير راعيل، وأنها حين دخلت عليه قال لها: أليس هذا خيراً مما كنت تريدين؟ قال: فيزعمون أنها قالت: أيها الصديق لا تلموني، فإني كنت امرأة كما ترى حسناء جميلة ناعمة في ملك ودنيا، وكان صاحبها لا يأتي النساء، وكنت كما جعلك الله في حسنك وهبتك على ما رأيت، فيزعمون أنه وجدها عنراء،

فأصابها، فولدت له رجلين: أفرائيم بن يوسف، وميشا بن يوسف، وولد لأفرائيم نون والد يوش بن نون، ورحمة امرأة أيوب عليه السلام، وقال الفضيل بن عياض: وقت امرأة العزيز على ظهر الطريق حتى مري يوسف، فقالت: الحمد لله الذي جعل العبيد ملوكاً بطاعته، والملوك عبيداً بمعصيته.

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعْرَفُوهُمْ وَهُمْ لَهُمْ مُنْكَرُونَ ۝ وَلَمَّا جَاهَرُوهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتُؤْنِي بِأَخِي لَكُمْ مَنْ أَنْسَكْتُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمَازِلِينَ ۝ فَإِنَّ لَمْ تَأْتُنِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونَ ۝ قَالُوا سَنُرُودُ عَنْهُ أَبَاهُ وَلَنَا لَئِنْعَلُونَ ۝ وَقَالَ لِفَتِيَّنِيهِ أَجْعَلُهُمْ بِصَنْعِهِمْ فِي رِحَالِهِمْ لِعَاهَمْ يَعْرَفُونَهَا إِذَا أَنْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَهُمْ يَرْجِعُونَ ۝

ذكر السدي ومحمد بن إسحاق وغيرهما من المفسرين أن السبب الذي أقدم إخوة يوسف بلاد مصر، أن يوسف عليه السلام لما باشر الوظارة بمصر ومضت السبع السنين المخصبة، ثم تلتها السبع السنين المجدبة، وعم القحط بلاد مصر بكمالها، ووصل إلى بلاد كنعان وهي التي فيها يعقوب عليه السلام وأولاده، وحيثند احتاط يوسف عليه السلام للناس في غلاتهم، وجمعها أحسن جمع، فحصل من ذلك مبلغ عظيم وهدايا متعددة هائلة، وورد عليه الناس من سائر الأقاليم والمعاملات، يمتارون لأنفسهم وعيالهم، فكان لا يعطي الرجل أكثر من حمل بعضه في السنة، وكان عليه السلام، لا يشبع نفسه، ولا يأكل هو والملك وجنودهما إلا أكلة واحدة في وسط النهار، حتى يتکفا الناس بما في أيديهم مدة السبع سنين، وكان رحمة من الله على أهل مصر.

وما ذكره بعض المفسرين من أنه باعهم في السنة الأولى بالأموال، وفي الثانية بالمتع، وفي الثالثة بكذا، وفي الرابعة بكذا، حتى باعهم بأنفسهم وأولادهم بعد ما تملك عليهم جميع ما يملكون، ثم أعتقهم ورد عليهم أموالهم كلها، الله أعلم بصحة ذلك، وهو من الإسرائيлик التي لا تصدق ولا تكذب، والغرض أنه كان في جملة من ورد للميرية إخوة يوسف عن أمر أبيهم لهم في ذلك، فإنه بلغتهم أن عزيز مصر يعطي الناس الطعام بثمنه، فأخذذوا معهم بضاعة يعاضون بها طعاماً، وركبوا عشرة نفر، واحتبس يعقوب عليه السلام عنده ابنه بنiamin شقيق يوسف عليه السلام، وكان أحب ولده إليه بعد يوسف.

فلما دخلوا على يوسف وهو جالس في أبهته ورياسته وسيادته، عرفهم حين نظر إليهم، **«وَهُمْ لَهُمْ مُنْكَرُونَ»** أي لا يعرفونه، لأنهم فارقوه وهو صغير حدث، وباعوه للسيارة ولم يدرروا أين يذهبون به، ولا كانوا يستشعرون في أنفسهم أن يصير إلى ما صار إليه، فلهذا لم يعرفوه، وأما هو فعرفهم.

فذكر السدي وغيره أنه شرع يخاطبهم، فقال لهم كالمنكر عليهم: ما أقدمكم بلادي؟

قالوا: أيها العزيز إنا قدمنا للميري، قال: فلعلكم عيون؟ قالوا: معاذ الله. قال: فمن أين أنتم؟ قالوا من بلاد كنعان، وأبونا يعقوب نبي الله. قال: وله أولاد غيركم؟ قالوا: نعم كنا اثني عشر، فذهب أصغرنا، هلك في البرية وكان أحينا إلى أبيه، ويقي شقيقه فاحتبسه أبوه ليتسلى به عنه، فأمر بإنزالهم وإكرامهم.

﴿ولما جهزهم بجهازهم﴾ أي أوفى لهم كيلهم، وحمل لهم أحمالهم، قال: اثنوني بأخيكم هذا الذي ذكرتم لاعلم صدقكم فيما ذكرتم ﴿ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المزنزين﴾ رغبهم في الرجوع إليه، ثم رهباهم فقال: ﴿فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي﴾ الآية، أي إن لم تقدموا به معكم في المرة الثانية فليس لكم عندي ميرة، ﴿ولا تقربون قالوا سراود عنه أباء وإنما لفاعلون﴾ أي سترحص على مجئه إليك بكل ممكן، ولا نبغي مجاهدواً لتعلم صدقنا فيما قلناه، وذكر السدي أنه أخذ منهم رهائن حتى يقدموا به معهم، وفي هذا نظر لأنه أحسن إليهم ورغبهم كثيراً، وهذا الحرص على رجوعهم.

﴿وقال لفتياه﴾ أي غلاماته ﴿اجعلوا بضاعتهم﴾ أي التي قدموا بها ليختاروا عوضاً عنها ﴿في رحالهم﴾ أي في أمتعتهم من حيث لا يشعرون، ﴿لعلمهم يرجعون﴾ بها، قبل: خشي يوسف عليه السلام أن لا يكون عندهم بضاعة أخرى يرجعون للميري بها. وقيل: تذمّم أن يأخذ من أبيه وإخوته عوضاً عن الطعام، وقيل أراد أن يردهم إذا وجدوها في متاعهم تحرجاً وتورعاً، لأنه يعلم ذلك منهم والله أعلم.

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ قَالُوا يَتَابَانَا مُّبِيعَ مِنَ الْكَيْلِ فَأَرْسَلَ مَعَنَّا أَخَانَا نَكْتَلَ وَإِنَّ اللَّهَ لَحَفِظُونَ ﴿قَالَ هُلْ إِمْتِكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمْتَكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلِ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾

يقول الله تعالى عنهم: إنهم رجعوا إلى أبيهم ﴿قالوا يا أبانا منع منا الكيل﴾ يعنيون بعد هذه المرة، إن لم ترسل معنا أخانا بنيamins لا نكتل، فأرسله معنا نكتل، وإنما له لحافظون، قرأ بعضهم بالياء أي يكتل هو، ﴿وإنما له لحافظون﴾ أي لا تخف عليه فإنه سيرجع إليك، وهذا كما قالوا له في يوسف ﴿أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنما له لحافظون﴾ ولهذا قال لهم: ﴿هل آمنتكم عليه إلا كما آمنتكم على أخيه من قبل﴾ أي هل أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل، تغيبونه عنى، وتحولون بيدي وبينه؟ ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا﴾ وقرأ بعضهم حفظاً وهو أرحم الراحمين. أي هو أرحم الراحمين بي، وسيرحم كبرى وضعفي ووجدي بولدي، وأرجو من الله أن يرده علي ويجمع شملي به، إنه أرحم الراحمين.

وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَعَهُمْ وَجَدُوا بِضَعَهُمْ رَدَتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَتَابَانَا مَا نَبَغِي هَذِهِ بِضَعَهُمْ رَدَتْ إِلَيْنَا

وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزَادُ كِيلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿١﴾ قَالَ لَنْ أَرْسِلَنِي مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِي
مَوْثِقًا مِنْ أَلَّا أَنْ يَحْاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢﴾

يقول تعالى: ولما فتح إخوة يوسف متابعهم، وجدوا بضاعتهم ردت إليهم، وهي التي كان أمر يوسف فتيانه بوضعها في رحالهم، فلما وجدوها في متابعهم «قالوا يا أبناء ما نبغى» أي ماذا نريد «هذه بضاعتنا ردت إلينا»، كما قال قتادة: ما نبغى وراء هذا، إن بضاعتنا ردت إلينا، وقد أوفى لنا الكيل^(١)، «ونمير أهلنا» أي إذا أرسلت أخانا معنا نأتي بالميزة إلى أهلنا، «ونحفظ أخانا وزنداد كيل بغير» وذلك أن يوسف عليه السلام كان يعطي كل رجل حمل بغير، وقال مجاهد: حمل حمار، وقد يسمى في بعض اللغات بغيراً، كذا قال^(٢).

«ذلك كيل يسير» هذا من تمام الكلام وتحسينه، أي إن هذا يسير في مقابلة أخذ أخيهم ما يعدل هذا «قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله» أي تحلفون بالعهود والمواثيق «لتأنتنني به إلا أن يحاط بكم» إلا أن تغلبوا كلهم ولا تقدرون على تخلصه «فلما آتوه موثيقهم» أكده عليهم، فقال: «الله على ما نقول وكيل»، قال ابن إسحاق: وإنما فعل ذلك لأنه لم يجد بداً من بعثهم لأجل الميزة التي لا غنى لهم عنها، فبعثه معهم.

وَقَالَ يَسِيرٌ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَجِدِّ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقةٍ وَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ مِنْ أَنَّ اللَّهَ مِنْ شَيْءٍ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوْكِيدٌ وَعَلَيْهِ فَلِيَتَوَكَّلَ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمْرَهُمْ أَبْوَاهُمْ مَا كَانَ يُعْنِي عَنْهُمْ مِنْ أَنَّ اللَّهَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَصَّسَهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَمَنَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤﴾

يقول تعالى إخباراً عن يعقوب عليه السلام، إنه أمر بنيه لما جهزهم مع أخيهم بنiamين إلى مصر أن لا يدخلوا كلهم من باب واحد، وليدخلوا من أبواب متفرقة، فإنه كما قال ابن عباس ومحمد بن كعب ومجاهد والضحاك وقتادة والستي وغير واحد إنه خشي عليهم العين، وذلك أنهم كانوا ذوي جمال وهيبة حسنة، ومنظر وبهاء، فخشى عليهم أن يصيغهم الناس بعيونهم، فإن العين حق تستنزل الفارس عن فرسه^(٣).

وروى ابن أبي حاتم عن إبراهيم التخعي في قوله «وادخلوا من أبواب متفرقة» قال: علم أنه سيلقى إخوته في بعض تلك الأبواب. قوله «وما أغنى عنكم من الله من شيء» أي إن هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضاءه، فإن الله إذا أراد شيئاً لا يخالف ولا يمانع، «إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتكلون ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يعني عنهم

(١) انظر تفسير الطبرى ٢٤٧/٧.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٢٤٧/٧.

(٣) أخرج الحديث: «العين حق تستنزل الحالق» أحمد في المسند ١/٢٧٤، ٢٩٤.

من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها》 قالوا: هي دفع إصابة العين لهم ﴿ وإنه لذو علم لما علمناه ﴾ قال قتادة والثوري: لذو عمل بعلمه. وقال ابن جرير^(١): لذو علم لتعلمنا إياه ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾.

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوْعَزَ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخْوَكَ فَلَا تَبْتَسِّسْ بِمَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ

يخبر تعالى عن إخوة يوسف لما قدموا على يوسف ومعهم أخيه شقيقه بنيامين، وأدخلهم دار كرامته ومتزل ضيافته، وأفاض عليهم الصلة والألطاف والإحسان، واختلى بأخيه فأطلعه على شأنه وما جرى له، وعرفه أنه أخوه، وقال له: لا تبتئس، أي لا تأسف على ما صنعوا بي، وأمره بكتمان ذلك عنهم، وأن لا يطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه، وتواتأ معه أنه سيحتال على أن يقيه عنده معززاً مكرماً معظماً.

فَلَمَّا جَهَزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذْنَ مُؤْذِنَ أَيْتَهَا الْعِيرِ إِنْكُمْ لَسَارِقُونَ قَالُوا
وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَقْدُورُكُمْ قَالُوا نَفَقَدْ صَوَاعِ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حَمْلٌ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ
رَعِيمٌ

لما جهزهم وحمل لهم أبعرتهم طعاماً، أمر بعض فتيانه أن يضع السقاية، وهي إناء من فضة في قول الأكثرين، وقيل: من ذهب، قال ابن زيد، كان يشرب فيه، ويكيل للناس به من عزة الطعام إذ ذاك، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد.

وقال شعبة عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: صواع الملك، قال: كان من فضة يشربون فيه، وكان مثل المكوك^(٢)، وكان للعباس مثله في الجاهلية، فوضعها في متاع بنيامين من حيث لا يشعر أحد، ثم نادى مناد بينهم ﴿ أيتها العير إنكم لسارقون ﴾ فالتفتوا إلى المنادي وقالوا ﴿ مَاذا تقدرون قالوا نفقد صواع الملك ﴾ أي صاعه الذي يكيل به ﴿ ولو من جاء به حمل بعير ﴾ وهذا من باب الجعالة^(٣)، ﴿ وأنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾ وهذا من باب الضمان والكفالة.

قَالُوا تَالَّهِ لَقَدْ عِلْمْتُمْ مَا حِشْنَا لِنْفِسَدِيْ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ سَرِيقِيْنَ قَالُوا فَمَا جَرَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ
كَذَّابِيْنَ قَالُوا جَرَوْهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَرَوْمُ كَذَلِكَ نَجَرِي الظَّالِمِيْنَ فَبَدَأَ
يَأْوِيْعِيْتُهُمْ قَبْلِ وَعَاءَ أَخِيْهِمْ أَسْتَخْرِجَهَا مِنْ وَعَاءَ أَخِيْهِ كَذَلِكَ كَذَلِكَ لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ
فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَتَهُ مَنْ دَشَأَ وَفَوْقَ كُلِّ ذِيْ عِلْمٍ عَلِيْمٌ

(١) تفسير الطبرى ٧/٢٥٠.

(٢) المكوك: الصاع.

(٣) الجعالة: الأجر على الشيء.

لما اتهمهم أولئك الفتىـان بالسرقة، قال لهم إخوة يوسف ﴿نَّا لَهُ لَقْدْ عَلِمْتُم مَا جَعَلْنَا لِنَفْسِنَا
فِي الْأَرْضِ وَمَا كَنَا سَارِقِينَ﴾ أي لقد تحققتـم وعلـمـتـم مـنـذـ عـرـفـمـونـا، لأنـهـمـ شـاهـدـوـا مـنـهـمـ سـيـرةـ
حـسـنـةـ أـنـاـ ﴿مـا جـعـلـنـا لـنـفـسـنـا فـي الـأـرـضـ وـمـا كـنـا سـارـقـينـ﴾ أي لـيـسـ سـجـاـيـاـنـاـ تـقـنـصـيـ هـذـهـ الصـفـةـ،
فـقـالـ لـهـمـ الـفـتـيــانـ ﴿فـمـا جـزـاؤـهـ﴾ أي السـارـقـ إنـ كـانـ فـيـكـمـ ﴿إـنـ كـنـتـمـ كـاذـبـينـ﴾ أي: أـيـ شـيـءـ
يـكـوـنـ عـقـوبـتـهـ إـنـ وـجـدـنـاـ فـيـكـمـ مـنـ أـخـذـهـ؟ ﴿فـالـلـوـا جـزـاؤـهـ مـنـ وـجـدـ فـيـ رـحـلـهـ فـهـوـ جـزـاؤـهـ كـذـلـكـ
نـجـزـيـ الـظـالـمـينـ﴾ وهـكـذاـ كـانـتـ شـرـيعـةـ إـبـرـاهـيمـ عـلـيـهـ السـلـامـ، أـنـ السـارـقـ يـدـفـعـ إـلـىـ المـسـرـوـقـ
مـنـهـ، وـهـذـاـ هوـ الـذـيـ أـرـادـ يـوـسـفـ عـلـيـهـ السـلـامـ، وـلـهـذـاـ بـدـأـ بـأـوـعـيـتـهـ قـبـلـ وـعـاءـ أـخـيـهـ، أـيـ فـتـشـهـاـ
قـبـلـهـ تـورـيـةـ، ﴿ثـمـ اـسـتـخـرـجـهـ مـنـ وـعـاءـ أـخـيـهـ﴾ فـأـخـذـهـ مـنـهـ بـحـكـمـ اـعـتـرـافـهـ وـالتـزـامـهـ، وـإـلـزـاماـ
لـهـمـ بـمـاـ يـعـقـدـوـنـ، وـلـهـذـاـ قـالـ تـعـالـىـ: ﴿كـذـلـكـ كـدـنـاـ لـيـوـسـفـ﴾ وـهـذـاـ مـنـ الـكـيدـ الـمـحـبـوبـ الـمـرـادـ
الـذـيـ يـحـبـهـ اللـهـ وـيـرـضـاهـ، لـمـ فـيـهـ مـنـ الـحـكـمـ وـالـمـصلـحةـ الـمـطـلـوـبـةـ.

وقـولـهـ: ﴿مـا كـانـ لـيـأـخـذـ أـخـاهـ فـيـ دـيـنـ الـمـلـكـ﴾ أي لـمـ يـكـنـ لـهـ أـخـذـهـ فـيـ حـكـمـ مـلـكـ مـصـرـ قـالـهـ
الـضـحـاكـ وـغـيـرـهـ، وـإـنـمـاـ قـيـضـ اللـهـ لـهـ أـنـ التـزـمـ لـهـ إـخـوتـهـ بـمـاـ التـزـمـوـهـ، وـهـوـ كـانـ يـعـلـمـ ذـلـكـ مـنـ
شـرـيعـتـهـ، وـلـهـذـاـ مـدـحـهـ اللـهـ تـعـالـىـ فـقـالـ: ﴿نـرـفـعـ دـرـجـاتـ مـنـ نـشـاءـ﴾ كـمـاـ قـالـ تـعـالـىـ: ﴿لـيـرـفـعـ اللـهـ
الـذـيـ آمـنـواـ مـنـكـمـ﴾ [المجادلة: ١١] الآيةـ.

﴿وـفـوقـ كـلـ ذـيـ عـلـمـ عـلـيـمـ﴾ قالـ الحـسـنـ الـبـصـرـيـ: لـيـسـ عـالـمـ إـلـاـ فـوـقـهـ عـالـمـ حـتـىـ يـتـهـيـ
إـلـىـ اللـهـ عـزـ وـجـلـ، وـكـذـاـ روـيـ عـبـدـ الرـزـاقـ عـنـ سـفـيـانـ الثـوـرـيـ، عـنـ عـبـدـ الـأـعـلـىـ الـثـعـبـانـيـ، عـنـ
سـعـيـدـ بـنـ جـبـيرـ، قـالـ: كـمـاـ عـنـ اـبـنـ عـبـاسـ فـحـدـثـ بـحـدـيـثـ عـجـيبـ، فـتـعـجـبـ رـجـلـ فـقـالـ:
الـحـمـدـ لـلـهـ ﴿فـوـقـ كـلـ ذـيـ عـلـمـ عـلـيـمـ﴾ فـقـالـ اـبـنـ عـبـاسـ: بـشـسـ ماـ قـلـتـ: اللـهـ الـعـلـيمـ فـوـقـ كـلـ
عـالـمـ، وـكـذـاـ روـيـ سـمـاـكـ عـنـ عـكـرـمـةـ، عـنـ اـبـنـ عـبـاسـ ﴿وـفـوـقـ كـلـ ذـيـ عـلـمـ عـلـيـمـ﴾ قـالـ: يـكـوـنـ
هـذـاـ أـعـلـمـ مـنـ هـذـاـ، وـهـذـاـ أـعـلـمـ مـنـ هـذـاـ، وـالـلـهـ فـوـقـ كـلـ عـالـمـ، وـهـكـذـاـ قـالـ عـكـرـمـةـ، وـقـالـ قـاتـادـ:
وـفـوـقـ كـلـ ذـيـ عـلـمـ عـلـيـمـ، حـتـىـ يـتـهـيـ الـعـلـمـ إـلـىـ اللـهـ، مـنـهـ بـدـيـءـ، وـتـعـلـمـتـ الـعـلـمـاءـ، وـإـلـيـهـ يـعـودـ،
وـفـيـ قـرـاءـةـ عـبـدـ اللـهـ، وـفـوـقـ كـلـ عـالـمـ عـلـيـمـ.

﴿قـالـوـاـ إـنـ يـسـرـقـ فـقـدـ سـرـقـ أـخـ لـهـ مـنـ قـبـلـ فـأـسـرـهـاـ يـوـسـفـ فـيـ نـفـسـهـ وـلـمـ يـبـدـهـاـ لـهـمـ﴾ قـالـ
أـنـتـمـ شـرـمـ مـكـانـاـ وـالـلـهـ أـعـلـمـ بـمـاـ تـصـفـوـنـ. ^(٧٧)

وقـالـ إـخـوـةـ يـوـسـفـ لـمـاـ رـأـواـ الصـوـاعـ قـدـ أـخـرـجـ مـنـ مـتـاعـ بـنـيـامـينـ ﴿إـنـ يـسـرـقـ فـقـدـ سـرـقـ أـخـ لـهـ مـنـ
قـبـلـ﴾ يـتـنـصـلـوـنـ إـلـىـ الـعـزـيزـ مـنـ التـشـبـهـ بـهـ، وـيـذـكـرـوـنـ أـنـ هـذـاـ فـعـلـ كـمـاـ فـعـلـ أـخـ لـهـ مـنـ قـبـلـ، يـعـنـونـ
بـهـ يـوـسـفـ عـلـيـهـ السـلـامـ. قـالـ سـعـيـدـ بـنـ جـبـيرـ، عـنـ قـاتـادـ: كـانـ يـوـسـفـ عـلـيـهـ السـلـامـ قـدـ سـرـقـ صـنـمـاـ
لـجـدـهـ أـبـيـ أـمـهـ فـكـسـرـهـ، وـقـالـ مـحـمـدـ بـنـ إـسـحـاقـ، عـنـ عـبـدـ اللـهـ بـنـ أـبـيـ نـجـيـحـ، عـنـ مـجـاـهـدـ، قـالـ:
كـانـ أـوـلـ مـاـ دـخـلـ عـلـىـ يـوـسـفـ مـنـ الـبـلـاءـ فـيـمـاـ بـلـغـنـيـ أـنـ عـمـتـهـ اـبـنـ إـسـحـاقـ، وـكـانـ أـكـبـرـ وـلـدـ

إسحاق، وكانت عندها منطقة^(١) إسحاق، وكانوا يتوارثونها بالكبر، فكان من اختيابها ممن وللها كان له سلماً لا ينزع فيه، يصنع فيه ما يشاء، وكان يعقوب حين ولد له يوسف قد حضرته عметه، وكان لها به قوله، فلم تحب أحداً جبها إياه حتى إذا ترعرع وبلغ سنوات، تاقت إليه نفس يعقوب عليه السلام، فأتتها فقال: يا أخية سلمي إليك يوسف، فوالله ما أقدر على أن يغيب عنى ساعة. قالت: فوالله ما أنا بatarكته، ثم قالت: فدعيه عندي أياماً أنظر إليه، وأسكن عنه لعل ذلك يسليني عنه، أو كما قالت فلما خرج من عندها يعقوب عمدت إلى منطقة إسحاق فحز متها على يوسف من تحت ثيابه، ثم قالت: فقدت منطقة إسحاق عليه السلام، فانتظروا من أخذها ومن أصابها؟ فالتمست، ثم قالت: اكتشفوا أهل البيت فكشفوهم، فوجدوها مع يوسف، فقالت: والله إنه لي سلم، أصنع فيه ما شئت، فأتاه يعقوب، فأخبرته الخبر، فقال لها: أنت وذلك، إن كان فعل ذلك فهو سلم لك، ما أستطيع غير ذلك، فأمسكته فما قدر عليه يعقوب حتى مات^(٢)، قال: فهو الذي يقول إخوة يوسف حين صنع بأخيه ما صنع حين أخذه ﴿إن سرق فقد سرق آخر له من قبل﴾.

وقوله: «فأسرها يوسف في نفسه» يعني الكلمة التي بعدها، وهي قوله: «أنت شر مكاناً والله أعلم بما تصفون». أي تذكرون، قال هذا في نفسه ولم يبده لهم، وهذا من باب الإضمار قبل الذكر، وهو كثير، كقول الشاعر: [البسيط]

جزی بنوه أبا الغیلان عن کبر وحسن فعل كما یجزی سنماء^(۳)

وله شواهد كثيرة في القرآن والحديث واللغة في متشرورها وأخبارها وأشعارها. قال العوفي عن ابن عباس **﴿فأسرها يوسف في نفسه﴾** ، قال: أسر في نفسه **﴿أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون﴾**.

فَالْوَيْلُ لِمَنْ يَكْسِبُهَا إِنَّ اللَّهَ أَبْشِرَ بِمَا كَانُوا فَخَدَ أَهْدَى مَمْلَكَةً إِنَّا نَرِيكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعْكَادُ اللَّهِ أَنْ تَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدَنَا مُتَّقِنِّا عِنْهُ إِنَّا إِذَا أَظْلَمْنَا مُوْتَ

لما تعين أخذ بنiamin وتقرر تركه عند يوسف بمقتضى اعترافهم، شرعاً يترفقون له ويعطفونه عليهم **﴿فقالوا يا أيها العزيز إن له أباًشيخاً كبيراً﴾** يعني وهو يحيه حياً شديداً

(١) المنطقة: شقة تلبسها المرأة وتشد وسطها.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٧/٢٦٥.

(٣) البيت لسلط بن سعد في الأغانى ١١٩/٢، وخزانة ١/٢٩٤، ٢٩٣/١، والدرر ١/٢١٩، ومعجم ما استعجم ص ٥١٦، والمقادس النحوية ٤٩٥/٢، وبلا نسبة في تخلص الشواهد ص ٤٨٩، وتذكرة النحاة ص ٣٦٤، وخزانة الأدب ١/٢٨٠، وشرح الأشموني ١/١٧٠، وشرح ابن عقيل ص ٢٥٢، وهمع الهوام ٦٦.

ويتسلى به عن ولده الذي فقده ﴿فَخَذْ أَحَدُنَا مَكَانَه﴾ أي بدله يكون عندك عوضاً عنه، ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِين﴾ أي العادلين المنصفين القابلين للخير، ﴿قَالَ مَنَّا ذَلِكُ اللَّهُ أَنْ تَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدَنَا مَتَاعَنَا عَنْه﴾ أي كما قلت واعترفت ﴿إِنَا إِذَا لَظَالَمُونَ﴾ أي إن أخذنا بريئاً بسقيم.

فَلَمَّا أَسْتَيْشُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَفِيَّا قَالَ كَيْرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخْذَ عَائِتَكُمْ مَوْثِيقًا مِنَ اللَّهِ وَمَنْ قَبْطَ مَا فَرَطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَيْنَ أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَكَمِينَ إِنَّمَا أَرْجِعُوكُمْ فَقُولُوا يَأْتِيَنَا إِنَّ أَبَنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهَدْنَا إِلَّا يَمْأَلِمُنَا وَمَا كُنَّا لِغَيْبٍ حَفِظِينَ وَسَلَّمَ الْفَرِيَةُ إِلَيْكُمْ كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا صَدِقُونَ

خبر تعالى عن إخوة يوسف أنهم لما يئسوا من تخلص أحיהם بنiamين الذي قد التزموا لأبيهم بربه إليه، وعاهدوه على ذلك، فامتنع عليهم ذلك ﴿خلصوا﴾ أي انفردوا عن الناس ﴿نجيا﴾ يتاجرون فيما بينهم ﴿قال كبرهم﴾ وهو روبيل، وقيل: يهودا، وهو الذي أشار عليهم بإلقائه في البئر عندما هموا بقتله، قال لهم: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخْذَ عَائِتَكُمْ مَوْثِيقًا مِنَ اللَّهِ﴾ لتردنه إليه فقدرأيتم كيف تعذر عليكم ذلك مع ما تقدم لكم من إضاعة يوسف عنه ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ أي لن أفارق هذه البلدة ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ في الرجوع إليه راضياً عنني ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ قيل: بالسيف، وقيل: بأن يمكنني من أخذ أخي ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَكَمِينَ﴾.

ثم أمرهم أن يخبروا أباهم بصورة ما وقع، حتى يكون عذراً لهم عنده، ويتصلوا إليه ويبرووا مما وقع بقولهم وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ قال قنادة وعكرمة: ما علمنا أن ابنك سرق. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما علمنا في الغيب أنه سرق له شيئاً، إنما سألنا ما جزاء السارق؟ ﴿وَاسْأَلَ الْفَرِيَةَ الَّتِي كَنَا فِيهَا﴾: قيل المراد مصر، قاله قنادة، وقيل غيرها، ﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أي التي رافقناها، عن صدقنا وأمانتنا وحفظنا وحراستنا، ﴿وَإِنَّا لِصَادِقُونَ﴾ فيما أخبرناك به من أنه سرق وأخذوه بسرقة.

قَالَ بَلْ سَوْلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبَرْ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَيْعَانًا إِنَّمَا هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ وَقَالَ يَتَسَفَّرُ عَلَى يُوسُفَ وَيَتَضَطَّعُ عَنْهُ مِنَ الْحُرْزِنِ فَهُوَ كَظِيمٌ قَالُوا تَأْلِهَةَ تَفَتَّوْ تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْمُنْكَرِنَ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوْ أَبَتِي وَحُرْزِنِ إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ

قال لهم كما قال لهم حين جاؤوا على قميص يوسف بدم كذب ﴿بَلْ سَوْلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبَرْ جَمِيل﴾ قال محمد بن إسحاق: لما جاؤوا يعقوب وأخبروه بما جرى، اتهمهم فظن أنها كفعلتهم بيوسف، قال: ﴿بَلْ سَوْلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبَرْ جَمِيل﴾^(١) وقال بعض

الناس : لما كان صنيعهم هذا مرتبًا على فعلهم الأول ، سحب حكم الأول عليه ، وصح قوله : « بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل » ثم ترجى من الله أن يرد عليه أولاده الثلاثة : يوسف وأخاه بنيامين وروبيل الذي أقام بديار مصر يتضرر أمر الله فيه ، إما أن يرضي عنه أبوه ، فيأمره بالرجوع إليه ، وإما أن يأخذ أخيه خفية ، وللهذا قال : « عسى الله أن يأتييني بهم جميعاً إنه هو العليم » أي العليم بحالى ، « الحكيم » في أعماله وقضاءه وقدره .

« وتولى عنهم وقال يا أسفنا على يوسف » أي أعرض عن بنيه ، وقال متذكرة حزن يوسف القديم الأول « يا أسفنا على يوسف » جدد له حزن الابنين الحزن الدفين ، قال عبد الرزاق : أبناؤنا الثوري عن سفيان العصيري ، عن سعيد بن جبير أنه قال : لم يعط أحد غير هذه الأمة الاسترجاع^(١) ، ألا تسمعون إلى قول يعقوب عليه السلام « يا أسفنا على يوسف فابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم »^(٢) أي ساكت لا يشكو أمره إلى مخلوق ، قاله قتادة وغيره . وقال الضحاك : فهو كظيم كثيب حزين .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن الحسن ، عن الأحنت بن قيس أن النبي ﷺ قال : « إن داود عليه السلام قال : يا رب إنبني إسرائيل يسألونك بإبراهيم وإسحاق ويعقوب ، فاجعلني لهم رابعاً ، فأوحى الله تعالى إليه : أن يا داود إن إبراهيم ألقى في النار بسببي فصبر ، وتلك بلية لم ت تلك ، وإن إسحاق بذل مهجة دمه بسببي فصبر ، وتلك بلية لم ت تلك ، وإن يعقوب أخذت منه حبيبه فابيضت عيناه من الحزن فصبر ، وتلك بلية لم ت تلك ». وهذا مرسل وفيه نكارة ، فإن الصحيح أن إسماعيل هو الذبح ، ولكن علي بن زيد بن جدعان له ، مناكير وغرائب كثيرة ، والله أعلم .

وأقرب ما في هذا أن الأحنت بن قيس رحمه الله حكاه عن بعض بنى إسرائيل ككعب ووهب ونحوهما ، والله أعلم ، فإن بنى إسرائيل ينقولون أن يعقوب كتب إلى يوسف لما احتبس أخيه بسبب السرقة يتلطف له في رد ابنه ، ويذكر له أنهم أهل بيت مصابون بالبلاء ، فإبراهيم ابتلي بالنار ، وإسحاق بالذبح ، ويعقوب بفراق يوسف ، في حديث طويل لا يصح ، والله أعلم ، فعند ذلك رق له بنوه .

وقالوا له على سبيل الرفق به والشفقة عليه : « تأله تفوّت ذكر يوسف » أي لا تفارق تذكر يوسف « حتى تكون حرضاً » أي ضعيف القوة « أو تكون من الهالكين » يقولون إن استمر بك هذا الحال خشينا عليك الهاك والتلف « قال إنما أشكو بشي وحزني إلى الله » أي أجا بهم مما قالوا بقوله : « إنما أشكو بشي وحزني » أي همي وما أنا فيه « إلى الله » وحده ، « وأعلم من الله »

(١) الاسترجاع : أي القول : « إنا لله وإنا إليه راجعون » ، إذا نزلت مصيبة .

(٢) انظر تفسير الطبرى ٢٧٦/٧ .

ما لا تعلمون» أي أرجو منه كل خير، وعن ابن عباس «وأعلم من الله ما لا تعلمون» يعني رؤيا يوسف أنها صدق، وأن الله لا بد أن يظهرها، وقال العوفي عنه في الآية: أعلم أن رؤيا يوسف صادقة وأنني سوف أسجد له^(١).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا يحيى بن عبد الملك بن أبي غنية عن حفص بن عمر بن أبي الزبير، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كان ليعقوب النبي عليه السلام أخ مؤاخ له، فقال له ذات يوم: ما الذي أذهب بصرك، وقوس ظهرك؟ قال: أما الذي أذهب بصرى فالبكاء على يوسف، وأما الذي قوس ظهري فالحزن على بنiamين، فأتاه جبريل عليه السلام فقال: يا يعقوب إن الله يقرئك السلام ويقول لك: أما تستحي أن تشكوني إلى غيري؟ فقال يعقوب: إنما أشكو بشي وحزني إلى الله، فقال جبريل عليه السلام: الله أعلم بما تشكون» وهذا حديث غريب فيه نكارة.

يَبْنَىَ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوْسَفَ وَأَخِيهِ لَا تَأْيِشُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٢﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَيْهِ قَالُوا يَأْتِيَهَا الْعَزِيزُ مَسَنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجَنَّا بِضَيْعَةً مُزَجَّلَةً فَأَوْفَ لَنَا الْكِيلَ وَتَصَدَّقَ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن يعقوب عليه السلام: إنه ندب بنيه على الذهاب في الأرض يستعملون أخبار يوسف وأخيه بنiamين، والتحسس يكون في الخير، والتجسس يكون في الشر، ونهضهم ويسرهم وأمرهم أن لا يأسوا من روح الله أي لا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله فيما يرومونه ويقصدونه، فإنه لا يقطع الرجاء ولا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون.

وقوله «فلما دخلوا عليه» تقدير الكلام: فذهبوا فدخلوا مصر، ودخلوا على يوسف «قالوا يا أيتها العزيز مسنا وأهلنا الضر» يعنون من الجدب والقحط وقلة الطعام، «وَجَنَّا بِضَيْعَةً مُزَجَّلَةً» أي ومعنا ثمن الطعام الذي نمتاره، وهو ثمن قليل، قاله مجاهد والحسن وغير واحد. وقال ابن عباس: الرديء لا يفق مثل خلق^(٢) الغرارة والحبيل والشيء، وفي رواية عنه: الدرهم الرديئة التي لا تجوز إلا بنقصان، وكذا قال قتادة والسدي. وقال سعيد بن جبير: هي الدرهم الفسول^(٣). وقال أبو صالح: هو الصنوبر وحبة الخضراء، وقال الضحاك: كاسدة لا تنفك. وقال أبو صالح: جاؤوا بحب البطم الأخضر والصنوبر، وأصل الإباء الإزباء

(١) انظر تفسير الطبرى ٢٨١/٧.

(٢) الخلق: البالى.

(٣) الفسول: جمع فسل: هو الرديء من كل شيء.

لضعف الشيء، كما قال حاتم طيء: [الطوبل]

لينك على ملحان ضيف مدفعٌ وأرملة تُزجي مع الليل أزملاً^(١)

وقال أعشى بنى ثعلبة: [الكامل]

الواهِبُ المائة الهجانَ وعبدُها عوذاً تزجي خلفها أطفالها^(٢)

وقوله إخباراً عنهم «فأوف لنا الكيل» أي أعطنا بهذا الثمن القليل ما كنت تعطينا قبل ذلك، وقرأ ابن مسعود: فأوف ركابنا وتصدق علينا. وقال ابن جريج: وتصدق علينا برد أخيانا إلينا. وقال سعيد بن جبير والسدي «وتصدق علينا» يقولون: تصدق علينا بقبض هذه البضاعة المزجة، وتتجاوز فيها. وسئل سفيان بن عيينة: هل حرمت الصدقة على أحد من الأنبياء قبل النبي ﷺ؟ فقال ألم تسمع قوله: «فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين» رواه ابن حير^(٣) عن العارث، عن القاسم عنه. وقال ابن حير^(٤): حدثنا العارث، حدثنا القاسم، حدثنا مروان بن معاوية عن عثمان بن الأسود، سمعت مجاهداً وسئل: هل يكره أن يقول الرجل في دعائه: اللهم تصدق على؟ قال: نعم، إنما الصدقة لمن يتغى الشواب.

قَالَ هَلْ عِلْمُكُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذَا نَسِمْ جَهَلُوكُنْ قَالُوا إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفَ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَرَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّمَا مَنْ يَتَّقَ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ قَالُوا تَالَّهِ لَقَدْ أَشَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ قَالَ لَا تَرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَقْرُرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ^(٥)

يقول تعالى مخبراً عن يوسف عليه السلام، أنه لما ذكر له إخوته ما أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام وعموم الجدب، وتذكر أباه وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسرعة، فعند ذلك أخذته رقة ورأفة ورحمة وشفقة على أبيه وإخوته، وبدره البكاء فتعرف إليهم، فيقال: إنه رفع الناج عن جبهته، وكان فيها شامة، وقال «هل

(١) البيت بلا نسبة في لسان العرب (رمل)، وناتج العروس (رمل)، وهو منسوب أيضاً لحاتم الطائي في تفسير الطبرى ٢٨٥/٧.

(٢) البيت للأعشى في ديوانه ص ٧٩، وأمالى المرتضى ٣٠٣/٢، وخزانة الأدب ٢٥٦/٤، ٢٦٠، ٤٩٨/٦، ١٣١/٥، والدرر ١٣/٥، والكتاب ١٨٣/١، والمقطب ٤/١٦٣، وبلا نسبة في الأشباء والناظائر ٤٣٩/٢، وجمهرة اللغة ص ٩٢٠، والدرر ٦/١٥٣، وشرح ابن عقيل ص ٤٢٧، وشرح عمدة الحافظ ص ٦٦٧، والمقرب ١٢٦/١، وهمع الهوامع ٤٨/٢، ١٣٩، والبيت للأعشى بنى ثعلبة في تفسير الطبرى ٢٨٥/٧.

(٣) تفسير الطبرى ٢٨٩/٧.

(٤) تفسير الطبرى ٢٩٠/٧.

علمت ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون» يعني كيف فرقوا بينه وبين أخيه «إذ أنت جاهلون» أي إنما حملكم على هذا الجهل بمقدار هذا الذي ارتكبتموه، كما قال بعض السلف : كل من عصى الله فهو جاهل ، وقرأ «ثم إن رب للذين عملوا السوء بجهالتهم» [النحل: ١١٩ الآية .

والظاهر - والله أعلم - أن يوسف عليه السلام إنما تعرف إليهم بنفسه بإذن الله تعالى له في ذلك ، كما أنه إنما أخفي منهم نفسه في المرتدين الأوليين بأمر الله تعالى له في ذلك ، والله أعلم ولكن لما ضاق الحال واشتد الأمر ، فرج الله تعالى من ذلك الضيق ، كما قال تعالى : «فإن مع العسر يسراً وإن مع العسر يسراً» [الشرح : ٥ - ٦] فعند ذلك قالوا «أئنك لأنك يوسف» وقرأ أبي بن كعب «إنك لأنك لأنك يوسف» ، وقرأ ابن محيصن أنت يوسف ، والقراءة المشهورة هي الأولى ، لأن الاستفهام يدل على الاستعظام أي أنهم تعجبوا من ذلك أنه يتربدون إليه من سنتين وأكثر وهم لا يعرفونه وهو مع هذا يعرفهم ويكتم نفسه ، فلهذا قالوا على سبيل الاستفهام : «أئنك لأنك لأنك يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي» .

وقوله : «قد منَ الله علينا» أي بجمعه بيتنا بعد التفرقة وبعد المدة «إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين قالوا تامة لقد آثرت الله علينا» الآية ، يقولون معتبرين له بالفضل والأثر عليهم في الخلق والخلق والاسعة والملك والتصرف والنبوة أيضاً ، على قول من لم يجعلهم أنبياء ، وأقرروا له بأنهم أساووا إليه وأخطلوا في حقه «قال لا تشرب عليكم اليوم» يقول : أي لا تأنيب عليكم ولا عتب عليكم اليوم ، ولا أعيد عليكم ذنبكم في حقي بعد اليوم ، ثم زادهم الدعاء لهم بالمغفرة فقال : «يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين» قال السدي : اعتذرنا إلى يوسف فقال : «لا تشرب عليكم اليوم» يقول : لا ذكر لكم ذنبكم : وقال ابن إسحاق والثوري «لا تشرب عليكم» أي لا تأنيب عليكم اليوم عندي فيما صنعتم ، «يغفر الله لكم» أي يستر الله عليكم فيما فعلتم «وهو أرحم الراحمين» .

اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِي أَيْ يَأْتِ بَصِيرًا وَأَتُوفِّ إِبْرِهِ لَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ وَأَمَّا فَصَلَتْ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَحِدُ دِرِيجَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تَفَنِّدُونَ ﴿٤٤﴾ قَالُوا تَالَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ كَالْقَدِيرِ ﴿٤٥﴾

يقول : اذهبوا بهذا القميص «فاللقوه على وجهي يأتي بصيراً» وكان قد عمي من كثرة البكاء ، «وأتووني بأهلكم أجمعين» أي بجميعبني يعقوب ، «ولما فصلت العير» أي خرجت من مصر «قال أبوهم» يعني يعقوب عليه السلام لم ين بقي عنده من بنيه «إني لأجد ريح يوسف لو لا أن تفنيدون» تسبوني إلى الفند والكبر قال عبد الرزاق : أأننا إسرائيل عن أبي سنان ، عن عبد الله بن أبي الهذيل ، قال : سمعت ابن عباس يقول : ولما فصلت العير ، قال : لما خرجت

العير هاجت ريح، فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف، فقال ﴿إِنِّي لَأَجْدِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تَفْنِدُونَ﴾ قال: فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام^(١)، وكذا رواه سفيان الثوري وشعبة وغيرهما عن أبي سنان به وقال الحسن وابن جرير: كان بينهما ثمانون فرسخاً، وكان بينه وبينه منذ افترقا ثمانون سنة.

وقوله ﴿لَوْلَا أَنْ تَفْنِدُونَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وقادة وسعيد بن جبير تسفيهون وقال مجاهد أيضاً والحسن: تهرمون. وقولهم ﴿إِنَّكَ لَنَفِيَ صَلَالَكَ الْقَدِيمَ﴾ قال ابن عباس: لفني خطنك القديم. وقال قتادة: أي من حب يوسف لا تنساه ولا تسلاه، قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم ولا لنبي الله ﷺ، وكذا قال السدي وغيره.

فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَنَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَأَرْتَدَ بَصِيرًا قَالَ اللَّهُ أَكْلُ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩١﴾ **قَالُوا يَا أَبَانَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ** ﴿٩٢﴾ **قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴿٩٣﴾

قال ابن عباس والضحاك: ﴿البشير﴾ البريد. وقال مجاهد والسدي: كان يهودا بن يعقوب، قال السدي: إنما جاء به لأنه هو الذي جاء بالقميص وهو ملطخ بدم كذب، فأحب أن يغسل ذلك بهذا، فجاء بالقميص فألقاه على وجه أبيه فرجع بصيراً، وقال لبنيه عند ذلك ﴿أَلَمْ أَقْلُ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أعلم أن الله سيرده إلي، وقلت لكم: ﴿إِنِّي لَأَجْدِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تَفْنِدُونَ﴾ فعند ذلك قالوا لأبيهم متزفين له: ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ قال سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم^(٢) أي من تاب إليه تاب عليه، قال ابن مسعود وإبراهيم التيمي وعمرو بن قيس وابن جرير وغيرهم: أرجأهم إلى وقت السحر.

وقال ابن جرير^(٢): حدثني أبو السائب، حدثنا ابن إدريس، سمعت عبد الرحمن بن إسحاق يذكر عن محارب بن دثار قال: كان عمر رضي الله عنه يأتي المسجد فيسمع إنساناً يقول: اللهم دعوتني فأجبت، وأمرتني فأطعت، وهذا السحر فاغفر لي. قال فاستمع الصوت، فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود، فسأل عبد الله عن ذلك، فقال: إن يعقوب آخر بنيه إلى السحر بقوله ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾.

وقد ورد في الحديث أن ذلك كان ليلة الجمعة، كما قال ابن جرير^(٣) أيضاً: حدثني المثنى، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن أيوب الدمشقي، حدثنا الوليد، أباينا ابن جرير عن عطاء، وعكرمة عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ يقول: حتى تأتي

(١) انظر تفسير الطبرى ٢٩٤ / ٧.

(٢) تفسير الطبرى ٧ / ٣٠٠.

(٣) تفسير الطبرى ٧ / ٣٠٠.

ليلة الجمعة، وهو قول أخي يعقوب لبنيه «وَهُذَا غَرِيبٌ مِّنْ هَذَا الوجهِ، وَفِي رُفْعِهِ نَظَرٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ».

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ أَوَى إِلَيْهِ أَبُوهُهُ وَقَالَ أَدْخُلُوا مَصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَمْنِينَ ﴿٤﴾ وَرَفَعَ أَبُوهُهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَكْبَتْ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَيْ منْ قَبْلِ قَدْ جَعَلَهَا رَأَيِّ حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ فِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السَّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِّنَ الْيَدِ وَمِنْ بَعْدِ أَنْ تَرَأَّسَ الشَّيْطَانُ بَيْنِ وَبَيْنَ إِنْحِقَاقِ إِنَّ رَأَيِّ لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾

يخبر تعالى عن ورود يعقوب عليه السلام على يوسف عليه السلام، وقد ومه بلاد مصر، لما كان يوسف قد تقدم لإخوته أن يأتوه بأهلهم أجمعين، فتحملوا عن آخرهم، وترحلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد مصر، فلما أخبر يوسف عليه السلام باقتراحهم، خرج لتلقיהם وأمر الملك أمراءه وأكابر الناس بالخروج مع يوسف لتلقي نبي الله يعقوب عليه السلام، ويقال: إن الملك خرج أيضاً لتلقيه، وهو الأشبه، وقد أشكل قوله: «أوى إليه أبوه وقال دخلوا مصر» على كثير من المفسرين، فقال بعضهم: هذا من المقدم والمؤخر، ومعنى الكلام «وقال دخلوا مصر إن شاء الله آمنين» أوى إليه أبوه ورفعهما على العرش، ورد ابن جرير هذا، وأجاد في ذلك، ثم اختار ما حكاه عن السدي أن يوسف أوى إليه أبوه لما تلقاهم، ثم لما وصلوا باب البلد قال: «دخلوا مصر إن شاء الله آمنين».

وفي هذا نظر أيضاً، لأن الإيواء إنما يكون في المنزل، كقوله «أوى إليه أخاه» [يוסף: ٦٩] وفي الحديث «من أوى محدثاً»^(١) وما المانع أن يكون قال لهم بعدما دخلوا عليه وأواههم إليه: دخلوا مصر، وضمنه اسكنوا مصر إن شاء الله آمنين، أي مما كنتم فيه من الجهد والقطط، ويقال - والله أعلم - إن الله تعالى رفع عن أهل مصر بقية السنين المجدية ببركة قوم يعقوب عليهم، كما رفع بقية السنين التي دعا بها رسول الله ﷺ على أهل مكة حين قال: «اللهم أعني عليهم بسبعين كسبع يوسف» ثم لما تضرعوا إليه واستشفعوا لديه، وأرسلوا أبا سفيان في ذلك، فدعوا لهم فرفع عنهم بقية ذلك ببركة دعائه عليه السلام^(٢).

وقوله: «أوى إليه أبوه» قال السدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنما كان أباه وخالته، وكانت أمه قد ماتت قديماً. وقال محمد بن إسحاق وابن جرير: كان أبوه وأمه يعيشان، قال ابن جرير^(٣): ولم يقم دليل على موت أمه، وظاهر القرآن يدل على حياتها، وهذا الذي نصره هو المنصور الذي يدل عليه السياق. وقوله: «ورفع أبوه على العرش» قال ابن عباس

(١) أخرجه البخاري في الفرائض باب ٢١، ومسلم في العنق حديث ٢٠.

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات باب ٥٨.

(٣) تفسير الطبرى ٣٠٢ / ٧

ومجاهد وغير واحد: يعني السرير، أي أجلسهما معه على سريره، «وخرعوا له سجداً» أي سجد له أبواه وإخوته الباقيون. وكانوا أحد عشر رجلاً، «وقال يا أبتي هذا تأويل رؤيائي من قبل» أي التي كان قصها على أبيه من قبل، «إني رأيت أحد عشر كوكباً» [يوسف: ٤] الآية، وقد كان هذا سائغاً في شرائعهم إذا سلموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزًا من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام، فحرم هذا في هذه الملة، وجعل السجود مختصاً بجناب الرب سبحانه وتعالى، هذا مضمون قول قتادة وغيره.

وفي الحديث أن معاذًا قدم الشام فوجدهم يسجدون لأساقفهم، فلما رجع سجد لرسول الله ﷺ فقال «ما هذا يا معاذ؟» فقال إني رأيتمهم يسجدون لأساقفهم، وأنت أحق أن يسجد لك يا رسول الله، فقال: «لو كنت أمراً أحداً أن يسجد لأحد، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها»^(١). وفي حديث آخر: أن سلمان لقي النبي ﷺ في بعض طرق المدينة، وكان سلمان حديث عهد بالإسلام، فسجد للنبي ﷺ فقال: «لا تسجد لي يا سلمان، واسجد للحي الذي لا يموت»، والغرض أن هذا كان جائزًا في شريعتهم، ولهذا خروا له سجداً، فعندها قال يوسف: «يا أبتي هذا تأويل رؤيائي من قبل قد جعلها ربى حقاً» أي هذا ما ألل إليه الأمر، فإن التأويل يطلق على ما يصير إليه الأمر، كما قال تعالى: «هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله» [الأعراف: ٥٣] أي يوم القيمة يأتيهم ما وعدوا به من خير وشر.

وقوله: «قد جعلها ربى حقاً» أي صحيحة صدقاً يذكر نعم الله عليه، «وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو» أي البدية. قال ابن جريج وغيره: كانوا أهل بادية وماشية، وقال: كانوا يسكنون بالعربات من أرض فلسطين من غور الشام، قال: وبعض يقول: كانوا بالأولايج من ناحية شعب أسفل من حسمى، وكانوا أصحاب بادية وشاء وإبل^(٢).

«من بعد أن نزع الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربى لطيف لما يشاء» أي إذا أراد أمراً فيض له أسباباً وقدره ويسره «إنه هو العليم» بمصالح عباده، «الحكيم» في أقواله وأفعاله وقضائه وقدره وما يختاره ويريده. قال أبو عثمان النهدي، عن سليمان: كان بين رؤيا يوسف وتأويلها أربعون سنة، قال عبد الله بن شداد: وإليها يتنهى أقصى الرؤيا، رواه ابن جرير^(٣)، وقال أيضاً: حدثنا عمر بن علي، حدثنا عبد الوهاب الثقفي، حدثنا هشام عن الحسن قال: كان منذ فارق يوسف يعقوب إلى أن التقى ثمانون سنة، لم يفارق الحزن قلبه، ودموعه تجري على خديه، وما على وجه الأرض عبد أحب إلى الله من يعقوب.

(١) أخرجه ابن ماجه في النكاح باب ٤، وأحمد في المسند ٤/ ٣٨١.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٧/ ٣٠٧.

(٣) تفسير الطبرى ٧/ ٣٠٨.

وقال هشيم، عن يونس، عن الحسن: ثلات وثمانون سنة، وقال مبارك بن فضالة، عن الحسن: ألقى يوسف في الجب وهو ابن سبع عشرة سنة، فغاب عن أبيه ثمانين سنة، وعاش بعد ذلك ثلاثة وعشرين سنة، فمات ولد عشرون ومائة سنة، وقال قتادة: كان بينهما خمس وثلاثون سنة. وقال محمد بن إسحاق: ذكر - والله أعلم - أن غيبة يوسف عن يعقوب كانت ثمانية عشرة سنة، قال: وأهل الكتاب يزعمون أنها كانت أربعين سنة أو نحوها، وأن يعقوب عليه السلام بقي مع يوسف بعد أن قدم عليه مصر سبع عشرة سنة، ثم قبضه الله إليه. وقال أبو إسحاق السبيسي، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود، قال: دخل بنو إسرائيل مصر وهم ثلاثة وستون إنساناً، وخرجوا منها وهم ستمائة ألف وسبعون ألفاً، وقال أبو إسحاق، عن مسروق: دخلوا وهم ثلاثة وستمائة وتسعون بين رجل وامرأة، فالله أعلم. وقال موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب القرظي، عن عبد الله بن شداد: اجتمع آل يعقوب إلى يوسف بمصر وهم ستة وثمانون إنساناً: صغيرهم وكبيرهم، وذكريهم وأثاثهم، وخرجوا منها وهم ستمائة ألف ونيف.

﴿ رَبِّنَا مَنْ أَتَيْنَا مِنَ الْمُلْكَ وَعَلَمْنَا مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تُوفِّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِيقَى بِالصَّالِحِينَ ﴾

هذا دعاء من يوسف الصديق، دعا به ربه عز وجل لما تمت نعمة الله عليه باجتماعه بأبويه وإخوته، وما من الله به عليه من النبوة والملك سأل ربه عز وجل كما أتم نعمته عليه في الدنيا أن يستمر بها عليه في الآخرة، وأن يتوفاه مسلماً حين يتوفاه، قاله الضحاك: وأن يلحقه بالصالحين وهم إخوانه من النبيين والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وهذا الدعاء يتحمل أن يوسف عليه السلام، قاله عند اختصاره، كما ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ جعل يرفع أصبعه عند الموت ويقول: «اللهم في الرفيق الأعلى»^(١) ثلاثة، ويتحمل أنه سأله الوفاة على الإسلام واللحاق بالصالحين إذا جاء أجله، وانقضى عمره، لا أنه سأله ذلك منجزاً كما يقول الداعي لغيره: أماتك الله على الإسلام، ويقول الداعي: اللهم أحينا مسلمين، وتوفنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، ويتحمل أنه سأله ذلك منجزاً، وكان ذلك سائغاً في ملتهم، كما قال قتادة قوله: «توفني مسلماً وألحقني بالصالحين» لما جمع الله شمله وأقر عينه، وهو يومئذ مغمور في الدنيا وملوكها ونصارتها، اشتاق إلى الصالحين قبله.

وكان ابن عباس يقول: ما تمنى نبي قط الموت قبل يوسف عليه السلام، وكذا ذكر ابن

(١) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة، باب ٥، ومسلم في السلام حديث ٤٦.

جرير^(١) والستي عن ابن عباس أنه أول نبي دعا بذلك ، وهذا يتحمل أنه أول من سأله الوفاة على الإسلام ، كما أن نوحًا أول من قال : « رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمناً » [نوح : ٢٨] ويتحمل أنه أول من سأله إنجاز ذلك ، وهو ظاهر سياق قول قتادة ، ولكن هذا لا يجوز في شريعتنا .

قال الإمام أحمد بن حنبل^(٢) رحمه الله : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، حدثنا عبد العزيز بن صهيب عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يتمين أحدكم الموت لضر نزل به فإن كان ولا بد متمني الموت ، فليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي » وأخر جاه في الصحيحين ، وعنهما « لا يتمين أحدكم الموت لضر نزل به إما محسناً في زداد ، وإما مسيئاً فلعله يستعبد ، ولكن ليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي »^(٣) .

وقال الإمام أحمد^(٤) : حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا معان بن رفاعة ، حدثني علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة قال : جلسنا إلى رسول الله ﷺ فذكرنا ورقنا ، فبكى سعد بن أبي وقاص فأكثر البكاء ، وقال : يا ليتني مت ، فقال النبي ﷺ : « يا سعد أعندي تمني الموت؟ » فردد ذلك ثلاث مرات ، ثم قال : « يا سعد إن كنت خلقت للجنة ، فما طال من عمرك وحسن من عملك فهو خير لك ». .

وقال الإمام أحمد^(٥) : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا أبو يونس ، وهو سليم بن جبير عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « لا يتمين أحدكم الموت لضر نزل به ولا يدع به من قبل أن يأتيه إلا أن يكون قد وثق بعمله ، فإنه إذا مات أحدكم انقطع عنه عمره ، وأنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً » تفرد به أحمد ، وهذا فيما إذا كان الضر خاصاً به ، وأما إذا كان فتنة في الدين فيجوز سؤال الموت ، كما قال الله تعالى إخباراً عن السحرة لما أرادهم فرعون عن دينهم وتهذدهم بالقتل « قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين » [الأعراف : ١٢٦] وقامت مريم لما أ جاءها المخاصض ، وهو الطلق ، إلى جذع النخلة : « يا ليتني مت قبل هذا و كنت نسيأً منسيأً » [مريم : ٢٣] لما علمت من أن الناس يقدفونها بالفاحشة ، لأنها لم تكن ذات زوج ، وقد حملت ووضعت ، وقد قالوا : « يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً يا أخت هارون ما كان أبوك أمراً سوء وما كانت أملك بغيأً » [مريم : ٢٧ - ٢٨] فجعل الله لها من ذلك الحال فرجأً ومخرجاً ، وأنطق

(١) تفسير الطبرى ٧/٣٠٩.

(٢) المستند ٣/١٠١.

(٣) أخرجه البخاري في المرضى باب ١٩ ، ومسلم في الذكر حديث ١٠ .

(٤) ٢٦٦، ٢٦٧ / ٥.

(٥) المستند ٢/٣٥٠ .

الصبي في المهد بأنه عبد الله ورسوله ، فكان آية عظيمة ، ومعجزة باهرة صلوات الله وسلامه عليه .
وفي حديث معاذ الذي رواه الإمام أحمد والترمذى في قصة المنام والدعاء الذي فيه «إذا
أردت بقوم فتنة فتوفي إليك غير مفتون»^(١) .

وقال الإمام أحمد^(٢) : حدثنا أبو سلمة ، أئبنا عبد العزيز بن محمد عن عمرو عن عاصم بن عمر بن قتادة ، عن محمود بن لبيد مرفوعاً أن النبي ﷺ قال : «اثنتان يكرههما ابن آدم : يكره الموت والموت خير للمؤمن من الفتنة ، ويكره قلة المال وقلة المال أقل للحساب» فعند حلول الفتنة في الدين يجوز سؤال الموت ، ولهذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في آخر خلافته لما رأى أن الأمور لا تجتمع له ولا يزداد الأمر إلا شدة ، فقال : اللهم خذني إليك ، فقد سئلتهم وسئلوني . وقال البخاري رحمة الله : لما وقعت له تلك الفتنة وجرى له مع أمير خراسان ما جرى ، قال : اللهم توفني إليك .

وفي الحديث «إن الرجل ليمر بالقبر - أي في زمان الدجال - فيقول : يا ليتني مكانك»^(٣) لما يرى من الفتنة . والزلزال والبلابل والأمور الهائلة التي هي فتنة لكل مفتون . قال أبو جعفر بن جرير : وذكر أن بني يعقوب الذين فعلوا بيوسف ما فعلوا ، استغفروا لهم أبوهم ، فتاب الله عليهم ، وعفا عنهم ، وغفر لهم ذنبهم .

(ذكر من قال ذلك)

حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثني حجاج عن صالح المري ، عن يزيد الرفاعي ، عن أنس بن مالك قال : إن الله تعالى لما جمع ليعقوب شمله بعينيه خلا ولده نجيا ، فقال بعضهم البعض : ألستم قد علمتم ما صنعتم ؟ وما لقي منكم الشيخ ، وما لقي منكم يوسف ؟ قالوا : بل . قال فيغركم عفوهما عنكم ، فكيف لكم بربكم ؟ فاستقام أمرهم على أن أتوا الشيخ ، فجلسوا بين يديه ويوسف إلى جانب أبيه قاعد ، قالوا : يا أبا إنا أيناك لأمر لم تأتك لأمر مثله قط ، ونزل بنا أمر لم ينزل بنا مثله قط حتى حركوه ، والأنبياء عليهم السلام أرحم البرية ، فقال : ما لكم يا بني ؟ قالوا : ألسنت قد علمت ما كان منا إليك وما كان منا إلى أخيانا يوسف ؟

قال : بلى قالوا : أولستما قد غفرتما لنا ؟ قالا : بل . قالوا : فإن عفوكما لا يعني عنا شيئاً ، إن كان الله لم يعف عنا . قال : فيما تريدون يا بني ؟ قالوا : نريد أن تدعوا الله لنا ، فإذا جاءك

(١) أخرجه الترمذى في تفسير سورة ٣٨ ، باب ٢ ، ٤ ، ومالك في القرآن حديث ٩٠ ، وأحمد في المسند ٣٧٨ / ١ ، ٢٤٣ / ٥ ، ٦٦ / ٤ ، ٣٦٨ / ١ .

(٢) المسند ٤٢٧ / ٥ .

(٣) أخرجه ابن ماجه في الفتنة باب ٢٤ .

الوحي من الله بأنه قد عفا عننا، قرت أعيننا، واطمأنت قلوبنا، وإن فلا فرقة عين في الدنيا لنا أبداً. قال: فقام الشيخ فاستقبل القبلة وقام يوسف خلف أبيه، وقاموا خلفهما أذلة خاشعين، قال: فدعوا وأمن يوسف، فلم يجب بهم عشرين سنة، قال صالح المري يخيفهم، قال: حتى إذا كان على رأس العشرين نزل جبريل عليه السلام، على يعقوب عليه السلام، فقال: إن الله تعالى قد بعثني إليك أبشرك بأنه قد أجاب دعوتك في ولدك وأن الله تعالى قد عفا عما صنعوا، وأنه قد اعتقد مواثيقهم من بعدك على النبوة^(١).

هذا الأثر موقف عن أنس. ويزيد الرقاشي وصالح المري ضعيفان جداً. وذكر السدي أن يعقوب عليه السلام لما حضره الموت أوصى إلى يوسف بأن يدفن عند إبراهيم وإسحاق، فلما مات صبره وأرسله إلى الشام، دفن عندهما عليهم السلام.

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءَ الْغَيْبِ تُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَكْرُونَ ۚ وَمَا أَنْتَ رَّ
الْأَنْسَى وَلَوْ حَرَضْتَ بِمُؤْمِنِينَ ۚ وَمَا تَشَأْلُهُمْ عَنْهُ مِنْ أَجْرٍ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذَكَرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۚ

يقول تعالى لمحمد ﷺ لما قص عليه نبأ إخوة يوسف، وكيف رفعه الله عليهم، وجعل له العاقبة والنصر والملك والحكم، مع ما أرادوا به من السوء والهلاك والإعدام، هذا وأمثاله يا محمد من أخبار الغيوب السابقة «نوحيه إليك» وتعلمك به يا محمد لما فيه من العبرة لك، والاتعاظ لمن خالفك «وما كنت لديهم» حاضراً عندهم ولا مشاهداً لهم «إذ جمعوا أمرهم» أي على إلقائه في الجب «وهم يمكرون» به، ولكننا أعلمتك به وحياناً إليك وإنزالاً عليك، قوله: «وما كنت لديهم إذ يلقون أفلامهم» [آل عمران: ٤٤] الآية، وقال تعالى: «وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر» [القصص: ٤٤] الآية، إلى قوله: «وما كنت بجانب الطور إذ نادينا» [القصص: ٤٦] الآية، وقال: «وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا» [القصص: ٤٥] الآية، وقال «ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون إن يوحى إلى إلهي إله أنا نذير مبين» [ص: ٧٠ - ٦٩] يقول تعالى: إنه رسوله وإن قد أطلعه على أنباء ما قد سبق، مما فيه عبرة للناس ونجاة لهم في دينهم ودنياهم، ومع هذا ما أمن أكثر الناس، ولهذا قال: «وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين» [الأنعام: ١١٦] وقال: «وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله» قوله: «إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين» [الشعراء: ٨] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: «وما تسألهم عليه من أجر» أي ما تسألهم يا محمد على هذا النصح والدعاء إلى الخير والرشد من أجر، أي من جعلاه ولا أجراً على ذلك، بل تفعله ابتغاء وجه الله ونصاحاً لخلقه «إن هو إلا ذكر للعالمين» يتذكرون به ويهتدون وينجون به في الدنيا والآخرة.

(١) انظر تفسير الطبرى ٣٠٩/٧ . ٣١٠

وَكَانُوا مِنْ أَئِيمَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمْرُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ۝ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ
بِإِلَهٍ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ۝ أَفَمُنِّوا أَنَّ كَاتِبَهُمْ غَنِيَّةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيهِمُ السَّاعَةُ بَعْتَدًا وَهُمْ لَا
يَشْعُرُونَ ۝

يُخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكير في آيات الله ودلائل توحيده بما خلقه الله في السموات والأرض من كواكب زاهرات ثوابت، وسيارات وأفلاك دائرات، والجميع مسخرات، وكم في الأرض من قطع متجاورات، وحدائق وجنات، وجبال راسيات، وبحار زاخرات، وأمواج متلاطمات، وفقار شاسعات، وكم من أحياe وأموات، وحيوان ونبات، وثمرات متشابهة ومختلفات في الطعم والروائح والألوان والصفات، فسبحان الواحد الأحد، خالق أنواع المخلوقات، المتفرد بالدوام والبقاء والصدمة للأسماء والصفات، وغير ذلك.

وقوله: «وما يؤمن أكثرهم بآله إلا وهم مشركون» قال ابن عباس: من إيمانهم أنهم إذا قيل لهم: من خلق السموات، ومن خلق الأرض، ومن خلق الجبال؟ قالوا: الله، وهم مشركون به^(١). وكذا قال مجاهد وعطاء وعكرمة والشعبي وقتادة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وفي الصحيحين: أن المشركين كانوا يقولون في تلبيةهم: ليك لا شريك لك إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك. وفي صحيح مسلم أنهم كانوا إذا قالوا: ليك لا شريك لك، قال رسول الله ﷺ: «قد قد» أي حسب حسب، لا تريدوا على هذا^(٢).

وقال الله تعالى: «إِنَّ الشَّرَكَ لِظُلْمٍ عَظِيمٍ» وهذا هو الشرك الأعظم يعبد مع الله غيره، كما في الصحيحين عن ابن مسعود قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «أَنْ تَجْعَلَ اللَّهَ نَدًّا وَهُوَ خَلْقُكَ»^(٣).

وقال الحسن البصري في قوله: «وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِإِلَهٍ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ» قال: ذلك المنافق يعمل إذا عمل رباء الناس، وهو مشرك بعمله ذلك يعني قوله تعالى: «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يَخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ إِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يَرَأُونَ النَّاسَ وَلَا يَذَكَّرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا» وثم شرك آخر خفي لا يشعر به غالباً فاعله، كما روى حماد بن سلمة عن عاصم بن أبي النجود عن عروة قال: دخل حديفة على مريض فرأى في عضده سيراً فقطعه - أو انتزعه - ثم قال «وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِإِلَهٍ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ» وفي الحديث «من حلف بغير الله فقد

(١) انظر تفسير الطبرى ٣١٢/٧.

(٢) أخرجه مسلم في الحجج حديث ٢٢.

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٢، باب ٣، ومسلم في الإيمان حديث ١٤١، ١٤٢.

أشرك»^(١) رواه الترمذى وحسنه من رواية ابن عمر.

وفي الحديث الذى رواه أحمد وأبو داود وغيره عن ابن سعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرقى والتمائم والتولة شرك»^(٢)، وفي لفظ لهما «الطيرة شرك وما منا إلا ولكن الله يذبه بالتوكل»^(٣) رواه الإمام أحمد بأبسط من هذا فقال: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن عمرو بن مرة، عن يحيى الجزار عن ابن أخي زينب، عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت: كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب فتحنح ويزق كراهة أن يهجم على أمر يكرهه، قالت: وإن جاء ذات يوم فتحنح وعندي عجوز ترقيني من الحمرة فأدخلتها تحت السرير، قالت: فدخل فجلس إلى جانبي، فرأى في عنقي خيطاً فقال: ما هذا الخيط؟ قالت: قلت: خيط رقى لي فيه، فأخذه فقطعه ثم قال: إنَّ الْعَبْدَ اللَّهُ لِأَغْنِيَاءِ عَنِ الشَّرِكِ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرقى والتمائم والتولة شرك» قالت: قلت له: لم تقول هذا وقد كانت عيني تقذف، فكنت أختلف إلى فلان اليهودي يرقى بها، فكان إذا رقاها سكت، فقال إنما ذاك من الشيطان كان ينخسها بيده، فإذا رقاها كف عنها، إنما كان يكفيك أن تقولي كما قال النبي ﷺ: «أذهب الباس، رب الناس، اشف وأنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقماً»^(٤).

وفي حديث آخر رواه الإمام أحمد^(٥) عن وكيع، عن ابن أبي ليلى، عن عيسى بن عبد الرحمن قال: دخلت على عبد الله بن عكيم وهو مريض نعده، فقيل له، لو تعلقت شيئاً، فقال: أتعلق شيئاً وقد قال رسول الله ﷺ: «من تعلق شيئاً وكل إليه» ورواه النسائي عن أبي هريرة.

وفي مسنـد الإمام أحمد^(٦) من حديث عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «من علق تميمة فقد أشرك»، وفي رواية «من تعلق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة فلا ودعة له»^(٧)، وعن العلاء عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه» رواه

(١) آخر جه الترمذى في التنور باب ٩.

(٢) آخر جه أبو داود في الطب باب ١٧، وابن ماجه في الطب باب ٣٩، وأحمد في المسنـد ١/٣٨١.

(٣) آخر جه أبو داود في الطب باب ٢٤، والترمذى في السير باب ٤٦، وابن ماجه في الطب باب ٤٣، وأحمد في المسنـد ١/٤٣٨، ٣٨٩، ٤٤٠.

(٤) المسنـد ١/٣٨١.

(٥) المسنـد ٤/٣١٠.

(٦) المسنـد ٤/١٥٦.

(٧) المسنـد ٤/١٥٤.

(١) مسلم.

وعن أبي سعيد بن أبي فضالة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه ينادي مناد: من كان أشرك في عمل عمله لله، فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك» رواه الإمام أحمد^(٢).

وقال أحمد^(٣): حدثنا يونس حدثنا ليث عن يزيد يعني ابن الهدى، عن عمرو، عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء»، يقول الله تعالى يوم القيمة إذا جازى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كتم تراؤون في الدنيا فانتظروا هل تجدون عندهم جزاء؟ وقد رواه إسماعيل بن جعفر عن عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب، عن عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد به.

وقال الإمام أحمد^(٤): حدثنا حسن، أئبنا ابن لهيعة، أئبنا ابن هبيرة عن أبي عبد الرحمن الجبلى عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «من رددته الطيرة عن حاجته فقد أشرك» قالوا: يا رسول الله، ما كفارة ذلك؟ قال: «أن يقول أحدهم: اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك».

وقال الإمام أحمد^(٥): حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان العرمي عن أبي علي - رجل من بني كاهل - قال: خطبنا أبو موسى الأشعري فقال: يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك، فإنه أخفى من دبيب النمل. فقام عبد الله بن حزن وقيس بن المضارب فقالا: والله لتخرون مما قلت، أو لأنتين عمر مأذوناً لنا أو غير مأذون. قال: بل أخرج مما قلت، خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: «يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك، فإنه أخفى من دبيب النمل» فقال له من شاء الله أن يقول: فكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله؟ قال: «قولوا: اللهم إننا نتوعد بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغرك لما لا نعلمه».

وقد روی من وجه آخر، وفيه أن السائل في ذلك هو الصديق، كما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي من حديث عبد العزيز بن مسلم، عن ليث بن أبي سليم، عن أبي محمد، عن معقل بن يسار، قال: شهدت النبي ﷺ أو قال: حدثني أبو بكر الصديق عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الشرك أخفى فيكم من دبيب النمل»، فقال أبو بكر: وهل الشرك إلا من دعا مع الله إلهاً

(١) كتاب الزهد حديث .٤٦

(٢) المسند /٤ .٢١٥

(٣) المسند /٥ ،٤٢٨ .٤٢٩

(٤) المسند /٢ .٢٢٠

(٥) المسند /٤ .٤٠٣

آخر؟ فقال رسول الله ﷺ: «الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل» ثم قال: «ألا أدلك على ما يذهب عنك صغير ذلك وكبيره؟ قل: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغرك مما لا أعلم».

وقد رواه الحافظ أبو القاسم البغوي عن شيبان بن فروخ، عن يحيى بن كثير، عن الثوري، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن أبي بكر الصديق، قال: قال رسول الله ﷺ: «الشرك أخفى في أمتي من دبيب النمل على الصفا» قال: فقال أبو بكر: يا رسول الله، فكيف النجاة والمخرج من ذلك؟ فقال: «ألا أخبرك بشيء إذا قلت له برئت من قليله وكثيره وصغيره وكبيره؟» قال: بلـ يا رسول الله. قال: «قل: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغرك لما لا أعلم». قال الدارقطني: يحيى بن كثير هذا، يقال له أبو النصر، متـ روك الحديث.

وقد روـى الإمام أحمد وأبو داود والترمذـي وصحـحـه والنـسـائـي من حـدـيـثـ يـعـلـىـ بـنـ عـطـاءـ، سـمعـتـ عـمـرـوـ بـنـ عـاصـمـ، سـمعـتـ أـبـاـ هـرـيـرـةـ قـالـ: قـالـ أـبـوـ بـكـرـ الصـدـيقـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ: يـاـ رـسـولـ اللـهـ، عـلـمـنـيـ شـيـئـاـ أـقـولـهـ إـذـاـ أـصـبـحـتـ إـذـاـ أـمـسـيـتـ، وـإـذـاـ أـخـذـتـ مـضـجـعـيـ، قـالـ: «قـلـ: اللـهـ فـاطـرـ السـمـوـاتـ وـالـأـرـضـ، عـالـمـ الـغـيـبـ وـالـشـاهـادـةـ، رـبـ كـلـ شـيـءـ وـمـلـيـكـهـ، أـشـهـدـ أـنـ لـاـ إـلـهـ إـلـاـ أـنـتـ، أـعـوذـ بـكـ مـنـ شـرـ نـفـسـيـ وـمـنـ شـرـ الشـيـطـانـ وـشـرـكـهـ»^(١)، رـوـاـهـ أـبـوـ دـاـدـ وـالـنـسـائـيـ وـصـحـحـهـ، وـزـادـ الإـمـامـ أـحـمـدـ^(٢) فـيـ روـاـيـةـ لـهـ: مـنـ حـدـيـثـ لـيـثـ بـنـ أـبـيـ سـلـيـمـ عـنـ مـجـاهـدـ، عـنـ أـبـيـ بـكـرـ الصـدـيقـ، قـالـ: أـمـرـنـيـ رـسـولـ اللـهـ ﷺـ أـنـ أـقـولـ فـذـكـرـ هـذـاـ الدـعـاءـ وـزـادـ فـيـ آخـرـهـ «وـأـنـ أـقـرـفـ عـلـىـ نـفـسـيـ سـوـءـاـ أـوـ أـجـرـهـ إـلـىـ مـسـلـمـ».

وقـولـهـ: «أـفـأـمـنـواـ أـنـ تـأـتـيـهـمـ غـاشـيـةـ مـنـ عـذـابـ اللـهـ» [يوسف: ٧] الآية، أي أـفـأـمـنـ هـؤـلـاءـ المـشـرـكـونـ بـالـلـهـ أـنـ يـأـتـيـهـمـ أـمـرـ يـغـشاـهـمـ مـنـ حـيـثـ لـاـ يـشـعـرـونـ، كـمـاـ قـالـ تـعـالـىـ: «أـفـأـمـنـ الـذـينـ مـكـرـوـاـ السـيـئـاتـ أـنـ يـخـسـفـ اللـهـ بـهـمـ الـأـرـضـ أـوـ يـأـتـيـهـمـ الـعـذـابـ مـنـ حـيـثـ لـاـ يـشـعـرـونـ أـوـ يـأـخـذـهـمـ فـيـ تـقـلـبـهـمـ فـمـاـ هـمـ بـمـعـجـزـينـ أـوـ يـأـخـذـهـمـ عـلـىـ تـخـوـفـ فـإـنـ رـبـكـمـ لـرـؤـوفـ رـحـيمـ» [الـنـحـلـ: ٤٥ - ٤٦] . وـقـولـهـ: «أـفـأـمـنـ أـهـلـ الـقـرـىـ أـنـ يـأـتـيـهـمـ بـأـسـنـاـ بـيـاتـاـ وـهـمـ نـائـمـونـ أـوـ أـمـنـ أـهـلـ الـقـرـىـ أـنـ يـأـتـيـهـمـ بـأـسـنـاـ ضـحـىـ وـهـمـ يـلـعـبـونـ أـفـأـمـنـاـ مـكـرـ اللـهـ فـلـاـ يـأـمـنـ مـكـرـ اللـهـ إـلـاـ الـقـومـ الـخـاسـرـونـ» [الأـعـرـافـ: ٩٧] .

[٩٨ - ٩٩]

قـلـ هـذـيـوـ سـبـيـلـ آذـعـواـ إـلـىـ اللـهـ عـلـىـ بـصـيرـةـ أـنـاـ وـمـنـ أـتـَّبـعـنـ آذـعـواـ إـلـىـ اللـهـ وـمـاـ أـنـاـ مـنـ أـمـشـرـكـيـنـ
يـقـولـ تـعـالـىـ لـرـسـولـهـ ﷺـ إـلـىـ الـثـقـلـيـنـ: الـإـنـسـ وـالـجـنـ، أـمـرـأـلـهـ أـنـ يـخـبـرـ النـاسـ أـنـ هـذـهـ سـبـيـلـهـ

(١) آخرـهـ أـبـوـ دـاـدـ فـيـ الـأـدـبـ بـابـ ٩٨ـ، وـأـحـمـدـ فـيـ المـسـنـدـ ١ـ /ـ ٩ـ .

(٢) المـسـنـدـ ١ـ /ـ ١٤ـ .

أي طريقة وسلكه وسته، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان هو وكل من اتبعه يدعوا إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة ويقين وبرهان عقلي وشرعي. قوله: «وسبحان الله» أي وأنزه الله وأجله وأعظمه وأقدسه عن أن يكون له شريك أو نظير أو عديل أو نديد أو ولد أو والد أو صاحبة أو وزير أو مشير، تبارك وتقديس وتتزه تعالى عن ذلك كله علواً كبيراً، «تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً» [الإسراء: ٤٤].

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرْآنِ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آتَقْوَا أَفَلَا نَعْقِلُونَ [٢٧]

يخبر تعالى أنه إنما أرسل رسle من الرجال لا من النساء، وهذا قول جمهور العلماء، كما دل عليه سياق هذه الآية الكريمة أن الله تعالى لم يوح إلى امرأة من بنات بني آدم وهي تشريع . وزعم بعضهم أن سارة امرأة الخليل وأم موسى ومريم بنت عمران أم عيسى نبيات ، واحتجوا بأن الملائكة بشرت سارة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ، وبقوله: «وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه» [القصص: ٧] الآية، وبأن الملك جاء إلى مريم فبشرها بعيسى عليه السلام ، وبقوله تعالى: «إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله أصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين يا مريم اقتني لربك واسجدي واركعي مع الراکعين» [آل عمران: ٤٢ - ٤٣].

وهذا القدر حاصل لهن ، ولكن لا يلزم من هذا أن يكن نبيات بذلك ، فإن أراد القائلين بنبوتهن هذا القدر من التشريف ، فهذا لا شك فيه ، ويبقى الكلام معه في أن هذا هل يكفي في الانظام في سلك النبوة بمجرده أم لا ؟ الذي عليه أهل السنة والجماعة ، وهو الذي نقله الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري عنهم أنه ليس في النساء نبية ، وإنما فيهن صديقات ، كما قال تعالى مخبراً عن أشرفهن مريم بنت عمران حيث قال تعالى: «ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام» [المائدah: ٧٥] فوصفها في أشرف مقاماتها بالصديقية ، فلو كانت نبية لذكر ذلك في مقام التشريف والإعظام ، فهي صديقة بنص القرآن .

وقال الصحاح عن ابن عباس في قوله: «وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً» الآية، أي ليسوا من أهل السماء كما قلتم ، وهذا القول من ابن عباس يعتمد بقوله تعالى: «وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق» [الفرقان: ٢٠] الآية ، وبقوله تعالى: «وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين» [الأنباء: ٩ - ٨] . وقوله تعالى: «فل ما كنت بداعاً من الرسل»

[الأحقاف : ٩] الآية . قوله : «من أهل القرى» المراد بالقرى المدن لا أنهم من أهل البوادي الذين هم من أجفى الناس طباعاً وأخلاقاً، وهذا هو المعهود المعروف أن أهل المدن أرق طباعاً وألطف من أهل سوادهم، وأهل الريف والسود أقرب حالاً من الذين يسكنون في البوادي ، ولهذا قال تعالى : «الأعراب أشد كفراً ونفاقاً» الآية .

وقال قتادة في قوله «من أهل القرى» لأنهم أعلم وأحلم من أهل العمور . وفي الحديث الآخر أن رجلاً من الأعراب أهدى لرسول الله ﷺ ناقة فلم يزل يعطيه ويزيده حتى رضي ، فقال رسول الله ﷺ : «لقد هممت أن لا أتهب هبة إلا من قرشي أو أنصاري أو ثقفي أو دوسبي»^(١) .

وقال الإمام أحمد^(٢) : حدثنا حجاج ، حدثنا شعبة عن الأعمش عن يحيى بن وثاب ، عن شيخ من أصحاب رسول الله ﷺ قال الأعمش : هو ابن عمر ، عن النبي ﷺ أنه قال : «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم .

وقوله : «أفلم يسيراوا في الأرض» يعني هؤلاء المكذبين لك يا محمد في الأرض «فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم» أي من الأمم المكذبة للرسل ، كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ، قوله : «أفلم يسيراوا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها» [الحج : ٤٦ الآية] ، فإذا استمعوا خبر ذلك رأوا أن الله قد أهلك الكافرين ونجى المؤمنين ، وهذه كانت سنته تعالى في خلقه ، ولهذا قال تعالى : «ولدار الآخرة خير للذين اتقوا» أي وكما نجينا المؤمنين في الدنيا كذلك كتبنا لهم النجاة في الدار الآخرة وهي خير لهم من الدنيا بكثير ، قوله : «إنا لننصر رسالتنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار» [غافر : ٤٠ - ٤١] وأضاف الدار إلى الآخرة ، فقال : «ولدار الآخرة» كما يقال : صلاة الأولى ومسجد الجامع ، وعام أول ، وبارحة الأولى ، ويوم الخميس . وقال الشاعر : [الوافر]

أتمدح فقعاً وتندم عبساً
ألا الله أملك من هجين^(٣)
ولو أقوت عليك ديار عبس
عرفت الذل عرفان اليقين

حَتَّى إِذَا أَسْتَيَّسَ الرُّسُلُ وَطَنُواْ أَنَّهُمْ قَدْ كَيْدُواْ جَاءَهُمْ نَصْرَنَا فَنَجَّيَ مَنْ شَاءَ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ
الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ

يدرك تعالى أن نصره ينزل على رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين عند ضيق الحال وانتظار الفرج من الله في أحوج الأوقات إليه ، قوله تعالى : «وزلزلوا حتى يقول الرسول

(١) آخرجه أحمد في المسند ١ / ٢٩٥ ، ٢ / ٢٤٧.

(٢) المسند ٢ / ٤٣ ، ٥ / ٣٦٥.

(٣) البيتان بلا نسبة في تفسير الطبرى ٧ / ٣١٦.

والذين آمنوا معه متى نصر الله ﴿البقرة: ٢١٤﴾ الآية، وفي قوله: ﴿كذبوا﴾ قراءتان إحداهما بالتشديد قد كذبوا، وكذلك كانت عائشة رضي الله عنها تقرؤها.

قال البخاري^(١): حدثنا عبد العزيز بن عبد الله حدثنا إبراهيم بن سعد عن صالح عن ابن شهاب قال: أخبرني عروة بن الزبير عن عائشة أنها قالت له وهو يسألها عن قول الله تعالى: ﴿حتى إذا استيأس الرسل﴾ قال: قلت: أكذبوا أم كذبوا؟ قالت عائشة كذبوا. قلت فقد استيقنوا أن قومهم قد كذبوا فما هو بالظن؟ قالت: أجل لعمري لقد استيقنوا بذلك، فقلت لها: ﴿وطنوا أنهم قد كذبوا﴾ قالت معاذ الله لم تكن الرسل تظن ذلك بربها قلت: فما هذه الآية؟ قالت: هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقواهم، فطال عليهم البلاء، واستأخر عنهم النصر ﴿حتى إذا استيأس الرسل﴾ من كذبهم من قومهم، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبواهم، جاء نصر الله عند ذلك، حدثنا أبو اليمان، أبنا شعبة عن الزهري قال: أخبرنا عروة فقلت لها: لعلها قد كذبوا مخففة؟ قالت: معاذ الله. انتهى ما ذكره.

وقال ابن جرير: أخبرني ابن أبي مليكة أن ابن عباس قرأها ﴿وطنوا أنهم قد كذبوا﴾ خفيفة. قال عبد الله هو ابن أبي مليكة ثم قال لي ابن عباس: كانوا بشراً، ثم تلا ﴿حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب﴾ [البقرة: ٢١٤] قال ابن جرير: وقال لي ابن أبي مليكة، وأخبرني عروة عن عائشة أنها خالفت ذلك وأبته، وقالت: ما وعد الله محمداً ﷺ من شيء إلا قد علم أنه سيكون حتى مات، ولكنه لم يزل البلاء بالرسول حتى ظنوا أن من معهم من المؤمنين قد كذبواهم. قال ابن أبي مليكة في حديث عروة، كانت عائشة تقرؤها ﴿وطنوا أنهم قد كذبوا﴾ مثقلة من التكذيب^(٢).

وقال ابن أبي حاتم: أبنا يونس بن عبد الأعلى قراءة، أبنا ابن وهب، أخبرني سليمان بن بلال عن يحيى بن سعيد قال: جاء إنسان إلى القاسم بن محمد فقال: إن محمد بن كعب القرظيقرأ هذه الآية ﴿حتى إذا استيأس الرسل وطنوا أنهم قد كذبوا﴾ فقال القاسم: أخبره عني أني سمعت عائشة زوج النبي ﷺ تقول: ﴿حتى إذا استيأس الرسل وطنوا أنهم قد كذبوا﴾ تقول: كذبهم أتباعهم إسناد صحيح أيضاً.

والقراءة الثانية بالتخفيف، واختلفوا في تفسيرها، فقال ابن عباس ما تقدم. وعن ابن مسعود فيما رواه سفيان الثوري عن الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن عبد الله أنهقرأ ﴿حتى إذا استيأس الرسل وطنوا أنهم قد كذبوا﴾ مخففة، قال عبد الله: هو الذي تكره^(٣).

(١) كتاب التفسير، تفسير سورة ١٢، باب ٦.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٧/٣٢١.

(٣) انظر تفسير الطبرى ٧/٣١٩.

وهذا عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهمَا، مخالف لما رواه آخرون عنهمَا. أما ابن عباس، فروى الأعمش عن مسلم عن ابن عباس في قوله: «حتى إذا استئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا» قال: لما أیست الرسل أن يستجيب لهم قومهم وظن قومهم أن الرسل قد كذبواهم، جاءهم النصر على ذلك «فنجي من نشاء» وكذا روي عن سعيد بن جبیر وعمران بن الحارث السلمي وعبد الرحمن بن معاویة وعلي بن أبي طلحة والعلوفی عن ابن عباس بمثله.

وقال ابن جریر^(١): حدثني المثنى، حدثنا عارم أبو النعمان حدثنا حماد بن زید، حدثنا شعیب، حدثنا إبراهيم بن أبي حرة الجزري قال: سأله فتی من فریش سعید بن جبیر فقال له: يا أبا عبد الله کیف هذا الحرف، فإنی إذا أتیت عليه تمنیت أن لا أقرأ هذه السورة «حتى إذا استئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا»؟ قال: نعم حتى إذا استئس الرسل من قومهم أن يصدقوهم، وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوا، فقال الضحاک بن مزاہم: ما رأیت کالیلو قط رجلاً یدعی إلى علم فیتلکاً، ولو رحلت إلى الیمن في هذه کان قلیلاً.

ثم روی ابن جریر^(٢) أيضاً من وجه آخر أن مسلم بن یسار سأله سعید بن جبیر عن ذلك، فأجابه بهذا الجواب، فقام إلى سعید فاعتنقه وقال: فرج الله عنك كما فرجت عنی ، وهكذا روی من غير وجه عن سعید بن جبیر أنه فسرها كذلك، وكذا فسرها مجاهد بن جبر وغير واحد من السلف حتى إن مجاهداً قرأها «وظنوا أنهم قد كذبوا» بفتح الذال. رواه ابن جریر إلا أن بعض من فسرها كذلك يعيد الضمير في قوله «وظنوا أنهم قد كذبوا» إلى أتباع الرسل من المؤمنین، ومنهم من یعده إلى الكافرین منهم، أي وظن الكفار أن الرسل قد كذبوا مخففة فيما وعدوا به من النصر . وأما ابن مسعود.

فقال ابن جریر^(٣): حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا محمد بن فضیل عن جحش بن زياد الضبي عن تمیم بن حذلّم قال: سمعت عبد الله بن مسعود يقول في هذه الآية «حتى إذا استئس الرسل» من إیمان قومهم أن يؤمّنا بهم وظن قومهم حين أبطأ الأمر أنهم قد كذبوا بالتحفیف - فهاتان الروایتان عن كل من ابن مسعود وابن عباس، وقد أنکرت ذلك عائشة على من فسرها بذلك، وانتصر لها ابن جریر، ووجه المشهور عن الجمهور وزیف القول الآخر بالكللیة، ورده وأباءه ولم یقبله ولا ارتفصاء ، والله أعلم .

لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَئِكَ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْرَنْ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَقْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهَدَى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

(١) تفسیر الطبری ٣١٩، ٣١٨/٧

(٢) تفسیر الطبری ٣١٩/٧

(٣) تفسیر الطبری ٣٢٠، ٣١٩/٧

يقول تعالى: لقد كان في خبر المرسلين مع قومهم، وكيف نجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين **﴿عبرة لأولي الألباب﴾** وهي العقول، **﴿ما كان حديثاً يفترى﴾** أي وما كان لهذا القرآن أن يفترى من دون الله، أي يكذب ويختلق **﴿ولكن تعمد يقظ الذي بين يديه﴾** أي: من الكتب المنزلة من السماء وهو يصدق ما فيها من الصحيح، وينفي ما وقع فيها من تحرير وتبديل وتغيير، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير.

﴿وتفصيل كل شيء﴾ من تحليل وتحريم ومحبوب ومكروه، وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات، والنهي عن المحرمات وما شاكلها من المكرورات، والإخبار عن الأمور الجليلة، وعن الغيوب المستقبلة المجملة والتفصيلية، والإخبار عن الرب تبارك وتعالى وبالأسماء والصفات، وتنزهه عن مماثلة المخلوقات، فلهذا كان **﴿هدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾** تهتدي به قلوبهم من الغي إلى الرشاد، ومن الضلال إلى السداد، ويتغدون به الرحمة من رب العباد، في هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد، فسائل الله العظيم أن يجعلنا منهم في الدنيا الآخرة، يوم يفوز بالرياح المبيضة وجوههم الناضرة، ويرجع المسودة وجوههم بالصفقة الخاسرة. آخر تفسير سورة يوسف عليه السلام والله الحمد والمنة وبه المستعان.

سورة الرعد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَرْءُ تِلْكَ أَيَّتُ الْكِتَابُ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور، فقد تقدم في أول سورة البقرة، وقدمنا أن كل سورة ابتدئت بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن وبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا ريب، ولهذا قال: « تلك آيات الكتاب » أي هذه آيات الكتاب، وهو القرآن، وقيل: التوراة والإنجيل، قاله مجاهد وقتادة^(١)، وفيه نظر بل هو بعيد.

ثم عطف على ذلك عطف صفات فقال: « والذِّي أَنْزَلَ إِلَيْكَ » أي يا محمد « مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ » خبر تقدم مبتدأه، وهو قوله: « وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ » هذا هو الصحيح المطابق لتفسير مجاهد وقتادة، واختار ابن جرير أن تكون الواو زائدة أو عاطفة صفة على صفة كما قدمنا، واستشهاد بقول الشاعر: [المتقارب]

إِلَى الْمُلْكِ الْقَرْمِ وَابْنِ الْهَمَامِ وَلِيَثُ الْكَتِيْبَةِ فِي الْمُزَدَّحِمِ
 وَقُولُهُ: « وَلَكُنَّ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ » كقوله: « وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتُ بِمُؤْمِنِينَ »
 [يوسف: ١٠٣] أي مع هذا البيان والجلاء والوضوح لا يؤمن أكثرهم لما فيهم من الشفاق
 والعناid والتفاق.

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلُّهُ يَجْرِي لِأَجْلِي.
 مَسَّى يَدِيَرَ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ يَلْقَاءُونِي وَرِبِّكُمْ تُوقَنُونَ

يخبر الله تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه أنه الذي بإذنه وأمره رفع السموات بغير عمد، بل بإذنه وأمره وتسخيره رفعها عن الأرض بعدًا لا تنال ولا تدرك مداها، فالسماء الدنيا محيطة بجميع الأرض وما حولها من الماء والهواء من جميع نواحيها وجهاتها وأرجائها، مرفقة عليها من كل جانب على السواء، وبعد ما بينها وبين الأرض من كل ناحية مسيرة خمسماة عام، وسمكتها في نفسها مسيرة خمسماة عام، ثم السماء الثانية محيطة بالسماء

(١) انظر تفسير الطبرى ٣٢٧/٧.

(٢) البيت بلا نسبة في الإنصاف ٤٦٩/٢، وخزانة الأدب ٤٥١/١، ٩١/٦، ١٠٧/٥، وشرح قطر الندى ص ٢٩٥، وتفسير الطبرى ٣٢٧/٧.

الدنيا وما حوت، وبينهما من بعد المسير خمسمائة عام، وسمكها خمسمائة عام، وهكذا السماء الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة، كما قال تعالى: ﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن﴾ [الطلاق: ١٢] الآية.

وفي الحديث «ما السموات السبع وما فيهن وما بينهن في الكرسي إلا كحلقة ملقة بأرض فلاة، والكرسي في العرش المجيد كذلك الحلقة في تلك الفلاة». وفي رواية «والعرش لا يقدر قدره إلا الله عز وجل» وجاء عن بعض السلف أن بعد ما بين العرش إلى الأرض مسيرة خمسين ألف سنة، وبعد ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة، وهو من ياقوتة حمراء.

وقوله: ﴿بغير عمد ترونها﴾ روي عن ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد أنهم قالوا: لها عمد ولكن لا ترى^(١). وقال إيسا بن معاوية: السماء على الأرض مثل القبة^(٢)، يعني بلا عمد، وكذا روي عن قتادة، وهذا هو اللائق بالسياق، والظاهر من قوله تعالى: ﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه﴾ [الحج: ٦٥] فعلى هذا يكون قوله: ﴿ترونها﴾ تأكيداً لنفي ذلك، أي هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها، وهذا هو الأكمل في القدرة، وفي شعر أمية بن أبي الصلت الذي آمن شعره، وكفر قلبه كما ورد في الحديث، ويروى لزيد بن عمرو بن نفيل رضي الله عنه: [الطوبل]

بعثت إلى موسى رسولاً منادياً^(٣)
إلى الله فرعون الذي كان طاغياً
بلا وتد حتى استقلت كما هي
بلا عمد أو فوق ذلك بانياً
منيراً إذا ما جنك الليل هادياً
فيصبح ما مست من الأرض ضاحياً
فيصبح منه العشب يهتز رايها
ففي ذاك آيات لمن كان واعياً

وقوله تعالى: ﴿ثم استوى على العرش﴾ [الأعراف: ٥٤] تقدم تفسيره في سورة الأعراف وأنه يمر كما جاء من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل، ولا تمثيل، تعالى الله علواً كبيراً. وقوله: ﴿وَسَخَرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَجْرِي لِأَجْلِ مُسْمَى﴾ قيل: المراد أنهما يجريان إلى انقطاعهما بقيام الساعة، كقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقْرٍ لَهَا﴾ [يس: ٣٨] وقيل:

وأنت الذي من فضل من ورحمة
فقلت له: فاذهب وهارون فادعوا
وقولاً له: هل أنت سويت هذه
وقولاً له: أنت رفعت هذه
وقولاً له: هل أنت سويت وسطها
وقولاً له: من يرسل الشمس غدوة،
وقولاً له: من أنبت الحب في الثرى
ويخرج منه حبه في رؤوسه

(١) انظر تفسير الطبرى ٣٢٨/٧.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٣٢٩/٧.

(٣) الآيات لزيد بن عمرو بن نفيل في سيرة ابن هشام ٢٢٨/١.

المراد إلى مستقرهما وهو تحت العرش مما يلي بطن الأرض من الجانب الآخر، فإنهما وسائل الكواكب إذا وصلوا هنالك يكونون أبعد ما يكون عن العرش، لأنه على الصحيح الذي تقوم عليه الأدلة قبة مما يلي العالم من هذا الوجه، وليس بمحيط كسائر الأفلاك، لأن له قوائم وحملة يحملونه، ولا يتصور هذا في الفلك المستدير، وهذا واضح لمن تدبر ما وردت به الآيات والأحاديث الصحيحة، والله الحمد والمنة.

وذكر الشمس والقمر لأنهما أظهر الكواكب السيارة السبعة التي هي أشرف وأعظم من الثواب، فإذا كان قد سخر هذه ، فلأن يدخل في التسخير سائر الكواكب بطريق الأولى والأخرى، كما نبه بقوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧] مع أنه صرح بذلك بقوله: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنَّجُومُ مَسْخَرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأُمْرُ تَبَارِكُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وقوله: ﴿يَفْصِلُ الْآيَاتِ لَعْلَكُمْ بِلِقَاءَ رَبِّكُمْ تَوقَنُونَ﴾ أي يوضح الآيات والدلائل الدالة على أنه لا إله إلا هو، وأنه يعيد الخلق إذا شاء كما بدأه.

وَهُوَ الَّذِي مَدَ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوْسِيًّا وَأَنْهَرًا وَمِنْ كُلِّ النَّعَمَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ أَنْثَيْنِ يُعْشِي الْيَنِيلَ النَّهَارَ
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذَيْنِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١﴾ وَفِي الْأَرْضِ قَطْعٌ مُتَجَوِّرٌ وَجَاهَتْ مِنْ أَعْنَبٍ وَزَرَعٍ وَنَحْيَلٍ
صَنْوَانٌ وَغَيْرُ صَنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَجَمِيرٍ وَنَفَضَلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَرِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذَيْنِ لِقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ ﴿٢﴾

لما ذكر تعالى العالم العلوى، شرع في ذكر قدرته وحكمته وإحكامه للعالم السفلى، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَ الْأَرْضَ﴾ أي جعلها ممتدة في الطول والعرض، وأرساها بجبال راسيات شامخات، وأجرى فيها الأنهر والجداول والعيون، لي gritty ما جعل فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح ﴿مِنْ كُلِّ زوجين اثنين﴾ أي من كل شكل صنفان ﴿يُعْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ أي جعل كلاً منها يطلب الآخر طلباً حثيناً، فإذا ذهب هذا غشيء هذا، وإذا انقضى هذا جاء الآخر، فيتصرف أيضاً في الزمان كما يتصرف في المكان والسكنان، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذَيْنِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي في آلاء الله وحكمه ودلائله.

وقوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قَطْعٌ مُتَجَوِّرٌ﴾ أي أراضٍ يجاور بعضها بعضاً، مع أن هذه طيبة تنبت ما ينفع الناس وهذه سبحة مالحة لا تنبت شيئاً، هكذا روي عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وغير واحد. ويدخل في هذه الآية اختلاف ألوان بقاع الأرض، فهذه تربة حمراء، وهذه بيضاء، وهذه صفراء، وهذه سوداء، وهذه محجرة، وهذه سهلة، وهذه مرملة، وهذه سميكية، وهذه رقيقة، والكل متجاورات، فهذه بصفتها، وهذه بصفتها الأخرى، فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار لا إله إلا هو ولا رب سواه. وقوله: ﴿وَجَنَّاتٍ مِنْ

أعناب وزرع ونخيل》 يحتمل أن تكون عاطفة على جنات، فيكون «وزرع ونخيل» مرفوعين. ويحتمل أن يكون معطوفاً على أعناب، فيكون مجروراً، ولهذا قرأ بكل منها طائفة من الأئمة.

وقوله: «صنوان وغير صنوان» الصنوان: هو الأصول المجتمعة في منبت واحد، كالرمان والتين، وبعض النخيل ونحو ذلك، وغير الصنوان: ما كان على أصل واحد، كسائر الأشجار، ومنه سمي عم الرجل صنو أبيه، كما جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لعمر: «أما شعرت أن عم الرجل صنو أبيه»^(١). وقال سفيان الثوري وشعبة عن أبي إسحاق عن البراء رضي الله عنه: الصنوان هي النخلات في أصل واحد، وغير الصنوان المتفرقات، وقاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد.

وقوله: «يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل» قال الأعمش عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ «ونفضل بعضها على بعض في الأكل»^(٢) قال «الدقل»^(٣)، والفارسي، والحلو، والحامض»^(٤)، رواه الترمذى وقال: حسن غريب، أي هذا الاختلاف في أنواع التمرات والزروع في أشكالها وألوانها، وطعمها وروائحها، وأوراقها وأزهارها، فهذا في غاية الحلاوة، وهذا في غاية الحموضة، وهذا في غاية المرارة، وهذا عفاض^(٥)، وهذا عذب، وهذا جمع هذا وهذا، ثم يستحبيل إلى طعم آخر ياذن الله تعالى، وهذا أصفر، وهذا أحمر، وهذا أبيض، وهذا أسود، وهذا أزرق، وكذلك الزهورات مع أنها كلها تستمد من طبيعة واحدة وهو الماء، مع الاختلاف الكبير الذي لا ينحصر ولا ينضبط ففي ذلك آيات لمن كان واعياً، وهذا من أعظم الدلالات على الفاعل المختار الذي بقدره فاوت بين الأشياء، وخلقها على ما يريد، ولهذا قال تعالى: «إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون».

﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَّبْ فَوَهُمْ أَذَا كَانُوا يَأْتِيَنَا لِفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: «إن تعجب» من تكذيب هؤلاء المشركين بالمعاد، مع ما يشاهدونه من آيات الله سبحانه ودلائله في خلقه على أنه قادر على ما يشاء، ومع ما يعترفون به من أنه ابتدأ خلق الأشياء فكونها بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً، ثم هم بعد هذا

(١) أخرجه مسلم في الزكاة حديث ١١، وأبو داود في الزكاة باب ٢٢، والترمذى في المناقب باب ٢٨، وأحمد في المستند ١/٩٤، ٣٢٢/٢، ٤/١٦٥.

(٢) الدقل: أرداً أنواع التمر.

(٣) أخرجه الترمذى في تفسير سورة ١٣، باب ٢.

(٤) العفاض: المر، والعفوضة: المرارة.

يكذبون خبره في أنه سيعيد العالم خلقاً جديداً، وقد اعترفوا وشاهدوا ما هو أتعجب مما كذبوا به، فالعجب من قولهم «أنذا كنا تراباً أثنا لفي خلق جديد»، وقد علم كل عالم واعقل أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، وأن من بدأ الخلق فالإعادة عليه أسهل، كما قال تعالى: «أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن قادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قادر» [الأحقاف: ٣٣].

ثم نعت المكذبين بهذا فقال: «أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم» أي يسحبون بها في النار «وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» أي ماكثون فيها أبداً لا يحولون عنها ولا يزولون.

وَسَتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمُثْلَثَةُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ
عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ

يقول تعالى: «ويستعجلونك» أي هؤلاء المكذبون «بالسيئة قبل الحسنة» أي بالعقوبة كما أخبر عنهم في قوله: «وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين» [الحجر: ٦ - ٨]، وقال تعالى: «ويستعجلونك بالعذاب» [العنكبوت: ٥٣] الآيتين، وقال تعالى: «سأل سائل بعذاب واقع» [المعارج: ١]، وقال: «يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق» [الشورى: ١٨] «وقالوا ربنا عجل لنا قطنا» [ص: ١٦] الآية، أي عقابنا وحسابنا، كما قال مخبراً عنهم: «وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك» [الأنفال: ٣٢] الآية، فكانوا من شدة تكذيبهم وعندتهم وكفرهم يطلبون أن يأتينهم بعذاب الله قال الله تعالى: «وقد خلت من قبلهم المثلثات» أي قد أوقتنا نعمنا بالأمم الخالية وجعلناهم عبرة وعظة لمن ا تعظ بهم.

ثم أخبر تعالى أنه لولا حلمه وعفوه لعاجلهم بالعقوبة كما قال: «ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة» [فاطر: ٤٥]، وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: « وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم» أي إنه تعالى ذو عفو وصفح وستر للناس مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار، ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب ليعدل الرجاء والخوف، كما قال تعالى: «فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين» [الأنعام: ١٤٧] وقال: «إن ربك لسرير العقاب وإنه لغفور رحيم» [الأعراف: ١٦٧]، وقال: «نبئ عبادي أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم» [الحجر: ٤٩ - ٥٠] إلى أمثال ذلك من الآيات التي تجمع الرجاء والخوف.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد عن علي بن زيد

عن سعيد بن المسيب قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَإِنْ رَبُّكَ لِذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ الآية، قال رسول الله ﷺ: «لولا عفو الله وتجاوزه ما هنا أحداً العيش، ولو لا وعيده وعقابه لا تكل كل أحد» وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة الحسن بن عثمان أبي حسان الريادي أنه رأى رب العزة في النوم، ورسول الله ﷺ واقف بين يديه يشفع في رجل من أمته، فقال له: ألم يكفك أني أنزلت عليك في سورة الرعد ﴿وَإِنْ رَبُّكَ لِذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ قال: ثم انتبهت.

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّنْ رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ

يقول تعالى إخباراً عن المشركين أنهم يقولون كفراً وعناداً: لولا يأتينا بآية من ربه كما أرسل الأولون، كما تعتنوا عليه أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن يزيح عنهم الجبال، ويجعل مكانها مروجاً وأنهاراً، قال تعالى: «وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نَرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَبَ بَهَا الْأُولَوْنُ» [الإسراء: ٥٩] الآية، قال الله تعالى: «إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ» أي إنما عليك أن تبلغ رسالة الله التي أمرك بها، «وَلَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكُنَّ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ» [البقرة: ٢٧٢] وقوله: «وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ» قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أي لكل قوم داع. وقال العوفي عن ابن عباس في الآية: يقول الله تعالى: أنت يا محمد منذر، وأنا هادي كل قوم، وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وغير واحد. وعن مجاهد «وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ» أي النبي، كقوله: «وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَّ فِيهَا نَذِيرٌ» [فاطر: ٢٤]، وبه قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد. وقال أبو صالح ويعين بن رافع «وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ» أي قائد. وقال أبو العالية: الهادي القائد، والقائد الإمام، والإمام العمل. وعن عكرمة وأبي الضحى «وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ» قالا: هو محمد ﷺ. وقال مالك: «وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ» يدعوهם إلى الله عز وجل.

وقال أبو جعفر بن جرير^(١): حدثني أحمد بن يحيى الصوفي، حدثنا الحسن بن الحسين الأنصاري، حدثنا معاذ بن مسلم، حدثنا الهروي عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: لما نزلت ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قال: وضع رسول الله ﷺ يديه على صدره وقال: «أَنَا الْمُنْذِرُ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ» وأوْمَأْ يديه إلى منكب علي، فقال «أَنْتَ الْهَادِي يَا عَلِيٌّ بْنَ الْهَادِي الْمُهَتَّدُونَ مِنْ بَعْدِي»، وهذا الحديث فيه نكارة شديدة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا المطلب بن زياد عن السدي عن عبد خير عن علي «وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ» قال: الهادي رجل من بني هاشم. قال الجنيد: هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه. قال ابن أبي حاتم: وروي عن ابن عباس في إحدى الروايات وعن أبي جعفر محمد بن علي نحو ذلك.

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغْيِضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ عَذْلٌ
الْغَيْبِ وَالشَّهَدَةُ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالُ

يخبر تعالى عن تمام علمه الذي لا يخفى عليه شيء، وأنه محيط بما تحمله الحوامل من كل إناث الحيوانات، كما قال تعالى: «ويعلم ما في الأرحام» [لقمان: ٣٤] أي ما حملت من ذكر أو أنثى، أو حسن أو قبيح، أو شقي أو سعيد، أو طويل العمر أو قصيره، كقوله تعالى: «هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنحة» [النجم: ٣٢] الآية، وقال تعالى: «يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث» [الزمر: ٦] أي خلقكم طوراً من بعد طور، كما قال تعالى: «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسنا العظام لحماً ثم أنثائاه خلقاً آخر فتبarak الله أحسن الخالقين» [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن خلق إحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكاً فيؤمر بأربع كلمات، بكتب رزقه، وعمره، وعمله، وشقي أو سعيد»^(١). وفي الحديث الآخر «فيقول الملك أي رب أذكر أم أنثى؟ أي رب أشقي أم سعيد؟ وما الرزق؟ وما الأجل؟ فيقول الله، ويكتب الملك»^(٢).

وقوله «وما تغيب الأرحام وما تزداد» قال البخاري^(٣): حدثنا إبراهيم بن المنذر حدثنا معن حدثنا مالك عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس، لا يعلمهن إلا الله: لا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم ما تغيب الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تدرى نفس بأي أرض تموت، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله» وقال العوفى عن ابن عباس «وما تغيب الأرحام» يعني السقط، «وما تزداد» يقول: ما زادت الرحم في الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماماً، وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر، ومن تحمل تسعة أشهر، ومنهن من تزيد في الحمل، ومنهن من تنقص، فذلك الغيب والزيادة التي ذكر الله تعالى وكل ذلك بعلمه تعالى^(٤).

وقال الضحاك عن ابن عباس في قوله: «وما تغيب الأرحام وما تزداد» قال: ما نقصت من تسعة وما زاد عليها، وقال الضحاك: وضعتني أمي وقد حملتني في بطنها سنتين، ولدتنى

(١) أخرجه البخاري في القدر باب ١، ومسلم في القدر حديث ١.

(٢) راجع الحاشية السابقة.

(٣) كتاب التفسير، تفسير سورة ١٣، باب ١.

(٤) انظر تفسير الطبرى ٧/٢٤٥.

وقد نبّت ثنيتي . وقال ابن جرير عن جميلة بنت سعد عن عائشة قالت : لا يكون الحمل أكثر من ستين قدر ما يتحرك ظل مغزل^(١) ، وقال مجاهد «وما تغيب الأرحام وما تزداد» قال : ما ترى من الدم في حملها ، وما تزداد على تسعه أشهر ، وبه قال عطية العوفي والحسن البصري وقتادة والضحاك ، وقال مجاهد أيضاً : إذا رأت المرأة الدم دون التسعة ، زاد على التسعة مثل أيام الحيض ، وقاله عكرمة وسعيد بن جبير وابن زيد . وقال مجاهد أيضاً : «وما تغيب الأرحام» إراقة الدم حتى يخس الولد ، «وما تزداد» إن لم تهرق المرأة ، تم الولد وعظم^(٢) .

وقال مكحول : الجنين في بطن أمه لا يطلب ولا يحزن ولا يغتم ، وإنما يأتيه رزقه في بطن أمه من دم حيضتها ، فمن ثم لا تحبس الحامل ، فإذا وقع إلى الأرض ، استهلل ، واستهلاله استنكاره لمكانه ، فإذا قطعت سرتها ، حول الله رزقه إلى ثديي أمه حتى لا يحزن ولا يطلب ولا يغتم ، ثم يصير طفلاً يتناول الشيء بكفه فياكله ، فإذا هو بلغ قال : هو الموت أو القتل أنى لي بالرزق ؟ فيقول مكحول يا ويلك : غذاك وأنت في بطن أمك وأنت طفل صغير ، حتى إذا اشتددت وعقلت قلت : هو الموت أو القتل أنى لي بالرزق ، ثم قرأ مكحول «الله يعلم ما تحمل كل أثني» الآية .

وقال قتادة : «وكُلْ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ» أي بأجل ، حفظ أرزاق خلقه وأجالهم ، وجعل لذلك أجلاً معلوماً . وفي الحديث الصحيح أن إحدى بنات النبي ﷺ بعثت إليه أن ابناً لها في الموت ، وأنها تحب أن يحضره . بعث إليها يقول : «إِنَّ اللَّهَ مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أَعْطَى، وَكُلْ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجْلٍ مُسَمِّىٍّ، فَمَرُوهَا فَلَتَصْبِرُ وَلَتَحْتَسِبُ»^(٣) الحديث بتمامه . قوله : «عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ» أي يعلم كل شيء مما يشاهده العباد ومما يغيب عنهم ، ولا يخفى عليه منه شيء «الكبير» الذي هو أكبر من كل شيء ، «المتعال» أي على كل شيء «قَدْ أحاط بكل شيء علماً» وقهـر كل شيء ، فخضـعت له الرقـاب ودانـه العـبـاد طـوعـاً وـكـرـهاً .

سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ، وَمَنْ هُوَ مُسْتَحْفَىٰ بِالْأَيْلَلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ لَهُ مُعَقِّبَتُهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَشَرِ اللَّهِ إِرْبَكَ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يُقَوِّمُ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا يُنَفِّسُهُمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِيَقْوِيمِ سُوءًا فَلَا مَرَدَلَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالِّإِرْبَكَ

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بجميع خلقه ، وأنه سواء منهم من أسر قوله أو جهر به ، فإنه يسمعه لا يخفى عليه شيء ، كقوله : «وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السُّرُّ وَأَخْفَى» [طه: ٧] ، وقال : «وَيَعْلَمُ مَا تَخْفُونَ وَمَا تَعْلَمُونَ» ، قالت عائشة رضي الله عنها : سبحان الذي وسع سمعه

(١) انظر تفسير الطبرى ٢٤٦ / ٧.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٢٤٥ / ٧.

(٣) أخرجه البخارى في القدر باب ٤ ، ومسلم في الجنائز حديث ١١ .

الأصوات، والله لقد جاءت المجادلة تشتكى زوجها إلى رسول الله ﷺ، وأنا في جنب البيت، وإنه ليخفى على بعض كلامها، فأنزل الله ﷺ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركم إن الله سميع بصير»^(١) [المجادلة: ١].

وقوله ﷺ «ومن هو مستخف بالليل» أي مختلف في قعر بيته في ظلام الليل، «وسارب بالنهار» أي ظاهر ماش في بياض النهار وضيائه، فإن كليهما في علم الله على السواء، كقوله تعالى: «ألا حين يستغشون ثيابهم» [هود: ٥] الآية.

وقوله تعالى: «وما تكون في شأن وما تلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تنفيسون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين» [يونس: ٦١].

وقوله: «له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله» أي للعبد ملائكة يتعاقبون عليه، حرس بالليل وحرس بالنهار، يحفظونه من الأسواء والحادثات، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فاثنان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، صاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه، واحد من ورائه وآخر من قدامه، فهو بين أربعة أملال بالنهار، وأربعة أملال بالليل، بدلاً حافظان وكتابان، كما جاء في الصحيح «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، فيصعد إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون»^(٢). وفي الحديث الآخر «إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء وعند الجماع، فاستحيوهم وأكرموهم»^(٣).

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: «له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله» والمعقبات من الله هي الملائكة^(٤)، وقال عكرمة عن ابن عباس «يحفظونه من أمر الله» قال: ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه^(٥)، وقال مجاهد: ما من عبد إلا له ملك موكل، يحفظه في نومه ويقطنه من الجن والإنس والهوام، فما منها شيء يأتيه يريده، إلا قال له الملك وراءك، إلا شيء أذن الله فيه

(١) أخرجه ابن ماجه في المقدمة باب ١٣، وأحمد في المستند ٤٦/٦.

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد باب ٢٣، ٢٣، ٢٣، ومسلم في المساجد حديث ٢١٠، والنمساني في الصلاة باب ٢١، ومالك في السفر حديث ٨٢، وأحمد في المستند ٢٥٧/٢، ٣١٢، ٤٨٦.

(٣) أخرجه الترمذى في الأدب باب ٤٢.

(٤) انظر تفسير الطبرى ٣٥١/٧.

(٥) انظر تفسير الطبرى ٣٥١/٧.

فيصيبيه^(١).

وقال الثوري عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله: ﴿لِهِ مَعْقِبَاتٍ مِّنْ بَيْنِ يَدِيهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ قال: ذلك ملك من ملوك الدنيا، له حرس من دونه حرس^(٢)، وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿لِهِ مَعْقِبَاتٍ مِّنْ بَيْنِ يَدِيهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ يعنيولي الشيطان يكون عليه الحرس. وقال عكرمة في تفسيرها: هؤلاء الأمراء المواكب بين يديه ومن خلفه^(٣)، وقال الضحاك في الآية: هو السلطان المحروس من أمر الله، وهم أهل الشرك^(٤)، والظاهر - والله أعلم - أن مراد ابن عباس وعكرمة والضحاك بهذا أن حرس الملائكة للعبد يشيه حرس هؤلاء لملوكيهم وأمرائهم.

وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير^(٥) هنا حديثاً غريباً جداً، فقال حدثني المثنى، حدثنا إبراهيم بن عبد السلام بن صالح القشيري، حدثنا علي بن جرير عن حماد بن سلمة عن عبد الحميد بن جعفر عن كنانة العدواني قال: دخل عثمان بن عفان على رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله أخبرني عن العبد كم معه من ملك؟ فقال «ملك على يمينك على حسانتك، وهو أمير على الذي على الشمال، فإذا عملت حسنة كتبت عشرة، وإذا عملت سيئة قال الذي على الشمال للذى على اليمين أكتبها؟ قال: لا، لعله يستغفر الله ويتوسل فيستأذنه ثلاث مرات، فإذا قال ثلاثاً، قال: اكتبها أراحنا الله منه فيئس القرىن، ما أقل مراقبيه الله وأقل استحياءه منا، يقول الله: «ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد» وملكان من بين يديك ومن خلفك، يقول الله تعالى: ﴿لِهِ مَعْقِبَاتٍ مِّنْ بَيْنِ يَدِيهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ الآية وملك قابض على ناصيتك، فإذا تواضعت الله رفعك، وإذا تجبرت على الله قصمك، وملكان على شفتيك ليس يحفظان عليك إلا الصلاة على محمد ﷺ. وملك قائم على فيك لا يدع أن تدخل الحياة في فيك، وملكان على عينيك، فهو لاء عشرة ملائكة على كل آدمي، ينزلون ملائكة الليل على ملائكة النهار، لأن ملائكة الليل سوى ملائكة النهار، فهو لاء عشرون ملكاً على كل آدمي، وإيليس بالنهار وولده بالليل».

وقال الإمام أحمد^(٦) رحمه الله: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا سفيان، حدثني منصور عن سالم بن أبي الجعد عن أبيه، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد

(١) انظر تفسير الطبرى ٣٥٢/٧.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٣٥٢/٧.

(٣) انظر تفسير الطبرى ٣٥٢/٧.

(٤) انظر تفسير الطبرى ٣٥٢/٧.

(٥) تفسير الطبرى ٣٥٠/٧.

(٦) المستند ٤٦٠، ٤٠١، ٣٩٧/١.

وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة» قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «وإياي، ولكن الله أعناني عليه، فلا يأمرني إلا بخير»، انفرد بإخراجه مسلم^(١).

وقوله: «يحفظونه من أمر الله» قيل: المراد حفظهم له من أمر الله، رواه علي بن أبي طلحة وغيره عن ابن عباس^(٢)، وإليه ذهب مجاهد وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي وغيرهم. وقال قتادة: «يحفظونه من أمر الله» قال: وفي بعض القراءات «يحفظونه بأمر الله»^(٣)، وقال كعب الأحبار: لو تجلى لابن آدم كل سهل وكل حزن، لرأى كل شيء من ذلك شياطين، لو لا أن الله وكل بكم ملائكة يذبون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم إذا لخطفتم^(٤). وقال أبو أمامة: ما من آدمي ومعه ملك يذود عنه حتى يسلمه للذى قدر له^(٥)، وقال أبو مجلز: جاء رجل من مراد إلى علي رضي الله عنه وهو يصلي فقال: احترس: فإن ناساً من مراد يريدون قتلك، فقال: إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر، فإذا جاء القدر خلياً بينه وبينه، إن الأجل جنة حصينة^(٦).

وقال بعضهم «يحفظونه من أمر الله» بأمر الله، كما جاء في الحديث أنهما قالوا: يا رسول الله، أرأيت رقى نسترقى بها، هل ترد من قدر الله شيئاً؟ فقال «هي من قدر الله»^(٧). وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشعج، حدثنا حفص بن غياث عن أشعث عن جهم، عن إبراهيم قال: أوحى الله إلى نبي من أنبياءبني إسرائيل: أن قل لقومك: إنه ليس من أهل قرية ولا أهل بيتك يكونون على طاعة الله فيتحولون منها إلى معصية الله، إلا حول الله عنهم ما يحبون إلى ما يكرهون، ثم قال: إن تصدق ذلك في كتاب الله «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغروا ما بأنفسهم».

وقد ورد هذا في حديث مرفوع، فقال الحافظ محمد بن عثمان بن أبي شيبة في كتابه صفة العرش: حدثنا الحسن بن علي، حدثنا الهيثم بن الأشعث السلمي، حدثنا أبو حنيفة اليماني الأنصارى عن عمير بن عبد الملك قال: خطبنا علي بن أبي طالب على منبر الكوفة قال: كنت إذا أمسكت عن رسول الله ﷺ ابتدأني، وإذا سأله عن الخبر أبتأني، وإنه حدثني عن ربه عز

(١) كتاب صفات المناقين وأحكامهم حديث ٦٩.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٧/٣٥٣.

(٣) انظر تفسير الطبرى ٧/٣٥٤.

(٤) انظر تفسير الطبرى ٧/٣٥٤.

(٥) تفسير الطبرى ٧/٣٥٥.

(٦) تفسير الطبرى ٧/٣٥٤، ٣٥٥.

(٧) أخرجه الترمذى في الطب باب ٢١، والقدر باب ١٢، وابن ماجه في الطب باب ١، وأحمد في المستند ٤٢١/٣.

وَجْلَ قَالَ: «قَالَ الرَّبُّ: وَعِزْتِي وَجَلَّتِي وَارْتَفَاعِي فَوْقَ عَرْشِي، مَا مِنْ قَرْيَةٍ وَلَا أَهْلَ بَيْتٍ كَانُوا عَلَىٰ مَا كَرِهْتُ مِنْ مَعْصِيَتِي ثُمَّ تَحَوَّلُوا عَنْهَا إِلَىٰ مَا أَحَبَّتُ مِنْ طَاعِتِي، إِلَّا تَحَوَّلَتْ لَهُمْ عَمَّا يَكْرَهُونَ مِنْ عَذَابِي إِلَىٰ مَا يَحْبُّونَ مِنْ رَحْمَتِي»، وَهَذَا غَرِيبٌ، وَفِي إِسْنَادِهِ مِنْ لَا أَعْرِفُهُ.

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرَقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَشِّئُ السَّحَابَ إِلَيْقَالٍ (١) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدَ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ، وَيُرِسِّلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَلَمْ يُجَدِّلُوكُنَّ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَرِيدٌ (٢)
الْمَحَالِ (٣)

يَخْبُرُ تَعَالَى أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَسْخِرُ الْبَرَقَ، وَهُوَ مَا يَرَى مِنَ النُّورِ الْلَامِعِ سَاطِعًا مِنْ خَلْلِ السَّحَابِ. وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ (٤) أَنَّ ابْنَ عَبَّاسَ كَتَبَ إِلَى أَبِي الْجَلْدِ يَسْأَلُهُ عَنِ الْبَرَقِ، فَقَالَ: الْبَرَقُ المَاءُ. وَقَوْلُهُ: «خَوْفًا وَطَمَعًا» قَالَ قَاتِدًا: خَوْفًا لِلمسافِرِ يَخَافُ أَذَاهُ وَمَشْقَتَهُ، وَطَمَعًا لِلمَقِيمِ يَرْجُو بَرَكَتَهُ وَمَنْفَعَتِهِ وَيَطْمَعُ فِي رِزْقِ اللَّهِ (٥)، «وَيُنَشِّئُ السَّحَابَ الثَّقَالَ» أَيْ وَيَخْلُقُهَا مِنْ شَأْنٍ جَدِيدَةٍ، وَهِيَ لَكْثَرَةٌ مَا يَهَا ثَقِيلَةٌ قَرِيبَةٌ إِلَى الْأَرْضِ قَالَ مَجَاهِدًا: السَّحَابُ الثَّقَالُ الَّذِي فِيهِ المَاءُ، قَالَ: «وَيُسَبِّحُ الرَّعْدَ بِحَمْدِهِ» كَوْلُهُ: «وَإِنْ مَنْ شَاءَ إِلَّا يَسْبِحُ بِحَمْدِهِ» [الإِسْرَاءَ: ٤٤].

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ (٦): حَدَثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ، أَخْبَرَنِي أَبِي قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا إِلَى جَنْبِ حَمِيدَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ فِي الْمَسْجِدِ، فَمَرَّ شَيْخٌ مِنْ بَنِي غَفارٍ، فَأُرْسِلَ إِلَيْهِ حَمِيدٌ، فَلَمَّا أَقْبَلَ قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، وَسَعَ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنِكَ، فَإِنَّهُ قَدْ صَاحَبَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَجَاءَ حَتَّى جَلَسَ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنِكَ، فَقَالَ لِهِ حَمِيدٌ: مَا الْحَدِيثُ الَّذِي حَدَثْتَنِي عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ: سَمِعْتُ عَنْ شَيْخٍ مِنْ بَنِي غَفارٍ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ يُنَشِّئُ السَّحَابَ فَيُنْطِقُ أَحْسَنَ النُّطُقِ، وَيُضْحِكُ أَحْسَنَ الضَّحَكِ» وَالْمَرَادُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنْ نَطَقَهَا الرَّعْدُ وَضَحَّكَهَا الْبَرَقُ. وَقَالَ مُوسَى بْنُ عَبِيدَةَ عَنْ سَعْدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: يَبْعَثُ اللَّهُ الْغَيْثَ فَلَا أَحْسَنَ مِنْهُ مُضْحِكًا، وَلَا آنَسَ مِنْهُ مُنْطَقاً، فَضَحَّكَهَا الْبَرَقُ، وَمُنْطَقَهُ الرَّعْدُ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتَمَ: حَدَثَنَا أَبِي، حَدَثَنَا هَشَامُ بْنُ عَبِيدِ اللَّهِ الرَّازِيِّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ قَالَ: بَلَغْنَا أَنَّ الْبَرَقَ مَلِكٌ لِهِ أَرْبِيعَةٌ وَجُوهٌ: وَجْهٌ إِنْسَانٌ، وَوَجْهٌ ثُورٌ، وَوَجْهٌ نَسْرٌ، وَوَجْهٌ أَسْدٌ، فَإِذَا مَصَعَ بَذْنَبِهِ فَذَاكَ الْبَرَقُ.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ (٧): حَدَثَنَا عَفَانٌ، حَدَثَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ زَيْدٍ، حَدَثَنَا الْحَجَاجُ، حَدَثَنَا أَبُو مَطْرٍ عَنْ سَالِمٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سَمِعَ الرَّعْدَ وَالصَّوَاعِقَ قَالَ «اللَّهُمَّ

(١) تفسير الطبرى ٣٥٩/٧.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٣٥٩/٧.

(٣) المسند ٤٣٥/٥.

(٤) المسند ١٠١، ١٠٠/٢.

لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك^(١)، ورواه الترمذى والبخارى فى كتاب الأدب، والنمسائى فى اليوم والليلة، والحاكم فى مستدركه من حديث الحجاج بن أرطاة، عن أبي مطر ولم يسم به.

وقال الإمام أبو جعفر بن حرير^(٢): حدثنا أحمد بن إسحاق حدثنا أبو أحمد، حدثنا إسرائيل عن أبيه، عن رجل، عن أبي هريرة رفعه، أنه كان إذا سمع الرعد قال: «سبحان من يسبح الرعد بحمده»، وروي عن علي رضي الله عنه أنه كان إذا سمع صوت الرعد يقول: سبحان من سبحت له، وكذا روي عن ابن عباس وطاوس والأسود بن يزيد، أنهم كانوا يقولون ذلك. وقال الأوزاعي: كان ابن أبي زكريا يقول: من قال حين يسمع الرعد: سبحان الله وبحمده، لم تصبه صاعقة^(٣)، وعن عبد الله بن الزبير أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث وقال: سبحان الذي يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، ويقول: إن هذا لوعيد شديد لأهل الأرض^(٤)، رواه مالك في موته، والبخاري في كتاب الأدب.

وقال الإمام أحمد^(٥): حدثنا سليمان بن داود الطيالسي، حدثنا صدقة بن موسى حدثنا محمد بن واسع عن شتير بن نهار، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «قال ربكم عز وجل: لو أن عبيدي أطاعوني لأسقيتهم المطر بالليل، وأطلعت عليهم الشمس بالنهار، ولما أسمعتم صوت الرعد».

وقال الطبراني: حدثنا زكريا بن يحيى الساجي، حدثنا أبو كامل الجحدري، حدثنا يحيى بن كثير أبو النصر، حدثنا عبد الكريم، حدثنا عطاء عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سمعتم الرعد فاذكروا الله فإنه لا يصيب ذاكراً».

وقوله تعالى: ﴿وَيُرِسِّلُ الصَّوْاعِقَ فَيُصَبِّبُ بِهَا مِنْ يَسِّرٍ﴾ أي يرسلها نسمة يتقم بها ممن يشاء، ولهذا تكثر في آخر الزمان، كما قال الإمام أحمد^(٦): حدثنا محمد بن مصعب، حدثنا عمارة عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «تكثر الصواعق عند اقتراب الساعة حتى يأتي الرجل القوم فيقول: من صعق تلكم الغدة؟ فيقولون: صعق فلان وفلان وفلان».

وقد روى في سبب نزولها ما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا إسحاق، حدثنا

(١) أخرجه الترمذى في الدعوات باب ٤٩.

(٢) تفسير الطبرى ٣٦٠ / ٧.

(٣) تفسير الطبرى ٣٦٠ / ٧.

(٤) أخرجه مالك في الكلام حديث ٢٦.

(٥) المستند ٣٥٩ / ٢.

(٦) المستند ٦٤ / ٣.

علي بن أبي سارة الشيباني، حدثنا ثابت عن أنس أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً مرة إلى رجل من فراعنة العرب، فقال: «إذهب فادعه لي». قال: فذهب إليه فقال: يدعوك رسول الله ﷺ، فقال له: من رسول الله، وما الله، أمن ذهب هو، أم من فضة هو، أم من نحاس هو؟ قال: فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: يا رسول الله، قد أخبرتك أنه أعني من ذلك، قال لي كذا وكذا، فقال لي: «ارجع إليه الثانية» فذهب فقال له مثلها، فرجع إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله قد أخبرتك أنه أعني من ذلك، فقال: «ارجع إليه فادعه» فرجع إليه الثالثة، قال: فأعاد عليه ذلك الكلام، فينما هو يكلمه إذ بعث الله عز وجل سحابة حيال رأسه، فرعدت فوقعت منها صاعقة، فذهب بقحف رأسه^(١)، وأنزل الله عز وجل ﴿وَيَرْسَلُ الصَّوَاعِقَ﴾ الآية، ورواه ابن جرير^(٢) من حديث علي بن أبي سارة به.

ورواه الحافظ أبو بكر البزار عن عبدة بن هارون، عن ديلم بن غزوان، عن ثابت، عن أنس ذكر نحوه، وقال: حدثنا الحسن بن محمد، حدثنا عفان، حدثنا أبان بن يزيد، حدثنا أبو عمран الجوني عن عبد الرحمن بن صحار العبدي أنه بلغه أن النبي ﷺ بعثه إلى جبار يدعوه فقال: أرأيتم ربكم أذهب هو؟ أم فضة هو؟ أم لؤلؤ هو؟ قال: فينما هو يجادلهم إذ بعث الله سحابة فرعدت، فأرسل عليه صاعقة، فذهبت بقحف رأسه، ونزلت هذه الآية^(٣). وقال أبو بكر بن عياش عن ليث بن أبي سليم، عن مجاهد قال: جاء يهودي فقال: يا محمد أخبرني عن ربك، من أي شيء هو؟ من نحاس هو، أم من لؤلؤ أو ياقوت؟ قال: فجاءت صاعقة فأخذته، وأنزل الله ﴿وَيَرْسَلُ الصَّوَاعِقَ﴾ الآية^(٤).

وقال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً أنكر القرآن، وكذب النبي ﷺ فأرسل الله صاعقة فأهلكته، وأنزل الله ﴿وَيَرْسَلُ الصَّوَاعِقَ﴾ الآية^(٥)، وذكروا في سبب نزولها قصة عامر بن الطفيلي وأربيد بن ربيعة، لما قدموا على رسول الله ﷺ بالمدينة فسألاه أن يجعل لهما نصف الأمر، فأبى عليهما رسول الله ﷺ، فقال له عامر بن الطفيلي - لعنه الله -: أما والله لأملائها عليك خيلاً جرداً^(٦) ورجلاً مرداً^(٧)، فقال له رسول الله ﷺ: «يأبى الله عليك ذلك وأبناء قيلة»^(٨) يعني

(١) القحف: أعلى الدماغ.

(٢) تفسير الطبرى ٣٦١/٧.

(٣) تفسير الطبرى ٣٦٠/٧، ٣٦١.

(٤) تفسير الطبرى ٣٦١/٧.

(٥) تفسير الطبرى ٣٦١/٧.

(٦) الخيل الجرد: هو الذي يسبق الخيل وينجرد عنه لسرعته.

(٧) المرد: هو الشاب الذي طر شاربه ولم تنبت لحيته.

(٨) قيلة: امرأة يتسبب إليها الأوس والخزرج.

الأنصار، ثم إنهمما هما بالفتوك برسول الله ﷺ فجعل أحدهما يخاطبه، والآخر يستل سيفه ليقتلنه من ورائه، فحمد الله تعالى منها وعصمها، فخرجا من المدينة فانطلقا في أحياء العرب يجتمعان الناس لحربه عليه الصلاة والسلام، فأرسل الله على أربد سحابة فيها صاعقة فأحرقته، وأما عامر بن الطفيلي، فأرسل الله عليه الطاعون فخرجت فيه غدة عظيمة، فجعل يقول: يا آل عامر غدة كغدة البكر، وموت في بيت سلوالية^(١)، حتى ماتا لعنهم الله، وأنزل الله في مثل ذلك **﴿وَيُرْسَلُ الصَّوَاعِقُ فَيُصَبِّبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يَجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾**، وفي ذلك يقول لبيد بن ربيعة أخو أربد يرثيه: [المنسرح]

أَخْشَى عَلَى أَرْبَدَ الْحَسْوَفَ وَلَا
فَجَعَنِي الرَّعْدُ وَالصَّوَاعِقُ بَالْ

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا مسعدة بن سعيد العطار، حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي، حدثني عبد العزيز بن عمران، حدثني عبد الرحمن وعبد الله ابنا زيد بن أسلم عن أبيهما، عن عطاء بن يسار، عن ابن عباس أن أربد بن قيس بن جزء بن جليل بن جعفر بن كلاب، وعامر بن الطفيلي بن مالك، قدما المدينة على رسول الله ﷺ، فانتهيا إليه وهو جالس فجلسا بين يديه، فقال عامر بن الطفيلي: يا محمد، ما تجعل لي إن أسلمت؟ فقال رسول الله ﷺ: «لَكَ مَا لِلْمُسْلِمِينَ وَعَلَيْكَ مَا عَلَيْهِمْ». قال عامر بن الطفيلي: أَتَجْعَلُ لِي الْأُمْرُ إِنْ أَسْلَمْتُ مِنْ بَعْدِكَ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَيْسَ ذَلِكَ لَكَ وَلَا لِقَوْمِكَ، وَلَكُنْ لَكَ أَعْنَةُ الْخَيْلِ» قال: أَنَا الآن في أعنفة خيل نجد، أجعل لي الوبر ولكل المدر.

قال رسول الله ﷺ: «لَا»، فلما قفلوا من عنده قال عامر: أما والله لأملأنها عليك خيلاً ورجالاً، فقال له رسول الله ﷺ: «يَمْنَعُكَ اللَّهُ»، فلما خرج أربد وعامر، قال عامر: يا أربد، أنا أشغل عنك محمداً بالحديث فاضربه بالسيف، فإن الناس إذا قتلت محمداً لم يزيدوا على أن يرضوا بالدية ويكرهوا الحرب، فتعطيمهم الديمة. قال أربد: أفعل، فأقبل راجعين إليه، فقال عامر: يا محمد قم معي أكلمك، فقام معه رسول الله ﷺ فجلسا إلى الجدار، ووقف معه رسول الله ﷺ يكلمه، وسلم أربد السيوف، فلما وضع يده على السيوف يبست يده على قائم السيوف، فلم يستطع سل السيوف، فأبطن أربد على عامر بالضرب.

فالتفت رسول الله ﷺ فرأى أربد وما يصنع، فانصرف عنهما، فلما خرج عامر وأربد من

(١) أغدة كغدة البعير، وموت في بيت سلوالية: مثل يضرب في خصلتين إحداهما شر من الأخرى. والبُكْرُ: ولد الناقة، والغدة: طاعون الإبل، وقلما تسلم منه، وأما سلوال: قبيلة من أدنى العرب وأذلهم، وكان عامر قد نزل بيت امرأة من سلوال، فضرب هذا المثل عندهم.

(٢) اليتان لليبد بن ربيعة في ديوانه ص ١٥٨ ، وتفسير الطبرى ٣٥٦ / ٧ ، والبيت الثاني في لسان العرب (فتح) ، (صعق) ، وتهذيب اللغة ٣٨٥ / ١ ، ونتاج العروس (فتح).

عند رسول الله ﷺ حتى إذا كانا بالحرة - حرة راقم - نزلا ، فخرج إليهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير ، فقالا: اشخاصا يا عدوي الله لعنكم الله ، فقال عامر: من هذا يا سعد ؟ قال: هذا أسيد بن حضير الكتائب ، فخرجا حتى إذا كانا بالرقم ، أرسل الله على أربد صاعقة فقتلته ، وخرج عامر حتى إذا كان بالخريم أرسل الله قرحة فأخذته ، فأدركه الليل في بيت امرأة منبني سلول ، فجعل يمس قرحته في حلقة ويقول: غدة كغدة الجمل في بيت سلولية ، ترغب أن يموت في بيتها ، ثم ركب فرسه فأحضره حتى مات عليه راجعاً ، فأنزل الله فيهما ﴿الله يعلم ما تحمل كل أنسى﴾ - إلى قوله - ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَال﴾ قال: المعقبات من أمر الله يحفظون محمداً ﷺ ، ثم ذكر أربد وما قتله به ، فقال ﴿وَيَرْسَلُ الصَّرَاعِقَ﴾ الآية .

وقوله ﴿وَهُمْ يَجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ أي يشكرون في عظمته ، وأنه لا إله إلا هو ، ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمَحَالِ﴾ قال ابن جرير: شديدة مما حلته في عقوبة من طغى عليه ، وعتا وتمادي في كفره ، وهذه الآية شبيهة بقوله: ﴿وَمَكَرُوا مُكْرَراً وَمَكَرُنَا مُكْرَراً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمْرَنَاهُمْ وَقُومُهُمْ أَجْمَعُينَ﴾ [النمل: ٥٠ - ٥١] ، وعن علي رضي الله عنه ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمَحَالِ﴾ أي شديد الأخذ ، وقال مجاهد: شديد القوة .

لَهُمْ دُعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَئْ إِلَّا كَبْسَطَ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَلْعَنَ فَاهُ وَمَا هُوَ بَيْسَاغِهِ
وَمَا دُعْأَهُ الْكَفَرُ إِلَّا فِي ضَلَالٍ

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ﴿لَهُ دُعْوَةُ الْحَقِّ﴾ قال: التوحيد ، رواه ابن جرير^(١) .
وقال ابن عباس وقتادة ومالك عن محمد بن المنكدر ﴿لَهُ دُعْوَةُ الْحَقِّ﴾ لـ إله إلا الله ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ الآية ، أي ومثل الذين يعبدون آلهة غير الله ﴿كَبَاسِطٌ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَلْعَنَ فَاهُ﴾ .
قال علي بن أبي طالب: كمثل الذي يتناول الماء من طرف البثريده وهو لا يناله أبداً بيده ، فكيف يبلغ فاه ؟ وقال مجاهد ﴿كَبَاسِطٌ كَفَيْهِ﴾ يدعو الماء بلسانه ويشير إليه فلا يأتيه أبداً ، وقيل: المراد
قباض يده على الماء ، فإنه لا يحكم منه على شيء ، كما قال الشاعر: [الطوبل]
فَإِنَّى وَإِنَّا كُمْ وَشَوْقًا إِلَيْكُمْ كَفَابِضٌ مَاءٌ لَمْ تَسْقُهُ أَنَامُلُهُ^(٢)
وقال الآخر: [الطوبل]

فَأَصْبَحْتُ مَمَا كَانَ يَبْنِي وَبَنِيهَا مِنَ الْوَدِ مُثْلِ القَابِضِ الْمَاءِ بِالْيَدِ^(٣)

(١) تفسير الطبرى ٣٦٤ / ٧.

(٢) البيت لضابىء بن الحارث البرجمى فى لسان العرب (وسق)، ومقاييس اللغة ٦/١٠٩، وتاح العروس (وسق). وبلا نسبة فى تفسير الطبرى ٧/٣٦٤، وتهذيب اللغة ٩/٢٣٦، وأساس البلاغة (وسق).

(٣) البيت بلا نسبة فى تفسير البحر المحيط ٥/٣٦٨، وتفسير الطبرى ٧/٣٦٤، وروح المعانى، للألوسى ٧/١٢١.

ومعنى هذا الكلام أن الذي يبسط يده إلى الماء إما قابضاً وإما متناولاً له من بعد كما أنه لا يتفع بالماء الذي لم يصل إلى فيه الذي جعله محلأً للشرب، فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله إلهآ غيره، لا يتفعون بهم أبداً في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال ﴿وَمَا دعاء الكافرين إِلَّا فِي ضلال﴾.

وَلَلَّهِ يَسْجُدُ مَنِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظَلَالُهُمْ بِالْغَدْوِ وَالْأَصَالِ ﴿١٩﴾

يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه، الذي قهر كل شيء، ودان له كل شيء، ولهذا يسجد له كل شيء طوعاً من المؤمنين وكرهاً على الكافرين ﴿وَظَلَالُهُمْ بِالْغَدْوِ وَالْأَصَالِ﴾ أي البكر ﴿وَالْأَصَالِ﴾ وهو جمع أصيل، وهو آخر النهار، كقوله تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرُوا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظَلَالُهُ﴾ [النحل: ٤٨] الآية.

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قُلْ أَفَاخْتَدِثُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْ لَيْلَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لَا يَنْشُمُونَ لَنَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظَّالِمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شَرَكَاهُ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلْ إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٢٠﴾

يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو، لأنهم معتبرون بأنه هو الذي خلق السموات والأرض، وهو ربها ومدبرها، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم، وأولئك الآلهة لا تملك لأنفسها ولا لعابديها بطريق الأولى نفعاً ولا ضراً، أي لا تحصل لهم منفعة ولا تدفع عنهم مضر، فهل يستوي من عبد هذه الآلهة مع الله، ومن عبد الله وحده لا شريك له فهو على نور من ربه؟ ولهذا قال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظَّالِمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا اللَّهَ شَرَكَاهُ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ أي أجعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الرب وتماثله في الخلق فخلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم فلا يدررون أنها مخلوقة من مخلوق غيره أي ليس الأمر كذلك فإنه لا يشابه شيء، ولا يماثله ولا ند له ولا عدل له ولا وزير له ولا ولد ولا صاحبة تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وإنما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة هم معتبرون أنها مخلوقة له، عبيد له، كما كانوا يقولون في تلبيتهم: ليك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك.

وكما أخبرنا تعالى عنهم في قوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيَقْرِبُونَا إِلَى اللَّهِ زَلْفِي﴾ [الزمر: ٣] فإنكر تعالى عليهم ذلك حيث اعتقادوا ذلك، وهو تعالى لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْهُ إِلَّا لِمَنِ أَذْنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣] ﴿وَكُمْ مِنْ مُلْكِ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ [النجم: ٢٦] الآية، وقال ﴿إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَيَ الرَّحْمَنَ عِبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدْهُمْ عِدًّا وَكُلُّهُمْ آتَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرِدًّا﴾ [مريم: ٩٥ - ٩٣] فإذا كان الجميع عبيداً، فلم يعبد بعضهم بعضاً بلا دليل

ولا برهان، بل مجرد الرأي والاختراع والابداع، ثم قد أرسل رسلا من أووجههم إلى آخرهم، تزجرهم عن ذلك وتنهاهم عن عبادة من سوى الله، فكذبواهم وخالفوهـم، فحقـت عليهمـ كلمة العذاب لا محـالـة ﴿وَلَا يـظـلم رـبـكـ أـحـدـا﴾ [الـكـهـفـ: ٤٩].

أنـزلـ مـنـ السـمـاءـ مـاءـ فـسـالـتـ أـوـدـيـةـ بـقـدـرـهـاـ فـأـحـتـلـ أـسـيـلـ زـيـدـاـ رـايـاـ وـمـمـاـ يـوـقـدـونـ عـلـيـهـ فـيـ النـارـ أـبـتـغـاءـ حـلـيـةـ
أـوـ مـتـاعـ زـيـدـ مـثـلـهـ كـذـلـكـ يـضـرـبـ أـلـلـهـ الـحـقـ وـالـبـاطـلـ فـاـمـاـ الـزـيـدـ فـيـذـهـبـ جـفـاءـ وـأـمـاـ مـاـ يـنـعـ النـاسـ فـيـمـكـثـ فـيـ
الـأـرـضـ كـذـلـكـ يـضـرـبـ أـلـلـهـ الـأـمـالـ﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضربين للحق في ثباته وبقائه، والباطل في اضمحلاله وفناهـ، فقال تعالى: ﴿أـنـزـلـ مـنـ السـمـاءـ مـاءـ﴾ أي مطراً ﴿فـسـالـتـ أـوـدـيـةـ بـقـدـرـهـا﴾ أي أخذ كل واد بحسبهـ، فهـذا كـبـيرـ وـسـعـ كـثـيرـاـ مـنـ المـاءـ، وـهـذا صـغـيرـ وـسـعـ بـقـدـرـهـ، وـهـوـ إـشـارـةـ إـلـىـ
الـقـلـوبـ وـتـفـاوـتـهـاـ، فـمـنـهـاـ مـاـ يـسـعـ عـلـمـاـ كـثـيرـاـ، وـمـنـهـاـ مـنـ لـاـ يـتـسـعـ لـكـثـيرـ مـنـ الـعـلـومـ بـلـ يـضـيقـ عـنـهـاـ
﴿فـاـحـتـمـلـ السـيـلـ زـيـدـاـ رـايـاـ﴾ أي فـجـاءـ عـلـىـ وـجـهـ الـمـاءـ الـذـيـ سـالـ فـيـ هـذـهـ أـوـدـيـةـ زـيـدـ عـالـ عـلـيـهـ،
هـذـاـ مـثـلـ.

وقـولـهـ: ﴿وـمـمـاـ يـوـقـدـونـ عـلـيـهـ فـيـ النـارـ أـبـتـغـاءـ حـلـيـةـ أـوـ مـتـاعـ﴾ الآيةـ، هـذـاـ هـوـ المـثـلـ الثـانـيـ وـهـوـ
ماـ يـسـبـكـ فـيـ النـارـ مـنـ ذـهـبـ أـوـ فـضـةـ أـبـتـغـاءـ حـلـيـةـ، أـيـ لـيـجـعـلـ حـلـيـةـ نـحـاسـ أـوـ حـدـيدـ، فـيـجـعـلـ
مـتـاعـاـ، فـإـنـهـ يـعـلـوـ زـيـدـ مـنـهـ كـمـاـ يـعـلـوـ ذـلـكـ زـيـدـ مـنـهـ ﴿كـذـلـكـ يـضـرـبـ أـلـلـهـ الـحـقـ وـالـبـاطـلـ﴾ أـيـ إـذـاـ
اجـتـمـعـاـ، لـاـ ثـبـاتـ لـلـبـاطـلـ وـلـاـ دـوـامـ لـهـ، كـمـاـ أـنـ الزـبـدـ لـاـ يـثـبـتـ مـعـ الـمـاءـ وـلـاـ مـعـ الـذـهـبـ وـالـفـضـةـ،
وـنـحـوـهـمـاـ مـاـ يـسـبـكـ فـيـ النـارـ، بـلـ يـذـهـبـ وـيـضـمـحـلـ، وـلـهـذـاـ قـالـ: ﴿فـاـمـاـ الزـبـدـ فـيـذـهـبـ جـفـاءـ﴾
أـيـ لـاـ يـتـنـعـ بـهـ بـلـ يـتـفـرـقـ وـيـتـمـزـقـ، وـيـذـهـبـ فـيـ جـانـبـ الـوـادـيـ، وـيـعـلـقـ بـالـشـجـرـ، وـتـسـفـهـ الـرـياـحـ،
وـكـذـلـكـ خـبـثـ الـذـهـبـ وـالـفـضـةـ وـالـحـدـيدـ وـالـنـحـاسـ، يـذـهـبـ وـلـاـ يـرـجـعـ مـنـهـ شـيـءـ وـلـاـ يـبـقـيـ إـلـاـ
الـمـاءـ، وـذـلـكـ الـذـهـبـ وـنـحـوـهـ يـتـنـعـ بـهـ، وـلـهـذـاـ قـالـ: ﴿وـأـمـاـ مـاـ يـنـعـ النـاسـ فـيـمـكـثـ فـيـ الـأـرـضـ
كـذـلـكـ يـضـرـبـ أـلـلـهـ الـأـمـالـ﴾ كـوـلـهـ تـعـالـىـ: ﴿وـتـلـكـ الـأـمـالـ نـصـرـبـهـاـ لـلـنـاسـ وـمـاـ يـعـقـلـهـ إـلـاـ
الـعـالـمـوـنـ﴾ [الـعـنـكـبـوـتـ: ٤٣] وـقـالـ بـعـضـ الـسـلـفـ: كـنـتـ إـذـاـ قـرـأـتـ مـثـلـاـ مـنـ الـقـرـآنـ فـلـمـ أـفـهـمـ،
بـكـيـتـ عـلـىـ نـفـسـيـ، لـأـنـ اللـهـ تـعـالـىـ يـقـولـ ﴿وـمـاـ يـعـقـلـهـ إـلـاـ الـعـالـمـوـنـ﴾.

قالـ عـلـيـ بـنـ أـبـيـ طـلـحةـ عـنـ اـبـنـ عـبـاسـ فـيـ قـولـهـ تـعـالـىـ: ﴿أـنـزـلـ مـنـ السـمـاءـ مـاءـ فـسـالـتـ أـوـدـيـةـ
بـقـدـرـهـاـ﴾ الآيةـ، هـذـاـ مـثـلـ ضـرـبـهـ اللـهـ، اـحـتـمـلـتـ مـنـهـ الـقـلـوبـ عـلـىـ قـدـرـ يـقـيـنـهـاـ وـشـكـهـاـ، فـأـمـاـ الشـكـ،
فـلـاـ يـنـعـ مـعـ الـعـلـمـ، وـأـمـاـ الـيـقـيـنـ فـيـنـعـ اللـهـ بـهـ أـهـلـهـ وـهـوـ قـولـهـ: ﴿فـاـمـاـ الزـبـدـ﴾ وـهـوـ الشـكـ،
﴿فـيـذـهـبـ جـفـاءـ وـأـمـاـ مـاـ يـنـعـ النـاسـ فـيـمـكـثـ فـيـ الـأـرـضـ﴾ وـهـوـ الـيـقـيـنـ، وـكـمـاـ يـجـعـلـ الـحـلـيـ فـيـ
الـنـارـ فـيـؤـخـدـ خـالـصـهـ وـيـتـرـكـ خـبـثـهـ فـيـ النـارـ، فـكـذـلـكـ يـقـبـلـ اللـهـ الـيـقـيـنـ وـيـتـرـكـ الشـكـ^(١).

(١) انظر تفسير الطبرى / ٧ . ٣٧٠

وقال العوفي عن ابن عباس قوله: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالتُ أَوْدِيَةَ بِقَدْرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلَ زِبْدًا رَابِيًّا﴾ يقول: احتمل السيل ما في الوادي من عود ودمنة ﴿وَمَمَا يُوَقْدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾ فهو الذهب والفضة والحلية والمتاع والنحاس وال الحديد، فلنخناس وال الحديد خبث، فجعل الله مثل خبته كزبد الماء، فأما ما ينفع الناس فالذهب والفضة، وأما ما ينفع الأرض فما شربت من الماء فأنبتت، فجعل ذاك مثل العمل الصالح يبقى لأهله، والعمل السيء يضمحل عن أهله، كما يذهب هذا الزبد، وكذلك الهدى والحق جاء من عند الله، فمن عمل بالحق كان له وبقى، كما بقي ما ينفع الناس في الأرض، وكذلك الحديد لا يستطيع أن يعمل منه سكين ولا سيف حتى يدخل في النار، فتأكل خبته، ويخرج جيده فينتفع به، وكذلك يضمحل الباطل، فإذا كان يوم القيمة وأقيم الناس وعرضت الأعمال، فيزيح الباطل ويهلك، وينتفع أهل الحق بالحق^(١)، وهكذا روی في تفسيرها عن مجاهد والحسن البصري وعطاء وقتادة، وغير واحد من السلف والخلف.

وقد ضرب سبحانه وتعالى في أول سورة البقرة للمنافقين مثلين: نارياً ومائياً وهما قوله ﴿مِثْلَهُمْ كَمَنْذِلُ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ [البقرة: ١٧] الآية، ثم قال ﴿أَوْ كَصِيبَ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلْمَاتٍ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ [البقرة: ١٩] الآية، وهكذا ضرب للكافرين في سورة النور مثلين [أحدhem] قوله ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالَهُمْ كَسْرَابٌ﴾ الآية، والسراب إنما يكون في شدة الحر، ولهذا جاء في الصحيحين: فيقال للبيهود يوم القيمة: فما تريدون؟ فيقولون: أي ربنا عطشنا فاسقنا. فيقال: ألا تردون؟ فيردون النار فإذا هي كسراب يحطم بعضها بعضاً^(٢).

ثم قال تعالى في المثل الآخر: ﴿أَوْ كَظِلَّمَاتٍ فِي بَحْرٍ لَجِيٍّ﴾ الآية، وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل غيث أصاب أرضًا، فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجاذب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا، ورعوا، وسقوا، وزرعوا، وأصابت طائفة منها أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني ونفع به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»^(٣) فهذا مثل مائي.

وقال في الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد^(٤): حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معاذ عن همام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مثلي ومثلك كمثل

(١) انظر تفسير الطبرى ٣٧٠ / ٧.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٤، باب ٨، ومسلم في الإيمان حديث ٣٠٢.

(٣) أخرجه البخاري في العلم باب ٢٠، ومسلم في الفضائل حديث ١٥، وأحمد في المسند ٤/ ٣٩٩.

(٤) المسند ٢/ ٣١٢.

رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله، جعل الفراش وهذه الدواب التي يقعن في النار يقعن فيها، وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمون فيها - قال : «فذلكم مثلي ومثلكم، أنا أحذ بحجزكم عن النار هلم عن النار، فتغلبوني فتقتحمون فيها»^(١) وأخر جاه في الصحيحين أيضاً، فهذا مثل ناري .

لِلَّذِينَ أَسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحَسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِبُوا لَهُمْ لَوْأَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلُهُ مَعَهُ لَاقْتَدُوا بِإِيمَانِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحُسَابِ وَمَا وَنَهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ لِأَهَادُهُمْ

يخبر تعالى عن مآل السعداء والأشقياء فقال : «للذين استجابوا لربهم» أي أطاعوا الله ورسوله ، وانقادوا لأوامره ، وصدقوا أخباره الماضية والآتية ، فلهم «الحسنى» وهو الجزاء الحسن ، كقوله تعالى مخبراً عن ذي القرنين أنه قال : «أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسراً» [الكهف : ٨٧-٨٨] ، وقال تعالى : «للذين أحسنوا الحسنى وزيادة» [يونس : ٢٦] .

وقوله : «والذين لم يستجيبوا له» أي لم يطعوا الله ، «لو أن لهم ما في الأرض جميعاً» أي في الدار الآخرة لو أن يمكنهم أن يفتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهباً ومثله معه لا يفتدوا به ، ولكن لا يقبل منهم ، لأنه تعالى لا يقبل منهم يوم القيمة صرفاً ولا عدلاً «أولئك لهم سوء الحساب» أي في الدار الآخرة . أي ينافشون على التغیر^(٢) والقطمير^(٣) ، والجليل والحقير ، ومن نقش الحساب عذب ، ولهذا قال «وماؤهم جهنم وبئس المهداد» .

*** أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ كَمْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَذَكُّرُ أُولُوا الْأَلْبَابُ ***

يقول تعالى لا يستوي من يعلم من الناس أن الذي «أنزل إليك» يا محمد «من ربك» هو الحق الذي لا شك فيه ، ولا مرية ، ولا لبس فيه ، ولا اختلاف فيه ، بل هو كله حق يصدق بعضه بعضاً ، لا يصاد شيء منه شيئاً آخر ، فأخباره كلها حق ، وأوامره ونواهيه عدل ، كما قال تعالى : «وتمنت كلمة ربك صدقأً وعدلاً» [الأنعام : ١١٥] أي صدقأً في الإخبار ، وعدلاً في الطلب ، فلا يستوي من تحقق صدق ما جئت به يا محمد ، ومن هو أعمى لا يهتدى إلى خير ولا يفهمه ، ولو فهمه ما انقاد له ولا صدقه ولا اتبعه كقوله تعالى : «لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون» [الحشر : ٢٠] وقال في هذه الآية الكريمة : «أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى» أي أفهداً كهذا ؟ لا استواء .

(١) أخرج البخاري في الرقاق باب ٦ ، ومسلم في الفضائل حديث ١٧ ، ١٩ .

(٢) التغیر: النكتة التي في النواة .

(٣) القطمير: شق النواة: أي ينافشون في كل الأمور صغیرها وكبیرها .

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَاب﴾ أي إنما يتعظ ويعتبر أولو العقول السليمة الصحيحة، جعلنا الله منهم.

الَّذِينَ يُوْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقضُونَ الْمِيثَاقَ ۚ وَالَّذِينَ يَصْلُوْنَ مَا أَمْرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوْصَلَ وَيَخْشُوْنَ رَبَّهُمْ ۖ وَيَخْافُوْنَ سُوءَ الْحِسَابِ ۚ وَالَّذِينَ صَبَرُوا عَيْنَاهُ وَجْهُ رَبِّهِمْ وَاقَامُوا الصَّلَاةَ وَانْفَقُوا مِمَّا رَزَقَنَهُمْ سِرًا وَعَلَانِيَةً ۖ وَيَدْرُوْنَ بِالْحَسَنَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَقْبَى الدَّارِ ۚ جَنَّاتٌ عِدْنٌ يَدْعُلُوْنَهَا وَمَنْ صَلَّى مِنْ مَا يَأْتِيهِمْ وَأَزْوَجَهُمْ ۖ وَدَرِيْتَهُمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُوْنَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۚ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنَعَمْ عَقْبَى الدَّارِ ۚ

يقول تعالى مخبراً عن من اتصف بهذه الصفات الحميدة بأن لهم عقبى الدار، وهي العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة: ﴿الَّذِينَ يُوْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ وليسوا كالمنافقين الذين إذا عاهد أحدهم غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا حدث كذب، وإذا اثمن خان ﴿وَالَّذِينَ يَصْلُوْنَ مَا أَمْرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوْصَلَ﴾ من صلة الأرحام والإحسان إليهم، وإلى القراء والمحاويخ، ويذل المعروف، ﴿وَيَخْشُوْنَ رَبِّهِمْ﴾ أي فيما يأتون وما يذرون من الأعمال، ويراقبون الله في ذلك، ويختلفون سوء الحساب في الدار الآخرة، فلهذا أمرهم على السداد والاستقامة في جميع حركاتهم وسكناتهم، وجميع أحوالهم القاصرة والمتعدية.

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا عَيْنَاهُ وَجْهَ رَبِّهِمْ﴾ أي عن المحارم والمآثم، ففطموا أنفسهم عنها الله عز وجل ابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ بحدودها وموقتها وركوعها وسجودها وخشعها، على الوجه الشرعي المرضي ﴿وَانْفَقُوا مِمَّا رَزَقَنَاهُمْ﴾ أي على الذين يجب عليهم الإنفاق لهم من زوجات وقرابات وأجانب من فقراء ومحاويخ ومساكين ﴿سِرًا وَعَلَانِيَةً﴾ أي في السر والجهر، لم يمنعهم من ذلك حال من الأحوال، آناء الليل وأطراف النهار ﴿وَيَدْرُوْنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيَّةَ﴾ أي يدفعون القبيح بالحسن، فإذا أذاهم أحد قابلوه بالجميل صبراً واحتمالاً وصفحاً وعفواً، كقوله تعالى: ﴿إِذْ دُفِعَ بِالْتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عِدَّةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌ حَمِيمٌ وَمَا يَلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يَلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍ عَظِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤ - ٣٥]، ولهذا قال مخبراً عن هؤلاء السعداء المتصفين بهذه الصفات الحسنة بأن لهم عقبى الدار.

ثم فسر ذلك بقوله: ﴿جَنَّاتٌ عِدْنٌ﴾ والعدن الإقامة، أي جنات إقامة يخلدون فيها، وعن عبد الله بن عمرو أنه قال: إن في الجنة قسراً يقال له عدن، حوله البروج والمروج، فيه خمسة آلاف باب، على كل باب خمسة آلاف حبرة، لا يدخله إلا نبي أو صديق أو شهيد.

وقال الضحاك في قوله: ﴿جَنَّاتٌ عِدْنٌ﴾: مدينة الجنة، فيها الرسل والأنباء والشهداء وأئمة الهدى، والناس حولهم بعد الجنات حولها، رواهـما ابن جرير^(١).

(١) انظر تفسير الطبرى ٣٧٦ / ٧، ٣٧٧.

وقوله : «ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم» أي يجمع بينهم وبين أحبابهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء ، ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين ، لتقر أعينهم بهم حتى إنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى امتناناً من الله وإحساناً من غير تقىص للأعلى عن درجته ، كما قال تعالى : «والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان الحقنا بهم ذريتهم» [طور : ٢١] الآية .

وقوله «والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبي الدار» أي وتدخل عليهم الملائكة من هنها ومن هنها للتهنئة بدخول الجنة ، فعند دخولهم إليها تقد عليهم الملائكة مسلمين ، مهتئين لهم بما حصل لهم من التقريب والإنعام والإقامة في دار السلام في جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام .

وقال الإمام أحمد^(١) رحمة الله : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثني سعيد بن أبي أيوب ، حدثنا معروف بن سويد الحراني عن أبي عشانة المعاافري ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : «هل تدرؤن أول من يدخل الجنة من خلق الله؟» قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : «أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون الذين تسد بهم الشغور ، وتتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم و حاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء ، فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته : ائتهم فحيوهم ، فتقول الملائكة : نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك ، أفتأننا أن نأتي هؤلاء وسلم عليهم؟» فيقول : إنهم كانوا عباداً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ، وتسد بهم الشغور ، وتتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم و حاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء - قال - : فتأتهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبي الدار» .

رواه أبو القاسم الطبراني عن أحمد بن رشدين ، عن أحمد بن صالح ، عن عبد الله بن وهب ، عن عمرو بن الحارث ، عن أبي عشانة سمع عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال : «أول ثلاثة يدخلون الجنة فقراء المهاجرين الذين تتقى بهم المكاره ، وإذا أمروا سمعوا وأطاعوا ، وإن كانت لرجل منهم حاجة إلى سلطان لم تقض حتى يموت وهي في صدره ، وإن الله يدعوه يوم القيمة الجنة فتأتي بزخرفها وزيتها ، فيقول : أين عبادي الذين قاتلوا في سبيلي ، وأوذوا في سبيلي ، وجاهدوا في سبيلي ؟ ادخلوا الجنة بغير عذاب ولا حساب . وتأتي الملائكة فيسجدون ويقولون : ربنا نحن نسبح بحمدك الليل والنهار ، ونقدس لك من هؤلاء الذين أثرتهم علينا ؟ فيقول رب عز وجل : هؤلاء عبادي الذين جاهدوا في سبيلي ، وأوذوا في سبيلي ، فتدخل عليهم الملائكة من كل باب : سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبي الدار» .

وقال عبد الله بن المبارك عن بقية بن الوليد : حدثنا أرطاة بن المنذر ، سمعت رجلاً من

مشيخة الجندي قال له أبو الحجاج يقول: جلست إلى أبي أمامة فقال: إن المؤمن ليكون متكتناً على أريكته إذا دخل الجنة، وعنده سماطان من خدم، وعند طرف السماطين باب مبوب، فيقبل الملك فيستأذن فيقول للذي يليه ملك يستأذن، ويقول الذي يليه للذي يليه ملك يستأذن، حتى يبلغ المؤمن فيقول: ائذنا، فيقول أقربهم للمؤمن: ائذنا له، ويقول الذي يليه للذي يليه: ائذنا له، حتى يبلغ أ أصحابه الذي عند الباب، فيفتح له، فيدخل فسلم ثم ينصرف، رواه ابن جرير^(١). رواه ابن أبي حاتم من حديث إسماعيل بن عياش، عن أرطاة بن المنذر عن أبي الحجاج يوسف الإلهاني قال: سمعت أبي أمامة ذكر نحوه. وقد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ كان يزور قبور الشهداء في رأس كل حول فيقول لهم: «سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار» وكذلك أبو بكر وعمر وعثمان.

وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمْرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَقْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ عَمَّا يَرْجُونَ

هذا حال الأشقياء وصفاتهم، وذكر ما لهم في الآخرة، ومصيرهم إلى خلاف ما صار إليه المؤمنون، كما أنهم اتصفوا بخلاف صفاتهم في الدنيا، فأولئك كانوا يوفون بعهد الله، ويصلون ما أمر الله به أن يصل، وهو لاءٌ ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يصل ويفسدون في الأرض^(٢) كما ثبت في الحديث «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»^(٣). وفي رواية «إذا عاهد غدر وإذا خاصل فجر» ولهذا قال «أولئك لهم اللعنة» وهي الإبعاد عن الرحمة، «ولهم سوء الدار» وهي سوء العاقبة والمال، «ومأواهم جهنم وبئس المهداد».

وقال أبو العالية في قوله تعالى: «والذين ينقضون عهد الله» الآية، قال: هي ست خصال في المنافقين، إذا كان فيهم الظيرة على الناس أظهروا هذه الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائتمنا خانوا، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يصل، وأفسدوا في الأرض، وإذا كانت الظاهرة عليهم أظهروا الثلاث الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا اؤتمنوا خانوا.

اللَّهُ يَكْوُنُ الْرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتْنَعٌ

يدرك تعالى أنه هو الذي يوسّع الرزق على من يشاء، ويقترب على من يشاء، لما له في ذلك

(١) تفسير الطبرى ٧/٣٧٧.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان باب ٢٤، ومسلم في الإيمان حديث ١٠٨.

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان باب ٢٤، ومسلم في الإيمان حديث ١٠٦.

من الحكمة والعدل، وفرح هؤلاء الكفار بما أوتوا من الحياة الدنيا استدراجا لهم وإمهالا، كما قال: «أي حسبيون أنما ندمهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون» [المؤمنون: ٥٥ - ٥٦] ثم حقر الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما ادخله تعالى لعباده المؤمنين في الدار الآخرة، فقال: «وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع»، كما قال: «قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا ظلمون فتيلًا» [النساء: ٧٧]. وقال: «بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى» [الأعلى: ١٦ - ١٧].

وقال الإمام أحمد^(١): حدثنا وكيع ويعيني بن سعيد، قالا: حدثنا إسماعيل بن أبي خالد عن قيس، عن المستورد أخيبني فهر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم، فلينظر بم ترجع» وأشار بالسبابة، رواه مسلم^(٢) في صحيحه. وفي الحديث الآخر أن رسول الله ﷺ من بجدي أسك ميت، والأسك الصغير الأذنين، فقال: «والله للدنيا أهون على الله من هذا على أهله حين ألقوه»^(٣).

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَا يُبَشِّرُهُ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضْلِلُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْشَأَ
الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطَمِّنُ قُلُوبُهُمْ يَذِكِّرُ اللَّهُ أَلَا يَذِكِّرُ اللَّهُ تَطْمِئْنُ الْقُلُوبُ
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا أَصْبَحَتْ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَقَابِ

يخبر تعالى عن قيل المشركين «لولا» أي هلا «أنزل عليه آية من ربها»، كقولهم «فليأتنا بآية كما أرسل الأولون» [الأنبياء: ٥]. وقد تقدم الكلام على هذا غير مرة، وأن الله قادر على إجابة ما سألوا، وفي الحديث إن الله أوحى إلى رسوله لما سأله أن يحوال لهم الصفا ذهباً، وأن يجري لهم ينبوعاً، وأن يزيح الجبال من حول مكة، فيصير مكانها مروج وبساتين: إن شئت يا محمد أعطيتهم ذلك، فإن كفروا أذبهم عذاباً لا أذبها أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة، فقال: «بل تفتح لهم باب التوبة والرحمة»^(٤).

ولهذا قال لرسوله: «قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إيه من أهاب» أي هو المضل والهادي سواء بعث الرسول بآية على وفق ما اقترحوا أو لم يجدهم إلى سؤالهم، فإن الهداية والإضلal ليس منوطاً بذلك ولا عدمه، كما قال: «وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون» [يونس: ١٠١] وقال: «إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم» [يونس: ٩٦ - ٩٧] وقال: «ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلهم الموتى

(١) المسند ٤/٢٢٨، ٢٢٩.

(٢) كتاب الجنة حديث ٥٥.

(٣) أخرجه مسلم في الزهد حديث ٢، ومالك في الطهارة حديث ٧٣، وأحمد في المسند ٣/٣٦٥.

(٤) أخرجه أحمد في المسند ١/٢٤٢.

وَحَشِّرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يشاءُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ» [الأنعام: ١١]، ولهذا قال: «قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضْلِلُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن أَنَابَ» أي ويهدى إليه من أناب إلى الله ورجع إليه واستعن به وتضرع لديه «الذِّينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ» أي تطيب وتركت إلى جانب الله، وتسكن عند ذكره، وترضى به مولى ونصيراً، ولهذا قال: «أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُ الْقُلُوبُ» أي هو حقيقة بذلك.

وقوله: «الذِّينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طَوْبَى لَهُمْ وَحْسُنَ مَآبَ» قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: فرح وقرة عين. وقال عكرمة: نعم ما لهم. وقال الضحاك: غبطة لهم. وقال إبراهيم النخعي: خير لهم. وقال قتادة: هي كلمة عربية، يقول الرجل: طوبى لك، أي أصبت خيراً. وقال في رواية: طوبى لهم حسني لهم، «وَحْسُنَ مَآبَ» أي مرجع، وهذه الأقوال شيء واحد، لا منافاة بينها. وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس «طوبى لهم» قال: هي أرض الجنة بالحبشية^(١)، وقال سعيد بن مسجوج: طوبى اسم الجنة بالهندية^(٢)، وكذا روى السدي عن عكرمة: طوبى لهم هي الجنة، وبه قال مجاهد. وقال العوفي عن ابن عباس: لما خلق الله الجنة وفرغ منها، قال: «الذِّينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طَوْبَى لَهُمْ وَحْسُنَ مَآبَ» وذلك حين أعجبته^(٣).

وقال ابن جرير^(٤): حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب عن جعفر، عن شهر بن حوشب قال: طوبى شجرة في الجنة، كل شجر الجنة منها، أغصانها من وراء سور الجنة، وهكذا روي عن أبي هريرة وابن عباس ومجايل بن سليمان وأبي إسحاق السباعي، وغير واحد من السلف أن طوبى شجرة في الجنة في كل دار منها غصن منها. وذكر بعضهم أن الرحمن تبارك وتعالى غرسها بيده من حبة لؤلؤة، وأمرها أن تمتد، فامتدت إلى حيث يشاء الله تبارك وتعالى، وخرجت من أصلها ينابيع أنهار الجنة من عسل وخمر وماء ولبن. وقد قال عبد الله بن وهب: حدثنا عمرو بن الحارث أن دراجا أبا السمع حدثه عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري، مرفوعاً «طوبى شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها»^(٥).

وقال الإمام أحمد^(٦): حدثنا حسن بن موسى، سمعت عبد الله بن لهيعة، حدثنا دراج أبو السمح أن أبي الهيثم حدثه عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ أن رجلاً قال:

(١) انظر تفسير الطبرى ٣٨٢/٧.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٣٨٢/٧. وفيه: سعيد بن مشجوج، بدل: سعيد بن مسجوج.

(٣) انظر تفسير الطبرى ٣٨٢/٧.

(٤) تفسير الطبرى ٣٨٢/٧.

(٥) انظر تفسير الطبرى ٣٨٤/٧.

(٦) المستند ٧١/٣.

يا رسول الله : طوبي لمن رأك وأمن بك ، قال : « طوبي لمن رأني وأمن بي ، وطوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني » قال له رجل : وما طوبى ؟ قال : « شجرة في الجنة مسيرتها مائة عام ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها ». وروى البخاري ومسلم جمِيعاً عن إسحاق بن راهويه ، عن مغيرة المخزومي عن وهيب عن أبي حازم ، عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها »^(١) قال : فحدثت به النعمان بن أبي عياش الزرقاني ، فقال : حدثني أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : « إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواب المضمير السريع مائة عام ما يقطعها »^(٢) .

وفي صحيح البخاري من حديث يزيد بن زريع عن سعيد ، عن قنادة ، عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ في قول الله تعالى : « **وَظَلَّ مَمْدُودٌ** » قال : « في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها »^(٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سريج ، حدثنا فليح عن هلال بن علي ، عن عبد الرحمن بن أبي عمرة ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة ، اقرأوا إن شئتم **وَظَلَّ مَمْدُودٌ** »^(٤) [الواقعة : ٣٠] . أخرجه في الصحيحين .

وفي لفظ لأحمد^(٥) أيضاً : حدثنا محمد بن جعفر وحجاج ، قالا : حدثنا شعبة : سمعت أبا الضحاك يحدث عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها سبعين - أو مائة سنة - هي شجرة الخلد ». وقال محمد بن إسحاق عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير ، عن أبيه ، عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت : سمعت رسول الله ﷺ ذكر سدرة المنتهى ، فقال : « يسير في ظل الغصن منها الراكب مائة سنة - أو قال - يستظل في الفن^(٦) منها مائة راكب ، فيها فراش^(٧) الذهب كأن ثمرها القلال »^(٨) رواه الترمذى^(٩) .

وقال إسماعيل بن عياش عن سعيد بن يوسف ، عن يحيى بن أبي كثير ، عن أبي سلام الأسود

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ٨ ، وتفسير سورة ٥٦ ، باب ١ ، ومسلم في الجنة حديث ٧.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق باب ٥١ ، ومسلم في الجنة حديث ٨.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ٨ ، وتفسير سورة ٥٦ ، باب ١ .

(٤) أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ٨ ، وتفسير سورة ٥٦ ، في الترجمة ، وأحمد في المسند ٣/١٦٤ .

(٥) المستند ٤٥٥/٢ .

(٦) الفن : الغصن .

(٧) الفراش : واحدة فراشة ، وهي التي تطير وتتهافت في السراح .

(٨) القلال : جمع قلة : وهي إناء للشرب ، كالجرة الكبيرة .

(٩) كتاب الجنة باب ٩ .

قال : سمعت أباً أمامة الباهلي قال : قال رسول الله ﷺ : «ما منكم من أحد يدخل الجنة إلا انطلق به إلى طوبى ، ففتح له أكمامها فإذا خذ من أي ذلك شاء ، إن شاء أبيض وإن شاء أحمر ، وإن شاء أصفر ، وإن شاء أسود مثل شقائق النعمان وأرق وأحسن» .

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير^(١) : حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، حدثنا محمد بن ثور عن معمر ، عن أشعث بن عبد الله ، عن شهر بن حوشب ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : طوبى شجرة في الجنة ، يقول الله لها : تفتقي لبعدي عما شاء ، فتفتق له عن الخيل بسروجها ولجمها ، وعن الإبل بأزمتها ، وعما شاء من الكسوة .

وقد روى ابن جرير^(٢) عن وهب بن منبه ه هنا أثراً غريباً عجياً ، قال وهب رحمه الله : إن في الجنة شجرة يقال لها طوبى ، يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها ، زهرها رياط^(٣) ، وورقها برود^(٤) ، وقضبانها عنبر ، وبطحاؤها يا قوت ، وترابها كافور ، ووحلها مسك ، يخرج من أصلها أنوار الخمر واللبن والعسل ، وهي مجلس لأهل الجنة ، في بينما هم في مجلسهم إذ أتتهم ملائكة من ربهم يقودون نجباً مزمومة ، بسلام من ذهب ، وجوهها كالصابيح حسناً ، ووبرها كخز المِرْعَى^(٥) من لينه ، عليها رحال ألواحها من ياقوت ، ودفوفها من ذهب ، وثيابها من سندس واستبرق ، فينيخونها يقولون : إن ربنا أرسلنا إليكم لتزوروه وتسلموا عليه . قال : فيركبونها فهي أسرع من الطائر ، وأوطأ من الفراش ، نجباً من غير مهنة^(٦) ، يسير الرجل إلى جنب أخيه وهو يكلمه ويناجيه ، لا تصيب أذن راحلة منها أذن الأخرى ، ولا يترك رحلة برك الأخرى ، حتى إن الشجرة لتنتحى عن طريقهم لثلا نفرق بين الرجل وأخيه .

قال : فـيأتـون إـلـى الرـحـمـن الرـحـيم فـيـسـفـر لـهـم عـن وجـهـهـ الـكـرـيم حـتـى يـنـظـرـوـا إـلـيـهـ ، فـإـذـا رـأـوـهـ قالـواـ : اللـهـمـ أـنـتـ السـلـامـ وـمـنـكـ السـلـامـ وـحـقـ لـكـ الـجـلـالـ وـالـإـكـرـامـ ، قالـ : فـيـقـولـ تـعـالـى عـنـ ذـلـكـ : أـنـاـ السـلـامـ وـمـنـيـ السـلـامـ وـعـلـيـكـ حـقـتـ رـحـمـتـيـ وـمـحـبـتـيـ ، مـرـحـباـ بـعـبـادـيـ الـذـينـ خـشـونـيـ بـغـيـبـ وأـطـاعـواـ أـمـرـيـ ، قالـ : فـيـقـولـونـ : رـبـنـاـ لـمـ نـعـبـدـكـ حـقـ عـبـادـتـكـ ، وـلـمـ نـقـدـرـكـ حـقـ قـدـرـكـ ، فـأـذـنـ لـنـاـ فـيـ السـجـودـ قـدـامـكـ . قالـ : فـيـقـولـ اللهـ : إـنـهـ لـيـسـتـ بـدـارـ نـصـبـ وـلـاـ عـبـادـةـ ، وـلـكـنـهـ دـارـ مـلـكـ وـنـعـيمـ ، وـإـنـيـ قـدـ رـفـعـتـ عـنـكـمـ نـصـبـ الـعـبـادـةـ ، فـسـلـوـنـيـ مـاـ شـئـتـ ، فـإـنـ لـكـ لـكـ رـجـلـ مـنـكـ أـمـنـيـتـهـ ، فـيـسـأـلـونـهـ

(١) تفسير الطبرى / ٧ / ٣٨٢.

(٢) تفسير الطبرى / ٧ / ٣٨٣.

(٣) الرياط : جمع ريطة ، وهي كل ثوب لين رقيق .

(٤) البرود : جمع برد ، وهو الموسى من الثياب .

(٥) المِرْعَى ، بكسر الميم ، وسكون الراء ، وكسر العين ، وفتح الزاي المتشدة : هو الزغب الذي تحت شعر العز ، وهو ألين الصوف .

(٦) المَهَنَةَ : جمع ماهن ، وهو الخادم .

حتى إن أقصرهم أمينة ليقول: ربى تنافس أهل الدنيا في دنياهم فتضايقوها فيها رب فاتني مثل كل شيء كانوا فيها من يوم خلقتها إلى أن انتهت الدنيا، فيقول الله تعالى: لقد قصرت بك أمينتك، ولقد سألت دون منزلتك، هذا لك مني، وسأتحفوك بمنزلتي لأنه ليس في عطائي نك و لا تصريد^(١).

قال: ثم يقول: اعرضوا على عبادي ما لم يبلغ أماناتهم، ولم يخطر لهم على بال، قال: فيعرضون عليهم حتى تضرر بهم أماناتهم التي في أنفسهم، فيكون فيما يعرضون عليهم براذين مقربة، على كل أربعة منها سرير من ياقوتة واحدة، على كل سرير منها قبة من ذهب، مفرغة في كل قبة منها فرش من فرش الجنة، متظاهرة في كل قبة منها جاريتان من الحور العين، على كل جارية منهن ثوبان من ثياب الجنة، وليس في الجنة لون إلا وهو فيها، ولا ريح ولا طيب إلا قد عبق بهما، ينفذ ضوء وجوههما غلظ القبة حتى يظن من يراهما أنهما دون القبة، يرى مخهما من فوق سوqeهما كالسلك الأبيض في ياقوتة حمراء يريان له من الفضل على صاحبته كفضل الشمس على الحجارة أو أفضل، ويرى هو لهما مثل ذلك ويدخل إليهما فيحيانه، ويقبلانه، ويتعلقان به، ويقولان له: والله ما ظننا أن الله يخلق مثلك ثم يأمر الله تعالى الملائكة فيسرون بهم صفاً في الجنة حتى ينتهي كل رجل منهم إلى منزلته التي أعددت له.

وقد روى هذا الأثر ابن أبي حاتم بسنده عن وهب بن منبه، وزاد: فانظروا إلى موهوب ربكم الذي وهب لكم، فإذا هو بباب في الرفيق الأعلى، وغرف مبنية من الدر والمرجان، أبوابها من ذهب، وسررها من ياقوت، وفرشها من سندس واستبرق، ومنابرها من نور يفور من أبوابها، وعراضها نور مثل شعاع الشمس عنده مثل الكوكب الدرى في النهار المضيء، وإذا بقصور شامخة في أعلى عاليين من الياقوت يزهو نورها، فلو لا أنه مسخر إذا لالتمع الأ بصار، فما كان من تلك القصور من الياقوت الأبيض فهو مفروش بالحرير الأبيض، وما كان فيها من الياقوت الأحمر فهو مفروش بالعقبري الأحمر، وما كان فيها من الياقوت الأخضر فهو مفروش بالستاند الأخضر، وما كان فيها من الياقوت الأصفر فهو مفروش بالأرجوان الأصفر، مبوية بالزمرد الأخضر والذهب الأحمر والفضة البيضاء، قوائمه وأركانها من الجوهر، وشرفها قباب من لؤلؤ، وبروجها غرف من المرجان.

فلما انصرفوا إلى ما أعطاهم ربهم، قربت لهم براذين من ياقوت أبيض، مفتوحة فيها الروح، تجنباً للولدان المخلدون بيد كل وليد منهم حكمة^(٢) برذون من تلك البراذين، ولجمها وأعنتها من فضة بيضاء منظومة بالدر والياقوت، سروجها سرر موضوعة^(٣) مفروشة بالستاند والاستبرق، فانطلقت بهم تلك

(١) التصريد: تقليل العطاء.

(٢) الحكمة: ما أحاط بحنكتي الفرس من لجامه.

(٣) السرر الموضوعة: أي المنسوجة بالدر والجواهر.

البراذين ترف^(١) بهم ببطن رياض الجنة، فلما انتهوا إلى منازلهم، وجدوا الملائكة قعوداً على منابر من نور ينتظرونهم ليزوروهم ويصافحوهم ويهتئونهم كرامة ربهم، فلما دخلوا قصورهم وجدوا فيها جميع ما تطاول به عليهم، وما سألوا وتمنا، وإذا على باب كل قصر من تلك القصور أربعة جنان: جنتان ذوات أفنان، وجنتان مدهامتان، وفيهما عينان نضاختان، وفيهما من كل فاكهة زوجان، وحور مقصورات في الخيام، فلما تبوؤوا منازلهم واستقرروا قرارهم، قال لهم ربهم: هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟

قالوا: نعم وربنا. قال: هل رضيتم ثواب ربكم؟ قالوا: ربنا رضينا فارض عننا. قال: برضاي عنكم حلتكم داري، ونظرتم إلى وجهي، وصافحتكم ملائكتي، فهنيئاً لكم، «عطاء غير مجنوذ» ليس فيه تنعيم ولا تصريح، فعند ذلك قالوا: الحمد لله الذي أذهب عننا الحزن، وأدخلنا دار المقامات من فضله، لا يمسنا فيها نصب، ولا يمسنا فيها لغوب، إن ربنا لغفور شكور، وهذا سياق غريب، وأثر عجيب، ولبعضه شواهد.

ففي الصحيحين أن الله تعالى يقول لذلك الرجل يكون آخر أهل الجنة دخولاً الجنة: تمن، فيتمنى، حتى إذا انتهت به الأمانة يقول الله تعالى: تمن من كذا، وتمن من كذا، يذكره، ثم يقول: ذلك لك وعشرة أمثاله^(٢).

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر، عن رسول الله ﷺ عن الله عز وجل «يا عبادي لو أن أولكم وأخركم وإنكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك من ملكي شيئاً إلا كما ينقص المحيط إذا أدخل في البحر»^(٣). الحديث بطوله، وقال خالد بن معدان: إن في الجنة شجرة يقال لها طوبى، لها ضروع كلها ترضع صبيان أهل الجنة، وإن سقط المرأة يكون في نهر من أنهار الجنة يتقلب فيه حتى تقوم القيمة، فيبعث ابن أربعين سنة، رواه ابن أبي حاتم.

**كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمُّمٌ لَمْ تَنْتَلِوْ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ
قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ**

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد في هذه الأمة (لتتلوا عليهم الذي أوحينا إليك) أي تبلغهم رسالة الله إليهم، كذلك أرسلنا في الأمم الماضية الكافرة بالله، وقد كذب الرسل من قبلك بهم أسوة، وكما أوقتنا بأمسنا ونقمتنا بأولئك، فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم، فإن تكذيبهم لك أشد من تكذيب غيرك من المرسلين، قال الله تعالى: «نَّا لَهُ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْ أُمُّمٍ مِّنْ

(١) ترف بهم: أي تسرع بهم.

(٢) أخرج البخاري في الرقاق باب ٥٢، ومسلم في الإيمان حديث ٢٩٩، ٣٠١، ٣٠٩.

(٣) أخرج مسلم في البر حديث ٥٥، وأحمد في المسند ١٦٠ / ٥.

فبلك» [النحل: ٦٣] الآية، وقال تعالى: «ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبيا المرسلين» [الأنعام: ٣٤] أي كف نصرناهم، وجعلنا العاقبة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة.

وقوله: «وَهُمْ يَكْفِرُونَ بِالرَّحْمَنِ» أي هذه الأمة التي بعثناك فيهم يكفرون بالرحمن لا يقرؤن به، لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله بالرحمن الرحيم، ولهذا أنفوا يوم الحديبية أن يكتبوا باسم الله الرحمن الرحيم، وقالوا: ما ندرى ما الرحمن الرحيم، قاله قتادة، والحديث في صحيح البخاري. وقد قال الله تعالى: «قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُ فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحَسَنَىٰ». وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَحَبَّ الْأَسْمَاءِ إِلَيْهِ اللَّهُ تَعَالَى عَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ»^(١).

﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أَيْ هَذَا الَّذِي تَكْفُرُونَ بِهِ، أَنَا مُؤْمِنٌ بِهِ مُعْتَرِفٌ، مُقرٌ لَهُ بِالرَّبُوبِيَّةِ وَالْأَلْوَهِيَّةِ، هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿عَلَيْهِ تَوْكِلْتُ﴾ أَيْ فِي جُمِيعِ أُمُورِي، ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابٌ﴾ أَيْ إِلَيْهِ أَرْجِعُ وَأَنْبِيبُ، فَإِنَّهُ لَا يَسْتَحْقُ ذَلِكَ أَحَد سَواهُ.

وَلَوْ أَنَّ قُرْئَةً أَنَا سِيرَتِ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتِ بِهِ الْأَرْضُ أَفَ لَكُمْ بِهِ الْمُوْقَنُ بَلَّ اللَّهُ أَلْأَمْ رَجِيْعًا أَفْلَمْ يَا يَسِّرَّ .
الَّذِينَ أَمْنَوْا أَنَّ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهُدَى النَّاسِ جَمِيعًا وَلَا يَرَأُلُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَصْبِحُوهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً أَفَ
تَحْكُمُ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِي وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلُقُ الْمِيَعَادَ (٢١)

يقول تعالى مادحًا للقرآن الذي أنزله على محمد ﷺ ومفضلاً له على سائر الكتب المنزلة قبله «ولو أن قرآناً سيرت به العجائب» أي لو كان في الكتب الماضية كتاب تسير به العجائب عن أماكنها، أو تقطع به الأرض وتنشق، أو تكلم به الموتى في قبورهم، لكان هذا القرآن هو المتصل بذلك دون غيره، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنسان والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله، ولا بسورة من مثله، ومع هذا فهو لاء المشركون كافرون به، جاحدون له «بل لله الأمر جميـعاً» أي مرجع الأمور كلها إلى الله عز وجل، ما شاء الله كان، وما لم ينشأ لم يكن، ومن يضل الله فلا هادي له، ومن يهد الله فما له من مفضل، وقد يطلق اسم القرآن على كل من الكتب المتقدمة، لأنه مشتق من الجميع.

قال الإمام أحمد^(٢): حديث عبد الرزاق، حديث عمر عن همام بن منبه. قال: هذا ما حديث أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «خففت على داود القراءة فكان يأمر بذاته أن تسرج، فكان يقرأ القرآن من قبل أن تسرج ذاته، وكان لا يأكل إلا من عمل يديه» انفرد

(١) آخرجه مسلم في الأدب حديث ٢.

(٢) . المتن / ٣١٤

بإخراجه البخاري^(١). والمراد بالقرآن هو الربور.

وقوله «أَفَلَمْ يَأْسِ الَّذِينَ آمَنُوا» أي من إيمان جميع الخلق ويعلموا، أو يتبيّنوا «أَن لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهُدِي النَّاسُ جَمِيعاً» فإنه ليس ثم حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجع في العقول والآنفوس. من هذا القرآن الذي لو أنزله الله على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله. وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقُدِّ أُوتِيَ مَا آمَنَ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيْيَ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢)، معناه أن معجزة كلنبي انقرضت بموته، وهذا القرآن حجة باقية على الآباء لا تنقضي عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد ولا يشبع منه العلماء هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضلله الله.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا منجات بن الحارث، أنبأنا بشر بن عمارة، حدثنا عمر بن حسان عن عطية العوفي قال: قلت له: «وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سَيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ» الآية، قالوا لمحمد ﷺ: لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع، فنحرث فيها، أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالرياح، أو أحياتنا الموتى كما كان عيسى يحيي الموتى لقومه، فأنزل الله هذه الآية، قال: قلت: هل تروون هذا الحديث عن أحد من أصحاب النبي ﷺ قال: نعم عن أبي سعيد عن النبي ﷺ، وكذا روى ابن عباس والشعبي وفتادة والثوري وغير واحد في سبب نزول هذه الآية، والله أعلم. وقال قتادة: لو فعل هذا بقرآن غير قرآنكم لفعل بقرآنكم^(٣).

وقوله «بِلَّهُ الْأَمْرُ جَمِيعاً» قال ابن عباس: أي لا يصنع من ذلك إلا ما شاء ولم يكن ليفعل، رواه ابن إسحاق بسنده عنه، وقاله ابن جرير أيضاً. وقال غير واحد من السلف في قوله «أَفَلَمْ يَأْسِ الَّذِينَ آمَنُوا»: أفلم يعلم الذين آمنوا، وقرأ آخرون: أفلم يتبيّن الذين آمنوا أن لوهشاء الله لهدى الناس جميعاً. وقال أبو العالية: قد يئس الذين آمنوا أن يهدوا، ولو يشاء الله لهدى الناس جميعاً. وقاله: «وَلَا يَرَى الَّذِينَ كَفَرُوا تَصِيبَهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً أَوْ تَحْلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ» أي بسبب تكذيبهم لا تزال القوارع تصيبهم في الدنيا أو تصيب من حولهم، ليتطلعوا ويعتبروا، كما قال تعالى: «وَلَقَدْ أَهْلَكَنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ لِعَلَيْهِمْ يَرْجِعُونَ» [الأحقاف: ٢٧] وقال «أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْصَبُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفْهَمُ الْغَالِبُونَ» [الأنبياء: ٤٤]. قال قتادة عن الحسن «أَوْ تَحْلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ» أي القارعة^(٤) وهذا هو الظاهر من السياق.

(١) كتاب الأنبياء باب .٣٧

(٢) آخرجه البخاري في الاعتصام باب ١ ، وفضائل القرآن باب ١ ، ومسلم في الإيمان حديث . ٢٣٩

(٣) انظر تفسير الطبرى /٧ . ٣٨٧

(٤) انظر تفسير الطبرى /٧ . ٣٩١

وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا المسعودي عن قتادة عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس في قوله : ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَة﴾ قال : سرية ، ﴿أَوْ تَحْلُّ فَرِيقًا مِّنْ دَارِهِم﴾ قال محمد ﷺ : ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ قال «فتح مكة» ، وهكذا قال عكرمة وسعيد بن بير ومجاهد في رواية ، وقال العوفي عن ابن عباس ﴿تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَة﴾ قال : عذاب من السماء ينزل عليهم ﴿أَوْ تَحْلُّ فَرِيقًا مِّنْ دَارِهِم﴾ يعني نزول رسول الله ﷺ بهم وقتاله إياهم ^(١) ، وكذا قال مجاهد وقتادة . وقال عكرمة في رواية عن ابن عباس ﴿قَارِعَة﴾ أي نكبة . وكلهم قال ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ يعني فتح مكة . وقال الحسن البصري : يوم القيمة ، وقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلُفُ الْمِيعَادَ﴾ أي لا ينقض وعده لرسله بالنصرة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة ﴿فَلَا تَحْسِبُنَّ اللَّهَ مُخْلِفًا وَعْدَهُ رَسُولُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو اِنْتِقَامٍ﴾ [إبراهيم : ٤٧] .

وَلَقَدِ اسْتَهْزَئَ بِرُسُلٍ مِّنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخْذَتْهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابُهُمْ

يقول تعالى مسلياً لرسوله ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه : ﴿وَلَقَدِ اسْتَهْزَئَ بِرُسُلٍ مِّنْ قَبْلِكَ﴾ أي فلك فيهم أسوة ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي أنظرتهم وأجلتهم ، ﴿ثُمَّ أَخْذَتْهُمْ﴾ أخذة رایة ، فكيف بلغك ما صنعت بهم وعاقبتهم وأمليت لهم ، كما قال تعالى : ﴿وَكَأْيُنْ مِّنْ قَرِيْبَةِ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخْذَتْهَا إِلَيَّ الْمَصِيرَ﴾ [الحج : ٤٨] وفي الصحيحين «إن الله ليملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثمقرأ رسول الله ﷺ ^(٢) وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ^(٣) [هود : ١٠٢] .

أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُونُهُمْ أَمْ تَنْسِوْنَهُمْ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ
أَمْ يَظْهِرُ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زِينَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مُكْرِهُمْ وَصَدُّوْا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَأَنَّهُ مِنْ هَادِيْهُ

يقول تعالى : ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي حفيظ عليم رقيب على كل نفس منفوسه يعلم ما يعمل العاملون من خير وشر ، ولا يخفى عليه خافية ^(٤) وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه ^(٥) [يونس : ٦١] ، وقال تعالى : ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرْقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام : ٥٩] ، وقال : ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ
إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقْرِرَهَا وَمُسْتَوْدِعَهَا كُلُّ فِي كِتَابٍ مَبِينٍ﴾ [هود : ٦] ، وقال : ﴿سَوَاء
مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفَفٌ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد : ١٠]
وقال : ﴿يَعْلَمُ السَّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه : ٧] ، وقال : ﴿وَهُوَ مَعْكُمْ أَيْنَ مَا كُتْمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ﴾ [الحديد : ٤] أَفَمَنْ هُوَ كَذُلُكَ كَالْأَصْنَامِ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا ، لَا تَسْمَعُ وَلَا تَبْصِرُ ، وَلَا تَعْقِلُ ،

(١) انظر تفسير الطبرى / ٧ / ٣٩٠ .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ١١ ، باب ٥ ، ومسلم في البر حديث ٦٢ .

ولا تملك نفعاً لأنفسها ولا لعابديها، ولا كشف ضر عنها ولا عن عابديها؟

وتحذف هذا الجواب اكتفاء بدلالة السياق عليه وهو قوله: «وَجَعَلُوا اللَّهَ شُرَكَاءَ» أي عبدوها معه من أصنام وأنداد وأوثان «قُلْ سَمُونِهِمْ» أي أعلمونا بهم، واكتشفوا عنهم حتى يعرفوا، فإنهم لا حقيقة لهم، ولهذا قال: «أَمْ تَبْنُؤُنَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ» أي لا وجود له، لأنه لو كان له وجود في الأرض لعلمه، لأنه لا تخفي عليه خافية «أَمْ بَظَاهِرُ مِنَ الْقَوْلِ» قال مجاهد: بظن من القول. وقال الضحاك وقتادة: بباطل من القول، أي إنما عبدتم هذه الأصنام بظن منكم أنها تنفع وتضر وسميتوها آلهة «إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيتُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَبَعُونَ إِلَّا الظُّنُونَ وَمَا تَهْوِي النُّفُوسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ بِلِ زَينَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ» [النجم: ٢٣] قال مجاهد: قولهم أي ما هم عليه من الضلال والدعوة إليه آباء الليل وأطراف النهار كقوله تعالى: «وَقَيْضَنَا لَهُمْ قُرْنَاءَ فَزَيْنَوْا لَهُمْ» [فصلت: ٢٥] الآية، «وَصَدُّوْا عَنِ السَّبِيلِ» من قرأها بفتح الصاد معناه أنه لما زين لهم ما هم فيه، وأنه حق دعوا إليه، وصدوا الناس عن اتباع طريق الرسل، ومن قرأها بالضم أي بما زين لهم من صحة ما هم عليه، صدوا به عن سبيل الله، ولهذا قال: «وَمَنْ يَضْلِلَ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادِ» كما قال «وَمَنْ يَرِدَ اللَّهُ فَتَتَّهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً» [المائدة: ٤١] وقال «إِنْ تَحْرِصَ عَلَىٰ هَدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يَضْلِلُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ» [النحل: ٣٧].

لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَاٰ وَلَعَذَابٌ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا هُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍِ ﴿١﴾ **مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ لَا يَجِدُونَ بَعْدَهَا أَنَّهُنَّ أَكُلُّهَا دَائِمٌ وَرَطِلُهَا تِلْكَ عَقْبَى الَّذِينَ أَتَقْوَى وَعَقْبَى الْكَافِرِينَ** ﴿٢﴾ **النَّارُ** ﴿٣﴾

ذكر تعالى عقاب الكفار وثواب الأبرار، فقال بعد إخباره عن حال المشركين وما هم عليه من الكفر والشرك «لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَاٰ» أي بأيدي المؤمنين قتلاً وأسراً، «وَلَعَذَابٌ الْآخِرَةِ» أي المدخر مع هذا الخزي في الدنيا «أشق» أي من هذا بكثير، كما قال رسول الله ﷺ للمتلاغعين: «إِنْ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهُونُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ»^(١) وهو كما قال صلوات الله وسلامه عليه، فإن عذاب الدنيا له انقضاء، وذاك دائمأ أبداً في نار هي بالنسبة إلى هذه سبعون ضعفاً، ووثاق لا يتصور كثافته وشدته، كما قال تعالى: «فَيَوْمَنِذْ لَا يَعْذَبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ وَلَا يَوْثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ» [الفجر: ٢٦ - ٢٥].

وقال تعالى: «وَأَعْنَدْنَا لِمَنْ كَذَبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغْيِيْظًا وَزَفِيرًا إِذَا أَلْقَوْا مِنْهَا مَكَانًا ضِيقًا مُقْرَنِينَ دَعَا هُنَاكَ ثُبُورًا لَا تَدْعُو الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا قَلْ أَذْلَكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخَلِدِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا» [الفرقان: ١١ - ١٢]

(١) أخرجه مسلم في اللعان حديث ٤، وأبو داود في الطلاق باب . ٢٧

[١٥]، ولهذا قرن هذا بقوله: «مثـل الجنة التي وعد المتقون» أي صفتـها ونعتـها «تجـري من تحتـها الأنـهـار» أي سـارـحة في أرجـائـها وجـوانـبـها، وحيـث شـاء أهـلـها يـفـجـرـونـها تـفـجيـراً، أي يـصـرـفـونـها كـيفـ شـاؤـوا وأـينـ شـاؤـوا، كـقولـه: «مثـل الجنة التي وعد المتقـونـ فيها أنـهـارـ من مـاءـ غيرـ آسـنـ وأنـهـارـ من لـبـنـ لمـ يتـغـيرـ طـعـمـهـ وأنـهـارـ من خـمـرـ لـذـةـ للـشـارـبـينـ وأنـهـارـ من عـسلـ مـصـفـيـ وـلـهـمـ فـيهـاـ منـ كـلـ الشـمـراتـ وـمـغـفـرـةـ» [محمد: ١٥] الآية.

وقـولـه: «أـكـلـهاـ دـائـمـ وـظـلـلـهاـ» أي فـيهـاـ الفـواـكهـ وـالـمـطـاعـمـ وـالـمـشـارـبـ لـاـ انـقـطـاعـ وـلـاـ فـنـاءـ، وـفـيـ الصـحـيـحـينـ مـنـ حـدـيـثـ اـبـنـ عـبـاسـ فـيـ صـلـاـةـ الـكـسـوـفـ، وـفـيـهـ قـالـوـاـ: يـاـ رـسـوـلـ اللهـ رـأـيـكـاـ تـنـاـولـتـ شـيـئـاـ فـيـ مـقـامـ هـذـاـ، ثـمـ رـأـيـكـ تـكـعـكـعـتـ^(١)، فـقـالـ: «إـنـيـ رـأـيـتـ الجـنـةـ - أوـ أـرـىـتـ الجـنـةـ - فـتـنـاـولـتـ مـنـهـاـ عـنـقـوـداـ، وـلـوـ أـخـذـتـهـ لـأـكـلـتـ مـنـهـ ماـ بـقـيـتـ الدـنـيـاـ»^(٢).

وقـالـ الحـافـظـ أـبـوـ يـعـلـىـ: حـدـثـنـاـ أـبـوـ خـيـثـمـةـ، حـدـثـنـاـ عـبـدـ اللهـ بـنـ جـعـفـرـ، حـدـثـنـاـ عـبـدـ اللهـ، حـدـثـنـاـ أـبـوـ عـقـيلـ عنـ جـابـرـ قـالـ: بـيـنـمـاـ نـحـنـ فـيـ صـلـاـةـ الـظـهـرـ إـذـ تـقـدـمـ رـسـوـلـ اللهـ ﷺ فـتـقـدـمـنـاـ، ثـمـ تـنـاـولـ شـيـئـاـ لـيـأـخـذـهـ ثـمـ تـأـخـرـ، فـلـمـ قـضـىـ الصـلـاـةـ، قـالـ لـهـ أـبـيـ بـنـ كـعـبـ: يـاـ رـسـوـلـ اللهـ، صـنـعـتـ الـيـوـمـ فـيـ الصـلـاـةـ شـيـئـاـ مـاـ رـأـيـكـ كـنـتـ تـصـنـعـهـ، فـقـالـ: «إـنـيـ عـرـضـتـ عـلـيـ الـجـنـةـ وـمـاـ فـيهـاـ مـنـ الزـهـرـةـ وـالـنـضـرـةـ، فـتـنـاـولـتـ مـنـهـاـ قـطـفـاـ مـنـ عـنـبـ لـأـتـيـكـ بـهـ، فـحـيـلـ بـيـنـيـ وـبـيـنـهـ، وـلـوـ أـتـيـتـكـ بـهـ لـأـكـلـ مـنـهـ مـنـ بـيـنـ السـمـاءـ وـالـأـرـضـ لـاـ يـنـقـصـونـهـ»^(٣). وـرـوـيـ مـسـلـمـ مـنـ حـدـيـثـ أـبـيـ الزـيـرـ عنـ جـابـرـ شـاهـدـاـ بـعـضـهـ.

وـعـنـ عـتـبـةـ بـنـ عـبـدـ السـلـمـيـ أـنـ أـعـرـأـيـاـ سـأـلـ النـبـيـ ﷺ عـنـ الـجـنـةـ، فـقـالـ: فـيـهـاـ عـنـبـ؟ فـقـالـ: «نـعـمـ». قـالـ: فـمـاعـظـمـ الـعـنـقـوـدـ؟ فـقـالـ: «مـسـيـرـةـ شـهـرـ لـلـغـرـابـ الـأـبـقـعـ وـلـاـ يـفـتـرـ»، رـوـاهـ الإـمـامـ أـحـمـدـ^(٤).

وقـالـ الطـبـرـانـيـ: حـدـثـنـاـ مـعـاذـ بـنـ المـشـنـىـ، حـدـثـنـاـ عـلـيـ بـنـ الـمـدـيـنـيـ، حـدـثـنـاـ رـيـحـانـ بـنـ سـعـيدـ عـنـ عـبـادـ بـنـ مـنـصـورـ، عـنـ أـيـوبـ عـنـ أـبـيـ قـلـابـةـ عـنـ أـبـيـ أـسـمـاءـ، عـنـ ثـوـبـانـ قـالـ: قـالـ رـسـوـلـ اللهـ ﷺ: «إـنـ الرـجـلـ إـذـ نـزـعـ ثـمـرـةـ مـنـ الـجـنـةـ عـادـتـ مـكـانـهـ أـخـرـىـ». وـعـنـ جـابـرـ بـنـ عـبـدـ اللهـ قـالـ: قـالـ رـسـوـلـ اللهـ ﷺ: «يـأـكـلـ أـهـلـ الـجـنـةـ وـيـشـرـبـونـ، وـلـاـ يـتـمـخـطـونـ وـلـاـ يـتـغـطـوـنـ، وـلـاـ يـبـولـونـ، طـعـامـهـمـ جـشـاءـ كـرـبـحـ الـمـسـكـ، وـيـلـهـمـونـ التـسـبـيـحـ وـالتـقـدـيسـ كـمـاـ يـلـهـمـونـ النـفـسـ» رـوـاهـ مـسـلـمـ^(٥).

وـرـوـيـ الإـمـامـ أـحـمـدـ وـالـنـسـائـيـ مـنـ حـدـيـثـ الـأـعـمـشـ عـنـ تـمـامـ بـنـ عـقـبةـ، سـمـعـتـ زـيـدـ بـنـ أـرـقـمـ قـالـ: جاءـ رـجـلـ مـنـ أـهـلـ الـكـتـابـ فـقـالـ: يـاـ أـبـاـ الـقـاسـمـ: تـرـعـمـ أـنـ أـهـلـ الـجـنـةـ يـأـكـلـوـنـ وـيـشـرـبـوـنـ؟

(١) تـكـعـكـعـ: أي تـوقفـ وـأـحـجمـ.

(٢) أـخـرـجـهـ الـبـخـارـيـ فـيـ الـأـذـانـ بـابـ ٩١ـ، وـمـسـلـمـ فـيـ الـكـسـوـفـ حـدـيـثـ ١٧ـ، وـأـحـمـدـ فـيـ الـمـسـنـدـ ٢٩٨ـ/١ـ.
٣٥٨ـ.

(٣) أـخـرـجـهـ مـسـلـمـ فـيـ الـكـسـوـفـ حـدـيـثـ ١٨ـ.

(٤) الـمـسـنـدـ ١٨٤ـ/٤ـ.

(٥) كـتابـ الـجـنـةـ حـدـيـثـ ١٥ـ - ١٩ـ.

قال: «نعم، والذى نفس محمد بيده، إن الرجل منهم ليعطى قوة مائة رجل في الأكل والشرب والجماع والشهوة». قال: إن الذى يأكل ويشرب تكون له الحاجة، وليس في الجنة أذى؟ قال: « تكون حاجة أحدهم رشحاً يفيض من جلودهم كريح المسك فيضرم بطنه»^(١) رواه الإمام أحمد والنسيائي.

وقال الحسن بن عرفة: حدثنا خلف بن خليفة عن حميد الأعرج، عن عبد الله بن الحارث، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إنك لتنظر إلى الطير في الجنة، فيخرج بين يديك مشوياً» وجاء في بعض الأحاديث أنه إذا فرغ منه عاد طائراً كما كان بإذن الله تعالى، وقد قال الله تعالى: «وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة» [الواقعة: ٣٢ - ٣٣]، وقال «ودانية عليهم ظلالها وذلت قطوفها تذليلًا» [الإنسان: ١٤] وكذلك ظلها لا يزول ولا يقلص، كما قال تعالى: «والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهر خالدين فيها أبداً لهم فيها أزواج مظہر وندخلهم ظلاً ظليلًا» [النساء: ٥٧].

وقد تقدم في الصحيحين من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب المجد الجواد المضمر السريع في ظلها مائة عام لا يقطعها»^(٢) ثم قرأ «وظل ممدود» وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين صفة الجنة وصفة النار ليرغب في الجنة ويهذر من النار، ولهذا الماذكر صفة الجنة بما ذكر قال بعده: « تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار». كما قال تعالى: «لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون» [الحشر: ٢٠].

وقال بلال بن سعد خطيب دمشق في بعض خطبه: عباد الله، هل جاءكم مخبر يخبركم أن شيئاً من عبادتكم تقبلت منكم، أو أن شيئاً من خطاياكم غفرت لكم؟ «أحسبتكم أنما خلقناكم عباد وأنكم إلينا لا ترجعون»، والله لو عجل لكم الثواب في الدنيا لا ستقللتكم كلكم ما افترض عليكم، أو ترغبون في طاعة الله لتعجيل دنياكم ولا تنافسون في جنة «أكلها دائم» رواه ابن أبي حاتم.

وَالَّذِينَ مَا تَنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزَلَ إِلَيْكُمْ وَمَنْ أَنْكَرَ بَعْصَمَهُ قُلْ إِنَّمَا أَمْرُتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيَّهُ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَأْبِ ب وَكَذَلِكَ أَنْزَلَنَا اللَّهُ مُحَمَّداً عَرَبِيًّا وَلَيْسَ أَبْعَتَ أَهْوَاهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكُمْ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقِ ب

يقول تعالى: «والذين آتيناهم الكتاب» وهم قائمون بمقتضاه «يفرحون بما أنزل إليك» أي من القرآن لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشرة به، كما قال تعالى: «الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته» [البقرة: ١٢١] الآية، وقال تعالى: «قل آمنوا به أو لا تؤمنوا» - إلى قوله - «إن كان وعد ربنا لمفعولاً» [الإسراء: ١٠٨ - ١٠٧] أي إن كان

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤/ ٣٦٧، ٣٧١.

(٢) تقدم الحديث مع تحريره في تفسير الآية ٢٩ من هذه السورة.

ما وعدنا الله به في كتبنا من إرسال محمد ﷺ لحقاً وصدقأً مفعولاً لا محالة وكانتاً، فسبحانه ما أصدق وعده، فله الحمد وحده «ويخرّون للأذقان ييكون ويزيدهم خشوعاً» [الإسراء: ١٠٩]، قوله «ومن الأحزاب من ينكر بعضه» أي ومن الطوائف من يكذب ببعض ما أنزل إليك. وقال مجاهد «ومن الأحزاب» أي اليهود والنصارى «من ينكر بعضه» أي بعض ما جاءك من الحق، وكذا قال قتادة عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وهذا كما قال تعالى: «وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله» [آل عمران: ١٩٩] الآية، «قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به» أي إنما بعثت بعبادة الله وحده لا شريك له، كما أرسل الأنبياء من قبلي «إليه أدعوا» أي إلى سبيله أدعو الناس «وإليه مأب» أي مرجعي ومصيري.

وقوله: «وكذلك أنزلنا حكماً عربياً» أي وكما أرسلنا قبلك المرسلين، وأنزلنا عليهم الكتب من السماء، كذلك أنزلنا عليك القرآن محكماً معرباً، شرفناك به، وفضلناك على من سواك بهذا الكتاب المبين الواضح الجلي الذي «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد» [فصلت: ١١]. قوله: «ولئن ابتعت أهواءهم» أي آراءهم «بعدما جاءك من العلم» أي من الله سبحانه «مالك من الله من ولّي ولا واق» وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا سبل أهل الضلال بعدما صاروا إليه من سلوك السنة النبوية والمراجحة المحمدية، على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَدُرْبِيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِي بِغَايَةً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجْلٍ كَيْفَ هُوَ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَبِ

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد رسولأً بشرياً، كذلك قد بعثنا المرسلين قبلك بشراً، يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، ويأتون الزوجات، ويولد لهم، وجعلنا لهم أزواجاً وذرية، وقد قال تعالى لأشرف الرسل وخاتمهم «قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىي» [الكهف: ١١٠].

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «أما أنا فأصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأكل اللحم، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»^(١). وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا يزيد، أبينا الحجاج بن أرطاة عن مكحول قال: قال أبو أيوب: قال رسول الله ﷺ: «أربع من سنن المرسلين: التعطر والنکاح، والسوال، والحناء»^(٣). وقد رواه أبو عيسى الترمذى عن سفيان بن وكيع عن حفص بن غياث، عن الحجاج، عن مكحول، عن أبي الشمال، عن أبي

(١) أخرجه البخاري في النکاح باب ١، ومسلم في النکاح حديث ٥.

(٢) المسند ٤٢١/٥.

(٣) أخرجه الترمذى في النکاح باب ١.

أيوب فذكره، ثم قال: وهذا أصح من الحديث الذي لم يذكر فيه أبو الشمال.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولِنَا أَنْ يَأْتِي بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي لم يكن يأتي قومه بخارق إلا إذا أذن له فيه، ليس ذلك إليه بل إلى الله عز وجل يفعل ما يشاء ويحكم ما ي يريد، ﴿لَكُلُّ أَجْلٍ كِتَابٌ﴾ أي لكل مدة مضروبة، كتاب مكتوب بها، وكل شيء عنده بمقدار ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنْ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠] وكان الضحاك بن مزاحم يقول في قوله: ﴿لَكُلُّ أَجْلٍ كِتَابٌ﴾ أي لكل كتاب أجل، يعني لكل كتاب أزله من السماء مدة مضروبة عند الله، ومقدار معين، فلهذا ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ منها، ﴿وَيَثْبِتُ﴾ يعني حتى نسخت كلها بالقرآن الذي أزله الله على رسوله صلوات الله وسلامه عليه^(١).

وقوله ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيَثْبِتُ﴾ اختلف المفسرون في ذلك فقال الثوري ووكيع وهشيم عن ابن أبي ليلى، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: يدبر أمر السنة، فيمحو الله ما يشاء إلا الشقاء والسعادة والحياة والموت، وفي رواية ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيَثْبِتُ﴾ قال: كل شيء إلا الموت والحياة والشقاء والسعادة، فإنما قد فرغ منها.

وقال مجاهد ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيَثْبِتُ﴾ إلا الحياة والموت والشقاء والسعادة فإنما لا يتغيران^(٢). وقال منصور: سألت مجاهداً، فقلت: أرأيت دعاء أحدهنا يقول: اللهم إن كان اسمي في السعادة فأثبته فيهم، وإن كان في الأشقياء فامحه عنهم، واجعله في السعادة؟ فقال: حسن: ثم لقيته بعد ذلك بحول أو أكثر، فسألته عن ذلك فقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مِبَارَكَةٍ﴾ الآيتين، قال: يقضى في ليلة القدر ما يكون في السنة من رزق أو مصيبة، ثم يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء، فأماما كتاب السعادة والشقاوة فهو ثابت لا يغير^(٣).

وقال الأعمش، عن أبي وائل شقيق بن سلمة: إنه كان كثيراً ما يدعو بهذا الدعاء: اللهم إن كنت كتبتنا أشقياء، فامحه واكتبنا سعاداء، وإن كنت كتبتنا سعداء فأثبتنا، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك ألم الكتاب، رواه ابن جرير^(٤)، وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا عمرو بن علي حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبي عن أبي حكيم عصمة، عن أبي عثمان النهدي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال وهو يطوف بالبيت ويبكي: اللهم إن كنت كتبت علي شقة أو ذنبًا فامحه، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك ألم الكتاب، فاجعله سعادة ومحنة.

(١) انظر تفسير الطبرى ٣٩٩/٧.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٣٩٩/٧.

(٣) انظر تفسير الطبرى ٤٠٠/٧.

(٤) تفسير الطبرى ٤٠٠/٧.

وقال حماد عن خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان يدعوه بهذا الدعاء أيضاً. ورواه شريك عن هلال بن حميد، عن عبد الله بن عكيم، عن ابن مسعود بمثله. وقال ابن جرير^(١): حدثني المثنى، حدثنا حجاج، حدثنا خصاف عن أبي حمزة، عن إبراهيم، أن كعباً قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، لو لا آية في كتاب الله لأنبائك بما هو كائن إلى يوم القيمة. قال: وما هي؟ قال: قول الله تعالى: «يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ» الآية، ومعنى هذه الأقوال أن الأقدار ينسخ الله ما يشاء منها، ويثبت منها ما يشاء.

وقد يستأنس لهذا القول بما ورواه الإمام أحمد^(٢): حدثنا وكيع، وحدثنا سفيان هو الشوري، عن عبد الله بن عيسى، عن عبد الله بن أبي الجعد، عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لِيَحْرِمَ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يَصْبِيهُ، وَلَا يَرِدُ الْقَدْرُ إِلَّا الدُّعَاءُ، وَلَا يَزِيدُ فِي الْعُمُرِ إِلَّا الْبَرُّ»^(٣)، ورواه النسائي وابن ماجه من حديث سفيان الثوري به.

وثبت في الصحيح أن صلة الرحم تزيد في العمر. وفي حديث آخر «إِنَّ الدُّعَاءَ وَالْقَضَاءَ لِيَعْتَلِجَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ». وقال ابن جرير^(٤): حدثني محمد بن سهل بن عسكر، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا ابن جرير عن عطاء، عن ابن عباس قال: إِنَّ اللَّهَ لَوْحَـاً مَحْفُوظاً مسيرة خمسمائة عام من درة بيضاء لها دفتان من ياقوت - والدفتان: لوحان - اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، كل يوم ثلاثة وستون لحظة، يمحو ما يشاء ويثبت، وعنده أَمُّ الْكِتَابِ. وقال الليث بن سعد عن زيادة بن محمد، عن محمد بن كعب القرظي، عن فضالة بن عبيد، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «يَفْتَحُ الذِّكْرُ فِي ثَلَاثَ سَاعَاتٍ يَقِينٌ مِّنَ اللَّيلِ، فِي السَّاعَةِ الْأُولَى مِنْهَا يَنْظَرُ فِي الذِّكْرِ الَّذِي لَا يَنْظَرُ فِيهِ أَحَدٌ غَيْرُهُ فَيَمْحُو مَا يَشَاءُ وَيَثْبِتُ» وذكر تمام الحديث، رواه ابن جرير^(٥).

وقال الكلبي: يمحو الله ما يشاء ويثبت، قال: يمحو من الرزق ويزيد فيه، ويمحو من الأجل ويزيد فيه، فقيل له: من حدثك بهذا؟ فقال: أبو صالح عن جابر بن عبد الله بن رئاب، عن النبي ﷺ، ثم سئل بعد ذلك عن هذه الآية، فقال: يكتب القول كله حتى إذ كان يوم الخميس طرح منه كل شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب، مثل قوله: أكلت وشربت، ودخلت وخرجت، ونحو ذلك من الكلام، وهو صادق، ويثبت ما كان فيه الثواب وعليه العقاب، وقال عكرمة عن ابن عباس: الكتاب كتابان، فكتاب يمحو الله منه ما يشاء ويثبت، وعنده أَمُّ

(١) تفسير الطبرى ٤٠١ / ٧.

(٢) المستند ٢٧٧ / ٥.

(٣) آخر جه ابن ماجه في المقدمة باب ١٠، والفتن باب ٢٢.

(٤) تفسير الطبرى ٤٠٤ / ٧.

(٥) تفسير الطبرى ٤٠٤ / ٧.

الكتاب^(١).

وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: «يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنه أُم الكتاب» يقول: هو الرجل يعمل بطاعة الله ثم يعود لمعصية الله، فيموت على ضلاله، فهو الذي يمحو، والذي يثبت الرجل يعمل بمعصية الله، وقد كان سبق له خير حتى يموت وهو في طاعة الله وهو الذي يثبت، وروي عن سعيد بن جبير أنها بمعنى «يغفر لمن يشاء ويعدب من يشاء والله على كل شيء قادر» [البقرة: ٢٨٤]. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس «يمحو الله ما يشاء ويثبت» يقول: يدل ما يشاء فينسخه، ويثبت ما يشاء فلا يبدل، «وعنه أُم الكتاب» وجملة ذلك عنده في أُم الكتاب الناسخ والمنسوخ، وما يدل وما يثبت كل ذلك في كتاب.

وقال قتادة في قوله: «يمحو الله ما يشاء ويثبت» قوله: «ما ننسخ من آية أو ننسها» الآية. وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله: «يمحو الله ما يشاء ويثبت» قال: قالت كفار قريش لما نزلت «وما كان لرسول أن يأتي بأية إلا بإذن الله» ما نرى محمداً يملك شيئاً وقد فرغ من الأمر، فأنزلت هذه الآية تخويفاً ووعيداً لهم، إنا إن شئنا أحدثنا له من أمرنا ما شئنا، ونحدث في كل رمضان، فيمحو ما يشاء، ويثبت ما يشاء من أرزاق الناس ومصائبهم وما يعطيهم وما يقسم لهم.

وقال الحسن البصري «يمحو الله ما يشاء ويثبت» قال: من جاء أجله يذهب، ويثبت الذي هو حي يجري إلى أجله، وقد اختار هذا القول أبو جعفر بن جرير رحمة الله، وقوله: «وعنه أُم الكتاب» قال: الحلال والحرام، وقال قتادة: أي جملة الكتاب وأصله، وقال الضحاك «وعنه أُم الكتاب» قال: كتاب عند رب العالمين، وقال سنيد بن داود: حدثني معتمر عن أبيه، عن يسار، عن ابن عباس أنه سأله كعباً عن أُم الكتاب، فقال: علم الله ما هو خالق وما خلقه عاملون، ثم قال لعلمه: كن كتاباً فكان كتاباً، وقال ابن جريج عن ابن عباس «وعنه أُم الكتاب» قال: الذكر.

وَإِنَّمَا مُرِيَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ تَنَوَّفِيَّكَ فَإِنَّمَا عَيْنَكَ الْبَلْغُ وَعَيْنَنَا الْحِسَابُ ۚ إِنَّمَا أَوْلَمَ يَرَوْا أَنَا نَأْتِيَ الْأَرْضَ نَقْصَهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مَعَاقِبَ لِحَكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۚ

يقول تعالى لرسوله «وإما نرينك» يا محمد، بعض الذي نعد أعداءك من الخزي والنكل في الدنيا «أو نتوفينك» أي قبل ذلك، «فإنما عليك البلاغ» أي إنما أرسلناك لتبلغهم رسالة الله، وقد فعلت ما أمرت به «وعلينا الحساب» أي حسابهم وجزائهم، قوله تعالى: «فذكر إنما انت مذكر لست عليهم بمسطر إلا من تولى وكفر فيعد به الله العذاب الأكبر إن إلينا إبابهم ثم إن علينا حسابهم» [الغاشية: ٢٦ - ٢٧]، قوله: «أو لم يروا أنا نأتي الأرض نقصها

(١) انظر تفسير الطبرى / ٤٠٤.

من أطرافها》 قال ابن عباس: أو لم يروا أنا نفتح لمحمد ﷺ الأرض بعد الأرض^(١)، وقال في رواية: أو لم يروا إلى القرية تخرب حتى يكون العمران في ناحية^(٢).

وقال مجاهد وعكرمة: نقصها من أطرافها، قال: خرابها. وقال الحسن والضحاك: هو ظهور المسلمين على المشركين. وقال العوفي عن ابن عباس: نقصان أهلها وبركتها. وقال مجاهد: نقصان الأنفس والثمرات وخراب الأرض. وقال الشعبي: لو كانت الأرض تنقص لضاق عليك حشأ^(٣)، ولكن تنقص الأنفس والثمرات^(٤)، وكذا قال عكرمة: لو كانت الأرض تنقص لم تجد مكاناً تبعد فيه، ولكن هو الموت. وقال ابن عباس في رواية: خرابها بموت علمائها وفقهائها وأهل الخير منها، وكذا قال مجاهد أيضاً: هو موت العلماء، وفي هذا المعنى روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة أحمد بن عبد العزيز أبي القاسم المصري الواعظ سكن أصحابهان، حدثنا أبو محمد طلحة بن أسد المرئي بدمشق، أنسدنا أبو بكر الأجري بمكة قال: أنسدنا أحمد بن غزال لنفسه: [الطويل]

الأرض تحيا إذا ما عاش عالمها
كالأرض تحيا إذا ما الغيث حل بها
والقول الأول أولى، وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية، قوله: «ولقد أهللنا
ما حولكم من القرى» الآية، وهذا اختيار ابن جرير.

وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَلَّهُ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عَقَبَ
الدار^(٥)

يقول تعالى: «وقد مكر الذين من قبلهم» برسلهم، وأرادوا إخراجهم من بلادهم، فمكر الله بهم وجعل العاقبة للمتقين، قوله: «وإذ يمكر بـك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين» [الأفال: ٣٠]، قوله تعالى: «ومكرـوا مـكراً وـمـكـرـنا مـكـراً وـهـم لا يـشـعـرون فـاـنـظـرـ كـيـفـ كانـ عـاـقـبـةـ مـكـرـهـمـ أـنـ دـمـرـنـاهـمـ وـقـوـمـهـمـ أـجـمـعـينـ فـتـلـكـ بـيـوـتـهـمـ خـاـوـيـةـ بـمـاـ ظـلـمـوـاـ» [النـمـلـ: ٥٠ - ٥٢] الآيتين. قوله: «يـعـلـمـ مـاـ تـكـسـبـ كـلـ نـفـسـ» أي أنه تعالى عالم بجميع السرائر والضمائر وسيجزي كل عامل بعمله «وسيعلم الكافر»، القراءة الأخرى الكفار، «لـمـنـ عـقـبـيـ الدـارـ» أي لـمـنـ تكونـ الدـائـرـةـ وـالـعـاـقـبـةـ لـهـمـ أوـ لـأـتـابـعـ الرـسـلـ، كـلـاـ، بلـ هـيـ لـأـتـابـعـ الرـسـلـ فـيـ الدـنـيـاـ وـالـآخـرـةـ، وـهـيـ الـحـمـدـ وـالـمـنـةـ.

(١) انظر تفسير الطبرى ٤٠٦ / ٧.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٤٠٦ / ٧ ، ٤٠٧ .

(٣) الحش: البستان، وحيث يقضى الإنسان حاجته.

(٤) انظر تفسير الطبرى ٤٠٧ / ٧ .

**وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا فُلْ كَفَنِ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِ وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمٌ
الْكِتَبِ**

يقول تعالى: يكذبك هؤلاء الكفار ويقولون: ﴿لست مرسلًا﴾ أي ما أرسلك الله ﴿قل كفى بالله شهيداً بيبي ويبينكم﴾ أي حسيبي الله هو الشاهد علي وعليكم. شاهد علي فيما بلغت عنه من الرسالة، وشاهد عليكم أيها المكذبون فيما تفترونه من البهتان، وقوله: ﴿ومن عنده علم الكتاب﴾ قيل: نزلت في عبد الله بن سلام، قاله مجاهد^(١)، وهذا القول غريب، لأن هذه الآية مكية، وعبد الله بن سلام إنما أسلم في أول مقدم النبي ﷺ المدينة، والأظهر في هذا ما قاله العوفي عن ابن عباس قال: هم من اليهود والنصارى^(٢)، وقال قتادة: منهم ابن سلام وسلمان وتميم الداري^(٣)، وقال مجاهد في رواية عنه: هو الله تعالى، وكان سعيد بن جبير ينكر أن يكون المراد بها عبد الله بن سلام ويقول: هي مكية، وكان يقرؤها ﴿ومن عنده عِلْمَ الْكِتَابِ﴾ ويقول: من عند الله^(٤)، وكذاقرأها مجاهد والحسن البصري.

وقد روى ابن جرير^(٥) من حديث هارون الأعور عن الزهري عن سالم، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأها ﴿ومن عنده عِلْمَ الْكِتَابِ﴾، ثم قال: لا أصل له من حديث الزهري عند الثقات، قلت، وقد رواه الحافظ أبو يعلى في مستنه من طريق هارون بن موسى هذا، عن سليمان بن أرقم، وهو ضعيف، عن الزهري عن سالم عن أبيه مرفوعاً كذلك ولا يثبت، والله أعلم.

والصحيح في هذا أن ﴿ومن عنده﴾ اسم جنس يشمل علماء أهل الكتاب الذين يجدون صفة محمد ﷺ ونعته في كتبهم المتقدمة من بشارات الأنبياء به، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي
وَسَعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَقَوَّنُونَ وَيَؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَبَعُونَ
الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأَمِيَّ الَّذِي يَجْدُونَ مَكْتُوبًا عِنْهُمْ فِي التُّورَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٦ - ١٥٧]
الآية: وقال تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَكُنْ لَّهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عَلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧] الآية،
وأمثال ذلك مما فيه الإخبار عن علماء بني إسرائيل أنهم يعلمون ذلك من كتبهم المنزلة. وقد ورد في حديث الأخبار عن عبد الله بن سلام بأنه أسلم بمكة قبل الهجرة.

قال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في كتاب دلائل النبوة وهو كتاب جليل: حدثنا سليمان بن

(١) انظر تفسير الطبرى ٤١٠ / ٧.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٤١٠ / ٧.

(٣) تفسير الطبرى ٤١٠ / ٧.

(٤) تفسير الطبرى ٤١١ / ٧.

(٥) تفسير الطبرى ٤١٢ / ٧.

أحمد الطبراني، حدثنا عبдан بن أحمد، حدثنا محمد بن مصفي، حدثنا الوليد بن مسلم عن محمد بن حمزة يوسف بن عبد الله بن سلام، عن أبيه عن جده عبد الله بن سلام أنه قال لأحبار اليهود: إني أردت أن أحدث بمسجد أبينا إبراهيم وإسماعيل عيداً، فانطلق إلى رسول الله ﷺ وهو بمكة، فوافاهم وقد انصروا من الحج، فوجد رسول الله ﷺ بمنى والناس حوله، فقام مع الناس، فلما نظر إليه رسول الله ﷺ قال: «أنت عبد الله بن سلام؟» قال قلت: نعم، قال **«ادن»**.

قال: فلذوت منه. قال: «أنشدك بالله يا عبد الله بن سلام، أما تجدني في التوراة رسول الله؟» فقلت له: انعت ربنا، قال: فجاء جبريل حتى وقف بين يدي رسول الله ﷺ فقال له: **«فَلَمَّا هُوَ اللَّهُ أَحَدُ اللَّهِ الصَّمْدُ»** [الإخلاص: ١ - ٢] إلى آخرها، فقرأها علينا رسول الله ﷺ، فقال ابن سلام: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، ثم انصرف ابن سلام إلى المدينة، فكتم إسلامه، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وأنا فوق نخلة لي أجذها، فألقيت نفسي، فقالت أمي: الله أنت، لو كان موسى بن عمران ما كان لك أن تلقني نفسك من رأس النخلة، فقلت: والله لأننا أسر بقدوم رسول الله ﷺ من موسى بن عمران إذ بعث، وهذا حديث غريب جداً. آخر تفسير سورة الرعد، والله الحمد والمنة.

سورة إبراهيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَنُ كَتَبَ أَنْزَلَنَا إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلْمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صَرَاطِ الْعَزِيزِ
الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي لَمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ
شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحْبُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَعْتَذِرُونَ عَوْجًا
أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور «كتاب أنزلناه إليك» أي هذا كتاب أنزلنا إليك يا محمد، وهو القرآن العظيم الذي هو أشرف كتاب أنزله الله من السماء، على أشرف رسول بعثه الله في الأرض إلى جميع أهلها عربهم وعجمهم «لتخرج الناس من الظلمات إلى النور» أي إنما بعثناك يا محمد بهذا الكتاب لتخرج الناس مما هم فيه من الضلال والغى إلى الهدى والرشد، كما قال تعالى: «الله ولِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يَخْرُجُهُمْ مِنَ الظُّلْمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكُمُ الطَّاغُوتُ يَخْرُجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلْمَاتِ» [آل عمران: ١٨٦] الآية. وقال تعالى: «هُوَ الَّذِي يَنْزِلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بِيَنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلْمَاتِ إِلَى النُّورِ» [الحج: ٤٥] الآية.

وقوله: «بِإِذْنِ رَبِّهِمْ» أي هو الهدادي لمن قدر له الهدایة على يدي رسوله المبعوث عن أمره يهديهم «إِلَى صَرَاطِ الْعَزِيزِ»، أي العزيز الذين لا يمانع ولا يغالب، بل هو القاهر لكل ما سواه، «الْحَمِيدُ» أي المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وأمره ونهيه الصادق في خبره.. وقوله: «الله الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» قرأ بعضهم مستأنفاً مرفوعاً وقرأ آخرون على الإتباع صفة للجلالة، كقوله تعالى: «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مَلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» [الأعراف: ١٥٨] الآية.

وقوله: «وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ شَدِيدٍ» أي ويل لهم يوم القيمة إذ خالفوك يا محمد وكذبوك، ثم وصفهم بأنهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، أي يقدمونها و يؤثثونها عليها ويعملون للدنيا، ونسوا الآخرة وتركوها وراء ظهورهم «وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» وهي اتباع الرسل «وَيَعْتَذِرُونَ عَوْجًا» أي ويحبون أن تكون سبيل الله عوجاً مائدة عائلة، وهي مستقيمة في نفسها لا يضرها من خالفها، ولا من خذلها فهم في ابتغائهم ذلك في جهل وضلال بعيد من الحق، لا يرجي لهم والحاله هذه صلاح.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ، لِتُبَيَّنَ لَهُمْ فَيُضْلِلُ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ
وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

هذا من لطفه تعالى بخلقه أنه يرسل إليهم رسلاً منهم بلغاتهم، ليفهموا عنهم ما يريدون، وما أرسلوا به إليهم، كما روى الإمام أحمد^(١): حدثنا وكيع عن عمر بن ذر قال: قال مجاهد عن أبي ذر: قال قال رسول الله ﷺ: «لم يبعث الله عز وجل نبياً إلا بلغة قومه». قوله: «فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء» أي بعد البيان وإقامة الحجة عليهم، يضل الله من يشاء عن وجه الهدى، ويهدي من يشاء إلى الحق «وهو العزيز» الذي ما شاء كان، وما لم يشاً لم يكن، «الحكيم» في أفعاله، فيفضل من يستحق الإضلal ويهدي من هو أهل لذلك.

وقد كانت هذه سنته في خلقه أنه ما بعث نبياً في أمة إلا أن يكون بلغتهم، فاختص كلنبي بإبلاغ رسالته إلى أمنته دون غيرهم، واختص محمد بن عبد الله رسول الله ﷺ بعموم الرسالة إلى سائر الناس، كما ثبت في الصحيحين عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ويعث إلى الناس عامة»^(٢) وله شواهد من وجوه كثيرة. وقال تعالى: «قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميماً» [الأعراف: ١٥٨].

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِإِيمَانِنَا أَنْ أَخْرِجَ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلْمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكَرْهُمْ
بِإِيمَانِ اللَّهِ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآتَيْتَ لِكُلِّ كَبَارٍ شَكُورِ

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد وأنزلنا عليك الكتاب لتخرج الناس كلهم، تدعوهـم إلى الخروج من الظلمات إلى النور كذلك أرسلنا موسى إلى بني إسرائيل بآياتنا، قال مجاهد: هي التسع الآيات^(٣) «أن أخرـج قـومـك» أي أمرـناـهـ قـائـلـينـ لهـ «أـخـرـجـ قـومـكـ منـ الـظـلـمـاتـ إـلـىـ النـورـ» أي ادعـهمـ إـلـىـ الـخـيرـ لـيـخـرـجـواـ مـنـ ظـلـمـاتـ ماـ كـانـواـ فـيـهـ مـنـ الجـهـلـ وـالـضـلـالـ إـلـىـ نـورـ الـهـدـىـ وـبـصـيرـةـ الإـيمـانـ.

«وَذَكَرْهُمْ بِأَيَامِ اللَّهِ» أي ب أيام الله ﷺ أي ب أيامه ونعمـهـ عـلـيـهـمـ فيـ إـخـرـاجـهـ إـيـاهـمـ مـنـ أـسـرـ فـرـعـونـ وـقـهـرـهـ وـظـلـمـهـ وـغـشـمـهـ، وـإـنـجـائـهـ إـيـاهـمـ مـنـ عـدـوـهـ، وـفـلـقـهـ لـهـمـ الـبـحـرـ، وـتـظـلـيلـهـ إـيـاهـمـ بـالـغـمـامـ، وـإـنـزـالـهـ عـلـيـهـمـ الـمـنـ وـالـسـلـوـيـ إـلـىـ غـيـرـ ذـلـكـ مـنـ النـعـمـ، قـالـ ذـلـكـ مـجـاهـدـ^(٤) وـقـتـادـةـ وـغـيـرـ وـاحـدـ.

(١) المستند ١٥٨/٥.

(٢) آخرـهـ الـبـخـارـيـ فـيـ التـيـمـ بـابـ ١ـ، وـمـسـلـمـ فـيـ الـمـسـاجـدـ حـدـيـثـ ٣ـ، ٥ـ، وـالتـرمـذـيـ فـيـ السـيـرـ بـابـ ٥ـ.

(٣) انظر تفسير الطبرـيـ ٤١٦/٧ـ.

(٤) انظر تفسير الطبرـيـ ٤١٨/٧ـ.

وقد ورد فيه الحديث المروي الذي رواه عبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل في مسنده أبيه حيث قال حدثني يحيى بن عبد الله مولىبني هاشم، حدثنا محمد بن أبان الجعفي عن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَذَكْرُهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ قال: بنعم الله^(١)، ورواه ابن جرير^(٢) وابن أبي حاتم من حديث محمد بن أبان به، ورواه عبد الله ابنه أيضاً موقوفاً وهو أشبه.

وقوله: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَا يَاتُ لِكُلِّ صَبَارٍ شَكُورٍ﴾ أي إن فيما صنعنا بأوليائنا بني إسرائيل حين أنقذناهم من يد فرعون وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهين لعبرة لكل صبار، أي في الضراء شكور أي في السراء، كما قال قتادة: نعم العبد عبد إذا ابتلي صبر، وإذا أعطى شكر^(٣). وكذا جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: ﴿إِنَّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلَّهُ عَجْبٌ، لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءٌ صَبَرٌ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرٌ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ﴾^(٤).

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُ رَوْأِنَعَمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذَا أَنْجَنَّكُمْ مِنْ مَآلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدْعُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١﴾ وَإِذْ تَأْذَنَ رَبُّكُمْ لِئَنْ شَكَرْتُمْ لِأَزِيدِنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكُرُّوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَيْعَانًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيُّ حَمِيدٌ ﴿٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن موسى حين ذكر قومه بأيام الله عندهم ونعمه عليهم، إذ أنجاهم من آل فرعون، وما كانوا يسومونهم به من العذاب والإذلال، حيث كانوا يذبحون من وجد من أبنائهم، ويتركون إثاثهم، فأنقذهم الله من ذلك، وهذه نعمة عظيمة، ولهذا قال: ﴿وَفِي ذَلِكَمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي نعمة عظيمة منه عليكم في ذلك، أنتم عاجزون عن القيام بشكرها وقيل: وفيما كان يصنعه بكم قوم فرعون من تلك الأفاعيل ﴿بَلَاءٌ﴾ أي اختبار عظيم، ويحمل أن يكون المراد هذا وهذا، والله أعلم، كقوله تعالى: ﴿وَبِلُونَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيَّئَاتِ لِعِلْمِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]. وقوله: ﴿وَإِذْ تَأْذَنَ رَبُّكُمْ﴾ أي آذنكم وأعلمكم بوعده لكم، ويحمل أن يكون المعنى: وإذ أقسم ربكم وألى بعنته وجلاله وكبريائه، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأْذَنَ رَبَّكَ لِيُعَذِّبَنَّهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف: ١٦٢].

وقوله: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لِأَزِيدِنَّكُمْ﴾ أي لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها، ﴿وَلَئِنْ

(١) أخرجه أحمد في المسند ٥/١٢٢.

(٢) تفسير الطبرى ٧/٤١٨.

(٣) انظر تفسير الطبرى ٧/٤١٨.

(٤) أخرجه مسلم في الزهد حديث ٦٤، وأحمد في المسند ٤/٣٣٢، ٣٣٣.

كفرتم» أي كفرتم النعم وسترتموها وجحدتموها «إن عذابي لشديد»، وذلك بسلبها عنهم وعقابه إياهم على كفرها، وقد جاء في الحديث «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه»^(١).

وفي المستند أن رسول الله ﷺ، مر به سائل فأعطاه تمرة، فسخطها ولم يقبلها، ثم مر به آخر فأعطاه إياها، فقبلها وقال: تمرة من رسول الله ﷺ، فأمر له بأربعين درهماً، أو كما قال: قال الإمام أحمد^(٢): حدثنا أسود، حدثنا عمارة الصيدلاني عن ثابت عن أنس، قال: أتى النبي ﷺ سائل فأمر له بتمرة فلم يأخذها أو وحش بها - قال - : وأتاه آخر فأمر له بتمرة، فقال: سبحان الله تمرة من رسول الله ﷺ، فقال للجارية: «اذهبي إلى أم سلمة فأعطيه الأربعين درهماً التي عندها» تفرد به الإمام أحمد، وعمارة بن زاذان وثقة ابن حبان وأحمد ويعقوب بن سفيان. وقال ابن معين: صالح. وقال أبو زرعة: لا بأس به. وقال أبو حاتم: يكتب حديثه ولا يحتاج به، ليس بالمتين. وقال البخاري: ربما يضطرب في حديثه، وعن أحمد أيضاً أنه قال: روى أحاديث منكرة. وقال أبو داود: ليس بذلك وضعفه الدارقطني. وقال ابن عدي: لا بأس به ممن يكتب حديثه.

وقوله تعالى: «وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جمِيعاً فإن الله لغنى حميد» أي هو غني عن شكر عباده، وهو الحميد المحمود وإن كفره من كفره، كقوله: «إن تكفروا فإن الله غني عنكم» [الزمر: ٧] الآية. وقوله: «فَكَفَرُوا وَتَوَلُوا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ» [التغابن: ٦]. وفي صحيح مسلم عن أبي ذر عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال: «يا عبادي لو أن أولكم وأخركم وإنكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وأخركم وإنكم وجنكم كانوا على أفسر قلب رجل واحد منكم، ما نقص ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وأخركم وإنكم وجنكم قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً إلا كما ينقص المحيط إذا دخل البحر»^(٣) فسبحانه وتعالى الغني الحميد.

اللَّهُ يَأْتِكُمْ بِنَبَؤَةِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمٌ نُوحٌ وَعَادٍ وَثَمُودٍ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْمَلُونَ إِلَّا
اللَّهُ جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُوا أَيْدِيهِمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْنَا بِهِ وَإِنَّا لِنِ
شَكِّ مَمَائِدَ عَوْنَاتِ إِلَيْهِ مُرِيبٌ

قال ابن جرير^(٤): هذا من تمام قول موسى لقومه يعني وتذكيره إياهم بأيام الله بانتقامه من

(١) أخرجه ابن ماجه في الفتن باب ٢٢، وأحمد في المستند ٥/٢٧٧، ٢٨٠، ٢٨٢.

(٢) المستند ٣/١٥٤، ١٥٥.

(٣) أخرجه مسلم في البر حديث ٥٥، وأحمد في المستند ٥/١٦٠.

(٤) تفسير الطبرى ٧/٤٢١.

الأمم المكذبة بالرسل ، وفيما قال ابن جرير نظر ، والظاهر أنه خبر مستأنف من الله تعالى لهذه الأمة ، فإنه قد قيل : إن قصة عاد وثمود ليست في التوراة ، فلو كان هذا من كلام موسى لقومه وقصصه عليهم ، لا شك أن تكون هاتان القصتان في التوراة ، والله أعلم ، وبالجملة فالله تعالى قد قص علينا خبر قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم المكذبة للرسل مما لا يحصي عددهم إلا الله عز وجل ﴿ جاءتهم رسالهم بالبيتات ﴾ أي بالحجج والدلائل الواضحات الباهرات القاطعات ، وقال ابن إسحاق عن عمرو بن ميمون ، عن عبد الله أنه قال في قوله : ﴿ لا يعلمهم إلا الله ﴾ كذب النسابون^(١) . وقال عروة بن الزبير : ما وجدنا أحداً يعرف ما بعد معد بن عدنان .

وقوله : ﴿ فردوا أيديهم في أفواههم ﴾ اختلف المفسرون في معناه ، قيل : معناه أنهم أشاروا إلى أفواه الرسل بأمرهم بالسكتوت عنهم لما دعواهم إلى الله عز وجل . وقيل : بل وضعوا أيديهم على أفواههم تكذيباً لهم . وقيل : بل هو عبارة عن سكتوهم عن جواب الرسل . وقال مجاهد ومحمد بن كعب وقتادة : ومعناه أنهم كذبوا عليهم وردوا عليهم قولهم بأفواههم . قال ابن جرير^(٢) : وتوجيهه أن في هنا بمعنى الباء ، قال : وقد سمع من العرب أدخلك الله بالجنة يعنيون في الجنة ، وقال الشاعر : [الطوبل]

وأرغب فيها عن لقيط ورهطهِ ولكنني عن سببِ لست أرغمُ^(٣)

يريد أرغم بها . قلت : ويؤيد مجاهد تفسير ذلك بتمام الكلام ﴿ وقالوا إنا كفرنا بما أرسالتم به وإنما لفي شك مما تدعونا إليه مريب ﴾ فكان هذا - والله أعلم - تفسير لمعنى ﴿ فردوا أيديهم في أفواههم ﴾ . وقال سفيان الثوري وإسرائيل عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله في قوله : ﴿ فردوا أيديهم في أفواههم ﴾ قال : عضوا عليها غيطاً^(٤) . وقال شعبة عن أبي إسحاق عن أبي هبيرة بن يريم ، عن عبد الله أنه قال ذلك أيضاً^(٥) . وقد اختاره عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، ووجهه ابن جرير^(٦) مختاراً له بقوله تعالى عن المنافقين ﴿ وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيط ﴾ [آل عمران: ١١٩] . وقال العوفي عن ابن عباس : لما سمعوا كلام الله عجبوا

(١) تفسير الطبرى ٤٢١/٧.

(٢) تفسير الطبرى ٤٢٣/٧.

(٣) البيت بلا نسبة في لسان العرب (ذرأ) (نبا) ، وتهذيب اللغة ٣/١٥ ، ٥٨٣ ، وتابع العروس (فيها) ، وتفسير الطبرى ٧/٤٢٣ . وفي اللسان وتابع العروس وتهذيب اللغة . «عن عبيد ورهطه» بدل «عن لقيط ورهطه» .

(٤) انظر تفسير الطبرى ٧/٤٢٢ .

(٥) انظر تفسير الطبرى ٧/٤٢٢ .

(٦) تفسير الطبرى ٧/٤٢٢ .

ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم، وقالوا: إننا كفنا بما أرسلتم به الآية، يقولون: لا نصدقكم فيما جئتم به، فإن عندنا فيه شكًا قويًا.

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِ الَّهُ شَكُّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَقْرَأُوكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرُكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمَّى قَالُوا إِنَّا نَسْأَلُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تَرْيَدُونَ أَنْ تَصْدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ أَبَابُوْنَا فَأَتُونَا بِسَاطُلِنِ مُسِينِ ﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ تَخْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِكُمْ بِسَاطُلِنِ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فِلْيَسْتَوْكَلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ وَمَا لَنَا أَلَا نَتَوْكَلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَنَا سُبْلًا وَلَنَضِيرَكُمْ عَلَى مَا إِذَا يَشْمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فِلْيَسْتَوْكَلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾

يُخْبَرُ تَعْالَى عِمَّا دَارَ بَيْنَ الْكُفَّارِ وَبَيْنَ رَسُلِهِمْ مِنَ الْمُجَادِلَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ أَمْمَهُمْ لِمَا وَاجَهُوهُمْ
بِالشُّكِّ فِيمَا جَاءُوهُمْ بِهِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، قَالَتِ الرَّسُلُ: «أَفَيْ أَنْ شَاءَ اللَّهُ شَاءَ وَهَذَا
يَحْتَمِلُ شَيْئَيْنَ:

[أحدهما] أفي وجوده شك، فإن الفطر شاهدة بوجوده ومحبولة على الإقرار به، فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة، ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطراب، فتحتاج إلى النظر في الدليل الموصل إلى وجوده، ولهذا قالت لهم الرسول ترشدهم إلى طريق معرفته بأنه **فاطر السموات والأرض*** الذي خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق، فإن شواهد الحدوث والخلق والتسيير ظاهر عليهما، فلا بد لهما من صانع وهو الله لا إله إلا الله هو خالق كل شيء والاه ومليكه.

[والمعنى الثاني] في قولهم: «أَفِي اللَّهِ شَكٌ» أي أفي إلهيته وتفرده بوجوب العبادة له شك، وهو الخالق لجميع الموجودات، ولا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له، فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع، ولكن تعبد معه غيره من الوسائل التي يظنونها تفعهم أو تقربهم من الله زلفى.

وقالت لهم رسليهم: «يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم» أي في الدار الآخرة «ويؤخركم إلى أجل مسمى» أي في الدنيا كما قال تعالى: «وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متابعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله» [هود: ٣] الآية، فقالت لهم الأمم محاجين في مقام الرسالة بعد تقدير تسليمهم المقام الأول، وحاصل ما قالوه «إن أنتم إلا بشر مثلنا» أي كيف تتبعكم بمجرد قولكم ولما نر منكم معجزة، «فأتونا بسلطان مبين» أي خارق لقتراحه عليكم «قالت لهم رسليهم إن نحن إلا بشر مثلكم» أي صحيح إنا بشر مثلكم في البشرية «ولكن الله يمن على من يشاء من عباده» أي بالرسالة والنبوة «وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان» على وفق ما سألتكم «إلا بإذن الله» أي بعد سؤالنا إياه وإذنه لنا في ذلك «وعلى الله فليتوكل

المؤمنون» أي في جميع أمورهم، ثم قالت الرسل: «وما لنا أن لا نتوكل على الله» أي وما يمننا من التوكل عليه، وقد هدانا لأقوم الطرق وأوضحها وأبيتها «ولنصبرن على ما آذيتمنوا» أي من الكلام السيء والأفعال السخيفه «وعلى الله فليتوكل المتنوكلون».

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَتُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مَلَأْنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ
لَهُنَّكُنَّ الظَّالِمِينَ ۝ وَلَنْسَكِنْنَكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ
وَعِيدِ ۝ وَأَسْقَتَهُنَّوْ وَخَابَ كُلُّ جَنَارٍ عَنِيدٍ ۝ مَنْ وَرَأَهُمْ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءً صَدِيقٍ ۝
يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسْيِغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمِيَّتٍ وَمَنْ وَرَأَهُ
عَذَابٌ غَلِيلٌ ۝

يخبر تعالى بما توعدت به الأمم الكافرة رسليمهم من الإخراج من أرضهم والنبي من بين أظهرهم، كما قال قوم شعيب له ولمن آمن به: «لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا» [الأعراف: ٨٨] الآية. وكما قال قوم لوط: «أخرجوا آل لوط من قريتكم» [النمل: ٥٦] الآية، وقال تعالى إخباراً عن مشركي قريش: «وَإِنْ كَادُوا لِيَسْتَفِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ
لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَمْ يُلْبِثُوكَ خَلَافَكَ إِلَّا قَبِيلًا» [الإسراء: ٧٦].

وقال تعالى: «وَإِذ يُمْكِرُ بَكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُبْتُوِكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يَخْرُجُوكَ وَيُمْكِرُونَ
وَيُمْكِرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ» [الأنفال: ٣٠] وكان من صنعه تعالى أنه أظهر رسوله ونصره،
وجعل له بسبب خروجه من مكة أنصاراً وأعواناً وجندًا يقاتلون في سبيل الله تعالى، ولم يزل
يرقيه تعالى من شيء إلى شيء حتى فتح له مكة التي أخرجه، وتمكن له فيها، وأرغم أنوف
أعدائه منهم ومن سائر أهل الأرض حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً، وظهرت كلمة الله
ودينه على سائر الأديان في مشارق الأرض ومغاربها في أيسر زمان.

ولهذا قال تعالى: «فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَهُنَّكُنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنْسَكِنْنَكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ»
وكما قال: «وَلَقَدْ سَبَقْتَ كَلْمَنَا لِعِبَادَنَا الْمُرْسِلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنْ جَنَدْنَا لَهُمْ
الْغَالِبُونَ» [الصفات: ١٧١ - ١٧٣]، وقال تعالى: «كَتَبَ اللَّهُ لِأَغْلَبِنَا وَرَسِلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ
عَزِيزٌ» [المجادلة: ٢١]، وقال تعالى: «وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ» [الأنبياء: ١٠٥]
الآية، «وَقَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُو بِاللَّهِ وَاصْبِرُو إِنَّ الْأَرْضَ اللَّهُ يُورِثُهَا مِنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» [الأعراف: ١٢٨]، وقال تعالى: «وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يَسْتَضْعِفُونَ
مِشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَتْ كَلْمَةُ رَبِّ الْحَسَنِي عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا
وَدَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فَرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ» [الأعراف: ١٣٧] وقوله: «ذَلِكَ لِمَنْ
خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ» أي وعيدي هذا لمن خاف مقامي بين يدي يوم القيمة وخشي من
وعيدي وهو تخويفي وعدابي كما قال تعالى: «فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَأَتَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ

المأوى ﴿[النازعات: ٣٧] وقال ﴿ولمن خاف مقام ربه جتنان﴾ [الرحمن: ٤٦].

وقوله: ﴿واستفتحوا﴾ أي استنصرت الرسل ربها على قومها، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: استفتحت الأمم على أنفسها كما قالوا: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ ويحتمل أن يكون هذا مراداً وهذا مراداً، كما أنهم استفتحوا على أنفسهم يوم بدر واستفتح رسول الله ﷺ واستنصر، وقال الله تعالى للمرشكين: ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خير لكم﴾ [الأنفال: ١٩] الآية، والله أعلم، ﴿وخاب كل جبار عنيد﴾ أي متجرب في نفسه عنيد معاند للحق، كقوله تعالى: ﴿ألقوا في جهنم كل كفار عنيد مناع للخير معتد مريب، الذي جعل مع الله إليها آخر فالقياه في العذاب الشديد﴾ [ق: ٢٤ - ٢٦] وفي الحديث «إنه يؤتى بجهنم يوم القيمة، فتنادي الخلائق، فتقول: إني وكلت بكل جبار عنيد»^(١) الحديث أي خاب وخسر حين اجتهد الأنبياء في الابتهاج إلى ربها العزيز المقتدر.

وقوله: ﴿ومن ورائه جهنم﴾ وراء هنا بمعنى أمام، كقوله تعالى: ﴿وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً﴾ وكان ابن عباس يقرؤها: وكان أمامهم ملك، أي من وراء الجبار العنيد جهنم، أي هي له بالمرصاد يسكنها مخلداً يوم المعاش، ويعرض عليها غدواً وعشياً إلى يوم الننداد ﴿ويُسقى من ماء صديد﴾ أي في النار ليس له شراب إلا من حميم وغساق، فهذا حار في غاية الحرارة، وهذا بارد في غاية البرد والتنن، كما قال: ﴿هذا فلينذوقوه حميماً وغساقاً وآخر من شكله أزواج﴾ [ص: ٥٧ - ٥٨] وقال مجاهد وعكرمة: الصديد من القبح والدم. وقال قتادة: هو ما يسيل من لحمه وجلده، وفي رواية عنه: الصديد ما يخرج من جوف الكافر قد خالط القبح والدم. وفي حديث شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: قلت يا رسول الله ما طينة العبال؟ قال «صديد أهل النار»^(٢). وفي رواية «عصارة أهل النار»^(٣).

وقال الإمام أحمد^(٤): حدثنا علي بن إسحاق، أبناؤنا عبد الله، أخبرنا صفوان بن عمرو عن عبيد الله بن بسر، عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله: ﴿ويُسقى من ماء صديد يتجرعه﴾ قال: «يقرب إليه فيكرهه، فإذا أدنى منه شوئي وجهه، ووَقَعَتْ فِرْوَةُ رَأْسِهِ، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره» يقول الله تعالى: ﴿وسقُوا ماء حمِيماً فَقطَعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ ويقول: ﴿وَإِن يَسْتَغْشُوا بِمَا كَالْمَهْلِ يَشْوِي الْوَجْهَ﴾ الآية، وهكذا رواه ابن جرير^(٥) من

(١) أخرجه الترمذى في صفة جهنم باب ١، وأحمد في المسند ٣/٤٠.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٦/٤٦٠.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٥/١٧١.

(٤) المسند ٥/٢٦٥.

(٥) تفسير الطبرى ٧/٤٢٩.

الحديث عبد الله بن المبارك به . ورواه هو وابن أبي حاتم من حديث بقية بن الوليد عن صفوان بن عمرو به .

وقوله : ﴿يُتَجْرِعُه﴾ أي يتغصصه ويتكرهه ، أي يشربه قهراً وقسرأ لا يضعه في فمه حتى يضره الملك بمطراف من حديد ، كما قال تعالى : ﴿وَلَهُمْ مَقَامٌ مِّنْ حَدِيدٍ﴾ [الحج : ٢١] ﴿وَلَا يَكُادُ يُسْبِغُه﴾ أي يزدرده لسوء طعمه ولونه وريحه وحرارته أو برده الذي لا يستطيع ﴿وَيُؤْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي يالم له جميع بدنـه وجوارـه وأعضاـه . قال عمرو بن ميمون بن مهران : من كل عظم وعصـب وعرـق . وقال عـكرمة : حتى من أطـراف شـعرـه ، وقال إبرـاهـيم التـيمـي : من مـوضـع كـل شـعـرة ، أي من جـسـده حتـى من أطـراف شـعـره . وقال ابن جـرـير : ﴿وَيُؤْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي من أمـامـه وخلفـه ، وفي رواية : وعن يـمينـه وشـمالـه ، ومن فوقـه ومن تحتـ أرـجلـه ، ومن سـائـر أـعـضـاء جـسـده .

وقال الضـحـاك عن ابن عـباس ﴿وَيُؤْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ قال : أنـواع العـذـاب الذي يعـذـبه الله بها يوم القيـامـة في نـار جـهـنـمـ ، ليس منها نوع إلا يـأتـيه الموـتـ منه لو كان يـموـتـ ، ولكن لا يـموـتـ لأنـ الله تعالى قال : ﴿لَا يَقْضِي عَلَيْهِمْ فَيموتُوا وَلَا يَخْفَفُ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطـرـ : ٣٦] وـمعـنى كـلام ابن عـباس رـضـيـ اللهـ عـنـهـ أنهـ ماـ منـ نوعـ منـ هـذـهـ الأـنوـاعـ مـنـ العـذـابـ إـلاـ إـذـاـ وـرـدـ عـلـيـهـ اـقـتضـيـ أـنـ يـموـتـ مـنـ لـوـ كـانـ يـموـتـ ، وـلـكـنـهـ لـاـ يـموـتـ لـيـخـلـدـ فـيـ دـوـامـ العـذـابـ وـالـنـكـالـ ، وـلـهـذاـ قـالـ تـعـالـىـ : ﴿وَيُؤْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هـوـ بـمـيـتـ﴾ .

وقوله : ﴿وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيلٌ﴾ أي وـلـهـ مـنـ بـعـدـ هـذـهـ الـحـالـ عـذـابـ آخـرـ غـلـيـظـ ، أي مـؤـلمـ صـعبـ شـدـيدـ أـغـلـظـ مـنـ الذـيـ قـبـلـهـ ، وـأـدـهـيـ وـأـمـرـ ، وـهـذـاـ كـمـاـ قـالـ تـعـالـىـ عـنـ شـجـرـةـ الزـرـقـومـ : ﴿إـنـهاـ شـجـرـةـ تـخـرـجـ فـيـ أـصـلـ الجـحـيـمـ طـلـعـهـ كـأـنـهـ رـؤـوسـ الشـيـاطـيـنـ فـإـنـهـمـ لـاـكـلـونـ مـنـهـ فـمـائـلـونـ مـنـهـ الـبـطـوـنـ ثـمـ إـنـ لـهـ عـلـيـهـاـ لـشـوـبـاـ مـنـ حـمـيـمـ ثـمـ إـنـ مـرـجـعـهـمـ لـإـلـىـ الجـحـيـمـ﴾ [الـصـافـاتـ : ٦٥ - ٦٨] فـأـخـبـرـ أـنـهـمـ تـارـةـ يـكـونـونـ فـيـ أـكـلـ زـقـوـمـ ، وـتـارـةـ فـيـ شـرـبـ حـمـيـمـ ، وـتـارـةـ يـرـدـونـ إـلـىـ جـحـيـمـ ، عـيـادـاـ باـلـلـهـ مـنـ ذـلـكـ .

وهـكـذـاـ قـالـ تـعـالـىـ : ﴿هـذـهـ جـهـنـمـ الـتـيـ يـكـذـبـ بـهـ الـمـجـرـمـونـ يـطـوـفـونـ بـيـنـهـاـ وـبـيـنـ حـمـيـمـ آنـ﴾ [الـرـحـمـنـ : ٤٣ - ٤٤] ، وـقـالـ تـعـالـىـ : ﴿إـنـ شـجـرـةـ الزـرـقـومـ طـعـامـ الـأـثـيـمـ كـالـمـهـلـ يـغـلـيـ فـيـ الـبـطـوـنـ كـفـلـيـ الـحـمـيـمـ خـذـلـوـهـ فـاعـتـلـوـهـ إـلـىـ سـوـاءـ الـجـحـيـمـ ثـمـ صـبـوـاـ فـوـقـ رـأـسـهـ مـنـ عـذـابـ الـحـمـيـمـ ذـقـ إـنـكـ أـنـتـ الـعـزـيزـ الـكـرـيمـ إـنـ هـذـاـ مـاـ كـتـمـ بـهـ تـمـتـرـوـنـ﴾ [الـدـخـانـ : ٤٣ - ٥٠] ، وـقـالـ : ﴿وـأـصـحـابـ الشـمـالـ مـاـ أـصـحـابـ الشـمـالـ فـيـ سـمـومـ وـحـمـيـمـ وـظـلـ مـنـ يـحـمـمـ لـاـ بـارـدـ وـلـاـ كـرـيمـ﴾ [الـوـاقـعـةـ : ٤١ - ٤٤] ، وـقـالـ تـعـالـىـ : ﴿هـذـاـ وـإـنـ لـلـطـاغـيـنـ لـشـرـ مـآـبـ جـهـنـمـ يـصـلـوـنـهـاـ فـبـشـ المـهـادـ هـذـاـ فـلـيـذـوقـهـ حـمـيـمـ وـغـسـاقـ وـآخـرـ مـنـ شـكـلـهـ أـزـوـاجـ﴾ [صـ : ٥٥ - ٥٨] إـلـىـ غـيرـ ذـلـكـ مـنـ الـآـيـاتـ الدـالـةـ عـلـىـ تـنـوـعـ الـعـذـابـ عـلـيـهـمـ ، وـتـكـرـارـهـ وـأـنـوـاعـهـ ، وـأـشـكـالـهـ مـاـ لـاـ يـحـصـيـهـ إـلـاـ اللـهـ عـزـ وـجـلـ جـزـاءـ وـفـاقـاـ

﴿وَمَا رَبَك بِظَلَامٍ لِلْعَبْدِ﴾ [فصلت : ٤٦].

مَثَلُ الَّذِي كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَمَادٍ أَشَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الصَّلْطُونُ الْبَعِيدُ ﴾٢٣﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار الذين عبدوا معه غيره، وكذبوا رسلاه، وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح، فانهارت وعدموها أحوج ما كانوا إليها، فقال تعالى: «مثلك الذين كفروا بربهم أعمالهم» أي مثل أعمالهم يوم القيمة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى، لأنهم كانوا يحسبون أنهم كانوا على شيء فلم يجدوا شيئاً، ولا ألقوا حاصلاً إلا كما يتحصل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة.

﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ أي ذي ريح شديدة عاصفة قوية، فلم يقدروا على شيء من أعمالهم التي كسبوا في الدنيا إلا كما يقدرون على جمع هذا الرماد في هذا اليوم، كقوله تعالى: «وَقَدَّمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مُنْثُرًا» [الفرقان: ٢٣]، وقوله تعالى: «مثلكم ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون» [آل عمران: ١١٧]، وقوله تعالى: «بِاً أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنْ وَالْأَذْيَ كَالَّذِي يَنْفَقُ مَالَهُ رَثَاءَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فِيمَثِلُهُ كَمِثْلُ صَفَوَانَ عَلَيْهِ تَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابْلَ فَنَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ» [البقرة: ٢٦٤]، وقوله في هذه الآية «ذلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ» أي سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة، حتى فقدوا ثوابهم أحوج ما كانوا إليه «ذلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ».

الَّهُ تَرَأَكَ اللَّهُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ يَالْحَقِّ إِنْ يَشَاءُ يُدْهِبُكُمْ وَإِنْ يَأْتِ يَحْلِقِ جَدِيدٍ ﴾٢٤﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾٢٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن قدرته على معاذ الأبدان يوم القيمة بأنه خلق السموات والأرض التي هي أكبر من خلق الناس، أليس الذي قدر على خلق هذه السموات في ارتفاعها واتساعها وعظمتها، وما فيها من الكواكب الثوابت والسيارات، والحركات المختلفة، والآيات الباهرات، وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد، وبراري وصحاري، وقفار وبخار، وأشجار ونبات، وحيوان على اختلاف أصنافها ومنافعها وأشكالها وألوانها «أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقدر على أن يحيي الموتى بلـ إنه على كل شيء قادر» [الأحقاف: ٢٣] وقال تعالى: «أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول

مرة وهو بكل خلق عليم الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون أوليس الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيده ملائكة كل شيء وإليه ترجعون» [يس : ٧٧ - ٨٣].

وقوله «إن يشاً يذهبكم ويات بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز» أي بعظيم ولا ممتنع بل هو سهل عليه إذا خالفتم أمره أن يذهبكم ويات بآخرين على غير صفتكم كما قال: «يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد إن يشاً يذهبكم ويات بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز» [فاطر : ١٥ - ١٧] وقال: « وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم» [محمد : ٣٨] وقال: « يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه» [المائدة : ٥٤] وقال: «إن يشاً يذهبكم أيها الناس ويات بآخرين وكان الله على ذلك قديرًا» [النساء : ١٣٢].

وَبَرَزُوا لِلَّهِ جِمِيعًا فَقَاتَ الْصُّعْفَاتُو لِلَّذِينَ أَسْتَكَبُرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ بَعْدًا فَهُلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهُدَىٰ كُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْزَعَنَا أَمْ صَبَرَنَا مَا لَنَا مِنْ

مَحِيصٍ

يقول تعالى: «وبَرَزُوا» أي برزت الخلاقي كلها براها وفاجرها الله الواحد القهار، أي اجتمعوا له في براز من الأرض وهو المكان الذي ليس فيه شيء يستر أحداً «فقال الصعفاء» وهم الأتباع لقادتهم وسادتهم وكبارهم «للذين استكباوا» عن عبادة الله وحده لا شريك له وعن موافقة الرسل قالوا لهم: «إنا كنا لكم بعما» أي مما أمرتمونا اثمرنا وفعلنا «فهل أنتم مغبونون عنا من عذاب الله من شيء» أي فهل تدفعون عنا شيئاً من عذاب الله كما كنتم تدعوننا وتمنوننا، فقالت القادة لهم: «لو هدانا الله لهديناكم» ولكن حق علينا قول ربنا، وسبق فيما وفيكم قدر الله، وحقت كلمة العذاب على الكافرين، «سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محicus» أي ليس لنا خلاص مما نحن فيه إن صبرنا عليه أو جزعننا منه.

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إن أهل النار قال بعضهم لبعض: تعالوا فإنما أدرك أهل الجنة بكائهم وتصرعهم إلى الله عز وجل، تعالوا نبك ونتصرع إلى الله فبكوا وتصرعوا فلما رأوا أنه لا ينفعهم قالوا: إنما أدرك أهل الجنة الجنحة بالصبر، تعالوا حتى نصبر فصبروا صبراً لم ير مثله، فلم ينفعهم ذلك، فعند ذلك قالوا «سواء علينا أجزعننا أم صبرنا» (١) الآية.

قلت: والظاهر أن هذه المراجعة في النار بعد دخولهم إليها، كما قال تعالى: «وإذ

(١) انظر تفسير الطبرى ٤٣٣ / ٧

يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إننا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغفون عن نصيباً من النار قال قال الذين استكبروا إننا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد» [غافر: ٤٧ - ٤٨] وقال تعالى: «قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميماً قالت أخراهم لاولاهم ربنا هؤلاء أضلولنا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون» [الأعراف: ٣٨ - ٣٩]، وقال تعالى: «ربنا إننا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلولنا السبيل ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعذاب لعناؤه» [الأحزاب: ٦٦ - ٦٨].

وأما تخاصمهم في المحسن، فقال تعالى: «ولو ترى إذ الظالمون موقفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا ولو لا أنت لكن مؤمنين قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صدّنك عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كتم مجرمين وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمر وننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً وأسرروا التندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون» [سبأ: ٣١ - ٣٣].

وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَهَا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَقْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُكُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلَوْمُوا أَنْسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخٍ بَعْدَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخٍ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكَتُمُونِي مِنْ قَبْلِ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَأَدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَبَرَّى مِنْ تَحْنِيَّهَا الْأَنْهَارُ خَلِدِينَ فِيهَا يَدْرِي زَرِيمٌ تَحِيَّهُمْ فِيهَا سَلَامٌ

يخبر تعالى عما خاطب به إبليس أتباعه بعد ما قضى الله بين عباده، فأدخل المؤمنين الجنات، وأسكن الكافرين الدركات، فقام فيهم إبليس لعنه الله يومئذ خطيباً ليزيد لهم حزناً إلى حزنهم، وغبناً إلى غبنهم، وحسرة إلى حسرتهم، فقال: «إن الله وعدكم وعد الحق» أي على ألسنة رسله، ووعدكم في اتباعهم النجاة والسلامة، وكان وعداً حقاً وخبراً صدق، وأما أنا فوعدتكم فأخلفتكم، كما قال الله تعالى: «يعدهم ويفتنهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً» [النساء: ١٢٠].

ثم قال: «وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ» أي ما كان لي دليل فيما دعوتكم إليه ولا حجة فيما وعدتكم به «إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُكُمْ لِي» بمجرد ذلك، هذا وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاؤكم به، فخالفتموه فصرتم إلى ما أنتم فيه «فلا تلومونِي» اليوم «لَوْمُوا أَنْفُسَكُمْ» فإن الذنب لكم لكونكم خالفتم الحجج واتبعتموني بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل «مَا أَنَا بِمُصْرِخٍ» أي بนาفككم ومنفذكم ومخلصكم مما أنتم فيه،

﴿وَمَا أَنْتُ بِمُصْرِخٍ﴾ أي بنافعي بإيقادي مما أنا فيه من العذاب والتكال ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلِ﴾ قال قتادة: أي بسبب ما أشركتمون من قبل، وقال ابن جرير^(١): يقول: إني جحدت أن أكون شريكاً لله عز وجل، وهذا الذي قاله هو الراجح، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضْلَلَ مِنْ يَدِنَ اللَّهَ مِنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دِعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حَسِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءٍ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥ - ٦]، قال: ﴿كُلُّاً سِيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضَدًا﴾ [مريم: ٨٢].

وقوله: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أي في إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل، لهم عذاب أليم، والظاهر من سياق الآية أن هذه الخطبة تكون من إبليس بعد دخولهم النار كما قدمنا، ولكن قد ورد في حديث رواه ابن أبي حاتم، وهذا لفظه، وابن حجر^(٢) من روایة عبد الرحمن بن زياد: حدثني دخين الحجري عن عقبة بن عامر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا جمع الله الأولين والآخرين فقضى بينهم ففرغ من القضاء، قال المؤمنون: قد قضى بيننا ربنا، فمن يشفع لنا؟ فيقولون، انطلقوا بنا إلى آدم، وذكر نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى فيقول عيسى: أدلكم على النبي الأمي، فيأتوني، فإذا ذكرتم الله لي أن أقوم إليه فيثور من مجلسي من أطيب ريح شمها أحد فقط، حتى آتي ربى فيشفعني ويجعل لي نوراً من شعر رأسى إلى ظفر قدمي، ثم يقول الكافرون: هذا قد وجد المؤمنون من يشفع لهم، فمن يشفع لنا؟ ما هو إلا إبليس هو الذي أصلنا، فيأتون إبليس فيقولون: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم، فقم أنت فاسفع لنا، فإنك أنت أضللتنا فيقوم فيثور من مجلسه من أتنن ريح شمها أحد فقط، ثم يعظم نحبيهم ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لِمَا قَضَى اللَّهُ وَعْدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ سُلْطَانٌ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلَوْمًا أَنْفَسْكُمْ﴾.

وهذا سياق ابن أبي حاتم، ورواه المبارك عن رشدين بن سعد عن عبد الرحمن بن زياد بن نعيم، عن دخين عن عقبة به مرفوعاً.

وقال محمد بن كعب القرظي رحمه الله: لما قال أهل النار ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْزَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾ قال لهم إبليس ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعْدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ الآية، فلما سمعوا مقالته، مقتوها أنفسهم فنودوا ﴿لَمَّا قُتِلَ اللَّهُ أَكْبَرَ مِنْ مَقْتُكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ إِلَى الإِيمَانِ فَنَكَفِرُونَ﴾ [الزمر: ٧٣] وقال عامر الشعبي: يقوم خطيبان يوم القيمة على رؤوس الناس، يقول الله تعالى لعيسى ابن مريم: ﴿أَلَّا تَقْتُلُ لِلنَّاسِ اتَّخَذْنَاهُنِّي وَأَمِّي إِلَهُنِّي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ إلى قوله ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صَدَقُهُمْ﴾ قال: ويقوم إبليس لعنه الله فيقول ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ

(١) تفسير الطبرى / ٧ . ٤٣٤ .

(٢) تفسير الطبرى / ٧ . ٤٣٤ .

سلطان إلا أن دعوتكم فاستجتم لي» [الرعد: ٢٣ - ٢٤] الآية.

ثم لما ذكر تعالى مآل الأشقياء وما صاروا إليه من الخزي والنکال، وأن خطيبهم إبليس عطف بـمآل السعداء، فقال «وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهر» سارحة فيها حيث ساروا وأين ساروا «خالدين فيها» ماكثين أبداً لا يتحولون ولا يزولون «بإذن ربهم تحيthem فيها سلام»، كما قال تعالى: «حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم» [الزمر: ٧٣]، وقال تعالى: «والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم» [الرعد: ٢٣ - ٢٤]، وقال تعالى: «ويلقون فيها تحية وسلاماً» [الفرقان: ٧٥]، وقال تعالى: «دعواهم فيها سبحانه اللهم وتحيthem فيها سلام وأخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين» [يونس: ١٠].

اَللّٰهُ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّٰهُ مَثَلًا لِّكَلْمَةٍ طَيِّبَةٍ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ اَصْلُهَا ثَابِتٌ وَرَفِعُهَا فِي السَّمَاءِ
تُؤْتَقُ اَكْلُهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللّٰهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ
كَلْمَةٌ خَيْشُوتٌ كَشَجَرَةٌ خَيْشُوتٌ اَجْتَهَتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله «ومثل كلمة طيبة» شهادة أن لا إله إلا الله «كشجرة طيبة» وهو المؤمن، «أصلها ثابت» يقول: لا إله إلا الله في قلب المؤمن، «وفرعها في السماء» يقول يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء^(١)، وهكذا قال الضحاك، وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاحد وغير واحد: إن ذلك عبارة عن عمل المؤمن، قوله الطيب، وعمله الصالح، وإن المؤمن كشجرة من النخل لا يزال يرفع له عمل صالح في كل حين وقت وصباح ومساء، وهكذا رواه السدي عن مرة عن ابن مسعود قال: هي النخلة^(٢)، وشعبة عن معاوية بن قرة عن أنس: هي النخلة^(٣). وحماد بن سلمة عن شعيب بن الحجاج عن أنس أن رسول الله ﷺ أتي بقناع بسر فقرأ «ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة» قال: هي النخلة، وروي من هذا الوجه ومن غيره عن أنس موقفاً، وكذا نص عليه مسروق ومجاحد وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وقيادة وغيرهم.

وقال البخاري^(٤): حدثنا عبيد بن إسماعيل عن أبيأسامة، عن عبيد الله عن نافع، عن ابن عمر قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «أخبروني عن شجرة تشبه - أو - كالرجل المسلم لا يتحات ورقها صيفاً ولا شتاء، وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها» قال ابن عمر: فوقع في

(١) انظر تفسير الطبرى ٤٣٦ / ٧.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٤٣٩ / ٧.

(٣) تفسير الطبرى ٤٣٨ / ٧ ، ٤٣٩ .

(٤) كتاب التفسير، تفسير سورة ١٤ ، باب ١ .

نفسي أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فكرهت أن أتكلم، فلما لم يقولوا شيئاً، قال رسول الله ﷺ: «هي النخلة»، فلما قمنا قلت لعمر: يا أبتهاء، والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة. قال: ما منعك أن تتكلم؟ قلت: لم أركم تتكلمون، فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئاً، قال عمر: لأن تكون قلتها أحبت إليّ من كذا وكذا.

وقال أحمد^(١): حديثنا سفيان عن ابن أبي نجيج عن مجاهد: صحبت ابن عمر إلى المدينة فلم أسمعه يحدث عن رسول الله ﷺ إلا حديثاً واحداً قال: كنا عند رسول الله ﷺ فأتي بجمار، فقال: «من الشجر شجرة مثلها مثل الرجل المسلم» فأردت أن أقول هي النخلة، فنظرت فإذا أنا أصغر القوم، فقال رسول الله ﷺ: «هي النخلة»^(٢)، آخر جاه. وقال مالك وعبد العزيز عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ يوماً لأصحابه: «إن من الشجر شجرة لا يطرح ورقها مثل المؤمن». قال: فوقع في شجر الوادي، ووقع في قلبي أنها النخلة، فاستحييت حتى قال رسول الله ﷺ: «هي النخلة»^(٣)، آخر جاه أيضاً.

وقال ابن أبي حاتم: حديثنا أبي، حديثنا موسى بن إسماعيل، حديثنا أبان يعني ابن زيد العطار، حديثنا قتادة أن رجلاً قال: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجر، فقال: «رأيت لو عمد إلى متاع الدنيا فركب بعضه على بعض أكان يصلح السماء، أفلأ أخبرك بعمل أصله في الأرض وفرعه في السماء؟» قال: ما هو يا رسول الله؟ قال: «تقول لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، عشر مرات في دبر كل صلاة، فذاك أصله في الأرض وفرعه في السماء». وعن ابن عباس **﴿كشجرة طيبة﴾** قال: هي شجرة في الجنة^(٤). قوله: «تؤتي أكلها كل حين» قيل: غدوة وعشياً، وقيل: كل شهر. وقيل: كل شهرين. وقيل: كل ستة أشهر. وقيل: كل سبعة أشهر. وقيل: كل سنة، والظاهر من السياق أن المؤمن مثله كمثل شجرة لا يزال يوجد منها ثمر في كل وقت من صيف أو شتاء أو ليل أو نهار، كذلك المؤمن لا يزال يرفع له عمل صالح آناء الليل وأطراف النهار في كل وقت وحين **﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾** أي كاملاً حسناً كثيراً طيباً مباركاً **﴿وَيُضَربَ اللَّهُ الْأَمْثَالُ لِلنَّاسِ لِعِلْمِهِمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾** [إبراهيم: ٢٥].

وقوله تعالى: **«وَمِثْلُ كَلْمَةِ خَبِيثَةِ كَشْجَرَةِ خَبِيثَةٍ﴾** هذا مثل كفر الكافر لا أصل له ولا ثبات، مشبه بشجرة الحنظل، ويقال لها الشريان، رواه شعبة عن معاوية بن قرة عن أنس بن مالك: أنها شجرة الحنظل وقال أبو بكر البزار الحافظ: حديثنا يحيى بن محمد

(١) المستند ١٢/٢.

(٢) آخر جه البخاري في العلم باب ١٤، ومسلم في المناقين حديث ٦١، ٦٢.

(٣) آخر جه البخاري في العلم باب ٤، ٥، ٥٠، وتفصير سورة ١٤، باب ١، ومسلم في المناقين حديث ٦١، ٦٢، ٦٤، وأحمد في المستند ١٢٣/٢.

(٤) انظر تفسير الطبرى ٧/٤٤٠.

السكن، حدثنا أبو زيد سعيد بن الربيع، حدثنا شعبة عن معاوية بن قرة عن أنس أحبسه رفعه، قال: «ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة» قال: هي النخلة، «ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة» قال: هي الشريان، ثم رواه عن محمد بن المثنى عن غندر عن شعبة، عن معاوية عن أنس موقوفاً. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد هو ابن سلمة عن شعيب بن الجحباب، عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة» هي الحنظلة» فأخبرت بذلك أبا العالية فقال: هكذا كنا نسمع. ورواه ابن جرير من حديث حماد بن سلمة به.

ورواه أبو يعلى في مستنه بأبسط من هذا فقال: حدثنا غسان عن حماد عن شعيب، عن أنس أن رسول الله ﷺ أتي بقناع عليه بسر، فقال: «ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها» فقال «هي النخلة» «ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتنت من فوق الأرض ما لها من قرار» قال: «هي الحنظل» قال شعيب: فأخبرت بذلك أبا العالية فقال: كذلك كنا نسمع. وقوله: «اجتنت» أي استؤصلت «من فوق الأرض ما لها من قرار» أي لا أصل لها ولا ثبات، كذلك الكفر لا أصل له ولا فرع، ولا يصعد للكافر عمل، ولا يتقبل منه شيء.

يَثِّبُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الْقَاتِلِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضَلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ
وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿١٠﴾

قال البخاري: حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة، أخبرني علقة بن مرثد قال: سمعت سعد بن عبيدة عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سئل في القبر شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله» **﴿يَثِّبُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الْقَاتِلِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾**^(١) ورواه مسلم أيضاً وبقية الجماعة كلهم من حديث شعبة به.

وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن المنهاج بن عمرو، عن زاذان عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولما يلحد، فجلس رسول الله ﷺ، وجلسنا حوله كان على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكث^(٣) به الأرض، فرفع رأسه فقال: «استعينوا بالله من عذاب القبر» مرتين أو ثلاثة، ثم

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ١٤، باب ٢، ومسلم في الجنة حديث ٧٣، ٧٤، وأبو داود في السنة باب ٢٤، والنسائي في الجنائز باب ١١٤، وابن ماجه في الزهد باب ٣٢، وأحمد في المستند ٤/٢٨٢.

.٢٩٢

(٢) المستند ٤/٢٨٧، ٢٨٨.

(٣) ينكث به الأرض: أي يضرب به الأرض.

قال: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوهم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط^(١) من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة اخرجني إلى مغفرة من الله ورضوان - .

قال - : فتخرج تسيل، كما تسيل قطرة من في السقاء^(٢)، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها، يعني على ملأ من الملائكة، إلا قالوا: ما هذه الروح الطيبة؟ فيقولون: فلان بن فلان بأحسن اسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا حتى يتهوا به إلى السماء الدنيا فيستفتحون له، فيفتح له فيشيشه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى يتهي بها إلى السماء السابعة، فيقول الله: اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى .

قال: فعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربى الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذين بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله، فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقته، فينادي مناد من السماء: أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتتحوا له باباً إلى الجنة - قال - : فيأتيه من روحها^(٣) وطبيها ويفسح له في قبره مد بصره ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذى يسرك هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت فوجهك الوجه الذي يأتي بالخير؟ فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة رب أقم الساعة، حتى أرجع إلى Ahli ومالى - .

قال - : وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء سود الوجوه معهم المسوح، فجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت فيجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجني إلى سخط من الله وغضبه - قال - : فتفرق في جسده فينتزعها كما يتزعز السفود من الصوف المبلول، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، فيخرج منها كأتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان بن فلان بأقبح اسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا حتى يتهي بها إلى السماء

(١) الحنوط: ما يطيب به الميت.

(٢) السقاء: القربة.

(٣) الروح: برد نسيم الريح.

الدنيا، فيستفتح له فلا يفتح له - ثم قرأ رسول الله ﷺ **﴿لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلْجِّ الجَمْلَ فِي سَمَاءِ الْخَيَاطِ﴾** [الأعراف: ٤٠] فيقول الله: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى فتطرح روحه طرحاً - .

ثم قرأ **﴿وَمَن يُشْرِكُ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطُّفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهُوي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾** [الحج: ٣١] فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فينادي مناد من السماء: أن كذب عبدي فأفرشوه من النار وافتتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الشياط، متن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوزك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: ومن أنت، فوجهك الوجه يجيء بالشر؟ فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: رب لا تقم الساعة^(١) ورواه أبو داود من حديث الأعمش والنسيائي وابن ماجه من حديث المنھال بن عمرو به .

وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر عن يونس بن حبيب عن المنھال بن عمرو، عن زاذان عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى جنازة، فذكر نحوه، وفيه **﴿إِنَّمَا خَرَجَ رُوحَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ لَهُ كُلَّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ وَفَتَحَتْ أَبْوَابَ السَّمَاءِ لِيُسِّرَّ مِنْ أَهْلِ بَابِ إِلَّا وَهُمْ يَدْعُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَعْرِجَ بِرُوحِهِ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾**، وفي آخره **﴿ثُمَّ يَقِضُ لَهُ أَعْمَى أَصْمَ أَبْكَمْ﴾**، وفي يده مربزة لو ضرب بها جبل لكان تراباً، فيضربه ضربة فيصير تراباً، ثم يعيده الله عز وجل كما كان، فيضربه ضربة أخرى فيصيبح صيحة يسمعها كل شيء إلا الثقلين^(٣) قال البراء: ثم يفتح له باب إلى النار ويمهد له من فرش النار .

وقال سفيان الثوري عن أبيه، عن خيثمة عن البراء في قوله تعالى: **﴿يَثْبَتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾** قال عذاب القبر^(٤) .

وقال المسعودي عن عبد الله بن مخارق عن أبيه عن عبد الله قال: إن المؤمن إذا مات أجلس في قبره فيقال له: ما ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ فيثبته الله فيقول: ربى الله، ودينى الإسلام، ونبيى محمد ﷺ، وقرأ عبد الله **﴿يَثْبَتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾**^(٤) .

(١) أخرجه أبو داود في السنّة بباب ٢٤.

(٢) المسند ٤/٢٩٥، ٢٩٦.

(٣) انظر تفسير الطبرى ٧/٤٥٠.

(٤) انظر تفسير الطبرى ٧/٤٥٠.

وقال الإمام عبد بن حميد رحمة الله في مسنده حدثنا يونس بن محمد، حدثنا شيبان بن عبد الرحمن عن قتادة، حدثنا أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا وضع في قبره، وتولى عنه أصحابه، وإنه ليس مع قرع نعالهم، فإذا تولى عنهم فيقولون له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ قال: فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، قال: فيقال له: انظر إلى مقعده من النار قد أبدلتك الله به مقعداً من الجنة»، قال النبي ﷺ: «فيراهم جميعاً»، قال قتادة: وذكر لنا أنه يفسح له في قبره سبعون ذراعاً، ويملاً عليه خضراً إلى يوم القيمة^(١)، رواه مسلم عن عبد بن حميد، وأخرجه النسائي من حديث يونس بن محمد المؤدب به.

وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا يحيى بن سعيد عن ابن جريج، أخبرني أبو الزبير أنه سأله جابر بن عبد الله عن فتاني القبر، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن هذه الأمة تتبلّى في قبورها، فإذا دخل المؤمن قبره وتولى عنه أصحابه، جاءه ملك شديد الانتهار، فيقول له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فأما المؤمن فيقول: إنه رسول الله ﷺ وعبده، فيقول له الملك: انظر إلى مقعده الذي كان لك في النار قد أنجاك الله منه وأبدلتك بمقعده الذي ترى من النار مقعده الذي ترى من الجنة، فيراهم كليهما، فيقول المؤمن: دعوني أبشر أهلي فيقال له: اسكن، وأما المنافق فيقعد إذا تولى عنه أهله فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدرى، أقول كما يقول الناس، فيقال له: لا دريت هذا مقعده الذي كان لك في الجنة قد أبدلته مكانه مقعده من النار» قال جابر: فسمعت النبي ﷺ يقول: «يبعث كل عبد في القبر على ما مات، المؤمن على إيمانه، والمنافق على نفاقه» إسناده صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجا.

وقال الإمام أحمد^(٣): حدثنا أبو عامر، حدثنا عباد بن راشد عن داود بن أبي هند، عن أبي نصرة، عن أبي سعيد الخدري، قال: شهدنا مع رسول الله ﷺ جنازة، فقال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس إن هذه الأمة تتبلّى في قبورها، فإذا الإنسان دفن وتفرق عنه أصحابه، جاءه ملك في يده مطرقاً من حديد فأقعده، فقال: ما تقول في هذا الرجل؟ فإن كان مؤمناً قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله، فيقول له: صدقت ثم يفتح له باباً إلى النار، فيقول: كان هذا منزلك لو كفرت بربك، فأما إذ آمنت فهذا منزلك، فيفتح له باباً إلى الجنة، فيزيد أن ينھض إليه فيقول له: اسكن ويفسح له في قبره، وإن كان كافراً أو منافقاً فيقول له: ما تقول في هذا الرجل؟

(١) أخرجه مسلم في الجنة حديث ٧٠، ٧١، والنمسائي في الجنائز باب ١٠٨.

(٢) المستند ٣٤٦/٣.

(٣) المستند ٣/٣، ٤.

فيقول: لا أدرى، سمعت الناس يقولون شيئاً، فيقول: لا دريت ولا تلقيت ولا اهتديت، ثم يفتح له باباً إلى الجنة، فيقول له: هذا متزلك لو آمنت بربك، فأما إذ كفرت به فإن الله عز وجل أبدلك به هذا، فيفتح له باباً إلى النار ثم يقمعه قمعة بالمطران، فيصبح صيحة يسمعها خلق الله عز وجل كلهم غير الثقلين، فقال بعض القوم: يا رسول الله، ما أحد يقوم عليه ملك في يده مطران إلا هيل عند ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «يُبَشِّرُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ» وهذا أيضاً إسناد لا بأس به، فإن عباد بن راشد التميمي روى له البخاري مقوروناً، ولكن ضعفه بعضهم.

وقال الإمام أحمد^(١): حدثنا حسين بن محمد عن ابن أبي ذئب، عن محمد بن عمرو بن عطاء، عن سعيد بن يسار، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْمَيْتَ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ قَالُوا: أَخْرُجِي أَيْتَهَا النَّفْسَ الطَّيِّبَةَ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، أَخْرُجِي حَمِيدَةَ وَأَبْشِرِي بِرُوحِ وَرِيحَانِ وَرَبِّ غَضِيبَانِ». قال فلا يزال يقال لها ذلك، حتى تخرج ثم يرجع بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقولون: مرحباً بالروح الطيبة كانت في الجسد الطيب، ادخلها حميده، وأبشرها بروح وريحان ورب غير غضيبان. قال: فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل. وإذا كان الرجل السوء قالوا: أخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة وأبشرها بحميم وغساق، وأخر من شكله أزواج، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يرجع بها إلى السماء، فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، ارجعها ذميمة فإنه لا تفتح لك أبواب السماء، فيرسل من السماء ثم يصير إلى القبر، فيجلس الرجل الصالح، فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول، ويجلس الرجل السوء فيقال له مثل ما قيل له في الحديث الأول^(٢). ورواه النسائي وابن ماجه من طريق ابن أبي ذئب بنحوه.

وفي صحيح مسلم^(٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إذا خرجت روح العبد المؤمن تلقاها ملكان يصدان بها. قال حماد: فذكر من طيب ريحها وذكر المسك - قال -: ويقول أهل السماء: روح طيبة جاءت من قبل الأرض صلى الله عليك وعلى جسد كنت تعمرينه، فينطلق به إلى ربه عز وجل، فيقال: انطلقوا به إلى آخر الأجل. وإن الكافر إذا خرجت روحه - قال حماد - وذكر من نتنها، وذكر مقتها، ويقول أهل السماء: روح خبيثة جاءت من قبل الأرض، فيقال: انطلقا به إلى آخر الأجل - قال أبو هريرة: فرد رسول الله ﷺ ربيطة كانت عليه على أنفه هكذا.

(١) المسند / ٢، ٣٦٤ / ٦، ١٤٠ .

(٢) أخرجه ابن ماجه في الزهد بباب .٣١

(٣) كتاب الجنة حديث .٧٥

وقال ابن حبان في صحيحه : حدثنا عمر بن محمد الهمданى ، حدثنا زيد بن أخترم ، حدثنا معاذ بن هشام ، حدثني أبي عن قتادة ، عن قسام بن زهير ، عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال «إن المؤمن إذا قبض ، أنته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء ، فيقولون : اخرج إلى روح الله ، فتخرج كأطيب ريح مسك حتى إنه ليناوله بعضهم بعضاً يشمونه حتى يأتوا به بباب السماء ، فيقولون : ما هذه الريح الطيبة التي جاءت من قبل الأرض ، ولا يأتون سماء إلا قالوا مثل ذلك حتى يأتوا به أرواح المؤمنين ، فلهم أشد فرحاً به من أهل الغائب بغايتهم ، فيقولون : ما فعل فلان ؟ فيقولون : دعوه حتى يستريح فإنه كان في غم ، فيقول : قد مات أما أناكم ؟ فيقولون : ذهب به إلى أمه الهاوية ، وأما الكافر فيأتيه ملائكة العذاب بمسح فيقولون : اخرج إلى غضب الله ، فتخرج كألتئن ريح جيفة ، فيذهب به إلى باب الأرض» .

وقد روی أيضاً من طريق همام بن يحيى عن أبي الجوزاء ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ بنحوه ، قال «فيسأله ما فعل فلان ، ما فعل فلان ، ما فعلت فلانة ؟ قال : وأما الكافر فإذا قبضت نفسه ، وذهب بها إلى باب الأرض ، تقول خزنة الأرض : ما وجدنا ريجاً أنت من هذه ، فيبلغ بها الأرض السفلية». قال قتادة وحدثني رجل عن سعيد بن المسيب ، عن عبد الله بن عمرو قال : أرواح المؤمنين تجتمع بالجارية ، وأرواح الكفار تجتمع ببرهوت سبخة بحضرموت ، ثم يضيق عليه قبره .

وقال الحافظ أبو عيسى الترمذى رحمه الله : حدثنا يحيى بن خلف ، حدثنا بشر بن المفضل عن عبد الرحمن بن إسحاق ، عن سعيد بن أبي سعيد المقبرى ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا قبر الميت - أو قال : أحدهم - أتاه ملكان أسودان أزرقان ، يقال لأحدهما منكر والآخر نكير ، فيقولان : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : ما كان يقول هو عبد الله ورسوله ،أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول هذا ، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين ، وينور له فيه ، ثم يقال له : نم ، فيقول : أرجع إلى أهلي فأخبرهم ، فيقولان : نم نومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك ، وإن كان منافقاً قال : سمعت الناس يقولون : فقلت مثلهم لا أدرى ، فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول هذا ، فيقال للأرض : التعمي عليه فتلائم عليه حتى تختلف أضلاعه ، فلا يزال فيها معدباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك»^(١) ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب .

وقال حماد بن سلمة عن محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «يشت اللہ الذین آمنوا بالقول الثابت فی الحیاة الدنیا وفی الآخرة» - قال - :

(١) أخرجه الترمذى في الجنائز باب ٧٠.

ذلك إذا قيل له في القبر من ربك، وما دينك، ومن نبيك؟ فيقول: ربى الله، ودينى الإسلام، ونبيي محمد جاءنا بالبيانات من عند الله، فآمنت به وصدقته، فيقال له: صدقت، على هذا عشت، وعليه مت، وعليه تبعث^(١).

وقال ابن جرير^(٢): حدثنا مجاهد بن موسى والحسن بن محمد، قالا: حدثنا يزيد، أباًنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، إن الميت ليس معه خلقٌ نعالمُ حين تولون عنده مدبرين، فإن كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه والزكوة عن يمينه والصوم عن يساره وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه، فيؤتى من قبل رأسه، فتقول الصلاة: ما قبلي مدخل، فيؤتى عن يمينه فتقول الزكوة: ما قبلي مدخل، فيؤتى عن يساره فيقول الصيام: ما قبلي مدخل، فيؤتى عند رجليه فيقول: فعل الخيرات ما قبلي مدخل، فيقال له: اجلس، فيجلس قد مثلت له الشمس قد دنت للغروب.

فيقال له: أخبرنا عما نسألك، فيقول: دعني حتى أصلِّي، فيقال له: إنك ستفعل فأخبرنا عما نسألك، فيقول: وعم تسألوني؟ فيقال: أرأيت هذا الرجل الذي كان فيكم ماذا تقول به، وماذا تشهد به عليه؟ فيقول: أَمْحَمَدْ؟ فيقال له: نعم، فيقول: أشهد أنه رسول الله، وأنه جاءنا بالبيانات من عند الله فصدقناه، فيقال له: على ذلك حسيت وعلى ذلك مت، وعليه تبعث إن شاء الله ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً وينور له فيه، ويفتح له باب إلى الجنة فيقال له: انظر إلى ما أعد الله لك فيها، فيزداد غبطة وسروراً، ثم تجعل نسمته في النسم الطيب، وهي طير خضر تعلق بشجر الجنة، ويعاد الجسد إلى ما بدأه من التراب، وذلك قول الله: «يُبَثِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ»، رواه ابن حبان من طريق المعتمر بن سليمان عن محمد بن عمر، وذكر جواب الكافر وعداته.

وقال البزار: حدثنا سعيد بن بحر القراطسي، حدثنا الوليد بن القاسم، حدثنا يزيد بن كيسان عن أبي حازم، عن أبي هريرة أحببه رفعه، قال: «إن المؤمن ينزل به الموت ويعاين ما يعاين، فيود لو خرجت، يعني نفسه، والله يحب لقاءه وإن المؤمن يصعد بروحه إلى السماء، فتأتيه أرواح المؤمنين فتستخبره عن معارفهم من أهل الأرض، فإذا قال: تركت فلاناً في الأرض، أعجبهم ذلك، وإذا قال: إن فلاناً قد مات، قالوا: ما جيء به إلينا، وإن المؤمن يجلس في قبره فيسأل، من ربك؟ فيقول: ربى الله، ويسأل: من نبيك؟ فيقول: محمدنبيي. فيقال: ماذا دينك؟ قال: ديني الإسلام، فيفتح له باب في قبره فيقول - أو يقال - انظر إلى

(١) انظر تفسير الطبرى ٤٤٨/٧.

(٢) تفسير الطبرى ٤٤٩، ٤٤٨/٧.

مجلسك، ثم يرى القبر فكأنما كانت رقدة، وإذا كان عدو الله نزل به الموت وعاين ما عاين، فإنه لا يحب أن تخرج روحه أبداً، والله يبغض لقاءه، فإذا جلس في قبره أو أجلس، فيقال له: من ربك؟ فيقول: لا أدرى، فيقال: لا دريت، فيفتح له باب إلى جهنم ثم يضرب ضربة تسمعها كل دابة إلا الثقلين، ثم يقال له: نم كما ينام المنهوش». قلت لأبي هريرة: ما المنهوش؟ قال: الذي تنهشه الدواب والحيات، ثم يضيق عليه قبره، ثم قال: لا نعلم من رواه إلا الوليد بن القاسم.

وقال الإمام أحمد^(١) رحمه الله: حدثنا حجين بن المثنى، حدثنا عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون عن محمد بن المنكدر قال: كانت أسماء، يعني بنت الصديق رضي الله عنها، تحدث عن النبي ﷺ قالت: قال: «إذا دخل الإنسان قبره، فإن كان مؤمناً أحلف به عمله الصلاة والصيام، قال: فأيّاته الملك من نحو الصلاة فترده ومن نحو الصيام فيرده، قال: فیناديه أجلس في مجلس، فيقول له: ماذا تقول في هذا الرجل، يعني النبي ﷺ؟ قال: من؟ قال: محمد، قال: أشهد أنه رسول الله، قال: وما يدركك، أدركته؟ قال: أشهد أنه رسول الله، قال: يقول على ذلك عشت، وعليه تبعث وإن كان فاجراً أو كافراً جاءه الملك ليس بينه وبينه شيء يرده فأجلسه، فيقول له: ماذا تقول في هذا الرجل؟ قال: أي رجل؟ قال: محمد؟ قال: يقول: والله ما أدرى سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته، قال له الملك: على ذلك عشت، وعليه مت، وعليه تبعث، قال ويسلط عليه دابة في قبره معها سوط، ثمرته جمرة مثل غرب البعير، تضربه ما شاء الله، صماء لا تسمع صوته فترحمه».

وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهمما في هذه الآية قال: إن المؤمن إذا حضره الموت شهدته الملائكة، فسلموا عليه وبشروه بالجنة، فإذا مات مشوا مع جنازته ثم صلوا عليه مع الناس، فإذا دفن أجلس في قبره، فيقال له: من ربك؟ فيقول: ربى الله، فيقال له: من رسولك؟ فيقول: محمد^ﷺ، فيقال له: ما شهادتك؟ فيقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، فيوسّع له في قبره مد بصره، وأما الكافر فتنزل عليه الملائكة فيبسطون أيديهم، والبسط هو الضرب، «يضربون وجوههم وأدبارهم» عند الموت، فإذا دخل قبره أقعد، فقيل له: من ربك؟ فلم يرجع إليهم شيئاً، وأنسأ الله ذكر ذلك، وإذا قيل: من الرسول الذي بعث إليك؟ لم يهتد له ولم يرجع إليهم شيئاً «كذلك يضل الله الظالمين»^(٢).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عثمان بن حكيم الأودي حدثنا شريح بن مسلمة، حدثنا إبراهيم بن يوسف عن أبي إسحاق، عن عامر بن سعد البجلي عن أبي قتادة الأنصاري في قوله تعالى: «يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة»

(١) المستند / ٦، ٣٥٢، ٣٥٣.

(٢) انظر تفسير الطبرى / ٧، ٤٥١.

آلية، قال: إن المؤمن إذا مات أجلس في قبره، فيقال له: من ربك؟ فيقول: الله، فيقال له: من نبيك؟ فيقول: محمد بن عبد الله، فيقال له ذلك مرات، ثم يفتح له باب إلى النار، فيقال له: انظر إلى متراك من النار لو زاغت، ثم يفتح له باب إلى الجنة، فيقال له: انظر إلى متراك من الجنة إذا ثبت، وإذا مات الكافر أجلس في قبره فيقال له: من ربك؟ من نبيك؟ فيقول: لا أدرى كنت أسمع الناس يقولون، فيقال له: لا دريت، ثم يفتح له باب إلى الجنة، فيقال له: انظر إلى متراك إذا ثبت، ثم يفتح له باب إلى النار، فيقال له: انظر إلى متراك إذ زاغت، فذلك قوله تعالى: ﴿يَبْثَتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾.

وقال عبد الرزاق عن عمر عن ابن طاوس، عن أبيه ﴿يَبْثَتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال: لا إله إلا الله، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ المسألة في القبر، وقال قتادة أما الحياة الدنيا فيثبتهم بالخير والعمل الصالح، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ في القبر وكذا روي عن غير واحد من السلف.

وقال أبو عبد الله الحكيم الترمذى في كتابه نوادر الأصول: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن نافع عن ابن أبي فديك عن عبد الرحمن بن عبد الله عن سعيد بن المسيب، عن عبد الرحمن بن سمرة قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم ونحن في مسجد المدينة، فقال: «إني رأيت البارحة عجباً، رأيت رجلاً من أمتي جاءه ملك الموت ليقبض روحه، فجاءه برء بوالديه، فرد عنه، ورأيت رجلاً من أمتي قد بسط عليه عذاب القبر، فجاءه وضوءه فاستنقذه من ذلك، ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشه الشياطين، فجاءه ذكر الله فخلصه من بينهم، ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشه ملائكة العذاب، فجاءته صلاته فاستنقذه من أيديهم».

ورأيت رجلاً من أمتي يلهم عطشاً كلما ورد حوضاً منع منه، فجاءه صيامه فسقاه وأرواه، ورأيت رجلاً من أمتي والنبيون قعود حلقاً حلقاً، كلما دنا لحلقة طردوه، فجاءه اغتساله من الجنابة فأخذ بيده فأقعده إلى جنبي، ورأيت رجلاً من أمتي بين يديه ظلمة، ومن خلفه ظلمة، وعن يمينه ظلمة، وعن شماله ظلمة، ومن فوقه ظلمة، ومن تحته ظلمة، وهو متخيير فيها، فجاءته حجته وعمره فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه النور.

ورأيت رجلاً من أمتي يكلم المؤمنين فلا يكلمونه، فجاءته صلة الرحم فقالت: يا معشر المؤمنين، كلموه فكلموه، ورأيت رجلاً من أمتي يتقي وهج النار وشررها بيده عن وجهه، فجاءته صدقته فصارت له ستراً على وجهه وظلاً على رأسه، ورأيت رجلاً من أمتي قد أخذته الزبانية من كل مكان، فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فاستنقذه من أيديهم وأدخلاه مع ملائكة الرحمة، ورأيت رجلاً من أمتي جاثياً على ركبتيه بينه وبين الله حجاب، فجاءه حسن خلقه، فأخذ بيده فأدخله على الله عز وجل، ورأيت رجلاً من أمتي قد هوت صحفيته من قبل شماله، فجاءه خوفه من الله، فأخذ صحفيته فجعلها في يمينه، ورأيت رجلاً من أمتي قد خف

ميزانه ، فجاءه أفراطه فنقلوا ميزانه .

ورأيت رجلاً من أمتي قائماً على شفير جهنم ، فجاءه وجله من الله فاستنقذه من ذلك ومضى ، ورأيت رجلاً من أمتي هو في النار فجاءته دموعه التي بكى من خشية الله في الدنيا ، فاستخرجه من النار ، ورأيت رجلاً من أمتي قائماً على الصراط يزحف أحياناً ويجبو أحياناً ، فجاءته صلاته على ، فأخذت بيده ، فأقامته ومضى على الصراط ، ورأيت رجلاً من أمتي انتهى إلى باب الجنة ، فغلقت الأبواب دونه ، فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة» ، قال القرطي بعد إيراده هذا الحديث من هذا الوجه : هذا حديث عظيم ذكر فيه أعمالاً خاصة تنجي من أحوال خاصة ، أورده هكذا في كتابة التذكرة .

وقد روى الحافظ أبو يعلى الموصلي في هذا حديثاً غريباً مطولاً فقال : حدثنا أبو عبد الله أحمد بن إبراهيم النكري ، حدثنا محمد بن بكر البرساني أبو عثمان ، حدثنا أبو عاصم الحبطي ، وكان من أخيار أهل البصرة ، وكان من أصحاب حزم ، وسلمان بن أبي مطیع ، حدثنا بكر بن خنيس عن ضرار بن عمرو ، عن يزيد الرقاشي ، عن أنس بن مالك عن تميم الداري ، عن النبي ﷺ قال : يقول الله عز وجل لملك الموت : انطلق إلى ولبي فأتني به ، فإن قد ضربته بالسراء والضراء ، فوجدته حيث أحب ، اثنني به فلأريحنه .

فينطلق إليه ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة معهم أكفان وحنوط من الجنة ، ومعهم ضبائر^(١) الريحان أصل الريحانة واحد ، وفي رأسها عشرون لوناً لكل لون منها ريح سوى ريح صاحبه ، ومعهم الحرير الأبيض فيه المسك الأذفر^(٢) ، فيجلس ملك الموت عند رأسه وتحف به الملائكة ، ويضع كل ملك منهم يده على عضو من أعضائه ، ويبيسط ذلك الحرير الأبيض والمسك الأذفر تحت ذفنه ، ويفتح له باب إلى الجنة ، فإن نفسه لتعلل عند ذلك بطرف الجنة تارة بأزواجها ، وتارة بكسوتها ، ومرة بثمارها كما يعلل الصبي أهله إذا بكى ، قال : إن أزواجه ليتهشن عند ذلك ابتهاشا^(٣) .

قال : وتبز الروح ، قال البرساني : ي يريد أن تخرج من العجل إلى ما تجب ، قال : ويقول ملك الموت ، اخرجني يا أيتها الروح الطيبة إلى سدر مخصوص ، وطلع منضود ، وظل ممدود ، وماء مسكون ، قال : ولملك الموت أشد به لطفاً من الوالدة بولدها ، يعرف أن تلك الروح حبيب لربه ، فهو يتلمس بلطفه تحبها لديه ، رضاء للرب عنه ، فتسدل روحه كما تسأل الشعرة من العجين .

(١) الضبريرة : هي الباقة والحرمة .

(٢) المسک الأذفر : أحسن أنواع المسک ، وهو الجيد إلى الغاية .

(٣) ابتهش بالشيء : أعجبه واشتها ، وأسرع نحوه .

قال: وقال الله عز وجل: «الذين تتوافقهم الملائكة طيبين»، وقال: «فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم» قال: روح من جهة الموت، وريحان يتلقى به، وجنة نعيم تقابلة.

قال: فإذا قبض ملك الموت روحه، قالت الروح للجسد: جزار الله عنِّي خيراً، فقد كنت سريعاً بي إلى طاعة الله، بطيئاً بي عن معصية الله، فقد نجيت وأنجيت، قال: ويقول الجسد للروح مثل ذلك، قال: وتباكي عليه بقاع الأرض التي كان يطيع الله فيها، وكل باب من السماء يصعد منه عمله وينزل منه رزقه أربعين ليلة، قال: فإذا قبض ملك الموت روحه، أقامت الخمسمائة من الملائكة عند جسده، فلا يقبله بنو آدم لشَّق إلا قلبه الملائكة قبلهم، وغسلته وكفتته بأكفان قبل أكفانبني آدم، وحنوط قبل حنوطبني آدم، ويقوم من باب بيته إلى قبره صfan من الملائكة يستقبلونه بالاستغفار، فيصبح عند ذلك إبليس صيحة تصدع منها عظام جسده، قال: ويقول لجنوده: الويل لكم كيف خلص هذا العبد منكم؟ فيقولون: إن هذا كان عبداً موصوماً.

قال: فإذا صعد ملك الموت بروحه يستقبله جبريل في سبعين ألفاً من الملائكة، كل يأتيه ببشرى من ربِّه سوى بشارة صاحبه، قال: فإذا انتهى ملك الموت بروحه إلى العرش، خر الروح ساجداً، قال: يقول الله عز وجل لملك الموت: انطلق بروح عبدي فضعه في سدر مخصوص، وطلق منضود وظل ممدود، وماء مسكون.

قال: فإذا وضع في قبره جاءته الصلاة فكانت عن يمينه، وجاءه الصيام فكان عن يساره، وجاءه القرآن فكان عند رأسه، وجاءه مشيه إلى الصلاة فكان عند رجليه، وجاءه الصبر فكان ناحية القبر، قال: فيبعث الله عز وجل عقاً من العذاب، قالوا: فيأتيه عن يمينه، قال: فتفول الصلاة وراءك: والله ما زال دائياً عمره كله وإنما استراح الآن حين وضع في قبره قال: فيأتيه عن يساره فيقول الصيام مثل ذلك، قال: ثم يأتيه من عند رأسه فيقول القرآن والذكر مثل ذلك قال: ثم يأتيه من عند رجليه فيقول مشيه إلى الصلاة مثل ذلك، فلا يأتيه العذاب من ناحية يلتسم هل يجد إليه مساغاً إلا وجد ولِي الله قد أخذ جنته، قال: فينجمع العذاب عند ذلك فيخرج، قال: ويقول الصبر لسائر الأعمال أما إنه لم يمنعني أن أباشر أنا بني myself ، إلا أنني نظرت ما عندكم فإن عجزتم كنت أنا صاحبه، فأما إذا أجزأتم عنه فأنا له ذخر عند الصراط والميزان.

قال: ويعث الله ملكين أبصارهما كالبرق الخاطف، وأصواتهما كالرعد القاصف، وأنبياهما كالصيادي، وأنفاسهما كاللهب، يطآن في أشعارهما بين منكب كل واحد مسيرة كذا وكذا، وقد نزعت منهما الرأفة والرحمة، يقال لهما منكر ونكير، في يد كل واحد منهم مطرقة لو اجتمع عليها ربعة ومضر لم يقولوها، قال: فيقولان له: اجلس، قال: فيجلس فيستوي

جالساً، قال: وتقع أكفانه في حقويه، قال: فيقولان له: من ربك، وما دينك، ومن نبيك؟ قال قالوا: يا رسول الله ومن يطيق الكلام عند ذلك وأنت تصف من الملائكة ما تصف؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: «يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء» قال فيقول: ربى الله وحده لا شريك له، وديني الإسلام الذي دانت به الملائكة، ونبيي محمد خاتم النبيين.

قال: فيقولان له: صدقت، قال: فيدفعان القبر فيوسعان من بين يديه أربعين ذراعاً، وعن يمينه أربعين ذراعاً، وعن شماليه أربعين ذراعاً، ومن عند رأسه أربعين ذراعاً، ومن عند رجليه أربعين ذراعاً، قال: فيوسعان له مائتي ذراع، قال البرساني: فأحسبه وأربعين ذراعاً تحاط به، قال: ثم يقولان له: انظر فوقك، فإذا باب مفتوح إلى الجنة، قال فيقولان له: ولِيَ اللَّهُ هَذَا مِنْزِلُكَ إِذَا أَطْعَتَ اللَّهَ، فقال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّهُ يَصِلُ إِلَى قَلْبِهِ عِنْدَ ذَلِكَ فَرْحَةٌ لَا تَرْتَدُ أَبَدًا» ثم يقال له: انظر تحتك، قال: فينظر تحته فإذا باب مفتوح إلى النار - قال - فيقولان: ولِيَ اللَّهُ نجوتَ أَخْرَى مَا عَلَيْكَ - قال: فقال رسول الله ﷺ - إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك فرحة لا ترتد أبداً قال: قالت عائشة: يفتح له سبعة وسبعون باباً إلى الجنة، يأتيه ريحها ويردها حتى يبعثه الله عز وجل .

وبالإسناد المتقدم إلى النبي ﷺ قال: «ويقول الله تعالى لملك الموت: انطلق إلى عدوي فأنتي به، فإني قد بسطت له رزقي، ويسرت له نعمتي، فأبى إلا معصيتي فأنتي به، لأنتقم منه، قال: فينطلق إليه ملك الموت في أكره صورة رأها أحد من الناس فقط، له ثنتا عشر عيناً، ومعه سفود من النار، كثير الشوك ومعه خمسمائة من الملائكة معهم نجاس وجمر من جمر جهنم، ومعهم سياط من نار لينها لين السياط، وهي نار تأجج، قال: فيضربه ملك الموت بذلك السفود ضربة يغيب كل أصل شوكة من ذلك السفود في أصل كل شعرة وعرق وظفر .

قال: ثم يلويه ليًّا شديداً، قال: فينزع روحه من أظفار قدميه، قال: فيلقيها في عقيبه. قال: فيسکر عدو الله عند ذلك سكرة فيرفه ملك الموت عنه، قال: وتضرب الملائكة وجهه ودببه بتلك السياط، قال: فيشده ملك الموت شدة فينزع روحه من عقيبه فيلقيها في ركبتيه، ثم يسکر عدو الله عند ذلك سكرة فيرفه ملك الموت عنه، قال: فتضرب الملائكة وجهه ودببه بتلك السياط، قال: فيشده ملك الموت شدة فينزع روحه من ركبتيه فيلقيها في حقويه، فيسکر عدو الله عند ذلك سكرة فيرفه ملك الموت عنه، قال: فتضرب الملائكة وجهه ودببه بتلك السياط، قال كذلك: إلى صدره ثم كذلك إلى حلقه، قال: ثم تبسط الملائكة ذلك النحاس وجمر جهنم تحت ذقنه .

قال: ويقول ملك الموت: اخرجني أيتها الروح اللعينة إلى سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم - قال: فإذا قبض ملك الموت روحه، قال الروح للجسد: جزاك الله عن شرآ

فقد كنت سريعاً بي إلى معصية الله، بطيئاً بي عن طاعة الله، فقد هلكت وأهلكت - .

قال - ويقول الجسد للروح مثل ذلك ، وتلعنه بقاع الأرض التي كان يعصي الله عليها ، وتنطلق جنود إبليس إليه فيبشرونه بأنهم قد أوردوا عبداً من ولد آدم النار ، قال : فإذا وضع في قبره ضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه حتى تدخل اليمني في اليسرى واليسرى في اليمني ، قال : ويعث الله إليه أفاعي دهماً كأعناق الإبل ، يأخذن بأربنته وإيهامي قدميه فيقرضنه حتى يلتقين في وسطه ، قال : ويعث الله ملكين أبصارهما كالبرق الخاطف ، وأصواتهما كالرعد القاصف وأنياهما كالصيادي وأنفاسهما كاللهب يطآن في أشعارهما بين منكبي كل واحد منهم ما سيرة كذا وكذا ، قد نزعت منها الرأفة والرحمة ، يقال لهما منكر ونكير ، في يد كل واحد منها مطرقة لو اجتمع عليها ربعة ومضر لم يقلوها ، قال فيقولان له اجلس فيستوي جالساً وتقع أكفانه في حقوقه .

قال فيقولان له: من ربك، وما دينك، ومن نبيك؟ فيقول: لا أدرى، فيقولان له: لا دريت ولا تلقيت، فيضربانه ضربة يتطاير شررها في قبره ثم يعودان، قال: فيقولان: انظر فوقك فينظر، فإذا بباب مفتوح من الجنة، فيقولان: عدو الله هذا متزلك لو أطع الله. قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسي بيده إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك حسرة لا ترتدى أبداً». - قال - ويقولان له: انظر تحتك فينظر تحته فإذا بباب مفتوح إلى النار - فيقولان له: عدو الله هذا متزلك إذ عصيت الله، قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسي بيده إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك حسرة لا ترتدى أبداً».

قال: وقالت عائشة: ويفتح له سبعة وسبعون باباً إلى النار يأتيه حرها وسمومها حتى يبعثه الله إليها. هذا حديث غريب جداً، وسياق عجيب، ويزيد الرقاشي راويه عن أنس له غرائب ومنكرات، وهو ضعيف الرواية عند الأئمة، والله أعلم، ولهذا قال أبو داود: حدثنا إبراهيم بن موسى الرازي، حدثنا هشام هو ابن يوسف عن عبد الله بن بحير عن هانئ مولى عثمان، عن عثمان رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الرجل وقف عليه وقال «استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل»^(١) تفرد به أبو داود، وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مردويه عند قوله تعالى: «ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم» الآية، حديثاً مطولاً جداً من طرق غريبة عن الصحاح عن ابن عباس مرفوعاً، وفيه غرائب أيضاً.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا عِبَادَةَ اللَّهِ كُفَّارًا وَاحْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۝ جَهَنَّمَ يَصْلُوْنَهَا وَيَسْأَلُونَهَا ۝ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِمُصْلِحِّوْنَ عَنْ سَيِّلِهِمْ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَهْمِرَكُمْ إِلَى الْنَّارِ ۝

قال البخاري ^(١): قوله ﴿أَلَمْ تَرِ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفَّرًا﴾ ألم تعلم، كقوله: ﴿أَلَمْ تَرِ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا﴾ البار الهلاك، بار يبور بورا، ﴿وَقَوْمًا بُورَا﴾ هالكين. حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان عن عمرو عن عطاء. سمع ابن عباس ﴿أَلَمْ تَرِ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفَّرًا﴾ قال: هم كفار أهل مكة، وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية، هو جبلة بن الأبيهم والذين اتبعوه من العرب فلحقوا بالروم ^(٢)، والمشهور الصحيح عن ابن عباس هو القول الأول: وإن كان المعنى يعم جميع الكفار، فإن الله تعالى بعث محمداً صلوات الله وآله وسلامه عليه رحمة للعالمين ونعمة للناس، فمن قبلها وقام بشكرها دخل الجنة، ومن ردها وكفرها دخل النار، وقد روي عن علي نحو قول ابن عباس الأول.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا شعبة عن القاسم بن أبي بزة، عن أبي الطفيل أن ابن الكواء سأله عليه السلام عن ﴿الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفَّرًا وَأَحْلَوْهَا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَار﴾ قال: هم كفار قريش يوم بدر، حدثنا المنذر بن شاذان، حدثنا علي بن عبيد، حدثنا بسام هو الصيرفي عن أبي الطفيل قال: جاء رجل إلى علي فقال: يا أمير المؤمنين من الذين بدلوا نعمة الله كفراً، وأحلوا قومهم دار البار؟ قال: منافقون قريش وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن نفيل قال: قرأت على معقل عن ابن أبي حسين قال: قام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: ألا أحد يسألني عن القرآن، فوالله لو أعلم اليوم أحداً أعلم به مني وإن كان من وراء البحار لأتيته، فقام عبد الله بن الكواء فقال: من الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البار؟ قال: مشركون قريش أتتهم نعمة الله الإيمان فبدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البار.

وقال السدي في قوله: ﴿أَلَمْ تَرِ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفَّرًا﴾ الآية، ذكر مسلم المستوفى، عن علي أنه قال: هم الأفجران من قريش: بنو أمية وبنو المغيرة، فأما بنو المغيرة، فأحلوا قومهم دار البار يوم بدر، وأما بنو أمية فأحلوا قومهم دار البار يوم أحد، وكان أبو جهل يوم بدر، وأبا سفيان يوم أحد، وأما دار البار فهي جهنم.

وقال ابن أبي حاتم رحمه الله: حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا الحارث أبو منصور، عن إسرائيل عن أبي إسحاق، عن عمرو بن مرة قالا: سمعت علياًقرأ هذه الآية ﴿وَأَحْلَوْهَا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَار﴾ قال: هم الأفجران من قريش: بنو أمية، وبنو المغيرة، فأما بنو المغيرة فأهلوكوا يوم بدر، وأما بنو أمية فمتعوا إلى حين، ورواه أبو إسحاق عن عمرو بن مرة عن علي، نحوه، وروي من غير وجه عنه.

(١) كتاب التفسير، تفسير سورة ١٤ ، باب ٣.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٤٥١ / ٧.

وقال سفيان الثوري عن علي بن زيد عن يوسف بن سعد، عن عمر بن الخطاب في قوله: «ألم تر إلى الذين بدلو نعمة الله كفراً؟» قال: هم الأفجران من قريش: بنو المغيرة، وبنو أمية، فأما بنو المغيرة فكفيتهم يوم بدر، وأما بنو أمية فمتعوا إلى حين، وكذا رواه حمزة الزيارات عن عمرو بن مرة قال: قال ابن عباس لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين هذه الآية «ألم تر إلى الذين بدلو نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البار؟» قال: هم الأفجران من قريش: أخوالى وأعمامك، فأما أخوالى فاستأصلهم الله يوم بدر، وأما أعمامك فأملئ الله لهم إلى حين، وقال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة وابن زيد هم كفار قريش الذين قتلوا يوم بدر، وكذا رواه مالك في تفسيره عن نافع عن ابن عمر.

وقوله: «وَجَعَلُوا لِهِ أَنْدَادًا لِيُضْلِلُوا عَنْ سَبِيلِهِ» [لقمان: ٢٤] أي جعلوا له شركاء عبدوهم معه، ودعوا الناس إلى ذلك، ثم قال تعالى مهدداً لهم ومتوعداً لهم على لسان نبيه ﷺ: «قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ» أي مهما قدرتم عليه في الدنيا فافعلوا، فمهما يكن من شيء «فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ» أي مرجعكم وموئلكم إلينا كما قال تعالى: «نَمْتَعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نُضْطَرُهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِظٍ»، وقال تعالى: «مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذَقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ» [يونس: ٧٠].

قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرَّاً وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبْيَعُ فِيهِ وَلَا خَلَلٌ

يقول تعالى آمراً عباده بطاعته والقيام بحقه والإحسان إلى خلقه بأن يقيموا الصلاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وأن ينفقوا مما رزقهم الله بأداء الزكوات والنفقة على القرابات والإحسان إلى الأجانب، والمراد بإقامتها هو المحافظة على وقتها وحدودها وركرعواها وخشوعها وسجودها، وأمر تعالى بالإنفاق مما رزق في السر أي في الخفية والعلانية وهي الجهر، ولبيادروا إلى ذلك لخلاص أنفسهم «من قبل أن يأتي يوم» وهو يوم القيمة «لَا يَبْيَعُ فِيهِ وَلَا خَلَلٌ» أي ولا يقبل من أحد فدية بأن تباع نفسه، كما قال تعالى: «فَالَّذِي لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فَدِيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا» [الحديد: ١٥] وقوله: «وَلَا خَلَلٌ» قال ابن جرير^(١): يقول ليس هناك مخالفة خليل فيصحح عن استوجب العقوبة عن العقاب لمخالفته، بل هناك العدل والقسط، والخلال مصدر من قول القائل: خاللت فلاناً فأنا أخالطه مخاللاً، ومنه قول امرئ القيس: [الطوبل]

صَرَفْتُ الْهُوَى عَنْهُ مِنْ خَشْيَةِ الرَّدِّيِّ وَلَسْتُ بِمُقْلِيِّ الْخَلَالِ وَلَا قَالِي^(٢)

(١) تفسير الطبرى ٤٥٦ / ٤٥٧.

(٢) البيت في ديوان امرئ القيس ص ٣٥، ولسان العرب (خلال) وتهذيب اللغة ٦/٥٦٧، وتفسير الطبرى =

وقال قنادة: إن الله قد علم أن في الدنيا بيوعاً وخلالاً يتخالون بها في الدنيا، فينظر رجل من يخالل وعلام يصاحب، فإن كان الله فليداوم، وإن كان لغير الله فسيقطع عنه، قلت: والمراد من هذا أنه يخبر تعالى أنه لا ينفع أحداً بيع ولا فدية، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً لو وجده، ولا تنفعه صدقة أحد ولا شفاعة أحد إذا لقي الله كافراً، قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجِزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢٣] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خَلْةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الشَّمَاءِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِي فِي الْبَحْرِ يَأْمُرُهُ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَإِبَيْنَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَيَّلَ وَالنَّهَارَ وَأَنْتُمْ كُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَنْحُصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ

يعد تعالى نعمه على خلقه بأن خلق لهم السموات سقفاً محفوظاً والأرض فرشاً ﴿وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى﴾ ما بين ثمار وزروع مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح والمنافع. وسخر الفلك بأن جعلها طافية على تيار ماء البحر تجري عليه بأمر الله تعالى، وسخر البحر لحملها ليقطع المسافرون بها من إقليم إلى إقليم آخر لجلب ما هنا إلى هناك، وما هناك إلى هنا، وسخر الأنهر تشق الأرض من قطر إلى قطر رزقاً للعباد من شرب وسقي، وغير ذلك من أنواع المنافع.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَإِبَيْنَ﴾ أي يسيران لا يفتران ليلاً ولا نهاراً ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تَدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلُّ فِي فَلَكٍ يَسِّحُونَ﴾ [يس: ٤٠] ﴿يغشى الليل النهار يطلبه حيثاً و الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾ [الأعراف: ٥٤] فالشمس والقمر يتعاقبان، والليل والنهار يتعارضان، فتارة يأخذ هذا من هذا فيطول، ثم يأخذ الآخر من هذا فيقصر ﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى﴾ [فاطر: ١٣] ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَارُ﴾ [الزمر: ٥].

وقوله ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ يقول هيأ لكم ما تحتاجون إليه في جميع أحوالكم مما تسألونه بحالكم. وقال بعض السلف: من كل ما سألموه وما لم تأسله، وقرأ بعضهم ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ رقوله ﴿وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَنْحُصُوهَا﴾ خبر تعالى عن عجز العباد عن تعداد النعم فضلاً عن القيام بشكرها، كما قال طلق بن حبيب رحمة الله: إن حق الله

أثقل من أن يقوم به العباد، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن أصبحوا تائينين وأمسوا تائينين، وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم لك الحمد غير مكفي ولا موعظ ولا مستغنى عنه ربنا»^(١).

وقال الحافظ أبو بكر البزار في مستنده: حدثنا إسماعيل بن أبي الحارث، حدثنا داود بن المحبر حدثنا صالح المري عن جعفر بن زيد العبدى، عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «يخرج لابن آدم يوم القيمة ثلاثة دواوين: ديوان فيه العمل الصالح، وديوان فيه ذنبه، وديوان فيه النعم من الله تعالى عليه، فيقول الله تعالى لأصغر نعمه - أحسبه قال في ديوان النعم - خذني ثمك من عمله الصالح فتستوعب عمله الصالح كله، ثم تتحى وتقول: وعزتك ما استوفيت وتبقى الذنوب والنعم، فإذا أراد الله أن يرحمه قال: يا عبدي قد ضاعت لك حسنتك وتجاوزت لك عن سيئاتك - أحسبه قال: ووهبت لك نعمي -» غريب وسنده ضعيف.

وقد روى في الأثر أن داود عليه السلام قال: يا رب كيف أشكرك وشكري لك نعمة منك على؟ فقال الله تعالى: الآن شكرتني يا داود، أي حين اعترفت بالتقدير عن أداء شكر المنعم، وقال الإمام الشافعي رحمه الله: الحمد لله الذي لا يؤدي شكر نعمة من نعمه إلا بنعمه حادثة توجب على مؤديها شكره بها، وقال القائل في ذلك:

لو كل جارحة مني لها لغة ثني عليك بما أوليت من حسن
لكان ما زاد شكري إذ شكرت به إليك أبلغ في الإحسان والمن

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّي أَجْعَلْتَ هَذَا الْبَلْدَاءِ أَمْنًا وَجَنَّبْتَنِي وَبَيْنَ أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ رَبِّي إِنَّمَا أَصْلَلْنَ
كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَنَّ تَسْعَنِي فَإِنَّهُ مِيقَ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ عَذَّرُ رَحِيمٌ

يذكر تعالى في هذا المقام محتاجاً على مشركي العرب بأن البلد الحرام بمكة إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله وحده لا شريك له، وأن إبراهيم الذي كانت عامرة بسيبه أهلة تبراً من عبد غير الله، وأنه دعا لمكة بالأمن فقال: «رب اجعل هذا البلد آمناً» وقد استجاب الله له فقال تعالى: «أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً» [العنكبوت: ٦٧] الآية، وقال تعالى: «إن أول بيت وضع للناس للذى بيته مباركاً وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً» [آل عمران: ٩٦ - ٩٧] وقال في هذه القصة «رب اجعل هذا البلد آمناً» [إبراهيم: ٣٩] فعرفه لأنه دعا به بعد بنائها، ولهذا قال: «الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق» ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة، فاما حين ذهب بإسماعيل وأمه وهو رضيع إلى مكان مكة فإنه دعا أيضاً فقال: «رب اجعل هذا البلد آمناً» [البقرة: ١٢٦] كما ذكرناه هنا في سورة البقرة مستقصى مطولاً.

(١) أخرجه البخاري في الأطعمة بباب . ٥٤

وقوله: «واجبني وبني أن نعبد الأصنام» ينبعي لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته، ثم ذكر أنه افتن بالأصنام خلائق من الناس، وأنه تبراً من عبدها ورد أمرهم إلى الله إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم، كقول عيسى عليه السلام «إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم» [المائدة: ١١٨] وليس فيه أكثر من الرد إلى مشيئة الله تعالى لا تجويز وقوع ذلك.

وقال عبد الله بن وهب: حدثنا عمرو بن الحارث أن بكر بن سوادة حدثه عن عبد الرحمن بن جرير، عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم عليه السلام «رب إلن أصللن كثيراً من الناس» الآية، وقول عيسى عليه السلام «إن تعذبهم فإنهم عبادك» [المائدة: ١١٨] الآية، ثم رفع يديه ثم قال: «اللهم، أنتي، اللهم أنتي، اللهم أنتي» وبكي فقال الله: اذهب يا جبريل إلى محمد، وربك أعلم، وسله ما يكفيك؟ فأتاه جبريل عليه السلام فسألة، فأخبره رسول الله ﷺ ما قال، فقال الله: اذهب إلى محمد فقل له: إنما سنرضيك في أمتك ولا نسوءك^(١).

رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّقَ بَوَادِ عَيْرٍ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمَ رَبِّنَا لِيَقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَقْعِدَةَ مِنْكَ النَّاسِ تَهُوَى إِلَيْهِمْ وَأَرْزُقْهُمْ مِنَ الشَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ

وهذا يدل على أن هذا دعاء ثان بعد الدعاء الأول الذي دعا به عندما ولى عن هاجر وولدها، وذلك قبل بناء البيت، وهذا كان بعد بنائه تأكيداً ورغبة إلى الله عز وجل، ولهذا قال: «عند بيتك المحرّم». وقوله: «ربنا ليقيموا الصلاة» قال ابن جرير^(٢): هو متعلق بقوله «المحرّم» أي إنما جعلته محراً ليتمكن أهله من إقامة الصلاة عنده.

«فاجعل أفتدة من الناس تهوي إليهم» قال ابن عباس ومجاحد وسعيد بن جبير وغيره: لو قال أفتدة الناس لازدحم عليه فارس والروم واليهود والنصارى والناس كلهم، ولكن قال: «من الناس» فاختص به المسلمون وقوله: «وارزقهم من الشمرات» أي ليكون ذلك عوناً لهم على طاعتك، وكما أنه واد غير ذي زرع فاجعل له ثماراً يأكلونها، وقد استجاب الله ذلك كما قال: «أول نمكن لهم حرماً آمناً يجيء إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدننا» [القصص: ٥٧] وهذا من لطفه تعالى وكرمه ورحمته وبركته أنه ليس في البلد الحرام مكة شجرة مشمرة وهي تجبي إليها ثمرات ما حولها استجابة لدعاء الخليل عليه السلام.

رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا تُخْفِي وَمَا تُعْلِنُ وَمَا يَعْلَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاوَاتِ الْحَمْدُ لِلَّهِ

(١) انظر تفسير الطبرى ٤٦١/٧.

(٢) تفسير الطبرى ٤٦٤/٧.

الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكَبِيرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ۝ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمًا الْصَّلَاةَ وَمِنْ دُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقْبَلْ دُعَاءَ ۝ رَبَّنَا أَغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ۝

قال ابن جرير^(١): يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم خليله أنه قال: «ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن» أي أنت تعلم قصدي في دعائي، وما أردت بدعائي لأهل هذا البلد، وإنما هو القصد إلى رضاك والإخلاص لك، فإنك تعلم الأشياء كلها ظاهرها وباطنها، لا يخفى عليك منها شيء في الأرض ولا في السماء، ثم حمد ربه عز وجل على ما رزقه من الولد بعد الكبر، فقال: «الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربى لسميع الدعاء» أي إنه يستجيب لمن دعا، وقد استجاب له فيما سأله من الولد.

ثم قال: «رب اجعلني مقيم الصلاة» أي محافظاً عليها مقيناً لحدودها «ومن ذريتي» أي واجعلهم كذلك مقيمين لها «ربنا وتقبل دعاء» أي فيما سألك فيه كله «ربنا أغرر لي ولوالدي» وقرأ بعضهم: ولوالدي بالإفراد وكان هذا قبل أن يتبرأ من أبيه لما تبين له عداوته لله عز وجل «وللمؤمنين» أي كلهم «يوم يقوم الحساب» أي يوم تحاسب عبادك فتجازيهما بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شرًا فشر.

وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۝ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لَوْمَرْ تَشَخَّصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ۝ مُهَطِّعِينَ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ لَا يَرَنُّ إِلَيْهِمْ طَرْفَهُمْ وَأَفْئِدُهُمْ هَوَاءُ ۝

يقول تعالى: ولا تحسين الله يا محمد غافلاً عما يعمل الطالمون، أي لا تحسنه إذا أنظرتهم وأجلهم أنه غافل عنهم مهمل لهم لا يعاقبهم على صنفهم، بل هو يحصي ذلك ويعده عليهم عداً «إنما يؤخرهم ل يوم شخص فيه الأ بصار» أي من شدة الأهوال يوم القيمة، ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم وعجلتهم إلى قيام المحشر، فقال: «مُهَطِّعِينَ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ لَا يَرَنُّ إِلَيْهِمْ طَرْفَهُمْ وَأَفْئِدُهُمْ هَوَاءُ» قال تعالى: «مُهَطِّعِينَ إِلَى الدَّاعِ» [القمر: ٨] الآية، وقال تعالى: «يَوْمَئِذٍ يَتَبَعُونَ الدَّاعِي لَا عَوْجَ لَهُ» - إلى قوله - «وَعَنْتَ الْوَجْهَ لِلْحَيِّ الْقِيَمَ» [طه: ١٠٨ - ١١١]، وقال تعالى: «يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سَرَّاعًا» [المعارج: ٤٣] الآية. قوله «مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ» قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: رافعي رؤوسهم.

«لَا يَرَنُّ إِلَيْهِمْ طَرْفَهُمْ» أي أبصارهم ظاهرة شاخصة مديمون النظر، لا يطوفون لحظة لكثرة ما هم فيه من الهول والفكرا والمخافة لما يحل بهم، عيادةً بالله العظيم من ذلك، ولهذا قال: «وَأَفْئِدُهُمْ هَوَاءُ» أي وقلوبهم خاوية خالية ليس فيها شيء لكثرة الوجل والخوف، ولهذا قال قتادة وجماعة: إن أمكنة أفتادهم خالية لأن القلوب لدى الحناجر قد خرجت من أماكنها

من شدة الخوف . وقال بعضهم : هي خراب لا تعي شيئاً لشدة ما أخبر به تعالى عنهم ، ثم قال تعالى لرسوله ﷺ :

وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ طَلَمُوا رِبَّا أَخْرِنَا إِنَّا أَجْكِلُ قَرِيبَ نُجْبَ دَعْوَتَكَ وَنَتَسْبِعَ الرَّسُولَ أَوْلَمْ تَكُونُوا أَفْسَمُهُمْ مَنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ۖ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَكِنِ الَّذِينَ طَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلَنَا بِهِمْ وَضَرَبَنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ۖ وَقَدْ مَكْرُوْا مَكْرُهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ۝

يقول تعالى مخبراً عن الذين ظلموا أنفسهم عند معاينة العذاب : «ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجوب دعوتك ونتبع الرسل» كقوله «حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون» [المؤمنون: ٩٩] الآية ، وقال تعالى «يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم» [المنافقون: ٩] الآيتين ، وقال تعالى مخبراً عنهم في حال محشرهم «ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم» [السجدة: ١٢] الآية ، وقال : «ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا» [الأنعام: ٢٧] الآية ، وقال تعالى : «وَهُمْ يصْطَرُخُونَ فِيهَا» [فاطر: ٣٧] الآية ، قال تعالى ردًا عليهم في قولهم هذا «أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال» أي أو لم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحالة أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه وأنه لا معاد ولا جزاء فذوقوا هذا بذلك .

قال مجاهد وغيره «ما لكم من زوال» أي ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة ، كقوله «وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعِثُ اللَّهُ مِنْ يَمْوَتْ» [النحل: ٣٨] الآية ، «وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَكِنِ الَّذِينَ طَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلَنَا بِهِمْ وَضَرَبَنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ» أي قد رأيتم وبلغكم ما حللنا بالأمم المكذبة قبلكم ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر ، ولم يكن فيما أوقعنا بهم لكم مزدجر «حِكْمَةٌ بِالْغَةِ فَمَا تَغْنِي النَّذْرُ» [القمر: ٥] .

وقد روى شعبة عن أبي إسحاق عن عبد الرحمن أن علياً رضي الله عنه قال في هذه الآية «إِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ» قال : أخذ ذاك الذي حاج إبراهيم في ربه نسرين صغيرين ، فرباهما حتى استغلاضاً واستفحلاً وشباه ، قال : فأوثق رجل كل واحد منهمما بوتد إلى تابوت وجوعهما ، وقعد هو ورجل آخر في التابوت ، قال : ورفع في التابوت عصاً على رأسه اللحم فطارا ، وجعل يقول لصاحبه : انظر ما ترى ؟ قال : أرى كذا وكذا حتى قال أرى الدنيا كلها كأنها ذباب . قال : فصوب العصا ، فصوبها فهبطا جميعاً ، قال : فهو قوله عز وجل : «إِنْ كَادَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ» .

قال أبو إسحاق : وكذلك هي في قراءة عبد الله «إِنْ كَادَ مَكْرُهُمْ» قلت : وكذا روی عن أبي بن كعب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهمما أنهمما قرأ «إِنْ كَادَ» كما قرأ علي ، وكذا رواه

سفيان الثوري وإسرائيل عن أبي إسحاق عن عبد الرحمن بن أذنان عن علي فذكر نحوه، وكذا روی عن عكرمة أن سياق هذه القصة للنمرود ملك كنعان أنه رام أسباب السماء بهذه الحيلة والمكر، كما رام فرعون ملك القبط في بناء الصرح فعجزاً وضفأ، وهما أقل وأحرق وأصغر وأدحر، وذكر مجاهد هذه القصة عن بختنصر وأنه لما انقطع بصره عن الأرض وأهلها، نوادي أيها الطاغية أين تريد؟ ففرق ثم سمع الصوت فوقه، فصوب الرماح فصوبت النسور، ففزعوا الجبال من هدتها، وكانت الجبال أن تزول من حس ذلك، فذلك قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولُ مِنْهُ الْجَبَالُ﴾.

ونقل ابن جرير عن مجاهد أنه قرأها ﴿لِتَزُولُ مِنْهُ الْجَبَالُ﴾ بفتح اللام الأولى وضم الثانية، وروى العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولُ مِنْهُ الْجَبَالُ﴾ يقول: ما كان مكرهم لتزول منه الجبال، وكذا قال الحسن البصري، ووجه ابن جرير بأن هذا الذي فعلوه بأنفسهم من شركهم بالله وكفرهم به، ما ضر شيئاً من الجبال ولا غيرها، وإنما عاد وبال ذلك عليهم.

قلت: ويشبه هذا قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرُقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجَبَالَ طَوْلًا﴾ [الإسراء: ٣٧]، والقول الثاني في تفسيرها ما رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولُ مِنْهُ الْجَبَالُ﴾ يقول: شركهم كقوله: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرُنَّ مِنْهُ﴾ الآية، وهكذا قال الضحاك وقتادة.

فَلَا تَحْسِنَ اللَّهُ مُخْلِفٌ وَعَدْهُ، رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو اِنْقَاصٍ^(١) يَوْمَ تَبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ
وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ^(٢)

يقول تعالى مقرأً لوعده ومؤكداً: ﴿فَلَا تَحْسِنَ اللَّهُ مُخْلِفٌ وَعَدْهُ رُسُلُهُ﴾ أي من نصرتهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، ثم أخبر تعالى أنه ذو عزة لا يمتنع عليه شيء أراده ولا يغالب، ذو انتقام من كفر به وجده ﴿وَيُلِّي يَوْمَ الْمَكْذِبِينَ﴾ [الطور: ١١]، ولهذا قال: ﴿يَوْمَ تَبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ أي وعده هذا حاصل يوم تبدل الأرض غير الأرض، وهي هذه على غير الصفة المألوفة المعروفة، كما جاء في الصحيحين من حديث أبي حازم عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «يُحَشِّرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ يَيْضَأُ عَفَرَاءُ كَفْرَصَةُ النَّقَيِّ لِيَسْ فِيهَا مَعْلُمٌ لِأَحَدٍ»^(١).

وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا محمد بن عدي عن داود عن الشعبي عن مسروق، عن عائشة أنها قالت: أنا أول الناس سأله رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿يَوْمَ تَبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ

(١) أخرجه البخاري في الرقاق باب ٤٤، ومسلم في المناقين حديث ٢٨.

(٢) المستند ٣٥ / ٦.

والسموات》 قالت: قلت أين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «على الصراط»^(١)، رواه مسلم منفرداً به دون البخاري، والترمذى وابن ماجه من حديث داود بن أبي هند به، وقال الترمذى: حسن صحيح، ورواه أحمد أيضاً عن عفان عن وهيب عن داود، عن الشعبي عنها، ولم يذكر مسروقاً.

وقال قتادة عن حسان بن بلال المزني عن عائشة رضي الله عنها أنها سألت رسول الله ﷺ عن قول الله: «يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات» قالت: قلت يا رسول الله، فأين الناس يومئذ؟ قال: «لقد سألتني عن شيء ما سأله عنه أحد من أمتي، ذاك أن الناس على جسر جهنم».

وروى الإمام أحمد^(٢) من حديث حبيب بن أبي عمرة عن مجاهد، عن ابن عباس حدثني عائشة أنها سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: «والأرض جميماً قضته يوم القيمة والسموات مطويات بيمنيه» [الزمر: ٦٧] فـأين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «هم على متن جهنم».

وقال ابن حجر^(٣): حدثنا الحسن، حدثنا علي بن الجعد، أخبرنا القاسم، سمعت الحسن قال: قالت عائشة: يا رسول الله «يوم تبدل الأرض غير الأرض» فـأين الناس يومئذ؟ قال: «إن هذا شيء ما سأله عنه أحد». قال - على الصراط يا عائشة، ورواه أحمد^(٤) عن عفان عن القاسم بن الفضل، عن الحسن به.

وقال الإمام مسلم بن الحجاج في صحيحه: حدثني الحسن بن علي الحلواي، حدثني أبو توبه الربيع بن نافع، حدثنا معاوية بن سلام عن زيد يعني أخيه أنه سمع أبا سلام، حدثني أبو اسماء الرحيبي أن ثوبان مولى رسول الله ﷺ حدثه قال: كنت نائماً عند رسول الله ﷺ، فجاءه حبر من أصحاب اليهود، فقال: السلام عليك يا محمد، فدفعته دفعة كاد يصرع منها، فقال: لم تدفعني؟ فقلت: ألا تقول يا رسول الله؟ فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله، فقال رسول الله ﷺ: «إن اسمي محمد الذي سماه به أهلي» فقال اليهودي: جئت أسألك، فقال رسول الله ﷺ: «أينفعك شيئاً إن حدثتك؟» قال: أسمع بأذني، فنكت رسول الله ﷺ بعود معه فقال: «سل» فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟

(١) أخرجه مسلم في المناقين حديث ٢٩، والترمذى في تفسير سورة ١٤، باب ٣، وسورة ٣٩، باب ٦، وابن ماجه في الزهد باب ٣٣.

(٢) المستند ٧٢/٢ . ٨٨.

(٣) تفسير الطبرى ٤٨٢ / ٧ . ٤٨٣.

(٤) المستند ١٠١/٦ .

فقال رسول الله ﷺ: «هم في الظلمة دون الجسر» قال: فمن أول الناس إجازة؟ فقال: «فقراء المهاجرين»، فقال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال: «زيادة كبد النون» قال: فما غذائهم في أثرها؟ قال: «ينحر لهم ثور الجنّة الذي كان يأكل من أطراها» قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «من عين فيها تسمى سلسيلًا». قال: صدقت، قال: وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان. قال: «أينفعك إن حدثتك؟» قال: أسمع بأذني. قال: جئت أسألك عن الولد، قال: «ماء الرجل أبيض، وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعوا فعلا مني الرجل مني المرأة، أذكرا بإذن الله تعالى، وإذا علا منها المرأة مني الرجل، أثنا بإذن الله» قال اليهودي: لقد صدقت وإنك لنبي ثم انصرف، فقال رسول الله ﷺ: «لقد سألني هذا عن الذي سألني عنه، وما لي علم بشيء منه حتى أتاني الله به»^(١).

قال أبو جعفر بن جرير الطبرى^(٢): حدثنا ابن عوف، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا سعيد بن ثوبان الكلاعي، عن أبي أيوب الأنباري أن حبراً من اليهود سأله النبي ﷺ فقال: أرأيت إذ يقول الله تعالى في كتابه: «يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات» فأين الخلق عند ذلك؟ فقال: «أضياف الله فلن يعجزهم ما لديه» ورواه ابن أبي حاتم من حديث أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم به.

وقال شعبة: أخبرنا أبو إسحاق، سمعت عمرو بن ميمون، وربما قال: قال عبد الله، وربما لم يقل، فقللت له عن عبد الله فقال: سمعت عمرو بن ميمون يقول: «يوم تبدل الأرض غير الأرض» قال: أرض كالفضة البيضاء نقية لم يسفك فيها دم ولم يعمل عليها خطيئة، ينفذهم البصر ويسمعهم الداعي حفاة عراة كما خلقوا، قال: أراه قال قياماً حتى يلجمهم العرق.

وروى من وجه آخر عن شعبة عن أبي إسرائيل عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون عن ابن مسعود بن نحوه، وكذا رواه عاصم عن زر عن ابن مسعود به. وقال سفيان الثوري عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون: لم يخبر به، أورد ذلك كله ابن جرير.

وقد قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن عبد الله بن عبيد بن عقيل، حدثنا سهل بن حماد أبو عتاب، حدثنا جرير بن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله، عن النبي ﷺ في قول الله عز وجل: «يوم تبدل الأرض غير الأرض» قال: أرض بيضاء لم يسفك عليها دم، ولم ي العمل عليها خطيئة» ثم قال: لا نعلم رفعه إلا جرير بن أبيوب ، وليس بالقوى.

ثم قال ابن جرير^(٣): حدثنا أبو كريب، حدثنا معاوية بن هشام عن سنان عن جابر

(١) أخرجه مسلم في الحيسن حديث ٣٤.

(٢) تفسير الطبرى ٧/٤٨٣، وفيه: حدثنا محمد بن عون.

(٣) تفسير الطبرى ٧/٤٨٠.

الجعفي، عن أبي جبيرة عن زيد قال: أرسل رسول الله ﷺ إلى اليهود فقال: «هل تدرؤن لم أرسلت إليهم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإني أرسلت إليهم أسألهم عن قول الله **﴿يَوْمَ تَبَدِّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾** إنها تكون يومئذ بيضاء مثل الفضة» فلما جاؤوا سألهم، فقالوا: تكون بيضاء مثل النقى، وهكذا روى عن علي وابن عباس وأنس بن مالك ومجاحد بن جبر أنها تبدل يوم القيمة بأرض بيضاء من فضة.

وعن علي رضي الله عنه أنه قال: تصير الأرض فضة والسموات ذهباً. وقال الريبع عن أبي العالية بن كعب، قال: تصير السموات جناناً. وقال أبو معشر عن محمد بن كعب القرظي أو عن محمد بن قيس في قوله: **﴿يَوْمَ تَبَدِّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾** قال: خبزة يأكل منها المؤمنون من تحت أقدامهم، وكذا روى وكيع عن عمر بن بشير الهمданى عن سعيد بن حبیر في قوله: **﴿يَوْمَ تَبَدِّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾** قال: تبدل الأرض خبزة يأكل المؤمن من تحت قدميه.

وقال الأعمش عن خيثمة قال: قال عبد الله بن مسعود: الأرض يوم القيمة كلها نار، والجنة من ورائها ترى كوابها، وأكوابها، ويلجم الناس العرق أو يبلغ منهم العرق، ولم يبلغوا الحساب^(١). وقال الأعمش أيضاً عن المنھال بن عمرو عن قيس بن السکن قال: قال عبد الله: الأرض كلها نار يوم القيمة، والجنة من ورائها ترى أكوابها وكوابها، والذي نفس عبد الله بيده، إن الرجل ليغوص عرقاً حتى ترسخ في الأرض قدمه، ثم يرتفع حتى يبلغ أنفه وما مسه الحساب، قالوا: مم ذلك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: مما يرى الناس ويلقون^(٢). وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن كعب في قوله: **﴿يَوْمَ تَبَدِّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ والسموات﴾** قال: تصير السموات جناناً، ويصير مكان البحر ناراً، وتبدل الأرض غيرها.

وفي الحديث الذي رواه أبو داود لا يركب البحر إلا غاز أو حاج أو معتمر، فإن تحت البحر ناراً - أو تحت النار بحراً - ^(٣) وفي حديث الصور المشهور المروي عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «يبدل الله الأرض غير الأرض والسموات فيبسطها ويمدها مد الأديم العكاظي، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، ثم يزجر الله الخلق زجرة فإذا هم في هذه المبدلة». وقوله: **﴿وَبَرَزَوا إِلَهٌ﴾** أي خرجت الخلائق جميعها من قبورهم لله **﴿الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾** أي الذي قهر كل شيء وغلبه ودانت له الرقاب وخضعت له الأباب.

وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّفَرَّبِينَ فِي الْأَصْفَادِ ۝ سَرَايِّهِمْ مِّنْ قَطِرَانٍ وَتَعْنَى وُجُوهَهُمْ أَنَّا زَارَ ۝ لِيَحْرِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝

(١) انظر تفسير الطبرى ٤٨٠ / ٧.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٤٨٠ / ٧.

(٣) أخرجه أبو داود في الجهاد باب ٩.

يقول تعالى: «**يَوْمَ تَبَدِّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ**» وتبز الخلاائق لديانها، ترى يا محمد يومئذ المجرمين وهم الذين أجرموا بکفراهم وفسادهم «**مَقْرَنِينَ**» أي بعضهم إلى بعض قد جمع بين النظرة أو الأشكال منهم كل صنف إلى صنف، كما قال تعالى: «**إِحْشِرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ**» [الصفات: ٢٢] وقال: «**وَإِذَا النُّفُوسُ زُوَّجْتُ**» [التوكير: ٧] وقال: «**وَإِذَا أَلْقَوْا مِنْهَا مَكَانًا ضِيقًا مَقْرَنِينَ دَعَوَا هَنَالِكَ ثُبُورًا**» [الفرقان: ١٣] وقال: «**وَالشَّيَاطِينُ كُلُّ** بناء وغواص وآخرين مقرنين في **الْأَصْفَادِ**» [ص: ٣٧ - ٣٨] والأصفاد هي القيود، قاله ابن عباس وسعيد بن جبير والأعمش وعبد الرحمن بن زيد، وهو مشهور في اللغة، قال عمرو بن كلثوم: [الوافر]

فَأَبَوَا بِالثِّيَابِ وَبِالسَّبَابِيَا أَبْنَا بِالْمَلْوُكِ مَصْفَدِنَا^(١)

وقوله: «**سَرَابِيلَهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ**» أي ثيابهم التي يلبسونها من قطران، وهو الذي تهأء به الإبل أي تطلّى، قال قتادة: وهو أصلق شيء بالنار. ويقال فيه: قطران بفتح القاف وكسر الطاء وتسكينها، وبكسر القاف وتسكين الطاء، ومنه قول أبي النجم: [رجز]

كَأَنَّ قَطْرَانًا إِذَا تَلَاهَا تَرْمِي بِهِ الرِّيحُ إِلَى مَجْرَاهَا^(٢)

وكان ابن عباس يقول: القطران هنا النحاس المذاب، وربما قرأها «**سَرَابِيلَهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ**» أي من نحاس حار قد انتهى حرّه، وكذا روي عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة. قوله: «**وَتَغْشِي وَجْهَهُمُ النَّارَ**» كقوله: «**تَلْفُحُ وَجْهَهُمُ النَّارِ وَهُمْ فِيهَا كَالْحُوْنَ**» [المؤمنون: ١٠٤] وقال الإمام أحمد^(٣) رحمه الله: حدثنا يحيى بن إسحاق، أبناؤنا أبان بن يزيد عن يحيى بن أبي كثیر عن زید عن أبي سلام، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع من أمر الجاهلية لا يتذكرن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنیاحة على الميت، والنیاحة إذا لم تتب قبل موتها، تقام يوم القيمة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب» انفرد بإخراجه مسلم^(٤). وفي حديث التاسم عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «النیاحة إذا لم تتب توقف في طريق بين الجنة والنار سرابيلها من قطران وتغشى وجهها النار».

وقوله: «**لِيَجْزِي اللَّهُ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ**» أي يوم القيمة كما قال: «**لِيَجْزِي الَّذِينَ أَسَأُوا بِمَا عَمِلُوا**» [النجم: ٣١] الآية «**إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**» يحتمل أن يكون كقوله تعالى:

(١) البيت في تفسير الطبرى / ٧، ٤٨٤ ، والشطر الثاني في تفسير البحر المحيط . ٤١٩ / ٥

(٢) الرجز في تفسير الطبرى / ٧، ٤٨٥

(٣) المسند / ٥، ٣٤٣، ٣٤٢ . ٣٤٤

(٤) كتاب الجنائز حديث . ٢٩

﴿اقرب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون﴾ [الأنبياء: ١] ويحتمل أنه في حال محاسبته لعبد سريع النجاز لأنه يعلم كل شيء، ولا يخفى عليه خافية، وإن جميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم، كقوله تعالى: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾ [لقمان: ٢٨] وهذا معنى قول مجاهد ﴿سريع الحساب﴾ إحسانه ويحتمل أن يكون المعنيان مرادين، والله أعلم.

هَذَا بَكْنُغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنَذَرُوْفَإِبِهِ، وَلِيَعْلَمُوْا أَنَّهُمْ هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ

يقول تعالى هذا القرآن بلاغ للناس كقوله: ﴿لَأَنذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأعراف: ١٩] أي هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجن كما قال في أول السورة: ﴿الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور﴾ [إبراهيم: ١] الآية، ﴿وَلِيُنذِرُوْهُ﴾ أي ليتعظوا به ﴿وَلِيَعْلَمُوْا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أي يستدلوا بما فيه من الحجج والدلائل على أنه لا إله إلا هو ﴿وَلِيَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي ذوي العقول.

آخر تفسير سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، والحمد لله رب العالمين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّتْلَكَ مَا يَتَبَعَ وَقُرْءَانِ مُبِينٍ ① رَبِّمَا يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ② دَرَّهُمْ
يَأْكُلُوا رَيْتَمَتَعُوا وَيَلِهِمْ ③ الْأَمْلَ فَسَوْفَ يَأْمُونَ ④

قد تقدم الكلام على العروض المقطعة في أوائل السور. وقوله تعالى «ربما يود الذين كفروا» الآية، إخبار عنهم سيندمون على ما كانوا فيه من الكفر، ويتمون لو كانوا في الدنيا مسلمين، ونقل السدي في تفسيره بسنده المشهور عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة، أن كفار قريش لما عرضوا على النار تمنوا أن لو كانوا مسلمين. وقيل: إن المراد أن كل كافر يود عند احتضاره أن لو كان مؤمناً. وقيل: هذا إخبار عن يوم القيمة، ك قوله تعالى: «ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بأيات ربنا ونكون من المؤمنين» [الأنعام: ٢٧] وقال سفيان الثوري عن سلمة بن كهيل، عن أبي الزعراء، عن عبد الله في .

قوله: «ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين» قال: هذا في الجهنمين إذا رأوه يخرجون من النار^(١)، وقال ابن جرير^(٢): حدثي المثنى، حدثنا مسلم، حدثنا القاسم، حدثنا ابن أبي فروة العبدى أن ابن عباس وأنس بن مالك كانوا يتاؤلان هذه الآية «ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين» يتاؤلاتها يوم يحبس الله أهل الخطايا من المسلمين مع المشركين في النار، قال: فيقول لهم المشركون: ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون في الدنيا، قال: فيغضب الله لهم بفضل رحمته فيخرجهم، فذلك حين يقول: «ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين»^(٣).

وقال عبد الرزاق: أخبرنا الثوري عن حماد عن إبراهيم، وعن خصيف عن مجاهد قالا: يقول أهل النار للموحدين: ما أغنى عنكم إيمانكم؟ فإذا قالوا ذلك، قال الله: أخرجو من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، قال: فعند ذلك قوله: «ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين»^(٤)، وهكذا روى عن الضحاك وقتادة وأبي العالية وغيرهم، وقد ورد في ذلك أحاديث مرفوعة.

(١) انظر تفسير الطبرى ٤٩٠/٧.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٤٩٠/٧.

(٣) تفسير الطبرى ٤٩٠/٧.

(٤) راجع الحاشية السابقة.

قال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا محمد بن العباس هو الأخرم ، حدثنا محمد بن منصور الطوسي ، حدثنا صالح بن إسحاق الجهذب وابن علية يحيى بن موسى ، حدثنا معروف بن واصل عن يعقوب بن نباتة عن عبد الرحمن الأغر ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إن ناساً من أهل لا إله إلا الله يدخلون النار بذنبهم ، فيقول لهم أهل اللات والعزى : ما أغني عنكم قولكم لا إله إلا الله وأنتم معنا في النار ؟ فيغضب الله لهم فيخرجهم فيلقينهم في نهر الحياة ، فيبرؤون من حرقهم كما يبرأ القمر من خسوفه ، ويدخلون الجنة ويسمون فيها الجهنمين» ، فقال رجل : يا أنس أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ ؟ فقال أنس : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من كذب علي متعمداً فليتبوا مقدنه من النار» نعم أنا سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا ، ثم قال الطبراني : تفرد به الجهذب .

[الحديث الثاني] - قال الطبراني أيضاً : حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ، حدثنا أبو الشعثاء علي بن حسن الواسطي ، حدثنا خالد بن نافع الأشعري عن سعيد بن أبي بردة عن أبيه ، عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا اجتمع أهل النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة ، قال الكفار لل المسلمين : ألم تكونوا مسلمين ؟ قالوا : بلـ ، قالوا : فما أغني عنكم الإسلام وقد صرتم معنا في النار ؟ قالوا : كانت لنا ذنوب فأخذنا بها ، فسمع الله ما قالوا فأمر بمن كان في النار من أهل القبلة فآخرجوها . فلما رأى ذلك من بقى من الكفار قالوا : ياليتنا كنا مسلمين فنخرج كما خرجوا - قال : ثم قرأ رسول الله ﷺ - أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿أَلْرَ تَلَكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنَ سَبِّينَ رَبِّيْمَا يُودُ الَّذِيْنَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِيْنَ﴾ ورواه ابن أبي حاتم من حديث خالد بن نافع به ، وزاد فيه : بسم الله الرحمن الرحيم عوض الاستعاذه .

[ال الحديث الثالث] قال الطبراني أيضاً : حدثنا موسى بن هارون ، حدثنا إسحاق بن راهويه ، قال : قلت لأبيأسامة أحدهمكم أبو روق واسميه عطية بن الحارث حدثني صالح بن أبي طريف قال : سألت أبي سعيد الخدري فقلت له : هل سمعت رسول الله ﷺ يقول في هذه الآية ﴿رَبِّيْمَا يُودُ الَّذِيْنَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِيْنَ﴾ ؟ قال : نعم سمعته يقول : «يخرج الله ناساً من المؤمنين من النار بعدما يأخذ نقمته منهم» وقال : «لما دخلهم الله النار مع المشركين ، قال لهم المشركون : تزعمون أنكم أولياء الله في الدنيا فيما بلاكم معنا في النار ، فإذا سمع الله ذلك منهم أذن في الشفاعة لهم ، فتشفع لهم الملائكة والنبيون ، ويشفع المؤمنون حتى يخرجوا بإذن الله ، فإذا رأى المشركون ذلك قالوا : ياليتنا كنا مثلهم فتدركنا الشفاعة فنخرج معهم - قال - فذلك قول الله ﴿رَبِّيْمَا يُودُ الَّذِيْنَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِيْنَ﴾ فيسمون في الجنة الجهنمين من أجل سواد في وجوههم ، فيقولون : يا رب أذهب عنا هذا الاسم ، فأأمرهم فيغسلون في نهر في الجنة فيذهب ذلك الاسم عنهم » فأقرّ به أبوأسامة وقال نعم .

[الحديث الرابع] قال ابن أبي حاتم، حدثنا علي بن الحسين، حدثنا العباس بن الوليد النرسبي، حدثنا مسكين أبو فاطمة، حدثني اليمان بن يزيد عن محمد بن جبر عن محمد بن علي، عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «منهم من تأخذه النار إلى ركبته، ومنهم من تأخذه إلى حجزته^(١)، ومنهم من تأخذه النار إلى عنقه، على قدر ذنبهم وأعمالهم، ومنهم من يمكث فيها شهراً ثم يخرج منها، ومنهم من يمكث فيها سنة ثم يخرج منها، وأطولهم فيها مكتناً بقدر الدنيا منذ يوم خلقت إلى أن تفني، فإذا أراد الله أن يخرجهم منها قال التوحيد: أَمْتُمْ بِاللهِ وَكُتبَهُ وَرَسُلَهُ فَنَحْنُ وَأَنْتُمْ يَوْمَ الْيَوْمِ فِي النَّارِ سَوَاءٌ، فَيُغَضِّبُ اللَّهُ لَهُمْ غَصْبًا لَمْ يَعْصِمْ لَهُمْ شَيْءٌ فِيمَا مَضَى، فَيُخْرِجُهُمْ إِلَى عَيْنِ الْجَنَّةِ وَهُوَ قُولُهُ: «وَبِمَا يُودُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ»».

وقوله: «ذرهم يأكلوا ويتمتعوا» تهديد شديد لهم ووعيد أكيد، كقوله تعالى: «قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ» [النجم: ٣٠]. قوله: «كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرَمُونَ» [المرسلات: ٤٦]، ولهذا قال: «وَيَلِهِمْ أَمْلًا» أي عن التوبة والإذابة «فَسُوفَ يَعْلَمُونَ» أي عاقبة أمرهم.

وَمَا أَهْلَكَنَا مِنْ قَرِيَّةٍ إِلَّا وَهُنَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ مَا سَيِّئَ مِنْ أَنَّهُ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ

يخبر تعالى أنه ما أهلك قرية إلا بعد قيام الحجة عليها وانتهاء أجلها، وأنه لا يؤخر أمة حان هلاكها عن ميقاتها ولا يتقدمون عن مدتهم، وهذا نبيه لأهل مكة وإرشاد لهم إلى الإقلاع عمما هم عليه من الشرك والعناد والإلحاد الذي يستحقون به الهلاك.

وَقَالُوا يَتَأْتِيهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الْذِكْرُ إِنَّكَ لِمَجْنُونٌ لَوْ مَا كَتَبْنَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ مَا نُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ إِلَّا يَالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ إِنَّا نَحْنُ نَرَلَنَا الْذِكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَكَفِيلُونَ

يخبر تعالى عن كفرهم وعنادهم في قولهم «يا أيها الذي نزل عليه الذكر» أي الذي تدعى ذلك «إنك لمجنون» أي في دعائك إيانا إلى اتباعك وترك ما وجدنا عليه آباءنا «لو ما» أي هلا «تأتينا بالملائكة» أي يشهدون لك بصحة ما جئت به إن كنت من الصادقين، كما قال فرعون «فلولا ألقى عليه أسوة من ذهب أو جاء معه الملائكة مفترضين» [الزخرف: ٥٢]، وقال الذين لا يرجون لقاءنا لو لا نزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم «وعنوا عتوأ كبيراً يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً»

(١) الحُجْزَةُ: معقد الإزار.

[الفرقان: ٢١ - ٢٢]، وكذا قال في هذه الآية: ﴿مَا نَزَّلَ الْمَلَائِكَةُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا
مُنْظَرِينَ﴾.

وقال مجاهد في قوله: ﴿مَا نَزَّلَ الْمَلَائِكَةُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ بالرسالة والعقاب^(١)، ثم قرر تعالى أنه هو الذي أنزل عليه الذكر وهو القرآن، وهو الحافظ له من التغيير والتبدل، ومنهم من أعاد الضمير في قوله تعالى: ﴿لَهُ لِحَافِظُونَ﴾ على النبي ﷺ، كقوله ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ والمعنى الأول أولى وهو ظاهر السياق.

وَلَقَدْ أَرَسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيعَ الْأَوَّلِينَ ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهِزُونَ﴾ كَذَلِكَ
نَسْلَكُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَّتْ سَنَةُ الْأَوَّلِينَ﴾

يقول تعالى مسلياً لرسوله ﷺ في تكذيب من كذبه من كفار قريش: إنه أرسل من قبله في الأمم الماضية وإنه ما أتى أمة من رسول إلا كذبوه واستهزءوا به، ثم أخبر أنه سلك التكذيب في قلوب المجرمين الذين عاندوا واستكروا عن اتباع الهدى قال أنس والحسن البصري ﴿كَذَلِكَ نَسْلَكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ يعني الشرك^(٢). قوله ﴿قَدْ خَلَّتْ سَنَةُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي قد علم ما فعل تعالى بمن كذب رسle من الهلاك والدمار، وكيف أنجى الله الأنبياء وأتباعهم في الدنيا والآخرة.

وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَطَلَوْا فِيهِ يَعْرِجُونَ ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرْتَ أَنْصَرْنَا بِلَنْحَنْ قَوْمًا
مَسْحُورُونَ﴾

يخبر تعالى عن قوّة كفراهم وعنادهم ومكابرتهم للحق أنه لو فتح لهم باباً من السماء فجعلوها يصعدون فيه لما صدقوا بذلك، بل قالوا: ﴿إِنَّا سُكِّرْتَ أَنْصَرْنَا بِلَنْحَنْ قَوْمًا﴾ قال مجاهد وابن كثير والضحاك: سدت أبصارنا. وقال قتادة عن ابن عباس: أخذت أبصارنا. وقال العوفي عن ابن عباس: شبه علينا وإنما سحرنا. وقال الكلبي: عميت أبصارنا. وقال ابن زيد: ﴿سُكِّرْتَ أَبْصَارَنَا﴾، السكران الذي لا يعقل^(٣).

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَاهَا لِلنَّظَرِينَ ﴿وَحَفَظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَنٍ رَّجِيمٍ﴾ إِلَّا مَنْ
أَسْرَقَ السَّمَعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُّبِينٌ ﴿وَالْأَرْضَ مَدَّنَاهَا وَأَنْتَسَنَا فِيهَا رَوْسَى وَأَنْبَتَنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ
مَّوْرُونَ﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشًا وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَزْقَنَ

(١) انظر تفسير الطبرى ٤٩٣/٧.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٤٩٤/٧.

(٣) انظر تفسير الطبرى ٤٩٨/٧.

يذكر تعالى خلقه السماء في ارتفاعها وما زينها به من الكواكب الثوابت والسيارات، لمن تأمل وكرر النظر فيما يرى من العجائب والآيات الباهرات، ما يحאר نظره فيه، وبهذا قال مجاهد وقتادة: البروج هنا هي الكواكب. (قلت): وهذا كقوله تبارك وتعالى ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجا﴾ [الفرقان: ٦١] الآية. ومنهم من قال: البروج هي منازل الشمس والقمر. وقال عطية العوفي: البروج هنا هي قصور الحرمس. وجعل الشهب حرساً لها من مردة الشياطين لثلا يسمعوا إلى الملاّ الأعلى، فمن تمرد وتقدم منهم لاستراق السمع جاءه شهاب مبين فأتلفه، فربما يكون قد ألقى الكلمة التي سمعها قبل أن يدركه الشهاب إلى الذي هو دونه فيأخذها الآخر ويأتي بها إلى وليه، كما جاء مصرياً به في الصحيح.

كما قال البخاري^(١) في تفسير هذه الآية: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان عن عمرو عن عكرمة، عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاً لقوله كأنه سلسلة على صفوان» قال علي و قال غيره صفوان ينفذهم ذلك، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: للذى قال الحق وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترقوا السمع، ومسترقوا السمع هكذا واحد فوق آخر، ووصف سفيان بيده، وفوجء بين أصابع يده اليمنى، نصبهما فوق بعض، فربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يرمي بها إلى صاحبه فيحرقه، وربما لم يدركه حتى يرمي بها إلى الذي يليه إلى الذي هو أسفل منه حتى يلقوها إلى الأرض، وربما قال سفيان: حتى تنتهي إلى الأرض فتلقي على فم الساحر أو الكاهن فيكذب معها مائة كذبة فيصدق، فيقولون: ألم يخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا، فوجدناه حقاً للكلمة التي سمعت من السماء.

ثم ذكر تعالى خلقه الأرض ومده إليها وتوسيعها وبسطها، وما جعل فيها من الجبال الرواسية، والأودية والأراضي والرمال، وما أنبت فيها من الزروع والشمار المتتناسبة.

وقال ابن عباس ﴿من كل شيء موزون﴾ أي معلوم، وكذلك قال سعيد بن جبیر وعكرمة وأبو مالک ومجاهد والحكم بن عتبة والحسن بن محمد وأبو صالح وقتادة، ومنهم من يقول: مقدر بقدر. وقال ابن زید: من كل شيء يوزن ويقدر بقدر، وقال ابن زید: ما يزن أهل الأسواق. وقوله: ﴿وجعلنا لكم فيها معيش﴾ يذكر تعالى أنه صرفهم في الأرض في صنوف الأسباب والمعايير وهي جمع معيشة. وقوله: ﴿ومن لستم له برازقين﴾ قال مجاهد: هي الدواب والأنعام.

(١) كتاب التفسير، تفسير سورة ١٥، باب ١، وتفسير سورة ٣٤، باب ١.

وقال ابن جرير^(١): هم العبيد والإماء والدواب والأنعام، والقصد أنه تعالى يمتن عليهم بما يسر لهم من أسباب المكاسب ووجوه الأسباب وصنوف المعاش، وبما سخر لهم من الدواب التي يركبونها، والأنعام التي يأكلونها، والعبيد والإماء التي يستخدمونها، ورزقهم على خالقهم لا عليهم، فلهم هم المنفعة، والرزق على الله تعالى.

وَإِنْ مَنْ شَاءَ إِلَّا عَنَدَنَا خَرَائِمُهُ وَمَا نَزَّلَهُ إِلَّا بِقَدْرٍ مَعْلُومٍ ۝ وَأَرْسَلَنَا الرِّيحَ لِوَقْعَ فَأَنْزَلَنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاهُمْ وَمَا أَنْشَأْنَاهُمْ إِلَّا بِخَرَائِمٍ ۝ وَإِنَّا لَنَحْنُ نَحْنُ ۝ وَنَبِيَّنَ ۝ وَنَعْنَ الْوَرْثَنَ ۝ وَلَقَدْ عَلَمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلَمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِلَيْنَا حَرَكِيمَ عَلِمْ ۝

يخبر تعالى أنه مالك كل شيء وأن كل شيء سهل عليه يسير لديه، وأن عنده خزائن الأشياء من جميع الصنوف «وما نزله إلا بقدر معلوم» كما يشاء وكما يريد، ولما له في ذلك من الحكمة البالغة والرحمة بعباده لا على جهة الوجوب بل هو كتب على نفسه الرحمة قال يزيد بن أبي زياد عن أبي حبيفة عن عبد الله: ما من عام بأمطار من عام، ولكن الله يقسمه بينهم حيث شاء عاماً هننا وعاماً هننا، ثم قرأ «وإن من شيء إلا عندنا خزائنه» الآية، رواه ابن جرير^(٢)، وقال أيضاً: حدثنا القاسم، حدثنا هشيم، أخبرنا إسماعيل بن سالم عن الحكم بن عتبة في قوله: «وما نزله إلا بقدر معلوم» قال: ما عام بأكثر مطرًا من عام ولا أقل، ولكنه يمطر قوم ويحرم آخرون بما كان في البحر، قال: وبلغنا أنه يتزل مع المطر من الملائكة أكثر من عدد ولد إبليس، وولد آدم يحصلون كل قطرة حيث تقع وما تنبت^(٣).

وقال البزار: حدثنا داود هو ابن بكير، حدثنا حيان بن أغلب بن تميم، حدثني أبي عن هشام، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خزائن الله الكلام، فإذا أراد شيئاً قال له كن فكان» ثم قال: لا يرويه إلا أغلب وليس بالقوى، وقد حدث عنه غير واحد من المتقدمين، ولم يروه عنه إلا ابنه. قوله تعالى: «وأرسلنا الرياح لواقع» أي تلقي السحاب فتدبر ماء، وتلقي الشجر فتفتح عن أوراقها وأكمامها، وذكرها بصيغة الجمع ليكون منها الإنتاج بخلاف الريح العقيم، فإنه أفردها ووصفها بالعقيم وهو عدم الإنتاج، لأنه لا يكون إلا من شيئين فصاعداً.

وقال الأعمش عن المنهاج بن عمرو، عن قيس بن السكن، عن عبد الله بن مسعود في قوله: «وأرسلنا الرياح لواقع» قال: ترسل الريح فتحمل الماء من السماء، ثم تمرى السحاب

(١) تفسير الطبرى / ٧ / ٥٠٣ .

(٢) تفسير الطبرى / ٧ / ٥٠٣ ، ٥٠٤ .

(٣) تفسير الطبرى / ٧ / ٥٠٤ .

حتى تدر كما تدر اللقحة، وكذا قال ابن عباس وإبراهيم النخعي وقتادة. وقال الضحاك: يبعثها الله على السحاب فتلقحه فيمتلىء ماء. وقال عبيد بن عمير الليثي: يبعث الله المبشرة فتقم الأرض قماً، ثم يبعث الله المثيرة فتشير السحاب، ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف السحاب، ثم يبعث الله الواقف فتلقح الشجر، ثم تلا **﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّياحَ لِوَاقِهِ﴾**.

وقد روى ابن جرير^(١) من حديث عبيس بن ميمون عن أبي المهزم عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «الريح الجنوب من الجنة، وهي التي ذكر الله في كتابه، وفيها منافع للناس» وهذا إسناد ضعيف، وقال الإمام أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدي في مستنه. حدثنا سفيان، حدثنا عمرو بن دينار، أخبرني يزيد بن جعدية الليثي أنه سمع عبد الرحمن بن مخراف يحدث عن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق في الجنة ريحًا بعد الريح بسبعين سنين، وإن من دونها باباً مغلقاً، وإنما يأتيكم الريح من ذلك الباب، ولو فتح لأذرت ما بين السماء والأرض من شيء، وهي عند الله الأزب^(٢)، وهي فيكم الجنوب».

وقوله: **﴿فَأَسْقَيْنَاكُمْهُ﴾** أي أنزلناه لكم عذباً يمكنكم أن تشربوا منه لو نشاء جعلناه أحاجاً، كما نبه على ذلك في الآية الأخرى في سورة الواقعة، وهو قوله تعالى: **﴿أَفَرَأَيْتَمِ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ أَتْنَمَ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمَنَنِ أَمْ نَحْنُ الْمَنَّالُونَ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَا أَجَاجًاً فَلَوْلَا تَشَكَّرُونَ﴾** [الواقعة: ٦٨]، وفي قوله: **﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تَسْبِيمُونَ﴾** [النحل: ١٠]. وقوله: **﴿وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾** قال سفيان الثوري: بما نعین، ويتحمل أن المراد وما أنتم له بحافظين، بل نحن ننزله ونحفظه عليكم ونجعله معيناً وينابيع في الأرض، ولو شاء تعالى لأغاره وذهب به، ولكن من رحمته أنزله وجعله عذباً، وحفظه في العيون والآبار والأنهار وغير ذلك، ليقوى لهم في طول السنة يشربون ويسقون أنعامهم وزروعهم وثمارهم.

وقوله: **﴿وَإِنَا لَنَحْنُ نَحْبِي وَنَمِيتُ﴾** إخبار عن قدرته تعالى على بدء الخلق وإعادته، وأنه هو الذي أحيا الخلق من العدم، ثم يميتهم ثم يبعثهم كلهم ليوم الجمع، وأخبر أنه تعالى يirth الأرض ومن عليها، وإليه يرجعون، ثم أخبر تعالى عن تمام علمه بهم أولهم وآخرهم، فقال: **﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ﴾** الآية، قال ابن عباس رضي الله عنهما: المستقدمون كل من هلك من لدن آدم عليه السلام، والمستأخرون من هو حي ومن سيأتي إلى يوم القيمة، وروي نحوه عن عكرمة ومجاحد والضحاك وقتادة ومحمد بن كعب والشعبي وغيرهم، وهو اختيار ابن جرير^(٣) رحمه الله.

(١) تفسير الطبرى ٥٠٦/٧، وفيه: عيسى بن ميمون بدل عبيس بن ميمون.

(٢) الأزب: رياح الجنوب، وتسمى النكاء تجري بينها وبين الصبا.

(٣) تفسير الطبرى ٥٠٧/٧، ٥٠٨.

وقال ابن جرير^(١): حديثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه، عن رجل، عن مروان بن الحكم أنه قال: كان أناس يستأخرون في الصفوف من أجل النساء، فأنزل الله ﷺ ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين^{*}، وقد ورد فيه حديث غريب جداً، فقال ابن جرير^(٢): حديثي محمد بن موسى الجرجسي، حدثنا نوح بن قيس، حدثنا عمرو بن قيس، حدثنا عمرو بن مالك عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت تصلي خلف النبي ﷺ امرأة حسناء، قال ابن عباس: لا والله ما رأيت مثلها قط، وكان بعض المسلمين إذا صلوا استقدموا، يعني لئلا يروها، وبعض يستأخرون، فإذا سجدوا نظروا إليها من تحت أيديهم، فأنزل الله ﷺ ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين^{*}^(٣).

وكذا رواه أحمد وابن أبي حاتم في تفسيره، ورواه الترمذى والنمسائى في كتاب التفسير من سننهم، وابن ماجه من طرق عن نوح بن قيس الحداني، وقد ثقه أحمد وأبو داود وغيرهما، وحکي عن ابن معين تضعيفه، وأخرجه مسلم وأهل السنن، وهذا الحديث فيه نكارة شديدة، وقد رواه عبد الرزاق عن جعفر بن سليمان، عن عمرو بن مالك وهو النكري أنه سمع أبا الجوزاء يقول في قوله: ﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم﴾ في الصفوف في الصلاة ﴿وال المستأخرين﴾ فالظاهر أنه من كلام أبي الجوزاء فقط، ليس فيه لابن عباس ذكر، وقد قال الترمذى: هذا أشبه من رواية نوح بن قيس، والله أعلم.

وهكذا روى ابن جرير^(٤) عن محمد بن أبي معاشر، عن أبيه أنه سمع عون بن عبد الله يذكر محمد بن كعب في قوله: ﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين﴾ وأنها في صفوف الصلاة، فقال محمد بن كعب: ليس هكذا ﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم﴾ الميت والمقتول ﴿وال المستأخرين﴾ من يخلق بعد ﴿وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم علیم﴾ فقال عون بن عبد الله: وفقك الله وجزاك خيراً.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمِّىٍّ مَّسْتُونٍ ﴾^{٢٧} ﴿وَلَجَانَ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلٍ مِّنْ نَارٍ أَسْمُوْرٍ﴾

قال ابن عباس ومجاحد وقتادة: المراد بالصلصال هنا التراب اليابس، والظاهر أنه كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَارِ وَخَلَقَ الْجَانَ مِنْ مَارِجِ نَارٍ﴾ [الرحمن: ١٤] -

(١) تفسير الطبرى ٥٠٩/٧.

(٢) تفسير الطبرى ٥٠٩/٧، ٥١٠، وفيه محمد بن موسى الحرسى بدل الجرجسي.

(٣) أخرجه الترمذى في تفسير سورة ١٥، باب ١، والنمسائى في الإمامة باب ٦٢، وابن ماجه في الإقامة باب ٦٨، وأحمد في المسند ١/٣٠٥.

(٤) تفسير الطبرى ٥٠٧/٧.

[١٥] وعن مجاهد أيضاً **﴿الصلصال﴾** المتن، وتفسير الآية بالأية أولى. قوله: «من حما مسنون» أي الصلصال من حما، وهو الطين. والمسنون: الأملس، كما قال الشاعر: [الخفيف]

ثم خاصرتُها إلى القبة الخضراء تمشي في مرمي مسنون^(١)

أي أملس صقيل، ولهذا روي عن ابن عباس أنه قال: هو التراب الرطب، وعن ابن عباس ومجاهد أيضاً والضحاك: أن الحما المسنون هو المتن. وقيل: المراد بالمسنون هبنا المصبوب. قوله: **﴿والجان خلقناه من قبل﴾** أي من قبل الإنسان **﴿من نار السmom﴾** قال ابن عباس: هي السmom التي قتلت، وقال بعضهم: السmom بالليل والنهار، ومنهم من يقول: السmom بالليل والحرور بالنهار. وقال أبو داود الطيالي: حدثنا شعبة عن أبي إسحاق قال: دخلت على عمر الأصم أعوده، فقال: ألا أحدثك حديثاً سمعته من عبد الله بن مسعود، يقول هذه السmom جزء من سبعين جزءاً من السmom التي خلق منها الجنان، ثم قرأ **﴿والجان خلقناه من قبل من نار السmom﴾**.

وعن ابن عباس: أن الجن خلق من لهب النار، وفي رواية: من أحسن النار. وعن عمرو بن دينار: من نار الشمس. وقد ورد في الصحيح «خلقت الملائكة من نور، وخلقت الجن من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»^(٢). والمقصود من الآية التنبيه على شرف آدم عليه السلام وطيب عنصره وطهارة محتده.

وإذ قال ربكم للملائكة إني خلقي بشكراً من صلبانٍ من حمأ مسنونٍ فلما سمعوه وفتحت فيه من روحه فقاموا لهم ساجدين فسجدت الملائكة كلهم أجمعون إلا إيليس أبن آدم يكُون مع الساجدين قال يتأنى إيليس مالك لا تكون مع الساجدين قال لم أكن لأسجد لبشرٍ خلقته من صلبانٍ من حمأ مسنونٍ

يدرك تعالى تنويهه بذكر آدم في ملائكته قبل خلقه وتشريفيه إياه بأمر الملائكة بالسجود له، ويذكر تخلف إيليس عدوه عن السجود له من بين سائر الملائكة حسداً وكفراً وعناداً واستكباراً وافتخاراً بالباطل، ولهذا قال: **﴿لَمْ أَكُنْ لأسجِد لبشرٍ خلقته من صلصالٍ من حمأ مسنون﴾** قوله **﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ مَنْ خَلَقْتَنِي مِنْ طِين﴾** [الأعراف: ١٢] قوله: **﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا**

(١) البيت لأبي دهبل الجمحي في ديوانه ص ٧٠، ولسان العرب (خصر)، (سنن)، والتبيه والإيضاح ١٥٥/٢، ولعبد الرحمن بن حسان في أساس البلاغة (خصر)، وتهذيب اللغة ٧/١٢٧، وタاج العروس (سنن)، ولأبي العيال أو لعبد الرحمن بن حسان في لسان العرب (سنن)، والكامل ص ٣٨٨، وجمهرة اللغة ص ٥٨٦، وكتاب العين ٤/١٨٣، وタاج العروس (خصر)، ومقاييس اللغة ٢/١٨٩.

(٢) أخرجه مسلم في الزهد حديث ٦٠، وأحمد في المستند ٦/١٥٣، ١٦٨.

الذى كرمت علىَّ》 [الإسراء: ٦٢] الآية.

وقد روی ابن جریر^(١) هنـا أثـراً غـريباً عـجـيـباً من حـدـيـث شـبـيـب بـن بـشـر عـن عـكـرـمـة، عـن اـبـن عـبـاس قـال: لـمـا خـلـق اللـه الـمـلـائـكـة قـال: ﴿إِنـي خـالـق بـشـراً مـن طـين فـإـذا سـويـتـه وـنـفـخـتـه فـيـه مـن رـوـحـي فـقـعـوا لـه سـاجـدـيـن﴾ قـالـوا: لـا نـفـعـل، فـأـرـسـل عـلـيـهـم نـارـاً فـأـحـرـقـتـهـم، ثـمـ خـلـقـ مـلـائـكـة أـخـرى فـقـال لـهـم مـثـل ذـلـك، فـقـالـوا: لـا نـفـعـل، فـأـرـسـل عـلـيـهـم نـارـاً فـأـحـرـقـتـهـم، ثـمـ خـلـقـ مـلـائـكـة أـخـرى فـقـال: إـنـي خـالـق بـشـراً مـن طـين، فـإـذا أـنـا خـلـقـتـه فـاسـجـدـوا لـه فـأـبـوا، فـأـرـسـل عـلـيـهـم نـارـاً فـأـحـرـقـتـهـم، ثـمـ خـلـقـ مـلـائـكـة فـقـال: إـنـي خـالـق بـشـراً مـن طـين، فـإـذا أـنـا خـلـقـتـه فـاسـجـدـوا لـه، قـالـوا: سـمـعـنا وـأـطـعـنا، إـلـا إـبـلـيـس كـان مـن الـكـافـرـيـن الـأـوـلـيـن، وـفـي ثـبـوتـهـذـا عـنـه بـعـد، وـالـظـاهـرـ أـنـه إـسـرـائـيـلـي، وـالـلـه أـعـلـمـ.

قـالَ فـأـخـرـج مـنـهـا فـإـنـاك رـجـيمٌ ﴿وـإـنـ عـيـلـكـ اللـعـنـةـ إـلـيـ يـوـمـ الـلـيـلـينـ﴾ قـالَ رـبـ فـأـنـظـرـنـي إـلـيـ يـوـمـ يـعـشـونـ ﴿فـقـالـ فـإـنـاكـ مـنـ الـمـنـظـرـيـنـ﴾ إـلـيـ يـوـمـ الـوقـتـ الـمـعـلـومـ

يذكر تعالى أنه أمر إبليس أمراً كونياً لا يخالف ولا يمانع بالخروج من المنزلة التي كان فيها من الملا الأعلى، وأنه رجيم أي مرجم، وأنه قد أتبعه لعنة لا تزال متصلة به لاحقة له متواترة عليه إلى يوم القيمة. وعن سعيد بن جبير أنه قال: لما لعن الله إبليس، تغيرت صورته عن صورة الملائكة، ورن رنة، فكل رنة في الدنيا إلى يوم القيمة منها، رواه ابن أبي حاتم، وأنه لما تحقق الغضب الذي لا مرد له، سأله تمام حسده لأدم وذريته النظرة إلى يوم القيمة، وهو يوم البعث، وأنه أجيبي إلى ذلك استدراجاً له وإمهالاً، فلما تحقق النظرة قبحه الله.

قـالـ رـبـ بـمـا أـغـوـيـتـنـي لـأـزـيـنـ لـهـمـ فـيـ الـأـرـضـ وـلـأـغـوـيـهـمـ أـجـمـعـينـ ﴿إـلـا عـبـادـكـ مـنـهـمـ الـمـخلـصـيـنـ﴾ قـالـ هـنـذـا صـرـطـ عـلـيـ مـسـتـقـيمـ ﴿إـنـ عـبـادـيـ لـيـسـ لـكـ عـلـيـهـمـ سـلـطـنـ إـلـا مـنـ أـبـعـكـ مـنـ أـفـاـوـيـنـ﴾ وـإـنـ جـهـنـمـ لـمـوـعـدـهـمـ أـجـمـعـينـ ﴿لـمـا سـبـعـةـ أـبـوـيـ لـكـلـ بـاـيـ مـنـهـمـ جـزـءـ مـقـسـمـ﴾

يقول تعالى مخبراً عن إبليس وتمرده وعتوه أنه قال للرب: «بـمـا أـغـوـيـتـنـي» قال بعضهم: أـقـسـمـ بـاغـوـاءـ اللـهـ لـهـ. (قلـتـ) ويـحـتمـلـ أـنـ بـسـبـبـ ما أـغـوـيـتـنـي وأـضـلـلـتـنـي «لـأـزـيـنـ لـهـمـ» أي لـذـرـيـةـ آـدـمـ عـلـيـهـ السـلـامـ «فـيـ الـأـرـضـ» أي أـحـبـ إـلـيـهـمـ الـمـعـاصـيـ وـأـرـغـبـهـمـ فـيـهـ وـأـؤـزـهـمـ إـلـيـهـ، وـأـزـعـجـهـمـ إـلـيـهـ إـزـعـاجـاً «وـلـأـغـوـيـهـمـ أـجـمـعـينـ» أي كـما أـغـوـيـتـنـي وـقـدـرـتـ عـلـيـهـ ذـلـكـ «إـلـا عـبـادـكـ مـنـهـمـ الـمـخلـصـيـنـ» كـقولـهـ: «أـرـأـيـتـكـ هـذـا الـذـى كـرـمـتـ عـلـيـهـ لـثـنـ أـخـرـتـنـ إـلـيـهـ دـرـيـتـهـ إـلـا قـلـيلـاً» [الإسراء: ٦٢].

﴿قال﴾ الله تعالى له متهدداً ومتوعداً ﴿هذا صراط على مستقِبم﴾ أي مرجعكم كلكم إلى، فأجازيكم بأعمالكم إن خيراً فخير وإن شرًا فشر، قوله تعالى: ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ [الفجر: ١٤]. وقيل: طريق الحق مرجعها إلى الله تعالى، وإليه تنتهي، قاله مجاهد والحسن وقتادة كقوله: ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾ [النحل: ٩] وقرأ قيس بن عبادة ومحمد بن سيرين وقتادة ﴿هذا صراط على مستقيم﴾ كقوله: ﴿وإنه في أُم الكتاب لدينا لعلي حكيم﴾ [الزخرف: ٤] أي رفيع المشهور القراءة الأولى.

وقوله ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ أي الذي قدرت لهم الهدایة فلا سبيل لك عليهم ولا وصول لك إليهم ﴿إلا من اتبعك من الغاوين﴾ استثناء منقطع.

وقد أورد ابن جرير^(١) ههنا من حديث عبد الله بن المبارك عن عبد الله بن موهب، حدثنا يزيد بن قسيط قال: كانت الأنبياء يكون لهم مساجد خارجة من قراهم، فإذا أراد النبي أن يستتبّيء ربه عن شيءٍ خرج إلى مسجده فصلى ما كتب الله له، ثم سأله ما بدا له، فبينا نبي في مسجده إذ جاء عدو الله - يعني إبليس - حتى جلس بينه وبين القبلة، فقال النبي: أَعُوذ بالله من الشيطان الرجيم، قال: فردد ذلك ثلاث مرات.

فقال عدو الله: أخبرني بأي شيءٍ تنجو مني؟ فقال النبي: بل أخبرني بأي شيءٍ تغلب ابن آدم مرتين؟ فأخذ كل واحد منهما على صاحبه، فقال النبي: إن الله تعالى يقول: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين﴾. قال عدو الله: قد سمعت هذا قبل أن تولد. قال النبي: ويقول الله: ﴿وإما ينزعنك من الشيطان نزع فاستعد بالله إله سميع عليم﴾، وإن الله ما أحسست بك قط إلا استعدت بالله منك. قال عدو الله: صدقت بهذا تنجو مني، فقال النبي: أخبرني بأي شيءٍ تغلب ابن آدم؟ قال آخذه عند الغضب والهوى.

قوله: ﴿وإن جهنم لموعدهم أجمعين﴾ أي جهنم موعد جميع من اتبع إبليس، كما قال عن القرآن ﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾ [هود: ١٧]، ثم أخبر أن لجهنم سبعة أبواب ﴿لكل باب منهم جزء مقصوم﴾ أي قد كتب لكل باب منها جزء من أتباع إبليس يدخلونه لا محيد لهم عنه، أجارنا الله منها، وكل يدخل من باب بحسب عمله، ويستقر في درك بقدر عمله. قال إسماعيل بن علية وشعبة، كلامهما عن أبي هارون الغنوبي عن حطان بن عبد الله أنه قال: سمعت علي بن أبي طالب وهو يخطب قال: إن أبواب جهنم هكذا - قال أبو هارون - أطباقاً بعضها فوق بعض. وقال إسرائيل عن أبي إسحاق عن هبيرة بن أبي يريم، عن علي رضي الله عنه قال: أبواب جهنم سبعة بعضها فوق بعض، فيمتلىء الأول ثم الثاني ثم الثالث حتى تمتلىء كلها.

وقال عكرمة: سبعة أبواب سبعة أطباقي، وقال ابن جريج: سبعة أبواب: أولها جنهم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية. وروى الضحاك عن ابن عباس نحوه: وكذا روي عن الأعمش بنحوه أيضاً، وقال قتادة: «لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسم» هي والله منازل بأعمالهم، رواهن ابن جرير، وقال جوير عن الضحاك «لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسم» قال: باب لليهود، وباب للنصارى، وباب للصابئين، وباب للمجوس، وباب للذين أشركوا وهم كفار العرب، وباب للمنافقين، وباب لأهل التوحيد، فأهل التوحيد يرجى لهم ولا يرجى لأولئك أبداً.

وقال الترمذى: حدثنا عبد بن حميد، حدثنا عثمان بن عمر عن مالك بن مغول عن حميد عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «الجهنم سبعة أبواب، باب منها لمن سل السيف على أمتي - أو قال على أمة محمد»^(١) ثم قال: لا نعرفه إلا من حديث مالك بن مغول.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا عباس بن الوليد الخلال، حدثنا زيد - يعني ابن يحيى - حدثنا سعيد بن بشير عن قتادة عن أبي نضرة عن سمرة بن جندب، عن النبي ﷺ في قوله: «لكل باب منهم جزء مقسم» قال «إن من أهل النار من تأخذه النار إلى كعبه، وإن منهم من تأخذه النار إلى حجزته، ومنهم من تأخذه النار إلى تراقيه، منازلهم بأعمالهم، فذلك قوله: «لكل باب منهم جزء مقسم»^(٢).

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّتٍ وَعَيْنٌ ۝ أَدْخُلُوهَا سَلَمٌ أَمْيَنَ ۝ وَنَزَّعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ عَلَى إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُنَقْبَلِينَ ۝ لَا يَمْسُهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ بِمُحْرَجِينَ ۝ إِنَّ عَبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْعَفُورُ ۝ الرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ۝

لما ذكر تعالى حال أهل النار، عطف على ذكر أهل الجنة وأنهم في جنات وعيون. وقوله: «أدخلوها سلام» أي سالمين من الآفات، مسلم عليكم «آمين» أي من كل خوف وفزغ، ولا تخشوا من إخراج ولا انقطاع ولا فناء، وقوله: «ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقabilين» روى القاسم عن أبي أمامة قال: يدخل أهل الجنة الجنة على ما في صدورهم في الدنيا من الشحنة والضغائن، حتى إذا توافدوا وتقابلا نزع الله ما في صدورهم في الدنيا من غل، ثم قرأ «ونزعنا ما في صدورهم من عل» هكذا في هذه الرواية، والقاسم بن عبد الرحمن في روايته عن أبي أمامة ضعيف، وقد روى سنيد في تفسيره: حدثنا ابن فضالة عن لقمان عن أبي أمامة قال: لا يدخل الجنة مؤمن حتى يتزع الله ما في صدره من غل حتى يتزع منه مثل السبع الضارى.

(١) أخرجه الترمذى في تفسير سورة ١٥، باب ٢، وأحمد في المسند ٩٤ / ٢.

(٢) أخرجه مسلم في الجنة حديث ٣٢، ٣٣، وأحمد في المسند ٥ / ١٠، ٢٥٤.

وهذا موافق لما في الصحيح من رواية قتادة: حدثنا أبو الم توكل الناجي أن أبا سعيد الخدرى حدثهم أن رسول الله ﷺ قال: «يخلص المؤمن من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار. فيقتصر لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا، أذن لهم في دخول الجنة»^(١).

وقال ابن جرير^(٢): حدثنا الحسن، حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا هشام عن محمد هو ابن سيرين قال: استأذن الأشرف على علي رضي الله عنه، وعنده ابن لطحة فحبسه ثم أذن له، فلما دخل قال: إني لأراك إنما حبسني لهذا، قال: أجل، قال: إني لأراه لو كان عندك ابن لعثمان لحبستني، قال: أجل إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان ممن قال الله تعالى ﴿ونزعنَا مَا فِي صدورهِمْ مِنْ غُلٍ إِخْوَانًا﴾ على سرر متقابلين^{﴿﴾} وقال ابن جرير^(٣) أيضاً: حدثنا الحسن، حدثنا أبو معاوية الضرير، حدثنا أبو مالك الأشعري، عن أبي حبيبة مولى لطحة قال: دخل عمران بن طلحة على علي رضي الله عنه بعد ما فرغ من أصحاب الجمل، فرحب به وقال: إني لأرجو أن يجعلني الله وأباك من الذين قال الله ﴿ونزعنَا مَا فِي صدورهِمْ مِنْ غُلٍ إِخْوَانًا﴾ على سرر متقابلين^{﴿﴾}.

وقال: ورجلان جالسان إلى ناحية البساط، فقالا: الله أعدل من ذلك تقتلهم بالأمس وتكونون إخواناً، فقال علي رضي الله عنه: قوماً أبعد أرض وأسحقها، فمنهم إِذَاً لَمْ أَكُنْ أَنَا وَطَلْحَةُ؟ وذكر أبو معاوية الحديث بطوله، وروى وكيع عن أبيان بن عبد الله البجلي عن نعيم بن أبي هند، عن ربعي بن جراش عن علي نحوه، وقال فيه فقام رجل من همدان فقال: الله أعدل من ذلك يا أمير المؤمنين، قال: فصاح به علي صيحة فظننت أن القصر تدهده لها، ثم قال: إِذَا لَمْ نَكُنْ نَحْنُ فَمَنْ هُمْ؟

وقال سعيد بن مسروق عن أبي طلحة، وذكره وفيه: فقال الحارث الأعور ذلك، فقام إليه علي رضي الله عنه فضربه بشيء كان في يده في رأسه، وقال: فمنهم يا أعور إذا لم نكن نحن؟ وقال سفيان الثوري عن منصور عن إبراهيم قال: جاء ابن جرمز قاتل الزبير يستأذن على علي رضي الله عنه فحجبه طويلاً ثم أذن له فقال له: أما أهل البلاء فتجفونهم، فقال علي: بفيك التراب إني لأرجو أن أكون أنا وطلحه والزبير ممن قال الله: ﴿ونزعنَا مَا فِي صدورهِمْ مِنْ غُلٍ إِخْوَانًا﴾ على سرر متقابلين^{﴿﴾} وكذا روى الثوري عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي بن نحوه. وقال سفيان بن عيينة عن إسرائيل عن أبي موسى سمع الحسن البصري يقول: قال علي: فينا

(١) أخرجه البخاري في الرقاق باب ٤٨، وأحمد في المسند ١٣/٣، ٦٣، ٥٧، ٧٤، ٩٤.

(٢) تفسير الطبرى ٧/٥٢٠.

(٣) تفسير الطبرى ٧/٥٢٠.

والله أهل بدر نزلت هذه الآية «ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين».

وقال كثير النساء: دخلت على أبي جعفر محمد بن علي فقلت: ولدي وليكم، وسلمي سلمكم، وعدوي عدوكم، وحربكم، أنا أسألك بالله أتبرأ من أبي بكر وعمر فقال: «قد ضللتك إذاً وما أنا من المهتدين» تولهما يا كثير فما أدركك فهو في رقبتي هذه، ثم تلا هذه الآية «إخواناً على سرر متقابلين» قال: أبو بكر وعمر علي رضي الله عنهم أجمعين، وقال الثوري عن رجل عن أبي صالح في قوله: «إخواناً على سرر متقابلين» قال: هم عشرة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة، والزبير عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم أجمعين. قوله: «متقابلين» قال مجاهد: لا ينظر بعضهم في قفا بعض، وفيه حديث مرفوع.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا يحيى بن عبد القزويني، حدثنا حسان بن حسان، حدثنا إبراهيم بن بشير، حدثنا يحيى بن معين عن إبراهيم القرشي عن سعيد بن شرحبيل، عن زيد بن أبي أوفى قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فتلها هذه الآية «إخواناً على سرر متقابلين» في الله ينظر بعضهم إلى بعض. قوله: «لا يمسهم فيها نصب» يعني المشقة والأذى، كما جاء في الصحيحين «أن الله أمرني أن أبشر خديجة ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب»^(١).

وقوله: «وما هم منها بمحرجين» كما جاء في الحديث «يقال يا أهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تمرضوا أبداً، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبووا فلا تهربوا أبداً، وإن لكم أن تقيموا فلا تطعنوا أبداً». وقال الله تعالى: «خالدين فيها لا يبغون عنها حولاً»^(٢) [الكهف: ١٠٨].

وقوله: «نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم» أي أخبر يا محمد عبادي أني ذو رحمة وذو عذاب أليم، وقد تقدم ذكر نظرية هذه الآية الكريمة وهي دالة على مقام الرجاء والخوف، وذكر في سبب نزولها ما رواه موسى بن عبيدة عن مصعب بن ثابت قال: مر رسول الله ﷺ على ناس من أصحابه يضحكون فقال «اذكروا الجنة واذكروا النار» فنزلت «نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم» رواه ابن أبي حاتم وهو مرسل.

وقال ابن جرير^(٣): حدثني المثنى، حدثنا إسحاق، أخبرنا ابن المكي، أخبرنا ابن

(١) أخرجه البخاري في العمرة باب ١١، والتوحيد باب ٣٥، ومسلم في فضائل الصحابة حديث ٧١، ٧٢.

(٢) أخرجه مسلم في الجنة حديث ٢٢.

(٣) تفسير الطبرى ٥٢٢/٧.

البارك، أخبرنا مصعب بن ثابت، حدثنا عاصم بن عبيد الله عن ابن أبي رياح، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: طلع علينا رسول الله ﷺ من الباب الذي يدخل منه بنو شيبة فقال «ألا أراكم تضحكون» ثم أدبر حتى إذا كان عند الحجر رجع إلينا القهقري فقال: «إني لما خرجت جاء جبريل عليه السلام فقال: يا محمد إن الله يقول لك لم تقطع عبادي **(نبىء عبادى)** أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم» **﴿**وقال شعبة عن قتادة في قوله: **(نبىء عبادى)** أني أنا الغفور الرحيم **﴾** قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع من حرام، ولو يعلم العبد قدر عذاب الله لبعخ نفسه».

وَنِسْلَهُمْ عَنْ ضَيْفٍ إِبْرَاهِيمَ إِذَا دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَّمًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ قَالُوا لَا تُوْجِلْ إِنَّا
نَبْشِرُك بِعَالَمٍ عَلِيمٍ قَالَ أَبْشِرْتُمْنِي عَلَى أَنْ مَسَنِي الْكَبَرُ فِيمَ تَبْشِرُونَ قَالُوا بَشَّرْنَاك بِالْحَقِّ فَلَا
تَكُنْ مِنَ الْقَاطِنِينَ قَالَ وَمَنْ يَقْسِطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا أَضَالُولُك

يقول تعالى : وأخبرهم يا محمد عن قصة **«ضيف إبراهيم»** والضيف يطلق على الواحد والجمع كالزور والسفر ، وكيف **«دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال إنما منكم وجلون أي خائفون ، وقد ذكر سبب خوفه منهم لما رأى أيديهم لا تصل إلى ما قربه إليهم من الضيافة ، وهو العجل السمين الحنيذ **«قالوا لا توجل أي لا تخف وبشروه بغلام عاليم أي إسحاق عليه السلام كما تقدم في سورة هود ثم **«قال متعجبًا من كبره وكبر زوجته ومتتحققًا للوعد أبشرتمني على أن مبني الكبر فبم تبشرون»**** فأجابوه مؤكدين لما بشروه به تحقيقاً وبشارة بعد بشارة **«قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين وقرأ بعضهم القنطين فأجابهم بأنه ليس يقظ ، ولكن يرجو من الله الولد ، وإن كان قد كبر وأسنت أمراته فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك .****

قَالَ فَمَا حَطَبْتُكُمْ أَيْمَنَهَا الْمَرْسَلُونَ ﴿١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ يُجْرِمُونَ ﴿٢﴾ إِلَآ إِمَّا لُوطٌ إِنَّا لَمْنَجُوهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٣﴾ إِلَآ امْرَأَهُ فَدَرَنَا إِلَهًا لِمَنْ أَعْدَيْتَ

يقول تعالى إخباراً عن إبراهيم عليه السلام لما ذهب عنه الرؤوف وجاءه البشري، أنه شرع يسألهم عما جاؤوا له، فقالوا: «إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين» يعنيون قوم لوط، وأخبروه أنهم سينجون آل لوط من بينهم إلا أمرأته فإنها من الهالكين، ولهذا قالوا: «إلا أمرأته قدرنا إنها لمن الغاربين» أي الباقين المهلكين.

فَلَمَّا جَاءَهُ إِلَيْهِ أَهْلُ الْمُرْسَلِونَ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ قَالُوا بَلْ جَئْنَاكُمْ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْرُدُونَ وَأَتَيْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَمَسْدِغُوكُمْ

يُخبر تعالى عن لوط لما جاءته الملائكة في صورة شباب حسان الوجوه، فدخلوا عليه داره

قال: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ قَالُوا بَلْ جَنَّاتٍ كَمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ يعنيون بعذابهم وهلاكمه ودمارهم الذي كانوا يشكرون في وقوعه بهم وحلوله بساحتهم ﴿وَأَتَيْنَاكُمْ بِالْحَقِّ﴾ كقوله تعالى: ﴿مَا نَزَّلْنَا عَلَيْكُمْ مِنْ لِكَنَّةٍ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨]. قوله: ﴿وَإِنَا لِصَادِقُونَ﴾ تأكيد لخبرهم إياه بما أخبروه به من نجاته وإهلاك قومه.

فَأَسْرِرْ بِأَهْلِكَ يَقْطَعُ مِنَ الْأَيَّلِ وَأَتَيْعَ أَدْبَرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمِنُونَ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرُ أَنَّ دَابِرَ هَوَلَاءَ مَقْطُوعٌ مُصْبِحَانَ

يذكر تعالى عن الملائكة أنهم أمروه أن يسري بأهله بعد مضي جانب من الليل، وأن يكون لوط عليه السلام يمشي زراءهم ليكون أحفظ لهم، وهكذا كان رسول الله ﷺ يمشي في الغزو إنما يكون ساقه يزجي الضعيف ويحمل المقطوع.

وقوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ أي إذا سمعتم الصيحة بالقوم فلا تلتفتوا إليهم وذروهم فيما حل بهم من العذاب والنكال ﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمِنُونَ﴾ كأنه كان معهم من يهدفهم السبيل ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرُ﴾ أي تقدمنا إليه في هذا ﴿أَنْ دَابِرَ هَوَلَاءَ مَقْطُوعٌ مُصْبِحَانَ﴾ أي وقت الصباح كقوله في الآية الأخرى: ﴿إِنْ مَوْعِدَهُمُ الصِّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١].

وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةَ يَسْتَبَرُونَ قَالَ إِنَّ هَوَلَاءَ ضَيْفٌ فَلَا تَنْفَضُحُونَ وَلَقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْرُونَ قَالُوا أَوْلَئِمْ نَنْهَاكُ عَنِ الْمُتَلَمِّنِينَ قَالَ هَوَلَاءَ بَنَاقٌ إِنْ كُنْتُمْ فَتَعْلَمُونَ لِعُمرَكُ إِنَّهُمْ لَنِي سَكَرْتُهُمْ يَعْمَهُونَ

يُخبر تعالى عن مجيء قوم لوط لما علموا بأضيافه وصباحة وجودهم، وأنهم جاؤوا مستبشرین بهم فرحين ﴿قَالَ إِنَّ هَوَلَاءَ ضَيْفٌ فَلَا تَنْفَضُحُونَ وَلَقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْرُونَ﴾ وهذا إنما قاله لهم قبل أن يعلم أنهم رسل الله، كما قال في سورة هود، وأما هنا فتقدمن ذكر أنهم رسل الله وعطف بذكر مجيء قومه ومحاجته لهم، ولكن الواو لا تقضي الترتيب ولا سيما إذا دل دليل على خلافه، فقالوا له مجيئين: ﴿أَوْ لَمْ نَنْهَاكُ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أي أو ما نهيناك أن تضيف أحداً؟ فأرشدهم إلى نسائهم وما خلق لهم ربهم منهون من الفروج المباحة. وقد تقدم إيضاح القول في ذلك بما أغني عن إعادته. هذا كله وهو غافلون عما يراد بهم وما قد أحاط بهم من البلاء وماذا يصبحهم من العذاب المنتظر. ولهذا قال تعالى لمحمد ﷺ: ﴿لِعُمرَكُ إِنَّهُمْ لَفِي سَكَرْتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أقسم تعالى بحياة نبيه صلوات الله وسلامه عليه، وفي هذا تشريف عظيم ومقام رفيع وجاه عريض.

قال عمرو بن مالك البكري عن أبي الجوزاء عن ابن عباس أنه قال: ما خلق الله وما ذرأ وما يرأ نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره، قال الله تعالى: ﴿لِعُمرَكُ إِنَّهُمْ لَفِي سَكَرْتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يقول: وحياتك وعمرك وبقاوك في الدنيا ﴿إِنَّهُمْ لَفِي

سکرتهم یعمهون^(١) رواه ابن جریر^(١)، وقال قتادة: «فِي سُكْرَتِهِمْ» أي في ضلالهم «یعمهون^(٢)» أي يلعبون، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس «لِعُمرِكَ» لعيشك «إِنَّهُمْ لِفِي سکرتهم یعمهون^(٣)» قال يتربدون.

فَأَخْذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقَيْنَ ^{vr} فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِيلٍ ^{٧٧} إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ^{٧٨} وَإِنَّهَا لِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ^{٧٩} إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ^{٨٠}

يقول تعالى: «فَأَخْذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ» وهي ما جاءهم به من الصوت القاصف عند شروق الشمس وهو طلوعها، وذلك مع رفع بلادهم إلى عنان السماء، ثم قلبها وجعل عاليها سافلها، وإرسال حجارة السجيل عليهم وقد تقدم الكلام على السجيل في هود بما فيه كفاية. وقوله: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ^(٤)» أي إن آثار هذه النقم الظاهرة على تلك البلاد لمن تأمل ذلك وتosomeه بعين بصره وبصيرته، كما قال مجاهد في قوله: «لِلْمُتَوَسِّمِينَ^(٥)» قال: المترسسين. وعن ابن عباس والضحاك: للناظرین. وقال قتادة: للمعتبرین. وقال مالك عن بعض أهل المدينة «لِلْمُتَوَسِّمِينَ^(٦)» للمتأملین.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا محمد بن كثير العبدى عن عمرو بن قيس، عن عطية عن أبي سعيد مرفوعاً قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله» ثم قرأ النبي ﷺ «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ^(٧)» رواه الترمذى: وابن جرير من حديث عمرو بن قيس الملائى عن عطية عن أبي سعيد، وقال الترمذى: لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

وقال ابن جرير^(٨) أيضاً: حدثني أحمد بن محمد الطوسي، حدثنا الحسن بن محمد، حدثنا الفرات بن السائب، حدثنا ميمون بن مهران عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن، فإن المؤمن ينظر بنور الله».

وقال ابن جرير^(٩): حدثني أبو شرحبيل الحمصي، حدثنا سليمان بن سلمة، حدثنا المؤمل بن سعيد بن يوسف الرحيبي، حدثنا أبو المعلى أسد بن وداعة الطائي، حدثنا وهب بن منه عن طاوس بن كيسان عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «احذروا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله ويتوفيق الله». وقال أيضاً: حدثنا عبد الأعلى بن واصل، حدثنا سعيد بن محمد الجرمي، حدثنا عبد الواحد بن واصل، حدثنا أبو بشر المزلق عن ثابت عن أنس بن مالك

(١) تفسير الطبرى ٥٢٦/٧.

(٢) أخرجه الترمذى في تفسير سورة ١٥ ، باب ٦ ، والطبرى في تفسيره ٥٢٨/٧ .

(٣) تفسير الطبرى ٥٢٨/٧ ، ٥٢٩ .

(٤) تفسير الطبرى ٥٢٩/٧ .

قال : قال النبي ﷺ : «إن الله عباداً يعرفون الناس بالتوسم» ، ورواه الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا سهل بن بحر ، حدثنا سعيد بن محمد الجرمي ، حدثنا أبو بشر يقال له ابن المزلق قال : وكان ثقة ، عن ثابت عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله عباداً يعرفون الناس بالتوسم» .

وقوله : **﴿وَإِنَّهَا لِبُسْبِيلِ مَقِيمٍ﴾** أي وإن قرية سدوم التي أصابها ما أصابها من القلب الصوري والمعنوي والقذف بالحجارة ، حتى صارت بحيرة متنية خبيثة بطريق مهيع^(١) مسالكه مستمرة إلى اليوم ، قوله : **﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمْرُونَ عَلَيْهِمْ مَصْبِحِينَ وَبِاللَّيلِ أَفْلَأُ تَعْقُلُونَ وَإِنْ يُونَسَ لَمْنَ الْمَرْسَلِينَ﴾** [الصفات : ١٣٧] وقال مجاهد والضحاك **﴿وَإِنَّهَا لِبُسْبِيلِ مَقِيمٍ﴾** قال : معلم . وقال قتادة : بطريق واضح . وقال قتادة أيضاً : بصحق من الأرض واحد ، وقال السدي : بكتاب مبين ، يعني كقوله : **﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَا فِي إِيمَانٍ مَبِينٍ﴾** ولكن ليس المعنى على ما قال ه هنا ، والله أعلم . قوله : **﴿إِنِّي فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾** أي إن الذي صنعنا بقوم لوط من الهلاك والدمار وإنجاثنا لوطاً وأهله لدلالة واضحة جلية للمؤمنين بالله ورسله .

وَإِنْ كَانَ أَحَدٌ حَبَّتْ أَلْأَيْكَةَ لَظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَإِنَّقَمَنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لِيَمَامَرْ مَبِينٍ ﴿٣٠﴾

أصحاب الأيكة هم قوم شعيب ، قال الضحاك وقتادة وغيرهما : الأيكة الشجر الملتف ، وكان ظلّهم بشركهم بالله وقطعهم الطريق ونقصهم المكيال والميزان ، فانتقم الله منهم بالصيحة والرجفة وعداب يوم الظلة ، وقد كانوا قريباً من قوم لوط بعدهم في الزمان ، ومسامتين لهم في المكان ، ولهذا قال تعالى : **﴿وَإِنَّهُمَا لِيَمَامَرْ مَبِينٍ﴾** أي طريق مبين ، قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وغيره : طريق ظاهر ، ولهذا لما أنذر شعيب قومه قال في نذارته إياهم **﴿وَمَا قَوْمُ لَوْطٍ مِنْكُمْ بَيِّنٌ﴾** [هود : ٨٩] .

وَلَقَدْ كَذَّبَ أَحَدٌ حَبَّتْ الْحِجَرِ الْمَرْسَلِينَ ﴿٣١﴾ وَأَئْتَنَاهُمْ أَيْتَنَا فَكَلُوا عَنْهَا مُغَرِّبِينَ ﴿٣٢﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجَبَالِ بَيْوَنَاءَ آمِنِينَ ﴿٣٣﴾ فَأَخَذَهُمُ الْصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٣٤﴾ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٣٥﴾

أصحاب الحجر هم ثمود الذين كذبوا صالحأ نبيهم عليهم السلام ، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع المرسلين ، ولهذا أطلق عليهم تكذيب المرسلين ، وذكر تعالى أنه أتاهم من الآيات ما يذلّهم على صدق ما جاءهم به صالح كالناقة التي أخرجها الله لهم بدعاء صالح من صخرة صماء ، وكانت تسرح في بلادهم لها شرب ولهم شرب يوم معلوم ، فلما عتوا وعقروها قال لهم **﴿تَمْتَعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرٌ مَكْذُوبٌ﴾** [هود : ٦٥] وقال تعالى : **﴿وَأَمَا ثَمُودُ فَهُدِينَا هُمْ فَاسْتَحْبُوا الْعُمَى عَلَى الْهُدَى﴾** [فصلت : ١٧] .

وذكر تعالى أنهما **﴿كَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجَبَالِ بَيْوَنَاءَ آمِنِينَ﴾** أي من غير خوف ولا احتياج إليها

(١) طريق مهيع : أي طريق سهل واضح .

بل أشراً وبطراً وعبناً كما هو المشاهد من صنيعهم في بيوتهم بوادي الحجر الذي مر به رسول الله ﷺ وهو ذاذهب إلى تبوك، فقنع رأسه وأسرع دابته، وقال لأصحابه: «لا تدخلوا بيوت القوم المعدين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تبكوا فتباكونا خشية أن يصيبيكم ما أصابهم». قوله: «فأخذتهم الصيحة مصيحين» أي وقت الصباح من اليوم الرابع «فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون» أي ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم التي ضئلها بمائتها عن الناقة حتى عقروها لثلا تصيق عليهم في المياه، مما دفعت عنهم تلك الأموال ولا نفع لهم لما جاء أمر ربك.

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحْ الصَّفَحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَالقُ الْعَلِيمُ ﴿١٠٠﴾

يقول تعالى: «وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية» أي بالعدل «ليجزي الذين أساوا بما عملوا» [النجم: ٣١] الآية، وقال تعالى: «وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلًا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار» [ص: ٣٧] وقال تعالى: «أنحسبتم أنما خلقناكم عبناً وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم» [المؤمنون: ١١٥ - ١١٦] ثم أخبر نبيه بقيام الساعة وأنها كائنة لا محالة ثم أمره بالصفح الجميل عن المشركين في أذاهم له وتكذيبهم ما جاءهم به، كقوله: «فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون» [الزخرف: ٨٩] وقال مجاهد وقتادة وغيرهما: كان هذا قبل القتال، وهو كما قالا، فإن هذه مكية والقتال إنما شرع بعد الهجرة.

وقوله: «إن ربك هو الخالق العليم» تقرير للمعاد وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة فإنه الخالق الذي لا يعجزه خلق شيء، العليم بما تمزق من الأجساد وتفرق في سائر أقطار الأرض، كقوله: «أوليس الذي خلق السموات والأرض ب قادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخالق العليم إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيده ملوكوت كل شيء وإليه ترجعون» [يس: ٨١ - ٨٣].

وَلَقَدْ أَتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْمُقْرَبَاتِ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمْدَنَ عَيْنِيكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَرْوَاحُهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ: كما أتيناك القرآن العظيم فلا تنظرن إلى الدنيا، وزينتها، وما متعمنا به أهلها من الزهرة الفانية لفتنتهم فيه فلا تغبطهم بما هم فيه، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات حزناً عليهم في تكذيبهم لك ومخالفتهم دينك، «وأخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين» [الشعراء: ٢١٥] أي أن لهم جانبك، كقوله: «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عتمن حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم» [التوبه: ١٢٨] وقد اختلف في السبع المثاني

ما هي ؟ فقال ابن مسعود وابن عمر وابن عباس ومجاحد وسعيد بن جبير والضحاك وغيرهم : هي السبع الطوال ، يعنون البقرة ، وأل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأعراف ، ويومنس ، نص عليه ابن عباس وسعيد بن جبير ، وقال سعيد : بين فيهن الفرائض والحدود والقصص والأحكام . وقال ابن عباس : بين الأمثال والخبر والعبر .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا ابن أبي عمر قال : قال سفيان : المثاني : البقرة . وأل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأعراف ، والأفال وبراءة سورة واحدة ، قال ابن عباس : ولم يعطهن أحد إلا النبي ﷺ ، وأعطي موسى منها شتتين ، رواه هشيم عن الحجاج عن الوليد بن العيدار عن سعيد بن جبير عنه . وقال الأعمش عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : أُتي النبي ﷺ سبعاً من المثاني الطوال ، وأُتي موسى عليه السلام ستة ، فلما ألقى الألواح ارتفع اثنان وبقيت أربع .

وقال مجاهد : هي السبع الطوال ، ويقال : هي القرآن العظيم . وقال خصيف عن زياد بن أبي مريم في قوله تعالى : «سبعاً من المثاني» قال : أعطيتك سبعة أجزاء أمر ، وأنه ، وأبشر ، وأنذر ، وأضرب الأمثال ، وأعدد النعم ، وأنبك برب القرآن . رواه ابن جرير^(١) وابن أبي حاتم [والقول الثاني] أنها الفاتحة ، وهي سبع آيات . وروي ذلك عن علي وعمر وابن مسعود وابن عباس ، قال ابن عباس : والبسملة هي الآية السابعة ، وقد خصكم الله بها ، وبه قال إبراهيم النخعي وعبد الله بن عبيد بن عمير وابن أبي مليكة وشهر بن حوشب والحسن البصري ومجاهد .

وقال قتادة : ذكر لنا أنهن فاتحة الكتاب وأنهن يثنين في كل ركعة مكتوبة أو تطوع ، واختاره ابن جرير ، واحتج بالأحاديث الواردة في ذلك ، وقد قدمناها في فضائل سورة الفاتحة في أول التفسير والله الحمد ، وقد أورد البخاري رحمه الله هنا حديثين :

[أحدهما] قال : حدثنا محمد بن بشار حدثنا غندر ، حدثنا شعبة عن خبيب بن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم ، عن أبي سعيد بن المعلى قال : مر بي النبي ﷺ وأنا أصلبي فدعاني فلم آته حتى صليت فأتيته ، فقال : «ما منعك أن تأتيني ؟» فقلت : كنت أصلبي ، فقال : «ألم يقل الله (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا الله ولرسول إذا دعاكم) لا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد» فذهب النبي ﷺ ليخرج فذكرت فقال : «الحمد لله رب العالمين» هي السبع المثاني والقرآن الذي أُتيته^(٢) .

[الثاني] قال : حدثنا آدم ، حدثنا ابن أبي ذئب ، حدثنا المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه

(١) تفسير الطبرى ٧ / ٥٣٣ ، ٥٣٤ .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ١٥ ، باب ٣ .

قال : قال رسول الله ﷺ : «أَمُّ الْقُرْآنِ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِيُّ وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ»^(١).

فهذا نص في أن الفاتحة السبع المثاني والقرآن العظيم ، ولكن لا ينافي وصف غيرها من السبع الطوال بذلك ، لما فيها من هذه الصفة كما لا ينافي وصف القرآن بكماله بذلك أيضاً ، كما قال تعالى : «اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثَ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي» [الزمر : ٢٣] فهو مثاني من وجه ومتشابه من وجه ، وهو القرآن العظيم أيضاً ، كما أنه عليه الصلاة والسلام لما سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى ، فأشار إلى مسجده ، والأية نزلت في مسجد قباء ، فلا تنافي ، فإن ذكر الشيء لا ينفي ذكر ما عداه إذا اشتراكا في تلك الصفة ، والله أعلم .

وقوله : «لَا تَمْدَنْ عَيْنِيكَ إِلَى مَا مَتَعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ» أي استغرن بما آتاك الله من القرآن العظيم عما هم فيه من المتعة والزهرة الفانية ، ومن هنا ذهب ابن عينية إلى تفسير الحديث الصحيح «لِيْسَ مَنَا مَنْ لَمْ يَتَعَنْ بِالْقُرْآنِ»^(٢) إلى أنه يستغنى به عما عداه ، وهو تفسير صحيح ولكن ليس هو المقصود من الحديث كما تقدم في أول التفسير .

وقال ابن أبي حاتم : ذكر عن وكيع بن الجراح ، حدثنا موسى بن عبيدة عن يزيد بن عبد الله بن قسيط ، عن أبي رافع صاحب النبي ﷺ قال : ضاف النبي ﷺ ضيف ولم يكن عند النبي ﷺ شيء يصلحه ، فأرسل إلى رجل من اليهود «يقول لك محمد رسول الله : أسلفني دقيقاً إلى هلال رجب» قال : لا ، إلا برهن فأتيت النبي ﷺ فأخبرته ، فقال : «أَمَا وَاللَّهُ إِنِّي لَأُمِينُ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَأَمِينٌ مِنْ فِي الْأَرْضِ ، وَلَئِنْ أَسْلَفْنِي أَوْ بَاعْنِي لِأَوْدِينَ إِلَيْهِ» فلما خرجت من عنده نزلت هذه الآية «لَا تَمْدَنْ عَيْنِيكَ إِلَى مَا مَتَعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» إلى آخر الآية ، كأنه يعزيه عن الدنيا ، قال العوفي عن ابن عباس «لَا تَمْدَنْ عَيْنِيكَ» قال : نهى الرجل أن يتمتنى ما لصاحبه . وقال مجاهد «إِلَى مَا مَتَعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ» هم الأغنياء .

**وَقُلْ إِنَّا نَذِيرُ الْمُغْرِبِ^(٣) كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ^(٤) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِصْيَانًا^(٥)
فَوَرِيكَ لَنَسْكَانَهُمْ أَجْمَعِينَ^(٦) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ^(٧)**

يأمر تعالى نبيه ﷺ أن يقول للناس : «إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ» البين النذارة ، نذير للناس من عذاب أليم أن يحل بهم على تكديبه كما حل بمن تقدمهم من الأمم المكذبة لرسلها ، وما أنزل الله عليهم من العذاب والانتقام . قوله : «المُقْتَسِمِينَ» أي المخالفين ، أي تحالفوا على مخالفة الأنبياء وتکذیبهم وأذاهم ، كقوله تعالى إخباراً عن قوم صالح إنهم «قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنِبِيِّنَا وَأَهْلِهِ» [النمل : ٤٩] الآية ، أي نقتلهم ليلاً ، قال مجاهد : تقاسموا وتحالفوا

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ١٥ ، باب ٣ ، وأبو داود في الوتر باب ١٥ .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد باب ٤٤ ، وأبو داود في الوتر باب ٢٠ ، والدارمي في الصلاة باب ١٧١ ، وفضائل القرآن باب ٣٤ ، وأحمد في المسند ١/١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٩ .

﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت﴾ [النحل: ٣٨] ﴿أولم تكونوا أقسمتم من قبل﴾ [إبراهيم: ٤٤] الآية ﴿أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمته﴾ [الأعراف: ٤٩] فكأنهم كانوا لا يكذبون بشيء من الدنيا إلا أقسموا عليه فسموا مقتسمين، قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: المقتسمون أصحاب صالح الذين تقاسموا بالله لنبتته وأهله.

وفي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني، وإنني أنا النذير العريان فالنجاء النجاء، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوه وانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبه طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصبعهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق»^(١).

وقوله: ﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾ أي جزءوا كتبهم المتزلة عليهم فآمنوا ببعض وكفروا ببعض. قال البخاري: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هشيم، أباؤنا أبو بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿جعلوا القرآن عضين﴾ قال: هم أهل الكتاب جزءوه أجزاء فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه. حدثنا عبيد الله بن موسى عن الأعمش عن أبي ظبيان، عن ابن عباس ﴿جعلوا القرآن عضين﴾ قال: هم أهل الكتاب جزءوه أجزاء فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه. حدثنا عبيد الله بن موسى عن أبي ظبيان، عن ابن عباس قال: ﴿جعلوا القرآن عضين﴾ قال: هم أهل الكتاب جزءوه أجزاء فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه، حدثنا عبيد الله بن موسى عن الأعمش عن أبي ظبيان عن ابن عباس قال ﴿كما أنزلنا على المقتسمين﴾ قال: آمنوا ببعض وكفروا ببعض اليهود والنصارى.

قال ابن أبي حاتم: وروي عن مجاهد والحسن والضحاك وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم نحو ذلك، وقال الحكم بن أبيان عن عكرمة عن ابن عباس ﴿جعلوا القرآن عضين﴾ قال: السحر، وقال عكرمة: العضه السحر بلسان قريش تقول للساحرة إنها العاضه، وقال مجاهد: عضوه أعضاء، قالوا سحر، وقالوا كهانة، وقالوا أساطير الأولين، وقال عطاء: قال بعضهم ساحر، وقالوا مجنون، وقال كاهن، فذلك العضين، وكذا روي عن الضحاك وغيره.

وقال محمد بن إسحاق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا شرف فيهم، وقد حضر الموسم فقال لهم: يا معاشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً، ويرد قولكم بعضه بعضاً، فقالوا: وأنت يا أبو عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقول به، قال: بل أنتم

(١) أخرج البخاري في الرقاق باب ٢٦، والاعتراض باب ٢، ومسلم في الفضائل حديث ١٦.

قولوا لأسمع ، قالوا: نقول كاهن ، قال: ما هو بكافر ، قالوا: فنقول مجنون ، قال: ما هو بمجنون ، قالوا: فنقول شاعر ، قال: ما هو بشاعر ، قالوا: فنقول ساحر ، قال: ما هو بساحر ، قالوا: فماذا نقول ؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة ، فما أنت بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول أن تقولوا هو ساحر ، ففرقوا عنه بذلك ، وأنزل الله فيهم ﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾ ﴿أصنافاً﴾ ﴿فوربك لنسائلهم أجمعين مما كانوا يعملون﴾ ﴿أولئك النفر الذين قالوا رسول الله﴾ .

وقال عطية العوفي عن ابن عمر في قوله: ﴿لنسائلهم أجمعين مما كانوا يعملون﴾ قال: عن لا إله إلا الله . وقال عبد الرزاق: أنبأنا الثوري عن ليث هو ابن أبي سليم عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿لنسائلهم أجمعين مما كانوا يعملون﴾ قال: عن لا إله إلا الله ، وقد روى الترمذى وأبو يعلى الموصلى وابن جرير وابن أبي حاتم من حديث شريك القاضى، عن ليث بن أبي سليم عن بشير بن نهيك ، عن أنس عن النبي ﷺ ﴿فوربك لنسائلهم أجمعين﴾ قال: عن لا إله إلا الله ، ورواه ابن إدريس عن ليث عن بشير عن أنس موقوفاً .

وقال ابن جرير^(١): حدثنا أبو أحمد ، حدثنا شريك عن هلال عن عبد الله بن عكيم ، قال: ورواه الترمذى وغيره من حديث أنس مرفوعاً ، وقال عبد الله هو ابن مسعود: والذى لا إله غيره ما منكم من أحد إلا سيخلو الله به يوم القيمة كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر ، فيقول: ابن آدم ماذا غررك مني بي ؟ ابن آدم ماذا عملت فيما علمت ؟ ابن آدم ماذا أجبت المرسلين ؟

وقال أبو جعفر عن الربيع عن أبي العالية في قوله: ﴿فوربك، لنسائلهم أجمعين مما كانوا يعملون﴾ قال: يسأل العباد كلهم عن خلتين يوم القيمة: مما كانوا يعملون ، وماذا أجابوا المرسلين ، وقال ابن عيينة عن عملك وعن مالك .

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبد الله بن أبي الحواري ، حدثنا يونس الحذاء عن أبي حمزة الشيباني عن معاذ بن جبل قال: قال لي رسول الله ﷺ : «يا معاذ إن المرء يسأل يوم القيمة عن جميع سعيه حتى كحل عينيه ، وعن فتات الطينة بأصبعه ، فلا ألفينك يوم القيمة واحد غيرك أسعد بما آتاك الله منك» وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿فوربك لنسائلهم أجمعين مما كانوا يعملون﴾ ثم قال: ﴿فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾ قال: لا يسألهم هل عملتم كذا ؟ لأنه أعلم بذلك منهم ، ولكن يقول: لم عملتم كذا وكذا ؟ .

فَاصْدِعْ بِمَا تُؤْمِنْ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ۝ إِنَّا كَفَيْكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ۝ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَّا هُمْ أَكْثَرُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝ وَلَقَدْ نَعَمَ أَنَّكَ يَصْبِقُ صَدْرَكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝ فَسَبِّحْ بِمَحْمَدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِّنَ

أَسْتَجِدِينَ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ رَبَّكُمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَكُمُ الْيَقِинُ إِذَا هُنَّ

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ ببلاغ ما بعثه به وبيانه والصلع به، وهو مواجهة المشركين به، كما قال ابن عباس في قوله: «فاصدح بما تؤمر» أي أمره، وفي رواية «افعل ما تؤمر»^(١) وقال مجاهد: هو الجهر بالقرآن في الصلاة. وقال أبو عبيدة عن عبد الله بن مسعود: ما زال النبي ﷺ مستخفياً حتى نزلت «فاصدح بما تؤمر»، فخرج هو وأصحابه.

وقوله: «وأعرض عن المشركين إنا كفيناك المستهزئين» أي بلغ ما أنزل إليك من ربك، ولا تلتفت إلى المشركين الذين يريدون أن يصدوك عن آيات الله «وَذَوَا لَوْ تَدْهَنْ فِي دَهْنِهِنَّ» [القلم: ٩] ولا تخفهم فإن الله كافيك إياهم وحافظك منهم، كقوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلَغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعُلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ» [المائدة: ٦٧].

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا يحيى بن السكن، حدثنا إسحاق بن إدريس، حدثنا عون بن كهمس عن يزيد بن درهم، عن أنس قال: سمعت أنساً يقول في هذه الآية، «إنا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله إلها آخر» قال: مر رسول الله ﷺ فغمزه بعضهم فجاء جبريل، أحسبه قال: فغمزهم، فوقع في أجسادهم كهيئة الطعنة فماتوا.

قال محمد بن إسحاق: كان عظاماء المستهزئين كما حدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير خمسة نفر، كانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم منبني أسد بن عبد العزى بن قصي الأسود بن المطلب أبي زمعة ، كان رسول الله ﷺ فيما بلغني قد دعا عليه لما كان يبلغه من أذاء واستهزائه، فقال: «اللَّهُمَّ أَعُمْ بَصَرَهُ، وَأَنْكِلْهُ وَلَدَهُ» ومنبني زهرة الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة، ومنبني مخزوم الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، ومنبني سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي العاص بن وائل بن هشام بن سعيد بن سعد، ومنخزاعة الحارث بن الطلاطلة بن عمرو بن الحارث بن عبد بن - عمرو بن ملكان -. فلما تماذوا في الشر وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء أنزل الله تعالى: «فاصدح بما تؤمر وأعرض عن المشركين إنا كفيناك المستهزئين إلى قوله فسوف يعلمون» .

وقال ابن إسحاق: فحدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير أو غيره من العلماء، أن جبريل أتى رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت ، فقام وقام رسول الله ﷺ إلى جنبه، فمر به الأسود بن عبد يغوث فأشار إلى بطنه، فاستسقى بطنه، ومر به الوليد بن المغيرة، فأشار إلى أثر جرحٍ بأسفل كعب رجله، وكان أصحابه قبل ذلك بستين، وهو يجز إزاره، وذلك أنه من برجل من خزاعة يريش نبلاً له^(٢)، فتعلق سهم من نبله بإزاره فخدش رجله ذلك الخدش،

(١) انظر تفسير الطبرى ٥٤٨ / ٧.

(٢) يريش نبلاً له: أي ينحت نبالاً ويجعل لها ريشاً.

وليس بشيء، فانتقض به قتله، ومر به العاص بن وائل، فأشار إلى أخْمَص قدمه فخرج على حمار له ي يريد الطائف، فربض على شبرقة^(١) فدخلت في أخْمَص قدمه فقتلته، ومر به الحارث بن الطلاطلة فأشار إلى رأسه فامتخط^(٢) قيحاً فقتله^(٣).

قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد عن رجل، عن ابن عباس قال: كان رأسهم الوليد بن المغيرة وهو الذي جمعهم، وهكذا روي عن سعيد بن جبير وعكرمة نحو سياق محمد بن إسحاق به، عن يزيد عن عروة بطلوه، إلا أن سعيداً يقول: الحارث ابن غيطلة، وعكرمة يقول الحارث بن قيس. قال الزهرى: وصدقها هو الحارث بن قيس، وأمه غيطلة، وكذا روى عن مجاهد ومقسم وقاتدة وغير واحد أنهم كانوا خمسة. وقال الشعبي: كانوا سبعة، والمشهور الأول: قوله: ﴿الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون﴾ تهديد شديد ووعيد أكيد لمن جعل مع الله معبوداً آخر.

وقوله: ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين﴾ أي وإنما لنعلم يا محمد أنك يحصل لك من أذائم لك ضيق صدر وانقباض فلا يهينك ذلك ولا يثنيك عن إبلاغك رسالة الله، وتوكل عليه فإنه كافيك وناصرك عليهم، فاشغل بذكر الله وتحميده وتسبيحه وعبادته التي هي الصلاة، ولهذا قال: ﴿فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين﴾.

كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد^(٤): حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا معاوية بن صالح عن أبي الزاهري عن كثير بن مرة عن نعيم بن همار أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى يا ابن آدم لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره» ورواه أبو داود والنسائي من حديث مكحول عن كثير بن مرة بنحوه، ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى.

وقوله: ﴿واعبد ربك حتى يأتك اليقين﴾ قال البخاري: قال سالم: الموت، وسالم هذا هو سالم بن عبد الله بن عمر، كما قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد عن سفيان، حدثني طارق بن عبد الرحمن عن سالم بن عبد الله ﴿واعبد ربك حتى يأتك اليقين﴾ قال: الموت، وهكذا قال مجاهد والحسن وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيره، والدليل على ذلك قوله تعالى إخباراً عن أهل النار أنهم قالوا ﴿لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين حتى أثانا اليقين﴾

(١) ربض على شبرقة: أي برث على شبرقة، والشبرقة: نبت يؤكل ولله شوك.

(٢) امتخط: أي أخرجه مخاططاً من أنفه.

(٣) انظر سيرة ابن هشام ١/٤٠٩، ٤١٠، وتفسير الطبرى ٧/٥٥٠، ٥٥١.

(٤) المسند ٥/٢٨٦.

[المدثر: ٤٣ - ٤٧]

وفي الصحيح من حديث الزهري عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أم العلاء امرأة من الأنصار أن رسول الله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون وقد مات، قالت أم العلاء: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله، فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمك؟» فقلت: بأبي وأمي يا رسول الله، فمن؟ فقال: «أما هو فقد جاءه اليقين، وإنني لأرجو له الخير»^(١) ويستدل بهذه الآية الكريمة وهي قوله: «واعبد ربك حتى يأتيك اليقين» على أن العبادة كالصلوة ونحوها واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتاً، فيصللي بحسب حاله.

كما ثبت في صحيح البخاري عن عمران بن حصين رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب»^(٢) ويستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم، وهذا كفر وضلال وجهل، فإن الأنبياء عليهم السلام كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته، وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع هذا أعبد وأكثر الناس عبادة ومواطبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة، وإنما المراد باليقين ه هنا الموت، كما قدمناه، والله الحمد والمنة، والحمد لله على الهدية وعليه الاستعانة والتوكل، وهو المسؤول أن يتوفانا على أكمل الأحوال وأحسنها، فإنه جواد كريم.

آخر تفسير سورة الحجر، والحمد لله رب العالمين.

(١) أخرجه البخاري في الجنائز باب ٣، وأحمد في المسند ٦/٤٣٦.

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة باب ٢٠.

سورة النحل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَتَ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَلَّمَ عَمَّا يَشَاءُ كُوْنٌ

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها معبراً بصيغة الماضي الدال على التحقيق والوقوع لا محالة، كقوله: «اقرب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون» [الأنباء: ١]، وقال: «اقربت الساعة وانشق القمر» [القمر: ١]. وقوله: «فلا تستعجلوه» أي قرب ما تبعد فلا تستعجلوه، يحتمل أن يعود الضمير على الله، ويحتمل أن يعود على العذاب، وكلاهما متلازم، كما قال تعالى: «ويستعجلونك بالعذاب ولو لا أجل مسمى لجاءهم العذاب ول يأتيهم بعنة وهم لا يشعرون يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين» [العنكبوت: ٥٣ - ٥٤] وقد ذهب الصحاح في تفسير هذه الآية إلى قول عجيب، فقال في قوله: «أتى أمر الله» أي فرائضه وحدوده، وقد رده ابن جرير فقال: لا نعلم أحداً استعجل بالفرائض وبالشرائع قبل وجودها بخلاف العذاب، فإنهم استعجلوا قبل كونه استبعاداً وتكذيباً، قلت: كما قال تعالى: «يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد» [الشورى: ١٨].

وقال ابن أبي حاتم: ذكر عن يحيى بن آدم، عن أبي بكر بن عياش، عن محمد بن عبد الله مولى المغيرة بن شعبة، عن كعب بن علقة، عن عبد الرحمن بن حجيرة، عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «تطلع عليكم عند الساعة سحابة سوداء من المغرب مثل الترس، فما تزال ترتفع في السماء ثم ينادي مناد فيها: يا أيها الناس، فيقبل الناس بعضهم على بعض: هل سمعتم، فمنهم من يقول: نعم، ومنهم من يشك، ثم ينادي الثانية: يا أيها الناس، فيقول الناس بعضهم لبعض: هل سمعتم، فيقولون: نعم.

ثم ينادي الثالثة: يا أيها الناس أتى أمر الله فلا تستعجلوه» قال رسول الله ﷺ: «فو الذي نفسي بيده، إن الرجلين ليشران الثوب بما يطويانه أبداً، وإن الرجل ليمدن حوضه فما يسقي فيه شيئاً أبداً، وإن الرجل ليحلب ناقته بما يشربه أبداً - قال - ويشتغل الناس» ثم إنه تعالى نزه نفسه عن شركهم به غيره وعبادتهم معه ما سواه من الأوثان والأنداد، تعالى وتقدس علواً كبيراً، وهؤلاء هم المكذبون بالساعة فقال: «سبحانه تعالى عما يشركون».

يَنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَتَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونَ

يقول تعالى: **«يَنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ أَيُّ الْوَحْيٍ»** ك قوله: **«وَكَذَلِكَ أُوحِينَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَا نُورًا نَهْدِي بِهِ مِنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَنَا»** [الشورى: ٥٢] و قوله: **«عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ»** كما قال تعالى: **«الَّهُ أَعْلَمُ حِيثُ يَجْعَلُ رَسُولَهُ»** [الأَنْعَامُ: ١٢٤]، وقال: **«الَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رَسُولاً وَمِنَ النَّاسِ»** [الحج: ٧٥] وقال: **«يُلْقِي الرُّوحُ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيَنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَىَ اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لَمَنِ الْمَلَكُ الْيَوْمُ لَهُ الْوَاحِدُ الْفَهَارُ»** [غافر: ١٦ - ١٥]. و قوله: **«أَنْ أَنذِرُوا أَيُّ لَيْنَذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونَ** أي فاتقوا عقوبتي لمن خالف أمري وعبد غيري.

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعْلَمَ عَمَّا يُشَرِّكُونَ خَلَقَ الْإِنْسَنَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ

يخبر تعالى عن خلقه العالم العلوى وهو السموات، والعالم السفلى وهو الأرض بما حوت، وأن ذلك مخلوق بالحق لا للعبث بل **«لِيَجْزِي الَّذِينَ أَسَأَوْا بِمَا عَمِلُوا وَيَعْزِيزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسْنَى»** [النجم: ٣١] ثم نزه نفسه عن شرك من عبد معه غيره، وهو المستقل بالخلق وحده لا شريك له، فلهذا يستحق أن يعبد وحده لا شريك له، ثم نبه على خلق جنس الإنسان من نطفة أي مهينة ضعيفة، فلما استقل ودرج إذا هو يخاصم ربه تعالى ويكتبه ويحارب رسleه، وهو إنما خلق ليكون عبداً لا ضدأً، ك قوله تعالى: **«وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسِباً وَصَهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا»** [الفرقان: ٥٤ - ٥٥]. و قوله: **«أَوْ لَمْ يَرَ إِنَّسَانًا خَلَقْنَا مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مِنْ يَحْيِي الْعُظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يَحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوْلَ مَرَةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ»** [يس: ٧٧ - ٧٨].

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد وابن ماجه عن بسر بن جحاش قال: بصق رسول الله ﷺ في كفه، ثم قال: **«يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَىٰ: إِنَّ آدَمَ أَنِّي تَعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتَنِي مِثْلَ هَذِهِ حَتَّىٰ إِذَا سَوَيْتَكَ فَعَدْلَتْكَ مُشَيْتَ بَيْنَ بَرِّ دِيكَ وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدَ فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغْتَ الْحَلْقَوْمَ قُلْتَ أَتَصْدِقُ، وَأَنِّي أَوَانُ الصَّدْقَةِ»**^(١).

(١) أخرجه ابن ماجه في الوصايا باب ٤، وأحمد في المسند ٤/ ٢١٠.

وَالْأَنْعَمْ خَلَقَهَا لِكُمْ فِيهَا دَفَّ وَمَنَافِعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ^{١٣} وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجُحُونَ
وَحِينَ تَسْرَحُونَ^{١٤} وَتَحْمِلُ أثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُنُوا بِلَغِيَّهِ إِلَّا يَشِيقَ الْأَنْفُسُ إِذَا رَأَيْتُمْ لَرْءَوَفَ
رَّحِيمًّا^{١٥}

يمنتَن تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم، كما فصلها في سورة الأنعام إلى ثمانية أزواج، وبما جعل لهم فيها من المصالح والمنافع من أصواتها وأوبارها وأشعارها يلبسون ويفترشون، ومن ألبانها يشربون ويأكلون من أولادها، وما لهم فيها من الجمال وهو الزينة، ولهذا قال: «ولكم فيها جمال حين تريحون» وهو وقت رجوعها عشيًّا من المرعى فإنها تكون أ美的 خواص وأعظمها ضروراً وأعلاه أسمة «وحين تسرحون» أي غدوة حين تبعثونها إلى المرعى.

«وتحمل أثقالكم» وهي الأحمال الثقيلة التي تعجزون عن نقلها وحملها «إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس» وذلك في الحج والعمرة والغزو والتجارة وما جرى مجرى ذلك، تستعملونها في أنواع الاستعمال من ركوب وتحميل، قوله: «وإن لكم في الأنعام لعبرة نسيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون وعليها وعلى الفلك تحملون» [المؤمنون: ٢١ - ٢٢]، وقال تعالى: «الله الذي جعل لكم الأنعام لتركوا منها وتحملون ولهم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون ويريكم آياته فأي آيات الله تنكرون» [غافر: ٧٩ - ٨١]، ولهذا قال ه هنا بعد تعداد هذه النعم «إن ربكم لرؤوف رحيم» أي ربكم الذي قيس لكم هذه الأنعام وسخرها لكم، قوله: «أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون» [يس: ٧١ - ٧٢]، وقال: «وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتسنوا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كان له مقرنين وإنما إلى ربنا لمنقلبون» [الزخرف: ١٢ - ١٤].

قال ابن عباس: «لهم فيها دفء» أي ثياب، «ومنافع» ما تتبعون به من الأطعمة والأشربة^(١). وقال عبد الرزاق: أخبرنا إسرائيل عن سماك عن عكرمة، عن ابن عباس: دفء ومنافع نسل كل دابة. وقال مجاهد: لكم فيها دفء أي لباس ينسج، ومنافع مركب ولحم ولبن. وقال قتادة: دفء ومنافع، يقول: لكم فيها لباس ومنفعة وبلاحة، وكذا قال غير واحد من المفسرين بالفاظ متقاربة.

وَالْخَيلَ وَالْبَعَالَ وَالْحَمِيرَ لِرَكْبَوْهَا وَرِيزَنَهُ وَيَعْلُمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ^{١٦}

(١) انظر تفسير الطبرى ٧/٥٥٩

هذا صنف آخر مما خلق تبارك وتعالى لعباده يمتن به عليهم، وهو الخيل والبغال والحمير التي جعلها للركوب والزينة بها، وذلك أكبر المقصاد منها، ولما فصلها من الأنعام، وأفردها بالذكر، استدل من استدل من العلماء ممن ذهب إلى تحرير لحوم الخيل بذلك على ما ذهب إليه فيها، كالأمام أبي حنيفة رحمه الله ومن وافقه من الفقهاء بأنه تعالى قرناها بالبغال والحمير وهي حرام، كما ثبتت به السنة النبوية، وذهب إليه أكثر العلماء.

وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير^(١): حدثني يعقوب، حدثنا ابن علي، أئبنا هشام الدستوائي، حدثنا يحيى بن أبي كثير عن مولى نافع بن علقة، أنَّ ابن عباس أَنَّه كان يكره لحوم الخيل والبغال والحمير، وكان يقول: قال الله تعالى: ﴿وَالأنعام خلقها لَكُمْ فِيهَا دَفَءٌ وَمَنَافِعٌ وَمِنْهَا تَأْكِلُونَ﴾ فهذه للأكل، ﴿وَالخَيْلُ وَالبَغَالُ وَالْحَمِيرُ لَتَرْكِبُوهَا﴾ فهذه للركوب، وكذا روي من طريق سعيد بن جبير وغيره عن ابن عباس بمثله، وقال مثل ذلك الحكم بن عتبة أيضاً رضي الله عنه.

واستأنسوا بحديث رواه الإمام أحمد^(٢) في مستنه: حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا بقية بن الوليد، حدثنا ثور بن يزيد عن صالح بن يحيى بن المقدم بن معد يكرب ، عن أبيه عن جده عن خالد بن الوليد رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ عن أكل لحوم الخيل والبغال والحمير^(٣) . وأخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث صالح بن يحيى بن المقدم وفيه كلام.

ورواه أحمد^(٤) أيضاً من وجه آخر بأبسط من هذا وأدل منه فقال: حدثنا أحمد بن عبد الملك، حدثنا محمد بن حرب، حدثنا سليمان بن سليمان، عن صالح بن يحيى بن المقدم عن جده المقدم بن معد يكرب قال: غزونا مع خالد بن الوليد الصائفة^(٥) ، فقرم^(٦) أصحابنا إلى اللحم فسألوني رمكة فدفعتها إليهم، فحبلوها وقلت: مكانكم حتى آتي خالداً فأسأله فأتته فسألته، فقال: غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة خيبر فأسرع الناس في حظائر يهود فأمرني أن أنادي الصلاة جامعة، ولا يدخل الجنة إلا مسلم، ثم قال: «أيها الناس: إنكم قد أسرعتم في حظائر يهود، ألا لا تحل أموال المعاهدين إلا بحقها وحرام عليكم لحوم الأتن الأهلية وخيلها وبغالها، وكل ذي ناب من السبع، وكل ذي مخلب من الطير» والرمكة هي الحجرة، و قوله

(١) تفسير الطبرى ٥٦٣ / ٧.

(٢) المسند ٨٩ / ٤.

(٣) أخرجه أبو داود في الأطعمة باب ٢٥ ، والنسائي في الصيد باب ٣٠ ، وابن ماجه في الذبائح باب ١٤ .

(٤) المسند ٣٥٦ / ٣.

(٥) الصائفة: الغزوة في الصيف.

(٦) قرم: شدة الشهوة إلى اللحم.

جلووها أي أوثقوها في الجبل ليذبحوها، والحظائر والبساتين القريبة من العمran، وكأن هذا الصنيع وقع بعد إعطائهم العهد ومعاملتهم على الشطر، والله أعلم.

فلو صح هذا الحديث لكان نصاً في تحريم لحوم الخيل، ولكن لا يقاوم ما ثبت في الصحيحين عن جابر بن عبد الله قال: نهى رسول الله ﷺ عن لحوم الحمر الأهلية، وأذن في لحوم الخيل^(١).

ورواه الإمام أحمد وأبو داود بإسنادين كل منهما على شرط مسلم عن جابر قال: ذبحنا يوم خير الخيل والبغال والحمير، فنهانا رسول الله ﷺ عن البغال والحمير ولم ينهنا عن الخيل^(٢). وفي صحيح مسلم عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: نحرنا على عهد رسول الله ﷺ فرساً فأكلناه ونحن بالمدينة^(٣)، فهذه أدلة وأقوى وأثبت، وإلى ذلك صار جمهور العلماء مالك والشافعي وأحمد وأصحابهم وأكثر السلف والخلف، والله أعلم.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا ابن جريج عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس قال: كانت الخيل وحشية، فذلّلها الله لإسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وذكر وهب بن منبه في إسرائيلياته أن الله خلق الخيل من ريح الجنوب، والله أعلم. فقد دل النص على جواز ركوب هذه الدواب ومنها البغال، وقد أهديت إلى رسول الله ﷺ بغلة فكان يركبها مع أنه قد نهى عن إزاء الحمر على الخيل لئلا ينقطع النسل.

قال الإمام أحمد^(٤): حدثني محمد بن عبيد، حدثنا عمر من آل حذيفة عن الشعبي عن دحية الكلبي قال: قلت يا رسول الله، ألا أحمل لك حماراً على فرس فتتسع لك بغلًا فتركها؟ قال: «إنما يفعل ذلك الذين لا يعلمون».

وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّكِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَنُوشَاءٌ لَهُ دَكَّكٌ أَجْمَعِينَ

لما ذكر تعالى من الحيوانات ما يسار عليه في السبل الحسية، نبه على الطرق المعنوية الدينية، وكثيراً ما يقع في القرآن العبور من الأمور الحسية إلى الأمور المعنوية النافعة الدينية، كقوله تعالى: «وتزوّدوا فإن خير الرزّاد التقوى» [آل عمران: ١٩٧]، وقال تعالى: «يا بني آدم قد أزلنا عليكم لباساً يواري سواتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير» [الأعراف: ٢٦] ولما ذكر تعالى في هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها التي يركبونها ويبلغون عليها حاجة في صدورهم، وتحمل أثقالهم إلى البلاد والأماكن البعيدة والأسفار الشاقة، شرع في ذكر الطرق

(١) أخرجه البخاري في الذبائح باب ٢٨، ومسلم في الصيد حديث ٢٣، ٣٠.

(٢) أخرجه أبو داود في الأطعمة باب ٢٥، وأحمد في المسند ٣٥٦/٣.

(٣) أخرجه البخاري في الذبائح باب ٢٤، ومسلم في الصيد حديث ٣٨، والنمسائي في الضحايا باب ٣٣.

(٤) المسند ٤/٣١١.

التي يسلكها الناس إليه، فيبين أن الحق منها ما هي موصولة إليه فقال: «وعلى الله قصد السبيل» كقوله «وأن هذا صراطٌ مستقيماً فاتبعوه ولا تبعوا السبل [فتقى] بكم عن سبيله» [الأనعَمْ: ١٥٣] وقال: «قال هذا صراطٌ علىٰ مستقيماً» [الحجـر: ٤١].

قال مجاهد في قوله: «وعلى الله قصد السبيل» قال: طريق الحق على الله، وقال السدي، «وعلى الله قصد السبيل» الإسلام. وقال العوفي عن ابن عباس في قوله: «وعلى الله قصد السبيل» يقول: وعلى الله البيان، أي يبين الهدى والضلال. وكذا روى علي بن أبي طلحة عنه، وكذا قال قتادة والضحاك، وقول مجاهد هنا أقوى من حيث السياق، لأنه تعالى أخبر أن ثم طرقاً تسلك إليه، فليس يصل إليه منها إلا طريق الحق وهي الطريق التي شرعاها ورضي بها، وما عداها مسدودة والأعمال فيها مردودة، ولهذا قال تعالى: «ومنها جائز» أي حائد مائل زائف عن الحق.

قال ابن عباس وغيره: هي الطرق المختلفة والأراء والأهواء المترفرفة كاليهودية والنصرانية والمجوسية، وقرأ ابن مسعود «ومنكم جائز» ثم أخبر تعالى أن ذلك كله كائن عن قدرته ومشيئته، فقال: «ولو شاء لهadam أجمعين» كما قال تعالى: «ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جمِيعاً» [يونس: ٩٩] وقال: «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمنت كلمة ربك لأملأن جهنم من العجنة والناس أجمعين» [هود: ١١٨ - ١١٩].

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسَيِّمُونَ ۝ يُثْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالْزَيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الشَّرْبَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِيَّةً لِفَتَرِيمِ يَنْفَسَكَرُونَ ۝

لما ذكر تعالى ما أنعم به عليهم من الأنعام والدواب شرع في ذكر نعمته عليهم في إنزال المطر من السماء وهو العلو مما لهم فيه بلغة ومتاع لهم ولأنعامهم، فقال: «لكم منه شراب» أي جعله غذياً زلاً يسوغ لكم شرابه، ولم يجعله ملحاً أحاجاً «ومنه شجر فيه تسيمون»: أي وأخرج لكم منه شجراً ترعون فيه أنعامكم. كما قال ابن عباس وعكرمة والضحاك وقتادة وابن زيد في قوله فيه تسيمون، أي ترعون^(١) ومن الإبل السائمة، والسموم: الرعي. وروى ابن ماجه أن رسول الله ﷺ نهى عن السموم قبل طلوع الشمس^(٢).

وقوله: «يُبَيِّنُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالْزَيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الشَّرْبَاتِ» أي يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد على اختلاف صنوفها وطعمها وألوانها وروائحها وأشكالها،

(١) انظر تفسير الطبرى ٥٦٦ / ٧.

(٢) آخرجه ابن ماجه في التجارات باب ٢٩.

ولهذا قال : «إِنْ فِي ذَلِكَ لَايَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» أي دلالة وحججة على أنه لا إله إلا الله ، كما قال تعالى : «أَمْنَ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ لَكُم مِنَ السَّمَاءِ مَا أَنْبَتَنَا بِهِ حَدَائِقُ ذَاتٍ بِهِجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تَبْنِيَا شَجَرَهَا إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بِلَهٗ مَوْلَوْنُونَ» [النمل : ٦٠] ، ثم قال تعالى :

وَسَخَّرَ لَكُمْ أَيْلَهَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجْوَمُ مُسْخَرَاتٍ يَأْتِيَكُمْ فِي ذَلِكَ لَذَكَرٍ لَقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ وَمَا ذَرَأً لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلوَانَهُ إِنَّكُمْ فِي ذَلِكَ لَذَكَرٍ لَأَيَّاهُ لِقَوْمٍ
يَدَكْرُونَ

ينبه تعالى عباده على آياته العظام ومنته العظام في تسخيره الليل والنهار يتعاقبان ، والشمس والقمر يدوران ، والنجوم الثواب والسيارات في أرجاء السموات نوراً وضياء ليهتدى بها في الظلمات ، وكل منها يسير في فلكه الذي جعله الله تعالى فيه ، يسير بحركة مقدرة لا يزيد عليها ولا ينقص عنها ، والجميع تحت قهره وسلطانه وتسخيره وتقديره وتسهيله ، كقوله : «إِنْ رَبِّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سَتَةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَغْشِي اللَّيلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثِنَا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجْوَمُ مُسْخَرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ» [الأعراف : ٥٤] ولهذا قال : «إِنْ فِي ذَلِكَ لَايَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» أي دلالات على قدرته تعالى الباهرة وسلطانه العظيم لقوم يعقلون عن الله ويفهمون حججه .

وقوله : «وَمَا ذَرَأً لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلَوَانَهُ» لما نبه تعالى على معالم السموات نبه على ما خلق في الأرض من الأمور العجيبة ، والأشياء المختلفة من الحيوانات والمعادن ، والنباتات والجمادات على اختلاف ألوانها وأشكالها ، وما فيها من المنافع والخواص «إِنْ فِي ذَلِكَ لَايَةً لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ» أي آلاء الله ونعمه فيشكرونها .

وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيرًا وَتَسْتَخْرُجُوا مِنْهُ حِلَيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى
الْفَلَكَ مَوَاحِدَرَ فِيهِ وَلَتَسْتَعْوِدُ مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشَكُّرُونَ وَالْقَنْ فِي الْأَرْضِ رَوْسَى
أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَرَ وَسَبَلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَعَلِمَتْ بِإِلَيْهِمْ هُنَّ يَهْتَدُونَ إِنَّمَنْ يَخْلُقُ
كُمْ لَا يَخْلُقُ أَفْلَاثًا تَذَكَّرُونَ وَإِنْ تَعْدُوا بِعِمَّةَ اللَّهِ لَا يَحْصُوْهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ

يخبر تعالى عن تسخيره البحر المتلاطم الأمواج ، ويمن على عباده بتذليله لهم وتسيرهم للركوب فيه ، وجعله السمك والحيتان فيه ، وإحلاله لعباده لحمها حبها وميتها في الحل والإحرام ، وما يخلقه فيه من الآلية والجواهر النفسية ، وتسهيله للعباد استخراجهم من قراره حلية يلبسوها ، وتسخيره البحر لحمل السفن التي تمخره أي تشقه ، وقيل تمخر الرياح ، وكلاهما صحيح ، وقيل تمخره بجوجتها وهو صدرها المستنم - الذي أرشد العباد إلى صنعتها وهداهم إلى ذلك إرثاً عن أبيهم نوح عليه السلام ، فإنه أول من ركب السفن ، وله كان تعليم

صنعتها، ثم أخذها الناس عنه قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، يسيرون من قطر إلى قطر، ومن بلد إلى بلد، ومن إقليم إلى إقليم، لجلب ما هناك إلى ما هنا، وما هنا إلى ما هناك، ولهذا قال تعالى: ﴿ولَيَتَّغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعِلَّكُمْ تَشَكَّرُونَ﴾ أي نعمه وإحسانه.

وقد قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: وجدت في كتابي عن محمد بن معاوية البغدادي، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن عمرو عن سهل بن أبي صالح عن أبيه، عن أبي هريرة قال: كلام الله البحرين الغربي وكلم البحرين الشرقي، فقال للبحر الغربي: إني حامل فيك عباداً من عبادي، فكيف أنت صانع فيهم؟ قال: أغرقهم، فقال: بأسك في نواحيك، وأحملهم على يدي، وحرمت الحلية والصيد، وكلم هذا البحر الشرقي فقال: إني حامل فيك عباداً من عبادي فما أنت صانع بهم؟ فقال: أحملهم على يدي وأكون لهم كالوالدة لولدها، فأثابه الحلية والصيد، ثم قال البزار: لا نعلم من رواه عن سهل غير عبد الرحمن بن عبد الله بن عمرو، وهو منكر الحديث. وقد رواه سهل عن النعمان بن أبي عياش عن عبد الله بن عمر موقفاً.

ثم ذكر تعالى الأرض وما ألقى فيها من الرواسي الشامخات، والجبال الراسيات، لتقر الأرض ولا تميد، أي تضطرب بما عليها من الحيوانات فلا يهأ لهم عيش بسبب ذلك، ولهذا قال: ﴿وَالْجَبَالُ أَرْسَاهَا﴾ [التازعات: ٣٢] وقال عبد الرزاق: أنبأنا عمر عن قتادة، سمعت الحسن يقول: لما خلقت الأرض كانت تميد، فقالوا: ما هذه بمقرة على ظهرها أحداً، فأصبحوا وقد خلقت الجبال، فلم تدر الملائكة مما خلقت الجبال. وقال سعيد عن قتادة عن الحسن عن قيس بن عبادة أن الله لما خلق الأرض جعلت تمور، فقالت الملائكة: ما هذه بمقرة على ظهرها أحداً فأصبحت صبحاً وفيها رواسيها.

وقال ابن جرير^(١): حدثني المثنى، حدثني حجاج بن منهال، حدثنا حماد عن عطاء بن السائب، عن عبد الله بن حبيب، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: لما خلق الله الأرض قَمَصَتْ وقالت: أي رب تجعل عليبني آدم يعملون الخطايا ويجعلون علي الخب؟ قال: فأرسى الله فيها من الجبال ما ترون وما لا ترون، فكان إقرارها كاللحيم يتدرج.

وقوله: ﴿وَأَنْهَارًا وَسِبَلاً﴾ أي جعل فيها أنهاراً تجري من مكان إلى مكان آخر رزقاً للعباد، ينبع في موضع وهو رزق لأهل موضع آخر، فيقطع البقاع والبراري والقفاري، ويخترق الجبال والأكاك، فيصل إلى البلد الذي سخر لأهله وهي سائرة في الأرض يمنة ويسرة، وجنوباً وشمالاً، وشرقاً وغرباً، ما بين صغار وكبار، وأودية تجري حيناً وتقطع في وقت، وما بين نبع وجمع، وقوى السير وبطيئه بحسب ما أراد وقدر وسخر ويسراً، فلا إله إلا هو ولا رب سواه، وكذلك جعل فيها سبلأً أي طرقاً يسلك فيها من بلاد إلى بلاد حتى إنه تعالى ليقطع الجبل حتى يكون ما بينهما ممراً أو مسلكاً، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فَجَاجاً سِبَلاً﴾ [الأنياء: ٣١] الآية.

وقوله: «وَعِلَامَاتٍ» أي دلائل من جبال كبار وأكام صغار ونحو ذلك ، يستدل بها المسافرون برأً وبحراً إذا ضلوا الطرق . قوله: «وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ» أي في ظلام الليل ، قاله ابن عباس ، وعن مالك في قوله: «وَعِلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ» يقول: النجوم وهي الجبال ، ثم نبه تعالى على عظمته وأنه لا تنبغي العبادة إلا له دون ما سواه من الأوثان التي لا تخلق شيئاً بل هم يخلقون ، ولهاذا قال: «أَفَمِنْ يَخْلُقُ كُمْ لَا يَعْلَمُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» .

ثم نبههم على كثرة نعمه عليهم وإحسانه إليهم ، فقال: «إِذَا تَعْدُوا نَعْمَةَ اللهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لِغَفْرَانِ رَحْمَيْهِ» أي يتجاوز عنكم ، ولو طالبكم بشكر جميع نعمه لعجزتم عن القيام بذلك ، ولو أمركم به لضعفتم وتركتم ، ولو عذبكم لعدبكم وهو غير ظالم لكم ، ولكنه غفور رحيم ، يغفر الكثير ويتجاوز على السير ، وقال ابن جرير^(١): يقول إن الله لغفور لما كان منكم من تقسيب في شكر بعض ذلك إذا تبتم وأنتم إلى طاعته واتباع مرضاته ، رحيم بكم لا يعذبكم بعد الإنابة والتوبة .

وَاللهُ يَعْلَمُ مَا سِرُورُكَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يَخْلُقُونَ ﴿٢﴾
أَمْوَاتٍ غَيْرَ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يَبْعَثُونَ ﴿٣﴾

يخبر تعالى أنه يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر ، وسيجزي كل عامل يعمله يوم القيمة ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر . ثم أخبر أن الأصنام التي يدعونها من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ، كما قال الخليل: «أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحَتُونَ وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ» [الصفات: ٩٥ - ٩٦] . قوله: «أَمْوَاتٍ غَيْرَ أَحْيَاءٍ» أي هي جمادات لا أرواح فيها ، فلا تستمع ولا تبصر ولا تعقل «وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يَبْعَثُونَ» أي لا يدركون متى تكون الساعة ، فكيف يرجى عند هذه نفع أو ثواب أو جزاء؟ إنما يرجى ذلك من الذي يعلم كل شيء وهو خالق كل شيء .

إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَحْدَهُ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ لَا جَرَمَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يَعْلِمُونَ إِنَّمَا لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿١﴾

يخبر تعالى أنه لا إله هو الواحد الأحد الفرد الصمد ، وأخبر أن الكافرين تنكر قلوبهم ذلك ، كما أخبر عنهم متعججين من ذلك «أَجْعَلُ إِلَهَهَا إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لِشَيْءٍ عَجَابٌ» [ص: ٥] وقال تعالى: «وَإِذَا ذَكَرَ اللهُ وَحْدَهُ شَمَأَزَتْ قُلُوبُ الظِّنَنِ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذَكَرَ الذِّينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبِشُونَ» [الزمر: ٤٥] . قوله: «وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ» أي عن عبادة الله مع إنكار قلوبهم لتوحيده كما قال: «إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ» [غافر: ٧]

٦٠] ولهذا قال هنـا ﴿لَا جُرْم﴾ أي حقاً «أن الله يعلم ما يسرون وما يعلـون﴾ أي وسيجزـهم على ذلك أتمـ الجزاء ﴿إنه لا يحبـ المستكـبرـين﴾.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضْلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَرَوْنَ

يقول تعالى: وإذا قيل لهؤلاء المكذبين ﴿مـاذا أـنزل ربـكم قالـوا﴾ معرضـين عن الجواب ﴿أسـاطـيرـ الأولـين﴾ أي لم يـنزل شـيـئـا، إنـما هـذا الذـى يـتـلى عـلـينا أسـاطـيرـ الأولـين، أي مـاخـوذـ من كـتبـ المـتقـدـمـينـ، كما قالـ تعالى: ﴿وـقالـوا أـساطـيرـ الأولـينـ اكتـبـها فـهيـ تـملـى عـلـيهـ بـكـرةـ وأـصـيلاـ﴾ [الفرقـانـ: ٥] أي يـفترـونـ عـلـى الرـسـولـ وـيـقـولـونـ أـقوـاـلـ مـخـلـصـةـ كـلـهاـ باـطـلـ، كما قالـ تعالى: ﴿انـظـرـ كـيفـ ضـربـوا لـكـ الـأـمـثـالـ فـضـلـوا فـلاـ يـسـطـعـونـ سـبـيلـاـ﴾ [الفرقـانـ: ٩] وذلكـ أنـ كـلـ من خـرـجـ عـنـ الـحـقـ فـمـهـماـ قـالـ أـخـطاـ، وـكـانـواـ يـقـولـونـ: سـاحـرـ وـشـاعـرـ وـكـاهـنـ وـمـجـنـونـ، ثمـ استـقـرـ أـمـرـهـمـ إـلـىـ ماـ اـخـتـلـقـهـ لـهـمـ شـيخـهـمـ الـوحـيدـ الـمـسـمـىـ بـالـوـلـيدـ بـنـ الـمـغـيـرـةـ الـمـخـزـومـيـ لـمـاـ ﴿فـكـرـ وـقـدـرـ فـقـتـلـ كـيفـ قـدـرـ، ثـمـ قـتـلـ كـيفـ قـدـرـ ثـمـ نـظـرـ ثـمـ عـبـسـ وـبـرـ ثـمـ أـدـبـ وـاسـتـكـبـرـ فـقـالـ إـنـ هـذـاـ إـلـاـ سـحـرـ يـؤـثـرـ﴾ [المـدـثـرـ: ١٨ـ ٢٤ـ] أي يـنـقلـ وـيـحـكـيـ، فـنـفـرـقـواـ عـنـ قـوـلـهـ وـرـأـيـهـ قـبـحـهـ اللـهـ .

قالـ تعالى: ﴿لـيـحـمـلـواـ أـوـزـارـهـمـ كـامـلـةـ يـوـمـ الـقـيـامـةـ وـمـنـ أـوـزـارـ الـذـيـنـ يـضـلـلـوـنـهـ بـغـيـرـ عـلـمـ﴾ أي إنـماـ قـدـرـناـ عـلـيـهـمـ أـنـ يـقـولـواـ ذـلـكـ لـيـحـمـلـواـ ذـلـكـ لـيـتـلـىـهـمـ أـوـزـارـهـمـ وـمـنـ أـوـزـارـ الـذـيـنـ يـتـبعـونـهـ وـيـوـافـقـونـهـ أي يـصـيرـ عـلـيـهـمـ خـطـيـئةـ ضـلـالـهـمـ فـيـ أـفـسـهـمـ، وـخـطـيـئةـ إـغـوـائـهـمـ لـغـيـرـهـمـ وـاقـتـداءـ أـوـلـئـكـ بـهـمـ، كـمـ جـاءـ فـيـ الـحـدـيـثـ «مـنـ دـعـاـ إـلـىـ هـدـىـ كـانـ لـهـ مـنـ الـأـجـرـ مـثـلـ أـجـورـ مـنـ اـتـيـعـهـ لـاـ يـنـقصـ ذـلـكـ مـنـ أـجـورـهـ شـيـئـاـ، وـمـنـ دـعـاـ إـلـىـ ضـلـالـةـ كـانـ عـلـيـهـ مـنـ الإـثـمـ مـثـلـ آثـامـ مـنـ اـتـيـعـهـ لـاـ يـنـقصـ ذـلـكـ مـنـ آثـامـهـ شـيـئـاـ»^(١).

وقـالـ تـعـالـىـ: ﴿وـلـيـحـمـلـنـ أـثـالـهـمـ وـأـنـقـالـهـمـ وـلـيـسـأـلـنـ يـوـمـ الـقـيـامـةـ عـماـ كـانـواـ يـفـتـرـونـ﴾ [العنـكـبوتـ: ١٣] وهـكـذاـ روـيـ العـوـفـيـ عـنـ اـبـنـ عـبـاسـ فـيـ الـآـيـةـ ﴿لـيـحـمـلـواـ أـوـزـارـهـمـ كـامـلـةـ يـوـمـ الـقـيـامـةـ وـمـنـ أـوـزـارـ الـذـيـنـ يـضـلـلـوـنـهـ بـغـيـرـ عـلـمـ﴾ أـنـهـاـ كـوـلـهـ: ﴿وـلـيـحـمـلـنـ أـثـالـهـمـ وـأـنـقـالـهـمـ وـأـنـقـالـاـ مـعـ أـنـقـالـهـمـ﴾ [العنـكـبوتـ: ١٣] وـقـالـ مـجـاهـدـ: يـحـمـلـوـنـ أـثـالـهـمـ ذـنـوبـهـمـ وـذـنـوبـ مـنـ أـطـاعـهـمـ، وـلـاـ يـخـفـ عـنـ أـطـاعـهـمـ مـنـ الـعـذـابـ شـيـئـاـ.

قـدـمـكـرـ الـذـيـنـ مـنـ قـبـلـهـمـ فـاقـ أـلـهـ بـتـيـنـهـمـ مـنـ الـقـوـاعـدـ فـخـرـ عـلـيـهـمـ أـسـقـفـ مـنـ فـوـقـهـمـ

(١) آخرـهـ مـسـلـمـ فـيـ الـعـلـمـ حـدـيـثـ ١٦ـ، وـالـذـكـرـ حـدـيـثـ ١ـ، وـأـبـوـ دـاـودـ فـيـ السـنـةـ بـابـ ٦ـ، وـالـتـرـمـذـيـ فـيـ الـعـلـمـ بـابـ ١٥ـ، وـابـنـ مـاجـهـ فـيـ الـمـقـدـمـةـ بـابـ ١٤ـ، ١٥ـ، وـالـدـارـمـيـ فـيـ الـمـقـدـمـةـ بـابـ ٤٤ـ، وـأـحـمـدـ فـيـ الـمـسـنـدـ . ٣٩٧ـ/ـ٢ـ

وَأَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ إِنَّمَا يَوْمَ الْقِيَمَةَ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شَرَكَاءُكُمُ الَّذِينَ كُتُمْ تُشَقِّعُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أَتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخَرَى الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ

قال العوفي عن ابن عباس في قوله: «قد مكر الذين من قبلهم» قال: هو النمرود الذي بنى الصرح^(١)، قال ابن أبي حاتم وروي عن مجاهد نحوه. وقال عبد الرزاق عن معمراً، عن زيد بن أسلم: أول جبار كان في الأرض النمرود، فبعث الله عليه بعوضة فدخلت في منخره، فمكث أربعين سنة يضرب رأسه بالمطارق، وأرحم الناس به من جمع يديه فضرب بهما رأسه وكان جباراً أربعين سنة، فعذبه الله أربعين سنة كملكه، ثم أماته، وهو الذي بنى الصرح إلى السماء الذي قال الله تعالى: «فَأَتَى اللَّهُ بِنَيَانِهِمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ» وقال آخرون: بل هو بختنصر، وذكروا من المكر الذي حكاه الله هنا كما قال في سورة إبراهيم «إِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لَتَزُولُ مِنْهُ الْجَبَالُ» [إبراهيم: ٤٦] وقال آخرون: هذا من باب المثل لإبطال ما صنعه هؤلاء الذين كفروا بالله وأشركوا في عبادته غيره، كما قال نوح عليه السلام: «وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبَارًا» [نوح: ٢٢] أي احتالوا في إضلال الناس بكل حيلة وأموالهم إلى شركهم بكل وسيلة، كما يقول لهم أتباعهم يوم القيمة: «بَلْ مَكْرُ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا» [سبأ: ٣٣] الآية.

وقوله: «فَأَتَى اللَّهُ بِنَيَانِهِمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ» أي اجتنبه من أصله وأبطل عملهم، كقوله تعالى: «كُلُّمَا أُوقِدَوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَلَهَا اللَّهُ» [المائدة: ٦٤]، وقوله: «فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَدْ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّغْبَةُ يُخْرِبُونَ بِيَوْمِهِمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولَئِي الْأَبْصَارِ» [الحشر: ٢]، وقال الله هنا: «فَأَتَى اللَّهُ بِنَيَانِهِمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَعُوا عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ» أي يظهر فضائحهم، وما كانت تجنه ضمائرهم فيجعله علانة، كقوله تعالى: «يَوْمَ تَبْلِي السَّرَّائِرُ» أي تظهر وتشهر كما في الصحيحين عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءُ يَوْمِ الْقِيَمَةِ عِنْدَ أَسْتَهِ بِقَدْرِ غَدْرِهِ، فَيُقَالُ هَذِهِ غَدْرَةُ فَلانَ بْنِ فَلانٍ»^(٢).

وهكذا يظهر للناس ما كانوا يسرونه من المكر ويذريهم الله على رؤوس الخلاقين ويقول لهم رب تبارك وتعالى مقرعاً لهم وموياً «أَيْنَ شَرَكَائِي الَّذِينَ كُتُمْ تَشَاقُّوْنَ فِيهِمْ» تحاربون وتعادون في سبيلهم أين هم عن نصركم وخلاصكم هنا؟ «هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ» [الشعراء: ٩٣] «فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ» [الطارق: ١٠] فإذا توجهت عليهم الحجة وقامت

(١) انظر تفسير الطبرى ٧/٥٧٧.

(٢) آخرجه البخاري في الجزية باب ٢٢، والأدب باب ٩٩، والجبل باب ٩، والفتن باب ٢١، ومسلم في الجهاد حديث ٨، ١٠، ١٧.

عليهم الدلالة، وحققت عليهم الكلمة وسكتوا عن الاعتذار حين لا فرار ﴿قال الذين أتوا العلم﴾ وهم السادة في الدنيا والآخرة، والمخبرون عن الحق في الدنيا والآخرة، فيقولون حيتند: ﴿إِنَّ الْخَرْزِيَ الْيَوْمَ وَالسَّوْءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي الفضيحة والعذاب محيط اليوم بمن كفر بالله وأشرك به ما لا يضره وما لا ينفعه.

الَّذِينَ تَوَفَّهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَالِعِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ لَكُنَّ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فَادْخُلُوا الْبَوْبَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَثَوًى الْمُتَكَبِّرِينَ

يخبر تعالى عن حال المشركين الظالمين أنفسهم عند احتضارهم ومجيء الملائكة إليهم لقبض أرواحهم الخبيثة ﴿فَأَلْقَوُا السَّلَامَ﴾ أي أظهروا السمع والطاعة والانقياد قائلين ﴿ما كنا نعمل من سوء﴾ كما يقولون يوم المعاد ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] ﴿يَوْمَ يُبَعْثَثُ الْأَنْفُسُ كُلُّهُمْ جَمِيعًا فِي حِلْفَاتٍ لِكُمْ﴾ [المجادلة: ١٨] قال الله مكذبا لهم في قيلهم ذلك ﴿بَلِّي إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَثَوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي بشئ المقيل والمقام والمكان من دار هوان لمن كان متكبراً عن آيات الله واتباع رسليه، وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم، وبينال أجسادهم في قبورها من حرها وسمومها، فإذا كان يوم القيمة سلكت أرواحهم في أجسادهم وخلدت في نار جهنم ﴿لَا يَقْضِي عَلَيْهِمْ فِيمَوْتُو وَلَا يَخْفَفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦] كما قال الله تعالى: ﴿النَّارُ عَرَضُونَ عَلَيْهَا غَدُوا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخُلُوا آلَ فَرْعَوْنَ أَشَدَ العَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

وَقَيلَ لِلَّذِينَ أَتَقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا حَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنْ يَعْمَلُ دَارُ الْمُتَقَبِّلِينَ جَنَّتُ عَدَنَ يَدْخُلُونَهَا بَعْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَقَبِّلِينَ الَّذِينَ تَوَفَّهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيْبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

هذا خبر عن السعداء بخلاف ما أخبر به عن الأشقياء، فإن أولئك قيل لهم: ﴿مَاذا أنزل ربكم﴾ قالوا معرضين عن الجواب: لم يتزل شيئاً إنما هذا أساطير الأولين، وهؤلاء قالوا: خيراً، أي أنزل خيراً، أي رحمة وبركة لمن اتبعه وأمن به. ثم أخبر عما وعد الله عباده فيما أنزله على رسليه فقال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ الآية، كقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكْرِ أَوْ أَثْنَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِنَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنُنْجِزَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِمَا حَسِنُوا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] أي من أحسن عمله في الدنيا أحسن الله إليه عمله في الدنيا والآخرة، ثم أخبر بأن دار الآخرة خير أي من الحياة الدنيا، والجزاء فيها أتم من الجزاء في الدنيا، كقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَتَوْا الْعِلْمَ وَيَلْكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ [القصص: ٨٠] الآية. وقال تعالى: ﴿وَمَا عَنِ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨] وقال تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ٦]

١٧] وقال لرسوله ﷺ ﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾ [الضحى: ٤] ثم وصف الدار الآخرة فقال: ﴿ولنعم دار المتقين﴾.

وقوله: ﴿جُنَاحَاتِ عَدْن﴾ بدل من دار المتقين أي لهم في الآخرة جنات عدن، أي مقام يدخلونها ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَار﴾ أي بين أشجارها وقصورها ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُون﴾ كقوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِي الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّلُ الْأَعْيُنِ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُون﴾. [الزخرف: ٧١] وفي الحديث «إن السحابة لتمر بالملأ من أهل الجنة وهم جلوس على شرابهم، فلا يشتهي أحد منهم شيئاً إلا أمطرته عليه حتى إن منهم لمن يقول أمطرينا كواكب أترايا فيكون ذلك» ﴿كذلك يجزي الله المتقين﴾ أي كذلك يجزي الله كل من آمن به وانته وأحسن عمله.

ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار أنهم طيبون أي مخلصون من الشرك والدس وكل سوء، وأن الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم بالجنة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَنَزَّلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَنْ لَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزُنُوا وَأَبْشِرُوهُمْ بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تَوَعَّدُونَ نَحْنُ أَوْلَيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ نَزَلًا مِّنْ غَفُورِ رَحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠ - ٣٢] وقد قدمنا الأحاديث الواردة في قبض روح المؤمن وروح الكافر عند قوله تعالى: ﴿بَيْتَ اللَّهِ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُبَلِّغُ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعُلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

هَلْ يَظْرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمُهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٢﴾ فَاصَابُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣﴾

يقول تعالى مهدداً للمشركين على تماديهم في الباطل واغترارهم بالدنيا: هل يتضرر هؤلاء إلا الملائكة أن تأتיהם لقبض أرواحهم، قاله قنادة^(١)، ﴿أَوْ يَأْتِي أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي يوم القيمة وما يعاينونه من الأهوال. وقوله: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي هكذا تمادي في شركهم أسلافهم ونظراً لهم وأشباههم من المشركين حتى ذاقوا بأس الله وحلوا فيما هم فيه من العذاب والنkal ﴿وَمَا ظَلَمُهُمُ اللَّهُ﴾ لأنه تعالى أعد لهم وأقام حججه عليهم بإرسال رسle وإنزال كتبه ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي بمخالفة الرسل والتکذیب بما جاؤوا به، فلهذا أصابتهم عقوبة الله على ذلك ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أي أحاط بهم من العذاب الأليم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي يسخرون من الرسل إذا توعدوهم بعقاب الله، فلهذا يقال لهم يوم القيمة: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ﴾ [الطور: ١٤].

(١) انظر تفسير الطبرى ٥٨١ / ٧.

وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لِوْشَاءَ اللَّهَ مَا عَبَدَنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَلَا هُنَّ وَلَآ إِبَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمَنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَ الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ۖ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهَ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الْأَضْلَالُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَنْقَبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ۖ إِنْ تَحْرِصَ عَلَى هُدُوْنِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضْلِلُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرٍ ۚ ۲۷

يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الإشراك واعتذارهم محتاجين بالقدر بقولهم: «لو شاء الله ما عبادنا من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء» أي من البحائر والسوائب والوسائل وغير ذلك مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم ما لم ينزل به سلطاناً، ومضمون كلامهم أنه لو كان تعالى كارهاً لما فعلنا لأنكره علينا بالعقوبة، ولما مكتنا منه، قال الله تعالى راداً عليهم شبتهم: «فهل على الرسل إلا البلاغ المبين» أي ليس الأمر كما تزعمون أنه لم ينكروه عليكم، بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار، ونهاكم عنه أكد النهي، وبعث في كل أمة أي في كل قرن وطائفة رسولاً، وكلهم يدعون إلى عبادة الله وينهون عن عبادة ما سواه.

«أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ» فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك في بني آدم في قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغارب، وكلهم كما قال الله تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ» [الأبياء: ٢٥].

وقوله تعالى: «وَاسْتَأْتِ مِنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولِنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ أَلَّهُ يَعْبُدُونَ» [الزخرف: ٤٥] وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: «وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ» فيكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول: «لو شاء الله ما عبادنا من دونه من شيء» فمشيئته تعالى الشرعية عنهم متفتية، لأنه نهاهم عن ذلك على ألسنة رسليه، وأما مشيئته الكونية وهي تمكينهم من ذلك قدرأً، فلا حجة لهم فيها، لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكافرة، وهو لا يرضى لعباده الكفر، وله في ذلك حجة باللغة وحكمة قاطعة.

ثم إنه تعالى قد أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل، فلهذا قال: «فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهَ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الْأَضْلَالُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ كَيْفَ كَانَ عَنْقَبَةُ الْمُكَذِّبِينَ» أي أسألوا عما كان من أمر من خالف الرسل وكذب الحق كيف «دَمَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ

وللكافرين أمثالها» [محمد: ١٠]، فقال: «ولقد كذب الذين من قبلكم فكيف كان نكير» [الملك: ١٨]. ثم أخبر الله تعالى رسوله ﷺ أن حرصه على هدايتهم لا ينفعهم إذا كان الله قد أراد إضلالهم كقوله تعالى: «ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً» [المائدة: ٤١] وقال نوح لقومه: «ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنتصر لكم إن كان الله يريد أن يغويكم» [هود: ٣٤] وقال في هذه الآية الكريمة: «إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل» كما قال الله تعالى: «من يضل الله فلا هادي له وينذرهم في طغيانهم يعمهمون» [الأعراف: ١٨٦] وقال تعالى: «إن الذين حقت عليهم كلمة ربكم لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم» [يونس: ٩٦ - ٩٧].

وقوله: «فإن الله» أي شأنه وأمره أنه ما شاء كان وما لم يشاً لم يكن، فلهذا قال: «لا يهدي من يضل» أي من أضلهم، فمن ذا الذي يهديه من بعد الله؟ أي لا أحد «وما لهم من ناصرين» أي ينقذونهم من عذابه ووثاقه «ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين» [الأعراف: ٥٤].

وَأَقْسَمُوا بِإِلَهٍ جَهَدَ أَيْمَانَهُمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمْوَتْ بَلْ وَعْدًا عَيْنِهِ حَقًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ لَيَسَّرَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِعَلَّمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِينَ ۝ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَفَاعَةٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَفُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝

يقول تعالى مخبراً عن المشركين أنهم حلفوا فأقسموا «بِاللهِ جَهَدَ أَيْمَانَهُمْ» أي اجتهدوا في الحلف، وغلظوا الأيمان على أنه «لا يبعث الله من يموت» أي استبعدوا ذلك، وكذبوا الرسل في إخبارهم لهم بذلك وحلفوا على نقيضه، فقال تعالى مكتباً لهم ورادةً عليهم «بَلِي» أي بلـي سيكون ذلك «وعدـاً عـلـيـهـ حـقـاـ» أي لا بد منه «وـلـكـنـ أـكـثـرـ النـاسـ لـاـ يـعـلـمـونـ» أي فلجلهم يخالفون الرسل ويقعون في الكفر، ثم ذكر تعالى حكمته في المعاد وقيام الأجساد يوم التناد، فقال: «لَيَسَّرَ لَهُمُ» أي للناس «الذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ» أي من كل شيء «لِيَجْزِي الَّذِينَ أَسَأُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسْنَى» [النجم: ٣١] «وَلِعَلَّمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِينَ» أي في أيمانهم وأقسامهم لا يبعث الله من يموت.

ولهذا يدعون يوم القيمة إلى نار جهنم دعا، وتقول لهم الزبانية: «هذه النار التي كتم بها تكذبون أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كتم تعملون» [الطور: ١٤ - ١٦] ثم أخبر تعالى عن قدرته على ما يشاء، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، والمعاد من ذلك إذا أراد كونه فإنما يأمر به مرة واحدة، فيكون كما يشاء، كقوله: «وَمَا أَمْرَنَا إِلَّا واحـدةـ كـلـمـعـ بـالـبـصـرـ» [القمر: ٥٠] وقال «مـاـ خـلـقـكـمـ وـلـاـ بـعـثـكـمـ إـلـاـ كـنـفـسـ وـاحـدةـ» [لـقـمانـ: ٢٨]

وقال : في هذه الآية الكريمة ﴿إِنَّمَا قُولُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرْدَنَاهُ أَن نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي أن تأمر به مرة واحدة فإذا هو كائن ، كما قال الشاعر : [الطويل]

إِذَا مَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ كَائِنًا فَيَكُونُ^(١)

أي أنه تعالى لا يحتاج إلى تأكيد فيما يأمر به ، فإنه تعالى لا يمانع ولا يخالف ، لأنه الواحد القهار العظيم الذي قهر سلطانه وجروته وعزته كل شيء فلا إله إلا هو ولا رب سواه ، وقال ابن أبي حاتم : ذكر الحسن بن محمد بن الصباح ، حدثنا حجاج عن ابن جريج ، أخبرني عطاء أنه سمع أبا هريرة يقول قال الله تعالى : شتمني ابن آدم ولم يكن ينبغي له ذلك ، وكذبني ابن آدم ولم يكن ينبغي له ذلك ، فأما تكذيبه إباهي فقال : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وأما شتمه إباهي فقال :

﴿قَالَ وَقَلْتَ: «بَلِّي وَعِدْدًا عَلَيْهِ حَقًا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ»﴾ وأما كفوا وإن الله ثالث ثلاثة﴾ وقلت : ﴿قَلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدُ اللَّهِ الصَّمْدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوْلَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كَفُواً أَحَدًا﴾ . [الإخلاص : ١ - ٤] هكذا ذكره موقوفاً وهو في الصحيحين مرفوعاً بلفظ آخر .

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لِنَبْوَثُنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلِأَجْرٍ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَهُ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣﴾

يخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين في سبيله ابتغاء مرضاته ، الذين فارقوا الدار والإخوان والخلان رجاء ثواب الله وجزائه ، ويحتمل أن يكون سبب نزولها في مهاجرة الجبعة الذين اشتد أذى قومهم لهم بمكة حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة ليتمكنوا من عبادة ربهم ، ومن أشرافهم عثمان بن عفان ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ ، وجعفر بن أبي طالب ابن عم الرسول ، وأبو سلمة بن عبد الأسود في جماعة قريب من ثمانين ما بين رجل وامرأة صديق وصديقة رضي الله عنهم وأرضاصهم ، وقد فعل فوعدهم تعالى بالمجازاة الحسنة في الدنيا والآخرة فقال : ﴿لِنَبْوَثُنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ قال ابن عباس الشعبي وقتادة : المدينة ، وقيل : الرزق الطيب ، قاله مجاهد .

ولا منافاة بين القولين ، فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم فعوضهم الله خيراً منها في الدنيا ، فإن من ترك شيئاً لله عوضه الله بما هو خير له منه ، وكذلك وقع فإنهم مكن الله لهم في البلاد ، وحكمهم على رقاب العباد ، وصاروا أماء حكاماً ، وكل منهم للمتقين إماماً ، وأخبر أن ثوابه للمهاجرين في الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم في الدنيا ، فقال : ﴿وَلِأَجْرٍ الْآخِرَةِ أَكْبَرٌ﴾ أي مما أعطيناهم في الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي لو كان المتخلعون عن الهجرة معهم يعلمون ما ادخر الله لمن أطاعه واتبع رسوله ، ولهذا قال هشيم عن العوام عن حدثه أن عمر بن

(١) تقدم البيت في تفسير الآية ١١٧ من سورة البقرة ، ولفظ عجز البيت هناك :
يقول له كن قوله فيكون

الخطاب رضي الله عنه، كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطايه يقول: خذ بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك الله في الدنيا، وما ادخر لك في الآخرة أفضل، ثم قرأ هذه الآية ﴿لنبئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾. ثم وصفهم تعالى فقال: ﴿الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون﴾ أي صبروا على الأذى من قومهم متوكلين على الله الذي أحسن لهم العاقبة في الدنيا والآخرة.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسَعَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِذَا كُتِمَ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١﴾ يَالَّذِينَ
وَالْأَزْبَرُ وَأَنَّزَنَا إِلَيْكَ الْذِكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نَزَّلَ إِلَيْهِمْ وَلَهُمْ يَنفَكِّرُونَ ﴿٢﴾

قال الضحاك: عن ابن عباس: لما بعث الله محمداً ﷺ رسولاً، أنكرت العرب ذلك أو من أنكر منهم وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، فأنزل ﴿أكان للناس عجبًا أَوْ حِينًا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرَ النَّاسَ﴾ [يوس: ٢] الآية، وقال: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِذَا كُتِمَ لَا تَعْلَمُونَ» يعني أهل الكتب الماضية أبشرواً كانت الرسل إليهم أم ملائكة؟ فإن كانوا ملائكة أنكروها وإن كانوا بشراً فلا تنكروا أن يكون محمد ﷺ رسولاً.

قال تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ» ليسوا من أهل السماء كما قلتم، وكذا روي عن مجاهد عن ابن عباس أن المراد بأهل الذكر أهل الكتاب، وقاله مجاهد والأعمش، وقول عبد الرحمن بن زيد: الذكر القرآن، واستشهد بقوله: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» [الحجر: ٩] صحيح، لكن ليس هو المراد ههنا، لأن المخالف لا يرجع في إثباته بعد إنكاره إليه، وكذا قول أبي جعفر الباقر: نحن أهل الذكر، ومراده أن هذه الأمة أهل الذكر، صحيح فإن هذه الأمة أعلم من جميع الأمم السالفة.

وعلماء أهل بيته رضي الله عنهم السلام والرحمة من خير العلماء إذا كانوا على السنة المستقيمة كعلي وابن عباس وابني علي الحسن والحسين، ومحمد ابن الحنفية وعلي بن الحسين زين العابدين، وعلي بن عبد الله بن عباس، وأبي جعفر الباقر وهو محمد بن علي بن الحسين وجعفر ابنه، وأمثالهم وأضرابهم وأشكالهم من هم متمسك بحبل الله المتين وصراطه المستقيم، وعرف لكل ذي حق حقه ونزل كل المترزل الذي أعطاه الله ورسوله واجتمع عليه قلوب عباده المؤمنين، والغرض أن هذه الآية الكريمة أخبرت بأن الرسل الماضين قبل محمد ﷺ كانوا بشراً كما هو بشر، كما قال تعالى: «قُلْ سَبِّحُوا رَبِّي هُلْ كُنْتَ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا وَمَا مِنْ النَّاسُ أَنْ يَؤْمِنُوا إِذْ جَاءُهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبْعَثْتَ اللَّهَ بَشَرًا رَسُولًا» [الإسراء: ٩٣-٩٤] وقال تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ الْمَرْسُلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لِيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ» [الفرقان: ٢٠] وقال تعالى: «وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جُسْدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا

خالدين》 [الأنياء: ٨] وقال: ﴿قُلْ مَا كُنْتَ بَدِعًا مِّنَ الرَّسُولِ﴾ [الأحقاف: ٩] وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مُّثْلُكُمْ يُوحِي إِلَيْيَ﴾ [الكهف: ١١٠].

ثم أرشد الله تعالى من شك في كون الرسل كانوا بشراً إلى سؤال أصحاب الكتب المقدمة عن الأنبياء الذين سلفو هم كان أنبياؤهم بشراً أو ملائكة ، ثم ذكر تعالى أنه أرسلهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالحجج والدلائل ﴿وَالزَّبْر﴾ وهي الكتب قاله ابن عباس ومجاحد والضحاك وغيرهم ، والزبر جمع زبور ، تقول العرب : زبرت الكتاب إذا كتبته . وقال تعالى: ﴿وَكُلْ شَيْءَ فَعَلُوهُ فِي الزَّبْر﴾ [القمر: ٥٢] وقال ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبْرِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثِيْهَا عِبَادِي الصَّالِحُونَ﴾ [الأنياء: ١٠٥] ثم قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَذِكْرًا﴾ يعني القرآن ﴿لِتَبَيَّنَ لِلنَّاسِ مَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمْ﴾ أي من ربهم لعلمك بمعنى ما أنزل الله وحرصك عليه واتبعك له ، وعلمنا بأنك أفضل الخلاق وسيد ولد آدم ، ففصل لهم ما أجمل وتبين لهم ما أشكل ﴿وَلِعِلْمِهِمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي ينظرون لأنفسهم فيهتدون فيفوزون بالنجاة في الدارين .

أَفَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١﴾ أَوْ يَأْخُذُهُمْ فِي تَقْلِيْهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٢﴾ أَوْ يَأْخُذُهُمْ عَلَى تَخْوِفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾

يُخبر تعالى عن حلمه وإنظاره العصاة الذين يعملون السيئات ويدعون إليها ، ويُمكررون بالناس في دعائهم إياهم وحملهم عليها ، مع قدرته على ﴿أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ، أي من حيث لا يُشعرون مجئه إليهم ، قوله تعالى: ﴿أَمْتَمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ أَمْ أَمْتَمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَرْسُلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسْتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ١٦ - ١٧] قوله: ﴿أَوْ يَأْخُذُهُمْ فِي تَقْلِيْهِمْ﴾ أي في تقلبهم في المعاش وشتغالهم بها في أسفارهم ونحوها من الأشغال الملهمة ، قال قتادة والسدسي: تقلبهم أي أسفارهم ، وقال مجاهد والضحاك وقتادة ﴿فِي تَقْلِيْهِمْ﴾ في الليل والنهار قوله: ﴿أَفَأَمْنَ أَهْلَ الْقَرَى أَنْ يَأْتِيهِمْ بِأَسْنَا بِيَاتِيًّا وَهُمْ نَائِمُونَ أَوْ أَمْنَ أَهْلَ الْقَرَى أَنْ يَأْتِيهِمْ بِأَسْنَا ضَحْيَ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ .

وقوله: ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي لا يعجزون الله على أي حال كانوا عليه . قوله: ﴿أَوْ يَأْخُذُهُمْ عَلَى تَخْوِفٍ﴾ أي أو يأخذهم الله في حال خوفهم من أخذه لهم ، فإنه يكون أبلغ وأشد ، فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد ، ولهذا قال العوفي عن ابن عباس: ﴿أَوْ يَأْخُذُهُمْ عَلَى تَخْوِفٍ﴾ يقول: إن شئت أخذته على أثر موت صاحبه وتخوفه بذلك ، وكذا روى عن مجاهد والضحاك وقتادة وغيرهم .

ثم قال تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي حيث لم يعاجلكم بالعقوبة ، كما ثبت في الصحيحين «لَا أَحَد أَصْبَرَ عَلَى أَذِى سَمِعَهُ مِنَ اللَّهِ، إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ

ويعافيهم» وفيهما «إن الله ليملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ رسول الله ﷺ «وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد» [هود: ١٠٢] وقال تعالى: «وَكَانُوا مِنْ قَرْيَةً أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخْذَتْهَا إِلَيَّ الْمَصِيرَ» [الحج: ٤٨].

أَوْلَئِرَبُوا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَيُوا ظَلَالَهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَارِخُونَ ﴿٣﴾ وَلَلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُنْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمِرُونَ ﴿٥﴾

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وكبرياته الذي خضع له كل شيء، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها: جماداتها وحيواناتها، ومكلفوها من الإنس والجن، والملائكة، فأخبر أن كل ما له ظل ينفي ذات اليمين وذات الشمال، أي بكرة وعشياً فإنه ساجد بظله الله تعالى. قال مجاهد: إذا زالت الشمس سجد كل شيء لله عز وجل^(١)، وكذا قال قتادة والضحاك وغيرهم، قوله **﴿وَهُمْ دَارِخُونَ﴾** أي صاغرون. وقال مجاهد أيضاً: سجود كل شيء فيؤه ، وذكر الجبار، قال: سجودها فيؤها. وقال أبو غالب الشيباني: أمواج البحر صلاته.

ونزلهم منزلة من يعقل إذ أسند السجود إليهم فقال: **﴿وَلَهُ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾** كما قال: **﴿وَلَهُ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظَلَالَهُمْ بِالغَدوِ وَالآصَالِ﴾**. وقوله: **﴿وَالْمَلَائِكَةُ وَهُنْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾** أي تسجد لله أي غير مستكبرين عن عبادته **﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾** أي يسجدون خائفين وجلين من الرب جل جلاله **﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمِرُونَ﴾** أي مثابرين على طاعته تعالى وامثال أوامره، وترك زواجه.

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَنْخُذُوا إِلَيْهِمْ إِثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ فَإِنَّمَا فَارَهُوْنَ ﴿٦﴾ وَلَمْ يَمْأُوا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُمْ أَلِيْنَ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ يَنْتَهُونَ ﴿٧﴾ وَمَا يَكُمْ مِنْ نَعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّ كُمُ الْأَصْرُ فَإِنَّهُمْ يَتَجَنَّبُونَ ﴿٨﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الْأَصْرُ عَنْهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مُنْكَرٌ بِرَبِّهِمْ يُسْرِكُونَ ﴿٩﴾ لَيَكْفُرُوا بِمَا أَنْشَأَهُمْ فَتَمْعَلُوا فَسَوْفَ تَلَمُونَ ﴿١٠﴾

يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه لا ينبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، فإنه مالك كل شيء وخالقه وربه **﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصْبَابُ﴾** قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وميمون بن مهران والسدي وقتادة وغير واحد: أي دائمًا^(٢)، وعن ابن عباس أيضاً: أي واجباً. وقال مجاهد: أي خالصاً له، أي له العبادة وحده من في السموات والأرض، قوله: **«أَفَغَيْرِ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يَرْجِعُونَ»** [آل عمران: ٨٢ - ٨٣] هذا على قول ابن عباس وعكرمة، فيكون من باب الخبر، وأما على قول مجاهد فإنه يكون من باب الطلب، أي

(١) انظر تفسير الطبرى ٥٩٣ / ٧.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٥٩٥ / ٧.

ارهباوا أن تشركوا بي شيئاً وأخلصوا لي الطاعة، كقوله تعالى: ﴿أَلَا لِلّهِ الدِّينُ الْحَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]. ثم أخبر أنه مالك النفع والضر، وأن ما بالعباد من رزق ونعمه وعافية ونصر فمن فضلهم عليهم، وإنسانه إليهم ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَكُمُ الظُّرُفَ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مِنْ تَدْعُونَ إِلَيْهِ تَجَارُونَ﴾ أي لعلمكم أنه لا يقدر على إزالته إلا هو فإنكم عند الضرورات تلتجأون إليه وتسألونه وتلحون في الرغبة إليه مستغثين به، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَكُمُ الظُّرُفَ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مِنْ تَدْعُونَ إِلَيْهِ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ إِلَيْهِنَّ كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧] وقال هنا: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفْتُ الظُّرُفَ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ لِيَكْفُرُوا بِمَا أَتَيْنَاهُمْ﴾ قيل: اللام هنا لام العاقبة. وقيل: لام التعليل بمعنى قضينا لهم ذلك ليكفروا أي يستروا ويجدوا نعم الله عليهم وأنه الم Sergei إليهم النعم، الكاشف عنهم النقم، ثم توعدهم قائلاً ﴿فَتَمْتَعُوا﴾ أي اعملوا ما شئتم وتمتعوا بما أنتم فيه قليلاً ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي عاقبة ذلك.

وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ثَالِثًا لَتَسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَتَّةَ سَبَحَتُهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ وَإِذَا بَشَّرَ أَهْدَهُمْ بِالْأَنْتَيْ ظَلَّ وَجْهُهُمْ مُسَوْدًا وَهُوَ كَظِيمٌ يَنْوَرَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءٍ مَا بَشَّرَ بِهِ أَيْمَسْكُهُ عَلَى هُوَنٍ أَمْ يَدْسُمُ فِي الْأَرْضِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثُلُ السَّوْءِ وَلَهُمْ أَمْثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

يخبر تعالى عن قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد بغیر علم، وجعلوا للأوثان نصيباً مما رزقهم الله فقالوا ﴿هَذَا اللَّهُ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشَرِكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشَرِكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ اللَّهُ فِيهِ يَصِلُ إِلَى شَرِكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦] أي جعلوا للآلهتهم نصيباً مع الله وفضلوها على جانبه، فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألنهم عن ذلك الذي افتروه واتفكروه وليقابلنهم عليه وليجازيذنهم أوفر الجزاء في نار جهنم، فقال: ﴿ثَالِثًا لَتَسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ ثم أخبر تعالى عنهم أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، وجعلوها بنات الله فعبدوها معه، فأخطلوا خطأً كبيراً في كل مقام من هذه المقامات الثلاث، فنسبوا إليه تعالى أن له ولداً ولا ولد له، ثم أعطوه أحسن القسمين من الأولاد وهو البنات، وهم لا يرضونها لأنفسهم، كما قال: ﴿أَلَكُمُ الذِّكْرُ وَلَهُ الْأَنْثَى تَلَكَ إِذَا قَسْمَةً ضَيْزِي﴾ [النجم: ٢١ - ٢٢].

وقوله هنا: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتَ سَبَحَانَهُ﴾ أي عن قولهم وإفكهم ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لِيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ أَصْطَفَنِي الْبَنَاتَ عَلَى الْبَنِينِ مَا لَكُمْ كِيفَ تَحْكُمُونَ﴾ [الصفات: ١٥١ - ١٥٤]. قوله: ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أي يختارون لأنفسهم الذكور وينافسون لأنفسهم من البنات التي نسبوها إلى الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، فإنه ﴿إِذَا بَشَّرَ أَهْدَهُمْ بِالْأَنْتَيْ ظَلَّ وَجْهُهُمْ مُسَوْدًا﴾ أي كثيراً من الهم ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ساكت من شدة ما هو فيه من الحزن.

﴿يَتَوَارِى مِنَ الْقَوْمَ﴾ أَيْ يَكْرِهُ أَنْ يَرَاهُ النَّاسُ ﴿مِنْ سَوْءِ مَا بَشَرَ بِهِ أَيْ مَسْكَهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدْسَهُ فِي التَّرَابِ﴾ أَيْ إِنْ أَبْقَاهَا مَهَانَةً لَا يُورِثُهَا وَلَا يَعْتَنِي بِهَا، وَيُفَضِّلُ أَوْلَادُهُ الْذِكْرُ عَلَيْهِ ﴿أَمْ يَدْسَهُ فِي التَّرَابِ﴾ أَيْ يَئْدُهَا وَهُوَ أَنْ يَدْفُنَهَا فِي حَيَّةٍ كَمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، أَفَمَنْ يَكْرِهُنَّهُنَّ هَذِهِ الْكَرَاهَةَ وَيَأْنِفُونَ لِأَنفُسِهِمْ عَنْهُ يَجْعَلُونَهُ اللَّهَ؟ ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أَيْ بَشَرٌ مَا قَالُوا، وَبَشَرٌ مَا قَسَمُوا، وَبَشَرٌ مَا نَسَبَ إِلَيْهِ، كَقُولَهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا بَشَرَ أَحَدَهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مُثْلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسُودًا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾. وَقُولُهُ هُنَّا: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مُثْلُ السَّوْءِ﴾ أَيْ النَّقْصُ إِنَّمَا يُنْسَبُ إِلَيْهِمْ ﴿وَلَهُ الْمُثْلُ الْأَعْلَى﴾ أَيْ الْكَمَالُ الْمُطْلَقُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ وَهُوَ مُنْسَبٌ إِلَيْهِ ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

وَلَوْ يُؤَاخِذَ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِرِ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَآبَةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمَّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَسْنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْمُسْكِنَ لِأَجْرِمَ أَنَّهُمْ أَتَارُ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حَلْمِهِ بِخَلْقِهِ مَعَ ظُلْمِهِمْ وَأَنَّهُ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكُ عَلَى ظَهِيرَةِ الْأَرْضِ مِنْ دَآبَةٍ أَيْ لِأَهْلِكَ جَمِيعَ دُوَابَ الْأَرْضِ تَبِعًا لِإِلْهَلَكِ بْنِي آدَمَ، وَلَكِنَّ الرَّبَّ جَلَ جَلَالَهُ يَحْلِمُ وَيَسْتَرِّ، وَيُنْظَرُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمَّى أَيْ لَا يَعْاجِلُهُمْ بِالْعَقوَبَةِ، إِذَا لَوْ فَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ لَمَّا أَبْقَى أَحَدًا. قَالَ سَفِيَّانُ الثُّوْرِيُّ عَنْ أَبِي إِسْحَاقِ عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ أَنَّهُ قَالَ: كَادَ الْجَعْلُ^(١) أَنْ يَعْذِبَ بِذَنْبِ بْنِي آدَمَ، وَقَرَأَ الْآيَةَ ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذَ اللَّهُ النَّاسُ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَآبَةٍ﴾^(٢) وَكَذَا رَوَى أَبُو الْأَعْمَشَ عَنْ أَبِي إِسْحَاقِ عَنْ أَبِي عَبِيدَةَ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: كَادَ الْجَعْلُ أَنْ يَهْلِكَ فِي جَهَنَّمَ بِخَطِيئَةِ بْنِي آدَمَ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ^(٣): حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ الْمُشْنَى، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ حَكِيمٍ الْخَزَاعِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَابِرٍ الْحَنْفِيُّ عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ عَنْ أَبِي سَلْمَةَ قَالَ: سَمِعَ أَبُو هَرِيْرَةَ رَجُلًا وَهُوَ يَقُولُ: إِنَّ الظَّالِمَ لَا يَضُرُّ إِلَّا نَفْسَهُ، قَالَ: فَالْتَّفَتَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: بَلِيَ وَاللَّهُ حَتَّى إِنَّ الْجَبَارِ لَتَمَوَّتْ فِي وَكْرَهَا بِظَلْمِ الظَّالِمِ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمَ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحَسِينِ، أَبْنَاءُ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمُلْكِ، حَدَّثَنَا عَبِيدُ اللَّهِ بْنُ شَرْحِبِيلٍ، حَدَّثَنَا سَلِيمَانُ بْنُ عَطَاءٍ عَنْ مُسْلِمَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ عَمِّهِ أَبِي مَشْجِعَةِ بْنِ رِبِيعَةِ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: ذَكَرْنَا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ^{صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ} فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُؤَخِّرُ شَيْئًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهُ، وَإِنَّمَا زِيادةُ الْعُمَرِ بِالذِّرْيَةِ الصَّالِحَةِ يَرْزُقُهَا اللَّهُ الْعَبْدُ فَيَدْعُونَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ فِي لِحْقِهِ دُعَاؤُهُمْ فِي قَبْرِهِ فَذَلِكَ زِيادةُ الْعُمَرِ».

(١) الْجَعْلُ: حَيْوانٌ كَالْخَنْسَاءِ.

(٢) انْظُرْ تَفْسِيرَ الطَّبَرِيِّ ٦٠١/٧.

(٣) تَفْسِيرَ الطَّبَرِيِّ ٦٠١/٧.

وقوله: «وَيَجْعَلُونَ اللَّهَ مَا يَكْرَهُونَ» أي من البناء ومن الشركاء الذين هم عبيده وهم يأنفون أن يكون عند أحدهم شريك له في ماله.

وقوله: «وَتَصِفُ الْسَّتِّهِمُ الْكَذْبَ أَنَّ لَهُمُ الْحَسْنَى» إنكار عليهم في دعواهم مع ذلك أن لهم الحسنى في الدنيا وإن كان ثم معاد فقيه أيضاً لهم الحسنى، وإخبار عن قيل من قال منهم، كقوله: «وَلَئِنْ أَذْقَنَا إِنْسَانًا مِنْ رَحْمَةِنَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيُنُوشُ كُفُورًا وَلَئِنْ أَذْقَنَا نِعَمًا بَعْدَ ضَرَاءَ مَسْتَهُ لِيَقُولُنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرَحٌ فَخُورٌ» [هود: ٩ - ١٠] وقوله: «وَلَئِنْ أَذْقَنَا رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسْتَهُ لِيَقُولُنَّ هَذَا لِيٌّ وَمَا أَظْنَنَّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّيٍّ إِنَّ لِي عَنْهُ لِلْحَسْنَى فَلَنْتَبَثُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنْتَذْقِنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ» [فصلت: ٥٠]. وقوله: «أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لِأَوْتَيْنِ مَا لَأَوْلَدَأَ» [مريم: ٧٧] وقال إخباراً عن أحد الرجلين أنه «دَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظْنَنَّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبْدَأُ وَمَا أَظْنَنَّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رَدَدْتُ إِلَى رَبِّيٍّ لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلِبًا» [الكهف: ٣٥ - ٣٦] فجمع هؤلاء بين عمل السوء وتمني الباطل بأن يجازوا على ذلك حسناً وهذا مستحيل، كما ذكر ابن إسحاق إنه وجد حجر في أساس الكعبة حين نقضوها ليجددوها مكتوب عليه حكم ومواعظ ، فمن ذلك: تعلمون السينات وتتجاوزن الحسنات؟ أجل كما يجيئني من الشوك العنبر.

وقال مجاهد وقتادة: «وَتَصِفُ الْسَّتِّهِمُ الْكَذْبَ أَنَّ لَهُمُ الْحَسْنَى» أي الغلامان. وقال ابن حيرir: «أَنَّ لَهُمُ الْحَسْنَى» أي يوم القيمة كما قدمتنا بيانه، وهو الصواب، والله الحمد، ولهذا قال تعالى راداً عليهم في تمنيهم ذلك: «لَا جُرْمٌ» أي حقاً لا بد منه «أَنَّ لَهُمُ النَّارَ» أي يوم القيمة «وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ» قال مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغيرهم: منسيون فيها مضيعون وهذا كقوله تعالى: «فَالْيَوْمَ نَسَاهُمْ كَمَا نَسَا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا» [الأعراف: ٥١]. وعن قتادة أيضاً: مفرطون أي معجلون إلى النار من الفرط، وهو السابق إلى الوراء، ولا منفأة لأنهم يجعل بهم يوم القيمة إلى النار وينسون فيها أي يخلدون.

تَأَلَّهُ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْنَا أَمْرٌ مِنْ قَبْلِكَ فَرَزَّيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَمْنَاهُمْ فَهُوَ وَلَهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا أَرْزَلَنَا عَلَيْكَ إِلَّا يُشَبِّهَنَّ لَهُمُ الَّذِي أَخْلَفُوا فِيهِ وَهُدَى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُقْسِمُونَ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ

يذكر تعالى أنه أرسل إلى الأمم الخالية رسلاً فكذبت الرسل، فلك يا محمد في إخوانك من المرسلين أسوة فلا يهيننك تكذيب قومك لك، وأما المشركون الذين كذبوا الرسل فإنما حملهم على ذلك تزيين الشيطان لهم ما فعلوه. «فَهُوَ وَلَهُمُ الْيَوْمَ» أي هم تحت العقوبة والنکال، والشيطان وليهم ولا يملك لهم خلاصا ولا صریخ لهم، ولهم عذاب أليم. ثم قال تعالى لرسوله: إنه إنما أنزل عليه الكتاب ليبيان للناس الذي يختلفون فيه؟ فالقرآن فاصل بين

الناس في كل ما يتنازعون فيه ﴿وَهُدِي﴾ أي للقلوب ﴿وَرَحْمَة﴾ أي لمن تمسك به ﴿لِقَوْمٍ يَؤْمِنُون﴾ وكما جعل سبحانه القرآن حياة للقلوب الميتة بعدها، كذلك يحيي الأرض بعد موتها بما أنزله عليها من السماء من ماء ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَا يَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُون﴾ أي يفهمون الكلام ومعناه.

فَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَمِ لِعَبْرَةٍ نَسْتَعِنُكُمْ مَنَّا فِي بُطُونِنَا، مِنْ بَيْنِ فَرَثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالصًا سَائِعًا لِلشَّارِبِينَ ﴿١﴾، وَمِنْ ثَمَرَاتِ
النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَخَذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرَزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَا يَةً لِقَوْمٍ يَعْقُلُونَ ﴿٢﴾

يقول تعالى: ﴿وَإِنْ لَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿فِي الْأَنْعَامِ﴾ وهي الإبل والبقر والغنم ﴿لِعَبْرَةٍ﴾ أي لآية ودلالة على حكمة خالقها وقدرته ورحمته ولطفه ﴿نَسْتَعِنُكُمْ مَمَا فِي بُطُونِنَا﴾ أفردها هنا عوداً على معنى النعم، أو الصميم عائد على الحيوان، فإن الأنعام حيوانات أي نستعينكم مما في بطん هذا الحيوان، وفي الآية الأخرى مما في بطونها، ويجوز هذا وهذا، كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذَكَّرَةٌ فَمَنْ شَاءْ ذَكَرَه﴾ [المدثر: ٥٤ - ٥٥] وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسَلٌ إِلَيْهِمْ بِهِدِيهِ فَنَاظِرٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ فَلَمَّا جَاءَ سَلِيمَانَ﴾ [النمل: ٣٦ - ٣٥] أي المال.

وقوله: ﴿مِنْ بَيْنِ فَرَثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالصًا﴾ أي يتخلص اللبن بياضه وطعمه وحلاؤته، ما بين فرث ودم في باطن الحيوان، فيسري كل إلى موطنها إذا نضج الغذاء في معدته، فيصرف منه دم إلى العروق، ولبن إلى الضرع، وبول إلى المثانة، وروث إلى المخرج، وكل منها لا يشوب الآخر ولا يمزوجه بعد انفصاله عنه ولا يتغير به.

وقوله: ﴿لَبَنًا خَالصًا سَائِعًا لِلشَّارِبِينَ﴾ أي لا يغضبه أحد، ولما ذكر اللبن وأنه تعالى جعله شراباً للناس سائغاً ثُمَّ بذكر ما يتخذه الناس من الأشربة من ثمرات النخيل والأعناب، وما كانوا يصنعون من النبيذ المسكر قبل تحريمه، ولهذا امتن به عليهم فقال: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ
النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَخَذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ دل على إياحته شرعاً قبل تحريمه، ودل على التسوية بين المسكر المتخذ من النخل والمتحذ من العنب، كما هو مذهب مالك والشافعي وأحمد وجمهور العلماء، وكذلك حكم سائر الأشربة المتخذة من الحنطة والشعير والذرة والعسل، كما جاءت السنة بتفصيل ذلك، وليس هذا موضع بسط ذلك.

كما قال ابن عباس في قوله: ﴿سَكَرًا وَرَزْقًا حَسَنًا﴾ السكر ما حرم من ثمرتيهما، والرزق الحسن ما أحل من ثمرتيهما، وفي رواية: السكر حرامه، والرزق الحسن حلاله، يعني ما يبيس منها من تمر وزبيب، وما عمل منها من طلاء وهو الدبس وخل ونبيذ، حلال يشرب قبل أن يستند كما وردت السنة بذلك ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَا يَةً لِقَوْمٍ يَعْقُلُونَ﴾ ناسب ذكر العقل هنـا فإنه أشرف ما في الإنسان، ولهذا حرم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرـة صيانة لعقولـها، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَرْنَا فِيهَا مِنَ الْعِيُونِ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِمْ وَمَا عَمِلْتُهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ سَبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تَبَتَّبَتِ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ

ومما لا يعلمون» [يس: ٣٤ - ٣٦].

وأوحى ربك إلى نَّجْلَلِ أَنَّ أَنْجَدِي مِنَ الْجَبَالِ بَيْوَاتٍ وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْشُونَ ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ الْثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِ شَبَيلَ رَبِّكِ ذَلِلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلوَانُهُ فِيهِ شَفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَنْغَكُونَ

المراد بالوحي هنا الإلهام والهداية، والإرشاد للنحل أن تتخذ من الجبال بيوتاً تأوي إليها، ومن الشجر وما يعيشون، ثم هي محكمة في غاية الإنقاذه في تسديسها ورصفها بحيث لا يكون في بيتها خلل، ثم أذن لها تعالى إذناً قدرياً تسخيرياً أن تأكل من كل الشمرات، وأن تسلك الطرق التي جعلها الله تعالى مذلة لها، أي مسهلة عليها حيث شاءت من هذا الجو العظيم، والبراري الشاسعة، والأودية والجبال الشاهقة، ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها لا تحيد عنه يمنة ولا يسراً، بل إلى بيتها وما لها فيه من فراغ وعسل، فتبني الشمع من أجنبتها وتقيء العسل من فيها، وتبيض الفراح من دربها، ثم تصبح إلى مراعيها.

وقال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «فاسلكي سبل ربك ذللاً» أي مطيعة^(١)، فجعلاه حالاً من السالكة، قال ابن زيد: وهو كقول الله تعالى: «وَذَلَّلَنَا هَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ» قال: ألا ترى أنهم ينقلون النحل ببيوته من بلد إلى بلد وهو يصحبهم، والقول الأول هو الأظهر، وهو أنه حال من الطريق، أي فاسلكيها مذلة لك، نص عليه مجاهد، وقال ابن جرير: كلا القولين صحيح. وقد قال أبو يعلى الموصلي: حدثنا شيبان بن فروخ، حدثنا مكين بن عبد العزيز عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «عمر الذباب أربعون يوماً، والذباب كله في النار إلا النحل».

وقوله تعالى: «يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلوَانُهُ فِيهِ شَفَاءٌ لِلنَّاسِ» ما بين أبيض وأصفر وأحمر وغير ذلك من الألوان الحسنة على اختلاف مراعيها وأأكلها منها. قوله: «فِيهِ شَفَاءٌ لِلنَّاسِ» أي في العسل شفاء للناس، أي من أدوات تعرض لهم، قال بعض من تكلم على الطب النبوى: لو قال فيه الشفاء للناس، لكن دواء لكل داء، ولكن قال فيه شفاء للناس، أي يصلح لكل أحد من أدوات باردة، فإنه حار والشيء يداوى بضده.

وقال مجاهد وابن جرير في قوله: «فِيهِ شَفَاءٌ لِلنَّاسِ» يعني القرآن، وهذا قول صحيح في نفسه، ولكن ليس هو الظاهر هنا من سياق الآية، فإن الآية إنما ذكر فيها العسل ولم يتتابع مجاهد على قوله هنا، وإنما الذي قاله ذكروه في قوله تعالى: «وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شَفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ» [الإسراء: ٨٢] وقوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَشَفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ» [يونس: ٥٧].

(١) انظر تفسير الطبرى . ٦١٣/٧

والدليل على أن المراد بقوله تعالى: «فيه شفاء للناس» هو العسل، الحديث الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحهما من رواية قتادة عن أبي المتوكل علي بن داود الناجي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أخي استطloc بطنـهـ، فقال «اسقه عسلـاً» فذهب فسقاـهـ عسلـاًـ، ثم جاء فقال: يا رسول الله سقيـتهـ عسلـاًـ، فـما زـادـهـ إـلـاـ استطـلـاقـاًـ، قال: «اذهب فـاسـقـهـ عـسـلـاًـ» فذهب فـسـقاـهـ عـسـلـاًـ، ثم جاء فقال: يا رسول الله، ما زـادـهـ إـلـاـ استطـلـاقـاًـ، فقال رسول الله ﷺ: «صدقـ اللهـ وـكـذـبـ بـطـنـ أـخـيـكـ، اذهب فـاسـقـهـ عـسـلـاًـ» فذهب فـسـقاـهـ عـسـلـاًـ فـبـرـىـءـ (١)ـ.

قال بعض العلماء بالطلب: كان هذا الرجل عنده فضلات، فلما سقاـهـ عـسـلـاًـ وهو حار تحـلـلتـ، فأسرعـتـ في الانـدـفاعـ فـزـادـهـ إـسـهـالـاًـ، فـاعـتـقـدـ الأـعـرـابـيـ أنـ هـذـاـ يـضـرـهـ وـهـوـ مـصـلـحةـ لـأـخـيـهـ، ثـمـ سـقـاهـ فـازـدـادـ التـحـلـيلـ وـالـدـفـعـ، ثـمـ سـقـاهـ فـكـذـلـكـ، فـلـمـ اـنـدـفـعـتـ الفـضـلـاتـ الـفـاسـدـهـ المـضـرـةـ بـالـبـدـنـ، اـسـتـمـسـكـ بـطـنـهـ، وـصـلـعـ مـزـاجـهـ، وـانـدـفـعـتـ الـأـسـقـامـ وـالـآـلـامـ بـيرـكـةـ إـشـارـتـهـ، عـلـيـهـ مـنـ رـبـهـ أـفـضـلـ الصـلـاـةـ وـالـسـلـامـ.

وفي الصحيحين من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يعجبـهـ الحـلـوـاءـ وـالـعـسـلـ (٢)، هذا لـفـظـ الـبـخـارـيـ: وفي صحيح البخاري من حديث سالم الأفطـسـ عن سعيد بن جـبـيرـ عن ابن عـبـاسـ: قال: قال رسول الله ﷺ: «الـشـفـاءـ فـيـ ثـلـاثـةـ: فـيـ شـرـطـةـ مـحـجمـ، أـوـ شـرـبـةـ عـسـلـ، أـوـ كـيـةـ بـنـارـ، وـأـنـهـىـ أـمـتـيـ عـنـ الـكـيـ» (٣).

وقال البخاري: حدثنا أبو نعيم، حدثنا عبد الرحمن بن الغـسـيلـ عن عاصـمـ بنـ عـمـرـ بنـ قـتـادـةـ، سـمـعـتـ جـاـبـرـ بنـ عـبـدـ اللهـ قـالـ: سـمـعـتـ رـسـولـ اللهـ ﷺـ يـقـولـ: «إـنـ كـانـ فـيـ شـيـءـ مـنـ أـدوـيـتـكـمـ، أـوـ يـكـونـ فـيـ شـيـءـ مـنـ أـدوـيـتـكـمـ خـيـرـ: فـيـ شـرـطـةـ مـحـجمـ، أـوـ شـرـبـةـ عـسـلـ، أـوـ لـذـعـةـ بـنـارـ تـوـافـقـ الدـاءـ، وـمـاـ أـحـبـ أـنـ أـكـنـوـيـ» (٤)ـ وـرـوـاهـ مـسـلـمـ مـنـ حـدـيـثـ عـاصـمـ بنـ عـمـرـ بنـ قـتـادـةـ عنـ جـاـبـرـ بـهـ.

وقال الإمام أحمد (٥): حدثنا عليـ بنـ إـسـحـاقـ، أـبـانـاـ عـبـدـ اللهـ أـبـانـاـ سـعـيدـ بنـ أـبـيـ أـيـوبـ، حدثـناـ عـبـدـ اللهـ بنـ الـوـليـدـ عنـ أـبـيـ الـخـيـرـ عنـ عـقـبةـ بنـ عـاصـمـ الجـهـنـيـ قـالـ: قالـ رـسـولـ اللهـ ﷺـ: «ثـلـاثـ إـنـ كـانـ فـيـ شـيـءـ شـفـاءـ: فـشـرـطـةـ مـحـجمـ، أـوـ شـرـبـةـ عـسـلـ، أـوـ كـيـةـ تـصـيبـ أـلـمـاـ، وـأـنـاـ أـكـرـهـ

(١) أـخـرـجـهـ الـبـخـارـيـ فـيـ الطـبـ بـابـ ٢٤ـ، وـمـسـلـمـ فـيـ السـلـامـ حـدـيـثـ ٩١ـ، وـالـتـرـمـذـيـ فـيـ الطـبـ بـابـ ٣١ـ، وـأـخـرـمـدـ فـيـ الـمـسـنـدـ ٣/١٩ـ.

(٢) أـخـرـجـهـ الـبـخـارـيـ فـيـ الـأـشـرـبـةـ بـابـ ١٥ـ، وـالـطـبـ بـابـ ٤ـ، وـمـسـلـمـ فـيـ الرـضـاعـ حـدـيـثـ ٨٨ـ.

(٣) أـخـرـجـهـ الـبـخـارـيـ فـيـ الطـبـ بـابـ ٣ـ.

(٤) أـخـرـجـهـ الـبـخـارـيـ فـيـ الطـبـ بـابـ ١٥ـ، وـمـسـلـمـ فـيـ السـلـامـ حـدـيـثـ ٧١ـ.

(٥) الـمـسـنـدـ ٤/١٤٦ـ.

الكي ولا أحبه» ورواه الطبراني عن هارون بن سلول المصري عن أبي عبد الرحمن المقربي، عن عبد الله بن الوليد به، ولفظه «إن كان في شيء شفاء: فشرطة محجم» وذكره، وهذا إسناد صحيح، ولم يخرج عنه.

وقال الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني في سنته: حدثنا علي بن سلمة هو التغلبي، حدثنا زيد بن حباب، حدثنا سفيان عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص عن عبد الله هو ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالشفاءين: العسل والقرآن»^(١) وهذا إسناد جيد تفرد بإخراجه ابن ماجه مرفوعاً، وقد رواه ابن جرير^(٢) عن سفيان بن وكيع عن أبيه عن سفيان هو الثوري به موقوفاً قوله شبه.

ورويانا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: إذا أراد أحدكم الشفاء فليكتب آية من كتاب الله في صحيفة، وليغسلها بماء السماء، وليأخذ من أمرأته درهماً عن طيب نفس منها، فليشربه بذلك فإنه شفاء: أي من وجوهه، وقال الله تعالى: «ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين» [الإسراء: ٨٢] وقال: «وأنزلنا من السماء ماء مباركاً» [ق: ٩] وقال: «فإن طین لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنباً مريضاً» [السباء: ٤] وقال في العسل: «فيه شفاء للناس».

وقال ابن ماجه^(٣) أيضاً: حدثنا محمود بن خداش حدثنا سعيد بن زكريا القرشي، حدثنا الزبير بن سعيد الهاشمي عن عبد الحميد بن سالم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله «من لعى العسل ثلاث غدوات في كل شهر، لم يصبه عظيم من البلاء» الزبير بن سعيد متrox.

وقال ابن ماجه^(٤) أيضاً: حدثنا إبراهيم بن محمد بن يوسف بن سرح الغريابي، حدثنا عمرو بن بكير السكسكي، حدثنا إبراهيم بن أبي عبلة سمعت أبا أبي ابن أم حرام وكان قد صلى القبلتين، يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عليكم بالستنا والسنوت، فإن فيهما شفاء من كل داء إلا السام» قيل: يا رسول الله وما السام؟ قال «الموت» قال عمرو: قال ابن أبي عبلة: السنوت الشبت. وقال آخرون: بل هو العسل الذي في زفاف السمن، وهو قول الشاعر: [الطوبل]
هم السَّمْنُ بِالسَّنُوتِ لَا لِبسَ فِيهِمْ وَهُمْ يَمْنَعُونَ الْجَارَ أَنْ يَقَرَّدَا^(٥)

(١) آخرجه ابن ماجه في الطب باب ٧.

(٢) تفسير الطبرى ٧/٦١٤.

(٣) كتاب الطب باب ٧.

(٤) كتاب الطب باب ٩.

(٥) يروى البيت:

هم السَّمْنُ بِالسَّنُوتِ لَا لِبسَ بِهِمْ وَهُمْ يَمْنَعُونَ جَارَهُمْ أَنْ يَقَرَّدَا
وهو للحسين بن القعقاع في لسان العرب (سنت)، (قرد)، والتبيه والإياضاح ١/٤٧، ٢/١٦٥ =

كذا رواه ابن ماجه، وقوله: لا لبس فيهم أي لا خلط. وقوله: يمنعون الجار أن يقردا، أي يضطهد ويظلم، وقوله: «إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون» أي إن في إلهام الله لهذه الدواب الضعيفة الخلقة إلى السلوك في هذه المهامه والاجتناء من سائر الشمار، ثم جمعها للشمع والعسل وهو من أطيب الأشياء، «لآية لقوم يتفكرون» في عظمة خالقها ومقدارها ومسخرها وميسرها، فيستدلون بذلك على أنه الفاعل القادر الحكيم العليم الكريم الرحيم.

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ نُورٍ فَيُنَوِّفُكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يَرِدُ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لَكُنْ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمِ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ قَدِيرٌ

يخبر تعالى عن تصرفه في عباده، وأنه هو الذي أنشأهم من العدم ثم بعد ذلك يتوفاهم، ومنهم من يتركه حتى يدركه الهرم وهو الضعف في الخلقة، كما قال الله تعالى: «الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة» [الروم: ٥٤] الآية، وقد روي عن علي رضي الله عنه: أرذل العمر خمس وسبعين سنة، وفي هذا السن يحصل له ضعف القوى والحرف، وسوء الحفظ وقلة العلم، ولهذا قال: «لكيلا يعلم بعد علم شيئاً»، أي بعد ما كان عالماً أصبح لا يدرى شيئاً من الفن والحرف.

ولهذا روى البخاري عند تفسير هذه الآية: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا هارون بن موسى أبو عبد الله الأعور عن شعيب عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يدعو «أعوذ بك من البخل والكسل والهرم، وأرذل العمر وعداب القبر، وفتنة الدجال وفتنة المحيانا والممات»^(١) وقال زهير بن أبي سلمة في معلقته المشهورة: [الطوبل]

سُئِّمَتْ تِكَالِيفُ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعْشُ
ثَمَانِينَ عَامًا لَا أَبَا لَكَ يَسَّأَمْ
رَأَيْتَ الْمَنَّاِيَا خَبْطَ عَشَوَاءَ مِنْ تَصْبَ

وَاللَّهُ فَضَلَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَأْيِ رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ
فِيهِ سَوَاءٌ أَفْنِعَمَةُ اللَّهُ يَعْلَمُ حَدَّوْنَ

=
ومجمل اللغة ٩٤/٣، وتأج العروس (سنن)، (الأس)، وللأعشى في أساس البلاغة (قرد)، وليس في ديوانه، وبلا نسبة في لسان العرب (بختر)، (الأس)، وجمهرة اللغة ص ٦٣٦، ١٢١٤، ومقاييس اللغة ٣/٣، والمخصص ٨٤/٣، ١٢٢/٨، ٨٤/٢، والمخصل ٣٣٢/١، وديوان الأدب ٣٣٢، وتهذيب اللغة ٢/٣٨٥، ١٣/٧١، وتأج العروس (بختر).

(١) آخرجه البخاري في تفسير سورة ١٦، باب ١، ومسلم في الذكر حديث ٥٢.

(٢) البيتان في ديوان زهير بن أبي سلمى ص ٢٩، والبيت الأول في كتاب العين ٥/٣٧٢، وأساس البلاغة (كلف)، وتأج العروس (حمل)، والبيت الثاني في لسان العرب (خطب)، (عشما)، وتهذيب اللغة ٣/٣٢٣، وجمهرة اللغة ص ٨٧٢، وتأج العروس (خطب)، ومقاييس اللغة ٤/٣٢٣، وكتاب العين ٢/١٨٨، وأساس البلاغة (عشما)، وبلا نسبة في المخصص ٧/١٢٣.

يبين تعالى للمشركين جهالهم وكفرهم فيما زعموه لله من الشركاء، وهم يعترفون أنها عباد له كما كانوا يقولون في تلبية لهم في حجتهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملکه وما ملك، فقال تعالى منكراً عليهم: أنتم لا ترضون أن تساووا عبادكم فيما رزقناكم، فكيف يرضي هو تعالى بمساواة عباد له في الإلهية والتعظيم، كما قال في الآية الأخرى: «ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم» [الروم: ٢٨] الآية، قال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية: يقول لم يكونوا ليشركوا عبادهم في أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون عبادي معي في سلطاني، فذلك قوله: «أَفَبِنُعْمَةِ اللَّهِ يَجْحُدُونَ» وقال في الرواية الأخرى عنه: فكيف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم. وقال مجاهد في هذه الآية: هذا مثل الآلة الباطلة، وقال قتادة: هذا مثل ضربه الله، فهل منكم من أحد يشاركه مملوكه في زوجته وفي فراشه، فتعدلون بالله خلقه وعباده؟ فإن لم ترض لنفسك هذا، فالله أحق أن يتزه منك.

وقوله: «أَفَبِنُعْمَةِ اللَّهِ يَجْحُدُونَ» أي أنهم جعلوا الله مما ذراً من الحرث والأنعام نصياً، فجحدوا نعمته، وأشركوا معه غيره. وعن الحسن البصري قال: كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه الرسالة إلى أبي موسى الأشعري: واقع برزقك من الدنيا، فإن الرحمن فضل بعض عباده على بعض في الرزق بلاء بيته به كلاماً، فيبتلي من بسط له كيف شكره الله وأداؤه الحق الذي افترض عليه فيما رزقه وخلوه، رواه ابن أبي حاتم.

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَرْوَاحِكُمْ بَيْنَ وَحَدَّةَ وَرَزْقَكُمْ مِّنَ الظِّبَابِ
أَفَإِلَّا بِطِيلٍ يَؤْمِنُونَ وَيَنْعِمُتُ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧﴾

يدرك تعالى نعمه على عباده بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً من جنسهم وشكلهم، ولو جعل الأزواج من نوع آخر ما حصل الاختلاف والمودة والرحمة، ولكن من رحمته خلق منبني آدم ذكوراً وإناثاً، وجعل الإناث أزواجاً للذكور، ثم ذكر تعالى أنه جعل من الأزواج البنين والحفدة وهم أولاد البنين، قاله ابن عباس وعكرمة والحسن والضحاك وابن زيد، قال شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: بنين وحفدة، وهم الولد وولد الولد^(١). وقال سنيد: حدثنا حجاج عن أبي بكر عن عكرمة عن ابن عباس قال: بنوك حيث يحفدونك ويرفدونك ويعينونك ويخدمونك، قال جميل: [الكامل]

حَفَدُ الْوَلَادَ حَوْلَهُنَّ وَأَسْلَمَتْ بِأَكْفَهِنَّ أَزْمَةَ الْأَجْمَالِ^(٢)

(١) انظر تفسير الطبرى ٦١٩/٧

(٢) البيت للفرزدق في زيادات الطبعة الأولى من جمهرة اللغة ص ٥٠٤، الهاشمى، وليس في ديوانه، ولجميل بشارة في ملحق ديوانه ص ٢٤٦، ولا نسبة في لسان العرب (حلف)، وجمهرة اللغة ص ٥٠٤ =

وقال مجاهد: بنين وحفلة ابنه وخادمه وقال في رواية: الحفدة الأنصار والأعوان والخدام، وقال طاوس وغير واحد: الحفدة الخدم. وكذا قال قتادة وأبو مالك والحسن البصري. وقال عبد الرزاق: أبناؤنا معمر عن الحكم بن أبيان عن عكرمة أنه قال: الحفدة من خدمك من ولدك وولد ولدك^(١)، قال الضحاك: إنما كانت العرب تخدمها بنوها. وقال العوفي عن ابن عباس قوله: «وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفلة» يقول: بنو امرأة الرجل ليسوا منه، ويقال: الحفدة الرجل يعمل بين يدي الرجل. يقال: فلان يحفى لنا أي يعمل لنا، قال: وزعم رجال أن الحفدة اختان الرجل، وهذا الأخير الذي ذكره ابن عباس، قاله ابن مسعود ومسروق وأبو الضحى وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبير ومجاهد والقرظي، ورواه عكرمة عن ابن عباس، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هم الأصحاب.

قال ابن جرير: وهذه الأقوال كلها داخلة في معنى الحفدة، وهو الخدمة الذي منه قوله في القنوت: وإليك نسعى ونحفل، ولما كانت الخدمة قد تكون من الأولاد والخدم والأصحاب، فالنعم حاصلة بهذا كله، ولهذا قال: «وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفلة».

قلت: فمن جعل «وحفلة» متعلقاً بأزواجكم، فلا بد أن يكون المراد الأولاد وأولاد الأولاد والأصحاب، لأنهم أزواج البنات أو أولاد الزوجة، وكذا قال الشعبي والضحاك، فإنهم يكونون غالباً تحت كتف الرجل وفي حجره وفي خدمته، وقد يكون هذا هو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام في حديث نصرة بن أكثم «والولد عبد لك»^(٢) رواه أبو داود. وأما من جعل الحفدة الخدم، فعنده أنه معطوف على قوله: «والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً» أي جعل لكم الأزواج والأولاد خدماً.

وقوله: «ورزقكم من الطيبات» أي من المطاعم والمشابب. ثم قال تعالى منكراً على من أشرك في عبادة المنعم غيره: «أفبالباطل يؤمنون» وهم الأنداد والأصنام «وبنعم الله هم يكفرون» أي يسترون نعم الله عليهم ويسيفونها إلى غيره. وفي الحديث الصحيح «إن الله يقول للعبد يوم القيمة ممتناً عليه: ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسرّ لك الخيل والإبل، وأذرك رئيس وتربي؟»^(٣).

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْءٌ وَلَا يَسْتَطِعُونَ

= وكتاب العين ١٨٥ / ٣ ، ونسبة الطبرى في تفسيره ٦١٩ / ٧ لحميد، والبيت ليس في ديوانه حميد بن ثور.

(١) انظر تفسير الطبرى ٦١٩ / ٧.

(٢) أخرجه أبو داود في النكاح باب ٣٧.

(٣) أخرجه مسلم في الزهد حديث ١٦ ، والترمذى في القيمة باب ٦ ، وأحمد في المسند ٤٩٢ / ٢ ، ٣٧٨ / ٤ ، ٣٧٩ .

بِلَّهُ الْأَمْتَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١﴾

يقول تعالى إخباراً عن المشركين الذين عبدوا معه غيره مع أنه هو المنعم المفضل الخالق الرازق، وحده لا شريك ومع هذا يعبدون من دونه من الأصنام والأنداد والأوثان ما لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً، أي لا يقدر على إزال مطر ولا إنبات زرع ولا شجر، ولا يملكون ذلك لأنفسهم، أي ليس لهم ذلك، ولا يقدرون عليه لو أرادوه، ولهذا قال تعالى: «فلا تضرروا الله الأمثال» أي لا يجعلوا له أنداداً وأشباههاً وأمثالاً «إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون» أي أنه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا هو، وأنتم بجهلكم تشركون به غيره.

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَ الرِّزْقِ حَسَنَاهُ وَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِنَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

قال العوفي عن ابن عباس: هذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن، وكذا قال قتادة، واختاره ابن جرير، فالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء مثل الكافر والمرزوق الرزق الحسن، فهو ينفق منه سراً وجهراً هو المؤمن، وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: هو مثل مضروب للوشن وللحق تعالى، فهل يستوي هذا وهذا؟ ولما كان الفرق بينهما ظاهراً واضحاً بينما لا يجهله إلا كل غبي قال الله تعالى: «الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون».

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كُلُّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

قال مجاهد: وهذا أيضاً المراد به الوثن والحق تعالى يعني أن الوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ولا بشيء ولا يقدر على شيء بالكلية، فلا مقال ولا فعال، وهو مع هذا كل أي عيال وكلفة على مولاه «أينما يوجهه» أي يبعثه «لا يأتي بخير» ولا ينفع مسعاه «هل يستوي» من هذه صفاتيه «ومن يأمر بالعدل» أي بالقسط، فمقاييس حق وفعاله مستقيمة «وهو على صراط مستقيم» وقيل: الأبكم مولى لعثمان، وبهذا قال السدي وقتادة وعطاء الخراساني، واختار هذا القول ابن جرير.

وقال العوفي عن ابن عباس: هو مثل للكافر والمؤمن أيضاً كما تقدم، وقال ابن جرير^(١): حدثنا الحسن بن الصباح البزار، حدثنا يحيى بن إسحاق السيلحيبي، حدثنا حماد حدثنا عبد الله بن عثمان بن خيثم عن إبراهيم عن عكرمة، عن يعلى بن أمية عن ابن عباس في قوله: «ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء» قال: نزلت في رجل من قريش وعبدة، يعني قوله «عبدًا مملوكاً» الآية، وفي قوله: «وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ» - إلى قوله -

﴿وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ قال: هو عثمان بن عفان: قال: والأبكم الذي أينما يوجهه لا يأت بخير، قال: هو مولى لعثمان بن عفان، كان عثمان ينفق عليه ويكلمه وكيفيه المؤونه، وكان الآخر يكره الإسلام ويباها وينهاه عن الصدقة والمعروف، فنزلت فيهما.

وَلَنَّهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلمَحِ الْبَصَرِ أَوْ شَوَّافَقَرَبٌ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَقْلِمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ
وَالْأَفْعَدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشَكُّرُونَ ﴿٧٨﴾ الَّذِي يَرْقَأُ إِلَى الظَّيْرِ مُسَحَّرَاتٍ فِي جَوَّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا
اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لَا يَنْتَهِ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾

يخبر تعالى عن كمال علمه وقدرته على الأشياء في علمه غيب السموات والأرض واحتياجه بعلم الغيب، فلا اطلاع لأحد على ذلك إلا أن يطلعه تعالى على ما يشاء، وفي قدرته التامة التي لا تخالف ولا تمانع، وأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، كما قال: «وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر» [القمر: ٥٠] أي فيكون ما يريد كطرف العين، وهكذا قال هنا: «وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قادر» كما قال: «ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة» [القمان: ٢٨].

ثم ذكر تعالى منته عباده في إخراجه إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، ثم بعد هذا يرزقهم السمع الذي به يدركون الأصوات والأبصار التي بها يحسون المرئيات والأفئدة، وهي العقول التي مركزها القلب على الصحيح، وقيل: الدماغ والعقل به يميز بين الأشياء ضارها ونافتها، وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدريج قليلاً قليلاً كلما كبر زيد في سمعه وبصره حتى يبلغ أشدده. وإنما جعل تعالى هذه في الإنسان ليتمكن بها من عبادة ربه تعالى، فيستعين بكل جارحة وعضو وقوة على طاعة مولاه.

كما جاء في صحيح البخاري^(١) عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول تعالى: من عادي لي ولیاً فقد بارزني بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أفضل من أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقارب إلي بالنواقل حتى أحبه، فإذا أحبته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطيه، ولئن دعاني لأجيئنه، ولئن استعاذه بي لأعيذه، وما ترددت في شيء أنا فاعله تردد في قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساعته ولا يد له منه».

فمعنى الحديث أن العبد إذا أخلص الطاعة صارت أفعاله كلها لله عز وجل، فلا يسمع إلا الله، ولا يبصر إلا الله أي ما شرعه الله له، ولا يطش ولا يمشي إلا في طاعة الله عز وجل،

(١) أخرجه البخاري في الرقاق باب ٣٨، وأحمد في المسند ٦/٢٥٦.

مستعيناً بالله في ذلك كله، ولهذا جاء في بعض رواية الحديث في غير الصحيح بعد قوله ورجله التي يمشي بها «فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يطش، وبي يمشي» ولهذا قال تعالى: «وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْتَدَةَ لِعُلُوكِمْ تَشَكُّرُونَ» كقوله تعالى في الآية الأخرى: «قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْتَدَةَ قَلِيلًا مَا تَشَكُّرُونَ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ إِلَيْهِ تَحْشِرُونَ» [الملك: ٢٣ - ٢٤].

ثم نبه تعالى عباده إلى النظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض، كيف جعله يطير بجناحين بين السماء والأرض في جو السماء، ما يمسكه هناك إلا الله بقدرته تعالى التي جعل فيها قوى تفعل ذلك، وسخر الهواء يحملها ويسير الطير كذلك، كما قال تعالى في سورة الملك: «أَوْ لَمْ يَرُوا إِلَى الطِّيرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٌ وَيَقْبَضُنَّ مَا يَمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ» [الملك: ١٩] وقال ههنا: «إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَؤْمِنُونَ».

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِنْ بُوْتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَمِ بُيُوتًا تَسْتَخْفُونَهَا يَوْمَ طَعْنَكُمْ وَيَوْمَ إِقْامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافَهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَنِعًا إِلَى حِينٍ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظَلَلًا وَجَعَلَ لَكُم مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَقِيمَكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيمَكُمْ بَأْسَكَمْ كَذَلِكَ يُتَمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ لَعْلَكُمْ تُسلِمُونَ إِنْ قَوَّلُوا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُؤْمِنُونَ يَعْرُفُونَ بِنِعْمَتِ اللَّهِ شَهِيدُونَ كُفَّارُهُمْ أَكْثَرُهُمْ كُفَّارُونَ

يذكر تبارك وتعالى تمام نعمه على عباده بما جعل لهم من البيوت التي هي سكن لهم، يأوون إليها، ويسترون بها، ويستفعون بها بسائر وجوه الانتفاع، وجعل لهم أيضاً «من جلد الأنعام بيوتاً» أي من الأدم، يستخفون حملها في أسفارهم ليضربوها لهم في إقامتهم في السفر والحضر، ولهذا قال: «تَسْتَخْفُونَهَا يَوْمَ طَعْنَكُمْ وَيَوْمَ إِقْامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافَهَا» أي الغنم، «وَأَوْبَارِهَا» أي الإبل، «وَأَشْعَارِهَا» أي المعز، والضمير عائد على الأنعام «أَثَاثًا» أي تتخذون منه أثاثاً وهو المال، وقيل: المtau، ويتخذ مالاً وت التجارة، وقال ابن عباس: الأثاث الم tau، وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وعطاء العوفي وعطاء الخراساني والضحاك وقتادة. وقوله: «إِلَى حِينٍ» أي إلى أجل مسمى ووقت معلوم.

وقوله: «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظَلَلًا» قال قتادة: يعني الشجر «وَجَعَلَ لَكُم مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا» أي حصوناً ومعاقل، كما «جَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَقِيمَكُمُ الْحَرَّ» وهي الثياب من القطن والكتان والصوف «وَسَرَابِيلَ تَقِيمَكُمْ بَأْسَكَمْ» كالدروع من الحديد المصفح والزرد وغير ذلك، «كَذَلِكَ يُتَمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ» أي هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم وما تحتاجون إليه ليكون عوناً لكم على طاعته وعبادته «لَعْلَكُمْ تُسلِمُونَ» هكذا فسره

الجمهور، وقرؤوه بكسر اللام من ﴿تَسْلِمُونَ﴾ أي من الإسلام.

وقال قتادة في قوله: ﴿كَذَلِكَ يَتَمْ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُم﴾ هذه السورة تسمى سورة النعم. وقال عبد الله بن المبارك وعبد بن العوام عن حنظلة السدوسي، عن شهر بن حوشب، عن ابن عباس أنه كان يقرؤها (تسلمون) بفتح اللام، يعني من الجراح، رواه أبو عبيد القاسم بن سلام عن عباد، أخرجه ابن جرير^(١) من الوجهين، ورد هذه القراءة.

وقال عطاء الخراساني: إنما نزل القرآن على قدر معرفة العرب، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مَا خَلَقَ ظَلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِنَ الْجَبَلِ أَكْنَانًا﴾ وما جعل من السهل أعظم وأكثر، ولكنهم كانوا أصحاب جبال؟ ألا ترى إلى قوله: ﴿وَمِنْ أَصْوَافَهَا وَأَوْبَارَهَا وَأَشْعَارَهَا أَتَانَا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾ وما جعل لهم من غير ذلك أعظم وأكثر، ولكنهم كانوا أصحاب ببر وشعر؟ ألا ترى إلى قوله: ﴿وَيَنْزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جَبَلٍ فِيهَا مِنْ بَرٍ﴾ لعجبهم من ذلك وما أنزل من الثلوج أعظم وأكثر، ولكنهم كانوا لا يعرفونه؟ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿سَرَابِيلْ تَقِيمُ الْحَرَقَ﴾ وما تقي من البرد أعظم وأكثر، ولكنهم كانوا أصحاب حر^(٢).

وقوله: ﴿فَإِنْ تَوْلُوا﴾ أي بعد هذا البيان وهذا الامتنان، فلا عليك منهم ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ وقد أديته إليهم ﴿يَعْرُفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يَنْكِرُونَهَا﴾ أي يعرفون أن الله تعالى هو المسدي إليهم ذلك وهو المتفضل به عليهم ومع هذا ينكرون ذلك ويعبدون معه غيره ويستندون النصر والرزق إلى غيره ﴿وَأَكْثُرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ كما قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن مجاهد أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فسألته فسالة، فقرأ عليه رسول الله ﷺ ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِنْ بَيْنِ كُلِّ أُمَّةٍ فَقَالَ الْأَعْرَابُيُّ: نَعَمْ، قَالَ: وَجَعَلَ لَكُم مِنْ جَلَدِ الْأَنْعَامِ بَيْنَ أَيْمَانِكُمْ الْآيَةُ، قَالَ الْأَعْرَابُيُّ: نَعَمْ، ثُمَّ قَرَا عَلَيْهِ كُلُّ ذَلِكَ، يَقُولُ الْأَعْرَابُيُّ: نَعَمْ حَتَّى يَلْغُ ﴿كَذَلِكَ يَتَمْ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْلِمُونَ﴾ فولى الْأَعْرَابُيُّ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿يَعْرُفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يَنْكِرُونَهَا﴾ الْآيَةَ.

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْبَطُونَ ﴿وَإِذَا رَأَهُ الَّذِينَ طَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخْفَفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ وَإِذَا رَأَهُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا شَرَكَاءَ هُمْ قَاتُلُوا رَبَّهُمْ هُنُّ لَا إِلَهَ إِلَّا شَرَكَاهُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَذِعُونَ مِنْ دُونِكُمْ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقُوْلَ إِذَا كُمْ لَكَذِبُونَ ﴿وَلَقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زَدَنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَفْسِدُونَ

يخبر تعالى عن شأن المشركين يوم معادهم في الدار الآخرة، وأنه يبعث من كل أمة شهيداً

(١) تفسير الطبرى ٦٢٨/٧

(٢) انظر تفسير الطبرى ٦٢٩، ٦٢٨/٧

وهو نبيها، يشهد عليها بما أجابته فيما بلغها عن الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذِنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي في الاعتدار، لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه، قوله: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يُنْطَقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيُعَذَّرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥ - ٣٦] فلهذا قال: ﴿وَلَا هُمْ يَسْتَعْبُونَ إِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي الذين أشركوا ﴿الْعَذَابَ فَلَا يَخْفَفُ عَنْهُمْ﴾ أي لا يفتر عنهم ساعة واحدة.

﴿وَلَا هُمْ يَنْظَرُونَ﴾ أي لا يؤخر عنهم بل يأخذهم سريعاً من الموقف بلا حساب، فإنه إذا جيء بهم في جهنم تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، فيشرف عنق منها على الخلاص، وتزفر زفة لا يبقى أحد إلا جثا لركبته، فتقول: إني وكلت بكل جبار عنيد الذي جعل مع الله إليها آخر وبكذا وبكذا، وتذكر أصنافاً من الناس، كما جاء في الحديث، ثم تنطوي عليهم وتلتقطهم من الموقف كما يتقطط الطائر الحب، قال الله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغْيِيْظاً وَزَفِيرَاً إِذَا أَلْقَوْا مِنْهَا مَكَانًا ضِيقاً مُقْرَنِينَ دَعَا هَنالِكَ ثُبُوراً لَا تَدْعُوا إِلَيْهِ الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِدَّاً، وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيرَآ﴾ [الفرقان: ١٤ - ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُوا أَنَّهُمْ مَوْاقِعُهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرَفًا﴾ [الكهف: ٥٣] وقال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبَهَّمُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَهَا وَلَا هُمْ يَنْظَرُونَ﴾ [الأنباء: ٣٩ - ٤٠].

ثم أخبر تعالى عن تبريره لهم منهم أحوج ما يكونون إليها فقال: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شَرْكَاءَهُمْ﴾ أي الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا ﴿فَالْلَّهُ رَبُّنَا هُوَ لَاءُ شَرِكَائِنَا الَّذِينَ كَنَا نَدْعُونَ مِنْ دُونِكُ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنْكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي قالت لهم الآلهة: كذبتم ما نحن أمناكم بعبادتنا، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ أَنْفُلِ مَنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حَسَرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءٍ وَكَانُوا بِعِبَادِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥ - ٦] وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عَزَّاً كَلَّا سِكَافُرُونَ بِعِبَادِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضَدًا﴾ [مريم: ٨١ - ٨٢] وقال الخليل عليه الصلاة والسلام ﴿ثُمَّ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بِعُضُّكُمْ بِعِصْبَرِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٢٥] الآية، وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ ادْعُوا شَرِكَاءَكُمْ﴾ [الكهف: ٥٢] الآية، والآيات في هذا كثيرة.

وقوله: ﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذِ السَّلْمَ﴾ قال قتادة وعكرمة: ذلوا واستسلموا يومئذ، أي استسلموا لله جميعهم فلا أحد إلا سامع مطيع، وقوله تعالى: ﴿أَسْمَعُهُمْ وَأَبْصِرُهُمْ يَوْمَ يَأْتُونَا﴾ [مريم: ٣٨] أي ما أسمعهم وما أبصرهم يومئذ، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذَ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُسِهِمْ عَنْ رَبِّهِمْ رَبِّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ [السجدة: ١٢] الآية، وقال: ﴿وَعَنْتَ الْوِجْهَ لِلْحِيَالِ﴾ [طه: ١١١] أي خضعت وذلت واستكانت وأنابت واستسلمت. قوله ﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذِ السَّلْمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي ذهب وأض محل ما كانوا يعبدونه افتراء على الله فلا ناصر لهم ولا معين ولا مجير.

ثم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زَدَنَاهُمْ عَذَابًا﴾ الآية، أي عذاباً على كفرهم وعداباً على صدهم الناس عن اتباع الحق قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَا عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦] أي ينهون الناس عن اتباعه ويبتعدون هم منه أيضاً ﴿وَإِنْ يَهْلَكُوكُنْ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ وهذا دليل على تفاوت الكفار في عذابهم كما يتفاوت المؤمنون في منازلهم في الجنة ودرجاتهم، كما قال تعالى: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضُعْفٍ وَلَكُنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨] وقد قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا سريج بن يونس، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن عبد الله بن مرة، عن مسروق، عن عبد الله قي قوله: ﴿زَدَنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ قال: زيدوا عقارب أنيابها كالنخل الطوال. وحدثنا شريح بن يونس، حدثنا إبراهيم بن سليمان، حدثنا الأعمش عن الحسن، عن ابن عباس في الآية أنه قال: ﴿زَدَنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ قال: هي خمسة أنهار تحت العرش يعذبون ببعضها في الليل وببعضها في النهار.

وَيَوْمَ يَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَجَئَنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هُؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٩﴾

يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ: «ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء» يعني أمتك، أي اذكر ذلك اليوم وهوله، وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع، وهذه الآية شبيهة بالآية التي اتهى إليها عبد الله بن مسعود حين قرأ على رسول الله ﷺ صدر سورة النساء، فلما وصل إلى قوله: «فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً» [النساء: ٤١] فقال له رسول الله ﷺ: «حسبك» فقال ابن مسعود رضي الله عنه: فالتفت فإذا عيناه تذرفان^(١).

وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ قال ابن مسعود: قد بين لنا في هذا القرآن كل علم وكل شيء. وقال مجاهد: كل حلال وكل حرام، وقول ابن مسعود أعم وأشمل، فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق وعلم ما سيأتي، وكل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم ﴿وَهُدًى﴾ أي للقلوب ﴿وَرَحْمَةٌ وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾. وقال الأوزاعي: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: بالسنة.

ووجه اقتران قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ مع قوله: ﴿وَجَئَنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هُؤُلَاءِ﴾ أن المراد - والله أعلم - إن الذي فرض عليك تبلغ الكتاب الذي أنزله عليك سائلك عن ذلك يوم القيمة ﴿فَلَنْسَأْلَنَّ الَّذِينَ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ وَلَنْسَأْلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦] ﴿فَوْرَكَ لَنْسَائِنَهُمْ

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٤، باب ٩، وفضائل القرآن باب ٣٣، ومسلم في المسافرين حديث ٤٣٣، ٣٧٤، ٣٨٠، ٢٤٧، وأحمد في المستد ١/ ٢٤٨.

أجمعين عما كانوا يعملون» [الحجر: ٩٢ - ٩٣] «يُوْمَ يَجْمِعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجْبَتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنْكَ أَنْتَ عَلَامُ الْغَيْوَبِ» [المائدة: ١٠٩]، وقال تعالى: «إِنَّ الَّذِي فَرِضَ عَلَيْكُمُ الْقُرْآنَ لِرَادِكُ إِلَى مَعَادٍ» [القصص: ٨٥] أي إن الذي أوجب عليك تبليغ القرآن لرادك إليه ومعيدهك يوم القيمة وسائلك عن أداء ما فرض عليك. هذا أحد الأقوال، وهو متوجه حسن.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَاتِ وَيَنْهَا عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

يخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل، وهو القسط والموازنة، ويندب إلى الإحسان، كقوله تعالى: «وَإِنْ عَاقِبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَوْقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ» [النحل: ١٢٦]، وجزاء سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله» [الشورى: ٤٠]، وقال: «وَالْجُرُوحُ قَصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كُفَّارَةٌ لَهُ» [المائدة: ٤٥] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على شرعية العدل والنندب إلى الفضل. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالنَّدْبِ إِلَى الْفَضْلِ». قال: شهادة أن لا إله إلا الله، وقال سفيان بن عيينة، العدل في هذا الموضع هو استواء السريرة والعلانية من كل عامل لله عملاً، والإحسان أن تكون سيرته أحسن من علانيته، والفحشاء والمنكر أن تكون علانيته أحسن من سيرته.

وقوله: «وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى» أي يأمر بصلة الأرحام، كما قال: «وَآتُ ذَا الْقُرْبَى حَقَهُ وَالْمُسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذِرْ تَبْذِيرًا» [الإسراء: ٢٦]. قوله: «وَيَنْهَا عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ» فالفواحش المحرمات، والمنكرات ما ظهر منها من فاعلها، ولهذا قال في الموضع الآخر: «قُلْ إِنَّمَا حَرَمَ رَبُّ الْفَوَاحِشِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ» [الأعراف: ٣٣] وأما البغي فهو العدوان على الناس، وقد جاء في الحديث «مَا مَنَ ذُنْبٌ أَجْدَرَ أَنْ يَعْجَلَ اللَّهُ عَقْوَبَتِهِ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدْخُلُ لِصَاحِبِهِ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْبَغْيِ وَقَطْعِيَّةِ الرَّحْمِ»^(١).

وقوله: «يَعِظُكُمْ» أي يأمركم بما يأمركم به من الخير وينهاكم عما ينهاكم عنه من الشر «لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» وقال الشعبي عن شتير بن شكل: سمعت ابن مسعود يقول: إن أجمع آية في القرآن في سورة النحل «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ» الآية، رواه ابن جرير^(٢)، وقال سعيد عن قتادة قوله: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ» الآية ليس من خلق حسن، كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلا أمر الله به، وليس من خلق سيء كانوا يتغايرون عليه بینهم، إلا نهى الله عنه وقدم فيه. وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذمها. (قلت) ولهذا جاء في

(١) أخرجه أبو داود في الأدب باب ٤٣، والترمذمي في القيمة باب ٥٧، وابن ماجه في الزهد باب ٢٣، وأحمد في المسند ٣٦/٥، ٣٨.

(٢) تفسير الطبرى ٦٣٥/٧.

ال الحديث «إن الله يحب معالي الأخلاق ويكره سفاسفها».

وقال الحافظ أبو يعلى في كتاب معرفة الصحابة: حدثنا أبو بكر محمد بن الفتح الحنبلي، حدثنا يحيى بن محمد مولىبني هاشم، حدثنا الحسن بن داود المنكدرى، حدثنا عمر بن علي المقدمى عن علي بن عبد الله بن عمير، عن أبيه، قال: بلغ أكثم بن صيفي مخرج النبي ﷺ فراراً أن يأتيه، فأبى قومه أن يدعوه وقالوا: أنت كبرينا لم تكن لتخف إليه، قال: فليأته من يبلغه عنى ويلغنى عنه، فانتدب رجلان فأتيا النبي ﷺ فقالا: نحن رسول أكثم بن صيفي، وهو يسألك من أنت، وما أنت؟ فقال النبي ﷺ: «أما من أنا فأنا محمد بن عبد الله، وأما ما أنا؟ فأنا عبد الله ورسوله» قال: ثم تلا عليهم هذه الآية «إن الله يأمر بالعدل والإحسان» الآية، قالوا: اردد علينا هذا القول، فرددوه عليهم حتى حفظوه، فأتيا أكثم فقالا أبى أن يعرف نسبة، فسألنا عن نسبة فوجدناه زاكى النسب وسطاً في مصر - أي شريفاً - وقد رمى إلينا بكلمات قد سمعناها، فلما سمعهن أكثم قال: إنى أراه يأمر بمكارم الأخلاق، وينهى عن ملائهما، فكونوا في هذا الأمر رؤوساً ولا تكونوا أذناباً.

وقد ورد في نزولها حديث حسن رواه الإمام أحمد^(١): حدثنا أبو النضر، حدثنا عبد الحميد، حدثنا شهر، حدثني عبد الله بن عباس قال: بينما رسول الله ﷺ ببناء بيته جالس إذ مر به عثمان بن مظعون، فكسر إلى رسول الله فقال له رسول الله ﷺ: «ألا تجلس؟» فقال: بلى، قال: فجلس رسول الله ﷺ مستقبلاً، في بينما هو يحدثه إذ شخص رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء، فنظر ساعة إلى السماء، فأخذ يضع بصره حتى وضعه على يمينه في الأرض، فتحرف رسول الله ﷺ عن جليسه عثمان إلى حيث وضع بصره، فأخذ ينغضن رأسه كأنه يستفقه ما يقال له، وابن مظعون ينظر.

فلما قضى حاجته واستفقه ما يقال له، شخص بصر رسول الله ﷺ إلى السماء كما شخص أول مرة، فأتبعه بصره حتى توارى إلى السماء، فأقبل إلى عثمان بجلسته الأولى، فقال: يا محمد فيما كنت أجالسك ما رأيتك تفعل كفعلك الغداة، فقال: «وما رأيتني فعلت؟» قال: رأيتك شخص بصرك إلى السماء، ثم وضعته على يمينك، فتحررت إليه وتركتني، فأخذت تنغضن رأسك كأنك تستفقه شيئاً يقال لك، قال: «وفضلت لذلك؟» فقال عثمان: نعم، قال رسول الله ﷺ: «أتاني رسول الله آنفاً وأنت جالس» قال: رسول الله؟ قال: «نعم»، قال: فما قال لك؟ قال: «إن الله يأمر بالعدل والإحسان» الآية، قال عثمان: فذلك حين استقر الإيمان في قلبي وأحببت محمداً ﷺ، إسناد جيد متصل حسن قد بين فيه السمع المتصل، ورواه ابن أبي حاتم من حديث عبد الحميد بن بهرام مختصراً.

حدث آخر عن عثمان بن أبي العاص الثقفي في ذلك، قال الإمام أحمد^(١): حدثنا أسود بن عامر، حدثنا هريم عن ليث عن شهر بن حوشب، عن عثمان بن أبي العاص قال: كنت عند رسول الله ﷺ جالساً إذ شخص بضره فقال: «أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من هذه السورة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ الآية، وهذا إسناد لا بأس به، ولعله عند شهر بن حوشب من الوجهين، والله أعلم.

وَأَوْفُوا بِمَا وَهَدَتْمَ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْنَا اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ① وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَفَضَتْ غَزَلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَانَتْ لَشَدِّدُونَ إِنَّمَا تَكُونُ دَخَلًا يَبْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أَمْمَةً هِيَ أَرْفَقُ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَتُوَكِّلُ اللَّهُ بِهِ وَلَيَسْتَنَ لَكُمْ يَقْرَأُ الْقِيمَةَ مَا كُتِّبَ فِيهِ تَخْنِيلُونَ ②

هذا مما يأمر الله تعالى به، وهو الوفاء بالعهود والمواثيق والمحافظة على الأيمان المؤكدة، ولهذا قال: «ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها» ولا تعارض بين هذا وبين قوله: «ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم» [البقرة: ٢٢٤] الآية، وبين قوله تعالى: «ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم» [المائدة: ٨٩] أي لا تتركوها بلا كفارة، وبين قوله عليه السلام فيما ثبت عنه في الصحيحين أنه عليه الصلاة والسلام قال «إنى والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فارى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها - وفي رواية - وكفرت عن يميني»^(٢) لا تعارض بين هذا كله ولا بين الآية المذكورة هنا، وهي قوله: «ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها» لأن هذه الأيمان المراد بها الدخلة في العهود والمواثيق لا الأيمان التي هي واردة على حد أو منع، ولهذا قال مجاهد في قوله «ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها» يعني الحلف، أي حلف الجاهلية.

ويؤيد ما رواه الإمام أحمد^(٣): حدثنا عبد الله بن محمد - هو ابن أبي شيبة - حدثنا ابن نمير وأبوأسامة عن زكرياء. هو ابن أبي زائدة - عن سعد بن إبراهيم عن أبيه، عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حلف في الإسلام، وأيما حلف كان في الجاهلية فإنه لا يزيده الإسلام إلا شدة»^(٤) وكذلك رواه مسلم عن ابن أبي شيبة به. ومعناه أن الإسلام لا يحتاج معه إلى الحلف الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه، فإن في التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه.

(١) المستند ٢١٨/٤.

(٢) أخرجه البخاري في الأيمان بباب ١ ، ٤ ، ومسلم في الأيمان حديث ٩.

(٣) المستند ٤/٨٣.

(٤) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة حديث ٢٠٦.

وأما ما ورد في الصحيحين عن عاصم الأحول عن أنس رضي الله عنه أنه قال: حالف رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دورنا^(١)، فمعناه أنه آخى بينهم فكانوا يتوارثون به حتى نسخ الله ذلك، والله أعلم.

وقال ابن جرير^(٢): حدثني محمد بن عمارة الأسدي، حدثنا عبد الله بن موسى، أخبرنا أبو ليلى عن بريدة في قوله: «أوفوا بعهد الله إذا عاهدتم» قال: نزلت في بيعة النبي ﷺ، كان من أسلم بايع النبي ﷺ على الإسلام، فقال: «أوفوا بعهد الله إذا عاهدتم» هذه البيعة التي بايعتم على الإسلام «ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها» البيعة لا يحملنكم قلة محمد وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التي بايعتم على الإسلام.

وقال الإمام أحمد^(٣): حدثنا إسماعيل، حدثنا صخر بن جويرية عن نافع قال: لما خلع الناس يزيد بن معاوية جمع ابن عمر بنيه وأهله ثم تشهد، ثم قال: أما بعد فإننا قد باينا هذا الرجل على بيعة الله ورسوله، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الغادر ينصب له لواء يوم القيمة فيقال: هذه غدرة فلان، وإن من أعظم الغدر - إلا أن يكون الإشراك بالله - أن يبايع رجل رجلاً على بيعة الله ورسوله، ثم ينكث بيته، فلا يخلعن أحد منكم يداً ولا يسرفن أحد منكم في هذا الأمر، فيكون صلبه بيني وبينه» المرفوع منه في الصحيحين.

وقال الإمام أحمد^(٤): حدثنا يزيد حدثنا حجاج عن عبد الرحمن بن عباس عن أبيه، عن حذيفة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من شرط لأخيه شرطاً لا ي يريد أن يفي له به، فهو كالمدلي جاره إلى غير منفعة».

وقوله: «إن الله يعلم ما تفعلون» تهديد ووعيد لمن نقض الأيمان بعد توكيدها. وقوله «ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً» قال عبد الله بن كثير والسدي: هذه امرأة خرقاء كانت بمكة كلما غزلت شيئاً نقضته بعد إبرامه. وقال مجاهد وقتادة وابن زيد: هذا مثل من نقض عهده بعد توكيده، وهذا القول أرجح وأظهر سواء كان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا.

وقوله: «أنكاثاً» يحتمل أن يكون اسم مصدر، «نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً» أي أنقاضاً، ويحتمل أن يكون بدلاً عن خبر كان أي لا تكونوا أنكاثاً جمع نكث من ناكث^(٥).

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام باب ١٦، ومسلم في فضائل الصحابة حديث ٢٠٤.

(٢) تفسير الطبرى ٧/٦٣٦.

(٣) المسند ٤٨.

(٤) المسند ٥/٤٠٤.

(٥) النكث، بالكسر: أن تنقض أخلاق الأكسيه تغزل ثابتة، ونكث العهد: نقضه فانتكث، وتناكثوا عهودهم: تنافقوا بها.

ولهذا قال بعده: ﴿تَخْذُلُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخْلًا بَيْنَكُمْ﴾ أي خديعة ومكرًا ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أُرْبِىٌ مِّنْ أُمَّةٍ﴾ أي تحلفون للناس إذا كانوا أكثر منكم ليطمنوا إليكم، فإذا أمكنكم الغدر بهم غدرتم، فنهى الله عن ذلك لينبه بالأدنى على الأعلى، إذا كان قد نهى عن الغدر والحالة هذه، فلأنّ ينهى عنه مع التمكّن والقدرة بطريق الأولى.

وقد قدمنا - والله الحمد - في سورة الأنفال قصة معاوية لما كان بينه وبين ملك الروم أمد، فسار معاوية إليهم في آخر الأجل حتى إذا انقضى وهو قريب من بلادهم أغاث عليهم، وهم غارون لا يشعرون، فقال له عمرو بن عبسة: الله أكبر يا معاوية وفاء لا غدر، سمعت رسول الله ﷺ يقول «من كان بينه وبين قوم أجل فلا يحلن عقده حتى ينقضي أمده» فرجع معاوية رضي الله عنه بالجيش، قال ابن عباس: ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أُرْبِىٌ مِّنْ أُمَّةٍ﴾ أي أكثر، وقال مجاهد: كانوا يحالبون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعز، فينقضون حلف هؤلاء ويحالبون أولئك الذين هم أكثر وأعز، فنهاوا عن ذلك وقال الضحاك وقتادة وابن زيد نحوه. وقوله: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾ قال سعيد بن جبير: يعني بالكثرة، رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن جرير: أي بأمره إياكم بالوفاء بالعهد ﴿وَلَيَبْيَسْنَ لَكُمْ يَوْمُ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾ فيجازي كل عامل بعمله من خير وشر.

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكُنْ يُصْلِلُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتَسْتَعْلِمُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ وَلَا تَنْخُذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخْلًا بَيْنَكُمْ قَدْمًا بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذَوَّلُوا السُّوءَ يَمَاصُدُّكُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ وَلَا شَرُورٌ بِعَهْدِ اللَّهِ ثُمَّ تَنَاقِلُوا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ الْخَيْرُ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَفْدُدُ مَا عِنْدَ اللَّهِ بِأَقْبَلٍ وَلَنْجِزِينَ الَّذِينَ صَدَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٥﴾

يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أَيْهَا النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمِنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩] أي لوفق بينكم ولما جعل اختلافاً ولا تبغض ولا شحناه ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرِزَّالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مِنْ رَحْمَةِ رَبِّكَ وَلَذِكْرِ خَلْقِهِمْ﴾ [هود: ١١٨ - ١١٩]، وهكذا قال هنا: ﴿وَلَكُنْ يُضْلِلُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ ثم يسألهم يوم القيمة عن جميع أعمالكم فيجازيكم عليها على الفتيل والتغیر والقطمير. ثم حذر تعالى عباده عن اتخاذ الأيمان دخلاً أي خديعة ومكرًا لثالثاً تزل قدم بعد ثبوتها، مثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها، وزلت عن طريق الهدى بسبب الأيمان الحاثة المشتملة على الصد عن سبيل الله، لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به لم يبق له ثوق بالدين، فانصد بسببه عن الدخول في الإسلام، ولهذا قال ﴿وَتَذَوَّلُوا السُّوءَ بِمَا صَدَّتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تُشْتِرُوا بِعِهْدِ اللَّهِ ثُمَّا قَلِيلًا﴾ أي لا تتعاضوا عن الأيمان بالله عرض الحياة الدنيا وزيتها، فإنها قليلة، ولو حيزت لابن آدم الدنيا بحذافيرها لكان ما عند الله هو خير له، أي جزاء الله وثوابه خير لمن رجاه وأمن به وطلبه وحفظ عهده رجاء موعوده، ولهذا قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ اعْنَدُكُمْ يَنْفَدِ﴾ أي يفرغ وينقضي فإنه إلى أجل محدود محصور مقدر متنه ﴿وَمَا عَنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ أي وثوابه لكم في الجنة باق لا انقطاع ولا نفاد له، فإنه دائم لا يحول ولا يزول ﴿وَلِنَجْزِيْنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قسم من الرب تعالى مؤكّد باللام، أنه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم، أي ويتجاوز عن سيئها.

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيهِ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيْنَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾

هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحاً وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ من ذكر أو أنثى، من بني آدم وقلبه مؤمن بالله ورسوله، وأن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله بأن يحييه الله حياة طيبة في الدنيا، وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة، والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت. وقد روي عن ابن عباس وجماعة أنهم فسروها بالرزق الحلال الطيب. وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه فسرها بالقناعة، وكذا قال ابن عباس وعكرمة و وهب بن منبه، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أنها هي السعادة. وقال الحسن ومجاد وقادة: لا يطيب لأحد حياة إلا في الجنة. وقال الضحاك: هي الرزق الحلال والعبادة في الدنيا، وقال الضحاك أيضاً: هي العمل بالطاعة والانشراح بها، والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كلّه.

كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد^(١): حدثنا عبد الله بن يزيد، حدثنا سعيد بن أبي أيوب، حدثني شرحبيل بن أبي شريك عن أبي عبد الرحمن الجبلي، عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه»^(٢)، ورواه مسلم من حديث عبد الله بن يزيد المقرري به.

وروى الترمذى والنسائي من حديث أبي هانئ عن أبي علي الجنبي، عن فضالة بن عبيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قد أفلح من هدى للإسلام، وكان عيشه كفافاً وقنع به»^(٣). وقال الترمذى: هذا حديث صحيح.

(١) المسند ١٦٨/٢.

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة حديث ١٢٥، وابن ماجه في الزهد باب ٩.

(٣) أخرجه الترمذى في الزهد باب ٣٥، وابن ماجه في الزهد باب ٤.

وقال الإمام أحمد^(١): حدثنا يزيد حدثنا همام عن يحيى، عن قتادة، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يعطي بها في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة. وأما الكافر فيطعم بحسنته في الدنيا حتى إذا أفسى إلى الآخرة، لم يكن له حسنة يعطي بها خيراً»، انظر بآخر اوجه مسلم^(٢).

فَإِذَا قرأتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِدْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۝ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَنٌ عَلَى الْأَذْيَنَ ۝ مَاءْمُواً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ إِنَّمَا سُلْطَنُهُ عَلَى الْأَذْيَنَ يَتَوَلَّهُنَّ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ۝

هذا أمر من الله تعالى لعباده على لسان نبيه ﷺ إذا أرادوا قراءة القرآن أن يستعينوا بالله من الشيطان الرجيم، وهذا أمر ندب ليس بواجب، حكم الإجماع على ذلك أبو جعفر بن جرير وغيره من الأئمة. وقد قدمنا الأحاديث الواردة في الاستعاذه مبسوطة في أول التفسير، والله الحمد والمنة.

والمعنى في الاستعاذه عند ابتداء القراءة لثلا يلبس على القارئ قراءته، ويخلط عليه ويمعنه من التدبر والتفكير، ولهذا ذهب الجمهور إلى أن الاستعاذه إنما تكون قبل التلاوة، وحکي عن حمزة وأبي حاتم السجستاني أنها تكون بعد التلاوة، واحتاجا بهذه الآية، ونقل النووي في شرح المذهب مثل ذلك عن أبي هريرة أيضاً ومحمد بن سيرين وإبراهيم التخعي والصحيح الأول لما تقدم من الأحاديث الدالة على تقدمها على التلاوة، والله أعلم.

وقوله: «إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون» قال الثوري: ليس له عليهم سلطان أن يوقعهم في ذنب لا يتوبون منه، وقال آخرون: معناه لا حجة له عليهم. وقال آخرون كقوله: «إلا عبادك منهم المخلصين»، «إنما سلطانه على الذين يتلونه» قال مجاهد: يطيعونه، وقال آخرون: اتخاذوه ولیاً من دون الله «والذين هم به مشركون» أي أشركوا في عبادة الله تعالى. أي أشركوه في عبادة الله، ويتحمل أن تكون الباء سبية، أي صاروا بسبب طاعتهم للشيطان مشركين بالله تعالى. وقال آخرون: معناه أنه شرकهم في الأموال والأولاد.

وَإِذَا بَدَّلَ أَءَيَةً مَّكَانَ أَءَيَةً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَرَى ۝ فَالَّذِينَ أَتَتْ مُفْتَرَ بَلْ أَكْثَرُهُ لَا يَعْلَمُونَ ۝ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُّسِ مِنْ رَبِّكَ يَأْلِقُ لِتَبَيَّنَ الْأَدْيَنَ ۝ مَاءْمُواً وَهُدُى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ۝

يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين وقلة ثباتهم وإيقانهم، وأنه لا يتصور منهم الإيمان وقد كتب عليهم الشقاوة، وذلك أنهم إذا رأوا تغير الأحكام ناسخها بمنسوخها قالوا

(١) المسند ١٢٣/٣.

(٢) كتاب المنافقين حديث ٥٦.

لرسول الله ﷺ: «إنما أنت مفتر» أي كذاب، وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وقال مجاهد: «بدلنا آية مكان آية» أي رفعناها وأثبتنا غيرها، وقال قتادة: هو قوله تعالى: «ما ننسخ من آية أو ننسها»^(١) [البقرة: ١٠٦] الآية، فقال تعالى مجبياً لهم «قل نزله روح القدس» أي جبريل «من ربك بالحق» أي بالصدق والعدل «ليثبت الذين آمنوا» فيصدقوا بما أنزل أولاً وثانياً، وتبخّت له قلوبهم «وهدى وبشرى لل المسلمين» أي وجعله هادياً وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسله.

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ لِسَانٌ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمٌ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَفَتُ مُيَمٌ

يقول تعالى مخبراً عن المشركين ما كانوا يقولونه من الكذب والافتراء والبهتان أن محمداً إنما يعلمه هذا الذي يتلوه علينا من القرآن بشر ويشيرون إلى رجل أعجمي كان بين أظهرهم غلام لبعض بطون قريش، وكان بياعاً يبيع عند الصفا، وربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء، وذاك كان أعجمي اللسان لا يعرف العربية أو أنه كان يعرف الشيء اليسير بقدر ما يرد جواب الخطاب فيما لا بد منه، فلهذا قال الله تعالى: راداً عليهم في افترائهم ذلك «لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين» أي القرآن، أي فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن في فصاحته وبلغته ومعانيه التامة الشاملة التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على بني أرسل، كيف يتعلم من رجل أعجمي؟ لا يقول هذا من له أدنى مسكة من العقل.

قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة^(٢): كان رسول الله ﷺ فيما بلغني - كثيراً ما يجلس عند المروءة إلى مبيعة غلام نصراني يقال له جبر، عبد لبعض بنى الحضرمي، فأنزل الله «ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين» وكذا قال عبد الله بن كثير، وعن عكرمة وقتادة: كان اسمه يعيش.

وقال ابن جرير^(٣): حدثني أحمد بن محمد الطوسي، حدثنا أبو عامر، حدثنا إبراهيم بن طهمان عن مسلم بن عبد الله الملائي، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يعلم قيناً بمكة، وكان اسمه بلعام، وكان أعجمي اللسان، وكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده، فقالوا: إنما يعلمه بلعام، فأنزل الله هذه الآية «ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين».

وقال الضحاك بن مزاحم: هو سلمان الفارسي، وهذا القول ضعيف، لأن هذه الآية مكية،

(١) انظر تفسير الطبرى / ٧٦٤٧ .

(٢) سيرة ابن هشام / ١ / ٣٩٣ .

(٣) تفسير الطبرى / ٧٦٤٨ .

وسلمان إنما أسلم بالمدينة، وقال عبيد الله بن مسلم: كان لنا غلامان روميان يقرآن كتاباً لهما بلسانهما فكان النبي ﷺ يمر بهما فيقوم فيسمع منهما، فقال المشركون: يتعلم منها، فائزلا الله هذه الآية^(١). وقال الزهري عن سعيد بن المسيب: الذي قال ذلك من المشركين رجل كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ فارتدى بعد ذلك عن الإسلام وافتوى هذه المقالة، قبحه الله .

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِقَاتِلَتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذَبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِقَاتِلَتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ۝

يخبر تعالى أنه لا يهدي من أعرض عن ذكره وتغافل عما أنزله على رسوله ﷺ ولم يكن له قصد إلى الإيمان بما جاء من عند الله، فهذا الجنس من الناس لا يهدىهم الله إلى الإيمان بآياته وما أرسل به رسلاً في الدنيا، ولهم عذاب أليم موجع في الآخرة، ثم أخبر تعالى أن رسوله ﷺ ليس بمفتر ولا كذاب، لأن إِنما يفتري الكذب على الله وعلى رسوله ﷺ شرار الخلق، «الذين لا يؤمنون بآيات الله» [النحل: ١٠٥] من الكفارة والملحدين المعروفين بالكذب عند الناس، والرسول محمد ﷺ كان أصدق الناس وأبرهم وأكملهم علمًا وعملاً وإيماناً وإيقاناً، معروفاً بالصدق في قوله، لا يشك في ذلك أحد منهم بحيث لا يدعى بينهم إلا بالأمين محمد ﷺ، ولهذا لما سأله هرقل ملك الروم أبا سفيان عن تلك المسائل التي سألها من صفة رسول الله ﷺ كان فيما قال له: هل كتمت تهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا ، فقال هرقل: فما كان ليدع الكذب على الناس ويذهب فيكذب على الله عز وجل.

مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْثَرَهُ وَقْلَبَهُ مُطْهَمِنْ بِإِلَيْمَنِ وَلِكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدَرَ أَفْعَلَتِهِمْ غَضَبٌ مِنْ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَسْتَحْبُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ۝ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمَعَهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَنِيَّوْنَ ۝ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُوْنَ ۝

أخبر تعالى عنمن كفر به بعد الإيمان والتبرير، وشرح صدره بالكفر واطمأن به، أنه قد غضب عليه لعلمهم بالإيمان ثم عدولهم عنه، وأن لهم عذاباً عظيماً في الدار الآخرة، لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، فأقدموا على ما أقدموا عليه من الردة لأجل الدنيا، ولم يهد الله قلوبهم وبثت لهم على الدين الحق، فطبع على قلوبهم، فهم لا يعقلون بها شيئاً ينفعهم، وختم على سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بها، ولا أغنت عنهم شيئاً فهم غافلون عما يراد

بهم، ﴿لَا جُرْم﴾ أي لا بد ولا عجب أن من هذه صفتة ﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي الذين خسروا أنفسهم وأهلיהם يوم القيمة - وأما قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقُلْبُهُ مُطْمَئِنٌ بِالْإِيمَانِ﴾ فهو استثناءٌ ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرهاً لما ناله من ضرب وأذى، وقلبه يأبى ما يقول، وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله.

وقد روى العوفي عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ، فوافقهم على ذلك مكرهاً، وجاء معتذراً إلى النبي ﷺ، فأنزل الله هذه الآية. وهكذا قال الشعبي وقتادة وأبو مالك.

وقال ابن جرير^(١): حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن عبد الكريم الجزارى، عن أبي عبيدة محمد بن عمار بن ياسر قال: أخذ المشركون عمار بن ياسر فعدبوه حتى قاربهم في بعض ما أرادوا فشكوا ذلك إلى النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «كيف تجد قلبك؟» قال: مطمئناً بالإيمان. قال النبي ﷺ: «إن عادوا فعد». .

ورواه البيهقي بأبسط من ذلك، وفيه أنه سب النبي ﷺ، وذكر آهاتهم بخير، فشكوا ذلك النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ما تركت حتى سببتك وذكرت آهاتهم بخير، قال: «كيف تجد قلبك؟» قال: مطمئناً بالإيمان، فقال «إن عادوا فعد»، وفي ذلك أنزل الله ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقُلْبُهُ مُطْمَئِنٌ بِالْإِيمَانِ﴾ ولهذا اتفق العلماء على أن المكره على الكفر يجوز له أن يوالى إبقاء لمهجته، ويجوز له أن يأبى كما كان بلا رضى الله عنه يأبى عليهم ذلك وهم يفعلون به الأفعال، حتى إنهم ليبطعوا الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر، ويأمرونه بالشرك بالله فيأبى عليهم، وهو يقول: أحد، أحد. ويقول: والله لو أعلم كلمة هي أغliest لكم منها لقتلتها، رضي الله عنه وأرضاه. وكذلك حبيب بن زيد الأنصاري لما قال له مسيلمة الكذاب: أشهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول: نعم. فيقول: أشهد أنني رسول الله؟ فيقول: لا أسمع. فلم يزل يقطنه إرياً وهو ثابت على ذلك.

وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا إسماعيل، حدثنا أبوب عن عكرمة أن علياً رضي الله عنه حرق ناساً ارتدوا عن الإسلام، فبلغ ذلك ابن عباس فقال: لم أكن لأحرقهم بالنار، إن رسول الله ﷺ قال: «لا تعذبوا بعذاب الله» وكنت أقاتلهم بقول رسول الله ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه» فبلغ ذلك علياً فقال: وبح أبا عباس، رواه البخاري^(٣).

(١) تفسير الطبرى ٦٥١/٧.

(٢) المسند ٢١٧/١.

(٣) كتاب الاستتابة باب ٢.

وقال الإمام أحمد^(١) أيضاً: حدثنا عبد الرزاق، أئبنا معاذ عن أيوب عن حميد بن هلال العدوى، عن أبي بردة قال: قدم على أبي موسى معاذ بن جبل باليمن، فإذا رجل عنده، قال: ما هذا؟ قال: رجل كان يهودياً فأسلم، ثم تهود ونحن نريده على الإسلام منذ قال أحسيبه شهرين، فقال: والله لا أقعد حتى تضرموا عنقه، فضربوا عنقه، فقال: قضى الله ورسوله أن من رجع عن دينه فاقتلوه أو قال: «من بدل دينه فاقتلوه» وهذه القصة في الصحيحين بلفظ آخر.

والأفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه ولو أفضى إلى قتله، كما ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن حداقة السهمي أحد الصحابة أنه أسرته الروم، فجاؤوا به إلى ملتهم فقال له: تنصر وأنا أشركك في ملكي وأزوجك ابتي، فقال له: لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب على أن أرجع عن دين محمد ﷺ طرفة عين ما فعلت، فقال: إذاً أقتلك، فقال: أنت وذاك، قال: فأمر به فصلب، وأمر الرماة فرموه قريباً من يديه ورجليه وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى، ثم أمر به فأنزل، ثم أمر بقدر، وفي رواية بيقرة من نحاس فأحميتك.

وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر، فإذا هو عظام تلوح، وعرض عليه فأبى، فأمر به أن يلقى فيها، فرفع في البكرة ليلقى فيها، فبكى فطماع فيه ودعاه، فقال: إنني إنما بكت لأن نفسي إنما هي نفس واحدة تلقى في هذه القدر الساعة في الله، فأحببت أن يكون لي بعد كل شعرة في جسدي نفس تعذب هذا العذاب في الله. وفي بعض الروايات أنه سجنه ومنع منه الطعام والشراب أيامًا، ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير فلم يقربه، ثم استدعاه فقال: ما منعك أن تأكل؟ فقال: أما إنه قد حل لي، ولكن لم أكن لأشمتك بي، فقال له الملك: قبل رأسى وأنا أطلقك، فقال: وتطلق معى جميع أسرى المسلمين؟ قال: نعم، فقبل رأسه فأطلقه وأطلق معه جميع أسرى المسلمين عنده، فلما رجع قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حداقة، وأنا أبدأ، فقام فقبل رأسه رضي الله عنهم.

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتُنَّا شَمَّ جَهَنَّمْ وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجْنَدُ عَنْ نَفْسِهَا وَتَوَقَّعُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُنَّ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢﴾

هؤلاء صنف آخر كانوا مستضعفين بمكة مهانين في قومهم فوافقوهم على الفتنة، ثم إنهم أمكنهم الخلاص بالهجرة فتركوا بلادهم وأهليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه، وانتظموا في سلك المؤمنين، وجاهدوا معهم الكافرين، وصبروا، فأخبر تعالى أنه من بعدها، أي تلك الفعلة وهي الإجابة إلى الفتنة لغفور لهم رحيم بهم يوم معادهم **﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ**

تجادل﴿ أي تحاج ﴿عن نفسها﴾ ليس أحد يحاج عنها لا أب ولا ابن ولا أخ ولا زوجة ﴿وتوفي كل نفس ما عملت﴾ أي من خير وشر ﴿وهم لا يظلمون﴾ أي لا ينقص من ثواب الخير، ولا يزداد على ثواب الشر، ولا يظلمون نقيراً.

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا فِرْيَةً كَانَتْ إِمَانَةً مُطْمِنَةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغْدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنَّعْمَانِ اللَّهَ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مَّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخْذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَلَمُونَ

هذا مثل أريد به أهل مكة، فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة يتخطف الناس من حولها، ومن دخلها كان آمناً لا يخاف، كما قال تعالى: «وقالوا إن تبع الهدى معك تتخطف من أرضنا أو لم نمكّن لهم حرماً آمناً يجيء إليهم ثمرات كل شيء رزقاً من لدننا» [القصص: ٥٧]، وهكذا قال هنا: «يأتيها رزقها رغداً» أي هنّيأ سهلاً «من كل مكان فكفرت بأنعم الله» أي جحدت آلاء الله عليها وأعظمها بعثة محمد ﷺ إليهم، كما قال تعالى: «ألم تر إلى الذين بدلو نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبشّن القرار» [إبراهيم: ٢٨ - ٢٩] ولهذا بدلهم الله بحالיהם الأولين خلافهما، فقال: «فأذاقها الله لباس الجوع والخوف» أي ألبسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يجيء إليهم ثمرات كل شيء، ويأتيها رزقها رغداً من كل مكان، وذلك لما استعصوا على رسول الله ﷺ وأبوا إلا خلافه فدعوا عليهم بسبع كسبع يوسف، فأصابتهم ستة أذابات كل شيء لهم، فأكلوا العلّوز وهو وبر البعير يخلط بدمه إذا نحره.

وقوله: «والخوف» وذلك أنهم بدلو بأمنهم خوفاً من رسول الله ﷺ وأصحابه حين هاجروا إلى المدينة من سطوه وسرايته وجيشه، وجعل كل ما لهم في دمار وسفال حتى فتحها الله على رسوله ﷺ وذلك بسبب صنيعهم وبغائهم وتکذيبهم الرسول ﷺ الذي بعثه الله فيهم، وامتن به عليهم في قوله: «لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم» [آل عمرن: ١٦٤] الآية. قوله تعالى: «فاقتوا الله يا أولى الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكرأ رسولأ» [الطلاق: ١] الآية، وقوله: «كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلّمكم الكتاب والحكمة» - إلى قوله - «ولا تكفرون» [البقرة: ١٥١ - ١٥٢] وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم فخافوا بعد الأمان، وجاءوا بعد الرغد، فبدل الله المؤمنين من بعد خوفهم أمناً، ورزقهم بعد العيلة، وجعلهم أمراء الناس وحكامهم وسادتهم وقادتهم وأئمتهم، وهذا الذي قلناه من أن هذا المثل ضرب لأهل مكة قاله العوفي عن ابن عباس، وإليه ذهب مجاهد وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وحكاه مالك عن الزهرى رحمهم الله.

وقال ابن جرير^(١): حديثي ابن عبد الرحيم البرقي، حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا نافع بن يزيد، حدثنا عبد الرحمن بن شريح أن عبد الكريما بن الحارث الحضرمي حدثه أنه سمع مشرح بن هاعان يقول: سمعت سليم بن عتر يقول: صدرنا من العج مع حفصة زوج النبي ﷺ وعثمان رضي الله عنه محصور بالمدينة، فكانت تسأل عنه ما فعل؟ حتى رأت راكبين فأرسلت إليهما تسألهما فقالا: قتل، فقالت حفصة: والذي نفسي بيده إنها القرية - تعني المدينة - التي قال الله تعالى: «وَضَرَبَ اللَّهُ مِثْلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مَطْمَئِنَةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغْدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرُوا بِأَنَّمَعَ اللَّهَ» قال ابن شريح: وأخبرني عبيد الله بن المغيرة عن حديثه أنه كان يقول إنها المدينة.

فَلَكُوا مِنَارَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيْبًا وَأَشْكُرُوا لِعْنَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ إِنَّمَا حَرَمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنِزِيرِ وَمَا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ أَصْطَرَ عَنْ رَبَّهُ أَعْبَدَهُ وَلَا عَادَ فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصْفُ أَسْتِكْمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ مَتَعْ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بأكل رزقه الحال الطيب وبشكره على ذلك فإنه المنعم المتفضل به ابتداء الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له، ثم ذكر تعالى ما حرمه عليهم مما فيه مضره لهم في دينهم ودنياهم من الميتة والدم ولحم الخنزير (وما أهل لغير الله به) أي ذبح على غير اسم الله، ومع هذا (فمن اضطر) إليه أي احتاج من غير بغي ولا عدوان (فإن الله غفور رحيم). وقد تقدم الكلام على مثل هذه الآية في سورة البقرة بما فيه كفاية عن إعادته، والله الحمد.

ثم نهى تعالى عن سلوك سبيل المشركين الذين حلوا وحرموا بمجرد ما وصفوه واصطلحوا عليه من الأسماء بآرائهم من البحيرة والسايبة والوصيلة والعام وغير ذلك، مما كان شرعاً لهم ابتدعوه في جاهليتهم، فقال: «وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصْفُ أَسْتِكْمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وهذا حرام لتفتروا على الله الکذب» ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعياً، أو حلل شيئاً مما حرم الله، أو حرم شيئاً مما أباح الله بمجرد رأيه وتشهيده، وما في قوله: «لِمَا تَصْفُ» مصدرية، أي ولا تقولوا الکذب لوصف أستكم، ثم توعد على ذلك فقال: «إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ» أي في الدنيا ولا في الآخرة، أما في الدنيا فمتاع قليل، وأما في الآخرة فالهم عذاب أليم، كما قال: «نَمْتَعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِظٍ» [لقمان: ٢٤] وقال «إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ» [يونس: ٦٩ - ٧٠].

وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمَنَا مَا فَصَصْنَا عَلَيْكُمْ مِنْ قَبْلٍ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكُنْ كَافِرًا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ إِنَّ شَرَّ إِنْ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشَّوَّاءَ بِجَهَلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ
رَّحِيمٌ

لما ذكر تعالى أنه إنما حرم علينا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به وإنما أرخص فيه عند الضرورة - وفي ذلك توسيعة لهذه الأمة التي يريد الله بها اليسرى ولا يريد بها العسرى - ذكر سبحانه وتعالى ما كان حرم على اليهود في شريعتهم قبل أن ينسخها، وما كانوا فيه من الآصار والتضيق والأغلال والحرج، فقال: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمَنَا مَا فَصَصْنَا عَلَيْكُمْ مِنْ قَبْلٍ﴾ أي في سورة الأنعام في قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمَنَا كُلُّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَمَنَا عَلَيْهِمْ شَحْوَمَهُمَا إِلَّا مَاحْمِلْتُ ظَهُورَهُمَا﴾ - إلى قوله - ﴿لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

ولهذا قال ههنا: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ أي فيما ضيقنا عليهم ﴿وَإِنَّ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي فاستحقوا ذلك، كقوله: ﴿فَبُظُلمُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمَنَا عَلَيْهِمْ طَبِيعَاتٍ أَحْلَتْ لَهُمْ وِبَصَدِهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠] ثم أخبر تعالى تكرماً وامتناناً في حق العصاة المؤمنين أن من تاب منهم إليه تاب عليه، فقال: ﴿ثُمَّ إِنْ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السَّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاحد ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ أي أفلعوا بما كانوا فيه من المعاصي وأقبلوا على فعل الطاعات ﴿إِنْ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي تلك الفعلة والزلة ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً فَانِتَّ لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاهِدًا كَرَّا لِأَنَّعُمَّهُ أَجْبَنَهُ وَهَدَنَهُ إِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ وَإِنَّهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنٌ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ أَتَيَعْ مِلَةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

يمدح تعالى عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء ووالد الأنبياء، وبيره من المشركين ومن اليهودية والنصرانية، فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَاتَنَّا لَهُ حَيْفَا﴾ فأما الأمة: فهو الإمام الذي يقتدى به، والقانت: هو الخاشع المطيع، والحنيف: المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد، ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ قال سفيان الثوري عن سلمة بن كهيل، عن مسلم البطين عن أبي العبيدين: أنه سأله عبد الله بن مسعود عن الأمة القانت، فقال: الأمة معلم الخير، والقانت: المطيع لله ورسوله، وعن مالك قال: قال ابن عمر: الأمة الذي يعلم الناس دينهم، وقال الأعمش عن يحيى بن الجزار عن أبي العبيدين أنه جاء إلى عبد الله فقال: من نسأل إذا لم نسألك؟ فكان ابن مسعود رق له، فقال: أخبرني عن الأمة، فقال: الذي يعلم الناس الخير.

وقال الشعبي: حدثني فروة بن نوفل الأشجعي قال: قال ابن مسعود: إن معاداً كان أمة قانتاً لله حنيفاً، فقلت في نفسي: غلط أبو عبد الرحمن، وقال إنما قال الله: «إن إبراهيم كان أمة» فقال: أتدري ما الأمة وما القانت؟ قلت: الله أعلم، فقال: الأمة الذي يعلم الخير، والقانت المطيع لله رسوله، وكذلك كان معاد. وقد روی من غير وجه عن ابن مسعود، أخرجه ابن جریر^(١).

وقال مجاهد: أمة أي أمة وحده، والقانت المطيع وقال مجاهد أيضاً: كان إبراهيم أمة أي مؤمناً وحده والناس كلهم إذ ذاك كفار. وقال قتادة: كان إمام هدى، والقانت المطيع لله. قوله: «شاكرًا لأنعمه» أي قائمًا بشكر نعم الله عليه، كقوله تعالى: « وإبراهيم الذي وفي» [النجم: ٢٧] أي قام بجميع ما أمره الله تعالى به.

وقوله: «اجتباه» أي اختاره واصطفاه كقوله: «ولقد آتينا إبراهيم رشه من قبل وكنا به عالمين» [الأنبياء: ٥١]، ثم قال: «وهداه إلى صراط مستقيم» وهو عبادة الله وحده لا شريك له على شرع مرضي. قوله: «وآتيناه في الدنيا حسنة» أي جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه في إكمال حياته الطيبة «وإنه في الآخرة لمن الصالحين». وقال مجاهد في قوله: «وآتيناه في الدنيا حسنة» أي لسان صدق.

وقوله: «ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً» أي ومن كماله وعظمته وصحة توحيده وطريقه، أنا أوحينا إليك يا خاتم الرسل وسيد الأنبياء «أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين» كقوله في الأنعام: «قل إبني هداني ربى إلى صراط مستقيم ديننا قياماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين» [الأنعام: ١٦١] ثم قال تعالى منكراً على اليهود.

إِنَّمَا جَعَلَ السَّبْتَ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ فَلَئِنْ رَأَيْكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَإِنَّمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ

لا شك أن الله تعالى شرع في كل ملة يوماً من الأسبوع يجتمع الناس فيه للعبادة فشرع تعالى لهذه الأمة يوم الجمعة لأنه اليوم السادس الذي أكمل الله فيه الخلقة واجتمعت فيه وتمنت النعمة على عباده، ويقال: إن الله تعالى شرع ذلك لبني إسرائيل على لسان موسى فعدلوا عنه، واختاروا السبت لأنه اليوم الذي لم يخلق فيه الله شيئاً من المخلوقات الذي كمل خلقها يوم الجمعة فألزمهم تعالى به في شريعة التوراة، ووصاهم أن يتمسكوا به وأن يحافظوا عليه مع أمره إياهم بمتابعة محمد ﷺ إذا بعثه وأخذوه مواثيقهم وعهودهم على ذلك، ولهذا قال تعالى: «إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه» قال مجاهد: اتبعوه وتركوا الجمعة^(٢).

(١) تفسير الطبرى ٦٦٠/٧.

(٢) انظر تفسير الطبرى ٦٦٢/٧.

ثم إنهم لم يزالوا متمسكون به حتى بعث الله عيسى ابن مريم، فيقال: إنه حولهم إلى يوم الأحد، ويقال إنه لم يترك شريعة التوراة إلا ما نسخ من بعض أحكامها، وإنه لم يزل محافظاً على السبت حتى رفع، وإن النصارى بعده في زمن قسطنطين هم الذين تحولوا إلى يوم الأحد مخالفة لليهود، وتحولوا إلى الصلاة شرقاً عن الصخرة، والله أعلم.

وقد ثبت في الصحيحين من حديث عبد الرزاق عن معمراً عن همام عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ قال: «نحن الآخرون السابعون يوم القيمة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلقو فيه، فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع: اليهود غداً والنصارى بعد غد»^(١) لفظ البخاري.

وعن أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما قالاً: قال رسول الله ﷺ: «أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة، فجعل الجمعة والسبت والأحد، وكذلك هم تبع لنا يوم القيمة نحن الآخرون من أهل الدنيا، والأولون يوم القيمة، والمفضى بينهم قبل الخلاص»^(٢) رواه مسلم.

أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِيلَهُمْ بِالْقَيْمَنِ
ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهَمَّاتِينَ

يقول تعالى أمراً رسوله محمداً ﷺ أن يدعو الخلق إلى الله بالحكمة. قال ابن جرير^(٣): وهو ما أنزله عليه من الكتاب والسنة (والموعظة الحسنة)، أي بما فيه من الزواجر والواقع بالناس، ذكرهم بها ليحذرها بأس الله تعالى، وقوله: (وجادلهم بالتي هي أحسن) أي من احتاج منهم إلى مناظرة وجداً فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب، كقوله تعالى: (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم) [العنكبوت: ٤٦] الآية، فأمره تعالى بلين الجانب كما أمر به موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون في قوله: (فقولا له قولًا ليناً لعله يتذكر أو يخشى) [طه: ٤٤].

وقوله: (إن ربكم هو أعلم بمن ضل عن سبيله) الآية، أي قد علم الشقي منهم والسعيد، وكتب ذلك عنده وفرغ منه، فادعهم إلى الله ولا تذهب نفسك على من ضل منهم حسرات، فإنه ليس عليك هداهم إنما أنت نذير عليك البلاغ وعلينا الحساب (إنك لا تهدي من أحببت) [القصص: ٥٦]، (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء) [البقرة: ٢٧٢].

(١) أخرجه البخاري في الأيمان باب ١ ، ومسلم في الجمعة حديث ١٩ ، ٢١ .

(٢) أخرجه مسلم في الجمعة حديث ٢٢ .

(٣) تفسير الطبرى ٦٦٣ / ٧ .

وَإِنْ عَاقِبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَوَقْبَتُمْ بِهِ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٣﴾ وَاصْبِرْ وَمَا
صَبَرْكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْرَنَ عَلَيْهِمْ وَلَا تَلُكُ فِي ضَيْقٍ مَّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُذْكَرِينَ أَتَقَوْا
وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٥﴾

يأمر تعالى بالعدل في القصاص والمماطلة في استيفاء الحق، كما قال عبد الرزاق عن الشوري عن خالد، عن ابن سيرين أنه قال في قوله تعالى: «فَعاقبُوا بِمِثْلِ مَا عَوَقْبَتُمْ بِهِ» إن أخذ منكم رجل شيئاً فخذداً مثلاً، وكذا قال مجاهد وإبراهيم والحسن البصري وغيرهم واختاره ابن جرير. وقال ابن زيد: كانوا قد أمرموا بالصفح عن المشركين فأسلم رجال ذوو منعة فقالوا: يا رسول الله لو أذن الله لنا لا ننصرنا من هؤلاء الكلاب. فنزلت هذه الآية، ثم نسخ ذلك بالجهاد.

وقال محمد بن إسحاق عن بعض أصحابه عن عطاء بن يسار قال: نزلت سورة النحل كلها بمكة، وهي مكية إلا ثلاثة آيات من آخرها نزلت بالمدينة بعد أحد حين قتل حمزة رضي الله عنه ومثل به، فقال رسول الله ﷺ: «الثُّنُونُ أَظْهَرَنِي اللَّهُ عَلَيْهِمْ لِأَمْثَلِنَ ثَلَاثَيْنَ رِجَالًا مِّنْهُمْ» فلما سمع المسلمون ذلك قالوا: والله لئن ظهرنا عليهم لائهم مثلثاً بثلاثين رجالاً منهم يا أحد قط، فأنزل الله ﷺ «وَإِنْ عَاقِبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَوَقْبَتُمْ بِهِ» إلى آخر السورة، وهذا مرسى وفيه رجل منهم لم يسم.

وقد روی هذا من وجه آخر متصل، فقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا الحسن بن يحيى، حدثنا عمرو بن العاصم، حدثنا صالح المري عن سليمان التيمي عن أبي عثمان، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ وقف على حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه حين استشهد، فنظر إلى منظر لم ينظر إلى منظر أوجع للقلب منه، أو قال لقلبه، فنظر إليه وقد مثل به، فقال: «رحمة الله عليك إن كنت ما علمتك إلا وصولاً للرحم، فعلاً للخيرات، والله لو لا حزن من بعدك عليك لسرني أن تركك حتى يحشرك الله من بطون السباع - أو كلمة نحوها - أما والله على ذلك لأمثلين بسبعين كمثلك».

فنزل جبريل عليه السلام على محمد ﷺ بهذه السورة وقرأ «وَإِنْ عَاقِبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَوَقْبَتُمْ بِهِ» إلى آخر الآية، فكفر رسول الله ﷺ يعني عن يمينه وأمسك عن ذلك، وهذا إسناد فيه ضعف، لأن صالح هو ابن بشير المري ضعيف عند الأئمة، وقال البخاري: هو منكر الحديث، وقال الشعبي وابن جريج: نزلت في قول المسلمين يوم أحد فيمن مثل بهم لائهم بهم فأنزل الله فيهم ذلك.

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد في مسند أبيه: حدثنا هدية بن عبد الوهاب المروزي، حدثنا الفضل بن موسى، حدثنا عيسى بن عبيد عن الربيع بن أنس عن أبي العالية، عن أبي بن كعب

قال: لما كان يوم أحد قتل من الأنصار ستون رجلاً، ومن المهاجرين ستة، فقال أصحاب رسول الله ﷺ : لئن كان لنا يوم مثل هذا من المشركين لنربّي عليهم، فلما كان يوم الفتح قال رجل: لا تعرف قريش بعد اليوم، فنادى مناد: إن رسول الله ﷺ قد أمن الأسود والأبيض إلا فلاناً وفلاناً - ناساً سماهم - فأنزل الله تبارك وتعالى ﴿وَإِنْ عَاقِبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَوْقَبْتُمْ بِهِ﴾ إلى آخر السورة، فقال رسول الله ﷺ : «نصير ولا نعاقب»^(١).

وهذه الآية الكريمة لها أمثال في القرآن، فإنها مشتملة على مشروعية العدل والتدب إلى الفضل كما في قوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَاتِهِ مِثْلُهَا﴾ ثم قال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأُجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠] الآية. وقال: ﴿وَالجَرُوحُ قَصَاصٌ﴾ ثم قال ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كُفَّارٌ لَهُ﴾ [المائدة: ٤٥] وقال في هذه الآية: ﴿وَإِنْ عَاقِبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَوْقَبْتُمْ بِهِ﴾ ثم قال ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبَرْكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ تأكيد للأمر بالصبر وإخبار بأن ذلك لا ينال إلا بمشيئة الله وإعانته، وحوله وقوته، ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزُنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي على من خالفك فإن الله قادر ذلك ﴿وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ﴾ أي غم ﴿مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي مما يجهدون أنفسهم في عداوتك وإيصال الشر إليك، فإن الله كافيك وناصرك ومؤيدك ومظهرك ومظفرك بهم.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقُوا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ أي معهم بتأييده ونصره ومعونته وهديه وسعيه وهذه معية خاصة كقوله: ﴿إِذَا يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُمَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢] وقوله لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعْ وَأَرِي﴾ [طه: ٤٦] وقول النبي ﷺ للصديق وما في الغار: ﴿لَا تَحْزُنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبه: ٤٠] وأما المعية العامة فالسمع والبصر والعلم، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤] وكقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٌ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٌ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧] وكما قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كَنَا عَلَيْكُمْ شَهِودًا﴾ [يونس: ٦١] الآية، ومعنى ﴿الَّذِينَ اتَّقُوا﴾ أي تركوا المحرمات، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ أي فعلوا الطاعات، فهو لاء الله يحفظهم ويكلؤهم وينصرهم ويؤيدهم ويظفرهم على أعدائهم ومخالفتهم، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن بشار، حدثنا أبو أحمد الزبيري، حدثنا مسعود عن عون عن محمد بن حاطب: كان عثمان رضي الله عنه من الذين اتقوا والذين هم محسنو.

آخر تفسير سورة النحل، والله الحمد والمنة وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

فهرس المحتويات
سورة الأنفال

| | |
|----|----------------------------|
| ٣ | الآية: ١ |
| ٩ | الآيات: ٢ - ٤ |
| ١١ | الآيات: ٤ - ٥ |
| ١٦ | الآيات: ٥ - ٩ |
| ١٩ | الآيات: ٩ - ١٤ |
| ٢٣ | الآيات: ١٤ - ١٥ و ١٦ |
| ٢٦ | الآيات: ١٦ - ١٧ و ١٨ |
| ٢٨ | الآية: ١٩ |
| ٢٩ | الآيات: ١٩ - ٢٠ و ٢٣ |
| ٣٠ | الآية: ٢٤ |
| ٣٢ | الآية: ٢٥ |
| ٣٥ | الآيات: ٢٦ - ٢٨ و ٢٩ |
| ٣٧ | الآية: ٢٩ |
| ٣٨ | الآية: ٣٠ |
| ٤١ | الآيات: ٣١ - ٣٣ |
| ٤٤ | الآيات: ٣٤ و ٣٥ |
| ٤٧ | الآيات: ٣٦ و ٣٧ |
| ٤٨ | الآيات: ٣٨ - ٤٠ |
| ٥٢ | الآية: ٤١ |
| ٥٨ | الآية: ٤٢ |

| | |
|----|-------------------|
| ٦١ | الآياتان: ٤٣ و ٤٤ |
| ٦٢ | الآياتان: ٤٥ و ٤٦ |
| ٦٣ | الآيات: ٤٧ - ٤٩ |
| ٦٧ | الآياتان: ٥٠ و ٥١ |
| ٦٨ | الآلية: ٥٢ |
| ٦٩ | الآيات: ٥٣ - ٥٨ |
| ٧٠ | الآياتان: ٥٩ و ٦٠ |
| ٧٣ | الآيات: ٦١ - ٦٣ |
| ٧٦ | الآيات: ٦٤ - ٦٦ |
| ٧٧ | الآيات: ٦٧ - ٦٩ |
| ٨٠ | الآياتان: ٧٠ و ٧١ |
| ٨٤ | الآلية: ٧٢ |
| ٨٦ | الآلية: ٧٣ |
| ٨٧ | الآياتان: ٧٤ و ٧٥ |

سورة التوبة

| | |
|-----|-------------------|
| ٨٩ | الآياتان: ١ و ٢ |
| ٩١ | الآلية: ٣ |
| ٩٧ | الآياتان: ٤ و ٥ |
| ١٠٠ | الآلية: ٦ |
| ١٠١ | الآياتان: ٧ و ٨ |
| ١٠٢ | الآيات: ٩ - ١٢ |
| ١٠٣ | الآيات: ١٣ - ١٥ |
| ١٠٤ | الآلية: ١٦ |
| ١٠٥ | الآياتان: ١٧ و ١٨ |
| ١٠٦ | الآيات: ١٩ - ٢٢ |
| ١٠٨ | الآياتان: ٢٣ و ٢٤ |

| | |
|-----------|-------------------|
| ١١٠ | الآيات: ٢٥ - ٢٧ |
| ١١٥ | الآياتان: ٢٨ و ٢٩ |
| ١١٨ | الآياتان: ٣٠ و ٣١ |
| ١١٩ | الآياتان: ٣٢ و ٣٣ |
| ١٢١ | الآياتان: ٣٤ و ٣٥ |
| ١٢٧ | الآلية: ٣٦ |
| ١٣٢ | الآلية: ٣٧ |
| ١٣٥ | الآياتان: ٣٨ و ٣٩ |
| ١٣٦ | الآلية: ٤٠ |
| ١٣٧ | الآلية: ٤١ |
| ١٣٩ | الآيات: ٤٢ - ٤٥ |
| ١٤٠ | الآياتان: ٤٦ و ٤٧ |
| ١٤١ | الآياتان: ٤٨ و ٤٩ |
| ١٤٢ | الآيات: ٥٤ - ٥٠ |
| ١٤٣ | الآيات: ٥٧ - ٥٥ |
| ١٤٤ | الآياتان: ٥٨ و ٥٩ |
| ١٤٥ | الآلية: ٦٠ |
| ١٤٩ | الآيات: ٦١ - ٦٣ |
| ١٥٠ | الآيات: ٦٤ - ٦٦ |
| ١٥٢ | الآيات: ٦٧ - ٦٩ |
| ١٥٣ | الآياتان: ٧٠ و ٧١ |
| ١٥٤ | الآلية: ٧٢ |
| ١٥٧ | الآياتان: ٧٣ و ٧٤ |
| ١٦١ | الآيات: ٧٥ - ٧٨ |
| ١٦٣ | الآلية: ٧٩ |
| ١٦٥ | الآلية: ٨٠ |

| | |
|-----------|--------------------|
| ١٧٦ | الآياتان: ٨١ و ٨٢ |
| ١٧٩ | الآياتان: ٨٣ و ٨٤ |
| ١٧٢ | الآيات: ٨٥ - ٨٧ |
| ١٧٣ | الآيات: ٨٨ - ٩٠ |
| ١٧٤ | الآيات: ٩١ - ٩٣ |
| ١٧٦ | الآيات: ٩٤ - ٩٩ |
| ١٧٧ | الآية: ١٠٠ |
| ١٧٨ | الآية: ١٠١ |
| ١٨٠ | الآية: ١٠٢ |
| ١٨١ | الآيتان: ١٠٣ و ١٠٤ |
| ١٨٣ | الآية: ١٠٥ |
| ١٨٤ | الآيات: ١٠٦ - ١٠٨ |
| ١٩٠ | الآيتان: ١٠٩ و ١١٠ |
| ١٩١ | الآيتان: ١١١ و ١١٢ |
| ١٩٣ | الآيتان: ١١٣ و ١١٤ |
| ١٩٨ | الآيتان: ١١٥ و ١١٦ |
| ١٩٩ | الآية: ١١٧ |
| ٢٠٠ | الآيتان: ١١٨ و ١١٩ |
| ٢٠٥ | الآيتان: ١٢٠ و ١٢١ |
| ٢٠٦ | الآية: ١٢٢ |
| ٢٠٨ | الآية: ١٢٣ |
| ٢٠٩ | الآيتان: ١٢٤ و ١٢٥ |
| ٢١٠ | الآيتان: ١٢٦ و ١٢٧ |
| ٢١١ | الآيتان: ١٢٨ و ١٢٩ |
| سورة يونس | |
| ٢١٥ | الآيتان: ١ و ٢ |

| | | |
|-----|-------|-------------------|
| ٢١٦ | | الآية: ٣ |
| ٢١٧ | | الآيات: ٤ - ٦ |
| ٢١٨ | | الآيات: ٧ - ١٠ |
| ٢٢٠ | | الآياتان: ١١ و ١٢ |
| ٢٢١ | | الآيات: ١٣ - ١٦ |
| ٢٢٢ | | الآية: ١٧ |
| ٢٢٤ | | الآياتان: ١٨ و ١٩ |
| ٢٢٥ | | الآية: ٢٠ |
| ٢٢٦ | | الآيات: ٢١ |
| ٢٢٧ | | الآياتان: ٢٤ و ٢٥ |
| ٢٢٩ | | الآية: ٢٦ |
| ٢٣٠ | | الآية: ٢٧ |
| ٢٣١ | | الآيات: ٢٨ - ٣٠ |
| ٢٣٢ | | الآيات: ٣١ - ٣٣ |
| ٢٣٣ | | الآيات: ٣٤ - ٣٦ |
| ٢٣٤ | | الآيات: ٣٧ - ٤٠ |
| ٢٣٥ | | الآيات: ٤١ - ٤٤ |
| ٢٣٦ | | الآية: ٤٥ |
| ٢٣٧ | | الآياتان: ٤٦ و ٤٧ |
| ٢٣٨ | | الآيات: ٤٨ - ٥٤ |
| ٢٣٩ | | الآيات: ٥٥ - ٦٠ |
| ٢٤١ | | الآية: ٦١ |
| ٢٤٢ | | الآيات: ٦٢ - ٦٤ |
| ٢٤٥ | | الآيات: ٦٥ - ٦٧ |
| ٢٤٦ | | الآيات: ٦٨ - ٧٣ |
| ٢٤٧ | | الآية: ٧٤ |

| | |
|-----------|-------------------|
| ٢٤٨ | الآيات: ٧٦ - ٧٨ |
| ٢٤٩ | الآيات: ٧٩ - ٨٢ |
| ٢٥٠ | الآية: ٨٣ |
| ٢٥١ | الآيات: ٨٤ - ٨٧ |
| ٢٥٢ | الآيات: ٨٨ و ٨٩ |
| ٢٥٣ | الآيات: ٩٠ - ٩٢ |
| ٢٥٦ | الآية: ٩٣ |
| ٢٥٧ | الآيات: ٩٤ - ٩٧ |
| ٢٥٨ | الآية: ٩٨ |
| ٢٥٩ | الآيات: ٩٩ و ١٠٠ |
| ٢٦٠ | الآيات: ١٠١ - ١٠٧ |
| ٢٦١ | الآيات: ١٠٨ و ١٠٩ |

سورة هود

| | |
|-----------|-----------------|
| ٢٦٢ | الآيات: ١ - ٤ |
| ٢٦٣ | الآية: ٥ |
| ٢٦٤ | الآية: ٦ |
| ٢٦٥ | الآيات: ٧ و ٨ |
| ٢٦٨ | الآيات: ٩ - ١٤ |
| ٢٦٩ | الآيات: ١٥ و ١٦ |
| ٢٧٠ | الآية: ١٧ |
| ٢٧١ | الآيات: ١٨ - ٢٢ |
| ٢٧٣ | الآيات: ٢٣ و ٢٤ |
| ٢٧٤ | الآيات: ٢٥ - ٢٧ |
| ٢٧٥ | الآيات: ٢٨ - ٣١ |
| ٢٧٦ | الآيات: ٣٢ - ٣٩ |
| ٢٧٨ | الآية: ٤٠ |

| | |
|-----|---------------------|
| ٢٧٩ | الآيات: ٤١ - ٤٣ |
| ٢٨٠ | الآلية: ٤٤ |
| ٢٨٢ | الآيات: ٤٥ - ٤٧ |
| ٢٨٣ | الآلية: ٤٨ |
| ٢٨٤ | الآيات: ٤٩ - ٥٢ |
| ٢٨٥ | الآيات: ٥٣ - ٦٠ |
| ٢٨٦ | الآيات: ٦١ - ٦٣ |
| ٢٨٧ | الآيات: ٦٤ - ٧٣ |
| ٢٨٩ | الآيات: ٧٤ - ٧٩ |
| ٢٩١ | الآياتان: ٨٠ و ٨١ |
| ٢٩٣ | الآياتان: ٨٢ و ٨٣ |
| ٢٩٤ | الآلية: ٨٤ |
| ٢٩٥ | الآيات: ٨٥ - ٨٧ |
| ٢٩٦ | الآلية: ٨٨ |
| ٢٩٧ | الآياتان: ٨٩ و ٩٠ |
| ٢٩٨ | الآيات: ٩١ - ٩٥ |
| ٢٩٩ | الآيات: ٩٦ - ١٠١ |
| ٣٠٠ | الآيات: ١٠٢ - ١٠٥ |
| ٣٠١ | الآياتان: ١٠٦ و ١٠٧ |
| ٣٠٢ | الآلية: ١٠٨ |
| ٣٠٣ | الآيات: ١٠٩ - ١١٣ |
| ٣٠٤ | الآياتان: ١١٤ و ١١٥ |
| ٣٠٩ | الآياتان: ١١٦ و ١١٧ |
| ٣١٠ | الآياتان: ١١٨ و ١١٩ |
| ٣١١ | الآيات: ١٢٠ - ١٢٢ |
| ٣١٢ | الآلية: ١٢٣ |

سورة يوسف

| | |
|-----|-----------------|
| ٣١٣ | الآيات: ١ - ٣ |
| ٣١٦ | الآية: ٤ |
| ٣١٧ | الآية: ٥ |
| ٣١٨ | الآيات: ٦ - ١٠ |
| ٣١٩ | الآيات: ١١ و ١٢ |
| ٣٢٠ | الآيات: ١٣ - ١٥ |
| ٣٢١ | الآيات: ١٦ - ١٨ |
| ٣٢٢ | الآيات: ١٩ و ٢٠ |
| ٣٢٤ | الآيات: ٢١ و ٢٢ |
| ٣٢٥ | الآية: ٢٣ |
| ٣٢٦ | الآية: ٢٤ |
| ٣٢٨ | الآيات: ٢٥ - ٢٩ |
| ٣٢٩ | الآيات: ٣٠ - ٣٤ |
| ٣٣١ | الآية: ٣٥ |
| ٣٣٢ | الآية: ٣٦ |
| ٣٣٣ | الآيات: ٣٧ - ٤٠ |
| ٣٣٤ | الآية: ٤١ |
| ٣٣٥ | الآيات: ٤٢ - ٤٩ |
| ٣٣٧ | الآيات: ٥٠ - ٥٣ |
| ٣٣٨ | الآيات: ٥٤ و ٥٥ |
| ٣٣٩ | الآيات: ٥٦ و ٥٧ |
| ٣٤٠ | الآيات: ٥٨ - ٦٢ |
| ٣٤١ | الآيات: ٦٣ و ٦٤ |
| ٣٤٢ | الآيات: ٦٥ - ٦٨ |
| ٣٤٣ | الآيات: ٦٩ - ٧٦ |

| | |
|-------------|-------------------------|
| · ٣٤٤ | الآية: ٧٧ |
| ٣٤٥ | الآيات: ٧٨ و ٧٩ |
| ٣٤٦ | الآيات: ٨٠ - ٨٦ |
| ٣٤٨ | الآيات: ٨٧ و ٨٨ |
| ٣٤٩ | الآيات: ٨٩ - ٩٢ |
| ٣٥٠ | الآيات: ٩٣ - ٩٥ |
| ٣٥١ | الآيات: ٩٦ - ٩٨ |
| ٣٥٢ | الآيات: ٩٩ و ١٠٠ |
| ٣٥٤ | الآية: ١٠١ |
| ٣٥٧ | الآيات: ١٠٢ - ١٠٤ |
| ٣٥٨ | الآيات: ١٠٥ - ١٠٧ |
| ٣٦١ | الآية: ١٠٨ |
| ٣٦٢ | الآية: ١٠٩ |
| ٣٦٣ | الآية: ١١٠ |
| ٣٦٥ | الآية: ١١١ |

سورة الرعد

| | |
|-----------|-----------------------|
| ٣٦٧ | الآيات: ١ و ٢ |
| ٣٦٩ | الآيات: ٣ و ٤ |
| ٣٧٠ | الآية: ٥ |
| ٣٧١ | الآية: ٦ |
| ٣٧٢ | الآية: ٧ |
| ٣٧٣ | الآيات: ٨ و ٩ |
| ٣٧٤ | الآيات: ١٠ و ١١ |
| ٣٧٨ | الآيات: ١٢ و ١٣ |
| ٣٨٢ | الآية: ١٤ |
| ٣٨٣ | الآيات: ١٥ و ١٦ |

| | |
|-----------|-----------------|
| ٣٨٤ | الآية: ١٧ |
| ٣٨٦ | الآيات: ١٨ و ١٩ |
| ٣٨٧ | الآيات: ٢٠ - ٢٤ |
| ٣٨٩ | الآيات: ٢٥ و ٢٦ |
| ٣٩٠ | الآيات: ٢٧ - ٢٩ |
| ٣٩٥ | الآية: ٣٠ |
| ٣٩٦ | الآية: ٣١ |
| ٣٩٨ | الآيات: ٣٢ و ٣٣ |
| ٣٩٩ | الآيات: ٣٤ و ٣٥ |
| ٤٠١ | الآيات: ٣٦ و ٣٧ |
| ٤٠٢ | الآيات: ٣٨ و ٣٩ |
| ٤٠٥ | الآيات: ٤٠ و ٤١ |
| ٤٠٦ | الآية: ٤٢ |
| ٤٠٧ | الآية: ٤٣ |

سورة إبراهيم

| | |
|-----------|-----------------|
| ٤٠٩ | الآيات: ٣ - ١ |
| ٤١٠ | الآيات: ٤ و ٥ |
| ٤١١ | الآيات: ٦ - ٨ |
| ٤١٢ | الآية: ٩ |
| ٤١٤ | الآيات: ١٠ - ١٢ |
| ٤١٥ | الآيات: ١٣ - ١٧ |
| ٤١٨ | الآيات: ١٨ - ٢٠ |
| ٤١٩ | الآية: ٢١ |
| ٤٢٠ | الآيات: ٢٢ و ٢٣ |
| ٤٢٢ | الآيات: ٢٤ - ٢٦ |
| ٤٢٤ | الآية: ٢٧ |

| | |
|-----|-------------------|
| ٤٣٦ | الآيات: ٢٨ - ٣٠ |
| ٤٣٨ | الآلية: ٣١ |
| ٤٣٩ | الآيات: ٣٢ - ٣٤ |
| ٤٤٠ | الآياتان: ٣٥ و ٣٦ |
| ٤٤١ | الآلية: ٣٧ |
| ٤٤٢ | الآيات: ٣٨ - ٤٣ |
| ٤٤٣ | الآيات: ٤٤ - ٤٦ |
| ٤٤٤ | الآياتان: ٤٧ و ٤٨ |
| ٤٤٧ | الآيات: ٤٩ - ٥١ |
| ٤٤٩ | الآلية: ٥٢ |

سورة الحجر

| | |
|-----|-------------------|
| ٤٥٠ | الآيات: ١ - ٣ |
| ٤٥٢ | الآيات: ٤ - ٩ |
| ٤٥٣ | الآيات: ١٠ - ١٥ |
| ٤٥٤ | الآيات: ١٦ - ٢٠ |
| ٤٥٥ | الآيات: ٢١ - ٢٥ |
| ٤٥٧ | الآياتان: ٢٦ و ٢٧ |
| ٤٥٨ | الآيات: ٢٨ - ٣٣ |
| ٤٥٩ | الآيات: ٣٤ - ٤٤ |
| ٤٦١ | الآيات: ٤٥ - ٥٠ |
| ٤٦٤ | الآيات: ٥١ - ٦٤ |
| ٤٦٥ | الآيات: ٦٥ - ٧٢ |
| ٤٦٦ | الآيات: ٧٣ - ٧٧ |
| ٤٦٧ | الآيات: ٧٨ - ٨٤ |
| ٤٦٨ | الآيات: ٨٥ - ٨٨ |
| ٤٧٠ | الآيات: ٨٩ - ٩٣ |

| | |
|-------------------|-----------------|
| ٤٧٣ | الآيات: ٩٤ - ٩٩ |
| سورة النحل | |
| ٤٧٦ | الآية: ١ |
| ٤٧٧ | الآيات: ٢ - ٤ |
| ٤٧٨ | الآيات: ٤ - ٨ |
| ٤٨٠ | الآية: ٩ |
| ٤٨١ | الآيات: ١٠ و ١١ |
| ٤٨٢ | الآيات: ١٢ - ١٨ |
| ٤٨٤ | الآيات: ١٩ - ٢٣ |
| ٤٨٥ | الآيات: ٢٤ و ٢٥ |
| ٤٨٦ | الآيات: ٢٦ و ٢٧ |
| ٤٨٧ | الآيات: ٢٨ - ٣٢ |
| ٤٨٨ | الآيات: ٣٣ و ٣٤ |
| ٤٨٩ | الآيات: ٣٥ - ٣٧ |
| ٤٩٠ | الآيات: ٣٨ - ٤٠ |
| ٤٩١ | الآيات: ٤١ و ٤٢ |
| ٤٩٢ | الآيات: ٤٣ و ٤٤ |
| ٤٩٣ | الآيات: ٤٥ - ٤٧ |
| ٤٩٤ | الآيات: ٤٨ - ٥٥ |
| ٤٩٥ | الآيات: ٥٦ - ٦٠ |
| ٤٩٦ | الآيات: ٦١ و ٦٢ |
| ٤٩٧ | الآيات: ٦٣ - ٦٥ |
| ٤٩٨ | الآيات: ٦٦ و ٦٧ |
| ٤٩٩ | الآيات: ٦٨ و ٦٩ |
| ٥٠٢ | الآيات: ٧٠ و ٧١ |
| ٥٠٣ | الآية: ٧٢ |

| | |
|---------------|--------------------|
| ٥٠٥ | الآيات: ٧٣ - ٧٦ |
| ٥٠٦ | الآيات: ٧٧ - ٧٩ |
| ٥٠٧ | الآيات: ٨٠ - ٨٣ |
| ٥٠٨ | الآيات: ٨٤ - ٨٨ |
| ٥١٠ | الآلية: ٨٩ |
| ٥١١ | الآلية: ٩٠ |
| ٥١٣ | الآيتان: ٩١ و ٩٢ |
| ٥١٥ | الآيات: ٩٣ - ٩٦ |
| ٥١٦ | الآلية: ٩٧ |
| ٥١٧ | الآيات: ٩٨ - ١٠٢ |
| ٥١٨ | الآلية: ١٠٣ |
| ٥١٩ | الآيات: ١٠٤ - ١٠٩ |
| ٥٢١ | الآيتان: ١١٠ و ١١١ |
| ٥٢٢ | الآيتان: ١١٢ و ١١٣ |
| ٥٢٣ | الآيات: ١١٤ - ١١٧ |
| ٥٢٤ | الآيات: ١١٨ - ١٢٣ |
| ٥٢٥ | الآلية: ١٢٤ |
| ٥٢٦ | الآلية: ١٢٥ |
| ٥٢٧ | الآيات: ١٢٦ - ١٢٨ |

